

أيمن العتوم

أرضُ اللّه

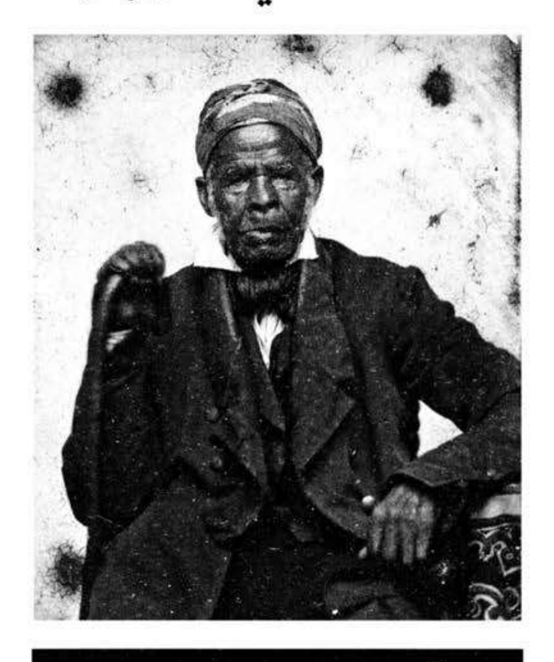
حكاية عمر بن سيّد
٥٧ عامًا في العبوديّة



مكتبة | 649

أرضُ اللّه

حكاية عمر بن سيّد
٥٧ عامًا في العبوديّة



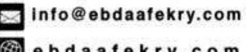
أيمن العتوم


الناشـــر



للنشر والتوزيع - الكويت




info@ebdaafekry.com

ebdaafekry.com



مكتبة | 649

تصميم وإخراج عبدالعزيز عصمت

zezodedo@hotmail.com

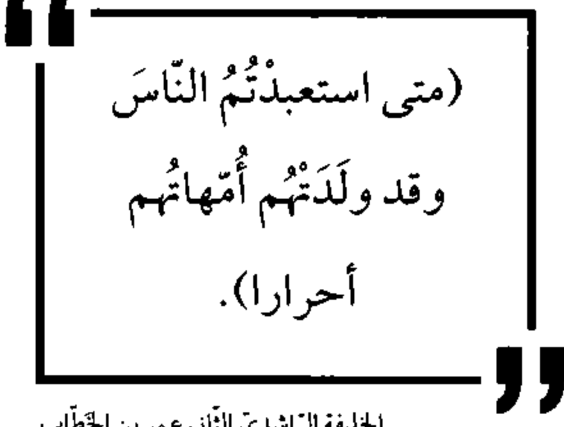


٢٠٢١١٢٢

رقم الإيداع: 2020 / 0439
الرقم المعياري الدولي: 978-9921-714-43-2

الطبعة الأولى - أغسطس 2020

هاتف: 22675321 - فاكس: 22675365
ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت



(متى استعبدْتُمُ النّاسَ وقد ولَدَتْهُم أُمّهاتُهم أحرارا).

الخليفة الرّاشديّ الثّاني عمر بن الخطّاب

كتاب فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)



مكتبة
٤

إهداء

إلى أمّي الحبيبة...

إلى أمّي الّتي ملأتْ قلبي وردًا، وروحي عِطرًا، ورقّقتْ فِيّ ذلك الشّعور بالإنسان؛ بقضاياه العادلة، بحقّه في الحريّة، وبحُبّه مهما كان يختلفُ عنّي...

إلى قلبها الّذي وَسِعَ ما في الكون من أسًى فلمّا مَرّ على قلبها أينع، وما في الكون من قسوةٍ فلمّا مَرّ على قلبِها رَقّ، وما في الكون من ظلام فلمّا مرّ على قلبها أضاء...

إلى أمّي... رَجاء دعوةٍ ينفتح لها باب السّماء، فتصعد، فتستقرّ في ظِلّ العرش، ويكون لها ما بعدَها في الدّنيا والآخرة...

ابنكِ

أيمن..



(٠)

أي بُنيّ

لا أدري إنْ كان سيتمّ هذا الأمر، أم أنّ الله سيقضي بغير ذلك... على أيّة حال، حين يكون هذا المخطوط قد وصل إليك أكون - على الأرجح - قد غادرتُ الدُّنيا، وحينَ تقعُ عيناك على أولى حروفه ستكون عيناي قد وقعتا في الظّلام. وحينَ ينتهي بينَ يديكَ سأكون أنا قد انتهيتُ بين يدي الله. يا إلهي في هذه اللحظة أطلبُ رحمتَك!

لم أكنْ أعرف ما سيجري، المستقبل صفحة في كتابٍ لا يعلمه إلاّ الله، كنتُ ناعِمًا بحياةٍ جميلةٍ في بلادي، أكتبُ هذه الكلمات وقد جاوزتُ التّسعين، ربّما لن أتمكّن من إكمالها، ربّما يُعاجلني القدر بطَرقه بابي الّذي ظلّ يَطرُقه طَوال ستّين عامًا دون أنْ يدخل، كلّ ما أريدُه في هذه اللّحظة هو أنْ أقول لكَ: إنّني أحبّك، وإنّني تمنّيتُ أنْ تكبر بين يدَي... وإنّني حلمتُ لياليَ طويلة وأنا أضمّك إلى صدري، وأتشمّم رائحتك، وأهتفُ باسمك، وأشتري لكَ قميصًا عندما تكبر، وأركضُ أنا وأنتَ في البراري... ربّما واجهتَ حياةً قاسية أصعبَ من الحياة الّتي عشتُها، ولا أدري إنْ كنتَ لا زلتَ حَيًّا، أو حتّى أمّك ما زالتْ على قيدِ الحياة... كلّ الذّكريات الّتي عشتُها هنا في بِلاد الحُزن والخوف والموت ذابحة، كانتْ تقتلني في اليوم عشَرات المرّات. كيفَ

يُمكن تعريف الهلع والذّل والرّعب؟ كيفَ يُمكن وصف وحشيّة الإنسان؟ لو أردتُ أنْ أصف لك لحظة الوقوف بين الموت والحياة تحتَ رحمة بشريٍّ تحوّل إلى شيطان فلن أستطيع ذلك؛ دعني أقلْ لك إنّ هذا فوق طاقتي، وأنّني مهما أوتيتُ من محفوظٍ وقدرةٍ وكلمات فلن أقف على حقيقة المشاهد والأحوال الّتي عشتُها... كانتْ حلمًا... أعني تمنّيتُ لو كانتْ حلمًا. ولكنْ كيفَ يُمكن لستّين عامًا من العذاب أنْ تتحوّل إلى حلمٍ بمجرّد أمنيةٍ ساذجةٍ أو مُستحيلة... إنّني أستيقظُ في كلّ صباح وأنا أتمنّى أنْ تكون النهاية؛ نهاية العذابات، نهاية الظّلم، نهاية الأحزان، نهاية القمع، نهاية العبوديّة، ونهاية البشر الوحوش... بل نهاية الكون، لماذا لم يبعث الله لنا بزلزال أو ببركان أو بطوفان أو بحرائق تلفّ الكون، أو حتّى بطاعونٍ يحصدنا جميعًا كما لو كُنّا زهراتٍ يابسةٍ تحت أقدام جيشٍ من الوحوش، ويسحقنا تحته، الصالحين والطّالحين، ويذهب بالخبيث والطّيّب، ولا بأس، سيأخذ المظلومون حقوقهم هناك، يومَ يقفون بين يدَيه، ألم يقل هو ذلك؟!

لم يكنْ لديّ في البداية هنا أيّ شيءٍ يُمكنني أنْ أخطّ عليه ولو بضع كلمات، ماذا أفعل بهذه السّنوات القاسِيات الّتي مرّتْ عليّ، إنني أريدُ أنْ أتعافَى من ندوبها العميقة، فكّرتُ في الكتابة إليك، وهذا ما فعلتُ؛ أعرفُ أنّ بعضَ تلك الجِراح سوف تبرأ أو تتوقّف الذّكرى عن التّحرّش بها لو أنّني كتبتُ بها إليك، لكنْ أين أكتبُ وكيف؟ لم يكنْ مسموحًا لي ولا لغيري أنْ يحلم بأنْ يحمل قلمًا طَوال سنين سحيقة، عِوضًا عن أنْ يحصل على ورقةٍ أو رَقّ، لكنْ لا بأسَ، لديّ

دائمًا وسيلة للتّغلّب على ذلك، لقد حفرتُ بأظافري على الجُدران تفاصيل حياتي هنا، وأحداثًا كان لا يُمكن تصديقُها لولا أنّني عشتُها بنفسي، كلّما هممتُ بحفرِ سطرٍ جديدٍ على الجُدران وجدتُني دون تخطيطٍ أحفر كلمة: «أحبّك»! هل كان الحبّ وسيلتي للنّجاة؟! أُمُّكَ لم تغبْ عن بالي، كانت كلمة «أحبّك» تتوزّع بينكما، وكانتْ كذلك تتشكّل على هيئة أختي، ظلّتْ أختي نقطةَ ضعفي، أعترفُ بذلك، لو كانتْ لكَ أختٌ وكبرتَ معها ستُدرِك معنى ما أقول؛ الأخت رائحة الشّذى في دُخان الأمكنة، وشجرة الظّلّ في لَهَب الهجير.

بعد أربعين عامًا، صار بإمكاني الحصول على بعضِ الأوراق، كانتْ شحيحةً في البداية، الآن لديّ منها ما يكفي لكي أقول لك كلّ شيء، كل ما أطلبه من الله في هذه اللّحظة، أنْ يُمهلني حتى أكتب لك كلّ ما في بالي.

إنّ الذّكريات الّتي هربتُ منها في الماضي هي الّتي تُطاردني الآن، أسوأ ما في الذّكريات المُرّة أنّها قد تغفو ولكنّها لا تموت، قد تنساها ولكنّها لا تنساك!

ليسَ مهمًّا أنْ أكتبَ كثيرًا هنا، كم مرّةٍ حاولتُ أنْ أركضَ في السُّهوب فوجدتُ قدمَي غائصتين في الطّين، وكم مرّةٍ حاولتُ أنْ أرى قمر السّحاب، فوجدْتني أغرق في الظّلام.

إنّ قُواي لا تُساعدني على أنْ أكتبَ كثيرًا في اليوم، غير أنّني آمل ألا أرحل دون أنْ أكمل كتابة كلّ ما في صدري إليك، إنّه تاريخي،

وتاريخ وطني، وتاريخكَ أنتَ إذا كان الله ما زال يُعطيكَ القدرة على أنْ تمشي في الأدغال، وتنتقل بين الأشجار، وتاريخ أبنائك، وأحفادك من بعدِك... هل يُمكن أن تصل هذه الكلمات إليكَ فتعيدَ نشرَها، أو تعهد بها إلى مَنْ يملكون خطوطًا عربيّة جميلة فيُعيدون نسخها، وتوزيعها على أبناء وطننا، على الغرب الإفريقيّ السّاحر، هل يُمكن أنْ يقرؤوا منها تحت شجرةٍ في فضاءٍ فسيح عند الغروب والشّمس تميل إلى الرّحيل صفحةً أو صفحتَين على مسامع أيٍّ كان ولو كان السّكون أو الفراغ نفسه؟! إنّه الغروب، كان ساحرًا شفيفًا هناك، ولكنّه قاتلٌ غامضٌ هنا... كلّما تذكرتُه بكيتُ، بكيتُ مرّتين، من الشّوق مرّة، ومن الألم مرّة.

هنا غنّيتُ وشدوت، هنا أسيتُ وفرحتُ، وهنا ظللتُ أنظر من نافذةٍ يتيمةٍ إلى عالَمٍ ليس لي، وأنا أؤمّل نفسي بأنّني يومًا ما سأراك أو أرى أمّك، ولا أدري كيفَ أمكنني تخيُّلِ مستحيلٍ كهذا، ولكنّ شدّة التّعلّق تنسج الأوهام، أليسَ في الوهم بعضُ العَزاء؟!

لقد عشتُ حياتي هنا ميّتًا، حتّى إنّني فكّرتُ في أن أضع حدًّا لهذا الحياة البائسة أكثر من مرّة، ولكنّ إيماني كان يظهر فيقطع ذلك الخيط وينُهي المسألة، أصبرُ فأنسى أو أتناسَى، أضربُ صفحًا عن الأفكار السّوداء، ولكنّها تعود للظّهور كصبّار عنيدٍ ينبتُ في صحراء قلبي، إنّ الشّيطان لا ينام.

لن أقول لك إنّني أتذكّر كلّ شيء، فكثيرًا من الّذي حدثَ

نسيتُه، أو أنسانيه طُول العهد، لكنّ الذّاكرة أبقتْ على ما يكفي لأنْ أكتب لك المُجلّدات والكُعوب، ستجدُ بعضَ ما أكتبه غريبًا أو غامِضًا أو غير معقول أو ناقِصًا أو فيه بعضُ الفراغات والاختِلالات، أنتَ - في الحقيقة - مَنْ سيسدّ تلك الفراغات؛ بروحك، ستُكمل ما نَقَص، وتشرح ما كان غامضًا، وتجعل معقولاً ما كان غير معقول... إنّكَ ظلّي، أليسَ الولدُ ظِلّ أبيه؟! إذا كنتَ لا تزال على قيد الحياة، فأُرجّح أنّكَ قد بلغتَ الآن من العمر ما يقرب من السّتين؛ هل لك أبناء وحَفَدة؟! وإذا وصل إليكَ هذا المخطوط - وهذه أمنيتي الوحيدة الأخيرة - فسأكون قد رحلتُ، ماذا تبقّى من العمر في حياة عجوز جاوز التّسعين في كوخٍ بالٍ من القشّ يُحتَضر وحيدًا على فراش الموت؟!

بلادن - كارولينا الشّماليّة

أوائل عام ١٨٦٣م

(١)

عَمّ يتساءَلون

إنّه الظّلام، كثيفٌ حتّى لا أرى يدَيّ، ولا أحسُّ بِهما، مُلقى على الأرض مع عشراتِ آخرين كأنّنا كِلابٌ جرباء، يداي مُقيّدتان بسلسلةٍ طويلة ثقيلة، سمعتُ صوتَها عندما حرّكتُها، محُاولاً أنْ أستجلي الوضع الّذي نحن فيه حرّكتُ رجليّ، فارتطمتا مع الحلقة الّتي تلتفّ عليهما برأسِ رجلٍ آخر، فَهمهمَ مُتألمًا، يبدو أنّني حرّكتُهما بطريقةٍ آذته، أردتُ أنْ أعتذر له، لكنّ الكلمات ذابتْ فوقَ لساني.

لم أدرِ كم عددنا في قَاع هذه السّفينة اللّعينة، رحتُ أستعينُ ببعضِ الآيات الّتي تُساعدني على الصّبر، أسترجعُ السُّور الّتي كنتُ أردّدها مُتنغّمًا وأنا طفلٌ علّمني أقاوم الجزع والخوف من المجهول الّذي ينتظرنا؛ لكنْ بعضُ الخوف أكبر من الكلام، لم ينجح الكلام هذه المرّة في تسكين مخاوفي!

في الرابعة أو الخامسة بعثَ بي أبي إلى الكُتّاب. كُنّا نرتّل خلفَ الشّيخ: «عَمّ يتساءَلون». كانتْ هاتان الكلمتان أوّلَ ما نطقتُ من حروف العربيّة، وأوّل ما ردّدتُ خلفَ الشّيخ. لكنّ أبي قال للشّيخ: «ابدأ معه من (ألم. ذلك الكتاب)؛ فإنّ القرآن مثل الموج، مَنْ سار مع اتّجاه الموج وصل، ومَنْ سار عكسه أو غالَبه غَرِق». أسمعُ نُواحَ امرأةٍ في الزّاوية، وبُكاءَ طفلٍ في حضنها، ونشيجَ آخرَ قريبٍ

منّي، وروائحَ خانقة، وهمهماتِ شبابٍ يبدو أنّهم مُكمّمو الأفواه، وأصواتَ آلامٍ لا يُمكن وصفُها لا أدري عمّنْ تصدر، وإنْ قَدّرتُ أنّها لثكالَى مسكينات... في اليوم التّاسع فكّوا قُيودَنا وأصعدونا من القَبو إلى ظهر السّفينة، قالوا لنا: «عليكم أنْ تستحمّوا؛ إنّ روائحكم النّتِنة لم تعدْ تُطاق. هيّا اخرجوا من هنا». قُمنا كما يقومُ الموتى من قبورهم، أكثرُنا كان يتعثّر ويسقط، فتندّ منه آهة، أو صرخة، فيُعاجِلها صوتُ سوط، وصوتٌ غليظٌ آخر بأنْ نخرس. صعدْنا درجًا خشبيًّا، عددتُها؛ إنّها تسع درجاتٍ ونصف الدّرجة، في الأعلى كان هناك رجلٌ أبيض، يحمل بندقيّة في يَده، وكانت هناك بندقيّتان على كتفَيه، وكان إلى جواره آخَر، يبدو أنّه مُكلَّفٌ بنزع الغِطاء عن عيوننا، عرفتُ ذلك حينَ فعل ذلك معي، حاولتُ أنْ أتفادَى بيدَيّ انْدِياح موجة الضّوء الّتي أغرقتْ عينَيّ، لكنّ يدَيّ كانتا مُقيّدَتين، فخفضتُ رأسي، وأغمضتُ عينَيّ، واحتجتُ إلى أنْ أفتحها وأُغلقها مرّاتٍ عِدّة قبل أنْ تعتادا على ابتلاع تلك الأمواج شيئًا فشيئًا. دفعني من ظهري العاري وهو يصرخ: «اصعدْ أيّها الحشرة... اصعدْ». عانيتُ وأنا أصعدُ الدّرجات، كانت القيود الّتي في رجلَيّ ثقيلة، وكان عليّ أنْ أجرّها جرًّا، وأحتمل بعضَ الثّقل وأنا أسحبُ جسد الرّجل الّذي يَليني. وقفْنا أخيرًا على ظهر تلك السّفينة، كان الهواء هنا لذيذًا ومُنعِشًا مقارنةً مع الهواء الفاسد الّذي كان يقطع أنفاسَنا في القاع، ملأتُ رِئتَيّ منه وشعرتُ بالنّشاط، دفعونا إلى طرف السّفينة الخلفيّ، أرسلتُ طَرْفي جِهة الغرب، إلى حيثُ سواحل السّنغال، لم

نكنْ قد أبحرْنا في هذه الأيّام التّسعة بعدُ، يبدو أنّهم كانوا في مرحلة تجميع أكبر عددٍ مِنّا. كُنّا على جزيرة (غوريه) القريبة من السّاحل الغربيّ، جُزءٌ مؤلِمٌ من بِلادِنا الجميلة. فجأةً رأيتُ أناسًا يركضون على الشّاطِئ، كانوا يلوّحون بأيديهم في الهواء ويقفزون، لا أدري إنْ كانوا سُعداء أم تُعساء؟ بعضُ القَفَزات في الهواء يختلطُ فيها الفرح بالحُزن، والألم بالأمل.. هل كانتْ زوجتي من بينهم؟! يبدو أنّها كذلك، هل رأيتُها بالفعل أم أنّني تخيّلتُ ذلك؟ خفق قلبي بشدّة، قفزتُ، أو حاولتُ أن أفعل، فجذبتْني القيود إلى الأسفل. رأيتُ أشجارًا بعيدة، إنّها تُشبه أشجار (فوتا)، الأشجار الّتي قضيتُ حياتي السّابقة كلّها بين أحضانها، لقد رأيتُني، رأيتُني على الحقيقة هناك، يومَ كنتُ طفلاً، طفلاً سأتمنّى في كلّ لحظةٍ تالية أنّني لم أكنْه، أو لم أكبر، أو أنّني لم أجِئ إلى هذه الحياة أبدًا، أو أنّ نُطفةَ أبي في رَحِم أُمّي شكّلتْ مخلوقًا آخر غيري!

أمام الطّرف الخلفيّ للسّفينة، كانت هناك دلوٌ كبيرةٌ فارغة، في قافلة العبيد الّتي وقفْنا فيها، كان يتقدّمني شابّان أصغر منّي قليلاً، قام الرّجل الأبيض الواقف أمام الدّلو، بفكّ قيود الشّاب الّذي في المقدّمة، نزع في البداية قيودَه عن يديه، ثُمّ فَكّ الحلقة الحديديّة الّتي تضيق على كاحل قدمَيه، ثمّ صرخ به: «اقفز إلى الدّلو أيّها القَذِر».

لم أدرِ لماذا طلبَ منه أنْ يقفزَ فيه، لكنّني كنتُ مشغولاً بالنّظر إلى تلك الأشجار البعيدة، ثُمّ رحتُ أغوصُ في الذّكرى، أغوصُ في تلك الأشجار، غصتُ عميقًا، وفي تلك الأدغال رأيتُني.

(٢)

أجدادُكَ كانوا يَلبسون مِثلَهما

يولَد الإنسان حُرًّا، ثُمّ يأتي أخوه الآخَر - لسبب لا تُدركه حتّى الآلهة - فيجعله عبدًا، ويسحقه تحت أقدامه سحقًا! يُولَد الإنسان بريئًا ثُمّ تُحوّله السّلطة إلى مُجرم، ويولَد مُتسامحًا ثُمّ يحوّله السّوط الّذي يملكه في يده إلى طاغية. تحوّلات الإنسان تدعو إلى الدّهشة؛ كيفَ يُخبّئ هذا الطفل البريء كلّ هذه الوحوش في داخله؟ مَنْ يستطيع أنْ يتنبّأ بأنّ هذا الحَمَل الوديع يكمُنُ خلفَ وجهِه اللّطيف ألفُ ذِئبٍ مُفترس؟ وبأنّ هذه البراءة لم تكنْ إلاّ قِناعًا سوف تتكفّل سواقي الزّمن بنزعه، فتظهر تحته الوجوه المُرعبة كلّما دارتْ تلك السّواقي دورتَها مع الأيّام!

نحن نعيشُ على النّهر، النّهر الصّغير المُتفرّع عن النّهر الكبير. النّهر صديقُنا، قضينا معه كلّ سنواتنا الرّائعة. إنّه يجري في قريتنا كما يجري الدّم في عروقنا، لا حياةَ خلفَ النّهر، لا حياة دون النّهر، ولكنّني سأكتشف في المستقبل أنّ له وجهًا قبيحًا، ولا أدري إنْ كان هذا هو وجهه الحقيقيّ، أم أنّ الإنسان - على عادته - هو الّذي ألبسه وجهَه القبيح!

هذا التّاريخ الّذي أحكيه لكم، قد يبدو لكم أنّه تاريخي، لكنّه ليس كذلك بالمعنى الحرفيّ، إنّه تاريخ شعبٍ ووطن ونهر، إنّه

يتكرّر، أعني تتكرّر حكاياه، فالتّاريخ الّذي ذهب لن يعود إلاّ في الحكايا، كان على الشّعب أنْ يحمل السّلاح، وكان على الوطن أنْ يحمل حاملي السّلاح، وكان على النّهر أنْ يُغرقهما معًا، ولا ينجو إلاّ صانعو الحكايات، إنّهم ذاكرة أوطانهم، وأنا؟ أحد صانعي هذه الحكايات!

صحوتُ من عالَمِ الغيب إلى عالَمِ الشّهادة وأنا في الرّابعة. بدأتُ التّذكّر في هذه السّن. لو أنّكم شهدتُم ما شهدتُه لعرفتُم كم كان عالَمِي ساحِرًا ومُدهِشًا! كنتُ أنام أيّامَ الصّفو في بَسطة البيت الشّماليّة، الجهة الّتي تُقابل المدخل الرّئيسيّ في الطّرف البعيد من البيت، كانتْ غرفتي خلفَ البسطة تمامًا، لم يكنْ الأولاد في قريتنا ينام الواحد منهم في غرفةٍ تُخصّص له وحده؛ عددٌ كبيرٌ ينامُ في الغرفة الواحدة؛ كانوا مُعوزين، أمّا أبي فكان بمقدوره أنْ يُخصّص لي عشر غرفٍ إذا أردتُ، وأختي كذلك. كان يُحبّها، ربّما أكثر منّي، كانت أميرتَه المُدلّلة، كان اسمُها (آمنة)، وكان يُدلّلها (ميمي)، وكانتْ تكبرني بثلاثة أعوام، ولم يكنْ أحدٌ من الأبناء يتقاسَم البيتَ الفسيح سِوانا. أمّي اسمُها (سُخنا أستو) الّتي كانت تعني بالعربيّة (عائشة)، وكانتْ ترعَى أمور البيت، وتحنو علينا أنا وأختي كأنّها تخاف من شيءٍ ما؛ عندما وُلِدت أختي آمنة ذهبتْ أُمّي إلى الإمام في قريتنا، وطلبتْ منه أنْ يصنع لها (حِرزًا)، لم تكنْ وحدها من نساء القرية مَنْ تفعل ذلك، كثيراتٌ كُنّ يزُرن الإمام في صومعته الّتي تلتصقُ بالمسجد، ويطلبْن منه مثل هذا الحِرز. كان الإمام يكتب فيه بعض آيات القرآن، من سورة الملك أو من آية الكرسيّ أو المعوّذات، وتُلفّ الآيات في ظَرفٍ جلديّ

بُنّي اللّون، بحجم قبضة الطّفل الصّغيرة، ويُثبّت بخيط على خصر الأطفال تحت الثّياب، ويظلّ ذلك (الحِرز) أو (التّميمة) أو (الحِجاب) على خصر الطّفل لا يُنزَع عنه إلاّ عند الاستِحمام حتّى يكبر الطّفل ويجوز الرّابعة عشرة من عمره، فحينئذٍ يُنزَع، ويكون الطفل حينئذٍ قد صار في عمرٍ يسمح له بأنْ يُدافع عن نفسه! كان أبي يمنعها من ذلك، ويقول: لا يحمي إلاّ الله. وكانت تتوسّل أحيانًا إليه أنْ تضعه لآمنة إذا لم يقبل أنْ يضعه لي، فالصّغيرات ضعيفات، ولا بُدّ من شيءٍ يحميهنّ من الوحوش والهوام وكلّ ما يزحف على الأرض مِمّا يؤذي. ولكنّه كان يتوسّل هو الآخر لها، ويقول: إنّني أحبّها أكثر مِمّا تُحبّينها، وأخاف عليها بقدْر ما تخافين أنتِ عليها، ولكنّ ذلك كلّه خزعبلات، إنّه إذا نزل قضاء الله فلن يحميها حرز، وإذا أراد الله بالإنسان أمرًا فلن يدفعه عنه حِجاب ولا تميمة، ولكنْ يدفعه حُسن الظّنّ بالله والدّعاء. وكانتْ تهزّ رأسَها أحيانًا لتبدو أمامه أنّها اقتنعتْ، فإذا غابَ أبي عن ناظرَيها، وَضَعَتْه لها في غفلةٍ منه.

كانتْ أُمّي تُبالغ في الخوف علينا، وسمعتُ أبي يقول لها ذلك أكثر من مرّة: «إنّ هذا الحرص لن يصنع من آمنة امرأةً قادرةً على إدارة شؤون بيتها وزوجها وأطفالها في المستقبل، ولن يصنع من عمر رجلاً شُجاعًا ولا قويًّا». وكثيرًا ما كنتُ أراها في طفولتي تبكي دون أنْ أدري لماذا، وكانتْ تمسح دموعها بطرف كُمّها، محاولةً إخفاءَها عنّي أو عن أُختي، ولم أكنْ في تلك السّنّ أملك القدرة على سؤالها: لماذا تبكين يا أمّي؟ فكنتُ أكتفي بالجلوس إلى جانِبها صامتًا، وأحيانًا

أضـع رأسي عـلى صدرهـا، فتُمـرّر يدَهـا فـوق شَـعري المُجعّـد، وهـي تُجاهـدُ في إيقـافِ دموعهـا، الّتـي يسـقطُ بعضُهـا فـوقَ خـدّي فأحـسّ بهـا سـخينةً حارّة. لماذا كانـتْ تبكـي أمّـي؟! ظلّ هـذا السّـؤال مُعلّقًـا طَـوال حَيـاتي؟!

لقـد قَدِمـتُ إلى الدُّنيـا في منتصـف ثـورة الشّـيخ (سـليمان بـال)، حـينَ خرجـتُ مـن رحـم أمّـي إلى رحـم الدّنيـا عـام ١٧٧٠م، كان قـد مضـتْ خمسـةُ أعـوامٍ عـلى قيـام تلـك الثّـورة الّتـي تُطالـب بإعـادة حُكـم الأئمّـة، وحـينَ صرتُ في السّـادسـة من عمري كان قـد استتبّ لـه الأمـر، وأسّـس دولـة الأئمّـة، وتـوالَى عـلى حُكمِهـا كثيرون.

خلـفَ البسـطة بمسـافةٍ قليلـةٍ تُقطَـع مشـيًا عـلى الأقـدام يجـري هـذا النّهـر الصّغـير؛ المُنفتِـل عـن نهرنـا الكبـير الّـذي يُشـكّل حـدود بلادنـا مـن الشّـمال، كان هـذا النّهـر الصّغـير يجـري فِيّ قبـل أنْ يجـري في قريتنـا، إنّـه النّهـر الّـذي عشـتُ أيّامـه كـما لـو كان من أنهـار الجنّـة. النّهـر وادع، عَرضُـه لا يزيـد عـن مسـافة أربعـة قـوارب أو خمسـة، يجـري بهـدوء كأنّـه فِضّـة سـائلة، إلاّ في المنعرجـات فيجـري مُسرعًـا، أو حـينَ تعـترض انسـكابَه صخـرةٌ هنـا أو هنـاك، فيثـور، ينطـح الصّخـرة برأسـه، ويرتفـع عاليًـا بمقـدار ارتفـاع شراع مركـبٍ صغـير، ويـدور خلفهـا بسرعـة، ثُـمّ يعـود إلى طبيعتـه بعـد أنْ يتجـاوز الصّخـرة، يمـشي بهـدوء واعتِـدال وثِقـة، كأنّـه أنهـى مهمّـة مـا، أو كأنّـه ينفـضُ عـن سـاقَيه الـرّذاذ، ويسـتريح مـن بعـدِ تَعَـب. مـن هنـا في اللّيـل أسـتطيع أنْ أميّـز الأصـوات، وأرى الهِـلال

وجذوع الأشجار العالية الّتي تقف بيني وبينه، كأنّها تريدُ أنْ تُلوّن بالسّواد صفحته، وأشاهدُ السّحب الّتي تعبر صفحة السّماء.

كان لدينا سَماء عالية ومُسالِمة، فكان لدينا حُلم. كان لديّ أخت، فكان لديّ رأفة. كان لديّ أمّ فكان لديّ رحمة، كان لديّ أبٌ فكان لديّ أمان. نعم؛ كان لديّ الحُلم والرأفة والرّحمة والأمان، وماذا أريدُ أكثرَ من ذلك؟!

اللّيالي في الصّيف حارّة، لكنّها على النّهر تلين، ولليالي آهات، وحكايات، وأسمار، وأقدار، وتراتيل، وأسرار، وبَوح، وغِناء، وبُكاء. كانتْ آهة اللّيل موسيقاي، أُناغِمُها كما لو كانتْ قصيدة لعنترة، أو مقطوعةً لأبي العتاهية، فيما بعد في الكُتّاب عرفتُ هذين الشّاعرَين، وعرفتُ آخَرين، أمّا لماذا أذكرهما هنا دون سِواهما، فلأنّ عنترة كان يُشبه جلودنا السّوداء، وأبو العتاهية يشبه أرواحَنا الصّافية. وشِبه الشّيء مُنجذبٌ إليه.

آلاف المرّات صحوتُ قبل طلوع الشّمس، كنتُ أنام قبل أنْ يمدّ اللّيل كامل جناحَيه جاثِمًا فوق البيوت والبشر، وأصحو قبل أنْ يطير، كانت ساعات الفجر هي ساعاتي المُفضّلة، على مدار ثماني سنوات، هي السّنوات الّتي بدأتُ أعرف فيها معنى الشّروق وأنا في الرّابعة حتّى الثّانية عشرة قبل ذهابي إلى (تُوبا) وغيابي الطّويل عن أهلي.... أقول على مدار هذه السّنوات الثّماني لم أُفوّت مرّة واحدة شروق الشّمس، باستثناء شهرَين عكفتُ فيهما على

نفسي في البيت لا أخرج من باب غرفتي أيّام الفاجعة الّتي حلّتْ بأبي وأمّي!

ولقد كنتُ أجلسُ مع الفجر في ساعاته الأولى، أزحزِح معه عباءة اللّيل عن وجه الشّمس، وأشهدُ مع الله قدومها من الشرق القصيّ، كانتْ تصعد وأنا أصعدُ معها كأنّما وُلِدنا بعد موت، وجِئنا بعد طول غِياب، وكنتُ أشعر بسعادة تجتاح كِياني كُلّه لا أملك لها اليوم تفسيرًا... وحتّى بعد أنْ صِرتُ في (تُوبا) الّتي أقيمتْ من أجل أرواحنا وطقوسنا وعلومنا الدّينيّة فإنّني لم أكنْ لأغفل عن هذا الكنز الثّمين، حتى وإنْ اضطرّتْني بعضُ الصّلوات إلى أنْ أظلّ ساهرًا إلى منتصف اللّيل.

في البسطة الّتي هي بمساحة غرفتي، تَشكّلَ عالَمي، النّهر من هنا يظهر بوضوح، من هنا تبدو قوراب الصّيّادين الصّغيرة، وهم يدفعونها من الضّفة إلى عُمق النّهر، من أجل أنْ يلتقطوا أرزاقهم من أفواه السّمك الجائع. وفي البسطة سجّادة الصّلاة الّتي عوّدني أبي أنْ أصلّي فوقَها صلوات النّوافل، أمّا صلوات الجماعة فكانتْ غالبًا ما تتمّ في مسجد قريتنا القديم، ومسبحة فيها تسعٌ وتسعون حبّة من الخرز الخشبيّ، رافقتْني فيما بعد، وجُبّةٍ مثل تلك الّتي يلبسُها أبي، وعِمامة، ولم يكنْ أبي يسمح لي أنْ أصلّي دونهما. وكان يقول: «أجدادُك الّذين جلبوا النّور معهم من مكّة، كانوا يلبسون مثلهما». ويضحك ضحكة خفيفةً تنمّ عن دهشةٍ وإعجاب، وهو يراني أضع العِمامة فوقَ رأسي ولم أتجاوز الخامسة، ويُردِف: «غدًا تكبر، وتُصبح إمامًا

للمُسلمين»، وتزداد ضحكته، ويتابع: «ومَنْ يدري فقد تُصبح قائدًا يُحرِّ هذه البلاد من الاستعمار والعبوديّة». وكانتْ أُمّي تنظر إلينا من بعيد، وهي تُخفي دمعة يتيمة تحاول ألاّ تسقط من طرفِ عينَيها.

كان أبي من طبقة (سبلبي)، الطّبقة الّتي تتّخذ مساكنها على ضفاف النهر أو فروعه، وهي طبقةٌ غنيّة، وكانتْ تعتاش - في أحد أسباب عيشِها - من صيد الأسماك، وكان النّاس الّذين يأتون للصّيد في المناطق المُتاخمة لبيتنا يدفعون لأبي (الكُبّل)، وهي الضّريبة الّتي تساوي ما يقرب من العُشر من غَلّتهم لِقاء صيدهم في حوضِنا الغنيّ بالأسماك، خاصّة في أوقات الفَيَضان. وكان الصّيّادون يعرفونني، ويهتمّون بي، ويُعطونني بعضَ الخبز أحيانًا والحلوى تقديرًا لأبي!

كان بيتُنا مُفعمًا بالحَياة، كان يزورنا كثيرٌ من العُلماء أصدقاء أبي، وكان يزوره أعيان القرية، وأعيانٌ قادِمون من مدنٍ شتّى، وكان يزروه أصحاب الطّريقة، وأهل الصُّفّة، كما كان يُسمّيهم، وكانوا ينتظمون في حلقةٍ واحدةٍ في السّاحة الّتي تفصل بيننا وبين النّهر عن يمين بسطتي، وكانتْ (نانا) عاملة المنزل تضيء لهم السّاحة بالمشاعل والقناديل المرتكزة على أعمدة خشبيّة، تنصبها على أطراف السّاحة، وكنتُ أدور معها، وأنا أعدّ تلك القناديل، حتّى إذا بلغنا العدد (١٢) نكون قد أكملنا الدّائرة. وتنظّف لهم الأرض، وتفرشُها أحيانًا بالسّجّاد، وتُعدّ لهم الطّعام، والشّراب، كان أبي يذبح لهم عِجلاً قبل مجيئهم بيوم، وتبدأ (نانا) بشيّه منذ الصّباح، وكان أبي يوزّع ما تبقّى منه على الفقراء في القرية، وكانوا كثيرين، كثيرين جدًّا.

كنتُ أشاركهم تلك الاجتماعات، ولم يكنْ من الأولاد أحدٌ سِواي يشهد ذلك المشهد المهيب، كانوا يتلون آيات الله، من مصاحف مخطوطة في رقوقٍ كَتَبها خَطّاطون مُتمرّسون، وكان أبي يحتفظُ في بيتنا بأربعِ نُسخ من القرآن في البداية، وعنما كبرتُ قليلاً طلبَ أبي من بعضِ هؤلاء الخَطّاطين أنْ يكتبوا له المُصحَف، وكان يُثيبُهم على ذلك، وطلبَ منهم بعدَ ذلك أنْ يخطّوا له كُتُبًا أحضرها من موريتانيا. ثُمّ وجدتُ أبي في زمنٍ تالٍ يبني غرفةً لهذه المخطوطات، ويُولَع بتجميعها.

كان ضيوفُ أبي ينحنون بأصلابهم على آيات الله في الرّقوق، يمدّون بها أصواتَهم، ويُفسّرونها، ويشرحون بالعربيّة معانيها ودلالاتها، وكانوا يقولون إنّ دولة الأئمّة قد قامتْ بفضل الله، وبفضل المُجاهدين والعُلماء، وإنّ علينا أنْ نجعل هَمّنا نشر الفضيلة والأخلاق الّتي يدعو إليها الدّين، وأنْ ينعم النّاس بعدالة الإسلام في السّنغال وغينيا ومالي وكلّ أفريقيا لا زمنًا واحدًا فحسب، بل يكون ذلك منهاج حياة، لقد كانوا يقولون: «إنّ الوثنيّة نِتاج الجهل، وإنّ العِلمَ طريقُ الإيمان». ومن أجل ذلك كانتْ دولة الأئمّة تُولي العلماء اهتمامًا كبيرًا، وتُنزلهم منزلةً رفيعة يكاد يتساوى فيها العالِمُ مع الحاكم.

كانتْ لهم أورادٌ، بعد أنْ يهبطَ اللّيل، وكانتْ لهم أناشيد، وكلماتٌ حفظتُ أكثرها وأنا أتلوها بين أيديهم دون أنْ أفهمَ معانيها، فلمّا كبرتُ ما زادني الفهم بها درجةً عمّا اختططتُه لنفسي في الحياة؛

فلقد كانت نَزعة الجَمال الّتي في العربيّة وشِعرها وموسيقاها قد تمكنّت منّي أيّ تمكُّن.

ولقد سمعتُهم في إحدى المرّات يتناقشون في اسم (فوتا تور) إنّ فوتا هو اسم واحدٍ من حَفَدةِ نوح، وإنّ (تور) هي (طُور) بالعربيّة، قالوا كلامًا كثيرًا، وظلّوا يتناقَشون طَوال اللّيل، ونعستُ، وتركتُهم يتجادَلون وذهبتُ للنّوم.



(٣)

وافاكُمْ بفتًى أضناهُ ما لاقَى

في شَهر آذار من كلّ عامٍ كان أبي يدعو ثلاثةَ خطّاطين نُسّاخًا، يأتون من أماكن بعيدةٍ، وقُرى قصيّة، يَمكثون عندنا أربعة أشهر، يجلسون في غرفة الضّيوف، غرفة فسيحة، نوافذها كبيرة، وتقع جهة الشّرق في البيت، إلى يسار الدّاخل من الباب الرّئيسيّ، وهي شبه معزولة عن بقيّة الغُرف، كانوا ينامون هناك، ويُجري أبي عليهم الطّعام والشّراب، وكان يومَ رحيلهم وإتمام مَهمّتهم يُخصّص لهم مُخصّصات من الذّهب والفِضّة، وبعض الأطعمة كالتّمر والسّمن والأقِط. ورأيتُه مرّة يُقبّل يد أحدهم، ولقد أكبرتُ ذلك في نفسي.

كان على الأوّل - وهو الّذي رأيتُ أبي يُقبّل يده - أنْ ينسخ القرآن. والثّاني أنْ ينسخ ألفيّةَ ابن مالك مع شرح ابن عقيلٍ لها، والثّالث المعلّقات وأرجوزة أبي العتاهية.

أمّا الأوّل فكان ينسخ نسخةً واحدةً من القرآن، وإذا لم يمرض في أيّ يومٍ، فكان يُمكن أنْ ينسخ بعضَ أجزائه بعدَ ذلك، وكان أبي يَستبقيه شهرًا آخرَ إذا أراد أنْ يُكمل النّسخة الأخرى ويُمنّيه بمزيدٍ من الذّهب والفِضّة. وأمّا الثّاني فكان ينسخ ثلاث نسخٍ أو أربعًا من ألفيّة ابن مالك مع شرحها، وأمّا الثّالث فكان ينسخ من المعلّقات والأرجوزة ما يقرب من ثماني نُسخ.

وكان أبي يتركني أجلسُ معهم وأراقبهم وهم يكتبون الحرف العربيّ الجميل وأتعلّم منهم، ولمّا جاؤوا في العام الثّاني طلبَ أبي من أحدهم أنْ يُخصّص لي ساعةً في اليوم من أجل أنْ أتعلّم حروف العربيّة، وأتدرّب على الخطّ مثلهم، وكنتُ حينَها لم أبلغ السّادسة، ومع أنّني تعلّمتُ حروف العربيّة بسرعة، وحفظتُ كثيرًا من القرآن بسهولة، إلاّ أنّ الخطّاط المُوكّل بتعليمي الخطّ تعب كثيرًا معي، ووصل إلى درجة اليأس، ولم يكنْ يمنعه من أنْ يتخلّى عنّي وعن تعليمي، ويرمي دواة الحبر والقَصَبة بعيدًا إلاّ بريق الذّهب الّذي لم يكنْ أحدٌ يصمدُ أمامَه أبدًا. وكان أبي سخِيًا جدًّا معهم، يُلاطفهم، ويُمازحهم، ويوفّر لهم أسباب الرّاحة، ويجلس بعد أنْ يُنهوا ساعات العمل معهم، يُسامرهم في اللّيل، ولربّما أنشدَ معهم مقاطع من الألفيّة أو من الأرجوزة أو تَلَوا شيئًا من القرآن وجوّدوه، وكان إلى ذلك يمنحهم كلّ خميس فرصة الاستِحمام في النّهر، وصيد السّمك بلا مقابل، ويَشوي معهم ما صادوا في تلك اللّيلة ويأكل، ويُحدّثهم أو يُحدّثونه عن أهل الكرامات، وأعجبتْني إحدى الحكايات قالَها أبي لهم وهم على النّهر فحفظتُها: «مررتُ يومًا على شاطِئ الفُرات، فَعَرَضَتْ لنفسي شَهوة السّمكِ الطّريّ، فإذا الماء قد قذف بسمكةٍ نحوي، وإذا رجلٌ يَعدو ويقول: أشويها لك؟ فقلتُ: نعم. فشواها، فقعدتُ فأكلتُها». وكانوا يبتسمون ويستمرّون في النّظر إلى الشّباك، وكنتُ أنا أتخيّل سربًا من الأسماك يقفز في الهواء أمام أعيننا، وهو يضحك ويقول: «أشوي نفسي لك؟». ثُمّ يرجع إلى الماء ويُفلت من الشّبكة!

ولربّما أتى أبي بفرقةٍ في آخر خميسٍ من كلّ شهرٍ يُغنّون أغاني بالعربيّة أحيانًا وباللّهجة المحلّية أحيانًا أخرى، ولقد حفظتُ من أغانيهم:

لا سَكّنَ اللهُ قلبًا عنّ ذِكرَكُمُ

فلمْ يَطِرْ بِجناحِ الشّوقِ خَفّاقا

لو شاءَ حَمْلي نَسيمُ الصُّبحِ حينَ سَرَى

وافاكُمُ بفتًى أضناه ما لاقى

وكان أحدهم اسمه (حسن)، وكان حسنَ الصّوت، وكان يمدّ اللّحن، ويلوّنه، ويرفعه، ويخفضه، في تطريبٍ شديدٍ يتمايل له الجسد، وأنا منه في عجبٍ، وكان إذا أتى على آخر البيت في قوله: «وافاكُمُ بفتًى أضناه ما لاقى» خِلتُ أنّه يبكي لا يُغنّي. ولقد كنتُ أسترق النّظر إلى وجهه فأرى الدّموع تنسابُ على خدّيه!

ولقد سمعتُ أبي يقول لأحدهم ذات مرّة لو استطعتَ أنْ تنسخ تفسير القرطبيّ للقرآن فسأُعطيكَ وزنه ذهبًا، ورأيتُ عينَي الخطّاط يومَها تبرقان. وتابعَ أبي: «يُمكنكَ أنْ تبدأ به في بلادك، طَوال ما تبقّى من العام بعد رحيلك من هنا، فإذا عُدتَ في شهر آذار من العام القادم أكملتَه هنا في بيتي».

فإذا حَلّ على النُّسّاخ في بعضِ الأعوام رمضانُ وهم في ضيافتنا فإنّ أبي ينتظر حتّى ليلة السّابع والعشرين من رمضان فيجمع

العُلماء والشّيوخ والأئمّة وأصحاب الأصوات في ساحة البيت الّتي تفصل بينه وبين النّهر، ذاتِها الّتي اعتادَ على لِقاء أصحابه من علماء (فوتا تور) فيها، وكان الشّيوخ يَعِظون، والعُلماء يُفسّرون، والأئمّة يُصلّون بِنا، وأمّا أصحاب الأصوات فكانوا أكثر ما يُميلون القلبَ إليهم، وكانوا في تلك اللّيلة يتخصّصون في تجويد الحروف المُقطّعة في أوائل السّور، وكانوا يقضون الجزء الأخير من اللّيل في ذلك، وكانوا إذا وضعوا المدود في الحروف أتَوا بألحانٍ مختلفة تكاد تذوب لها القلوب رِقّة وعذوبة، كان أحدهم يمطل صوتَه: «ألِف لَ ااااا مْ مْ مْ مْ مِ ي ي ي ي ي مْ»، فيردّ عليه صوتٌ آخر: «ذلك الكتاب». ثُمّ يعود الأوّل، فيأتي باللّحن السّاحر ثانية: «ألِف لَ ااااا مْ مْ مْ مْ مِ ي ي ي ي مْ»، فيردّ عليه صوتٌ آخر يأخذُ بالألباب: «الله لا إلهَ إلاّ هو الحيّ القيّوم». ولقد كانوا يمرّون على ذلك كلّه من أوّل القرآن في الحروف المُقطّعة حتّى يصلوا إلى الوِرد العاشر منها في سورة مريم، وكنتُ أشعر بأنّ الملائكة قد نزلتْ من السّماء لتسمع إليهم، وأنّ السّكينة قد حلّتْ في كلّ عينٍ ومادّةٍ وروح!

وكانتْ أختي تُشاركني هذه الطّقوس السّاحرة، وكان أبي يسمح لها في البداية أنْ تُخالِطنا، فلمّا كبرتْ قليلاً، أذكر ذلك في العام الثّاني أو الثّالث، طلبَ أبي منها ألاّ تُجالِسنا، ولكنّ ذلك لم يمنعها من أنْ تُديمَ السّمع باستِراقه من خلفِ الأبواب، وكانتْ تقول لو كنتُ صبيًّا لاستطعتُ أنْ أتعلّم الخطّ العربيّ الجميل كما تتعلّمه. ورأيتُ حُزنًا في كلماتها، فلمّا صار الغد، أتيتُ أبي فقلتُ له: «لقد تعلّمتُ من

الخطّاطين قدرًا لا بأسَ به من العِلم، وإنّ آمنة تريدُ أنْ تتعلّم مثلما أتعلّم». فيبتسم أبي: «ولكنّها كبرتْ ولا يجوز أنْ تُخالط الرّجال». «كم عمرها يا أبي؟». «إنّها تقترب من تسع سنين». «أنا أعلّمها إذًا». «كيف؟». «اشترِ لي دواة حبرٍ وقَصَبة ورقوقًا، وأنا أعلّمها ما تعلّمْته من شيوخ الخطّ؛ ساعةً في الصّباح قبل موعد ساعتي معهم». وما عَتَم أبي من ذلك اليوم حتّى بعثَ أحدَ الخدم، وقال له: «لا أريدُ أنْ يطلع الصّبح عليّ، إلاّ وعندي دواتا حِبرٍ وقَصَبتان وعشرون رَقًّا». وجهّز له أسرعَ رواحلنا. وقبّلتُ يدَ أبي، وكانتْ أختي تسترق السّمع من خلف الجدار، فهُرِعتْ إلينا، وقبّلتْ يدَ أبي، ثُمّ احتضنتْني طويلاً، ورأيتُها تبكي، وبكيتُ معها.

(٤)

أقدارُنا في صفحة الغَيب مَكتوبة

بيتُنا أكبر بيتٍ في القرية، أبي ورثه عن جَدّي، وأضافَ إليه مناماتٍ ومعاشات. يتكوّن بيتُنا من سبع غرفٍ، كانت البيوت الّتي حولَنا أكواخًا مبنيّة من القشّ، بيتُنا كان مبنيًّا من الحجر، وكان مسقوفًا بخشب (الوِن) الأسود، سقالات من جذوع غليظة تمتدّ في السّقف بين الحجر والطّين، وكثيرًا ما رأيتُ طيورًا - لعلوّ الأسقف -تطير من سقالةٍ إلى أخرى في حركةٍ جذلى دائبة، فإذا تعبتْ خرجتْ من النّافذة إلى النّهر أو إلى الأشجار القريبة.

في مدخل البيت ثلاثة أقواس تقوم على عُمُدٍ حجريّة لونُها زهريّ فاتح، كأنّ جدّي ورثها عن الرّومان. القوسان اللّذان عن اليمين وعن الشّمال يُفضيان إلى البسطة الأماميّة، كانتْ صغيرةٍ، ولم نكن نستخدمها، القوس الّذي في المنتصف يُفضي إلى بهوٍ واسعٍ وعالي السّقف، تتوزّع الغرف عن يمينه وعن شِماله، غرفة أبي وأمّي هي الغرفة الّتي عن يمين البهو، وقد كانت مثل بقيّة الغرف عالية السّقف، لكنّها تتميّز بدرجٍ عن يسار بابها يُفضي إلى العُلّيّة، وهي غرفةٌ صغيرةٌ مبنيّة داخل غرفتهما بشكلٍ نصفيّ، كان أبي يغيب في داخلها ساعاتٍ طويلة، لا ندري ما يصنع هناك. وكان يُخبّئ فيها - كما سمعتُه ذات مرّة يهمس لأمّي - تذكارات أجداده؛ وقال لها: «إنّ

فيها بندقيّة ليستْ موجودة في إفريقيا كلّها، وسيوفًا ورماحًا وأقواسًا وخناجر كان أجدادي يقاتلون بها البرتغاليّين ومستعمرين آخرين، وبعض القبائل من القُرى والبلدان المجاورة». وكان يقول لأمّي: «يجب أنْ يدرّب الأئمّةُ أبناءَنا على القِتالْ إذا ما واجهَنا خَطرٌ ما. إنّ (سليمان بال) أصبح حُلُمَ شباب هذا الجيل». وكانتْ أمّي تتشاءم من أحاديث أبي، وخاصّة عندما يقول لها: «إنّ عمر وبقيّة أولاد القرية عليهم أنْ يُصبِحوا مُجاهدين، وإنّ عليهم أنْ يقاتلوا أعداءَنا بالسّير إليهم لا انتظارهم حتّى يأتونا فيغزونا في عُقر دارنا».

كان في بيتنا مطبخٌ داخليّ، تُعدّ فيه خادمتنا الوفيّة (نانا) الطّعام لنا، ومطبخٌ خارجيّ في السّاحة الّتي تفصل بيننا وبين النّهر، تُعِدّ فيه (نانا) الطّعام لضيوف أبي، وكانت أرضيّات الغرف مكسوّة بالبُسُط الفاخرة الجميلة، ذات النّقوش البديعة، وكانتْ نوافذنا واسعة وعالية، وتتدلّى أمامها ستائر ثمينة من الجوخ.

لم نكنْ معزولين - مع حالة الغِنى الّتي نتمتّع بها - عن النّاس. كان بيتنا يضجّ بالحياة، العُلماء الّذي يزرونا، أمسيات رمضان، دعوات أبي للمشايخ، النُّسّاخ الّذين يمكثون شهورًا، والفقراء الّذين كانوا في رمضان وقتَ الإفطار أكثر من النّمل، كان أبي يُطعم في اللّيلة الواحدة أكثر من مئتي فقير، وفي ليلة العيد لم يكنْ يخرج من باب بيتنا أحدٌ إلاّ ومعه كسوة العيد!!

وكانتْ هناك غرفة للمخطوطات الّتي أولِعَ بها أبي منذ أنْ

كان شابًّا، المخطوطات كانت تتربّع بدلالٍ على أرففٍ خشبيّة مُثبّتة في الحائط الطّينيّ الدّاخليّ، لا يُمكنني أنْ أحصر كلّ ما فيها، لم يكنْ ذلك هدفًا من أهدافي في الحقيقة، كلّ ما سعيتُ له بعد أنْ تعلّمتُ العربيّة بشكلٍ جيّد، وقطعتُ شوطًا لا بأسَ به في تعلّم الخطّ أنْ أقرأها، أنْ أطّلع على محتوياتها، أنْ أسهر معها بعضَ اللّيالي، أنْ أستمتع ولو بالنّظر إليها، بل إنّ علاقةً من نوعٍ خاصّ نشأتْ بيني وبين هذه المخطوطات، فكنتُ أمدّ يدي مثل عاشقٍ إلى واحدةٍ منها، فأحضُنها طويلاً، قبل أنْ أرفعها إلى شفتَيّ وأُقبّلها، ثُمّ أروح أستنشق رائحة ورقها، كان لورق المخطوطات رائحةٌ مميّزة، رائحة الأخشاب العتيقة المُنداة ببلل النّهر في الأمسيات العليلة، ورائحة ثياب أبي، لم أكنْ أدري مَنْ أعار الآخَر رائحته؛ الورق لكثرة ما جلس في طيّات ثيابه، أمْ أبي لكثرة ما نام وفوق ساعده شيءٌ منه!!

كانت المخطوطات عالَمي المسحور والغامض، سعيتُ منذ سنواتِ الأولى إلى اكتشاف مجاهله، والسّير في دروبه ومنعرجاته، كنتُ أقرّبها منّي ثُمّ أحضنها من جديدٍ وأُغمضُ عينيّ، فتّى يحلم بأنْ يكون أحدَ الّذين يكتبون مثلها. كان جلوسي في غرفة المخطوطات يستغرق النّهار بأكمله في بعض الأيّام، وكان أبي يعرفُ ذلك، وأرى في عينَيه نظرة الرّضا. وكنتُ أدعوَ (آمنة) فنقرأ أنا وهي من مخطوطاتٍ شتّى، ولربّما استوقفتْنا مخطوطةٌ من كتابٍ لابن بطوطة يصف زيارته لبلادنا في بعضها، وقد قرأناها أنا وهي أكثر من مئة مرّة حتّى حفظناها عن ظهر قلب، وكُنّا نردّد ونحن نمشي في أبهاء البيت معًا:

«فمن أفعالهم الحَسَنة قِلّةُ الظُّلم؛ فهم أبعدُ النّاس عنه، وسُلطانهم لا يُسامح أحدًا في شيءٍ منه، ومنها شُمول الأمن في بلاده، فلا يخاف المُسافر فيها ولا المُقيم من سارقٍ ولا غاصب. ومنها عدم تعرّضهم لمال مَنْ يموت ببلادهم من البِيضان، ولو كان القناطير المُقنطرة، إنّما يتركونه بيد ثقةٍ من البِيضان، حتّى يأخذه مُستحقُّه، ومنها مواظبتهم على الصّلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضَرْبهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة، ولم يُبكّر الإنسان إلى المسجد، لم يجدْ أين يُصلّي لكثرة الزّحام. ومن عادتهم أنْ يبعثَ كُلّ إنسانٍ غُلامَه بسِجّادته، فيبسطها له بموضعٍ يستحقّه، حتّى يذهب إلى المسجد. وسجّاداتهم من سَعَفٍ يُشبه النّخل، ولا ثَمر له. ومنها لِباسُهم الثّياب البِيض الحِسان يوم الجمعة، ولو لم يكنْ لأحدهم إلاّ قميصٌ خَلَق غَسَلَه ونظّفه وشَهِدَ به الجُمْعة. ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقّهم التّقصيرُ في حِفظه، فلا تُفكّ عنهم حتّى يحفظوه. ولقد دخلتُ على القاضي يومَ العيد، وأولادُه مُقيّدون، فقلتُ: ألا تُسرّحهم؟ فقال: لا أفعل حتّى يحفظوا القرآن. ومررتُ يومًا بشابٍ حَسَنِ الصّورة، عليه ثِيابٌ فاخرة، وفي رِجله قيدٌ ثقيل. فقلتُ لمن كان معي: ما فعلَ هذا؟ أقَتل؟ ففَهِم عن الشّابّ وضَحِكَ وقيل لي: إنّما قُيّد حتّى يحفظ القرآن». وسألنا أبي أنا وآمنة: هل ستُقيّدنا حتّى نحفظَ القرآن؟ وضحك، وشعرتُ أنّه يضحك ضحكة ذلك الشّابّ الوسيم، وقبّلنا، ونظر في عيوننا وقال: أنتما لا تحتاجان إلى القيد، إنّكما تحفظان القرآن أكثرَ منّي. وأرادتْ آمنة

أنْ تستحوذ على قلبِ أبي، فبدأتْ تقرأ: «كهيعص». ومدّت الحروف، ونغّمتها، فخلتُ أنّني أستمع إلى الأئمّة في تلك اللّيلة وهم يتنغّمون ويتنعّمون.

حظيتْ غرفة المكتبة الّتي تضمّ المخطوطات بعناية أبي أكثر من سِواها، وكانتْ لها آداب، وكان أبي يعلّمنا تلك الآداب أنا وآمنة: «لا تدخلا إليها إلا وأنتما مُتوضّئان، لا تُمسِكا بالكتاب إلاّ بكلتا يدَيكما كما تُمسك الأمُّ الرّضيعَ بين يدَيها، قَبّلا أيّ كتابٍ قبل أنْ تشرعا بالقراءة منه أو حتّى بالنّظر فيه، اُتْلُوا الآيات الخمس الأولى من سورة الرّحمن :»الرّحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان. الشّمس والقمر بِحُسبان». قبل أنْ تشرعا بقراءة الصّفحة الأولى أو الرّقّ الأوّل من أيّ كتاب. إذا جلستُما على الأرض لتقرآ من أيّ كتاب فاجلسا جلوسَكما للصّلاة في التّشهّد الأخير، ولا تُقرفِصا ولا تتربّعا ولا تتمدّدا، ولا تجلسا إلى الكرسيّ. أقبِلا على الكتاب بقلوبكما، واخشعا في حضرته كما تخشعان في صلاتكما، واستحضرا رهبة العلم وهيبته كما تستحضران خالقهما. احرِصا على ألا تضعا الكتاب على الأرض، ولا أنْ يسقط من بين أيديكما، وإذا كان ثقيلاً، فأنا أُمسكه لكما وأعرضه عليكما حتّى تُتِمّا ما أردتما منه ثُمّ أُعيده إلى رَفّه سالِمًا. الكتب الثقيلة هي كتب الفقه، وهي كبيرةٌ عليكما الآن، فأجّلاها حتّى تقوى سواعدكما. ابدَآ بالقرآن، فإنْ أخذتم وِردكم منه، فبكتب اللّغة والأشعار، فإنْ أخذتما وِردكما منه فبكتب الرّحلات، فإنْ أخذتُما وردكما منه فبكتب الأدب والأسمار، فإن قويتْ سواعدكا، وكبرتْ أعمارُكما، وازداد مع الوقتِ

نصيبَكما من العِلم، فعرّجا حينئذٍ على كتب الفقه والتّفسير. فإذا أخذتم قِسطكم من الكتاب الّذي بين أيديكم فقبّلوه مرّة أخرى، وأجْلِسوه في رُفّه عزيزًا مُكرّمًا، فإنّ الله عظّم الكتاب فقال: «ذلك الكتاب».

وكان في الغرفة مكتبٌ بُنّي غامقٌ أنيق، قال أبي إنّه كان لأبيه، وإنّ نجّارًا ماهرًا صنعه له من خشب (الوِن). كان المكتب غايةً وآيةً في الجمال، يلمع لونُه الّذي يميل إلى السّواد، مصقول، أرجله الأربع تنبعج في ثُلثِها الأعلى انبعاجةً كبيرةً، ثُمّ انبعاجةٌ أصغر منها في ثلثها الأسفل، عليها نقوشُ أفاعٍ وأوراقُ أشجارٍ. كان سطح المكتب كبيرًا، يكفي لأنْ يتمدّد أبي بطوله فوقه، وكان سطحُه كذلك لامعًا مصقولاً، وعن يمينه دُرجان، وعن يساره درجان، وفي وسطه درجٌ واحدٌ. وكانت الأدراج تحوي أدوات الكتابة، وبعض القَصَبات الّتي احتفظَ بها أبي عن أجداده، أو تلك الّتي اشتراها من الخطّاطين الّذين نَسَخوا القرآن عبر سنواتٍ طويلة. وفي بعضِها رسائل كتبها أجدادُه إلى ملوك زمانهم ينصحونهم بالعدل بين الرّعيّة، وفي بعضِها تهنئات بمواليد أو أعيادٍ أو مناسبات زواج، وكانتْ هذه الرّسائل تستقرّ في حافظةٍ جلديّة كبيرةٍ، وقد خيطت بعناية، ووضعتْ في الدّرج الثّاني من أدراج الجهة اليُمنى.

لقد حفظتُ تفاصيل هذه المكتبة، كنتُ أقضي أنا وآمنة فيها كثيرًا من الوقت، وكُنّا لا يُكلّم بعضُنا بعضًا ونحن فيها، كما أمرنا أبونا، فإنّنا كُنّا في صلاة، والكلام واللّغة والثّرثرة تُبطِل الصّلاة

كما تعلّمنا، ولذلك كانتْ تحلّ علينا ساعاتٌ من السّكينة والوقار، وتبجيل العلم والخطّ الّذي تمرّ فوقه أعينُنا، لا يعرف مدى لذّته في نفوسنا أحدٌ. وكنّا إذا أردْنا - أنا وآمنة - أنْ نتناقشَ في موضوعٍ قرآناه، فإنّ ذلك عادةً ما يتمّ بعدَ خروجنا من المكتبة، وجلوسنا في البسطة الّتي أمام غرفتي، وغالبًا بحضور أبوَينا.

كانتْ جدران المكتبة مَطليّة بالبَياض. بخلاف جدران غرفنا الأخرى المطليّة باللون الأحمر الفاتح، بياضُها ناصع، وكان أبي يحرص على أنْ يظلّ ذلك البياض ناصِعًا دائمًا. وكانت الكتب الّتي في الرّفوف تحتلّ ثلاث واجهاتٍ منها، وترتفع إلى أعلى أكثر من طول أبي بضعفَين، ولذلك كان هناك سُلّم يصعده أبي ليتناول بعضَ تلك الكتب الّتي لا تصل إليها يده، وغالبًا ما كانتْ تلك الكتب الأقدم تاريخًا، وبعضُها من الكتب الّتي منها نسخٌ أخرى عندنا. أمّا الواجهة الّتي خلفه تمامًا، فكانتْ تضمّ في منتصفها في الرّف الثّاني من الأعلى نُسخَ القرآن، وكانتْ في البداية ثلاثَ نُسَخ، وظلّ أبي يجمع تلك النّسخ، ويطلبُ من الخطّاطين المزيد منها، حتّى امتلأ الرّف الثّاني والثّالث والرّابع على طول الواجهة الخلفيّة بنسخ القرآن، وصار عددها (١١٤) نسخة.

على مكتب الخشب الأنيق، اختار أبي في مرحلةٍ متأخّرة أنْ يزيد في أناقته، فصار يضع دواة حبرٍ لا تجفّ عن يمينه، وفيها تستقرّ ريشةُ نعامٍ مبتلّة السّاق دائمًا، ويضع على يساره الرّقوق الخالية المُهيّئة للكتابة، وكانت صفراء فاتحة، تميل إلى لون الخشب المبروش، وكان

أبي يحرص دائمًا ألاّ تقلّ عن عشرة. وكان يبعثُ أحدَ خدمه، فيأتيه بها من بلادٍ بعيدةٍ عن قريتنا في الشّمال، خلفَ النّهر، يقطع على خيله إحدى القناطر، ويعود بعد يومٍ أو بعضَ يومٍ بها. وفي مرحلةٍ تالية كتبْنا أنا وآمنة عليهما كثيرًا من الآيات، وخططْنا فوقها كثيرًا من الأشعار، ومع أنّ تلك الرّقوق كانتْ نادرة، وباهظة الثّمن، ولا يحلم طفلان في مثل سِنّنا أنْ يحصلا على بعضها، إلاّ أنّ أبي لم يبخلْ علينا بها، وكنتُ أرى الفرحة في عيونه، ونحن نخطّ فوقَها ما شاءتْ لنا الأقدار أنْ نخطّ، وكانتْ أقدارُنا في صفحة الغيب مكتوبة، ولكننا كُنّا لا نعرفُ عنها شيئًا، لا أنا ولا آمنة، ولا أبي، ولا أمّي!

(٥)

إنّه يقول كلامًا ساحرًا ولكنّك لا ترِيد أنْ تُصغي!

كانتْ إسطبلاتُنا تقع على مبعدةٍ من البيت، واختار لها أبي النّهاية الأبعد من السّاحة الّتي تفصل بيننا وبين النّهر، حتّى ننجو من الرّوائح الّتي تكون مزعجةً أحيانًا، وخاصّة في الصّيف. كان في إسطبلات أبي خيولٌ بيضاء وسوداء وشقراء، وكان عددها سبعة، اثنان بيض، وثلاثة سود، وشقراوان. وكانت الخيل في بلادنا كلّها نادرة عوضًا عن أنْ تكون كذلك في قريتنا، ورفعت الخيول أبي إلى مكانةٍ عالية، ولم أدر أنّ الخيل تزيدُ في قَدْر الإنسان إلاّ عندما سمعتُ النّاس ينادون أبي بفارس الخيول السّبعة. ولم أدرِ مكانة الخيل في نفسِ أبي، إلاّ عندما رأيتُه أنا وآمنة - ذات مرّةٍ - يرفع حافرَ فرسٍ بيضاء ويقبّله، وأعظمتُ ذلك، وشعرتُ برجفة في العين، وبرعشة في الأعضاء، فإنّني لم أرَ أبي يُقبّل أمّي حتّى أراه في تلك اللّحظة مُكبًّا على حافر الخيل يُقبّله، ولو قبّل عنقها لكان ذلك أهون عندي، أمّا حافرها فإنّ ذلك أورثني شعورًا غريبًا، ولم يكنْ مستساغًا ولا حسنًا يومئذٍ، ولا أدري إنْ كان شعوري هذا سيتبدّل في قابل الأيّام!

نعم كان أبي يحبّ الخيلَ جِدًّا، وكان له ثلاثةُ أصدقاء، يزورونه كما ذكرتُ كلّ خميسٍ، فإذا أقبلوا قبل غروب الشّمس، وافَوه عند الإسطبلات، واختار كلّ واحدٍ منهم خيلَه، وركبوها،

وطافَتْ بهم في أنحاء القرية، وإذا كان الجوّ لطيفًا من الشّهور الأولى في السّنة، فإنّهم كانوا يذهبون إلى الأطراف القصّيّة، ويُمعنون في السّير حتّى تطويهم المراحل، وتبتلعهم الكُثبان والغيضات، وكنتُ أراقبهم، ويهولني منظر أبي بثوبه الأبيض الطّويل، وعِمامته البيضاء، وبشرته الّتي تلمع على أشعّة الشّمس الخفيفة، والخيل تتهادَى به من تحته يمنةً ويسرةً على إيقاع مشيها الوئيد، فإذا شَدّ أبي بساقَيه على بطنها، وهمزها في خاصرتها أسرعتْ، وعندها يحني أبي جِذعه فيصير مائلاً كعنقها وهي تطير به كالرّيح، وتسبح به كالشّهب، وكان أبي يبدو لي آنئذٍ فارِسًا قادمًا من عصور الصّحابة، من عصر عقبة، وخالد، والغافقيّ، وكانتْ أنفاسي تتصاعَدُ وأنا أُتابعه بنظري، ويعلو صدري ويهبطُ كأنّني أنا الّذي أركبُ الخيلَ لا هو، وتظلّ عيناي مشدودتَين إليه، مشدوهتَين، تُلاحقانه حتّى تبتلعه الأرض، وحينَ يغيبُ أبي عن ناظري كنت أشعر أنّني فقدتُه، وأشعر بفراغٍ في القلب، وتصعدُ دمعةٌ من أعماقي تتهدّى طريقها للانذِراف من عيني، ولكنّني كنتُ أمسحها قبل أنْ تفوز بالسّقوط، وأعود وأنا لا أشعر بأختي إلى جانبي تُتابعه كما أفعل وزيادة.

لستُ أدري كيفَ ورثتْ أختي آمنة حُبّ الخيل عنه. أختي آمنة كانت جميلة، جميلةً جِدًّا. بشرتُها السّوداء ناعمة ومصقولة، كان لها عينان واسِعتان شديدتا السّواد، وكان البياض الّذي حولَهما مخلوطٌ بِصُفرة وعُسلة، وكانت تطرفُ إذا نَظَرتْ، وترمش كلّما حرّكتْ رأسَها لتنظر إلى مُحدّثها، وكان لَها خَدّان ممتلِئان ناضِجان، وكثيرًا

ما كان أبي يقرصهما وهو يلهو معها، وكانتْ تضحك، ولضحكتها سِحرٌ آخَر؛ فلقد كانت الشّفتان الغليظتان قليلاً تفترّان عن صفٍّ من اللّئالِئِ البيضاء شديدة البياض، كأنّها درّ صافٍ، لا يُخالطُ بياضَها النّاصع أيّ شائبة، وكان صَفَا الأسنان ذلك يُضيئان حتّى في النّهار ويلمعان، وكانت لها جبهة دائريّة، بارزة، وعالية، وكان شعرها جَعدًا، لكنّه طويل، وأمّي كانتْ تضفره لها في ضفائر متعدّدة، وكان هناك بعضُ السّواد الغامق تحت عينَيها، في التّجويف الّذي يلي أسفل الجفن، وكانتْ كثيرًا ما تبدو صامتةً وساهمة، ولم تكنْ كثيرة الحركة، ولا عالية الصّوت، ولم تكنْ تتذمّر من أيّ شيءٍ بخلافي، وكانتْ أطول منّي بإصبع، وبشرتُها أفتحُ من بشرتي، فأنا كنتُ ليلاً حالك السّواد أسحم، وكانتْ تلبسُ في جيدها عقدًا من أحجار كريمة، كلّها بيضاء باستثناء الحجر الّذي في الوسط متدلّيًا على صدرها فكان أخضر شفيفًا، وكانتْ تلبس في أذنها قُرطًا من الماس كلّما حرّكت رأسَها الحركة المعهودة طرفتْ ولمع القرط على ضوء الشّمس كأنّه شمسٌ أخرى نزلتْ من عرشِها لتتدلّى على كتفها. وكانتْ تلبسُ في معصمها الأيمن سوارًا من الذّهب. وأمّا ثِيابها فكانتْ نلبسُ ثوبًا أزرق ينسدل حتّى ركبتَيها، وتلبسُ تحته بنطالاً من نفسِ القماش واللّون. وكانتْ له نقوشٌ وتطريزاتٌ ذهبيّةٌ عند الكاحلَين. وكان أبي يشتري لنا نِعالاً من الجلد، مصنوعةً لنا بوجهٍ خاصّ.

وكانتْ أمّي تُحنّي أصابِعها دائمًا، وتفعل ذلك معي أحيانًا. وكانتْ أصابعها بعد فترةٍ من الزمن يختلطُ فيها اللّون السواد عند

البنان مع حمرة الحنّاء مع بياض الإظفر إذا طال قليلاً. وكانتْ أصابعها رقيقةٌ، وكثيرًا ما كانتْ تحرّكها في الهواء إذا ما أرادتْ أنْ تستظهر محفوظها من القرآن، وتعلّقهما في الهواء أمام عينَيها الواسعتَين العميقتَين، وأسرحُ أنا فيهما كلّما فعلتْ ذلك، فإذا استعادتْ ما نسيتْ أعادتْ أصابعَها إلى مكانها مفرودتَين فوق صدرها في ذراعيَن معقوفتَين، فقد كُنّا حينَ نُسمّع آيات القرآن، نعقد أيدينا فوق صدورنا كما لو كُنّا في صلاة!

عشنا طفولتَنا معًا، أعني السّنوات الأولى من طفولتنا، كُنّا نركضُ في السّاحة الّتي تفصل بين بيتنا والنّهر، تسابقنا فيها آلاف المرّات، وَعَثَرْنا في عَدْوِنا فيها مئات المرّات، وسقطْنا ونهضْنا، وصرخنا، وصمتْنا، وجلسْنا تحت أشجارها وأنشدْنا الأشعار، وتمنّينا أماني مشتركة، وحلمنا أحلامًا واحدةً، كانتْ تقول لي: «إذا تزوّجتُ في المستقبل، فأريده أنْ يكون شابًّا يحفظ القرآن مثلك». وكنتُ أقول لها: «إذا تقدّمتُ لخطبة فتاة فلن أتقدّم لفتاةٍ لا تملك عينَين واسعتَين مثل عينَيكِ». وكُنّا نضحك.

كانت السّاحة مُحاطةً على أطرافها بأكثر من خمسين نخلةً، كانت أشجار النّخل في قريتنا كثيرة، وسمعتُ أبي يقول مرّة: «إنّ قريةً فيها نخيلٌ لن تجوع». ولم يكنْ أهل القرية يجوعون كما قال أبي، كان هناك فقراء؛ نعم، ولكنْ لم يكنْ هناكَ جائِعون، لقد كان يكفي الإنسان ثلاث تمراتٍ في اليوم لتسدّ رمقه. وكان عندنا نهر، وكان عندنا سمكٌ كثيرٌ. ولم يكنْ شبح الجوع يزورنا كما يزور القُرى الأخرى.

وكثيرًا ما كنتُ أجلسُ إلى جذع نخلةٍ عاليةٍ، تمدّ عذوقَها في السّماء كأنّها تريدُ أنْ تناطح السّحب، كانت هذه النّخلة أقرب نخلات ساحة بيتنا إلى النّهر، من هناك كنتُ أعقد رجليَّ على صدري وأنا أنظر إلى النّهر، لا أفعل شيئًا ذا بال،؛ فقط أراقبُ جَرَيانه، وأصغي إلى صوتِ الطّيور الّتي تطير بين الأشجار الحادبة عليه، وأنظر إلى العصافير الّتي تهبطُ على حَصاه، وتنقر نقراتٍ خاطفةً لتشرب من مائها، ثُمّ ترفع عنقها إلى السّماء كأنّها تشكر الواهب وتطير من جديد.

في بعضِ خَلَواتي تلك، كنتُ أسمع صوتَ أمّي، وهي تُنادي عليّ بصوتٍ عالٍ من داخل البيت، وكانت تغضبُ إذا ما أبطأتُ في الأجابة، وكنتُ أتعلّل بأنّني لم أسمعها، ولكنّها كانت تنظر إليّ بطرف عينِها كأنّها تريدُ تقول لي: «لا تَعُد إلى الكذب». وأطرقُ أنا في الأرضِ خَجِلاً، وتتابع: «لا تقتربْ من النّهر وأنتَ وحدك، ولا تجلس دون أنْ يكون أبوك معك». ونظرتُ إليها مستفسِرًا، فأردفتْ: «إنّ التماسيح في هذا الوقت تجوب النّهر، وإنّني أعرفُها منذ أنْ كنتُ في سِنّك، وإنّها تغدر بالإنسان من حيثُ لا يدري، وتأتيه من مأمنه». وتسكتُ أُمّي فجأة، ثُمّ تسأل وهي تُضيّق عينَيها بغضب: «أين أُختك؟».

في وسط القرية، يقع المسجد، مسجدٌ وحيدٌ، لم يكنْ في قريتنا سِواه. وكُنّا نسمع صوتَ المُؤذّن آتيًا منه مرّة واحدةً في اليوم أومرّتَين، كان ذلك على صلاة العشاء أو صلاة الفجر. وكُنّا نتعمّد أنا وآمنة، أنْ نستيقظ في الثلث الأخيرمن اللّيل، كان وقتًا مثاليًّا لكي يُسمَع

أحدُنا للآخر ما عليه من محفوظٍ، كانتْ تأتي من غرفتها، وتوافيني عند البسطة الّتي أمام غرفتي، نجلسُ على الأرض، ونبدأ على ضوء السّراج المعلّق على عمود في وسط البسطة نستظهر آياتنا، فإذا أتممناها في بضع ساعة، قُمنا إلى النّهر خِفافًا، نمشي برقّةٍ كأنّ أقدامَنا لا تمسّ الأرض، ولربّما شعرنا بتسامٍ في أرواحنا جعل أجسادَنا خفيفةً شفيفةً تطير بدل أنْ تسير كأنّنا ملائكة، فإذا وصلْنا إلى النّهر في خِفّتنا تلك، جلسْنا على حافّته، صامتَين نصغي إلى السّكون، ونرهف السّمع إلى هدوء اللّيل، في تلك السّاعة يكون كلّ شيءٍ قد سكنَ ونام وأوى إلى فراشه أو مبيته، الحيوانات والطّيور والهوامّ والزواحف والبشر، وحده كان يجري ليقول إنّه الحياة، كان خريرُه موسيقى، وهديره لحنًا، وسَيْره إيقاعًا... كان يقول أشياءَ كثيرةً، وكُنّا نبقَى صامتَين، نُشبع أرواحنا الهائمة، ونفوسنا التّائقة من ذلك السّحر، ومرّة سألتْني: «هل تعرف ما يقول النّهر؟». فأقول: «إنّه يُسبّح». فتردّ: «إنّه يقول كلامًا ساحرًا ولكنّك لا تُريد أنْ تُصغي».

(٦)

لأجلِ عينَيكِ الجميلتَين؛ سامحتُكِ

كان أبي يملك إلى جانب الخيول، زرائبَ فيها عددٌ من الشّياه والأبقار والأغنام، وحظائر للدّيوك والدّجاج. وكانتْ تقع إلى جانب الإسطبلات، وعليها خدمٌ يرعَون شؤونها، وكان يُخرج زكاة أمواله إلى دولةِ الأئمّة، وكان يؤدّيها إلى الإمام (عبد القادر كن)، عن طريقِ ممثّلٍ له في القرية. ورأيتُ أبي مرّة يسوقُ إلى ممثّل الإمام عشرَ شِياه، وسمعته يقول: «خمسٌ للزّكاة، وخمسٌ للصّدقة، وزّعوها على الفقراء». وكان أبي يحظَى بمحبّة الجميع له، ولقد فُطِر النّاس منذ النّشأة على حبّ الجواد، وتقدير ذي الإحسان.

حينَ صرتُ في السّابعة سمح أبي لي بركوب الخيل، كانت أختي تركب الخيل قبلي، كانتْ فارسةً ماهرة، ومع أنّ جسدها كان ضئيلاً، لكنّها كانتْ تُتقن السّيطرة على الخيل، وكانت تحبّ الخيل مثل أبي، ولم أكنْ أنا كذلك، كان منظر المخطوطات والكتب في مكتبة أبي يستهويني أكثر. علّمتني أختي آمنة ركوبَ الخيل، كانت الخيول تنقاد لها وتحرن معي، وكانتْ قادرةً على تهدئة أيّة فرسٍ جَموح، ولا أدري ما السّر الّذي بينها وبين تلك الخيول، بصافرة من فمها الزّنبقيّ كانتْ تدعو الخيل، وبصافرة أخرى كانتْ تصرفها، وبإشارة من أصابعها في حركةٍ نصف دائريّة كانت الخيل تدور نصف دورةٍ من أجل أنْ تكون جاهزةً

للرّكوب، وكنتُ أحسّ أنّ الخيل كانتْ تُطامن من علوّها قليلاً من أجل أنْ تُسهّل على أختي ركوبها، وكانتْ تضع رجلها في الرِّكاب، وتقفز برشاقةٍ فإذا هي في أقلّ من لمح البصر قد استوتْ فوق ظهرها، مُتّزنة، ثابتة، كأنها لم تأتِ بحركةٍ بهلوانيّة قبل قليل، وكانتْ تحتاج إلى حركتَين خفيفتَين أُخرَيَين لتطير بها الخيل وتغيب عن ناظري في لحظات: نظرةٍ مُستقيمة إلى الأفق، وجذبةٍ بكلتا كَفّيها الصّغيرتَين للّجام.

قالتْ لي: «افهمْ روحَ الخيل يا أخي. للخيل روح مثل البشر. وكُنْ رقيقًا معه رفيقًا به، فللخيل شعور مثل الإنسان. الخيل تتألم. الخيل تبكي. والخيل تضحك كذلك». وأشارتْ إلى عينَي أحد الخيول الّتي كُنّا نقف أمامها، وقالت: «انظر إلى عينَيه، انظر إلى هذا الكَحَل، انظر إلى هذا السّواد، وانظر إلى هذه الحمرة في ذلك البياض الّذي يحيط بالبؤبؤ، ألا يُشبه عيوننا؟ أليسَ مثلنا؟!». ورأيتُ الخيل كأنّها سمعتْ ما قالتْ أختي، فهزتْ رأسَها بشكل عموديّ، وصهلتْ صهيلاً خفيفًا، وقالت: «بلى». وغمرتْني الدّهشة، وأردتُ أنْ أضحك، فوجدتُ الضّحكة اختنقتْ في صدري. ونظرتْ إليّ آمنة بعينَين حازمَتَين، كأنّها شعرتْ بما يجول بخاطري، انظر إلى عينَيه مرّة أخرى: «ألا ترى. أليسَ لك عيونٌ لترى؟ إنّها تشبُه عيوننا». وصدّقتُ هذه المرّة بالرّهبة الّتي رأيتُها في عين الخيل الّتي خلتُها ترمقني من زاوية مُوقها، وقد جحظتْ فصارتْ مرعبة.

وأراد أبي أن يأتي بسائسٍ كيْ يُدرّبني على ركوب الخيل. وفرحتُ لذلك، لكنّ أختي اعترضتْ وقالتْ لأبي: «أنا أدرّبه. لن

يكـون السّـائس أمهـر منّـي، ولا أحـرصَ منّـي عـلى أخـي. أنـا سـأفعل».
وضحـك أبي، وقـال لهـا: «لقـد كـبرتِ حَقًّـا». وهكـذا خضعـتُ لتدريبـاتٍ
شـاقّة لسـاعاتٍ طويلـةٍ مـن النّهـار.

كان لركـوب الخيـل عنـد أختـي آمنـة آداب، كانـت تقـول لي:
«لا تركـب الخيـل وأنـتَ شـبعان، ولا وأنـتَ جائـع. ثلـثُ البطـن خـير.
وأحسـن أوقـات التّدريـب هـي الضّحـى. وإذا أردتَ أنْ تركـبَ الخيـل
فانظـر في عينَيهـا أوّلاً، وألـقِ عليهـا التّحيّـة، ثُـمّ امسـح عـلى عنقهـا، ثُـمّ
كُـنْ لطيفًـا، فإنّـكَ إنْ جرحـتَ الخيـل ولـو بالكلمـةِ حزنـتْ، وغـاصَ
حُزنهـا في روحِهـا كـما تغـوص السّـكّين في الزّبـد. يـا أخـي مـا ضرّنـا لـو
جعلْنـا الخيـل لنـا خليـلاً».

وكان خلـفَ الإسـطبلات مِضـمارٌ واسـعٌ، تـرابيّ، لكـنّ عـددًا
مـن النخـلات يقسـمه إلى ثلاثـة أجزاء، كُنّـا نتـدرّب فيـه، وكان أبي قـد
وهـب جـزءًا منـه لدولـة الأئمّـة، يدرّبـون فيـه مُقاتليهـم عـلى الفروسـيّة.
ولكـنّ مضمارنـا نحـن أبنـاء (سـيّد الفـوقيّ) كان لا يقـتربُ منـه لا فـارسٌ
ولا فـرس، كان مُخصّصًـا لنـا وحدنـا.

عكفـتْ أختـي الرّبيـعَ كلّـه تدرّبنـي عـلى ركـوب الخيـل. ودخلْنـا
الصّيـف، فأخذنـا منـه حَظّنـا. ثُـمّ قـال أبي، إنّـه سـيعمل في المضـمار مهرجانًـا
لسـباق الخيـول، واتّصـل بالشّـيخ (عبـد القـادر كـن)، ولصلتـه القويّـة بـه،
وافـق عـلى أنْ يبعـث لنـا بمئـة فـارسٍ مـع خيولهـم البُلـق لكـي يقومـوا
باسـتعراضٍ للفروسـيّة في المضـمار. تجمّـع أهـل القريـة كلّهـم، وأتـى عـددٌ

كبيرٌ من القرى المجاورة والبعيدة، وكان الاتّفاق على أنْ يكون يوم الفروسيّة أوّل أيّام عيد الأضحى بعد الصّلاة والخُطبة.

ولقد كان يومًا مهيبًا، وكان استعراضًا لم تشهد (فوتا تور) مثله، وعشتُ من بعدِ ذلك عقودًا لم أشهدْ مثله، كان استعراضًا حقيقيًّا، وتمثيلاً قريبًا لِما يحدث في معارك المجاهد (سليمان بال) الّذي قهر عملاء الاستعمار الفرنسيّ. ولقد كان صِياح الفرسان عاليًا، وحمحمات خيولهم تصكّ الآذان، ونَقْع حوافر الخيول يحجب الرّؤية، وكان الشّرر يتطاير من ارتطام السّيوف بالسّيوف، وانزلاق الرّماح على التّروس، وكان أبي إلى جانبي، يقول لي: «عندما تكبر، سيكون عليك أنْ تحمل السّيف في قِرابه، وأنْ تضع العمامة على رأسِك». ثُمّ رأيتُه يصمت قليلاً ويتنهدّ قبل أنْ يُتابع: «هل تعرف ما معنى أنْ تحمل السّيف وأنْ تضع العِمامة». ويسكتُ ثانية، ليجيب بنفسِه عن سؤاله: «معناه أنْ تكون مجاهِدًا وعالِمًا. إنّ السّيف دون علمٍ بطشٌ، وإنّ العلم دون سيفٍ هباء». وحضرتْ أختي ذلك المهرجان معنا، وكان أهل القرية قد أنزلونا في موضع عالٍ شاهدْنا من خلاله كلّ شيء، ورأيتُ فرحًا لا يُوصَف في عينِ أختي، وتعجّبتُ أنْ تعشق الفروسية وهي أُنثى، وسألْتُها: «إذا كبرتِ فهل ستقاتلين الاستعمار الفرنسيّ مثل الرّجال؟». وشعرتُ بنبرة استهزاءٍ أو استخفافٍ في سؤالي، فنظرتْ إليّ نظرتَها الحازمة، وشدّت على أسنانِها قبل أنْ تقول: «بالطّبع، وسنرى مَنْ مِنّا سيقضي على هذا الاستِعمار وعملائه».

وكانـتْ وقتَهـا في العـاشرة، وشـعرتُ أنهـا قالـتْ كلامًـا كبـيرًا، كبـيرًا جِـدًّا، وأنّهـا هـي أيضًـا كبيرة، وتخيّلتُهـا أكـبر مـن أمّـي.

يومَهـا رأينـا صيحـات الفرسـان الجريحـة، وتكبيراتهـم الهـادرة، ووصلـتْ إلى أنفاسـنا روائـح الشّرر، ولسـع الآهـات، ورأينـا دمـاء تفـور، وأخـرى تسـيل. ولم يمـتْ أحـدٌ؛ كان كلّ ذلـك تدريبًـا!

وبعـد أنْ ارتفعـتِ الشّـمس، وصـارتْ حاميـة. توقّـف المهرجان، وأخـذ الفرسـان اسـتراحةً، وحينَهـا أمـر أبي خَدَمـه، فأخرجوا من الزّرائب ثـلاث بقراتٍ وعـشر شِـياه، وأمـر بذبحهـا، وإطعـام الفقـراء والحاضرين، ويومَهـا لم يبـقَ فقيرٌ ولا جائـعٌ في (فوتـا تـور) إلاّ أكل حتّـى شبع.

وعـدتُ إلى البيـت وقـد شـعرتُ أنّنـي كـبرتُ أنـا الآخَـر أعوامًـا كثيرة. وقـرّرتْ أختـي بعـد ذلـك المهرجـان بشـهرٍ، أنْ تُقيـم حفـلَ تخرّجـي مـن كلّيّتهـا العسـكريّة للفروسـيّة، واسـتأذنتْ أبي، فـأذِن لهـا، واتّفـق معهـا عـلى أنْ يُقـام ذلـك الحفـل في سـاحة البيـت الّتـي تفصلنـا عـن النّهـر، وأنْ تحـضره العائلـة وعـددٌ محـدودٌ مـن الأقـارب. وكان اختبـار اسـتحقاق الشّـهادة الّتـي كانـتْ مجـرّد كلمةٍ من أختـي بأنّني (فـارسٌ)، يتطلّـب عِـدّة أمـورٍ علـيّ أنْ أجتازهـا: أوّلاً علـيّ أنْ أركـبَ الخيـل بالطّريقـة الصّحيحـة، وبـالآداب الّتـي تعلّمتُهـا، ثانيًـا: علـيّ أنْ أجتـاز القفـز عـلى ظهـر الخيـل بالاعتِـماد عـلى الـرّكاب مـرّة، وبدونه مرّتَـين، استِنادًا إلى خِفّتي ورشـاقتي. وثالثًـا: علـيّ أنْ أجتـاز السّـاحة بالمراوحـة بـين النّخـلات الخمسـين مـرّة عـن يمـين النّخلـة، ثُـمّ عـن يسـار التّاليـة، في غضـون قـراءة سـورة المُلـك، أقرؤهـا أنـا، وتقرؤهـا هـي، والمعيـار قراءتُهـا إن أبطـأتُ أنـا.

ووقفتْ أختي أمامي في نهاية الاختبار، ونظرتْ إليّ بعينَين صارِمتَين وودودَتين معًا، وشدّتْ جِذعها إلى الأعلى، ومدّتْ بحركةٍ عسكريّةٍ يدَها إليّ لتُصافحني، وهتفتْ وهي تشدّ على يدي: «مُباركْ. أنتَ منذ اليوم فارس». وشعرتُ أنّني فارسٌ حقيقيّ، ليسَ لفروسيّتي في الميدان، فأنا كنتُ لا أزال طفلاً، ولكنّ بسبب هذه النّظرة الودودة، وهذه الكلمة الصّادقة من أختي؛ هل تصنعنا الكلمات؟ نعم، أنا كنتُ من الّذين تشكّلتْ رؤاهم وأرواحهم، وحتّى حركات أجسادهم على إيقاع تلك الكلمات الطّيّبات.

وبعدَ الحفل، احتفلنا بأكل بعضِ الحلوى، وشربْنا منقوع التّمر، وصرتُ من يومِها فارِسًا في نظر أختي، وبدأتُ أتصرّف على هذا النّحو، لقد منحتْني أختي اللّقب، وهذا يكفي. وإنْ كُنّا نعتقد أنّه لا يُوجد مَنْ يمنح ألقاب الفروسيّة في فوتا تور بأكملها غيرُ الشّيخَين: (سليمان بال) و(عبد القادر كن)!!

ثُمّ كثيرًا ما كانتْ تردفني خلفَها، وتسابق بالخيل الرّيح، تسبح في فضاء قريتنا الوادعة، وكان عليّ أنْ أمتثل لها، فقد كانتْ تقول: «إذا حملتْنا معًا فرسٌ واحدة؛ فما فائدة أنْ نُتعب الأخرى؟!». وكنتُ أنظر إليها وهي تهمز الخيل، وتشدّ العِنان فكأنّني أنظر إلى ملاكٍ هابطٍ من السّماء، وكنتُ أتخيّل لسرعة ما تشدّ على الخيل أنّها طارتْ في الفضاء، وأنّ النجوم تنحدر من فوقِ كتفَيها، وأنّها ستغيب بعدَ قليلٍ في سُدُفات الأفق.

ومرّة جمحتْ بنا الخيل، كان ذلك بسببٍ من جنون أختي، أو من شغفها، أو من عشقها، لا أدري، هَمْلجت الخيل في بداية هَمْزها. ثُمّ لوتْ عنانها، فشدّت. ثُمّ ثنتها فأسرعتْ. ثُمّ حرّكتْ رجلَيها معًا في بطنها بحركةٍ عصبيّة فسبحتْ كأنّها دون قوائم. لكنّ أختي لم ترضَ منها أنْ تسبح، كانتْ تريدُها أنْ تطير، فصرختْ بها صُراخًا حسبتُ أنّ الجنّ هو مَنْ فعله، فطارت حينئذٍ، طارتِ الخيل بالفعل أو هكذا خُيّل إليّ، وطار قلبي أنا معها، وشعرتُ أنّه صعدَ حتّى بلغ حنجرتي، ولم يعدْ بإمكاني أنْ أتنفّس، وكانت أختي عنّي في شُغُلٍ، لا تدري أيّ خوفٍ وهلعٍ قد حَلاّ بي، ورحتُ أطوّق جذعها بيدَيّ وأشدّ عليه من الخوف، وهي تزيدُ في حَثّها الخيل على الإسراع، وفجأةً عَمِيت الخيل، أو تفاجأتْ بصخرةٍ في الأرض، فأرادتْ أنْ تتوقّف، فثنتْ رُكبَها حتّى كادتْ تتكسّر تحتها، ثُمّ لوتْ عنقها، فمالتْ أختي بجذعها إلى العنق، وشدّتْ عليه فنجتْ، أمّا أنا فرمتْني إلى الأرض، وشُجّ رأسي، سال الدّم منه غزيرًا، وفقدتُ الوعي على الفور.

مكثتُ في الفراش أسبوعَين حتّى تعافَيت. استدعَوا لي في مساء ذلك اليوم طبيبًا جاؤوا به من وراء النّهر، وصلَ إلينا فجر اليوم الثّاني. قيلَ لأبي: «إنّه أحسنُ طبيبٍ في البلاد كلّها».

عندما صحوتُ في اليوم الثّالث من الغيبوبة، وقد لفّوا رأسي بضِمادةٍ بيضاء بدتْ كأنّها العِمامة الّتي يتطلّع أبي إلى أنْ أعتمرها، دخلتْ أختي عليّ، وقبّلتْ رأسي، وطلبتْ منّي أن أُسامحها: «لم أكنْ أعرفُ أنّ الخيل مجنونة هكذا». سألتُها: «أهي المجنونة أم أنتِ؟».

ضحكتْ وقالتْ بدلالٍ وهي تُغمض عينَيها وتمطّ صوتَها: «كِلانا». سكتتْ قليلاً قبل أنْ تسألني: «هل ستُسامحني؟». أجبتُها وقد وضعتُ يدي على الضّمادة وشددتُ على أسناني: «آآه». ردّتْ بصوتٍ أقربَ إلى الرّجاء والخشوع: «الفُرسان لا يتألّمون». سألتُها: «أليسوا بشرًا؟». «عليهم أنْ يتحمّلوا، لقبُ الفارس له ثمنه». حاولتُ أنْ أبتسم، لكنّ وجهي كان شاحِبًا، ومجرّد تحريك عضلاته كان مؤلِمًا، أغمضتُ عينَيّ، وهمستُ: «لأجل عينَيكِ الجميلتَين؛ سامحتُكِ»

(٧)

آمِنة

لزمتْني أختي طَوال الأسبوعَين قبل أنْ أتعافَ بشكلٍ نهائيّ. لم تتركْني لحظة. ولم تسمحْ لأمّي بالتّدخل كثيرًا: «أنا أعرفُ كيفَ أعتني به. اهتمّي أنتِ ببقيّة البيت». فتردّ أمّي: «أنتما البيت. ليس لديّ أولادٌ سواكما». فتقول: «أبي يحتاجُكِ مثلنا».

في اليوم الثّالث عندما صحوت، كان الطّبيب قد تركَ في قارورة دواءً سائلاً يُعين على التِئام الجروح، كانتْ تُجلسني كأنّها أمّي، مع أنّ جسدها لم يكنْ بأكبر من جسدي، ولربّما كان أكثر ضآلةً، تُسنِد رأسي إلى الوسادة، تقتربُ من جبيني، تُقبّله، أضحك، أسألها: «مثلما تفعلين مع الخيل؟». فتردّ وهي تنظر إلى عينَيّ: «ألم أقلْ لك إنّ الخيل مثلُنا؟ هل تُصدّقني الآن؟». تنزع الضّمادة ببطءٍ وبلطفٍ. أشعر بحرّ أنفاسها. تهمس: «هل يُؤلمك؟». أحار ماذا أقول. تسأل هامسةً مرّة أخرى: «هل تثقُ بي؟». أحار من جديد، بماذا أجيب هذه السّاحرة!! تستمرّ أختي بنزع الضّمادة، قماشٌ أبيض خفيف، لفّه الطّبيب في اليوم الّذي جاء فيه إلينا، بعدَ أنْ أزال ما كان من أمر العِمامة. تُزيل أختي الضّمادة في النّهاية، تُضيّق عينَيها وهي تنظر إلى موضع الجرح، أعرفُ مدى ألمها وهي تنظر هناك، وأدرك حجم الجرح الغائر من عينَيها، تَحِين منها التفاتة من الجرح إليّ فتلتقي عيونُنا، تعرف أنّها أخطأتْ في

إبراز مشاعرها، تهزّ رأسَها هزّاتٍ قصيرة سريعة، تبتسم، ثُمّ تعودُ إلى النّظر في عينَيّ بعينَين غير السّابقتَين؛ مليئتَين بالأمل، بالجمال، بالثّقة، وبالدّواء... كانت نظرتها الثّانية بالنّسبة لي نصفَ العِلاج، كانتْ دواءً حقيقيًّا، نحن نتعافَى بالنّظر في العيون الجميلة، أو بنظرها فينا؛ العيون الودودة، العيون الصّادقة، العيون الّتي تمسح على جراحنا كأنّما خُلِقتْ من أجل ذلك.

تناولتْ أختّي القارورة الّتي تركها لنا الطّبيب، أزالتْ غِطاءَها، وأنا أتابعُ حركتها الهادِئة، سكبتْ منها على قطعةِ قِماشٍ أخرى بيضاء شيئًا من السّائل الّذي في داخلها، كان لونه أحمر، أردتُ أنْ أسألها عنه، لكنّني كنتُ مأخوذًا برقّتها عن السّؤال. تنهّدتْ وهي تعيدُ القارورة إلى مكانها، ولا تزال تُمسك بقطعة القماش، مسحتْ على الجرح بيدٍ ملائكيّة قبل أنْ تهمس بسؤالها المعتاد: «هل يؤلمك؟». بقيتُ صامتًا. مسحتْ مرّة أخرى، وأعادتْ السّؤال لكنْ بهمسٍ أحنّ: «هل يؤلمك؟». بلعتُ ريقي وأجبتُ: «لا». فابتسمتْ. بان صَفّ أسنانها اللّؤلؤيّة. شعرتُ أنّ إجابتي أسعدَتْها. فتابعتُ: «أنتِ طبيبةٌ ماهرة». ضحكتْ هذه المرّة حتّى سمعتْ أمّي ضحكتها. أتتْ بضِمادةٍ جديدةٍ بيضاء ناصعة مثل قلبها، ولفّتْها برفقٍ على رأسي، وهتفتْ: «سوفَ تبرأ قريبًا. الجروح ستلتئم». سألتُها: «كيفَ عرفتِ؟». أجابتْ سؤالي بسؤال: «ألا تثق بي؟». «بالطّبع». «إذًا فأنا لا أقول إلاّ الحقيقة».

أنهتْ لفّ الضّمادة النّظيفة حول رأسي، وطبعتْ قُبلتَها المعتادة، وقالتْ: «سأغسل هاتَين عند النّهر». وأشارتْ إلى الضّمادة

وقطعة القماش المُبلّلة بالدّواء. وخرجتْ. أوقفتْها أمّي الّتي كانت تراقبنا من خلف الباب: «نانا ستتكفّل بذلك». «لماذا نُكلّفها بذلك ما دمتُ أنا قادرة؟». شدّت أمّي على كلماتها: «هل تريدين حجّةً للذّهاب إلى النهر؟». سكتتْ أختي قليلاً قبل أنْ تجيب: «نعم. أريدُ أنْ أذهبَ إلى النّهر. لن أتأخر». «لماذا؟». «سأملأ قربةً من مائه العذب، أعتقد أنّ ذلك سيُعجّل بشِفاء أخي».

في اللّيل، كانتْ تعاودني الآلام والحُمّى، وبعضُ الهلوسات. أهذي بكلماتٍ لم أكنْ أدري أنّني أقولها. سألتْني أختي ذات مرّة: «مَن هم؟». استغربتُ من سؤالها، أردفت: «مَن هم هؤلاء الّذين تصرخ باسمهم بصوت مذعور: لقد جاؤوا... لقد هَجموا...». أسألها: «هل كنتِ هنا؟». «أنا أيضًا لا يجد النّوم سبيلَه إلى عينَيّ وأنتَ بهذه الحال. آتي بعد أنْ يوغل اللّيل في عتمته، وأجلسُ هنا إلى جِوارك». «ماذا تفعلين؟». «فقط أراقبُ إغماضة عينَيك، حركةَ شِفاهك، وتقلّبك على جنبَيك؟». «لماذا تفعلين ذلك؟». «أريدُ أنْ أكفّر عن ذنبي». «لم يكنْ ذنبَكِ يا آمنة». «أنتَ تعرف أنّني أعشق الخيول». «أعرف، ولذلك أقول: إنّه ليس ذنبَكِ. عشق الخيول ليس ذنبًا... والآن... هَلاّ كَففتِ عن ذلك..؟!». «لا أستطيع». «عليكِ أنْ ترتاحي أنتِ أيضًا». «لديّ وقتٌ طويلٌ لكي أرتاح. المهمّ أنت؛ كيفَ تشعر؟». يصل صوتُ النّهر إلى هنا، صوتُه هو الآخر شفاء.

تسألني آمنة: «هل أُسنِدك؟». «نعم يا أختي». تلمعُ عيناها، كأنّني أعطيتُها شيئًا ثمينًا. تُسندني بكلتا يدَيها، تضع وسادة خلف

ظهري، وأخرى خلفَ رأسي. تسأل: «هل هكذا جيّد؟». أجيب: «جيّد». تأتي بكأس العسل، تتناول مجروش الحبّة السّوداء. تخلطُ منهما مقاديرها الخاصّة، لها وصفاتُها هي الأخرى. هل كانتْ طبيبةَ المنزل؟ تسكبُ خلطتَها في ملعقةٍ فِضّية، تقرّبها بيدٍ هادئةٍ واثقةٍ من فمي: «افتح فمك يا عُمر. قُلْ باسم الله...» أفتح فمي. ينزلق العسل داخل فمي. إنّها عسلٌ آخر. أسمعها تقرأ بعضَ الأدعية. تتابعُ إطعامي خلطتَها الخاصّة. أُشير عند الملعقة الرّابعة أنْ تتوقّف. تبتسم. تهمس: «لم يبقَ الكثير. سبعُ ملاعق. لقد كدنا أنْ ننتهي». إنّه الرّضا. لقد بدأتْ تستحوذ أختي على عالَمي. هل يُمكن أنْ أكون أسيرًا لرقّتها هذه. لكلماتها اللّطيفة. لشجاعتها النّادرة. ولعمرها الّذي هو أكبر مِمّا يبدو عليه؟!

تقول أختي: «يجب أنْ تأكل جيّدًا. الطّعام الجيّد أحسنُ وسيلةٍ للشّفاء». أضحك، وأسأل: «أينَ قرأتِ هذا؟». تُجيب: «ليس في المخطوطات الّتي في بيتنا. ربّما لو كنتَ مكاني فستُهرَع إلى تلك المكتبة لتُخبِرك. الكتاب يُعلّم، صحيح. ولكنّ الحياة أيضًا تُعلّم». أضحك هذه المرّة بصوتٍ عالٍ على جملتها الأخيرة، يؤلمني الجرح تقبّضات وجهي، أهتف وأنا لا أزال في وسط ضحكتي: «وكم مضى من عمرك في هذه الحياة حتّى تعلّمك دروسَها كلّها مرّة واحدة؟». توقفُ ضحكتي بنظرتها الصّارمة الّتي حفظتُها عن غيبٍ، وصرتُ أفهم ما تعني. تقول: «أيضًا نَمْ جيّدًا. لا تسمح للأحلام المُزعجة أنْ تُفسد عليك نومَك». «لو تدرين يا أختي...». وتوقّفتُ عن أنْ

أكمل الجملة. ونظرتْ إليّ وهي تهمّ بالاعتِدال في وقفتها. وانتظرتْ قليلاً حتّى أُكمِلَ عبارتي. ولمّا لم أفعل. ابتسمتْ ابتِسامةً ذات معنى، وخرجت!

في إحدى ليالي المرض، صحوتُ، يدٌ ما رفيقةٌ أيقظَتْني، لم أدرِ أيّ يدٍ، ولكنّني شعرتُ بها. حاولتُ بها أستطيع أنْ أعتدل في فِراشي، أنْ أجلس مُسنِدًا ظهري، في تلك اللّحظة تذكّرتُ أختي، إنّها خيرُ مَنْ يفعل ذلك، هتفتُ في سِرّي: «أينَ أنتِ يا آمنة؟». أسندتُ نفسي في النهاية، ما يزال أثر اليد الّتي من غيبٍ جاءتْني ماثلاً في طرف كتفي الأيمن، تلمّستُ كتفي، لا يدَ هناك. الظّلام دامسٌ في غرفتي. لا بصيصَ نورٍ أبدًا. هتفتُ: «آمنة!». لم تُجِبْني. عرفتُ أنّها ليستْ في الغرفة، لو كانتْ لأجابتْ، ثُمّ لأضاءَتِ السّراج. بدت الغرفة من دونها كأنّها سقطتْ في الظّلمة والوحشة، بل بدوتُ أنا الّذي سقط في تلك الظّلمة والوحشة. حاولتُ أنْ أناديها، أنْ أنادي أمّي، لكنّ صوتي الضّعيف، وخوفي من فزعها جعلاني أعدل عن ذلك. رحتُ أحاول أنْ أنظر في العتمة. العتمة كانت سائدة. شيئًا فشيئًا بدأتُ أتلمّس - مع شدّتها - حدودَ بعضَ الموجودات. كانتْ خيالات جاثمة كظِلالٍ ثقيلة. كان باب الغرفة مفتوحًا. لكنّه مفتوحٌ على البسطة، ومع ذلك لم أرَ شيئًا باستثناء تلك الخيالات. زحفَ إليّ الخوف. الخوف يزحف؟ نعم؛ مثل أفعى تراها تتسلّل على بطنكَ ويداكَ مُقيّدتان. شعرتُ بألمٍ في معدتي، ثُمّ تحوّل ذلك الألم إلى أسفلَ بطني. شددتُ بيدي على وسطي لكي أخفّف الألم. لكنّ ذلك لم يُفِدْ

بشيءٍ. صار عليّ أنْ أنادي هذه المرّة بالفعل على أختي أو أمّي أو أبي. فكّرتُ بأنّ نداء أحدهم فحسبُ سيكون كافيًا. فكّرتُ؛ سأنادي أقربهم إليّ، أو أعرفهم بحالي، أو أكثرهم مدعاةً لاطمئناني. دون وعي، اخترتُ أن أنادي على آمنة!! فتحتُ فمي، بعثتُ بالصّوت: «آآآآ...». لكنّني لم أقدر أنْ أكمل. وكأنّني ابتلعتُ الصّوت لا أخرجتُه. حاولتُ ثانيةً، وثالثةً، فلم أستطعْ. دبّ فِيّ الرّعب حينَها، شعرتُ بأنّني مُكبّل، ومُحاطٌ بجيشٍ من الخوف المتربّص بي. دار في خلديّ: «أينَ أنتِ يا آمنة؟ ألم تكوني تأتين في كلّ ليلةٍ لتجلسي إلى جانبي، لتحميني من هذياناتي؟ لتقصّي عليّ حكاية؟ لتمسحي العرقَ المُتفصّد تحت جفنَيّ؟ لماذا في هذه اللّيلة بالذّات لم تأتِي؟» لكنّ هذا الصّوت الدّاخلي ذاب في صقيع الخوف هو الآخَر. حاولتُ أنْ أُغمِضَ عينيّ لأنام، وأتناسَى كلّ هواجسي، ولكنّني لمْ أستطعْ. استسلمتُ. في وسقط سقوطي في براثن الاستِسلام، سمعتُ صوتًا... صوتًا قادِمًا من بعيد... صوتًا رقيقًا... له إيقاعٌ ملائكيّ... بدأتْ مخاوفي تذوب... بدأ الظّلام الموحش يُصبح مؤنِسًا... بدأتْ جوارحي الّتي تضطرب في أعماقي تستقرّ... إنّه قادمٌ من مسجد القرية... إنّه صوتُ الطمأنينة والسّكينة والأمان، إنّه صوت الأذان... كأنّني أسمعه لأوّل مرّة، يجري كما يجري النّهر، ويقع على الروح العطشى فيرويها، مطّ المؤذّن صوته العذب بالنّداء الخالد: «الله أكبر...» فسرتْ قُدرة الله في جسدي جَرَيانَ الماء على الأرض المُحلة ينعشِها... ثُمّ علا الصّوتُ من جديد: «أشهد أنْ لا إله إلا الله..». ومدّ المؤذّن كلمة (الله) في آخر الجملة مَدًّا طويلاً

بديعًا، وكان الصّوت نفسه طروبًا لكنّه شجيّ، وجميلاً لكنّه حزين، وشعرتُ بأنّه ردّد (اااااااه) في آخر العبارة، وأنّه أخرج بهذا المدّ كلّ الآهات المكنوزة في صدره، وكلّ الآهات المُتخثّرة في روحه، وشعرتُ معه بأنّني أتخفّف مثله من الآهات المخبوءة بهذه الآهات الطّويلة، ولم أدرِ كيفَ شعرتُ بذلك، ولكنّ الشّعور لا يُفسّر على أيّة حال. ومَنْ يُفسّر حنين الإبل؟ أو نُواح الحمام، أو شجى الأشجار في اللّيالي الباردة... كنتُ حمامةً سوداء في ليلةٍ باردة، لكنّ شيئًا مِن الرّضى ينساب فِيّ مع انسِياب تلك الكلمات.. ظلّ الصّوت يتردّد، وأنا أرتقي، وأطمئنّ، وتهدأ أنفاسي المُضطربة، إلى أنْ شعرتُ بأنّني صرتُ في أعالي السّماء مع آخر كلماته الصّافيات؛ أدرك الآن ما تفعله الكلمات السّماويّات بالقلوب!

(٨)

إنّنا نجري مع الحياة كما تُريد

مرور الأسبوعين، وصرتُ أخرجُ من البيت، وعُدنا أنا وأختي نركضُ في السّاحة ونجلسُ على النّهر، ونلعبُ، ونتسابق في حفظ القرآن وتسميعه، وعادت الأمور إلى مجاريها، ونسينا جراحنا، وجرى قلمُ النّسيان علينا فأصبح ما حدث من الماضي.

لكنّ أمّي لم تنسَ؛ الأُمّهات لا ينسَين؛ أصرّت أمّي بعد حادثة الخيل ألاّ يفارقنا الحِرز، وقالتْ: «لو كنتَ تضع الحِرز في ذلك اليوم لما أصابَكَ مكروه». ووجدتُني أردّد كلمات أبي دون تخطيط: «الحافظ هو الله يا أمّي». وضيّقتْ أمّي عينَيها، وتصاعدتْ زفراتُها، وأيقنتُ أنّها سوفَ تبطشُ بي، حينَ فرّغتْ غضبَها في الكلمات الّتي انفجرتْ من فمها: «لولا استهتارك أنتَ وأختكَ ما حدث ما حدث. أختك مجنونة وأنتَ أهبل...». وتدخّل أبي الّذي سمع هياج أمّي، واقتربَ منّا، وأعادَ الكلمات نفسَها الّتي قلتُها: «الحافظُ هو الله». ولم تتمالك أمّي نفسَها، وراحتْ تلوّح في الهواء بقبضتَيها، وهي تصرخ: «ستضعان الحِرز يعني ستضعانه. إنّ سلالتنا لم تسلم من الوحوش البشريّة ولا من الوحوش الحيوانيّة إلاّ بهذا الحِرز». ثُمّ هي كشفتْ عن بطنها، وأخرجتْ الحِرز الّذي تضعه هناك، ورفعتْه في وجوهنا: «ألبسه منذُ أكثر من ثلاثين عامًا، ولولاه لكان جسدي طعامًا للموت على يد الصّيّادين». ولأوّل

مـرّة أُحـسّ أنّ كلمـة (الصّيّاديـن) مُرعبـة، لم تُلفَـظ الكلمـة بهـذا الهلـع والغضـب مـن قبـلُ!! ولم تكـنِ الكلمـة بالنّسبة لي تعنـي أكثـر مـن تلـك الّتـي تُطلَـق عـلى صيّـادي الأسـماك، ولكنّنـي اكتشـفتُ لاحقًـا أنّهـا تُطلَـق عـلى أصنافٍ أخرى لا يُمكـن أنْ تجدَ نظيرًا لها في الوحشيّة!

ودخلـتْ أمّـي غرفتهـا، وأغلقـتْ خلفَهـا البـاب، وسـمعتُها أنـا وأبي تـصرخ مـن خلـف البـاب: «إنْ لم تُجبِرْ هذيـن الصّغيريـن الأحمقَين عـلى وضـع الحـرز فسـأقتل نفسي». وسـمعْنا أصـواتَ أقدامهـا الغاضِبـة تصعـد درج العُلّيـة، وفجـأةً ركـضَ أبي إلى غرفتـه، كانـتْ أمّـي في تلـك اللّحظـات قـد صعـدت الـدّرج وفتحـتْ بـاب العُليـة وأخرجـت بندقيّـة عتيقـة، لا أدري مـن أيـن وَرِثهـا أبي أو غَنِمهـا أو اشـتراها، وراحـتْ تـسحب النابـض الّـذي عـلى الجانـب الأيمـن مـن البندقيّـة لتستقرّ الطّلقة في بيـت النّـار، وكانـتْ تشـدّ عـلى الكعـب البُنّـي المُطعّـم بالزّخرفـات الفِضّيـة، وهـي تهـدّد بإطـلاق النّـار، وفتـح أبي البـاب ففوجِـئ بهـا تُشـهر البندقيّـة في وجهـه. وتقـدّم أبي بحـذر، ورفـع يدَيـه يُهـدّئ مـن رَوع أُمّـي، وراح يُخاطبهـا بلهجـةٍ ودودة: «سـأفعل؛ سـأُجبرهما، لا تقلقـي، مـن الآن لـن ينزعـا ذلـك الحِـرز عـن جذعَيهـا... هـل هـذا يُرضيـك...؟! والآن ضعـي البندقيّـة عـلى الأرض...». كان أبي خـلال كلماتـه هـذه قـد أتـمّ صعـود نصـف الدّرجـات المُفضيـات إلى العُلّيـة، ولمّـا صـار عـلى بُعـد درجـاتٍ قليلـةٍ جِـدًّا انهـارتْ أمّـي، وجلسـتْ عـلى الأرض، تاركـةً البندقيّـة تنزلـقُ مـن يدهـا المُرتعشـة، وأجهشـتْ بالبُـكاء. ضمّهـا أبي إليـه، وقـال لهـا: «سـأفعل مـا تقولـين بالحـرف. الآن أدركـتُ كـم كنـتُ مُخطِئًـا عندمـا

لم آخذ الموضوع على محمل الجِدّ». ظلّتْ أمّي تنشج على صدر أبي، وظلّ هو يُهدِّئ من رَوعها، ويقول: «لن يحدث إلاّ ما ترينَه مُناسِبًا». وردّتْ أمّي بعد أنْ سكَنَ وجيبُها، وهدأتْ دموعها: «وعليكَ أنْ تمنع هذه المجنونة من ركوب الخيل». «سأفعل». «وأنْ تمنع هذا الأهبل من أنْ يستجيبَ لها في كلّ شيء». «سأفعل». «وسأذهب غدًا إلى المسجد». «اذهبي. ولكنْ لماذا؟». «عليّ أنْ أقابل الإمام».

سارعتْ أمّي في اليوم التّالي بالذّهاب إلى المسجد لمقابلة الإمام، كانتْ قد أخذتْ حِرزَينا السّابِقَين، ووضعتْهما أمام الإمام: «لم يعودا صالحِين». «إنّهما صالحِان دائمًا». «لقد سقط ابني عن الفرس وشُجّ رأسه». «إذًا لم يكنْ يلبس الحِرز». «صحيح، ولكنّني أريدُ حِرزًا آخَر». وسادتْ لحظةُ صمتٍ بينهما، ثُمّ مدّتْ أمّي يدها من تحت ثوبِها الّذي يُغطّي صدرها وأخرجتْ بعضَ الذّهب، وقالت: «هل يُمكنك أنْ تُجدّده لي إذا لم تستطعْ أن تعطيني حِرزًا جديدًا؟!». ولمعتْ عينا الإمام. وما من أحدٍ يصمد أمام بريق الذّهب إلاّ مَنْ رَحِم، وهتف لُعاب الإمام: «بالطّبع. بالطّبع يا أمّ عمر». وصمت، ولم يدرِ كيفَ يُمكن أنْ يكون تجديد الحِرز، لكنّ أُمّي أنقذتْه، حين تابعتْ: «أضِفْ إليه بعضَ الآيات الجديدة الّتي تُحصّن صاحبها، أضِفْ بعض الأدعية، اكتب اسم نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم في زوايا كلّ ورقةٍ من أوراق الحِرز، اكتب لفظ الجلالة بخطّ كبير وأخضر في وسط الأوراق، واكتبْ اسم ابني في حِرزه، واسم ابنتي في حِرزها... افعلْ أيّ شيءٍ أيّها الإمام».

وعادتْ أُمّي بالحِرزَين، وهي تشعر أنّها انتصرتْ في النّهاية، ودار في خَلَدها أنّه لولا بندقيّة ذلك المُستعمر الفرنسيّ اللّعين الّتي تختبِئ في العُلّية لما استطاعتْ أنْ تحسم الأمر.

بدأتْ بأختي، كان حِرزُها بنّيًا فاتِحًا، يُشبه لون التّراب القريب من النهر، وكان حرزي بنّيًا محروقًا يُشبه لون التّراب حول جذوع النّخل. شدّتْ بحبلٍ رفيع من الجلد حِرزَ أُختي حولَ جِذعها، ورمقتْها بعينَين مُلتهبتَين، ولم تقلْ شيئًا. ثُمّ ثَنّتْ بِي فشدّتْ حرزي على وسطي، وشعرتُ أنّ غيظَها جعل الحبل الجلديّ الرّفيع يغوص في لَحْمِ بطني فيُؤلمني؛ ندّتْ منّي آهة، فانتبهتْ، وأرختْ الحبل قليلاً. تراجعتْ خُطوتَين إلى الوراء ونظرتْ إلينا معًا، وراحتْ بحركاتٍ من يدها اليُمنى تُحذّرنا من نَزعه إلاّ عند الاستِحمام. وتوعّدَتْنا بعقابٍ صارمٍ إنْ نحن لم نسمعْ لها، أو سوّلتْ لنا أنفسُنا مجرّد التّفكير في مخالفة أمرها. وأدركتُ معها تمامًا أنّ بندقيّة الفرنسيّ المُستعمر اللّعين قد أثبتتْ فعاليّتها!

امتِثالاً لِما طلبتْه أُمّي؛ منع أبي أختي من ركوب الخيل، وأصرّ على ألاّ تخرج من البيت شهرَين عقابًا لها، ولولا أنّ أبي يُحبّها أكثر مِمّا يُحبّ نفسَه لَعاقَبها بغير هذا.

كان أبي يريدُ للمركب أنْ يسير، وكنتُ أدركُ أنّ مهمّته صعبة، كان عليه أنْ يظلّ ساهِرًا على رعايتنا جميعًا، ويوفّق بين معتقدات أُمّي وأحلامِنا، وبين أوامرها وشقاوتنا. وأدركتُ فيما بعدُ أنّه فعلَ كلّ ما

فعلَ من أجلِنا، وأنّه لم يفعل من أجل نفسِه شيئًا، وظلّ يأخذُ من جسده ليُقيتَ أجسادَنا، حتّى لم يبقَ منه له شيءٌ. كان أبًا رحيمًا شفوقًا عَطوفًا، لكنّه وقع في فخّ النّزاعات الصّغيرة، وتباين الرّغبات والأهواء، وتباعد الأعمار والأفكار، الّتي تقع في كلّ عائلة. كان فِكره منحصرًا في إرضائنا جميعًا، دون أنْ تجور رغبةٌ على رَغبة، ودون أنْ يستبدّ رأيٌ برأي.

بعد انقِضاء الشّهرَين صرنا نركب الخيل. صرتُ في الحادية عشرة، وصارتْ أختي في الرّابعة عشرة. وقد صِرنا ماهِرَين في ركوب الخيل، واستعانَ بنا أبي لإحضار الأمور الضّروريّة من القرى البعيدة، الرّقوق والقَصَبات ودُوِيّ الحبر، وأحيانًا أمداد القمح والشّعير، وإيصال بعض الرّسائل إلى الأعيان والوجوه.

ومع الرّقوق الّتي صارتْ وفيرةً بسبب غِنى أبي، وجدتُ حلاوةً في نسخِ آياتِ القرآن الّتي أحفظُها. وابتدأ يكبر حلمي في أنْ أكتب القرآن كامِلاً بخطّ يدي. وضَحِكَ أبي مُعجَبًا حينَ قلتُ له ذلك، وربّتَ على كتفي، وقال: «لو كتبتَ القرآن كامِلاً بخطّ يدكَ فسأُعطيكَ وزنه ذهبًا». وصار لديّ حافزٌ آخرُ غامضٌ هو الذّهب، إذْ لم أكنْ في ذلك الوقت أعرف - لو أنّني فعلتُها - ماذا أصنع برطلٍ من الذّهب يضعه أبي بينَ يدَيّ دُفعةً واحدة، لكنّ أُمّي الجاهزة لكل الاحتِمالات قالتْ لي بكل بساطة: «تدفعه مهرًا لعروسك».

كثرتْ جلساتُنا على النّهر في الأماسي التّشرينيّة، بعد أنْ نفرغ من وِردنا المسائيّ في حفظ القرآن، كُنّا نقضي السّاعة الأخيرة

قبل الغروب على ضفّة النّهر، الغروب الّذي تودّعنا الشّمس فيها من خلال أشجار النّخيل، تتخلّل أعذاقها، وسعَفَها العالي، وتأتي بدفءٍ بينَ بين. كُنّا نجلسُ الوقتَ كُلّه ننظر إلى الماء الجاري دون أنْ نقول كلمةً واحدةً، مجرّد النّظر إلى الحياة الّتي تجري هنا، وتنتج عنها حَيَوات كثيرةٌ كان ذلك الأمر يُشعرنا بالمتعة.

وكُنّا نسبح في النّهر عقب كلّ صلاة جمعة، ولا نخرج من هناك إلاّ حينَ تأذن الشّمس بالرّحيل، وترسل أشعّتها الخفيفة من خلفِ تلك الأشجار الباسقة، فتسقط على ماء النّهر الرّقراق، فيبدو الماء لامعًا كما لو كان ذهبًا سائلاً، حينَها تُنادي أمّي علينا من أجل الطّعام، ونخرج ونحن نتضوّر جُوعًا، وتجمعنا المائدة الشّهيّة، ونتلو دعاء الطّعام معًا قبل أنْ نبدأ، ولا أدري إنْ كان في مُتَعِ الدّنيا بأكملها أجمل من تلك المتعة الّتي تعيشُها عائلتنا الصّغيرة.

وكُنّا نصيدُ الأسماك في أوقات الفيضان عندما يرتفع ماء النّهر. وكان صيدُ السّمك لدينا هوايةً أكثر منها درءًا للجوع، فلم نكنْ نجوع أبدًا، وكُنّا نشتهي السّمك أحيانًا فنصيده، أغلبُ أوقاتنا الّتي قضيناها في الصّيد كُنتُ أشعر أنّ الغاية منها هي الحديث لا الصّيد، إذ كان الكلام كثيرًا مثل السّمك، ولكنّ أختي كانتْ تعرفُ كيفَ تصيده!

بدا ماء النّهر اليوم من بعيدٍ أكثرَ زرقةً، كأنّ السّماء ألبستْهُ ثوبَها، وحينَ جلسْنا أنا وآمنة على حافّة النّهر، ونظرْنا إلى الماء، رأينا الأسماك، كان يُمكن أنْ نعدّها لِصفاء الماء، وهدوئه، بدت الأسماك

تجري بمرح، حتّى الحصى الفِضّية والصّخور الصّغيرة بدتْ واضحة لعيوننا من هنا، كانت الأسماك تلتفّ حولَها، ورأيتُ بعضَ الأسماك تقفز في الهواء بفرحٍ، صحتُ من الدّهشة، نظرتُ إلى أختي أستطلعُها إنْ كانتْ رأتْ ما رأيتُ أم أنّني أتخيّل، كان وجهُها الأسمر هادِئًا، وعيناها العميقتان ساهِمَتين، لم يبدُ عليها أنّها رأتْ ما رأيتُ. سألتُها لأقطع حبل الصّمت الغليظ الّذي يفصل بيننا: «هل ترين الأسماك هناك؟». ردّتْ وهي تُسند ذقنها إلى رُكبتها المعقودة أمام صدرها، وتضع يدها اليُمنى تحت حنكها: «لستُ عمياء». «هل تعرفين ما تقول الأسماك؟». «إنّنا نجري مع الحياة كما تريد». لم أفهم ما تعنيه أختي، هل هي حكيمة؟ إنْ كان الأمر كذلك، فمن أين اكتسبتْ حِكمتها. لم أدرِ ما أردّ به على جُملتها الأخيرة فصمتّ. صمتتْ هي الأخرى، وتابعتْ شرودها في الماء الجاري والأسماك. قطَع صمتَنا صوتٌ غريبٌ، لم نسمعه من قبل، انتبهتْ أختي، رفعتْ رأسَها كما لو كانتْ قطاةً رفعتْ رأسَها من الماء، وأصاختِ السّمع، وزمّتْ شفتَيها، وضعتُ يدي اليُسرى على أذني، وأملتُها جِهة الصّوت، ورفعتُ ذقني، وأغمضتُ اليُسرى وأنا أحاول معرفة مصدر الصّوت وكُنهه، كان هناك صوتُ نخيرٍ عالٍ لكنّه يصل ضعيفًا لبُعده، وصوتُ أجسامٍ ثقيلةٍ تسقطُ في الماء. كان الصّوت يعلو للحظاتٍ، ثُمّ يصمت فجأةً، ويسود السّكون حتّى يعاود الصوت الظّهور من جديد! هل هو نخير، أم هَمهَمة، أم حفيف أم هدير، لم يكنْ باستِطاعتي أنْ أعرف كيفَ أصفه، لكنّه كان يصل أحيانًا كصوتِ عملاقٍ ابتلع دلوًا كبيرةً

من الماء فَشَرِقَ به، ففتحه ليقذفه أو ليبلعه، لكنّ فمَه أكبر من فم النّهر؛ هل كان هذا شخيرًا؟

قامت أُختي ومشتْ، وهي تُحدّ النّظر في انعراجة النّهر البعيدة، ورأيتُها تتكلّم بكلماتٍ غريبة، وسألتُها: «ماذا هنالك؟». لكنّها تابعتْ سيرَها، كأنّها تتحدّى شيئًا ما، وسألتُها ثانيةً: «ما يكون ذلك الصّوت يا أختي؟». لكنّها لم تلتفتْ إليّ، ظلّتْ تسير في خطواتٍ مُتحدّية، وهي تُخاطب نفسَها بتلك الكلمات غير المفهومة، وشعرتُ بالرّعب!

(٩)

المُلكُ لله

كان الأطفال في القرية يلبسون أجملَ ثيابهم يوم الجمعة، الثّياب الجميلة الّتي يلبسون مثلها في العيد، كانوا يستحمّون في ذلك اليوم، إمّا في النّهر لأولئك الّذين تكون بيوتهم قريبةً من النّهر، أو في بيوتهم، وكانتْ لديهم عادة الاقتِصاد في الماء، ولو كانوا أغنياء به، تلك حِكمة نبويّة قديمة عملوا بها: «لا تُسرِفْ ولو كنتَ على نهرٍ جارٍ». وكانتْ أمّهاتهم بعد الاستِحمام، يَدهَنَّ الأطفال بِدُهنٍ يزيد لَمعان بشرتهم السّوداء، ويحميهم من الحشرات الطّيّارة، ثُمّ كانوا يحرصون أشدّ الحرص على أنْ يضعوا ذلك الحِرز على جذوعهم، كان طقسًا ضروريًّا، وكان الفقراء يهتمّون به أكثر من الأغنياء، كان الفقراء يعتقدون أنّهم أقرب إلى الموت من الأغنياء، ولم أدرِ إنْ كان ذلك صحيحًا، فقد تعلّمتُ أنّه «لكلّ أجلٍ كتاب». وفهمْتُ عن شيوخ أبي أنّ الموت لا يفرّق حينَ يأتي بين غنيّ ولا فقير، ولا صغيرٍ ولا كبيرٍ، ولا صحيحٍ ولا مريض، ولا عبدٍ ولا سيّد. لكنّ أهل القرية لهم رأيٌ آخَر. وكانوا إذا فرغوا من كلّ ذلك طافوا بالبخور المُحترق ذي الرّوائح الشّذيّة على الولد أو البنت، وقرؤوا عليه زيادةً في الحماية، ثُمّ يخرجون إلى المسجد، يهوون إليه من كلّ الحارات، ومن كلّ الطرّقات، والزواريب، ومن خلف الأشجار، ومن بيوت القشّ،

ومن الأكواخ، ومن العَراء... لم يكنْ أحدٌ قادرًا على المشي ليمنعه الأمر في ذلك اليوم من القدوم إلى المسجد، وكان يوم الجمعة تظاهرةً كبيرةً، إذ يغصّ المسجد، وصحنُه وساحتُه والأرض الّتي حوله كلّها بالنّاس، وكانوا يلبسون في ذلك اليوم جلابيب بيضاء إنْ قَدِروا عليها وكانوا يملكون أثمانها، أمّا الآخَرون، فجلابيبهم كانتْ زرقاء وصفراء وبرتقاليّة ومزيجًا عجيبًا من هذه الألوان، وكان الرّجال والأطفال يلبسون جلبابًا يصل إلى ما فوق رُكَبهم بقليل، ويلبسون تحته بنطالاً ليس واسِعًا، يُحيط بسيقانهم الرّفيعة، أمّا النّساء فكُنّ يلبسْن الجلابيب الّتي تُغطّي كامل أجسادهنّ، وكُنّ يلبسْنَ فوق ذلك الجلباب بُرنسًا يغطّي شعورهنّ، وينسدل على أكتافهنّ حتّى يصل إلى أوساطهنّ.

وكان البياضُ طاغِيًا في ذلك اليوم، وكان إرثًا من الحجّ، يأتون بثيابٍ بيضاء كقلوبهم، ويتجرّدون من كلّ ضغينةٍ، ويُسامح بعضُهم بعضًا، فالأيام حُبلى بالخلافات، والخلافات كثيرةٌ، ولن تنتهي، وستظهر بين فترةٍ وأخرى، ولا بُدّ من هذا اللّقاء للتّصافي، ولا بُدّ من التّصافح والغُفران، ونسيان الماضي؛ والنّسيان شِفاء، والتّغافل دواء، وترك الصّغائر راحة، والإقبال على الصّفح كَرَم، وحُبّ الآخرين والعفو عنهم مُتعة.

أمّا الخلافات الكبيرة، فقد كان يُعقَد لأجلها مجلسُ قضاءٍ بعد انتهاء الصّلاة، في زاوية المسجد القريبة من المحراب، ويجلس الخصمان أمام القاضي، ويسمع لأقوالهما، ثُمّ يسمع لأقوال الشّهود، ثُمّ يُعطي القاضي لكلٍّ مِنَ الخصمَين فرصة الدّفاع عن نفسه، ثُمّ

يخرج الجميع، ويبقى مستشاران عن يمينه وشماله كانا يسمعان التّقاضي من أوّله، فيتداولان في الأمر، ثُمّ يحكمان، فيستدعي الكاتب المُتقاضِين، ثُمّ يحكم بينهم، ويُلزمهم بِما حَكم.

وعُدنا في ذلك اليوم من المسجد أنا وآمنة، وقد جلسْنا مع أبي فشهدْنا مجلسَ القضاء، وكانتْ أختي طَوال المجلس تستمع باهتِمام، وأمّا أنا فغلبني النّعاسُ قليلاً فغفوتُ، فرأيتُ نفسي في غابةٍ ملتفّة الأشجار، كثيرة الوحوش، وسمعتُ أصواتَ زئيرٍ تطلعُ من خلف كلّ شجرةٍ، فتملّكني الذُّعر، فصحتُ، فإذا بأبي يرشُّ الماء في وجهي، وإذا القاضي ينظر إلينا وهو يهزّ رأسَه أسفًا، ولولا مكانة أبي في نفسه وفي نفوس أهل القرية لطردَنا جرّاء الزّعيق الّذي صدر منّي وقتئذٍ.

فجر هذا اليوم، يوم الجمعة الأخيرة من شهر آذار من عام ١٧٨١م استيقظتُ وحدي، لم يُوقظني أبي على عادته، إنّه فجر الجمعة، وعليّ أنا إيقاظ البيت، ولن يسبقني أبي إلى هذا العمل الصّالح.

فجر هذا اليوم صحوتُ على اليد اللّطيفة إيّاها الّتي أيقظتْني أيّام مرضي ومُكثي في الفِراش. يدٌ ما لا تُرى ولكنّها تُحسّ، لا أدري مِنْ أينَ قدمتْ، لكنّني أدري أنّها ليستْ من الأرض، إنّها يَدٌ عُلويّة، إنها يَدُ السّماء.

نهضتُ خفيفًا، شيءٌ من النّشاط غير المُعتاد يملأ كِياني، النّهايات دائِمًا مختلفة، غريبة أحيانًا، لكنّ فيها لمسة من الجمال، ونهاية هذا اللّيل الّذي يُلملم بقاياه ليرحل، نهايةٌ جميلة، إنّها بداية الشّروق

الّذي ستُوقِظ به الشمس الحياة على هذه القرية الصّغيرة الوادعة النّائمة في حضن النّهر، بل على هذا الجزء من كوكبنا السّاهم في الفضاء.

مشيتُ عبر الغرفة، لم أُوقدِ السّراج، مَنْ يعرف المكان لا يضلّ، أنا كنتُ أتلمّس الطّريق بقدمَي، كنتُ أبصر بهما. صرتُ على بابها المُفضي إلى البسطة، شققتُه ببطء، فانداح تيّار من الهواء ملأ الغرفة في لَحَظات، صار الفضاء الآن كلّه أمامي، اجتاحتْني برودةٌ مُنعِشة، فسارعتْ إلى طَردِ ما تبقّى من النّوم في جسدي، تمطّيتُ وأخرجتُ نفسًا طويلاً، ثُمّ أرسلتُ طرْفي في السّاحة الفسيحة الّتي تفصل بيتنا عن النّهر، كانتْ تبدو حزينةً ثكلى على ضوء القمر الشّاحب الّذي يرسل نوره الخافت فوقَها، ظِلال أشجار النّخيل زادتْ في حُزنها هي الأخرى، لكنّ النّخلات بدونَ حزيناتٍ كذلك، صامتات صمت القبور، ومُرهقاتٍ كأنّ كلّ نخلةٍ قد فقدتْ عزيزًا عليها، لمعتْ في ذهني كلمة أختي: «الخيل مثل الإنسان» وهمستُ دون أنْ أدري: «والنّخل مثلُ الإنسان». مرّ تيّار من الهواء على صفّ النّخلات الأقربِ إليّ، فتمايل سَعَفُها، شعرتُ أنّها قالتْ لي: «نعم يا أخي».

كنتُ أعرفُ أنّه وقت الأذان، فكّرتُ، أنا أحفظُه، لماذا لا أرفعه بنفسي. حسمتُ الأمر: «سأفعل». فكّرتُ من جديد: «من هنا، من هذه البَسطة، أم أمشي إلى النّهر». حسمتُ أمري مرّةً ثانية. سأرفعه من ضِفّة النّهر، على الأحياء والمخلوقات الّتي خلفَ النّهر أنْ تسمعَ نداء الله الخالد.

مشيتُ بهدوء، حتّى إذا صرتُ على ضِفّة النّهر، وهممتُ أنْ أرفع الأذان توقّفتُ، كان عليّ أنْ أستقبلَ القِبلة، تلك آدابٌ لا بُدّ منها، انفتلتُ جهة اليمين قليلاً، صار النّهر عن يساري، جُزؤه الأبعد يبدو أمامي بعد أنْ ينعطف. هممتُ أنْ أرفعَ الأذان، فسمعتُ خشخشةً فتوقّفتُ، خفتُ، قدّرتُ أنّها لآدميّ، نظرتُ حولي أستطلع الأمر، لكنّني لم أرَ شيئًا، بدا لي الصّوت قادِمًا من خلفِ إحدى النّخلات القريبات منّي، دقّقتُ النّظر، فلم أظفر بشيء، قلتُ: «إنّه صوتُ مخلوقٍ ما... لن يضرّني بإذن الله...» اختفى الصّوتُ تمامًا، عُدت فانفتلتُ إلى اليسار حيثُ كانتْ جهتي لأبدأ الأذان، تناهَي إليّ قبل أنْ أبدأ بالكلمة الأولى صوتٌ مُخيف يُشبه تمامًا الصّوت الّذي سمعتُه أنا وآمنة في إحدى جلساتنا على هذه الضّفّة، هذه المرّة دبّ الرّعبُ في أوصالي، كدتُ أجري عائدًا إلى البيت، لولا أنّ الصّوت اختفى كأنّه لم يكنْ، نفضتُ رأسي واستعذتُ بالله من الشّيطان الرّجيم، حدّثتُ نفسي: «نعم إنّه الشّيطان يثنيني عن أنْ أقومَ بهذه الفضيلة!». شجّعتُ نفسيّ: «لن يغلبني، أنا أقوى منه: «شجّعتُ نفسي أكثر: «إنّ كيدَ الشّيطان كان ضعيفًا».

حزمتُ أمري، وبدأتُ الكلمات الأُول: «الله أكبر... الله أكبر...» وحاولتُ أنْ أُجوّد صوتي كما يفعل المؤذّنون، وسررتُ عندما شعرتُ أنّ صوتي جميلٌ بالفعل، وعندما قلتُ مرّة ثانية: «الله أكبر... الله أكبر...» شعرتُ أنّ الطّيور والحيوانات والأشجار والنّهر والحجارة والتّراب كلّها قد ألقتْ رؤوسَها على صُدورها وراحتْ تسمعُ في

خشـوع، وعندمـا قلـتُ في نهايـة الأذان: «لا إلـه إلاّ الله..» شـعرتُ أنّ النّهـر بكـى، وأنّ النّخـل بكـى هـو الآخـر، والحجـارة والطّيـور والأغصـان والسّعف... شـعرتُ أنّهـم بَكَـوا لبِـكُاء النّهـر، فرحـتُ أنـا أبكـي، وكنـتُ فرحًـا وأنـا أبكـي، ولا أدري كيـفَ اجتمعـا فِي تلـك اللّحظات الخاشِـعات معًـا؟

وعزمــتُ عــلى العــودة إلى البيــت، فلــم أكــدْ أمــشي خطــوات حتّـى سـمعتُ صـوتَ أبي، خـرجَ مـن خلـف النّخلـة القريبـة، احتضنّـي طويـلاً، وشـدّ عـلى جذعـي، وبكـى بُـكاءً حقيقيًّـا وقتَهـا، وقـال لي: «لقـد تبعتُـكَ منـذ البدايـة، تسـلّلتُ خلفَـك لأرى مـاذا تفعـل، فلـمّا أحسسـتُ أنّـكَ انتبهـتَ إليّ اختبـأتُ خلـفَ النّخلـة، وسـمعتُ صوتَـك الجميـل، وأداءَكَ المُتقـن لـلأذان، وحروفـك العربيّـة المُحقَّقـة؛ لَشَـدَ مـا أنـا فخـورٌ بـك». وأردف: «مـن اليـوم تسـتحقّ لقـبَ الإمـام الفـارس». وفي الطّريـق القصـير عائديـن عـبر السّـاحة سـألتُه: «هـل سـمعتَ ذلـك الصّـوت يـا أبي؟». ونظـر إليّ، وقـال كأنّـه لا يـدري: «أيّ صـوت؟». وشـعرتُ أنّ أبي يُخفـي شـيئًا. وخفضـتُ طـرفي، وأكملـتُ الطّريـق، ويـدي الصّغـيرة في يـده.

كانــت أختـي آمنـة، وأمّـي عائشـة قـد اسـتيقظَتا، أخذتْنـي أختـيَ مـن طـرف يـدي، وانتحـتْ بي جانِبًـا، وهمسـتْ في أذني: «لقـد سـمعتُك. إنّـه أجمـلُ صـوتٍ سـمعتُه في حيـاتي». ابتسـمتُ، وشـعرتُ بالزّهـو. أردفـتْ: «إذا اسـتطعْتَ في كلّ يـومٍ أنْ توقِظَنـا بهـذا الصّـوت الجميـل، فسـتكون قـد أهديتنـا شـيئًا ثمينًـا». لم أدرِ مـاذا أقـول لهـا، لكنّهـا نظـرتْ إليّ بعينَيهـا

السوداوين العميقتَين على عادتها، وشدّتْ على يدي برفق: «هل تَعِدُني أنْ تفعل ذلك؟». «أعدُك، لكنّني أخشى ألاّ أستيقظ». «أنا أوقظك». لم تدرِ أختي أنّها لن تستطيع أنْ توقظني بعدَ اليومِ أبدًا!!

صلّى بنا أبي الفجر جماعةً في البيت، قرأ سورة السّجدة في الرّكعة الأولى على عادة الأئمّة في قراءتها في صلاة الفجر، وسجدْنا وقتَ السّجدة، وقرأ في الرّكعة الثّانية سورة المُلك، ولم يقرأ سورة الإنسان، فسألتُه بعد أنْ سلّمْنا وسبّحنا: لِمَ فعلتَ ذلك يا أبي؟». فسألني: «تقصدُ قراءة سورة الملك بدلاً من سورة الإنسان؟». فأجبتُه: «نعم». ردّ: «إنّها سُنّة، أردتُ لك في هذه الجمعة بالذّات أنْ تتفكّر في معاني سُورة الملك، المُلكُ لله، ولعلّك تنسخها اليوم بخطّ يدك، ونضعها في المسجد لِمَنْ أرادَ أنْ يقرأها». أجبتُه بشيء من عدم الرّضا: «سأنسخها يا أبي، لا تقلق. ولكنّني كنتُ أنتظر أنْ تقرأ في نهاية سورة الإنسان قوله: يُدخِل مَنْ يشاء في رَحمته». فنردّ من خلفِك: «اللّهمّ أدخِلْنا في رَحمتك». وافقتْني آمنة الّتي كانتْ تسمع الحِوار، قالت: «وأنا كنتُ أودّ أن أدعو هذا الدّعاء: اللهمّ أدخِلْنا في رحمتك». ضحك أبي، وقال: «ها أنتما قد قُلتماها!».

كانتْ أُمّي قد دخلتْ إلى البيت، لِتُعاون (نانا) في إعداد الفَطور. ناداها أبي، تعالَي يا عائشة: «سنقرأ سورة الكهف معًا». ردّتْ: انتظروني ريثما أنتهي من إعداد الفطور، أو ابدؤوا من دوني». قلتُ لأبي: «أدخل إلى المكتبة فأخطّ سورة الملك في هذه الأثناء». أعجبت الفِكرة أبي. سألت آمنة: «أمّا أنا فسأذهب إلى النّهر أجلسُ هناك

حتّى يحين موعد الفَطور». لم تُعجِب الفكرة أبي بالنّسبة لآمنة، قال لها: «لا، لا تفعلي». سألتْهُ متعجّبة: «لماذا؟». أرادَ أنْ يقول لها السّبب لكنّه تراجع في اللّحظة الأخيرة: «أنا أريدُكِ إلى جانبي، ما رأيُكِ أنْ تقترحي كتابًا نقرؤه؟».

أفطرْنا جميعًا، على نسمات الصّباح في البسطة الّتي أمام غرفتي. لم آكل ألذّ من ذلك الطّعام في حياتي، سأدركُ السّبب لاحِقًا. ربّما دائمًا ما تأتي التّفسيرات متأخّرة. وفي الوقت الّذي يستوي العلم مع الجهل بها.

بعد الفَطور، قرأنا معًا سورة الكهفِ بصوتٍ عالٍ، وجعلنَا أبي نُعيد قوله: «إنّهم فِتيةٌ آمنوا بربّهم وزِدناهم هُدًى» عشر مرّات. ثُمّ تفرّقْنا إلى غرفنا لنرتاح قليلاً، وقال أبي لأمّي: «أعِدّي لنا حلوى من أجل أنْ نُقيم احتفالاً بتسمية عمر إمامًا». رمقتْه أُمّي بنظرةٍ تنمّ عن عدم الرّضا: «ما زال صغيرًا». «إنّه يقترب من الثّانية عشرة!». «إنّه طفل». «إنّه يحفظ القرآن». «إنّه ولد ما زلْنا نضع له ولأخته الحِرز». «إنّكِ أنتِ الّتي تُصرّين على وَضعِ هذا الحِرز». «هل عُدنا للمشاكل؟». «أنا أقول إنّه ليس ولدًا. اعملي ما أقول لكِ. حصل على لقبِ فارس من آمنة، وسيحصل على لقب إمامٍ منّي. إنّه جديرٌ بهما، وقد كَبُر، ولكنّك تُصرّين على أنْ يظلّ طِفلاً».

حين حميتِ الشّمس، كانت الحلوى جاهزة على طاولةٍ خشبيّة ترتفع عن الأرض قليلاً، وكُنّا جميعًا وقوفًا حولَها، وأمّي تستعدّ

لإعمال السّكين فيها من أجل أنْ توزّعها علينا. حينَها قال أبي، وهو يرفع يده ويُشير بسبّابته: «لحظات وأعود». دخل إلى غرفته، ثُمّ عادَ يحمل بين يدَيه صندوقًا أسود، ووضعه على الطاولة إلى جانب قالب الحلوى، وقال موجّهًا كلامه إليّ: «لقد أوصيتُ عليها سادَتنا العُلماء، فأتوا بها من مدينة (تُوبا)، وإنّ أشياخَنا هناك خَصُّوكَ بها». وفتح العلُبة فإذا هي العِمامة، وكانتْ عبارة عن لَفّة طويلةٍ من القِماش الأبيض، تُلَفّ مرّةَ أو مرّتَين حول طربوشٍ أحمر، ويُعقَد طرفاها من خلف الطّربوش، لينسدل الطّرفان كذيلٍ على عنق لابِسها أو ظهره.

وتناولَها أبي من الصّندوق برفق، ورفعها أمام نواظِرنا جميعًا، وشعرتُ أنّ فرحةَ أبي بها أكبر من فرحتي، ثُمّ اقتربَ منّي، وخفضتُ رأسي استِعدادًا لاعتِمارها، ثُمّ ركَزَها على رأسي، وشدّ طرفَي القِماش الأبيض على الطّربوش، وابتعدَ خطوةً إلى الوراء، ونظَرَ إليّ بعينَين تفيضان سعادةً وفخرًا، وقال: «الآن صِرتَ إمامًا». وقبّلني على خَدَّي، وشَدّ على ذِراعي، وقال: «من الآن عليكَ أنْ تحمي هذه العِمامة، وصلاة الجمعة الأخيرة من هذا الشّهر اليوم ستكون شاهِدًا على دخولك إلى عصر الأئمّة. وطربَ أبي لكلمتَيه الأخيرتَين، وهتفَ بأمّي: «هيّا يا أمّ عمر، دعينا نتذوّق الحلوى اللّذيذة بهذه المناسبة الجميلة».

نعم لبستُ العِمامة في ذلك اليوم، عِمامة الأئمّة، لكنّ هذه المرّة الأولى الّتي ألبس فيها هذه العِمامة كانت هي نفسُها آخر مرّة ألبسها فيها في حضرة أبي.

(١٠)

سنبقَى إلى أنْ تغيبَ الشَمس

لطخةٌ سوداء في بياضٍ لا نهائيّ، لم نكنْ ندري أنّ حدثًا واحدًا، حدثًا يتيمًا سيفعل كلّ ذلك؛ سيصنع جرحًا غائرًا لا يُمكن البرءُ منه.

عُدنا من صلاة الجمعة في المسجد أنا وأختي، إنّه يوم السّباحة في النّهر، ننتظر هذا النّشاط المهمّ عقب كلّ صلاةِ جمعة، فكيفَ إذا كانت الأخيرة من هذا الشّهر؟

قال أبي: «انتظراني سآتي معكما». قلنا له أنا وآمنة: «نسبقك». قالتْ أمّي: «لا تذهبا». أخبرناها أنّ أبي سمح لنا، فتأفّفت. أقبلتْ إلينا تتحسّس جذوعنا، اطمأنّتْ إلى أنّ الحِرز في مكانه في وسطي ووسط أختي. تهتف: «الجوّ حارّ». أردّ: «سنبترد بماء النّهر». تحذّرنا: «لا تتأخّرا. سأُعِدّ لكما طعامَ الغَداء». قلتُ: «لسنا جائِعَين. لقد أفطرنا قبل الصّلاة بقليل». تريدُ أنْ توبّخني، لكنّها تعدل عن ذلك: «ومع ذلك لا تتأخّرا». تتدخّل أختي هذه المرّة: «سنعود عند غروب الشّمس». «هذا كثير». «في كلّ مرّة نفعل ذلك!». «أخافُ عليكما». تهتف أختي: «مِمّ؟». أمّي لا تُجيب، تكتفي بأنْ تُضيّق عينَيها وتُرسِلُ نظرةً إلى الأفق وهي تعقد ذراعَيها على وسطها وتهزّ جذعها قليلاً، تزفر، ثُمّ تدخل

إلى البيت. تنادي على (نانا) بغضب. يسمعها أبي من داخل مكتبة المخطوطات، يهتف بصوتٍ عالٍ: «لقد بعثتُها إلى السّوق».

نركضُ أنا وآمنة إلى النّهر، يبدو النّهر من هنا يفتح ذراعَيه مُرحّبًا بنا. «أوه» أهتف، وأنا أمسح العرق المُتفصّد عن جبيني: «الجوّ حارٌّ بالفعل». تضحك آمنة: «ألم تقلْ سنبترد بماء النّهر». أضحك بدوري، وتبدو المسافة أقصر من المعتاد ونحن نقطع السّاحة الّتي تفصلنا عنه.

كُنّا نلهث، حينَ وصلْنا إلى الضّفّة، قالتْ آمنة: «ما رأْيُكَ أنْ نجرّب السّباحة في تلك المنطقة؟». وأشارتْ إلى انعراجة النّهر البعيدة. أجبتُها: «سنغيبُ عن ناظَري أبوَينا». «نريدُ أنْ نجرّب منطقةً جديدةً للسّباحة، لقد مللتُ الأعماق المنخفضة. أعرفُ أنّ النهر يزداد عُمقه هناك، وأعرفُ أنّك تُحبّ أنْ تجرّب مثلي». أصمت. تنظر إليّ، تُدركُ تردّدي، تأخذني من يدي: «هيّا، لن نخسر شيئًا، إذا لم تُعجِبْنا السّباحة هناك، سنعود. هَيّا، لا تخف». أتبعها مُستسلِمًا، أهتف في أثناء سيرِنا إلى ذلك المُنعرج: «الضّفة تكادُ تكون خاليةً من النّاس. هل زَهِد النّاسُ في السّباحة؟». تُجيب وهي تغذّ السّير: «لا، ولكنّ الجوّ الحار، انتظر ساعاتٍ وسيفد النّاس من أنحاء القرية كُلّها».

كانت الشّمس تُلهِبنا بسِياطها، أهتف وأنا أُعدّل العِمامة الّتي لا أزال ألبسها منذ صلاة الجمعة، وأمسح عن جبيني العرق المُتصبّب من تحت الطّربوش: «الشّمس حارّة». تردّ منزعجةً: «أوووه... لقد

سمعتُ هذه الجملة من قبلُ... كفى تذمّرًا... ثُمّ ألستَ أنتَ الّذي اقترحتَ ماء النّهر لكي نُخفّف به لهيبَ الشمس». أمشي مُطاطِئًا رأسي كأنّني أذنبت. نصل إلى المُنعرج. الصّخرة هنا لطخةٌ أخرى في هذا البياض المائيّ. خلفها يختبِئ القدر.

أخلعُ العِمامة، أعلّقها على أقربِ شجرة نخيلٍ إلينا، ثُمّ أخلعُ ثِيابي إلاّ ما يستر عورتي، تتخفّف أختي من ثيابها. نضعُ الثّياب على حجرٍ كبيرٍ من الحجارة الّتي يجلسُ عليها النّاس هنا. أسألها: «الحِرز؟». «ماذا بشأنه؟». «هل سنسبح وهو ملفوف حولَ أوساطِنا؟!». تصمت. أتابع: «سيبتلّ بالماء». تُكمِل: «والرّقوق ستذوب، والآيات ستمّحي». أسألها: «والعمل؟». «سنخلعها ونضعها على الحجر مع الثّياب». «لكنّ أُمّي حذّرتنا مِرارًا ألاّ نفعل». «هناك استثناءات». «السّباحة؟». «الماء». «هل أنتِ متأكّدة؟». «نعم». خلعتْ حِزرها بسرعةٍ فور أنْ أنهتْ كلمتها الأخيرة، وحذوتُ حذوَها وأنا مُطمئنّ، وقفزنا إلى الماء مثل سمكتَين.

كانتْ أمهرَ منّي في السّباحة. يتلوّى جذعها تحت الماء كأنّه من عجين، وتنساب ذراعاها مع جذعها في تناغمٍ فريد، وتتحرّك رِجلاها كذيلِ سمكة، وأنظر إليها وأنا أغوصُ مثلها، وأسأل: «مِن أيّ نوعٍ من الحُوريّاتِ أنتِ؟».

نغوصُ كثيرًا، نكتمُ أنفاسَنا، نُطلِق لأحلامنا العنان، ونضحك على سذاجتها أحيانًا، أُبصِر سِربًا من الأسماك الصّغيرة

يسبح في الماء كأنّه سربٌ من الحمام الأسود يسبح في السّماء، أتابعه، يلتفّ على الصّخرة، ويختفي تمامًا، أرفع رأسي، وترفع هي رأسها في اللّحظة ذاتها، ونحن نلهث جرّاء كتم النّفَس، أسألها: «هل سنبقى الوقتَ كلّه هنا؟». «سنبقى إلى أنْ تغيبَ الشّمس». «إنّها فترةٌ طويلة». «هل مللت؟ أليست السّباحة في هذه المنطقة العميقة ممتعة؟!». تمدّ ذراعَيها الأملسَين حولَها بحركة دائريّة وتسبح باتّجاه الصّخرة، تهتف: «سأجرّب أنْ أسبحَ خلفَها». أقول لها: «لا تفعلي». تضحك: «لماذا؟». «أخافُ عليك!». «تخافُ عليّ أم تخافُ على نفسك». أغتاظ، تتابع إغاظتي: «متى ستتخلّص من خوف الأطفال الّذي يسكنك، لا تدعني أندم على تنصيبي لك فارِسًا». أبلع ريقي، ولا أجدُ ما أردّ به عليها، تتركني، وتسبح باتّجاه الصّخرة.

آخر كلّ شيءٍ مُرعب؛ آخر كلّ حلم، آخر كلّ نجاح، آخر كلّ حياة، إنّه يجعلنا نبكي دون عَزاء. كانتْ تُتابع سباحتها بسلاسة، وأنا واقفٌ في الماء، أتابعُ رشاقتها المتناهية في الحركة... الصّمتُ سيّد المكان، فقط صوتُ خفقان أذرع هذه الفراشة الّتي تسبح بهدوء في النّهر... ما عدا ذلك لم يكن هناكَ من صوتٍ... لا صوت الطّيور، ولا الهواء، ولا حفيف الأوراق، ولا حتّى ماء النّهر الّذي كان لعُمقه في الجهة الّتي نحن فيها يبدو ساكنًا... فجأةً في هذا الصّمت السرمديّ انشقّ من الجوف ذلك الصّوت، الصّوت الّذي سمعناه أنا وآمنة معًا ذات يوم... قفز فجأةً قلبي من صدري حتّى وقف في حلقي، أرهفتُ سمعي، فتأكّدتُ من أنّني لا أهذي، إنّه ذات الصّوت، كدتُ أختنق

بقلبي الّذي بلغ حنجرتي، أردتُ أنْ أصرخ بها: آمنة... آمنة... لكنّ قلبي الذي بلغ منّي الحنجرة منع لساني أنْ ينطق بكلمةٍ واحدة، لم أستطعْ حينها إلاّ النّظر نحوها بعينَين جاحظتَين، رأيتُها تغوص في الماء، فتأكّدتُ أنّها لا تسمع - بسبب بقائها تحت الماء - شيئًا مِمّا أسمع. علا الصّوت. نَخَر، وهَمْهَم، وهَدَر، وصَوَّتَ بكلّ ما هو مُرعِب... حينَها مددتُ ذراعَيّ، وحاولتُ أنْ أحني جذعي لأسبح باتّجاهها كي أحذّرها، ولكنّ الصّيّاد اللّئيم لم يمنحني الفرصة، كانَ قد فغَر فاه الطّويلة يسيل الزّبد من أطرفه ومن تحت أسنانه، ذُعِرَت أختي حينَ رفعتْ رأسَها من الماء، ورأتْ أنيابه في مواجهتها دون سابقِ إنذار، بحركةٍ لا إراديّة سريعةٍ لفّتْ جسدها تريدُ أنْ تهربَ منه، فغر فاه أوسعَ ما يكون وهوى بفكّيه على رجلَيها، والتقمَها في لحظة، نَفَر الدّم، فَارَ، ملأ أشداقَه، وانسابَ مع الماء فشكّلَ بقعةً قانية... لم تندّ عن آمنة صرخةٌ واحدة، يبدو أنّها لم تُحسّ بعدُ بأرجلها الّتي أصبحت لقمةً سائغة في فم ذلك الوحش، ظهر لي بكامله من خلفِ الصّخرة، كان لا يزال مُنهمكًا في ازدِراد فريسته، سمعتُ طقطقات عِظامها تحت أنيابه، تجمّدَتْ أطرافي، غطّاني الهَلَع، تابعتُ المشهد المرعب، كان جذعها قد صار هو الآخر تحت أنيابه، وقد غَطّاها الدّم وغَطّى كلّ شيء، هل نزعَ منها الرّوح مرّة واحدةً فلم يُمهلها أنْ تطلقَ ولو صرخةَ استِغاثةٍ أخيرة؟ كان الدّم ما يزال يُلطّخ الماء والأشداق؛ لطخةٌ أخرى في بياضٍ لا ينتهي، وعيناها؟ أعرفُ عينَيها تمامًا، وأعرفُ ما تريدان قولَه، لقد حفظتُهما عن ظهر قلب؛

كانتا تنظران إليّ برجاءٍ عميق؛ كانتا تقولان كلّ شيءٍ ولا تقولان شيئًا، عيناها في النّزع الأخير - ودون أنْ تتمكّن من أنْ تتلفّظ باسمي ولو لمرّة أخيرة - كانتا تقولان لي: «يا أخي لا تتركني أنتهي في أنياب هذا الوحش... يا أخي لقد منحتُكَ لقبَ فارسٍ، فكنْ فارِسًا وأنقذني من الموت... يا أخي لا تعدْ إلى البيتِ منْ دوني...». وكنتُ أرتجفُ مثل رجفة النّهر إذا هبّتْ عليه النّسمات، وكان الوحشُ منشغلاً عنّي بوجبته، ورأيتُ عينيه تُغمِضان وتدمعان، وهو يتلذّذ بالتِهام فريسته أو ما تبقّى منها. لم أدرِ ما أفعل؟ كيفَ يُمكن أنْ أتصرّف؟ ماذا يدور بخَلَدِ واحدٍ مثلي في مثل هذا المشهد الّذي يُجمّد الدّم في العروق...؟! نعم، بدلاً من أنْ أُنقذها أنقذتُ نفسي، وبدلاً من أنْ أكون فارِسًا اخترتُ أنْ أكون جبانًا، وبدلاً من أنْ أُحبّها كما أُحبّ نفسي، استأثرتُ بحُبّ نفسي فحسب، نعم... في لحظةٍ فارقة من الهلع والذّعر هربت؛ بالتّأكيد هربتُ كما يهربُ الجُبناء، سبحتُ باتّجاه الضّفّة، وقفزتُ من الماء على الصّخور، وأطلقتُ ساقَيّ للرّيح، كان التّمساح في تلك اللّحظة يُتمّ التِهامها لتستقرّ بكامل جَمالها في معدته!!

وصلتُ إلى البيتِ، وأنفاسي تتقطّع، ورِجلاي لا تكادان تحمِلانني، سقطتُ من الإعياء، وأُغمِيَ عليّ. آخر ما سمعوه من صُراخي، كان آمنة.. آآآمنة... آآآآآآآآآآمنة!! لطخةٌ أخرى في سوادٍ لا نهائيّ!!

(١١)

غدًا سنُكمل حديثَنا، الآن علينا أنْ ننام!

لم تطلع الشّمس بعد ذلك اليوم أبدًا. غربتْ إلى الأبد. أختي كانتْ شمسَ الدّار. الدّار الّتي أعتمتْ، وحلّ السّواد في كلّ ناحيةٍ منها.

أمّي لمْ تُصدّق أنّ التّمساح أكل ابنتَها، في ذلك اليوم هُرِعت إلى النّهر، وهي تصيح باسمها، تنادي عليها بلهفة، تتخبّط في مشيتها، وهي تصرخ فِيّ: «أين أنتِ يا حبيبي؟ أين...؟». وكانتْ تركضُ على ضفّة النّهر، تفحصه بنظراتها بلهفة، كانتْ قد خرجتْ حاسرة الرّأس، وأبي خرج حاسر الرأس هو الآخر، وكانتْ تشدّ شعرَها في الطّريق وتصرخ، ظلّتْ تنقّب ضفّة النّهر، حتّى رأتْ ثيابَنا من بعيدٍ، فركضا باتّجاههما، تفقّدت الثّياب، ووجدتْ الحِرزَين في طَيّاتهما، انشقّتْ من جوفِها صرخةٌ عبرت الفضاء والكواكب والمجرّات والسّماوات: «لماذا خلعتما حِرزَيكما؟ ألم أقل لكما ألا تخلعاهما مهما كانت الظّروف؟». وراحتْ تصرخ دون وعي: «آمنة... آمنااااااااه». وراحتْ تخوض برجلَيها في النهر، وتتعثّر وهي تهتف: «أنتِ هنا يا حبيبتي، لا بدّ أنّكِ هنا... التّمساح لم يأكلك؟ التّمساح لا يأكل فتاةً طيّبة ورائعةً مثلك؟ التّمساح يأكل الشّقيّات؟ لا... لا... التّماسيح لا تظهر في هذا الوقت من السّنة؟ لا بدّ أنّ عمر يكذب، لا بُد أنّه يتخيّل... ليسَ

هناك تمساح... ولم يأكلكِ... وأنتِ لم تموتي...». كان أبي يلحق بها، احتضنَها من الخلف، محاولاً أنْ يُهدِّئ من رَوعها، ولكنّها دفعتْه بيدَين قويّتَين، وصرختْ: اتركْني، أنتَ السّبب في كلّ هذا؟ لماذا تركْتهما يذهبان وحدهما؟ ألم تقلْ إنّك سترافقهما؟ أنتَ كاذب... أنتَ ملعون...». وراحتْ تتخبّط في الماء، وهي تصيح: «آمنة... آمنااه... آمنااااه». لحق أبي بها من جديد، وشدّ عليها بذراعَيه أكثر هذه المرّة، واحتضَنها بقوّة، فاستسلمتْ له، وأرختْ رأسَها على صدره، وراحتْ تنتحب، ظلّ صدرها يعلو ويهبط وهي تنشج، إلى أنْ هدأتْ قليلاً، ورفعتْ رأسَها وصوّبتْ نظرها باتّجاه أبي، وسألته بلهجة المخذول: «ستبحثُ عنها؟». وانسكبتْ دمعةٌ من عين أبي، وزفر زفرةً حرّى، وقال: «بالطّبع يا حبيبتي... بالطّبع». ردّتْ بكلمةٍ تقطر رجاء: «عِدْني بذلك». وشدّها أبي نحوه بحنوّ، وهتف: «أعدك».

حَمَلها أبي في ذلك المساء إلى البيت، كانتْ مُنهكة، قد نهشَها التّعب تمامًا، وثقب الحُزن قلبَها. مدّدها أبي على السرير، وغطّاها، وغرقتْ في لحظاتٍ في نومٍ عميق. أمّا هو فأخذ زاويةً من الغرفة، وكوّر نفسَه فيها، وراح يبكي كالأطفال!

في اللّيل انتبهتْ من نومِها، قفزت من السّرير، وصرختْ: «آمنة... آآمنة...آآمنااااه». عبرتِ الغرفة، فتحتِ الباب بقوّة، صرّ الباب، سَمِعه أبي، انتبه، رآها على ما تبقّى من ذُبالة المِصباح تركضُ حافية، ركضَ خلفَها، كانتْ تجري مثل غزالةٍ هاربةٍ من صَيّاد لعينٍ، وكان يركضُ خلفَها وهو يهتف: «يا عائشة... يا عائشة...»، وهي لا

تسمعه، سبقَها، وقفَ في وجهها، فنظرتْ إليه بعينَين تنقدحان شررًا: «ابتعدْ عن طريقي... لن أعودَ دون ابنتي». «سأبحثُ عنها، أمّا أنتِ فيجب أنْ تعودي إلى البيت». «لقد وعدْتَني». «وأنا عندَ وعدي». «تكذب». «أقسم أنّني سأبحثُ عنها... ألا يُرضيك هذا». غافلَتْه، وهربتْ ثانيةً باتّجاه المنعرج البعيد، هذه المرّة غضب أبي، أمسكَها بقوّة، وشدّ عليها، وحملَها بين ذراعَيه القويّتين، وعادَ بها إلى البيت. فكّر في أنْ يُغلقَ عليها باب غرفتها بالمزِلاج، لكنّه عَدَل عن ذلك.

لم ينمْ أبي تلك اللّيلة، ولا اللّيالي الّتي تلتْها، ظلّتْ صرخةُ أمّي ترنّ في أذنَيه: «لماذا تركتَها يذهبان وحدَهما؟». صعدَ إلى العُلّيّة بعد أنْ تأكّد أنّ أمّي غرقتْ في النّوم أو الغيبوبة من جديد، حمل البندقيّة ذات النّابض الأيمن، والمقبض الخشبيّ ذي الزّخارف الفِضّية، عمّرها بالطّلقات، نزل درجات العُلّية بهدوء، تمنّى ألاّ تستيقظ زوجته، وخرجَ من البيت. مشى في السّاحة، كان ضوء القمر خجولاً كأنّه فقدَ عزيزًا، كانت النّخلات تُطأطِئ هاماتهنّ كأنّهنّ ثكالى، وكان سَعَفُهنّ مُتهدّلاً إلى الأسفل كأنّه يائس أو مُستسلم.

مسحَ الشّاطِئ من أوّله إلى آخره، وقفَ عند كلّ صخرة، وراقبَ كلّ حركة، كانتْ هناك في اللّيل أصواتُ كلابٍ تنبحُ من بعيد، وأصواتُ بومٍ تنعبُ في صدورها بين لحظةِ صمتٍ وأخرى، ولم يكنْ في النّهر من حركةٍ باستثناء جريانه، الّذي كان هادِئًا وسَلِسًا، لأنّه لم يكنْ في وقت الفَيَضان، كانت الضّفتان خاليتَين تمامًا من البشر وهادِئتَين.

جلسَ على الحجر الّذي وجد ثيابَ ابنَيه وحرزَيهما فوقه، أحدّ النّظر إلى الصّخرة، هتف وهو يشدّ على أسنانه: «اخرج أيّها التّمساح اللّعين... اخرج... إنْ كنتَ شُجاعًا فابرزْ لي وواجِهني... لكنّني أدري أنّكَ جبانٌ...» ثُمّ غلبته الدّموع فصار يبكي، ويهتف بكلماتٍ مطوطة: «لماذا أكلتَ ابنتي... إنّها أجمل بنتٍ في البلاد كلّها، لماذا أخذتَ أعزّ النّاس على قلبي... لو أنّكَ أخذتَني مكانَها، لكنتُ سامحتُك... أمّا ابنتي...». وتوقّف بُكاؤه، ونشق نشقةً واحدةً وقال بقوّة وإصرار: «أمّا ابنتي فلا... أمّا آمنة فلن أسمحَ لك أنْ تأكلها... سأنتزع أحشاءَك كلّها، سأقطّعك إلى قِطَع صغيرة وأرمي لحمك النّتن إلى الكِلاب...». وصمتَ قليلاً، ثُمّ عادَ إلى البكاء، وخاطبَ التّمساح الّذي لم يظهر: «أرجوك... إنّها طفلتي الوحيدة... هل يُمكن أنْ آتيكَ بالأبقار الّتي في مزرعتي بدلاً منها، سأقدّم لكَ قربانًا ما رأيُك؟ سأجهّز لك وليمتكَ المُفضّلة كما تريد؛ سأقدّم لكَ شاةً سمينةً في كلّ يومٍ... لكن دَعْ لي ابنتي...». وراحَ ينتحب!!

ظلّ أبي شهرًا، يترصّد التّمساح على النّهر، لكنّه لم يظهر أبدًا، وانتظر أبي شهرًا آخر حتّى حلّ وقتُ الفيضَان، وراحَ يترصّده من جديدٍ، حتّى إنّه لم يعدْ في هذا الشّهر إلى البيت أبدًا، ولم يظهر التّمساح ألبتّةَ، وجُنّ أبي، وصرخَ به ذات مرّة: «إنّكَ جبانٌ أيّها التّمساح.. إنّكَ لا تفعل شيئًا غير التّخفّي... ابرُزْ أيّها اللّعين... اظهرْ لي أيّها الشّيطان...» وتحوّل صُراخه وتحدّيه فجأة إلى استِجداءٍ ذليل: «لا أريدُ شيئًا منكَ أيّها العظيم... يا وريثَ الأقوياء... لا شيءَ أبدًا...

أنا أعرفُ أنّكَ أكلتَها... أعرفُ أنّكَ حصلتَ على أروع فتاةٍ على الإطلاق، وأنّكَ اخترْتَها من بين آلاف الفتيات.. أريدُ شيئًا واحدًا فحسب، أنْ تُعطيني جُثّتها لكي أدفنها... أريدُ جثّة فقط، لا أريدُها هي... الآن آمنتُ بأنّها ماتت... ولكنْ ألا تستحقّ جنازةً تليقُ بها، ألا تستحقّ أنْ تدفن... ماذا أقول للنّاس؟ هل أقول لهم: إنّ ابنتي دُفِنتْ في أعماق التّمساح، إنّ قبر ابنتي يتنقّل مع التّمساح في الأنهار ليس له مكان... أرجوك أيّها التّمساح اللّطيف، لا بُدّ أنّكَ أبٌ أنتَ الآخَر، وتفهم مشاعري... فقط الفُظِ ابنتي الّتي التقمْتَها، لقد شبعتَ بها، والآن أنتَ لستَ بحاجةٍ إليها... أنا فقط أريدُ أنْ أدفنها... هل هذا كثير...؟». وراح جسدُه يرتجّ ارتجاجة الذّبالة في المصباح قبلَ انطِفاءته الأخيرة!

مرّتْ ثلاثة أشهر، لم نعثر للتّمساح على أثر، ولم يعثر عليه أحدٌ من صيّادي القرية الّذين يعرفون تلك الأماكن وتماسيحها، وخُيّل لأبي في واحدةٍ من اللّحظات أنّ التّمساح وهمٌ وأنّني اختلقتُ القِصّة، وسألني سؤال المجروح: «هل خيالكَ واسعٌ إلى هذا الحدّ؟». ورددتُ: «تقصدُ أنّني...». «أنا لا أتّهمكَ يا بُنيّ، ولكنْ كيفَ نُفسّر الأمر؟». «لقد أكلَها التّمساح يا أبي. لقد رأيْتُه كما أراكَ الآن». ويهزّ أبي رأسه مُنكِرًا: «مستحيل. كيفَ يأكلها وهو غير موجود؟». «لقد أكلها واختفى يا أبي». «كيفَ اختفى؟! لقد فتّشْنا الماء شِبرًا شبرًا، وقطرةً قطرة!!». وظلّ أبي في تساؤلاته يُحاول أنْ يخرج من الشبكة الّتي أحكمَ الشّكُّ نَصْبَها في عقله!

قالتْ أُمّي لأبي: «لقد قتلتَها». قتلته العِبارة، لم تكنْ تُحبُّها أكثر منه. أردفتْ: «أنتَ لا تستحقّ أنْ تكونَ أباها». طعنتْه بخنجرٍ آخر في الصّدر، وتابعتْ: «أنتَ لستَ أبًا،الآباء الجديرون بهذه اللّقب هم وحدهم القادرون على أنْ يحموا بناتهم، أنتَ لا تستحقّ أنْ تحميها». قضتْ عليه بهذه الكلمات الأخيرة، كانتْ طعنةً في الحَلْق، ظلّ بسببها يثعبُ دمًا حتّى نزفَ دمه كلّه.

قالتْ له مرّة أخرى: «كانَ يُمكن أنْ تتزوّج، لقد أتاها خُطّابٌ كثيرون، كان الشّباب يتهافتون على أنْ تكون ضوء بيوتهم، كان يُمكن أنْ تكون لها عائلة، أبناء يقفزون من حولها، كان يُمكن أنْ يكون لها حياة سعيدةٌ... ولكنّكَ قضيتَ على كلّ هذا، ولأيّ سبب؟ من أجل أنْ تبقى في غرفتك اللّعينة بين تلك الأوراق الصّفراء الّتي أكلها العثّ». ولم ينبس أبي بحرف، وإنْ كان الرّجل الّذي في أعماقه يموت شيئًا فشيئًا.

لم تنمْ أُمّي إلاّ وحِرزُ أختي تحتَ رأسِها، كانت تصحو في اللّيل وتمدّ يدها تحت الوسادة، وترفعه أمام ناظرَيها، وتقبّله، وتبكي بُكاءً مريرًا، وكانتْ تهتف: «أنتِ لم تموتي، لو كنتِ ميّتةً لكُنّا عثرْنا على جُثّة، أنتِ فقط غبتِ وستعودين». ثُمّ في الصّباح تبدأ بلَومِ أبي: «لماذا أنتَ جالسٌ هنا، وتأكل كأنّ شيئًا لم يحدث، قُم، فابحثْ عن آمنة، لا بُدّ أنّها تنتظرنا... إذا غبتَ عنها أكثر من ذلك فسيحدث لها مَكروه... إذا لم تخرجْ فسأخرجُ أنا». وتروح تُهدّد أبي، يقول لها أبي بصوتٍ خافت: «لقد مرّ على ذلك ثلاثة أشهر. لم نعثرْ لها على

أثـر. إنّ هـذا يؤلمنـي بالقَـدْر الّـذي يُؤلمـك، ولكـنْ علينـا في النّهايـة أنْ نـرضى بقـدر الله». تسـتفزّها الجملـة الأخـيرة، تهـبّ واقفـةً عـلى قدمَيهـا، يتطايـر الشّرر مـن عينَيهـا، تسـأل بغضـب: «مـاذا تقصـد؟... هـه... مـاذا تقصـد؟؟!». «لا مفـرّ مِمّـا أراده الله». يـزداد تصاعـد أنفاسِـها، أشـعر بقُتـارٍ يخـرج مـن فتحتَـي أنفِهـا، وهمـا ينغلقـان وينفتحـان بسرعـة: «هـل تريـد أنْ تقـول إنّهـا...». يلـفّ أبي ذراعَيـه حولَهـا: «علينـا أنْ نقبـلَ أنّهـا صـارتْ عنـد الله... آمنـة مـاا...». لا تدعـه أمّـي يُكمـل الكلمـة الأخـيرة تنفـض يدَيـه عنهـا، وتـصرخ: «لا... لا... آمنـة لم تمـت». وتنهـار عـلى الأرض، وأرى جسـدَ أبي يرتـجّ مـن النّحيـب وهـو مطـرقٌ ينظـر إليهـا لا يـدري مـا يصنـع!!

مكثـتْ أمّـي في الفـراش شـهرًا آخَـر، لا تغـادره، لم يكـنْ لهـا مـن شيءٍ لتصنعـه إلا الاستيقاظ في أعـماق اللّيـل، وإخـراج الحـرز مـن تحـتِ وسـادتها ومحاكاتـه كأنّهـا تُحاكـي أختـي. كانـتْ تعدهـا، تقـول لهـا: سأشـتري لـك ثوبًـا جميـلاً للعـرس، وسـآتي بِمَـن تصنـع لـك أحـلى تسريحـة، وسـتضعين التّـاج عـلى جبينـكِ الجميـل، وسـتلبسـين عِقـدًا مـن اللّؤلـؤ، وطَوقًـا مـن المـاس، وقِـلادة مـن الذّهـب... سـوفَ يبـذل لـك أبـوك كلّ مـا يملـك مـن مـالٍ لتكـوني أجمـل فتـاةٍ في البـلاد كلّهـا، وأحـلى عـروسٍ رأتهـا فوتـا تـور... ثُـمّ تقـول لهـا في نهايـة الحديـث: «غـدًا سـنُكمل حديثَـنا، الآن علينـا أنْ ننـام». وتُعيـد الحِـرز إلى مكانـه، وتُلقِـي برأسِـها عـلى الوِسـادة وتغـرقُ في النـوم.

(١٢)

غارقٌ في الذكرى

لم تعدْ ثمّة دروبٌ لأسلكُها. كلّ الدّروب مُغطّاة بالشّوك والدّم. كان الدّم دمي. وكان لطخةً أخرى في بياضٍ لا ينتهي. أتذكّر عينَيه الدّامعتَين وأشلاء أختي بين فكّيه وأبكي بحرقة، كان يبكي هو الآخر، كانتْ دموع التّماسيح شاهدةً على أنّه يعيشُ حالةً من المُتعة لم يسبقْ له أنْ عاشها حتّى تفيض عيناه على هذا النّحو!

لطخة أخرى في بياضٍ لا ينتهي. صوتُ الأذان. يرتفع. ترتفع معه. أريدُ منكَ أنْ نغادر معًا هذه الضّفّة الملعونة. أكان صوتي هناك في ذلك الفجر هو الّذي جلبَ التّمساح إلى هذه الضّفّة المشؤومة، أأنا الّذي قتلتُ أختي فيها نَصّبني أبي إمامًا؟! لطخةٌ أخرى في بياضٍ لا ينتهي.

ماذا أبقَى التّمساح من أختي؟! ليسَ معقولاً أنّه أكلها كُلّها، التّماسيح رُبّما يُغريها صوتُ العِظام الّتي تنهرس بين الفكّين المُفترسَين، ولا يعنيها القلب بشيء. أعتقد أنّ التّمساح لم يأكلْ قلبَ أختي. مُؤكّدٌ أنّه لم يأكل روحَها أيضًا. روحُها ما زالتْ هنا، في مكانٍ ما. قلبُها محفوظٌ في قَعر النّهر كما يحفظُ الصّندوق جوهرته الأثيرة. روحها معي أنا. أعرفُ ذلك من صوتِها الّذي لا يُفارقني، يهمسُ في أذني، على عادته: «هل تعدني أنْ تفعل ذلك». أردّ بمستوى

رجائها نفسه: «أعدكِ، ولكنّني أخشى ألاّ أستيقظ». ما خشيتُ منه وقع، دائمًا يقع ما نخشاه، أمّا ذلك الّذي نتحدّاه فلا يأتي، وذلك الّذي نُهمله لا يظهر بتاتًا. أخشى ألاّ أستيقظ أبدًا بعد موتك يا أختي.

ما زالتْ أنيابُه الصّفراء الّتي تُشبه الخناجر العاجيّة تلمع لي في الظّلام وهي تقطر دمًا. لقد كان يتلمّظ، يُطبق فَكّيه بهدوء ويستمتع وهو يهرسُ اللّحم والعظم والأطراف، كيفَ يمكن أنْ تغيب هذه الصّورة النّازفة عن بالي؛ الذّكرى قاتلٌ آخر، لو كان بإمكاني النّسيان لفعلتُ، ولكنّني غارقٌ في الذّكرى، كلّما أدرتُ وجهي عنها لكي أنسى طلعتْ لي في ألف وجه. يا آمنة، لماذا تُعذّبينني وأنتِ ميّتة؟ ولكنْ مَنْ قال إنّك مُتِّ؟!

أرتجف مثل النّهر، أبكي كما يبكي، أرقصُ رقصة الذّبيح كما يفعل، أسير تائهًا إلى مصبّي الأخير دون هُدًى مثله، وأتلوّى حول الصّخور الّتي تبرز لي فجأةً كما يتلوّى. وفي قلبِي قلبُها، كما في قلبِه هو؛ لا بُدّ أنّها هناك!

الطّريق المُخضّب بالدّم زَلِق. لا ينتهي، ولا يُوصل إلى غاية. كلّما مشيتَ فيه سقطت. أنا أسقطُ كلّما خطوتُ خطوةً واحدة. حاضري كومةٌ مِن العِظام رمى بها إليّ ماضِيّ بكلّ ما فيه من ألمٍ وأمل، ومستقبلي قِطعةٌ من الظّلام كلّما غُصتُ في الذّكرى اتّسعتْ في القلب.

سوفَ أخرج من البيت، لم يعدِ البيتُ لي كما لم يعدْ لها، لم تعدْ هذه النّخلات الّتي أرحْنا في ظِلها، ولا تلك السّاحة الّتي تسابقنا في أرضِها، ولا تلك الضّفاف الّتي جلسْنا عندها، لم تعدْ لي؛ لأنّها لم تعدْ لها!

سوفَ أخرجُ من هنا وأسير حافِيًا في وسط الهجير على رمل الصّحارى حتّى تتشقّق قدمايَ من الشّوك، وتتشقّق شفتاي من العطش، وتتشقّق روحي من الشّوق، ولو هلكتُ في الدّرب سأكون قد تخفّفتُ من أعبائي؛ لا ذنب أثقل من حَمْل الماضي على كاهل القلب، ولا ألم أشدّ وطئًا من وخز الضّمير. لديّ طريقةٌ واحدةٌ للتخلّص من كلّ هذا؛ أنْ أخرج من قلبي!

حلقتْ أُمّي رأسَها، لم تتركْ شعرةً واحدةً فيه، ودهنتْه بالزّيت، ولفّته بقطعة من الخيش، ونامتْ بعده يومَين مُتتاليَين، عندما استيقظتْ في اليوم الثّالث نادتْ بصوتٍ مبحوح وعينَين نصف مُغمضتَين: «آمنة... أين أنتِ يا آمنة؟! أنا عطشى، ائتيني بكأسٍ من الماء يا ابنتي». جاءها أبي بالكأس، أسندها في الفِراش، شربتْ منها نُغبةً واحدة، وحينَ أتمّتْ فتحَ عينَيها ورأت أبي، رمتِ الكأس وبصقتْ ما في فمها من ماء، وتمتمتْ بكلماتٍ غير مفهومة!

تناثرَ عالَمنا إلى شظايا صغيرة حادّة، فجأةً صرنا كلّنا يتامَى، فجأةً تحوّل الهدوء والطّمأنينة إلى عذابٍ لا ينتهي، كأنّما كان بيتُنا القويّ مجرّد هيكلٍ من زجاجٍ سحَقَتْه صخرةٌ عملاقةٌ هبطتْ عليه من قمّة جبلٍ شاهق!!

كيفَ حدثَ كلّ هذا؟ كان يُمكن أنْ تُصيبَنا نِعمة النّسيان - مثلما تصيبُ أيَّ بشريّ، فنعودُ إلى طبيعتنا - لو لا أنّ أمّي أبقتْها خارجَ بيتنا وطردتْها، وبصقتْ في وجهها، بل ولاحقتها، وهدّدَتْها إذا حاولتْ أنْ تطوف ببيتنا مرّة أخرى.

انتهزتْ أمّي فرصةَ غيابِ أبي، كان يجلسُ مثلَ منبوذٍ على ضفّة النّهر عند تلك الصّخرة الّتي تُذكّره بها، كان ينظر إليها ساهِمًا لا يفعل شيئًا، يُطيل النّظر إليها دون أنْ يطرف له جفن كأنّه ينظر في الفراغ، ودون أنْ تتحرّك له جارحة كأنّه تمثالٌ مصبوب. شيءٌ ما في صمتِه رنّ في أذنه، سمع صوتًا يُشبه صوتَ الأقسام الّتي تُصدرها البندقيّة الفرنسيّة في العُلّيّة، وقف مثل طريدةٍ رأتْ أسدًا ظهر لها بكامل رَهبته دفعةً واحدة، ركضَ أبي إلى البيت، وهو يصرخ: «عائشة... عاااائشة... لا تفعلي ذلك... أنا قادمٌ...». لكنّها لم تكنْ لتسمعه حتّى ولو كان معها في الغرفة نفسها، كان يجري كنمرٍ، ويثب كفهد، حينَ وصل لاهِثًا إلى باب الغرفة، كانتْ أُمّي قد أتمّت سحبَ الأقسام، ووجّهتِ البندقيّة إلى وجهها بشكلٍ مباشر بعد أنْ جثتْ على رُكبتِها وركزتْ فوقهَا كعب البندقيّة، وحشرتْ فوهة البندقيّة في أعلى عنقها، صرخ أبي هَلِعًا: «لاااا». لكنّها أطلقتِ النّار، واهتزّ كلّ شيءٍ في الكون، وسال الدّم غزيرًا، لطخةٌ أخرى في بياضٍ لا ينتهي؛ كانت الطّلقة إعلانَ موتٍ مُخطّطٍ له احتجاجًا على موتٍ قَدَريّ!

فقدتْ أمّي التّركيز لرجفة يدها ولقلّة أكلها ونومها، فمالت البندقيّة فاخترقت الرّصاصةُ كتفها الأيمن وخرجت من الجهة

الأخرى، نزفتْ أُمّي كثيرًا قبل أنْ تُعالَج. فقد أبي كلّ حيلة. جُنّتْ أمّي. لم تعدْ تجلسُ معنا. لم تعدْ تأكل. صارتْ شاحبة. نحيلة كأنّها عرجون نخلةٍ يابسة. قرأ أبي عليها القرآن. رقاها بكلّ رُقية لكنّها ظلّتْ تسمع ولا ترى. جلسْتُ مع أبي نقرأ عليها معًا ونرقيها، لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعًا وظلّتْ تعيشُ في عالَمٍ آخَر.

بعدَ تلك الحادثة، رمَى أبي الرّصاصات في النّهر، وخبأ البندقيّة، وأغلقَ باب غرفتهما إلى أجلٍ غيرِ مُسمّى، وسمحَ لأمّي أنْ تأخذ معها فِراشَها وحِرز أختي. أصبحا ينامان خارج غرفتهما؛ أمّي تنام في غرفة آمنة وتقضي اللّيل في النّحيب، وأبي ينام في غرفة الضّيوف كأنّه غريب.

هل عليّ أنْ أودّعهما وأتركَ لهما المكان يتدبّران أمر حياتهما كما يشاءان؟ هل أقول لهما كم أحبّهما وكم أحبّ أختي، ولكنّ هذا الحبّ لم يعدْ قادرًا على أنْ يحمي حياتنا معًا، أو يجعلها تستمرّ بشكلٍ طبيعيّ؟ وإذا كان كلّ شيءٍ سينتهي فلماذا أزيدُ جراحهما بكلمة الوداع النّازفة هذه؟ فلأتركْ المكان وحسب؟ كلّ شيءٍ مُنتهٍ. لا شيء يُفسّر ما نحن فيه. لا قدرةَ لبشريّ على فَهم ما جرى ويجري، لماذا على البشر أنْ يُفسّروا كلّ شيءٍ ما دام الله وحده القادر على ذلك؟!

قال أبي لأمّي: «أريدُ الحِرز؟». ركضتْ إلى غرفة آمنة حيثُ انتهى بها المطاف، تأكّدتْ من أنّه موجودٌ، قبضتْ عليه بكلتا يدَيها، وهي تنظر إلى أبي بتحدٍّ: «ماذا تريدُ منه؟». «آمنة ماتتْ». «آمنة لم تمتْ، وستعود». «لقد وجدتُ جُثّتها». لمعتْ عينا أُمّي مثل لَبُؤةٍ

جريحة، وخفق قلبُها بشدّة، وراحت تسأل بكلماتٍ مُتلعثِمة: «حَقًّا؟ أين هي جُثّتها؟». ردّ أبي وقد بدا أنّه ضاقَ ذرعًا بكلّ ما يجري: «إنّها بين يديك». «ليس بين يديّ سوى ما تبقّى منها». «تمامًا؛ نريدُ أنْ ندفنَ ما تبقّى منها حتّى نقول إنّنا دفنّاها». نخرتْ أمّي، وكشّرتْ عن أنيابِها، وكادتْ تقفز وتُعلّق أسنانها في عنق أبي، لولا أنّه صرخَ هذه المرّة على غير عادته: «ماذا أصابكِ يا امرأة؟ هه؟ هل ما أطلبُه منك أمرٌ صعب؟ ماذا أقول للنّاس؟ أقول لهم إنّ ابنتي اختفتْ ولا أدري أين هي؟ سيقولون كيفَ تختفي لا بُدّ أنّ أحدًا خطفها؟ هل تريدين أنْ تسمعي هذه العبارة منهم؟ هه؟ أأقول لهم إنّ ابنتي استقرّ لحمُها وعظمُها في بطن تمساح؟ هل تريدين أنْ يسخروا منّي؟ أنا أقول لكِ: إنّني أريدُ أنْ أدفنَ ما تبقّى منها لأدفنها؟ أريدُ أنْ أقول للنّاس إنّ ابنتي قد ماتت؛ إنّها بالفعل قد ماتت؟ أريدُ أنْ أقرأ الفاتحة على روحها، وأضع شاهدةً على قبرٍ يحمل اسمَها...». وانهار أبي، وسقط على الأرض، وراحَ يبكي؛ البُكاء سهلٌ إذا كان لديك ما تبكي عليه، فيما أمّي ظلّتْ تُحدّق فيه كأنّها لا تسمع شيئًا ثُمّ انصرفتْ إلى غرفة آمنة، واندسّتْ تحتَ الفِراش، وسقطتْ في جُبّ النّوم وهي لا تزال تشدّ على الحِرز بكلتا يدَيها!

(١٣)

هنا ترقد آمِنة

نحنُ نسافرُ عكس مياه النّهر يا أبي. هل تُدرك كم هذا مؤلم؟! ماذا لو استسلمْنا، وتركنا أنفسنا يسحبنا النّهر إلى حيثُ يشاء. إنّ مغالبة تيّاره المُتدفّق والسّباحة عكس أمواجه حماقة؛ أليسَ كذلك؟ ألم تقلْ للشّيخ الّذي جاء من أجل أنْ أحفظَ القرآن علي يدَيه أنْ يسير معي من أوّل القرآن لا من آخره، دعْنا نرمِ أنفسنا هناك باستسلامٍ تامّ وننتظر النّتيجة، فلْيأخذنا الماء إلى حيثُ يريد؟ ألم تقلْ إنّ هذا النّهر صديقُنا؟ ألم تقلْ إنّه وهبَ لنا ولآلاف النّاس من سُكّان هذه القُرى الحياة؟ فلماذا نخاف اليوم بالذّات أنْ يهبنا الموت؟

كنتُ أجد عند أبي إجابةً لكلّ سؤال؛ كان عالَمي الفسيح الّذي حلّق بي إلى السّماء، لِمَ لا أجدُ اليوم عنده إجابةً لأبسط سؤال: «لماذا أكل التّمساحُ أختي دون سِواها؟». يبدو السّؤال بسيطًا لأوّل وهلة، لكنّه بمزيدٍ من التّفكير يبدو مُعقّدًا، لا يملك له أحدٌ إجابة، لأنّه ينبني على عشرات الأسئلة الّتي تسبقُه: لماذا رفعتُ الأذان في فجر ذلك اليوم في تلك الجهة بالذّات؟ لماذا تركْنا الحِرْزَ على الشّاطئ مع أنّ أمّنا حذّرتْنا ألف مرّة وأخذتْ علينا العهد ألف مرّة ألاّ نفعل؟ لماذا سبحتْ أختي وحدها باتّجاه الصّخرة حيثُ كان التّمساح ينتظرها على أحرّ من الجمر؟ لماذا اختار التّمساح أختي وأنا على مقربةٍ منها،

وكان يُمكن أنْ يفعل ذلك معي لا معها؟ لماذا كان النّهر يضحك في وجهنا كلّ مرّة وفي ذلك اليوم بالذّات كان يبدو كأنّه يبكي؟ هل هو متلوّن إلى هذا الحدّ؛ يبكي ويضحك وهو هو؟ لماذا تكون الحسرة للباقي لا للذّاهب؟ لقد بقيتُ أنا وذهبتْ هي... عشرات الأسئلة يُمكن أنْ تدور حول السّؤال الرّئيسيّ، وكلّ سؤال إضافيّ يُعقّد الإجابة أكثر، ويرمي بها إلى قاع الظّلمات أعمق.

القَدَر وحده لا يُفسّر كلّ شيء. العاجزون والبُلَهاء والحمقى والّذين يريدون أنْ يجدوا إجابةً جاهزةً دون أنْ يُفكّروا في الأمر يقولون: إنّه القدر. نحن القدر يا أختي. نحن نصنعه. نحن نُقدّم له المُقدّمات كلّها. إنّه فُوه يُحرّكه أنفه باتّجاه طريدته، لقد كُنّا في طريقه، وكانتْ رائحتنا تجعله يفغر فاه أوسع ما يُمكن، وكُنّا نسير نحوه. فمن المَلومُ في كلّ هذا؟ ليكفّ أبي عن السّماح لضميره أنْ ينحره على هذا النّحو. لتكفّ أمّي عن لومنا جميعًا على هذا النّحو. لأكفّ أنا عن التّفكير بالماضي على هذا النّحو. ألم تقولي: «الديك مُستقبل، وإذا أردْنا أنْ يكون جميلاً، فلْنسِرْ إليه واثقين. إنّ التّردّد موت. والجهل موت. والخوف موت. وتوقّع الأسوأ موت. دع القدر يجري يا أخي، ونحن نجري معه».

قال لها أبي: «عودي إلينا». تردّ، وهي تحتضن الحِرز: «إذا عادتْ سأعود». فكّر أبي بكلّ شيءٍ يُمكنه جَعْل أمّي تعود إلينا. لكنّ عودتَها ظلّتْ قدرًا لا يعرفُ أحدٌ منّا أنا وأبي عنه شيئًا. استسلم أبي. نظريّة الاستسلام الّتي فكّرتُ بها عملتْ هنا. جعلَها تتصرّف على

سجيّتها، فقط راقبَها من بعيدٍ؛ من أجل ذلك تركَ أبي كلّ شيءٍ؛ أعماله كلّها، وتجارته، وأمواله، وانشغلَ بها. كان يطبخ الطّعام ويضعه أمامها في غرفة آمنة، ويعود آخر النّهار فلا يجد شيئًا منه قد أُكِل. كان يُزيل السّتائر، ويفتح النّوافذ، ويسمح للشّمس أنْ تدخل حتّى تُؤخّر موتَ أُمّي الّذي بدا أنّه حتميّ.

قال لي أبي: «إذا لم تتدخّل العناية الإلهيّة، فسنفقد أمّك». بكيتُ في داخلي، وإنْ كنتُ أجدُ أنّها لن تستمرّ هكذا، أخذ الأمر منحًى آخر، عليّ أنْ أفكّر الآن بالهروب، بعد أنْ فكّرتُ بالاستِسلام. تابعَ أبي: «ربّما نحنُ إذا دخلتَ وخاطبتَها. يبقى الابن بالنّسبة لأمّه أغلى عليها من روحها». دخلتُ. أسندتُها بذراعَيّ. بدا جسدُها النّحيل خفيفًا إلى درجة أنّني لم أشعر به وأنا أسندها، كان كلّ شيءٍ فيها ساكِنًا، باستثناء نَفَسِها الّذي يتردّد خافِتًا في صدرها. تناولتُ لقمةً، غمّستُها بيخنة الموز، ومددتُها ناحيتها برفق، وأنا أقول: «من أجلِنا يا أُمّي... من أجلِنا...». نظرتْ إليّ بعينَين ضيّقتَين، لا تكاد تقوى على فتحِهما، حرّكتْ شفتَيها تريدُ أنْ تقول شيئًا. لم أفهم ماذا أرادتْ أنْ تقول. لكنّها أشاحتْ برأسِها ونظرتْ نحو كأسِ الماء. قرّبتُها من شِفاهها المُتيبّسة. شربتْ. نغبةً، ثانية، ثُمّ ثالثة، بدأتْ ترقوتها تعلو وتهبطُ محاولةً استِعادة حياتها الهاربة مع شبح العطش، والعودة بها عن طريق كأسِ الماء. ظللتُ معها، تشربُ نغبةً نُغبة، حتّى شربت الكأسَ كلّها، كان ذلك إيذانًا بالعودة. انتظرتُ قليلاً، حضنتُها، وطفرتْ من عينَيّ دموعٌ يبدو أنّها اختلطتْ مع دموعها، فتمازَجا: «نحن معك».

قلتُ. ردّت: «نحن ناقِصون». تابعتُ: «بِكِ نكتمل». صمتتْ، كانتْ محاولة. لطخة أخرى في بياضٍ لا ينتهي. مددتُ اللّقمة إليها من جديد. أكلتْ. رقصَ أبي الّذي كان يُراقبُ المشهَد من الخارج، لم أره من خلال رقصته فرِحًا في حياتي أكثر من تلك اللّحظة. أكلتْ أمّي سبع لُقَم. بدأتْ تستعيدُ عافيتها؛ يُمكن أنْ تُصلح الخَزَف المكسور؛ لكنّه لا يعود إلى سابق عهده على النّحو الّذي نشتهي!

من جديدٍ بذل أبي جهودًا مُضنية كي يعيد الأمور إلى مساراتها السّابقة. نجح مرّة وأخفق مرّات، لكنّه في النّهاية لم يستطع؛ كان الجرح أكبر من قلبه الطّيّب بكثير، وحينَ أقول بكثيرأعني ما أقول!

قال لي: «يجب أنْ ندفن الحِرز». «إذا علمتْ أُمّي فستكون تلك طامّة». «لن تعرف». «هل ستسرقه يا أبي؟». «نسرق ما ليس لنا». «ليس لنا». «بل لي، ولولا أنّني وافقتُ أمّكَ في ذلك اليوم الّذي ذهبتْ فيه إلى الإمام ليُجدّد لكما حرزَيكما لما حدث ما حدث». «هل سنبدأ بِنَكْء الجِراح؟». «كلاّ». «وإذًا؟». «ساعِدْني». «كيف؟». «أنا أتكفّل بمغافلتها، وأنتَ تكفّل بتطييب خاطرها». «سألعبُ دور الطّبيب؟». «أنتَ كذلك».

انتظر أبي حتّى تأكّد أنّ أمّي غارقةٌ في النّوم، وتسلّل إلى غرفة آمنة، وعلى أطرف أصابعه يمشي الهُوينى كما يمشي الفهد قبل أنْ ينقضّ، مشى حتّى وصل إلى رأسِها، مدّيده تحت الوِسادة، فحرّكتْ

رأسَها إلى الجهة الأخرى، صار الأمر سِهلاً، تلمّس بيده الموضع فلم يجِدِ الحِرز فيه، صار الاحتِمال الثّاني أنّها نامتْ وهي تقبِضُ عليه بكلتا يديها، سيكون الأمر أصعب، لكنّه ممكن. أزاح الغِطاء عنها بِرفق، كانتْ تعقد يدَيها على صدرها كأنّها في صلاة، والحرز في مُلتقى الكفَّين منعقد، حرّر اليَد اليسرى الّتي ليستْ إلى جنبها الأيمن، ورويدًا رويدًا فَكّ أوّل إصبعٍ ثُمّ الثّاني من أصابع كفّها اليُسرَى، وصار الحِرز حُرًّا هو الآخَر، تناوله، قبَض عليه بيُسراه، وبالأخرى أعادَ الغِطاء فوق زوجته، وبدأ يخرج على أطراف أصابعه كما دخل، سمعها تقول بصوتٍ خافت: «تريدُ أنْ تدفنَ ما تبقّى منها، تُريد أنْ تجعلها من الماضي». تجمّدتْ أطرافُه، ظلّ واقفًا مكانه أوّل ما سمع كلماتها على بُعد خطوتَين من الباب. انتظر لَحَظات، لم تقل فيه عائشة كلمةً واحدةً، فقدّر أنّها تهذي، لكنّها قالتْ جُملتَين مترابطَتين ولا يُمكن أنْ تكون تهذي هكذا، قدّرمن جديد أنّها تُجرّب إستراتيجيّته نفسَها؛ الاستِسلام! الاستِسلام قد يكون حَلاً مُفيدًا» همسَ لنفسِه.

قلتُ لأبي: «فلنَختَرْ أنْ ترقدَ قريبًا مِنّا». ردّ: «نعم يا بُنيّ. أين تقترح؟». أجبتُ: «تحت ظلّ النّخلة القريبةِ من البسطة. سيكون سَماعُها من هنا أوضح». كاد يبكي من أجل العبارة الأخيرة، ردّ: «نعم، سنسمعها معًا». كان ليلٌ. وكان هدوء. يُشبه ذلك اللّيل الّذي خرجتُ من قلبِه، ومشيتُ إلى تلك الصّخرة ورفعتُ فيه أذان الفجر لأوّل مرّة ولآخر مرّة كذلك.

حفر أبي - وأمّي لا تزال نائمةً أو تتظاهر بذلك - حفرةً عميقةً، ولفّ الجِزربقطعة قماشٍ بيضاء، وقبّلها قبل أنْ يُنزلها منزلها الأخير، ويُهيل عليها التّراب. ثُمّ ركز الشّاهدة الّتي كانت من خشب (الوِن)، وكُنّا قد قضينا ساعةً ونحن نحفر عليها: «هنا ترقد آمِنة آمِنة// (١٧٦٧ - ١٧٨١م)// الفاتحة لروحها الطّاهرة». وتلا أبي الفاتحة، وهمسَ في أذني ونحن عائدون: «الأطفال يصعدون إلى الله مباشرة»، وسألتُه: «وهذا الّذي دفنّاه هناك؟». «إنّه ظلّها، والنّاس تؤمن بالظّلال كثيرًا». صارتِ الظّلال بعد ذلك اللّيل تُخيفني!

عادتْ أمّي إلينا بالتّدريج، لكنّ أكثر الذّكريات الّتي تتشبّث بك هي تلك الّتي تريدُ أنْ تنساها بالفعل، وذلك النّوع الّذي ينشبُ في الرّوح.

كنتُ قد صرتُ في الثّانية عشرة، وما زلتُ رغم كلّ ما مرّ، أحتفظُ بلقبَين مُنِحتهما من أقرب النّاس إليّ؛ أختي الّتي منحتْني لقب فارس)، وأبي الّذي منحني لقب (إمام). صارتِ العِمامة تلازمُني، أبي ظلّ يقول: «إنّها رمزُ العِلم والعمل، رمز تاريخنا، وأجدادنا، ورمز عِزّتنا في وجه المُستعمر والمحتلّ والعبيد».

أتممتُ بعضَ ما بدأتُ به هنا، عكفتُ الشّهور التّالية لحادثة دفن أختي في مكتبة المخطوطات، كانتْ أمّي قد بدأتْ تتعافَى. وحينَ بدأتْ هي وأبي مسيرتهما إلى الشّفاء، والرّضى بقدر الله، بدأتُ أنا أتخيّلها في كلّ لحظة، كأنّ لعنة الذّكرى انتقلتْ منها إليّ. ظِلال

الأموات قاسية يا أبي، كلماتهم الّتي أسمعها في أذني قاسيةٌ كذلك يا أبي. لماذا لا يموتُ الموتى إذا ماتوا؟!

وقفتُ أمام أبي ذات مساء، خاشِعًا، وقلتُ له: «لديّ طلب». «لك ما شِئتَ يا حبيبي». «أريدُ أنْ أنتقل إلى مدينة (تُوبا)، وأدرس على يد الشّيخ عُثمان مامب». تفاجأ أبي بطلبي هذا. ردّ بأسى مُحاوِلاً ثنيي عمّا عزمتُ عليه: «وتتركني أنا وأمّك وحدنا». «سأطلب العلم الشّرعيّ المنهجيّ وأعود، ثُمّ إنّني كلّما سنحت لي الفرصة سأفعل، ربّما كلّ ستّة أشهر أو كلّ سنةٍ، سآتي لأطمئنّ على أخباركما». صمتَ أبي ووجم، بعد فترةٍ طويلةٍ من الصّمت، رفع رأسه وقال: «عليكَ أنْ تستأذن أمّك أيضًا». أجبتُه: «لن تقبل». «ومع ذلك لا بُدّ أنّ تقول لها كلّ شيء».

لم تنبس أمّي بحرف واحدٍ، أشاحتْ برأسِها إلى الجهة الأخرى، وظلتْ تنشج بصمت. قلتُ لها أثناء ذلك: «سأحزم أمتعتي اللّيلة، وغدًا في الصّباح سأتوجّه إلى (تُوبا)». زادَ نشيجُها، قال أبي مُخفّفًا عنها: «سيظلّ يزورنا بين فترةٍ وأخرى، هو يعرفُ أنّنا وحيدون ولن يتأخّر علينا... ثُمّ...» وصمتَ قليلاً قبل أنْ يُتابع: «ألا تريدين لابننا أنْ يُصبح عالِمًا ويسير على خُطا أجداده العُلماء المُجاهدين؟». ولم تردّ أمّي بكلمة.

كان ليل ذلك الصّباح أطول ليلٍ يمرّ عليّ، كان قراري بالرّحيل أخطر قرار اتّخذتُه كذلك، وكانتْ تتنازعني العاطفة

والواجب، عاطفتي تُجاه ما أريدُ أنْ أكونه، وواجب أنْ أكون إلى جانب أبويّ أخدمهما وأحميهما، ولكنّ طموحي تغلّب في النّهاية، مع أنّ أسئلة الشّكّ في صِحّة ما أنا مُقدِمٌ عليه ظلّتْ تطعنني.

«لماذا طلبتُ ذلك من أبي؟». السّماء وحدها تملك الإجابة الحقيقيّة؛ أمن أجل العلم؟! فإنّ العلم هنا أكثر من هناك. أمن أجل أنْ أدرس على يدَي شيخٍ؟! فإنّ بيت أبي عجّ على مدار سنواتٍ طويلةٍ بشيوخٍ كثيرين، تعلّمتُ منهم الكثير، وإنّ أبي قادرٌ على أنْ يأتي بهم وبغيرهم إذا أردتُ. أكنتُ أريدُ أنْ أهربَ منّي ومن طيف أختي، ومن نظرات أمّي؟! أكنتُ أريدُ أنْ أعيشَ حياةَ الزّهد، والمشقّة والضّنى والجوع والعطش؛ لأطهّر نفسي من هواجسي وشعوري بالذّنب لترك أختي تموت أمام عينَيّ؟ أكنتُ أدرك خطأ دفن ظِلال أختي على مقربةٍ من غرفتي، وصوتُها يأتيني كلّ ليلةٍ يُحادثني حتّى خلتُ نفسي مجنونًا؟ وحدها السّماء تدري، وحده الله يدري!!

(١٤)

نحن مَشاؤون يا أخي

إنّه الهروب على الأرجح. لديّ حياةٌ أخرى في مكانٍ ما. قدري أنْ أجرّب الحَيَوات كلّها. وماذا يضير المؤمن لو تقلّبتْ به أقدار الله؟! ألا نفرّ من قَدَرٍ إلى قَدَر؟ أليس جهلُنا بالقدر يجعل قبولنا وتقبُّلَنا له أوسع، اختيار الأقدار يُلغيها، لو كُنّا نملك ذلك لما اخترْنا قدَرًا واحِدًا من أقدارنا، إنّ الإنسان لتُلجئه قلّة رِضاه إلى رفض الأقدار كُلّها، إذًا فلْتضربِ الأقدار وجوهنا ونحنُ لاهون أو مُستعدّون، ولنقبلْ ذلك راضين أم ساخِطين!

في الفجر خرجتُ إلى قبرِها، أو ما اصطلحنا أنا وأبي أنْ نُسمّيه قبرَها، وقفتُ وقوفَ الخاشعين المُتبتّلين وتلوتُ الفاتحة، وسمعتُها تقول بعد آخر آيةٍ فيها: «آمين». لقد كانتْ هنا، هنا في قلبي، سألتُها إنْ كانتْ تسمح لي بأنْ أغيبَ عنها؟ قالتْ ما قالتْه لي من قبلُ أو هكذا سمعتُها: « لديك مُستقبل، وإذا أردْنا أنْ يكون جميلاً، فلْنسِرْ إليه واثقين. إنّ التّردّد موت...» انحنيتُ، طابقتُ بين كَفّي منبسطَين، وقرّبتُهما من وجهي: «سأرحل... ستكون لي حياةٌ أخرى». «لن تكون لك سِوى حياتِك هذه الّتي لا تعرفها. أمّا الأخرى ففي الأخرى». «إنّني أعرفُ ما أريد». «معرفتُكَ جهل، أنتَ لا تدري ما يصنع الله». «والمستقبل؟». «في يده». فما أفعل؟!». «اهربْ منه إليه». طفرتْ

دمعة، نشفتْ سريعًا على هبوب نسمةٍ باردةٍ حرّكتْ سعفَ النّخل الّذي يُظلّنا: «أنا مُريد». ردّت: «المُريد يسير». «وأنا سائر». «لكنّه يعرفُ أنّ شيئًا ما في مسيره يَنقصُه». «وهل يوقفه ذلك؟». «كلاّ، ولكنّه يظلّ يبحثُ عمّا ينقصه حتّى يصل إليه». «إلى ما ينقصه؟». «لا. بل إلى الله». وطفرتْ دمعةٌ أخرى، وسألتُ وأنا أمسحها برفع رأسي إلى الأعلى لأعرّضها للنّسمات الباردات: «فما ينقص المريد؟». «رحمته». «فاسأليها لي». «لم يعدْ لي لسان، أنتَ افعلْ. اسألها لكَ ولي». وانهملتْ دموعي مرّة واحدة!

صلّيتُ الفجر مع أبي، قال لي: «لقد جهّزتُ لكَ كلّ شيء، ستأخذ أفضل الخيول في الإسطبلات، و...». قاطعتُه: «سأسير إلى مدينة (تُوبا) مشيًا على الأقدام». «إنّها بعيدةٌ جِدًّا». «أريدُ أنْ يكون ذلك تطهيرًا لي، وصفحًا عمّا مضى، وبدايةً جديدة». «إنّها تبعد مسيرة سبعة أيّامٍ بلياليها». «وماذا في ذلك؟». «لا أمان للماشي، إنّها صحراء، وإنّ فيها من الأسود الضّارية ما يجعل المشي خطيرًا. ولكنّك إنْ ركبتَ حصانًا، وتبعكَ خادمٌ على حِصان آخر، فلربّما لن تبيت إلاّ ليلةً واحدةً». «ولماذا الخادم؟». «يُعينُكَ على مشقّة الطّريق؟». «لا. أستطيع تدبّر الأمر وحدي». «والحصان؟». «سآخذه إذا كانتْ هذه رغبتَك، سأقطع المسافة به، وإذا وصلتُ إلى المدينة، سأجعله في خِدمة الشّيخ عُثمان وجماعته». «لا بأس». «سأهبكَ مصحفًا وبعضَ كتب الفقه والعقيدة تستعينُ بها هناك، وتجعلها في مكتبة طُلاّب العِلم، سأضعها لك في رِحال الخيل».

قبّلتُ يدَ أمّي: «تريدُ أنْ تتركنا؟». «لأكون الولد الصّالح الّذي يدعو لكما». «يُمكنك أنْ تكون ولدًا صالحًا بيننا». «أبي قَبِل بذهابي إلى هذه المدينة من أجل التّفقّه، إذا سمح الشّيخ لي فسأعود كلّ ستّة أشهر». جهّزتْ لي ما يُعينني على الطّريق من طَعام. وكتبَ لي أبي نسبه ونسبَ آبائه من العُلماء والمجاهدين في ورقة، وطلبَ أنْ أُسلّمها للشّيخ عثمان، وقال مُحذّرًا، وهو ينظر في عينَيّ: «مَنْ بطّأ به عَمَلُه لم يُسرِعْ به نَسَبُه».

نصبتُ للطّريقِ أُذُنَي، وأرسلتُ طَرْفي، ومضيتُ. قال لي أبي: «من هنا، وستمرّ بسبع قُرَى قبل أنْ تصل إلى غايتك. إنْ كان من وصيّة، فأخلِصْ نِيّتكَ في طلب العِلم، فإنّ الله لا يُؤتي ثمرتَه إلاّ مَنْ كان نقيّ السريرة». كان هذا كلّ ما بقي من أبي في ذلك الصّباح الّذي يمّمتُ فيه وجهي شطرَ أهل العلم.

الطّريق شاقّة على المُريد، ولكنّه يستعذبُ المشقّة في سبيل الوصول. كان أهل (تُوبا) أهل نقاء، وأهل علمٍ وأهل تزكيةٍ وأهل جِهاد، ومَنْ نزع نفسَه من أهل الدُّنيا معتزلاً لهوَهم دون أنْ يأمرهم بالعُرف فقد نقصَ من علمه، ونقصَ من منهجه.

وقال لي الشّيخ: «الرّؤية والكلام لا يجتمعان». فتركتُ الكلامَ لأرى. وكانتْ بلادُنا يومئذٍ تمور في بحرَين من الظُّلم، حُكّامُها المحلّيّون الّذين يَدينون بدين أهلها، والحاكم الإفرنجيّ الّذي لا يدينُ بذلك الدّين، ولكنّهما يجتمعان على أنْ يسكروا من عرقِ النّاس،

ويشربوا من دمائهم. وكانتْ مثل تلك الزّوايا الّتي أسيرُ إليها اليوم شوكةً في خاصرة الحاكِمَيْن معًا.

وصلتُ فجر اليوم الثّاني، استقبلني عددٌ من المُريدين القُدامَى المُوكَّلِين بالمُريدين الجُدد، أخذ أحدهم لِجام فَرَسي، وأدلفني إلى ما يُشبه المسجد، لم يكنْ مسجدًا، كان نواةً لعالَمِ الزُّهّاد في البلادِ كلّها. قلتُ له وصهيل حصاني يعلو على صوتي: «الحِصان في خدمة الشّيخ». ردّ: «ليس لدينا أيّ حِصان، ولا أظنّ أنّ الشّيخ سيستبقيه». «فكيفَ تصلون إلى غاياتكم؟!». «نمشي، نحنُ مشّاؤون يا أخي». «فلْيفعل به الشّيخ ما يريد». «على الأرجح سيقايضه بالتّمر أو بالقمح أو بما يُؤكل من أجل المريدين». «فلْيفعلْ، أنا وهبتُ نفسي من قبله في هذه الخِدمة».

قال لي رفيقي: «مريدٌ جديد؟». أجبتُه: «نحن مشّاؤون يا أخي». ضحك. قال: «المُريدون غرباء». قلتُ: «نغترب عن أوطاننا لا عن أنفسنا. نغترب عن أوطاننا المألوفة، لنصل إلى أوطاننا المُحقَّقة. نغترب عن التّراب لنصل إلى القلب». «إنّها كما قلت، وإنها لغربةٌ طويلة... والآن سترتاح قليلاً. وقُبيل الظّهر، سيلتئم شملُنا».

كان الشّيخ مَهيبًا، يلبسُ ثيابًا بيضاء ناصعة، وعِمامته كذلك بيضاء، يلفّها على رأسه وينتهي طرفُها، فيُحيط به عنقه، حدّثتُ نفسي وعيناي تتفحّمه: «ستكون هذه عِمامتي إذا أردتُ أنْ أمضي في هذه الطّريق».

قال الشّيخ: «إنّنا في قومٍ خرجوا من وثنيّة، ولكنّهم لا يزالون يُخالِطون وثنيّة، إنّها وثنيّة يُصيبها الدَّهَش منّا، من أولئك الّذين يتوجّهون إلى قبلةٍ تبعدُ من هنا مسيرةَ سنةٍ كاملةٍ، يقومون بحركاتٍ غريبةٍ، ويُصلّون لإله لا يرونه. أهل الوثنيّة عندهم حياتهم العاجلة، لا يُهلكهم إلا الدّهر، وعندنا الآجلة، وما يُصبّرنا على الأولى ويقوّينا على احتمال شظف العيش فيها إلاّ أمل بلوغ الآجلة وما فيها من نعيم، الأولى معبر الأخرى، ولا يكون هذا المعبر إلاّ بالمُجاهدة والمُجالدة والمُغالبة. وإنّ أهل الوثنيّة لا تُؤمن إلاّ بما ترى، ولا تعتقد إلاّ ما تُخالِط، وأمّا نحن، فنجاهد من أجل أنْ تتحرّر أجسادُنا وأوراحنا، وإنّ أجسادَنا في الدُّنيا لتتحرّر بالجهاد المادّيّ، وإنْ أرواحنا في الآخرة لتتحرّر بالجِهاد المعنويّ».

(١٥)

اخلعْ نعلَيك

«نحن مَشّاؤون يا أخي». امشِ ولكنْ لا تجعل التّراب يَعلَق بقدمَيك. للتّراب ذاكرة. يحفظُ أعمال المَشّائين والدُّعاة والمجاهدين والّذين ساروا إلى الله، وحتّى أولئك الّذين ساروا إلى الدّنيا. للتّراب ذاكرة يا أخي، اخلعْ نعلَيك، تخفّف من تُرابِ قدمَيك، فإنّ أوّل منازلك عندنا أنْ تهبَ لله كُلّك. نحن لا نُريد لأحدٍ أنْ يذكرنا، نحن لا نريد إلا منه أنْ يذكرنا. نسيان البشر لنا وجهٌ من وجوه نِعمته، ونسيانه لنا أكبر خسارةٍ يُمكن أنْ نُمنَى بها في حياتنا هذه وفي حياتنا تلك: «فاليوم ننساهم». نحنُ مشّاؤون يا أخي.

كانتْ مدينة (تُوبا) مهوى أفئدة المُريدين، كانتْ قريةً منسيّة فذكرها الله حينَ ذكَرَه عابدوه فعمرتْ، وكانتْ بيوتًا مُبعثرة لا يزيد عددُها عن أصابع اليدَين، ولا يجمعها رابطٌ فجمعها رابطُ التّوحيد، وكانتْ أشجارًا غريبةً لا يستظلّ بظلّها أحدٌ، فصار كُلّ مَشّاءٍ يُريح تحت أشجارها المتناثرة جسده من تعبٍ طويل.

وكُنّا نحن المريدين نعيش في بيت الله، في مسجدٍ أسّسه الشّيخ (دِيا) الّذي يعني بالعربيّة (ضِياء)، كان المسجد كلّ شيءٍ بالنّسبة لنا، كان مُكوّنًا في بدايته من مئذنةٍ وحيدةٍ من الطّين والحجارة ترتفع

بمقدار عشرة أذرع تقع أمام المسجد، ومن خلفها صحن المسجد الّذي كانتْ جُدرانه من الطّين كذلك، وكان مسقوفًا بجريد النّخل، ومن خلف المسجد تقع المنامات، كانت هناك منامات للمُريدين، ومنامات للعلماء وللشّيخ، وكُنّا نأكل من خَشاش الأرض في مكانٍ واحدٍ في آخِر المسجد، على بسطةٍ من الطّين ترتفع أقلّ من شبرين عن بقيّة أرض المسجد. وكان أقربُ بيتٍ إلينا يبعد مسيرة الشّمس من الضُّحى إلى الزّوال.

جاء إليها الشّيخ (دِيا) وحيدًا، انعزل فيها عن النّاس عَقدًا من الزّمن، لا يرى أحدًا من البشر، خاليًا إلاّ من مُناجاته لله، يُقلّب طرْفَه في السّماء، ثُمّ آمنَ بِفكرته إخوةٌ من أهل العِلم، هم شُيُوخُنا اليوم، وتعاهَد مع هؤلاء العُلماء على أنْ يُؤسّسوا فيها مدينتهم التّائبة، الخارجة من سُلطان البشر، المُخلَصة لله، وكانتْ تقبل الفارّين إلى الله من أهل الدّنيا فِرار السّليم من المجذوم؛ فوضَع لها حَجَر الأساس، وكان هذا البناء هو ذلك الأساس، والنّواة الّتي امتدّتْ من بعده حتّى صارتْ مدينةً عظيمةً فيما بعدُ.

في المسجد، كانتْ تُقام الصّلوات الخمس كلّها جماعة، وكان الشّيخ (دِيا) يَؤُمّنا فيها كلّها، وطَوال إقامتي هنا الّتي استمرّت ما يقرب من عشرين عامًا لم يتخلّف عن صلاةٍ واحدةٍ منها ألبتّة. وكُنّا نتسابق نحن المريدين أنْ نصلّي خلفه في الصّفّ الأوّل عن يمينه؛ حتّى تكون عينُه حين يسلّم التّسليمة الأولى تقع أوّل ما تقع علينا، وكان أقربهم عن يمينه يحظى بهذا الشّرف أوّلاً، ثُمّ الأبعدون، ثُمّ يأتي

مَنْ يقع عن يساره في تسليمته الثّانية ثُمّ الأبعدون. أمّا الّذين كانوا يُصلّون في الصّفّ الثّاني وتفوتهم الصّلاة في الصّفّ الأوّل فقد كانوا يشعرون بمرارة الخسارة، ويندمون على ذلك بقيّة يومهم.

كان المُريدون يأتون من البلادِ كافّة إلى (تُوبا)، كانوا يأتون من (بوندو) و(هلوار) و(جابا) و(امبومبا)، وغيرها... كانتْ يومئذٍ البُقعة المُبارَكة الّتي يتخلّص فيها المُريد من أدران الدّنيا، فيرتقي من تلك البقعة إلى ربّ السّماء، وكان اسم المريدين مأخوذًا من أولئك الّذين يريدون الوصول إلى الله. وكُنّا نعرفُ كلّنا بما فينا الشّيخ والعلماء الّذين يُدرّسوننا أنّ الوصول إلى الله غاية الغايات، لكنّها شرفٌ لا يُعطيه الله لكلّ أحدٍ، ومع أنّها كانتْ تحتاج إلى زهدٍ بالغٍ، وتجرّدٍ من العلائق الدّنيويّة الثقيلة كافّةً إلاّ أنّ الشّيخ كان يقول: «وإنّها ليسيرة على مَنْ يسّرها الله عليه».

كُنّا نقوم اللّيل، لم تمرّ ليلةٌ دون أنْ يكون المسجد عامِرًا بالقائمين، وكُنّا نختار من بيننا أجملَنا أصواتًا، وكنتُ أحدَهم، فلم يمرّ شهرٌ على مُكثي هنا، حتّى صِرت إمام بعض الصّلوات في الهزيع الأخير من اللّيل، ثُمّ بعدَ سنةٍ قدّمني الشّيخ (دِيا)، فصرتُ مؤذّن صلاتَي الظّهر والعصر، ثُمّ لم تمرّ السّنة الثّانية حتّى صِرتُ مؤذّن الصّلوات كلّها. وكانتْ تلك درجةً عاليةً، ومرتبة عظيمة، وصورةً لثقة الشّيخ فيمن يختاره لمهمّة جليلةٍ كهذه، وكُنّا نحن المُؤذّنين أطولَ النّاس أعناقًا.

كانَ نهارُنا مُقسّمًا إلى ثلاثةِ أقسام، من صلاة الفجر إلى الضّحى يعلّمنا الشّيخ (محمّد) القرآن والعربيّة ونحوها وصرفها وبيانَها وأساليبَه ويُعرّج على الأدب والشّعر. ثُمّ نتناول إفطارنا في غير أيّام الصّيام، ثُمّ نرتاحُ قليلاً، ثُمّ نقوم من غفوتنا، فنُراجع ما ثقفناه من القرآن ودروس العربيّة، ثُمّ نصلّي الظّهر لنختم بذلك الجُزء الأوّل. ثُمّ نستعدّ للجزء الثّاني، ونتهيّأ، فنلبس عَمائمنا البيضاء الملفوفة على رؤوسنا، ونجلسُ في حَلَقاتٍ، حلقتَين أو ثلاثٍ منتظرين قُدوم الشّيخ (سليمان كمبة) الّذي كان يُعلّمنا الحديث، وكان يقرأ من صحيح البُخاريّ الّذي أخذَ منّا عشر سنين فقهًا وتدبّرًا وعملاً، وكان بشرح ابن حجر العسقلانيّ، وكانتْ نسخةٌ يتيمة في مكتبة المسجد الّتي تقع عن يمين المحراب، ولم تكنْ يدٌ لتمتدّ إليها غير الشّيخ، باستثناء يوم الجمعة فقد كان للمريد الّذي يطلبه الشّيخ للخدمة، أنْ يأخذه بين يدَيه بهيبةٍ ورَهبة، فيفتحه بعد أنْ يجلس جلوس الخاشع الهيّاب، فيفتحه على الموضع الّذي شرح منه الشّيخ، ونقرأ نحن عليه ما حفظناه منه، إذ كان منّا قومٌ حُفظَة، وكان أكثرنا على هذا النّحو، وكُنّا جميعًا نحفظ القرآن إلاّ مَنْ كان دون العاشرة أو أولئك الّذين قَدِموا إلى (تُوبا) حديثًا. وكانتْ لنا ألواحٌ من خشب (غنطي)، وكان بعضُنا يمكثُ في نَجْر لوحٍ واحدٍ أسبوعًا بعد فراغه من قضاء واجباته في العِلم، وكان عندنا مَهَرة في صناعة الألواح، ويوم قدمتُ إلى هنا راعني منظر الألواح المصفوفة في موضعٍ مخصوصٍ لها بين الباب والبسطة. وكانتْ تُصفّ كلّ عشرةٍ في صفّ، ثُمّ إلى جانبها عشرة أخرى، وقد عددتُ

ستّةَ صفوفٍ في بداية مجيئي إلى هنا. وكانتْ بيضاء تميل إلى الصُّفرة، وكُنّا نكتب فوقَها بما أوقدْنا عليه، مِمّا تبقّى من الفحم أو السّناج، وإذا كان بعضُنا محظوظًا - وكنتُ أنا من هؤلاء - فقد كان بإمكانه أنْ يحتفظَ ببعض الرّقوق، ودواة مليئةً بالسّناج، يغمسُ فيها ريشته، ويخطّ فوقَها بعضَ ما حفظ أو وعى. وكانتْ تلك رفاهية لا تتوافر إلاّ للقلّة القليلة منّا، غير أنّ أيّام الرّفاهية الكُبرى الّتي كنتُ أعيشُها في قريتنا وفي مكتبة أبي، وتلك الرّقوق الوفيرة والحبر الجيّد فوق سطح مكتبه فقد ولّتْ على ما يبدو إلى غير رجعة.

في العام الثّاني لقدومي إلى (تُوبا)، زادَ عددُ نسخ صحيح البُخاري، بعثَ أبي إلينا بنُسختين أخريَين منه؛ أعلمني بذلك الشّيخ (سُليمان)، وتذكّرتُ أبي بعد هذا الغِياب، وترحّمتُ على الأوقات الّتي كان هو فيها شيخي، وعلى تلك الأيّام الّتي كان يستقدمُ فيها النُّسّاخ إلى بيتنا، فينسخون له ما يشاء، ويُعطيهم أجرَهم مقابل ذلك وزنها ذهبًا.

ثُمّ يُنهي الشّيخ (سُليمان) دروس الحديث مع صلاة العصر، فأقف وأرفع الأذان، ثُمّ نهبط طيورًا صغيرة، نهوي إلى الصّفوف الأولى نتسابق إليها، حتّى يأتي الشّيخ (دِيا) فيؤمّنا للصّلاة. وكان بعد الصّلاة يبعثُ بعضَنا في خدمةٍ لا تستغرق وقتًا طويلاً، إمّا لجمع الحطب من أجل حلقة الذّكر ليلة الجمعة، وإمّا لتنظيف فِناء المسجد، وكان بعضُنا مِمّن كُلّفوا في ذلك اليوم لإعداد طعام الغَداء،

يأذن لهم شيخ الحديث في آخر درسه، فيذهبون إلى المطبخ الّذي نخزن فيه الطّعام، وكان إلى جانب منامات العلماء، وكان علينا أنْ نعبر الممرّ الّذي يفصل بين المطبخ وبين منامات العُلماء، ونكون مكشوفين لهم تمامًا إذا أزالوا أستار مناماتهم، وكان ذلك كافِيًا ألاّ تُسوّل لنا أنفسنا أخذ بعض ما في المطبخ من طعامٍ خلسةً أو دون إذن، فقد كُنّا نعيشُ حالةَ تَقَشُّفٍ دائمة!

أمّا القسم الثّالث من اليوم فكان يتولاّه الشّيخ (جبريل عبد الله)، وكان عالِمًا بالعقيدة والتّاريخ والسِّيَر، وكُنّا نجلسُ في درسِه على وقتَين، وقت ما قبل صلاة المغرب، ووقت ما بعدها، أمّا ما قبلَها فكان يُقرِئنا فيه العقيدة، وأمّا ما بعده فكان يُقرِئنا التّاريخ أوالسّير، وكان الجزء الثّاني من أفضل الأجزاء وأحبّها إلى قلبي في اليوم كلّه، فقد كنتُ أجدُ متعةً في قَصَص الأوّلين والآخرين، يسردها الشّيخ بأسلوبه الفريد، ويستخلص لنا منها العِبَر والعِظات. وكُنّا ننام بعدَ صلاة العِشاء لنصحو على الفجر نشيطين إلاّ في حالَين، مَنْ كان يريد أنْ يراجع محفوظه من القرآن أو الحديث أو الشّعر أو المواعظ أو القَصص أو يفرغ للنّسخ، والحالة الثّانية هي ليلة الجمعة الّتي كُنّا نُخصّصها للذّكر الجماعيّ، والّتي كان يتولّى أمرَها مولانا الشّيخ (دِيا). وكانتْ الجمعة الأخيرة من كلّ شهرٍ قمريّ تُخَصَّص للسّمر، نروّح بتلك اللّيلة عن أنفسنا بما لذّ وطاب من الحكايات والأناشيد والأشعار، وكانتْ تدور علينا فيها الحلوى الشّهيّة الّتي كان يصنعها بعضُ المَهَرةِ مِنّا.

على هذا النّحو كانت حياتُنا. تسيرُ على إيقاعٍ منضبطٍ مُتناغم. وكُنّا مثلَ خليّة نحل، يعرفُ كلّ واحدٍ منّا دوره في تلك الخليّة، ويقوم به دون أنْ يُطلَب منه، أو قبلَ أنْ يُشير إليه الشّيخ به، ولم يكنْ فينا أحدٌ ليتذمّر من طبيعة ما نعيشُ ههنا من شظفٍ وزُهدٍ وانقِطاع عن النّاس من أجل العِلم؛ إذ جُلّ مَنْ أتوا إلى هذه البُقعة المُبارَكة جاؤوا بمحض إرادتهم وطَوْع اختِيارهم، وبمباركةٍ من أهليهم وذويهم.

وكُنّا نعيشُ على ما تُنبتُ الأرضُ من حولِنا، وما يبعثُه النّاس لنا، ونأكل اليسير مِمّا نجد، وكان بعضُ المُوسرين في أنحاء البِلاد يدفعون إلينا زكاة أموالهم، وكان المُريدون قد غرسوا هنا بعضَ أشجار النّخيل، وكُنّا نجد عناءً في سِقايتها في البداية، ثُمّ صار الله يسقيها، وصارتْ من أهمّ مصادر الطّعام عِندنا، نأكل منها ما كان رُطبًا أو يابِسًا، ونصنع من ثمرها دِبس التّمر، والعسل، ونُجفّف بعضَه في أيّام المَحْل، وكُنّا نتّخذ من عذوقها غِطاء وفِراشًا، وكُنّا نُريح في ظِلالها أيّام الهجير. ومع الزّمن تكوّنت لدينا أُلفةٌ مع أشجار النّخيل، حتّى صارتْ تُكلّمنا وصِرنا نُكلّمها، وصارتْ تَحنو علينا ونَحنو عليها!

وأمّا الماء، فكُنّا نسير مسيرة يومٍ كاملٍ حتّى نملأ من أقربِ نهرٍ إلينا دِلاءنا، أو من بعضِ الآبار الّتي حفرَها بعضُ أهل القُرى أو الصّلاح لعابري السّبيل، ونعود بها ملأى، فيمكث الماء عندنا أسبوعًا أو بعضَ أسبوع، ثُمّ نُعيد الكَرّة، وكم اضطَرّنا فُقدانُ الماء بصورةٍ مُفاجِئة إلى التّيمّم.

(١٦)

قُوتُ الزاهدِ ما وَجَد

نحنُ مَشَاؤون يا أخي. مَنْ سار إلى الله لن يزيغ. ماذا تأخذُ الدّنيا منكَ في سيرِك الحثيث إليه؟ بعضَ جسدك؟ تعبَك؟ سهرك اللّيالي؟ غُربتَك؟ نأيك عن الأهل والأوطان والأحباب؟ وَمَنْ قال إنّ السّير إلى الله لن يفعل ذلك بِنا؟ نَحنُ مَشَاؤون يا أخي. نحنُ سائرون لا يَثنينا عن المسير إلاّ أنْ نَصل، وأنْ نريح في أفيائه أرواحَنا، ومتّى ستصلون إليه؟ لا يعنينا متى يا أخي، كلّ ما يعنينا ألاّ نتوقّف.

وتأهّبتُ لكي أقف في الهزيع الأخير ذات ليلةٍ أمام أهل القِيام، وركزتُ عِمامتي البيضاء الملفوفة على رأسي، وهممتُ برفعُ كَفَّيّ إيذانًا بالبدء؛ فسمعتُ صوتًا من خلفي، فإذا هو الشّيخ (دِيا)، فسكنتُ من لحظتي، ولزمتُ مكاني صامِتًا كأنّني جِذع نخلةٍ أنتظر ما يطلبه منّي، حتّى إذا صار بين يدَيّ، همسَ في أذني: «يا عبد الله لو قُمتَ قِيامَ السّارية ما نَفَعَكَ حتّى تنظر ما يدخل بطنكَ حَلالٌ أم حرام». فرجفتُ، وشعرتُ أنّ ساقَيّ تهتزّان تكادان تقعان بي، ورأى الشّيخ ما بي، فقال لي: «إنّما أنتَ بين يدَي مَنْ يعرفُ السّرّ وأخفَى» فلم يكدْ يُتمّ عبارته حتّى سقطتُ على الأرض، فسرى الهرج بين المُريدين، فأشار إليهم فصَمَتوا، ثُمّ أمر مَنْ كان ذا ذراعَين، فحملني إلى المنامات، وأمّ بالمُصلّين تلك اللّيلة.

وجُعْنا مرّةً، كان يومًا من أيّام الصّيفِ اللاّهبة، وما كان أحدٌ من أهل القُرى القريبة أو البعيدة يجرؤ أنْ يخرج في نهارٍ من شِدّة الحرّ، ولا في ليلٍ خوفَ السّباع المُفترسة، ومكثْنا على حالِنا لا نجد إلاّ الماء اليسير نسدّ به رَمَقَنا، ثُمّ إنّ أحدَنا تأوّه، فسَمِعَه الشّيخ (دِيا)، فدعاه ودعانا، فاجتمعْنا في البسطة حيثُ كُنّا نأكل أيّام اليُسْر، واجتمع معنا علماؤنا، ثُمّ إنّ الشّيخ وَعَظنا، فقال: «روى النّعمان بن بشيرٍ رضي الله عنهما أنّه قال: رأيتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يظلّ اليوم يتلوّى، وما يجد من الدّقل ما يملأ بطنه». فهلاّ تلوّيتم وربطتُم على بطونكم الحِجارة من الجوع. فبكَيْنا، حتّى سُمِعَ صوتُ بُكائِنا، ثُمّ إنّنا نمنا تلك اللّيلة جَوعَى ما دخلتْ بطوننا كِسرةُ خبزٍ منذ سبعة أيّام، فلمّا نادَى مُنادي الفجر، صلّيْنا لا نكاد نَقوى على الوقوف خلفَ الشّيخ، فلمْ يُسلّم عن يمينه وشِماله حتّى قال: «إنّ اثنَين تحت المئذنة ينتظران أنْ نأذن لهم بما معهما». وأشار إليّ وإلى ثلاثةٍ آخَرين، ففهمْنا ما أراد، فخرجْنا، فإذا هُما بعيران مُحمّلان بالخبز والتّمر والسّمن والسُّكّر. فأنزلنا ما عليهما، وشكرنا صاحبَيهما، وعُدنا بغنيمتنا، فوجدنا الشّيخ كما تركْناه في جلوسه الأخير يبكي ويقول: «وقليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشّكور».

وكُنّا نصوم من السّنة ما يقربُ من نِصفها؛ نصوم رمضان، ويومَي الاثنين والخميس من كلّ أسبوع، والأيّام البيض من كلّ شهر، والأيّام التّسعة الأولى من ذي الحجّة، وستّة أيّامٍ من شَوّال، ويومَ عرفة، ويوم عاشوراء، وغيرها، وكان بعضُنا قد ألزمَ نفسَه

بِصِيام داود؛ يصوم يومًا ويُفطِر يومًا. وما كُنّا نجدُ في الصّوم إلاّ أقربَ الطّرق إلى معرفة الله، والإحساس بِنِعَمِه.

وكُنّا نشتهي، فيردّ شهوتَنا انقِطاعُنا لعبادته، والتّبتّل بين يَدَيه، وكان الشّيخ يقول: «مَنْ لا يقوى على ذلك، فليعدْ إلى أهله، يقضي عندهم ما شاء الله له أنْ يقضي ثُمّ يعودَ إلينا، فإنّنا سائِرون، لا نبرح حتّى نبلغ». وكان بعضُنا يعودُ إلى أهله، ويكون ذلك آخر عهدِنا به، وما بقي إلاّ مَنْ أرادَ أنْ يجتاز القنطرة، وكانت القنطرة بين الضّفتَين عاليةً بعيدةً لا يُرى آخرها، ولكنّنا كُنّا ننظر إليها بعين اليقين، فنصبر، ونجد في الصّبر لذّة. وكان يقول لنا: «طُوبى لمن هُدِي إلى الإسلام، وكان عيشُه كَفافًا، وقَنِعَ به».

وكان فينا القَوّالون المُبلِّغون، وهم أشدُّنا حِفظًا ووعيًا، وكنتُ أنا منهم، وكان شيوخنا (محمّد) و(سليمان) و(جبريل) يضعون بعضَهم في مقدّمة الصّفوف، لكي يكونوا أقربَ إلى سماع النّصّ واضِحًا من فَمِ أحدهم، وكان الشّيخ يأخذُ وقتًا طويلاً في شرحِ آيةٍ أو حديثٍ أو نادرةٍ لُغويّة، ثُمّ يصمت، ثُمّ يأذن للقوّالين مِنّا أنْ يُعيدوا على أسماع إخوتنا ما حَفِظْناه، وكُنّا نُعيده كأنّنا نقرؤه من القِرطاس، وكُنّا نادرًا ما نُخطِئ الكلمة أو الكلمتين، وكان العِلم أكثره في الصّدور لا في السّطور، وهكذا كانتْ مجالسُنا كُلّها.

وكان أبي – الّذي غابَ عن ناظِرَيّ كلّ هذا الزّمن الطّويل – يعرفُ المنهج الّذي ندرسُه على شيُوخنا، وكان لا يزال على عهده

في استِقدام النُسّاخ، لينسخوا له أمّهات الكُتُب، وإنّه أدركَ بفيوض عِلمه هو الآخَر أنّنا بأمسّ الحاجة إلى كتاب (إحياء علوم الدّين) للغزاليّ، فأتى بخمسة نُسّاخٍ دُفعةً واحدةً فنسخ كلّ واحدٍ منهم جُزءًا، ثُمّ بعثَ به إلينا، ووهبَه سبيلاً، فكان لا ينزل من يَدِ أحدنا إلاّ إلى يَدِ آخَر، وكان كثيرٌ مِنّا يحفظُ السّفر الخامسَ منه عن ظَهر قلب لِما فيه من الرّقائق ما يُعين على قَطْع ما خَشُن من أمر هذه العاجلة، ولقد زَهِدْنا في كلّ متاعٍ حتّى أعجبنا قول الشّبليّ حينَ سُئِلَ عن الزُّهد، فقال: «ويلكم؛ أيُّ مِقدارٍ لجناحِ بَعوضةٍ أنْ يُزهَدَ فيها؟!».
وكان شيخُنا يقول: «لا تُعَدّ زاهِدًا إلاّ إذا استوى عندكَ الفقر والغِنى، والمَدحُ والذّمّ، وأنْ تتركَ الدُّنيا لا تُبالي مَنْ أخذَها؛ فلا تفرح بموجودٍ فيها، ولا تحزنُ على مفقودٍ منها». وكان يَعِظنا أيّام الجُوع: «إذا أكلتُ رغيفًا أشُدّ به على صُلبي، وشربتُ كوزَ ماء، فعلى الدُّنيا العَفاء».
وكنّا نؤمن بذلك ونرتضيه ونحن ما نجد الرّغيف نشدّ به الصّلب، لكنّنا نجد نغباتٍ من الماء نشربها إذا اشتدّ الأُوام. ومع ذلك فقد كُنّا نقول قولة الموقنين: «على الدّنيا العَفاء... على الدُّنيا العَفاء».

وكُنّا ننام على جريد النّخل، ونجعله دِثارًا، ولا نضع تحتَ رأسِنا شيئًا. وكان بعضُنا من المحظوظين ينام على حشيةٍ أو حصير، وإنّي مكثتُ عامًا كريتًا ما أنام إلاّ على الأرض، وكان معي ثلّة من المريدين الجُدُد يُقاسمونني تلك النّومة، ولقد كان الحصى يعلق بجذوعنا وبطوننا، ويؤثّر في جنوبنا، ولقد تقشّرتْ من قلّة الفِراش والنّوم على ما قسا من الأرض جلودُنا، وتحسّفتْ تحسُّفَ الحيّة.

وكُنّا نجتمع أيام رمضان، في المسجد؛ المُريدون والشّيوخ، وأهل الذّكر، فنقوم اللّيل، ما نأخذ من طعام الإفطار إلاّ ما يُعيننا على القيام، وكان شيخُنا يقول قولةَ الرّازيّ، يَعِظُنا فيما نحن فيه: «يا أهل الذِّكر، قُوتُ الزاهدِ ما وجد، ولِباسُه ما ستر، ومسكنُه حيثُ يجد لجنبه موضعًا، الدُّنيا سِجنُه، والقبر مَضجعُه، والخَلوة مَجلِسه، والاعتِبار فِكرتُه، والقرآنُ حديثُه، والرّبُّ أنيسُه، والذِّكرُ رفيقُه، والحُزنُ شأنُه، والحَياءُ شِعارُه، والجُوعُ إدامُه، والحِكمةُ كلامُه، والتّرابُ فِراشُه، والتّقوى زادُه، والصّمتُ غنيمتُه، والصّبرُ مُعتَمدُه، والتّوكّل حَسبُه، والعقلُ دليلُه، والعِبادةُ حِرفتُه، والجنّة مَبلَغُه». ثُمّ كان يرى دموعَنا فيخفِضُ رأسه، ثُمّ يقول: «الصّلاةَ جامعةً». فنقوم ونحن أشدُّ ما نكونُ شوقًا إليها.

وكنتُ أصحو من النّوم بعدَ أنْ يمضي من اللّيل نِصفُه، أستبقُ أصحابي قبل قِيام اللّيل أنْ أنفردَ ببعضِ الصّلواتِ بين يدَيه، فقمتُ مرّةً في ليلةٍ من ليالي كانون الثّاني شديدة الظّلام قارسة البرودة، وشعرتُ أنّني خيرٌ من هؤلاء المريدين الّذين يغطّون في هذه اللّيلة الظّلماء في النّوم. خرجتُ من المنامات، أتهدّى الطّريق حتّى وصلتُ إلى الميضأة الّتي كان يتوضّأ عندها بعضُنا بعيدةً عن المنامات، وفعلتُ ذلك حتّى لا يراني أحدٌ ولا أزعجَ أحدًا من رِفاقي، وسكبتُ بعضَ الماء على وجهي فلسعتْني برودة جارحة، ثُمّ سكبتُ الماء على ذراعِي فشعرتُ أنّ الماء سكّين تجرح ذراعي الّتي كانتْ قد تقرّستْ حتّى صار جلدي قاسِيًا كالزّجاج، ولكنّني كنتُ أستحضر في ذلك

البرد الشّديد حديثَ إسباغ الوضوء على المكاره، فاحتملتُ الأمر وأنا أرتجفُ من شِدّة البرد، ثُمّ لم أجدْ إلاّ طرفَ عِمامتي أنشّف بها الماء الّذي تلسعني برودته، ثُمّ مشيتُ حافِيًا إلى شجرةٍ كانتْ خارج المسجد، فمررتُ بالمِئذنة في طريقي، فسمعتُ صوتًا يرتّل القرآن شجيًّا تخشع له الحجارة، وينذَى له الطّين، فإذا هو صوتُ أحد المريدين، وإذا هو واقفٌ والهواء يعبثُ بقميصه الّذي يخفق على جسده النّحيل، وإذا هو يتلو قوله: «ومَنْ يخرجْ من بيته مهاجِرًا إلى الله ورسولِه ثُمّ يُدركه الموتُ فقد وقع أجرُه على الله». وسرت الكلمات السّماويّة الّتي شعرتُ أنّها تتنزّل للتّو في جسدي، فسرى فيه الدّفء والطّمأنينة. ولكنّني في المقابل شعرتُ بالخجل من نفسي، لقد كنتُ أظنّ أنّني أسبَقُ زملائي، وأنّني أتقاهم، ولكنّ وقفة هذا المُريد الّذي لا أعرفُ مَن هو في هذا الظّلام الّذي يُخفيه أدّبتْني على أحسن وجه!

كانتْ أيّامنا في (تُوبا) تمضي على هذا النّحو، ولم أدر على أيّة حالٍ استقرّ أمر أبويّ، فلم أكنْ أعرف من حالِهما شيئًا، إلاّ ما كان يصل إلينا من الكُتب الّتي يبعثها أبي إلى عالِمنا هذا. وقد مرّ على هذا ما يزيدُ عن خمسِ سنوات، وقد قال لي الشّيخ (دِيا): «ألا تعودُ إلى دِيارِك فإنّ أبويكَ لا يصبران على ابنِ هذا الصّبر كلّه إلاّ إذا كانا يُبالِغان في حُبّه!».

(١٧)

أحلام (تُوبا)

ولقد كُنّا قِلّة، ما معنا غيرُنا، ثُمّ كان الشّيخ يقول: «إذا سرتَ إلى الله، فما يضيرُكَ مَنْ سارَ معك مِمّن تَنكّب، يا بُنَيّ، اثبتْ على سبيل الحقّ، ولا تستوحش من قلّة السّائرين فيها». وكان بعضُنا يُصبّر بعضَنا: «نحنُ مَشّاؤون يا أخي». وكان يقول لنا: «مَنْ خافَ الشّيء هربَ منه، ومَنْ خاف الله هربَ إليه». نحنُ مَشّاؤون يا أخي.

وكان يقول: «الله يرضَى لكم التّذلّل له، ولا يرضى ذلك لِسواه». وكان يقفُ والعَصا في يده، ويهتف: «مَنْ خافَ اللهَ خافَه كلُّ شيء. إنّ هذا المستعمر الفرنسيّ قد أفحشَ في البلاد والعِباد، وإنّكم إنْ كنتم تخافون الله فإنّه سيخافكم، وإنّ بلادَنا لمنكوبةٌ من هؤلاء الّذين جلَبوا لنا الرِّقّ والشِّرك». وكان يرفع عصاه، ويهتف بصوتِ فارسٍ شديد المِراس: «وإنّ جِهادَهم لَواجبٌ». ثُمّ فرغَ بعد قُدومي إلى هنا بسبع سنين يُعلّمنا فِقه الجِهاد.

كَثُر الّذين رَغِبوا طريقَ الشّيخ ومنهجه، فَهوت إلينا أعناق، ومالتْ إلينا قُلوب، وأتانا النّاس بعدَ سنين القلّة فصِرنا كثرة، وبعد دهور الضّعف فصِرنا قُوّة. ثُمّ بعثَ ذوو هؤلاء الأموال، فصرف الشّيخُ بعضَها في جُسومِنا، وصرفَ بعضَها في المسجد؛ فوسّعه، ثُمّ مشى ألف ذراعٍ على كلّ حرفٍ من الحروف الأربعة المُحيطة بالبناء

القديم للمسجد فقال هذه حدود مسجدنا الجديد، ثُمّ وضع على الزّوايا أعمدةً تُثبّت تلك الحدود، وصار في داخل أربعة الآلاف ذراع شجرٌ من أوّل عهدنا من النّخيل والموز، ثُمّ أمر فأعلَينا المِئذنة القديمة، كان ارتِفاعُها عشرَ أذرعٍ، فأصبحتْ سِتّين ذراعًا، وصارتْ تُرى من مسافاتٍ بعيدةٍ حتّى من وراء الأدغال، ومكثْنا على ذلك بِضعة أشهر، ثُمّ أمر ببناء أربع مآذن على زوايا المُحيط، اثنتَين في المُقدّمة، كلّ مئذنةٍ ترتفع عشرين ذراعًا، واثنتين في المُؤخّرة ترتفع الواحدة منها أربعين ذراعًا، ثُمّ أمر فبنينا بعدَ عامٍ ثلاثَ قِبابٍ، قُبّةً فوق الميضئة القديمة قريبًا من المئذنة الأولى، وقُبّة فوقَ موضع الطّعام الّذي اتّخذه خارج المسجد، وقُبّة على مناماتٍ استحدَثَها للمُريدين الجُدُد يتمّ تأهيلهم، وتدريبهم على الطّريقة قبل أنْ ينضمّوا إلى رفقائهم في المنامات القديمة، الّتي توسّعتْ هي الأخرى، وظلّ عددُ الشّيوخ ثلاثةً بالإضافة إلى شيخنا الأكبر الشّيخ (دِيا).

بعد عشر سنواتٍ من مجيئي إلى هنا، كنتُ قد أكملتُ العِلم الشّرعيّ الّذي يُؤهلني لأنْ أنضمّ إلى قائمة العُلماء المُدرِّسين، وإنْ ظلّ أمامي عشر سنواتٍ أخرى في طلب العِلم، وكُنّا ستّة مِمّن نالوا الإجازة في التّدريس، فصرنا مع شيوخنا الأُوَل عشرة، وكُنّا نمضي على قِسمة اليوم إلى ثلاثة أقسامٍ كما كُنّا في السّابق، وكان الوقتُ يضيقُ بِنا، والمكان يضيقُ بِطُلّابنا.

ثُمّ انتدبَ الشّيخ وسيطًا بينه وبين الإمام (عبد القادر كن)، زعيم دولة الأئمّة الّتي مضى على قِيامها أقلّ من عقدَين من الزّمان،

فكان يبعثُ له على رأسِ كلّ سنةٍ مئةً من المُجاهدين، يناضِلون ضِدّ الاستِعمار الفرنسيّ. وضَنّ الشّيخ بي، وقال، وهو يشير إلى صدري: «العِلم الّذي في صدرك أمضى من ذلك السّيف الّذي في أيديهم، وإنّ الجِهاد الّذي تقومُ به لهو أوْلى عندي وأحوج، لأنّني أجد لِجهاد السّيف مَنْ يقوم به، ولا أجدُ لجهاد العلم إلاّ النّدرة والقِلّة». وعلى أَمْر شيخِنا بقيتُ أُعلّم وأتعلّم عشر سنواتٍ أخرى.

ولقد مضى من عمري حينَ بدأتُ التّدريس اثنان وعشرون عامًا، إذ في عام ١٧٩١م جلستُ إلى أسطوانةٍ من أساطين المسجد أوّل عهدي بالأستذة، وكان يجلسُ بين يديّ المئات، يتلقّون عنّي، ويتلقّفون الكلمة، فيَعُونها، ويخبّئونها في قلوبهم وعقولهم وهم يضِنّون بها إيمانًا بقيمتها.

وإنّ جلوسي للتّدريس، لم يجعلْني في مرتبةٍ فُضلى، إذ كان الشّيخ والتّلميذُ سَواءً في الخِدمة، كلاهما منذورٌ لها، ولِما هو مطلوبٌ منه دون أنْ يترفّع أو يرى نفسَه فوقَ سِواه، فما كانت الخِدمة لِتَضَع من قدر الأستاذ أو الشّيخ، وإنّني بقيتُ أقومُ بما هو مُسنَدٌ إليّ من الخدمة يأمرني بها مَنْ هو أعلى مِنّي في العِلم حتّى ذلك اليوم الّذي اضطُرِرتُ فيه إلى مغادرة (تُوبا) كلّها إلى غير رجعة.

وكان الخوفُ من العَلِيّ يعمرُ قلوبَنا فنجتهدَ في العِبادة حتّى لا ننام اللّيل، أو حتّى تتقرّح أقدامُنا، وكان الشّيخ يقول بقول ذي النّون: «النّاسُ على الطّريق ما لم يَزُلْ عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوفُ

ضَلّـوا». وكُنّـا نعـدُّ الخـوفَ مـن الله بابًـا يقـودُ إلى الحِكمـة في القـول والعمـل، ونـأذن بـأنْ نفقـد تلـك الحكمـة إذا مـا خبـتْ نـار الخـوف تلـك في القلـوب! وكان بعضُنـا يُـرى لشـدّة خوفـه كأنّـه حديـثُ عهـدٍ بمُصيبـة!

كان أبي يبعـثُ لنـا بكُتُـبٍ مـن فـترةٍ لأخـرى لِنُضيفهـا إلى مكتبـة (تُوبـا) الّتـي بـدأتْ تتضخّـم، وتتوسّـع، وكان يبعـثُ لي مـع الكُتُـب أحيانًـا برسـائل خاصّـة، أقرؤهـا خاليًـا فأبـكي عـلى مـا فيهـا مِـنْ عِظـة، وكان يقـول لي في نهايـة كلّ رسـالة: «لقـد اشـتقْنا إليـك، أنـا وأمّـك، ألا تزورُنـا؟!». ولا أدري مـا الّـذي كان يُؤخّـرني عـن زيارتهـا، كانـت الطّريـق تأخـذ سـبعة أيّـامٍ إنْ أردتُ السّـير إليهـا مـن (تُوبـا) مشـيًا، ولكـنّ ذلـك لم يكـنْ مانِعًـا، وكان يُمكنُنـي أنْ أعـودَ مـع الخـادم الّـذي يـأتي بالكتـب عـلى ظهـر أحـد خيـول أبي، لكنّنـي - لسـببٍ لا أدري مـا هـو - كنـتُ آنَـفُ أنْ أركـبَ الخيـل، أو أقطـع الـدّرب عـلى الأقـدام. ربّـما ظلّـتْ ذِكـرى أختـي تمنعنـي، ربّـما هيئتُهـا كانـتْ سـببًا، وهـي تتمـزّق بـين أنيـاب ذلـك الوحـش، ربّـما عيناهـا اللّتـان نظرتـا إليّ تلـك النّظـرة الّتـي انحفـرتْ في وِجـداني حَفـرًا، إنّنـي أعـترفُ اليـوم رغـم مـرور أكثـر مـن عشر سـنين عـلى تلـك النّظـرة الثّـكلى أنّنـي لم أسـتطعْ نِسـيانها، لقـد حاولـتُ كثـيرًا، ابتِـداءً مـن تَـرْكِ حيـاة الرّفاهيـة خلفـي، ثُـمّ تحمّـلي كلّ هـذا العنـاء هنـا، والانغِـماس في الطّاعـات، والانقِطـاع لله، رغـم أنّنـي لم أُجـبَرْ عـلى أيٍّ منهـا، كلّ ذلـك كان محاولـةً منّـي للنّسـيان، لكنّنـي أخفقـت.

كانـتْ تجيئنـي في النّـوم كثـيرًا، لم يخْـلُ منهـا حلـمٌ مـن أحـلامِ (تُوبـا)، رأيتُهـا ذاتَ مـرّة تمـشي عـلى حافّـة بئـر ثُـمّ تسـقط فيهـا وأسـمع

صرختَها من داخل البئر تستغيثُ بي، وصوتُ تكسّر عِظامها في القاع يُشبه صوتَ تكسّر عِظامها تحت فكّي الوحش؛ فأصحو مفزوعًا... رأيتُها مرّة تسير على حبلٍ رفيعٍ، كانتْ عمياء لا ترى، وكانتْ تتأرجح وهي تحاول أنْ تُوازِنَ حركتها بذراعيها، لكنّها في لحظةٍ من مشيها، بدتْ تتأرجح، فتكادُ تقع، وتصرخ مستغيثةً باسمي، ثُمّ تسقط في وادٍ سحيق، سحيقٍ جِدًّا، ظلّتْ تسقط، ولم أسمع صوتًا لانتِهاء سُقوطها، فاقتربتُ من الحافّة ونظرتُ في الوادي، فإذا هو لا نهاية له، وفي أثناء مدّي لعنقي فقدتُ أنا كذلك توازني وكِدتُ أقع في ذلك الوادي، فصحوتُ وأنا أصرخ من الهلع... ورأيتُها مرّةً تُمسِكُ بالحِرز فترميه في الفضاء، فيصعدُ الحِرز إلى السّماء، وتهوي هي إلى باطن الأرض، كان الحرز يصعد وكانتْ هي تهوي، وكانت في هُوِيّها تَغوصُ، وتَغُوصُ، حتّى ذابتْ تمامًا، وكانتِ الأرضُ تبتلعها، وآخر ما غاصَ منها في الأرض ذراعُها الّتي كانتْ تمدّها إلى الأعلى محاولةً أنّ تتمسّكَ بي لتنجو، ولكنّني تراجعتُ إلى الوراء مُبتعِدًا عنها، ولم أستطع أنْ أنقذها... وصحوتُ وأنا أتصبّبُ عرقًا، وجسدي كلّه يرتجف.

كنتُ أهربُ من ذكراها بالصّلاة، أقف في المحراب، في الجزء الأوّل من اللّيل، قبل أنْ يقوم المُريدون للصّلاة في الجزء الثّاني منه، فأتلو سورة البقرة، ثُمّ أتلو آل عمران، ثُمّ لا أشعر إلاّ بيدٍ تهزّ كتفي، وإذا بصوتٍ يقول لي: «لن تنساها». فأستعيذُ بالله من الشّيطان الرّجيم، وأُكمِلُ صلاتي على عَجلٍ، وأهفو إلى المنامات لأتكوّر تحت الدّثار وأنام وأنسى ما حدث، فتتلقّاني وجوه المُريدين وقد بدؤوا

يستعدّون للصّلاة في الجزء الثّاني من اللّيل، فأخجل من خوفي، وأعودُ إلى المحراب، وأنتظر اجتماع مَنْ قاموا بين يدي الله لأكون إمامَهم، ولا أدري ماذا قرأتُ في تلك اللّيلة!!

نحن مَشّاؤون يا أخي. نُذهل عن أنفسنا بما نمشي. نحن في سيرِنا إليه نتخلّص مِمّا يعلقُ بنا من أدران الدُّنيا. كلّما سِرْنا خُطوةً في تلك الدّرب الطّويلة سقطتْ عن أثوابنا خطيئة، فحلّ بياضٌ محلّ السّواد، أثوابُنا مليئةٌ بالسّوادِ يا أخي؛ نحن نزيدُ في الخُطا لنغسلها، نحن لا نتوقّف حتّى لا يظلّ فيها نقطةٌ واحدةٌ سوداء، وتعود ناصعة البَياض، نحنُ مَشّاؤون يا أخي.

في شهر أيّار من عام ١٧٩٢م بعثَ أبي إلينا بحَمْل خَيلَين كُتُبًا، كان الخادمُ يركبُ خيلاً، ويسوق الأخرى. في الرّحلَين كان هناك عشرة كُتُب في الرَّحْل الّذي على الخيل المركوبة؛ منها زاد المَعاد... وكان في رَحْل الخيل الأخرى المَسوقة عشرة مصاحف، وقد كتبَ إلى الشّيخ: «هذه من أجل طلبة العِلم، لعلّ الله ينفعنا وينفعهم بها». وكانتْ هناك رسالةٌ خاصّة لي، دفعَ بها الخادم نحوي، ففتحتُها، وقرأتُ في ذَيلِها هذه العِبارة: «أُمّك مريضةٌ جِدًّا وهي بحاجةٍ إليك».

(١٨)

مَدينةٌ بلا نِساء، هي مَدينةُ قُرود!!

بكيتُ كما لم أبكِ من قبلُ وأنا أُنهي الرّسالة، كانت الدّموع تنسابُ على خَدّي وتتهاوَى قَطَراتٍ لاسِعاتٍ على قَدَمَيّ الحافِيَتَين. «أُمُّكَ مريضة». قلتُ للخادم: «سأستأذن الشّيخ وآتي». رد: «إنّما بعثَ سيّدي الخيل الثّانية لتعود فوقَها». «أعودُ مشيًا، أنا لا أستحقّ أنْ أركبَ الخيل؛ أنا مَشّاء يا أخي». «سيطول بك الوقت». «لن أعودَ إلاّ حافِيًا، قُل لأبي حينَ تصل إلى قريتنا إنّني قادم. والآنَ هيّا، عُدْ من حيثُ أتيت».

وقفتُ على القبر، على الشّاهدة الّتي حفر أبي فوقَها بيده تلك الخطوط، كان الوقتُ ليلاً، وكان ليلاً شديد الظّلمة، وقد غارت فيه النّجوم إلاّ ما أبى، ومُحِقَ القمر. لم يدرِ أبي أنّني وصلتُ، كان البيت يبدو من هنا هياكل من الأشباح، صامِتًا ووحيدًا وحزينًا. قلتُ لأختي: «هل تُسامحينني؟» انحنيتُ وأنا أُقبّل التّراب: «لقد قطعتُ المسافة من تُوبا إلى هنا حافِيًا من أجل أنْ تغفري لي. ولن أدخل البيت وأسلّم على أبويّ إلاّ إذا غفرتِ لي». ظلّتْ صامتة. أطرقتُ وأنا مُحتبٍ بين يدَيها: «سأنام اللّيلة هنا، حتّى أسمع صوتكِ. يُمكنني أنْ أطرق الباب على أبويّ في الصّباح». ظلّتْ صامتة. تمدّدتُ إلى جانِبها، وفي المنام رأيتُها: «كانتْ قد صارتْ عروسًا جميلة، أمّي بدتْ من خلفِها تضحك وهي

تشير إليّ أنِ اقترب، وأمسِكْ معي ذيلَ فُستانِ أختك». كان النّاسُ مبتهجين، وكنتِ أنتِ تبتسمين ابتِسامة تُسفِر عن البياض النّاصع من خلف تلك الابتِسامة السّاحرة، تشجّعتُ لَمّا رأيتُ ذلك، اقتربتُ منك وأنا غير مُصدّقٍ، فازدادتْ ابتسامتك، وازدادتْ طُمأنينتي، حينَ صرتُ في مواجهتك، اختفتْ عيناكِ الضّاحكتان فجأةً، وحلّتْ محلّهما عيناكِ يومَ النّهر أو يومَ النّحر، ذات النّظرة الّتي نظرتِ بها إليّ، ارتجفتُ، عرفتُ أنّكِ لن تُسامحيني، مرّتْ لحظةٌ قبل أنْ يتحوّل الفستان الأبيض إلى رمل، ويذوب، وتختفي أنتِ، ويختفي كلّ النّاس الّذين كانوا حولَنا. صرختُ في النّوم، صرخةً شقّتْ سُكون الفضاء، واستيقظتُ وقلبي يتردّد بين ضلوعي بِشِدّة، التزمتُ الشّاهدة، احتضنتُها، كي أُهدِّئَ مِنْ رَوعي، رُحتُ أتلو سُورة المُلكِ الّتي تعوّدْنا أنْ نتلوَها معًا، لعلّني أستقرّ من اضطرابي. ظللتُ على هذه الحال، حتّى رأيتُ شبحًا قادِمًا من جهة البيت، خفتُ في البداية، لكنّني سرعان ما عرفتُ أنّه شبحُ أبي، وتساءلتُ ما الّذي أخرجَ أبي في هذه اللّحظة من البيت، لكنّني بخبرتي في اللّيل، فأنا ابن ساعاته، عرفتُ أنّنا في الهزيع الأخير منه، أو أنّه قد مضَى أكثرُه. رأيتُ الشّبح يتهادَى من بعيد، عَبَرَ البسطة، البسطة الّتي قضيتُ فيها سنوات طفولتي كلّها، ثُمّ عَبَرَ حدود البيت إلى السّاحة، صار قريبًا مِنّا تمامًا، خفق قلبي، خفتُ أنْ يتفاجأ بوجود غريبٍ مثلي فيُسبّب له ذلك أذًى، وهو بعدُ لا يعرفُ مَنْ أنا، تحاملتُ على نفسي، وتركتُ القبر، واختفيتُ خلفَ جذع النّخلة القريبة، ورُحتُ أراقبه، ظلّ يتهادَى، كان يلبسُ عِمامةً مثل تلك الّتي لبستُها في

يوم الجمعة الأخيرة لي هنا، قبل أنْ ترحل أختي. ظلّ يقتربُ من القبر بخطواتٍ راجفة حتّى وقف على رأسِه، حدّقتُ فيه على ما تبقّى من ضوء السّماء، كان أبي يبدو شبحًا على الحقيقة، كان نحيلاً، فارع الطّول، وكان ثوبُه الأبيض قد اتّسع عليه، ووجهه قد ضَمُر حتّى غارتْ عيناه وبَرَزتْ عِظامُ خَدّيه، ودقّ صُدغاه حتّى صارا حاذَّين، ووقف أبي بخشوع عند الشّاهدة، ورأيتُه يرفع كَفَّيه، ويقرأ الفاتحة، ويدعو بصوتٍ خفيّ شجيّ، ثُمّ رأيتُه يبكي، ثُمّ رأيتُه انتظر قليلاً حتّى توقّف عن البُكاء، ثُمّ سار إلى ضفّة النّهر، فتبِعتُه على أطرافِ أصابعي دون أنْ يراني، ومن هناك رأيتُه يقفُ على حافّة النّهر، ويضع يدَيه مبسوطتَين على أذنَيه، ويرفع الأذان، الأذان الّذي ظلّتْ معانيه الشّفيفة تتجدّد في كلّ مرّةٍ أسمعه، لكنّني هذه المرّة سمعتُه غير كلّ مرّة، كانتْ كلّ عبارةٍ من عباراته كأنّها تقول: «سامحيني يا آمنة، سامحني يا عُمر، كان عليّ أنْ أذهبَ معكما، ولكنّني لم أفعل». وكان الصّوت يبكي، والهواء يبكي، والكلمات تبكي، والنّهر يبكي، والشّجر من حولنا يبكي، وما تبقّى من القمر يبكي، والسّحب تبكي، وكلّ ما فِيّ أنا وأبي يبكي... ثُمّ مَطّ صوتَه وهو في خِتام الأذان: «لا إله إلاّ الله»، فاحتضنتُه من الخلف، فلمّا استدار وعرفَني، بكى من جديدٍ، واعتنقني اعتِناقًا حارًّا، أفرغَ فيه عشر سنواتٍ من الشّوق، وعلا صوتُه بالبُكاء، وبكيتُ معه، حتّى علا صوتُ نشيجنا على صوتِ خرير النّهر.

عُدنا إلى البيت: «أمّك سيُغمَى عليها لو رأتك. كيفَ يُمكن أنْ تحتمل حضورك دفعةً واحدة؟!». بكيتُ في داخلي من جديدٍ، ولم

أقلْ شيئًا. دلفْنا من البسطة عبر غرفتي، ثُمّ الممرّ الواصل بين الغرف، ثُمّ إلى غرفتِها، كانت قد استيقظتْ رغم وهن جسدها، وتوضّأت تستعدّ للصّلاة. أشرتُ لأبي، دَعْها تُصلّي الآن. صلّتْ ركعتَين، أطالتْ سُجُودها الثّاني حتّى خشيتُ أنّه حدث لها شيءٌ، اعتدلتْ، سلّمتْ عن يمينها فرأتْني، لم تستوعب الأمر في البداية، أتاحتْ لها التّسليمة عن يسارها أنْ تُفكّر، أنْ تظنّ، ثُمّ أنْ تعتقد أنّني أنا هو. ما إنْ أنهتْ تسليمها حتّى شبّتْ على قدَمَيها، وركضتْ نحوي، واحتضنَتْني، وبكتْ، وبكيتُ، وبكى أبي؛ نحنُ بكّاؤون يا أخي. قالتْ معاتبةً وصوتُها لا يزال فيه رجفةٌ من أثر البُكاء: «تغيبُ هذه السّنين كُلَّها، ولا تسألُ عنّي؛ يا لكَ من ولدٍ عاقّ!». هويتُ على باطن كفّيها أُقبّلها وأتشمّمها: «سامحيني يا أُمّي، كان عَلَيّ أنْ أُتِمّ طلبي للعِلم». «والآن، هل أنهيتَ ما بدأتَه؟». «لا. لا يا أُمّي. صِرتُ شيخًا، وأجلسُ إلى أسطوانةٍ في المسجد وحولي تلاميذٌ، ولكنّني لم أُتِمّ مسيرتي كاملةً في التّعلّم». قاطعَنا أبي: «هل سنُصلّي الفجر جماعةً، أم سنبقى نتحدّث حتّى تطلع الشّمس؟!». قدّمني أبي: «أحبّ أنْ أسمعَ صوتَك». تلوتُ بمثلِ ما تلوتُ بها على أذان تلك الجمعة اليتيمة، فسمعتُ صوتَ نشيج أبي، وشعرتُ بكتفه ترتجّ على كتفي، حينَ وصلْتُ إلى قوله: «وبَشّرِ الصّابرين». بدا جسدُ أبي أنّه لم يعدْ يحتمل المزيد، فركعتُ.

أبلّتْ أمّي من مرضها. قال أبي: «كنتَ دواءَها». سألْتُه: «مِمّ كانتْ تشكو؟». أجابني: «مِنْ غيابِك..». تغابيتُ: «غِيابي؟». «الغياب مَرض، لا يُشفَى إلاّ باللّقاء. بعضُ الأدواء يكون دواؤها

نظرةَ حنونـةً واحدة». ثُمّ صمت، وسـمعتُه يُطلق زفرةً حرّى لا تصـدر إلاّ عـن محـزون. «نَحـنُ مَشّـاؤون يـا أبي».

مكثـتُ عندهمـا أسـبوعَين، أتعهّدهمـا بالرّعايـة، أُسـابِقُ إلى خدمتهما، أطبخُ لهما، وأكنسُ البيت، وأنظّفـه، وأُعِدّ البسـطة لجلسـة المساء، وأهيّئ لهما القول طيّبه وأثمره؛ كان ذلك ديدني في (تُوبا) فلم أجد مشقّة فيـه هنـا، وإنْ تعجّبـا مِـنْ قيامـي بالخدمـة على هـذا النّحـو، قلـتُ: «في تُوبـا يستوي الشّيخ مع التّلميذ في الخِدمـة». كانـت الفرحـة تلمع في عيونهما، كانـا يُطيـلان النّظـر فيّ كأنّهما سـيفقدانِني، ويُمعنـان تفحّص وجهي وجسـدي كأنّني رجعتُ إنسانًا آخَر غير الـذّي ذهبتُ، ويسـألانِني عـن كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ كأنّهـما جائِعـان إلى الكلام، أو كأنّ الحروف كانـت طـوال سـنوات الغِيـاب العشر محبوسـةً خلف أسنانهما لم تنبجـس إلاّ يـومَ جِئتُهـم!!

قالـتْ أمّـي: «لقـد كـبرت». ابتسـمتُ. قـال أبي: «الهِـلالُ صـار بـدرًا». أردفـتْ أمّـي: «والبـدر يبحـثُ عـن قمَـرْ... يشـكو لـه آلامَـه عنـد النّهَـرْ... أو يسـتعيدُ بـه السّـعادة كلّـما حـلّ الكَـدَرْ... قمَـرٌ قَمَـرْ...». ضحـك أبي: «الأقـمار كثـيرة، مَـنْ يصيـد؟». ضحكـتْ أمّـي بدورهـا: «نحـنُ؛ ألسْـنا أبويـه؟». ارتفـع صـوتُ أبي بالضّحـك: «ولكنّنـا لـن نختـار عنـه». غمـزتْ أُمّـي بطرفِهـا: «القلـب ومـا يريـد». واسترسـلا في الضّحـك. هـل كانـا أيضًـا يُخبّئـان أمـواج الضّحـك الطّاغيـة خلفَ هـذه الأقنعـة الجامـدة؟ هـل كانـا حَزِينَيـن ووحيدَيـن إلى هـذا الحـدّ، حتّى تسـيل مِيـاه الفـرح بهـذا الشّـكل، وتنشـعبَ مـن كلّ زاويـة؟!

جلسْنا ثلاثتُنا ليلةَ الجمعة الأولى من قُدُومي إلى هنا إلى قبرِ أختي، قرأنا معًا على روحِها الفاتحة، وبكيْنا على عادتنا ونحن نتلوها، ثُمّ تعاهَدْنا أنْ يقرأ كُلٌّ عندَ قبرها وِردَه من الذّكر، قرأتُ أنا سورة المُلك؛ كانتْ تُعذّبني فيها عندما تطلبُ منّي أنْ أدور حول جذوع شجرات النّخل الخمسين قبل أنْ تُتمّها، أردتُ أنْ أتطهّر من أَلَمي بتلك القراءة، نحن نتعافَى بالذّكرى، أو نُعيد فَتْح الجُرح بها، وفي الحالَين لا سبيل إلى النّسيان إلاّ عَبْرَها! قرأتْ أمّي سورة يس، وظلّتْ تلتصقُ بأبي مثل عصفورٍ في كنفِ أكَمَةٍ ملتفّة، وأنفاسُها تتقطّع من بُكاءٍ صامت، يقول أبي: «إنّها عند الله». تردّ: «ولكنّها تركتْنا خلفَها، لو كانتْ تُحبّنا لبقيتْ». يصمتُ أبي، لا يدري ما يقول!

قلت لهما: «سأعود». بَكَيا معًا بصوتٍ واحدٍ كأنّهما كانا يتوجّسان أنْ أقول لهما هذه الكلمة، أردفتُ: «هل كُنتما تتوقّعان أنْ أبقى عندكما حتّى تموتا». جرحت العبارة أُمّي، رأيتُ ذلك على وجهها، خفضتُ طرفي، وسألتُها أنْ تُسامحني. قالتْ: «لقد كبرْنا، ونحن بحاجةٍ إلى مَنْ يهتمّ بنا». «نانا تفعل». «لقد كبرتْ هي الأخرى». «أريدُ أنْ أعودَ لكي أُتمّ مشواري في العِلم. لا أستطيع أنْ أمكثَ أكثر من هذا». قالتْ أُمّي وصوتُها يندى بالرّجاء: «إذًا تزوّج قبل أنْ ترحل». «لا أستطيع». «لقد تجاوزت الثّانية والعشرين، أريدُ أنْ أطمئنّ عليكَ قبل أنْ ترحل». «لن ترحلي قبل أنْ تريني (عريسًا) يا أمّاه». «الموتُ يأتي بغتةً». «يُمكننا أنْ نطلبَ من الله ذلك». «الموت؟». «لا. تأجيله». «الموتُ أجلٌ». «حتّى نُتِمّ فرَحَنا». «نُبادر إليه». «الموت

ينتظر». «يا بُنيّ الموت لا ينتظر أحدًا». وصمتَ. كان صمتُنا مثل صمتِ الموت الّذي سيطرَ على حديثنا. أزاحته أمّي، قالت: «أريدُ أنْ أرى عروسًا تقفُ إلى جانبك. أريدُ أنْ أرى ابنَك حولي». «لا أستطيع». «تعبتُ من الوَحدة». «أبي معك». «أبوكَ يشتاق هو الآخَر إلى حفيد. حينَ نكبر نُصبح وحيدَين، أنتَ لا تدري كم تأكلنا الوحدة كلّما كبرنا يومًا في هذا البيت الشّاسع. أريدُ أنْ أسمع أصواتَ حَفَدتي، أريدُ أنْ أطربَ لصُراخهم». «لا أستطيع». «تزوّج وخُذها معك إذًا». «يا أُمّي، المريدون لا يأتون بزوجاتهم إذا كانوا مُتزوّجين، ولا يتزوّجون إذا كانوا أعزابًا. يا أُمّي لا نساءَ في تُوبا». وقطّبتْ أُمّي وجهها، وعبستْ، وهتفتْ مستنكرة: «مَدينةٌ بلا نِساء، هي مَدينةُ قُرود». وكدتُ أضحك لولا أنّ وجه أُمّي العابس منعني من ذلك. لكنّني سمعتُ ضحكةً خفيفةً أطلقَها أبي من خلفي وهو يداريها ألاّ تنفجر!

مكثتُ أيامًا قلائل بعدَها، ازداد تقطيبُ وجه أُمّي، ذهبتْ كلّ محاولاتها في إقناعي بالزّواج أدراج الرّياح، قلتُ لها: «لم يبقَ الكثير، عشر سنواتٍ أُخرى، وينتهي مشواري العقليّ والرّوحي في تُوبا، وحينَها، سأعود، وسأتركُ لكِ أنْ تختاري لي أنتِ العَروس». افترّتْ شَفَتَا أُمّي عندما لَمَع الخاطِرُ في ذِهنها: «سأنتقي لكَ أجملَ عروسٍ في البِلاد. عروسٍ تليقُ بكَ أيّها الفارس الجميل».

قال أبي: «لقد كثرتْ هَجَماتُ البرابرة. ومعهم أعوانهم من الفرنسيّين، يريدون نَهْبَ خيراتنا، وأَخْذِنا عبيدًا لنُباع في أسواقهم!!

إنّنا إذا لم نقف مع الشّيخ (عبد القادر كن) في جهاده ضِدّهم، فإنّ شرّهم سيعمّ هذه البِلادَ الطّاهرة».

أقسمَتْ أُمّي عليّ ألاّ أعودَ إلاّ راكِبًا على الخيل، لم أشأ أن تحنث بقَسَمِها، وإنْ كنتُ أرغبُ أنْ أُغبّر قدَمَيّ بالتّراب عائِدًا إلى (تُوبا)، حتّى ولو تخطّفَتْني السّباع في الطّريق، أمشي إلى الله كما أخذتُ العَهد على نفسي؛ نَحنُ مَشّاؤون يا أُمّي. تحسّستْ بَطني بيدَيها اللّتين بانتْ فيهما التّجاعيد، ونظرتْ في عينَيّ مُحذرةً: «هل تضع الحِرز يا أمّي؟!». وأردفتْ وهي تشدّ على موضعه من جذعي: «إيّاك أنْ تخلعه!».

(١٩)

جَرَى حُبُّكَ فِي قلبِي

استقبلني الشّيخ (دِيا) على مدخل المسجد، أكبرتُ ذلك في نفسي، كان يعانقني كأنّني ابنُه، فقدَه دهورًا طويلة، ثُمّ لمّا يَئِس من لِقائه، رآه في غفلةٍ منه مرّة واحدة. قال لي: «لقد أطلتَ الغيبةَ يا شيخ». «إنها ثلاثة أسابيع يا سيّدي». «وإنّها لَطويلة». «وإنّني إلى إخوتي لَمُشتاق». «وإنّهم لَمشتاقون لك».

دلَفْنا. كان مئة منهم داخل صحن المسجد قَدِ اصطفّوا للسّلام عَليّ، لم أدرِ أنّ هذه الصّلوات الّتي جمعتْنا، وليالي الأنس بالله تفعل بنا كلّ ذلك. بكيتُ. يبدو أنّني مثل أُمّي، بَكّاء، بلا شكّ، وإلاّ فما شأنُ هذه الدّموع الغزيرة الحارّة الّتي تنسابُ على وَجنتَيّ، وأنا أحاول ألاّ تنهمل، وهي تتأبّى.

ارتحتُ يومَها قليلاً، وأقاموا لي حفل سمر في اللّيل، صارت البسطة الّتي كُنّا نأكل عندها هي موضع الشّيوخ والأساتذة والأساطين، وصار لُبّ المسجد واسِعًا يتّسع للمِئات، يومَها لم يبقَ مُريدٌ في تُوبا إلاّ حضر. كان لدينا أجمل الأصوات، أصواتٌ كنتَ تُحِسّ وأنتَ تسمعها أنّ أعمدة المسجد تطربُ لجمالِها والأُنسِ بدفئها. وكانتْ لدينا أصواتُ المُبلّغين القويّة، ولدينا أصوات الحَكّائين الّذين يروون القصص والحكايات للعبرة، وكان لدينا المُنشِدون، وكان لدينا

القُرّاء، كانتْ (تُوبا) يومئذٍ تموج بكلّ ما هو جميل، وتمور بكلّ ما هو ساحر!

نحن مَشّاؤون في اللّيل إلى الله وإنْ طال المسيرْ... نحنُ سُمّينا المُريدين لأنّا ما أردْنا غيره، لا شيءَ من دنيا؛ قليلٍ أو كثيرْ... وقفوا في اللّيل لا يبغُون غيرَ الفوز في اليوم العسير... ورضى ربٍّ قدير... فله قد أخبتوا واستعذبوا العيشَ المريرْ...

وقفَ أحدُ المُنشدين، فغنّى بشِعر ذي النّون:

أموتُ وما ماتتْ إليكَ صَبابتي... فاهتزَزْنا اهتِزاز الجِذع حنّ إلى رَسول الله صَلّى الله عليه وسلّم، ورَجّعنا خلفَه، وكُنّا بالمِئات، فارتجّتْ لصدى ترجيعاتنا جَنَباتُ المسجد، فأعاد، وهو من قوله في طَرَبٍ ووجدٍ:

أموتُ وما ماتتْ إليكَ صَبابتي

ولا قُضِيَتْ من صِدقِ حُبّكَ أوطاري

تَحَمّلَ قلبي فيكَ ما لا أَبُثُّهُ

وإنْ طالَ سُقمي فيكَ أو طالَ إضْرارِي

فما كادَ يُنهي حتّى كُنّا طُيورًا قد أخذَها النّشيدُ فحلّقتْ في سماواتٍ بعيدةٍ. وقامَ الآخَر فغنّى:

جَرَى حُبُّكَ في قلبِي

كَجَرْيِ الماءِ في العُودِ

فجَرَى حُبُّه في قلبِنا على ما ذَكَر، فانتشى القلبُ بما جرَى فيه، فإذا هو خَلْقٌ آخَر، وإذا لَذَّةٌ في القلبِ لا يُدْرِكها إلاّ مَنْ أخلصَه له.

وقامَ أحدُ الحكّائين، فذكَر ما غبَرَ من حال أجدادِنا ومقاماتهم، فقال: «مَرّ بِشْرُ الحافي ببعضِ النّاس، فسمعهم يقولون: هذا الرّجل لا ينام اللّيل كُلَّه، ولا يُفطِر إلاّ كلّ ثلاثة أيّامٍ مرّة، فبكى حينَ سَمِعَهم يُردّدون هذا الكَلام، فسأله سائلٌ: ما يُبكيك؟ فقال: إنّي لا أذكرُ أنّي سهرتُ ليلةً كاملة، ولا أنّي صُمتُ يومًا لم أُفطِرْ من ليلته». وقال الشّيخ: «بهذا فلْنتعبرْ. إنّ المُريد لا يخرج من حَظّ نفسِه حتّى يكون زاهِدًا فيما قال النّاس، لا يهمّه مدحوه أم ذمُّوه».

ثُمّ إنّي سلكتُ ما كنتُ بدأتُه. وأخذتُ في المنهج، أُعلّم وأتعلّم. وقد أصابَنا ذات سنةٍ مَحْلٌ، وجدبٌ، فقلّ الماء في أنحاء (تُوبا)، ولم يعدْ لهؤلاء المُريدين لا ماءٌ يشربونه، ولا يتوضّؤون أو يغتسلون به. وقد أهابَ الشّيخ إذْ سَلَّم في إحدى صَلَوات المغرب بنا أنْ نستقي، ولو من أقربِ بئر، وكانت البِئر بعيدة، واللّيل قد حَلّ، وفي اللّيل ما فيه من خوفٍ، فلم يقلْ واحدٌ مِنّا شيئًا، وصَمَتْنا صمْتَ الحجارة في مهمهٍ لا يطرقه إنسيّ، فأحدّ الشّيخُ النّظر إلينا ثانيةً لعلّ أحدَنا يتصدّر لهذه المَهمّة، ولكنّ صمْتَنا في الثّانية كان أشدّ من صَمْتنا في الأولى، وقد أنغَضْنا إليه رؤوسَنا، وكُنّا نعلم مثلما يعلم الشّيخ أنّنا بحاجةٍ إلى الماء، وأنّ العطش سيقتلُنا إنْ لم نفعل... ثُمّ إنّ الشّيخ جالَ ببصره فينا، فوقفَ عندي، وقال: «قُمْ يا عُمر؛ الخِدمة». فعلمتُ أنّه

لا مهربَ من الأمر، ولكنّني تعلّلتُ: «إنّ المريدين كُثُر، وإنّنا لنحتاج إلى أربعِ دِلاء على الأقلّ، فابعثْ معي مَنْ يُعينني على حَمْل الماء». فقال: «أنتَ كثير؛ فامضِ وحدك». فلمْ يكنْ من إنفاذ الأمر بُدّ.

ومضيتُ بعد العشاء الأولى، ووضعتُ الدّلو على عاتقي، واستغربتُ مع الخوف: «كيفَ يطلب الشّيخ لهؤلاء المُريدين كلّهم دلوًا واحدة من الماء». ولكنْ لم يكنْ إلى رَدّ أمر الشّيخ سبيل، فأخذتُ الدّرب، وقلتُ أشجّع نفسي: «إنّ البِئر قريبةٌ على المريد وإنْ بَعُدَتْ، وإنّ السير لقصير على المُحبّ وإنْ طال». ثُمّ مضيت.

كان اللّيل ساكِنًا سُكون الموتى، والظّلام مُطبِقًا إطباق السُّحُب، والطريق خالية خُلوّ رمل الصّحراء من الحصى، والهدوء سائِدًا كما تسود الظّلمة، وشعرتُ بالوحشة، وأنا لم أقطعْ بعدُ ثلثَ الطّريق، ورحتُ أتلو بعضَ السُّور محاولاً أنْ أخفّف من الخوف الّذي بدا مع كلّ خُطوةٍ أخطوها مُبتعِدًا عن (توبا) يُنشِبُ أظافرَه فِي لحم عنقي. ومضيتُ وبي من الهلع ما بي.

وكان اللّيل بلا عيون، وأنا مثله، ومن بعيدٍ كان يُخيّل إليّ مع الهدوء القاتل أنّ جِنًّا ما يسكنُ هذه الأنحاء الّتي لا يسكُنُها أحدٌ، وأنّ بعضَها سوفَ يبدأ العزيفَ بعدَ قليلٍ، وأنّ مخالبَ أحدهم، أو كفّه الشّيطانيّة سوف تقبضُ على ذراعي الّتي تُمسك بالدّلو، وشعرتُ بالفعل بخَدَرٍ في يدي، وتملّكني الرّعب، فرحتُ أردّد في نفسي بعضَ آياتِ سورة الجنّ، وأستحضر خشوعَهم بين يدي الحبيب عليه

السّلام، وأُمنّي نفسي بأنّني لو تلوتُ عليهم تلك الآيات فسيفعلون معي ما فعلوا معه، فرحتُ أتلو: «قُلْ أوحي إليّ أنّه استمع نَفَرٌ من الجِنّ فقالوا إنّا سَمِعْنا قرآنا عَجَبًا». غير أنّ وسيلتي هذه أو حيلتي لم تنفع، وظلّ الخوف يجتاح كلّ موضعٍ في جسدي، ومضيت.

وفجأةً في الظّلام، الظّلام الأعمى تمامًا، لكنّ عينَيّ مع اعتِيادهما بدأتا تُبصِران، وكانتْ حواسّي كلّها تعمل بكامل طاقاتها، آنئذٍ شعرتُ بشعراتِ رأسي تقفُ من تحتِ العمامة، وشعرتُ بقشعريرةٍ تملأ جلدي كلّه، وبرجفة تضطربُ لها سِيقاني اضطراب أجنحة الذّباب، وشعرتُ بألمٍ يمزّق بطني، كأنّ أحدًا طَعَنني برمحٍ نفذ من ظهري، والتفتُّ إلى صوتِ نفَسٍ من خلفي، فإذا عينان تتوقّدان جمرًا، وتستشيطان لَهَبًا، وتحوّل الهرير الّذي سمعتُه في البداية إلى زمجرةٍ، وإذا هو أسدٌ يمشي باتّجاهي مشيًا وئيدًا، وإذا به يحرّك لبدَتيه، ويهزّ عنقه، ويفتح فَمَه، وإذا عيناه تنظران إليّ مباشرةً، وتذكّرتُ التّمساح الّذي أكل أختي، وتسمّرتْ قدماي من الرّعب، وأردتُ أنْ أهربَ فوجدتُهما كأنّهما مُثبّتتان في الأرض، ثُمّ بدأتا تغوصان، فازداد رُعبي، وتصبّب عرقي، وتمنّيتُ لو أنّني عصيتُ أمر الشّيخ، وأنّني لم أبرح صحنَ المسجد، ورأيتُ الموتَ هذه المرّة في شكلِ أسد، بعدَ أنْ رأيتُه في هيئة تِمساح، رأيتُه يمشي هذه المرّة بعد أنْ رأيتُه يسبح في المرّة الأولى، رأيتُه يخبطُ في التّراب بعدَ أنْ كان يخبطُ في الماء، وقلتُ: لن أدعَ الموتَ ينتصر في كلّ مرّة، ودار في خلدي: «لن أنجو من بينِ فكّي تِمساح لأموت تحت أنيابِ أسدٍ، إذا كُنتُ في المرّة الأولى طِفلاً لم يكنْ

يدري ما حدث، ولم يقدر على فَهمِه، فأنا الآن رجل عليه أنْ يُحسِنَ التّصرّف... كانَ الأسدُ في هذه اللّحظات الخاطِفة الّتي كنتُ أخاطبُ فيها نفسي، ما زال يمشي وئيدًا، وبدا أنّه سوفَ يبدأ بالرّكضِ نحوي، وبأنّه بقفزةٍ واحدة، وخلال ضربةٍ أخرى من يده، سأكون قد فارقتُ الحياة بين أنيابه بلا رحمة، وتراءتْ لي أشلاء أختي والتّمساح يزدردها عُضْوًا فعُضوًا، فتولّدتْ لديّ بسبب الخوف طاقةٌ جبّارة، فحرّرتُ رِجليّ واستدرتُ باتّجاه البِئر، وأطلقتُ ساقَيّ للرّيح، وأنا أعدو أسرعَ من الفَهد، وكانت الدّلو مربوطةً إلى عنقي، فلم أفقِدْها، ولم تَعُقْني كثيرًا، ولم أتوقّف، أو أُبطِّئ من سُرعتي حتّى صِرتُ على فَمِ البِئر، وحينَها التقطتُ أنفاسي، ودُرتُ خلفَ البئر أجدُ لي مخبأ، ونظرتُ إلى الموضع الّذي كنتُ أركضُ فيه لعلّني أجدُ الأسد، فإذا الموضع خالٍ، كأنّه لم يكنْ من أسدٍ يتبعني، وأمعنتُ النّظر في الظّلام، وانتظرتُ وقتًا فما رأيتُه ولا رأيتُ أثره، وأصختُ سمعي لعلّه لَبَدَ في موضعٍ ينتظر لحظة الانقِضاض عَليّ، فلم أسمعْ له رسيسًا. ومكثتُ على هذه الحال من التّرقّب زمنًا حتّى اطمأننتُ، فدلفتُ إلى البِئر، فملأتُ الدّلو، فرفعتُها إلى فمي، وكنتُ من هلعي قد تشقّقتْ زوايا فمي، فرطّبتُ شفاهي، وشربتُ حتّى ارتويت، ولمّا كان الماء يترقرق من الدّلو إلى جوفي، فكّرتُ في ما إذا كنتُ قد رأيتُ الأسدَ حَقًّا، أم أنّني تخيّلْته، وضيّقتُ عينَيّ لهذا الخاطر، وزممتُ شفتَيّ، ثُمّ أسقطتُ الدّلو مرّة أخرى في البِئر، وملأتُه، وعدتُ به إلى إخوتي المُريدين في (تُوبا)، فاستقبلَني الشّيخ (دِيا) باسِمًا، وقال: «هكذا يجب أنْ تفرّ من الدُّنيا».

وشـعرتُ أنّـه يعـرف مـا حصـل لي، فـازداد وجيـبُ قلبـي، ثُـمّ إنَّ الشّـيخ نـادَى المُريديـن: «هَلُمّـوا إلى المـاء». فسـقاهم واحِـدًا واحِـدًا، وشربـوا جميعًـا مـن الدلـو نفسِـها حتّـى ارتَـووا!!

(٢٠)

فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ

كُنّا زُجاجةً كأنّها كوكبٌ دُرّي، وكان صحنُ المسجد مِشكاتَنا، وكُنّا طُيوفًا تتخايل في تلك الزّجاجة، وكنّا أرواحًا تهيم في داخلها، تطير كأنّها ذَرّاتٌ من نور إلى نور، وما مِنْ أحدٍ إلاّ له حالُه، وشَجوه، ومَقامُه، وكُنّا نرى منازلنا في قوله تعالى، بصوتِ أحد الشُّجاة في آخر اللّيل: «وما مِنّا إلاّ له مَقامٌ مَعلوم».

وكُنّا نطوفُ حول المركز، وكان المركز ذاتَنا، ذاتنا الّتي خلّصْناها بالسير إليه من كلّ دَرن، فصارت له، وصار لها، وكُنّا في طوافنا حول مركزنا نَذهل عن تلك الذّات، فتتحرّر أرواحنا من الدّائرة الّتي تحوم على مُحيطها، وتنفلت من ذلك المُحيط سابحةً في المقامات الجَلِيّة، صاعدةً إلى السّماوات العَلِيّة، وكُنّا نردّد مع الشّيخ الأكبر: «لقد كُنّا حُرُوفًا عاليةً لم تُقرأ!».

وقُلتُ للشّيخ: «لم آكُل منذُ ثلاثة أيّام». فردّ: «ألا تفكّر في غير بطنك؟». فخجلتُ وأطرقتُ برأسي، كانتْ أيّام البيت تتراءَى لي، كُنّا نأكل السّمك تسليةً ونشويه، وكُنّا لا نشتهي شيئًا إلا وجدْناه في التّوّ، تمرّ الآن علينا السّنة والسّنتان والثّلاثة فلا نرى السّمك إلاّ في العيد إنْ رأيناه، ونشتهي فلا نجد ما يسدّ الرّمق، ويدور في خَلَدِنا فلا نستطيع

أنْ نُفصِحَ عن جوعِنا خوفًا من أنْ نُتّهم بالشَّرَه، حتّى ولو لم نأكل طعامًا مطبوخًا منذ ثلاثة أشهر، ولقد سألتُ نفسي عشرات المرّات وأنا في غيابة التّأمّل: «لماذا تركتُ الرّفاهية هناك، والطّعام والشّراب الّذي يُساقُ إليّ وأتيتُ إلى الجوع والعطش هنا؟». غير أنّ الإجابة ليستْ سَهلة، وإنْ بدتْ كذلك، ولا موجودة، وإنْ كانتْ تطرق دِماغي بمطرقٍ من حديد، لا شيءَ يُفسّر قراري، لا جوابَ يُريح دوّامة الأسئلة الّتي تنقر هذْأتي... ورفعتُ رأسي إلى الشّيخ، وعيناي غائرتان، والهُزال قد غزا جذعي، فكاد يسقط الحِرز لضمور البطن واتّساع الحبل المربوط به، أشدّه على وسطي، لكنّه يُعاود السّقوط، أحاول أنْ أقول كلمةً للشّيخ، لكنّ نظرات الشّيخ تمنعني، همستُ في أعماقي، دون أنْ أقدر على أنْ أقول حرفًا واحِدًا: «أنا جائع...أنا جائع». وأخذ الشّيخُ نَفَسًا، وقال وهو يشدّ على عِظام كتفَيّ الّتي برزت، وبانتْ ترقوتي على طرفَيها: «اليوم حينَ نُصلّي العِشاء الآخرة، وقبل أنْ نأوي إلى مناماتنا ائتِني». وفرحتُ لكنّني لم أكنْ أملك القُدرة على أنْ أصوغ هذا الفرح بكلمات، الشّيخ لديه ما يُبعِد شبح الموت المُختبئ خلفَ الجوع. وأردتُ أنْ أقفز، أنْ أقبّل يدَ الشّيخ، أنْ أذهبَ إلى المحراب، لأقومَ بينَ يدي العَلِيّ، فأقولَ شيئًا، لكنّ الشّيخ الّذي رأى كلّ ذلك يدور في أعماقي، قال لي، وقد مضيتُ إلى المحراب: «إنّما تُنار القلوب بقلّة الطّعام».

ونفذتْ كلماته إلى روحي، فلمّا وقفتُ في المحراب وجدتُ في قلبي نورًا، فرحتُ أغرفُ من ذلك النّور، وأسير شاقًّا الظُّلُمات لا

أخشى عتمتها ما دام قلبي عامِرًا بذلك النّور، وأنا أراني إلى جانبي وقد قلتُ لي: «نحنُ مشاؤون يا أخي». وكنتُ في لذّة وقوفي، إذ أُطفِئت أسرجة المسجد كلّها، حتّى السّراج المُعلّق على سارية المنبر، فأظلمَ ما حولي، إلاّ ما كان ينفذ من النوافذ من أنوار السّماء، ووجدتُ لذلك أنسًا، وسمعتُ قائِلاً يقول: «إنّما النّور في قلبِك، فانظر فيه». ووجدتُ راحةً في القلب، وطُمأنينةً في الصّدر، وقُوّة في البَدَن، وقرأتُ: «نور على نورٍ يهدي الله لنورِه مَنْ يشاء».

فلمّا فرغتُ، كان الإنهاكُ من الجوع قد بلغ بي كلّ مبلغ، فلم أقوَ على القيام، فاضطجعتُ على جنبي، فرأيتُ في المنام الشّيخ يُوقظني برفق، ويقول لي: «ألمْ ندعُكَ إلينا بعد فراغكَ من صلاتِك؟!». فقمتُ، فإذا الظّلام حولي يمحو كلّ شيءٍ من أنْ يُرى، فمضيتُ أتهدّى الطّريق، أُلبّي نِداء الشّيخ، حتّى وصلتُ إلى منامه، فوقفتُ أمام الباب أستحي أنْ أطرقه، وإذا صوتُه من الدّاخل يقول: «تأخّرْتَ علينا، فأقْبِلْ». فأقبلتُ، وإذا هو قائِمٌ يدعو الله، وإذا ظهره ما بدا لي، وقال دون أنْ يلتفت من صلاته: «دونكَ الإناء». فنظرتُ فإذا إناءٌ صغيرٌ مُغطّى، فأخذتُه وشكرتُه وخرجتُ إلى منامي، واستعددْتُ لوليمتي، فلمّا مددتُ يدي لأرفع الغِطاء والجوع ينهشني بنابِه، تذكّرتُ اليتامى الّذين أُخِذَ آباؤهم في الحرب، وماتوا دون أنْ يجدوا مُعِيلاً. فأنِفَتْ نفسي قليلاً، ثُمّ لم يمنعني ذلك من أنْ أمدّ يدي، فتراءت لي صورةُ أُختي وهي تتقطّع بين أنياب التّمساح، فأنفتْ نفسي أكثر، ثُمّ لم يمنعني ذلك من أنْ أرفعَ الغِطاء، وقبلَ أنْ أنظر ما

فيه من طَعام تذكّرتُ ما شَدّ به الأوّلون بطونهم من الجوع، فقطرتْ من عيني دمعةٌ، فأعدتُ الغِطاء على الإناء، وأخذتُ أجري، وأبكي، ثُمّ دفعتُه إلى أحدِ المُريدين، فأكله، فقال لي في اليوم الثّاني: «ما وجدتُ طعامًا أطيبَ مِمّا أهديتني أمسِ».

ثُمّ لمّا وليتُ من عند المُريد الّذي أهديتُه إنائي، تحاملتُ على نفسي، فأتيتُ المِحراب من جديدٍ، أستعدُّ لِقيام الجُزء الأوّل من اللّيل، ورفعتُ يدَيّ أريدُ الصّلاة، فسمعتُ هاتِفًا يُنشِد:

عليكَ برِزقِ العاملينَ وأَمْرِهِمْ

وقِلّة طُعْمٍ، أنتَ لله عامِلُ

وداوِ صلاحَ القلبِ يومًا بِجُرعةٍ

وبادِرْ فإنّ الأمر لا بُدّ عاجِلُ

فوجدتُ للأبيات في قلبي حلاوة، فأردتُ أنْ أقول: «إنّني والله يا أخي لا أجدُ حتّى الجرعة». فلم أكدْ أُتمّ تلك الجملة في خاطري، حتّى رأيتُ كأسًا بلّوريّة من الماء، يترقرق ما فيها على ضوء ما بقي من نجوم السّماء عبر النّافذة، فشعرتُ أنّها تدنو منّي، فدنوتُ منها وتناولتُها، فشربتُ منها، فسرى الماء في جسدي، فأذهبَ الأوام، وحلّ محلّ الطّعام، فكأنّني بها شربتُ شبعتُ، فحمدتُ الله، وهممتُ بالصّلاة، فإذا الصّوت نفسه يُنشِد:

عليكَ بِطُولِ الجوعِ دومًا فإنّما

تُسَرّ بِطول الجوع يومَ التّغابُنِ

وسرى في جسـدي نَشـاطٌ عجيـب، وفي قلبـي صَفـاءٌ أعجـب، وقـدرتُ عـلى الوقـوف، وصلّيـتُ حتّـى بـدأتُ أسـمع همهـات المُريديـن الّذيـن يقومـون استِعدادًا للصّـلاة في الجـزء الثّـاني مـن اللّيـلَ!

فلـمّا سـلّم الشّـيخ (دِيـا) عـن يمينـه في صـلاة الفجـر، وقعـتْ عينُـه أوّل مـا وقعـتْ علـيّ، فابتسـم، فطـرتُ مـن الفـرح، ثُـمّ دعـاني إليـه، فقـال: «قـد علـم الله مـا عَمِلـت، وإنّ درجـة الصّدّيقـين لا يُؤتاهـا كلّ أحـدٍ». فحلّقـتُ فـوق السّـحاب.

وأمـضى المُريـدون ذلـك النّهـار صائمـين، وطـافَ علينـا أهـل الخدمـة بصحـافٍ كبـيرة، كلّ صحفـةٍ تمـرّ عـلى عشريـن أو ثلاثـين مِنّـا، ينتظـر المُريـدُ حتّـى يأخـذَ أخـاه لقمتـين أو ثلاثًـا، ويكتفـي بذلـك، وتكـون فَطـوره في ذلـك اليـوم، ولم نـأكل بعدَهـا شـيئًا، وكانـتْ تمـرّ أيّـامٌ دون أنْ نجـدَ هـذه اللُّقَـم الثّـلاث، وإنّـما هـي جُرَعـاتٍ مـن مـاءٍ نـبرّده في الصّيـف عـلى نوافـذ المسـجد. ثُـمّ لّمـا فرغنـا مـن العِشـاء الآخِـرة، دعـا الشّـيخ أجملَنـا صوتًـا، واختـار المُردّديـن مـن خلفِـه، وكنـتُ أحدَهـم، ودفـعَ إليـه بأبيـاتٍ تحلّقنـا حولهـا وحولَـه، ورُحنـا نـردّد:

وجدتُ الجـوعَ يطردُه رغيفٌ

ومِلْءُ الكَفّ مِنْ مـاءِ الفُراتِ

نقــومِ إلــى مسـاجدنا خِـفافًا

لأنّ الثّقـلَ يُـزري بالصّلاةِ

فإنْ قلّ الطّعام فذاكَ عــونٌ

على أمر العِبادة والثّباتِ

وإنْ كَثُرَ الطّعام نُرى كُسالى

ويُودي بالمُريد إلى السّباتِ

لقـد كُنّـا نـداوي التّعبَ بالتّعـب، والنَّصَـبَ بالنَّصـب، فإنْ تعبتْ أجسـادُنا مـن العِبـادة حَمَلْناهـا على مزيـدٍ مـن تلـك العِبـادة، فذهبـت تلـك بـه، ووجدنـا نَشـاطًا ولـذّة، وكُنّـا إذا وجـدَ الشّـيطان إلى القلـبِ سـبيلاً بخدعـة الرّاحـة، طردْنـا الشّـيطان بـتركِ الرّاحـة، وتلَوْنـا مُوقنـين: «فـإذا فَرَغْـتَ فانْصَـبْ». وكان النّصـبُ في ذاتـه سـبيلاً للقضـاء على كلّ وحشـةٍ، وعـلى كلّ فتـورٍ في القلـب.

(٢١)

إذا لان فِراشُك قسا قلبُك

وكان الشّيخ يطوفُ على النّائمين من المُريدين في بعضِ اللّيالي، فيوقِظهم برفق، ويقول: «قوموا من فُرُشِكم قبل ألاّ تقدروا على القِيام، وأجِّلوا نومكم ليومٍ لا تستيقظون فيه منه، فإنّ اليوم عمل، وغدًا جزاء». وكُنّا نجدُ في نِداء الشّيخ رقّة، وإنْ كانتْ أجسادُنا الطّينيّة تستثقل الأمر، خاصّة إذا كان ذلك في الشّتاء، أو ليالي الزّمهرير، ولكنّ أرواحَنا كانتْ تجدُ لهذا النّداء متعة.

ولقد صارتْ (تُوبا) مدينةً بعد أنْ كانتْ موضِعًا، كانتْ مسجدًا صغيرًا يُؤوي عددًا أقلّ من أصابع اليد الواحدة، فبنَت هذه الأيايدي القليلة النّفوس قبل الجدران، والإنسان قبل البُنيان، والبشر قبلَ الحجر.

ولقد مرّتْ علينا أيّامٌ صعبةٌ ونحن نتوسّع في العُمران، إذْ كُنّا نحمل الفؤوس والمعاول بعد أنْ نُصلّي الفجر وقبل أنْ نتناول فطورنا، فنذهبُ في الخدمة حيثُ يضعنا الشّيخ، ونغدو إلى الأرض الفسيحة قبل أنْ ترتفع الشّمس، أو حتّى قبلَ أنْ تُشرِق، ونتوزّع مجموعاتٍ، فمجموعةٌ تقطع الشّجر الّذي ستُقام فيها المنازل، ومجموعةٌ تحفر للأساسات، وثالثةٌ تُهيّئ مساحاتٍ أُخرى للزّراعة، إذْ

كانتْ زراعة النّخيل والموز والقمح والذّرة أحيانًا قد بدأت في (تُوبا) قبل أنْ تبدأ في غيرها من القُرى والبلدان والمواضع. ولقد كُنّا نعمل على نَفَسٍ واحدٍ، ما يشكو أحدٌ مِنّا تعب الجذع، ولا وجع الضّلع، ولا تصلّب الأخدع، حتّى تُلهِبنا الشّمس بسياطها وقتَ الظّهيرة، فما نجدُ غير الماء، فإذا حان الزّوال، حملنا فؤوسنا وأدواتِ حفرنا فوقَ اكتافنا وعُدنا إلى (تُوبا) ونحن في أشدّ ما نكون جوعًا وتعبًا، ويتلقّانا بعضُ المريدين الّذين وُكِلَ إليهم أمر الطّبخ، فيُعدُّون لَنا صُحوننا، مُغطّاة حتّى لا ننظر ما فيها، وحتّى يرضَى كُلٌّ بِقَسَمِه، ولقد كنتُ أرفع الغِطاء، فما أجدُ في الصّحن غيرَ ثلاثَ لُقيمات، فأفرح، وأُقيم بها أودي، وأشكر الله على نَعمائه.

ولقد كبرتْ مع السّنين (تُوبا)، وصارتْ مدينةً، وتوسّعتْ أحياؤُها، ولقد صارَ للمُريدين مناماتٌ غيرَ الّتي كُنّا ننام فيها داخل المسجد، ولقد بُنِيتْ لهم مناماتٌ في الخارج، وكان الشّيخ قد أمر أنْ نجعل المسجد مركزًا للمدينة، وأمر أنْ تُمَدّ الشوارع في سبعةِ اتّجاهات خارجةً من ذلك المسجد، اثنَين في كلّ جهة، باستثناء جهة الشّرق؛ وهو جهة القِبلة فجعله واحِدًا، ولقد قامتْ على جانِبَي هذه الشّوارع الرّئيسية بيوتٌ كثيرة، وكان الشّارع يمتد إلى موضع لا تبلغ العين رؤيته، ولا تُدركُ مُنتهاه، ثُمّ راحت البيوت خلف تلك البيوت تنتشر، ولم يمرّ على (تُوبا) عقدان من الزّمان حتّى صارتْ من أكبر مدن البلاد، بل إنّها تغلّبتْ على المُدُن السّاحليّة الّتي لا تهدأ فيها حركة السُّفن غربًا.

وتبع ذلك أنْ صار في المدينة تُجّار، وأسواق، وزراعة، وأهل صِناعة، وكان لا بُدّ من ذلك، إذ إنّ بشرًا هبطوا إلى هذه المدينة وعمروها على هذا النّحو ليحتاجون إلى مرافق تُعينهم على الحياة، وخدمات تقوم على تلبية احتياجاتهم.

ولقد صار الشّيخ مَلِكًا غير مُتوّج، وما زاده ذلك إلاّ تواضعًا وزُهدًا، وكان شاعِرًا، ونَظَم في الزُّهدِ قصائد غنّينا بعضَها في مجالس سمرنا، ولقد قال:

الكلبُ خيرٌ منكَ إنْ رأيتَ نفسَكا

وكُلُّ مُعجَبٍ بنفسه قد هلَكا

ولكنّ الاستِعمار لم يُرضِه تنامي هذه القُوّة، ولا تعريض هذا الشّيخ بوجودهم في بلادنا، ونهبهم لخيراتنا، وسوقِنا إلى ديارهم عبيدًا نُباع ونُشتَرى كالحيوانات؛ فكانوا يكيدون له، ويحذّرونه، ويخوّفونه باغتِياله من أقربِ مُريديه، أو بسجنه، أو بنفيه، وكان يردّ على تهديداتهم بأنْ يبعثَ إلى دولة الأئمّة كلّ سنةٍ مئةَ مجاهدٍ يُناضِلون معه قُوى الشّر والاستِعمار والاستِبداد.

وظلّ الشّيخ ينام في منامه الّذي نام فيه أوّل مرّة في (توبا)، ولم يرضَ بأنْ يوسِعوا له فيه، وكان عبارة عن أربعة جدران ليسَ فيه إلاّ نافذة واحدة عالية، إذا وقف الشّيخ لم يكدْ يرى من خلالها إلاّ إذا استطال على أطراف أصابعه، وكان يُمكن أنْ تُذرع في ثلاث

خطوات أو أربع. ولم يرضَ أنْ يأتوا له بسرير، وظلّ ينام على حشيةٍ من الجريد أو من الصّوف، ورافقتْه حشية الصّوف عشرة أعوام لم يقبل أنْ يُغيّرها إلى سِواها ألينَ منها، وكانتْ حِكمته: «إذا لان فِراشُك قسا قلبُك». ولم أدرِ على أيّ جنبٍ يُمكن لواحدٍ منّا نحن المُريدين أنْ يشعر بقساوة القلب، خاصّة أنّ بعضنا من الّذين صاروا أساتذةً قد اتّخذوا لهم بعدَ جريد النّخل، فِراشًا من صوف الجِمال، بل وقبلوا أنْ يرفعوه عن الأرضِ على الأسرّة!!

ولقد كانوا يُسمّونني (البَكّاء)، كنتُ لا أقف في صَلَوات القِيام أيّام رمضان إلاّ باكِيًا، وكُنتُ في العشر الأخيرة منه، حينَ يمنعني البُكاء من أنْ أُكمل الآيات، يأخذ أحدُ المريدين مكاني وأتأخّر أنا إلى الخلف، لكي يُتمّ الصّلاةَ عنّي. ثُمّ كانوا يقولون: «هلاّ رقأتَ هذه الدّموع يا عُمر». فيردّ أحدهم: «إنّه عمر، وهو يريد أنْ يكون مثل عمر». وكانتْ جبهتي واسعة، وعيناي تتّسعان عند طرفَيهما القريبَين من الأنف، ويضيقان في الطّرفَين البعيدَين، وكانتْ جفوني غليظة، وكذلك شِفاهي، وفَتْحتا منخري واسعتَين، وكُنتُ أبقي على لِحيتي، وأخفّف شواربي، وكان صُدغاي بارِزَين بروزًا بيّنًا، وكنتُ شديد السّواد، وكانوا يقولون لي كلّما رأوني: «أبعدَ هذا اللّيل نهار». ويضحكون وأضحك!

وكان شيخنا الأكبر، في ساعات الأنس، يقول: «إنّك هادِئ الجَمال». ولا أدري ماذا كان يعني، ولو رفعَ العِمامة عن رأسي، لرأى ذلك السّواد الكالح الخشن في شَعري، فتراجَعَ عن وصفه. ولم أرضَ

لنفسي أنْ ألبسَ نعلاً إلاّ بعد أكثر من خمس عشرةَ سنةً من قدومي إلى هنا، وكانتْ نعلي لها قرعةٌ خفيفةٌ إذا مشيت، ولم تكنْ تُسمَع، لأنّني ما مشيتُ إلاّ وراجعتُ في مشيي القرآن كي لا أنساه.

وصار في السّنين الأخيرة يمرّ قريبًا من ديارنا في (توبا) الفرنسيّون والبريطانيّون ذوو الوجوه الشّمعيّة النّافرة البَياض، وكُنّا نُسمّيهم بني الأحمر، وكانتْ حمرتهم تبضّ من خدودهم ومن عروق رِقابهم.

ولقد رافقَنا الشّيخ في السّنين الأخيرة من مكوثي هنا إلى يومِ حصادٍ، وكان الحصادُ وفيرًا، إذْ هطلتْ أمطار كثيرةٌ في تلك السّنة، فوقفْنا قبل أنْ نبدأ الحصاد، فذكّرنا قبل أنْ نمدّ مناجلنا إلى سيقان الذّرة أو القمح، فقال، أما ترونَ كيفَ صار هذا إلى هذا، وأشار إلى سيقانٍ صفراء، لقد كان بذرة، وكنتم بذرة، ولقد ظلّتْ بذرة في رَحِم الثّرى، وكُنتم أنتم كذلك نُطَفًا في رَحِمِ أمّهاتكم، ثُمّ شقّت البذرة بأمر الله طريقَها فأخرجتْ رأسَها كما شققتُم أنتم طريقكم وأخرجتم رؤوسكم، ثُمّ سُقيتْ ونمتْ حتّى هاجتْ، وسُقيتم أنتم وغُذيتم حتّى نموتم وهِجتم، ثُمّ اصفرّت فحان قِطافُها، فإذا هي هشيم كأنْ لم تغنَ بالأمس، ثُمّ سيحينُ قِطافكم أنتم كذلك، وإنْ كان حاصدُ الزّرع بشرًا، فإنّ حاصدَ الأرواح ربُّ البشر، فأحسِنوا سِقاية زرعكم حتّى يكون وفودُكم على رَبّكم وفودَ خير، فيأمر بكم إلى أملٍ كنتم من أجله تظمؤون في الهواجر، وتقومون في الهوازع، وتتضرّعون في النّوازل. ثُمّ بَكى. وبكينا.

وكُنّا نحمل الزّرع على ظهورنا، وكان عندنا بعضُ الجِمال لا تكفي لأنْ تنقل الحصاد كلّه، فكان الّذين في الخدمة يُحمّلون أنفسهم ما لا يُطيقون، فيُثقلون بالأحمال كواهلهم، ويسيرون المسافات الطّويلة حتّى يوصلوها إلى موضع تخزينها في (تُوبا)، وكان الشّيخ يقسم المحصول ثلاثةَ أثلاث، ثُلُثٌ في الفُقراء، وثلثٌ في المريدين وأهل المسجد، وثلثٌ يبعثُ به للمجاهدين. ولقد نقمَ عليه بنو الأحمر للثّلث الأخير أيّما نِقمة، وبدا أنّ الأمور كانتْ تتّجه إلى العواصف. وكانوا يُرهبون الشّيخ أحيانًا، باغتيالِ بعضِ المريدين، ولمّا رأوا ذلك غير ناجعٍ، بعثوا لنا أولادَ عمومتنا، ومَنْ هم من قبائلنا، يتكلّمون بلساننا، وجلودهم كجلودنا، من أجل أنْ يزرعوا الفرقة بيننا، وكانوا يُمنّونهم بعَرَضٍ حقيرٍ من الدُّنيا مقابل مَنْ يقتلونه منّا أو يسوقونه عبدًا لهم، ولقد نجحوا في زَرْعِ الفرقة، ولم يكنْ للسّيف أنْ يذبحني إلاّ إذا رفعه أخي في وجهي، ولم تكنِ الطّعنة بهذه القسوة لولم تكنْ من خنجرِ أخي!!

(٢٢)

بيتُنا لم يعدْ آمنًا!

انتشرتْ على حدود (توبا) مناطقُ اتّخذتْ من المُجاهرة بالمُنكَرات ديدَنها، كان الفرنسيّون قد سَهّلوا لهم ذلك، أتَوا بالخمور، وبالنّساء، وبالطّبول، وبالصّياح والهِياج أيّام اكتمال البدر في السّماء، كان الرّجال العمالقة يأتون ويرقصون، ويهرّجون، ويُضحِكون النّاس، ولم يكنْ أحدٌ يملك حينَ يسمع قرع الطّبول العالي ورَقْصَ هؤلاء العمالقة نفسَه، وخاصّة النّساء، فكُنّ ينزلْن للرّقص أشباه عرايا، لا يردعهم عن ذلك رادع.

كانت الأدغال مليئة بهذه الجيوب المُنكَرة. وشجّعهم الفرنسيّون على الأمر إلى الحدّ الّذي كانوا يُقيمون حفلات العربدة تلك معهم، ونشأتْ بين بعضِ زعماء القبائل وبين بني الأحمر علاقاتٌ مشبوهة، قامتْ على الفجور في كلّ شيء، وكان غُرام الشّهوة إلى الخمر والنّساء قد ملأ بطون هؤلاء الزّعماء وفروجهم، فباعوا مِن أجله دينهم وبِلادهم وأبناءَ جِلدتهم.

وكانت الطبول - بأصواتِها وطقوسها، والّتي يضرب عليها العارِفون بإيقاعاتها - تستخدم لجذب الناس وخروجهم من بيوتهم ومخابئهم، فإنّ صوتَها لم يكنْ يُقاومه الكثيرون، فكانوا يتقاطرون من كلّ بيتٍ إلى مصدر الصّوت في اللّيل المُدلهمّ من أجل أنْ يُشارِكوا في

حفلةٍ تُنعِش أرواحهم وتستحضر لهم طيوف آبائهم وأجدادهم... وفي مركز الصوت حيثُ الطّبل يكون الفَخّ، وتكون الشِّباك المنصوبة؛ فيتم اختطافهم إلى رحلة الموت أو الاستعباد.

استغلّ الفرنسيّون والإنجليز ذلك الأمر على أقذر وجه ممكن، ونهبَ الحاكم الإنجليزيّ (سانْلُوي) فوتا تور طولاً وعرضًا وهو يبحثُ عن العبيد، وكان يسعى هو وجنوده سعيًا محمومًا ليتزوّدوا بأكثرِ عددٍ منهم، ومن أجل ذلك عقدوا اتّفاقًا مع زعماء هذه القبائل الخائنة، وشجّعوهم على اصطِياد المساكين الّذين لا حول لهم ولا قُوّة، وكانوا يُقايضون صيدهم مع بني الأحمر مقايضة السّلع بالسِّلَع؛ الرّجل مقابل بندقيّة، والمرأة مقابل زجاجة نبيذ، والطّفل مقابل كأسٍ فارغة من الزّجاج، والفتاة العذراء مقابل زجاجة من خمرة (الروم).

ولقد بدأ الأمر يفشو، وينتشر بين قبائلنا حتّى خاف المرء على نفسِه من ابن عمّه، ولم تعدِ البِلادُ في أمان، واجتهدَ الإمام (عبد القادر) بمساعدة الشّيخ (دِيا) على أنْ يقاوموا هذا الشّرّ المستطير الّذي استفحل، ولكنّ الأمر فاقَ التّوقّع، وقال الشّيخ: «مِنَ السّهل أنْ أحاربَ جيشًا كامِلاً يحمل البنادق وتتقدّمه المدافع وأنتصر عليه، لكنّه من الصّعب أنْ أحارب جيشًا تقودهم فروجُهم وبطونُهم، وتُحرّكهم حيوانيّتهم».

دأبتُ منذُ قدومي إلى (تُوبا) أنْ أنظّف المسجد بين صلاتَي القِيام، وكان يُساعِدني في ذلك عددٌ من المُريدين، وفي كلّ شهرٍ كُنّا

نبدّل خمسةً مع آخرين، حتّى تتوزّع الخدمة على المُريدين كلّهم، ونحافِظ على نظافة المسجد، ولقد أبى أحدُنا، وكان اسمُه (أحمد) أنْ يترك الخِدمة، وظلّ فيها معي ثلاث سنواتٍ، حتى انتدبه الشّيخ (دِيا) ليكون في رِكاب المُجاهدين، وبعثَهم ضمنَ مئةٍ - كعادته - إلى الإمام (عبد القادر كن)، وبعدَ خمس سنين من ذلك الغِياب، جاءتْ أُمّه إلى الشّيخ، فقالتْ له: «إنّ ابني قد ذُهِب به إلى قِتال الفرنسيس، وإنّه لم يكنْ عندي سِواه، ولم يأتِني منه خبرٌ منذ ذلك اليوم، ولقد خرجَ من هنا، ولقد سمعتُ أنّ فلانًا الّذي خرجَ من هنا عاد إلى قريته، وفلانًا أوى إلى بيتِ أبوَيه، وأمّا ابني فلم ينقلْ لي أحدٌ عنه خبرًا؛ أهو حَيٌّ أم ميتٌ؟ أهو في السّماء أم في الأرض؟ أله قبرٌ حتّى أزوره؟ ولقد سمعتُ من إحدى الأمّهات أنّ ابنَها الّذي عادَ إليها سمع من ابن عَمٍّ له كان في الجبهة أنّه رأى ابني في صفوف المُقاتلين، ولكنّ رفيقًا آخر روى أنّه أُسِر وذُهِبَ به إلى إنجلترة...» ثُمّ أجهشتْ بالبُكاء، وراحَ جسدها يرتجّ. فأخذ المشهد من قلب الشّيخ، فانحدرتْ دُمُوعه، ولولا أنّه في حضرتِها لبكى بُكاءً أشدّ من بُكائِها، ثُمّ قال لها: «عودي إليّ في الجمعة القادمة أكون قد أتيتُكِ به». ومضت المسكينة، وقد بدا أنّها مع تقوّس جذعها قد هرمتْ أمام الشّيخ عشر سنين.

بعثَ الشّيخ مِنْ فوره ثلاثةً مِنّا إلى الإمام عبدالقادر، على جِمالٍ لنا، وقال لهم: «فَلْيَحمِ بعضُكم بعضًا، وإذا كان ابنُها حَيًّا فلا تعودوا إلاّ به، وقولوا للإمام: هذه رَغبةُ شيخِنا». ووصل الثّلاثة بعدَ يومَين إلى منطقة تجمّع المُجاهدِين، واستأذنوا الشّيخ، فبعثَ إليهم،

فأتوه فأخبروه الخبر، فقال: «حُبًّا وكرامةً». وناموا عنده ليلتهم تلك حتّى يعرفَ في أيّ بعثٍ أو جيشٍ هو، فلمّا أُتوا به، قال لهم: «دونكم فتاكم». وحمّلهم بالسّلام والهدايا. وعادوا أدراجهم.

وجاءت الأمّ فاستبَقَتْهم، ولم يكونوا قد وصلوا بعدُ، فاسْتَمْهَلها الشّيخ بقيّة اليوم، فمكثتْ عندنا تبكي، وهو يرقّ لحالها، حتّى إذا أذّنتُ للعِشاء الآخرة، سمعتُ أصواتًا خارج الصّحن، فإذا ابنُها قد عاد، ولقد رأيتُ دموعَ فرحِها أشدّ من دموع بُكائِها، وهوتْ على يدَي الشّيخ تريدُ تقبيلهما، فتراجَع، وقال لها: «إنّه ابنُنا مثلما هو ابنك». وراح يُوصيه أنْ يبرّ أمّه، وطلبَ منها ألاّ تنسانا من الدُّعاء.

وكُنّا نتركُ أنفُسَنا ونذهبُ إلى الله. كما تركَ إبراهيم ابن الأدهم نفسه للرّاعي، ولبسَ ثِيابَه وذهب إلى الله، ومَنْ ذهبَ إلى الله فتحَ الله له الأبواب، وطوى له الأرض، وزوى عن عينَيه دروب الشّياطين.

مرّتْ بنا في (تُوبا) ليالي لا يُمكن أنْ تُوصَف، كنّا نسمع في ليالي الشّتاء المُظلمة الباردة الرّياح تعوي عواءً مُرعِبًا كأنّما رُكّب في جوفِها ألفُ ذئبٍ يعوون دُفعةً واحدة، وما نجد ما يُسكّن هلَعَنا ووحدَتنا غير ما نحفظُ من الذّكر. وكان الواحد إذا خرجَ لِقَضاء حاجةٍ أو إنفاذ مهمّة، يسمعُ الصّواعق ترتجف لها الأرض فيرتجفُ لها بدُنه أكثر من ارتجافِها، فيأخذ الرّعب بتلابيب قميصه، ويشدّ على عنقه حتّى لا يجد لِنَفَسِه سبيلاً فيكاد يختنق من هولِ ما يسمع، فإذا بدَأ يتلو آياتِ الله

رأى نورًا لا نارًا، وملائكةً لا جِنًّا، فسار على هُدى ذلك النّور في حِمى تلك الملائكة، وما ثَمّة شيءٌ من هذا، ولكنّ العقل الخائف كان يُصوّر لنا ما ليسَ موجودًا، لينبعث من العدم ما يُعيننا على ألاّ نفقد وعينا. كانتْ تلك حِيْلتنا، وكان ذلك إيماننا.

ولقد عشتُ بين الرّغبة والرّهبة، وبين الطّمانينة والخوف، وبين الموت والحياة في (تُوبا)، وكانَ صوتُ أختي يملأ مسامعي في كثيرٍ من الأوقات، وكانت عيناها تبرزان لي في الظّلام جمرتَين غير مرّةٍ وكانتْ أصوات الرّاحلين والّذين أحببتهم تملأ مسامعي، ولم تكنْ لديّ وسيلةٌ لطردها أو التّخفيف منها، سوى أنْ أرفع صوتي بما أحفظ، أو أذكر، ثُمّ كانتْ صرخات أمّي تطرد صرخات أختي، وتداويت من الدّاء بالدّاء، وضربتُ الصّوتَ بالصّوت!

ولقد كتبَ الشّيخ (سليمان بال) مؤسس دولة الأئمّة في دستوره في أوّل نقطةٍ فيه: «إنّ (فوتا) غيرُ قابلةٍ للتّجزئة». وإنّها اليوم يعدو عليها ألفُ وحشٍ، وألفُ مستبدٍّ يريدُ بها وبنا شَرًّا.

وكتبَ من بعده الشّيخ (عبد القادر كن) رسالةً إلى ممثّل فرنسا في (سان لويس) مطوّلة، جاء فيها: «نحنُ نُحذّركم بأنّ كلّ الّذين سيأتون إلينا من أجل ممارسة تِجارة البَشَر سيُقتَلون، وكذلك الحال إذا لم تُعيدوا إلينا أبناءَنا الّذين في أيديكم... نحنُ لا نُريدُ إطلاقًا أنْ تشتروا المُسلمين لا من قريبٍ ولا من بعيد. ونُكرّر القول: إذا كانتْ هذه أهدافَكم دومًا؛ هي شراءُ المُسلمين؛ فعليكمْ أنْ تمكثوا في

بِلادكم، ولا ترجِعوا إلى بِلادِنا. ولْيتأكّدْ كُلُّ الّذين سيأتون إلى بِلادِنا لهذا الغَرَض؛ أنّهم سيَلْقَون حَتْفهم... من إمام (فُوتا): عبد القادر حَمّدي كَنْ».

وزعزعتِ الرّسالة قلبَ ممثّل فرنسا وفرنسا نفسِها، لكنّ عملاءَه من أهل (فوتا)، ومن القبائل أزاحوا ذلك الخوف عن قلبِه، ووعدوه أنْ يقفوا إلى جانبه إذا قامتِ الحرب، ولم يكنْ هذا العَرض السّخيّ من القبائل إلاّ من أجل إشباع شهواتٍ رخيصة، وتأكّد لنا أنّ اليدَ الّتي تمتدّ إليكَ في الخَفاء لتطعنك هي الّتي تميتك، لا تلك الّتي تُشرِع السّلاح في وجهكَ وضحَ النّهار.

كان قد مضَى على مكوثي هنا في (تُوبا) ما يقربُ من عشرينَ عامًا، لم أزرْ فيها أهلي إلاّ تلك المرّة اليتيمة، ولقد جاوزت الثّلاثين من عُمري، وأتممتُ العِلم الّذي طلبتُه في هذه الأنحاء، وخبرتُ الحياة وألوانَها وتقلّباتها، وعشتُ حياة الزّهد في أجلّ صُورِها، ودار في خَلَدِي مع تتابع الأيّام، ومعرفتي بها سؤال جارح: كيفَ يُمكن أنْ يكون شكلُ الحياة إذا لم يكن ما عشتُ أو رأيتُ؟ وظننتُ أنّني لن أجدَ من مشقّات الحياة أشقّ مِمّا وجدتُه هنا، ولا من شَظَفِها، وتبتُّلها، وانقِطاعها، وغريبها، وغرائبها ما عايشتُه في (تُوبا)... ولكنّ السّؤال الأهمّ: ماذا رأيتُ من الحياة ومجاهلها الشّاسعة لكي أستطيع أنْ أُقرّر؟!

وبعثَ أبي على عادته خيولَه وكُتُبه، يرفدُ المكتبة، ومعها رسائله الخاصة، ولم يخلُ عامٌ من خيولٍ وكتبٍ ورسائل خاصّة، ولم

يرقّ قلبي إلاّ هذه المرّة، ولا أدري لِماذا؟ هل شبعتُ من سنين (توبا) أم حننتُ إلى أيّام قريتي، وصوتِ أبي، وعينَي أمّي؟ وكانت الرّسالة الخاصّة هذه المرّة هي خاتمة الرّسائل الّتي سيبعثُها أبي من بعد، لقد شعرتُ بصوتِه يغوصُ في وِجداني عميقًا، وهو يقول في نهايتها: «بيتُنا لم يعدْ آمِنًا، إنّ سانلوي يعيثُ في بلادنا فسادًا، وأنا كَبِرتُ، وأحتاجُكَ أنا ووالدتكَ إلى جانبنا».

(٢٣)

الشّجرة الّتي لا تُثمر فالفأسُ أولى بها

للبيوتِ أرواح، ولها قلوب، ولها ذكريات، وفيها أشجان، وصوتُها الّذي لا يُسمَع أشدَ تأثيرًا في الوِجدان من صوتِ الثّاكلة إذا فقدَ كلاهما ابنه. يا بَيْتُ كَمْ لَكَ في الأَرْواحِ أَشْبَاهُ... مَرّتْ عَلَيَّ فَهاجَتْني حُمَيّاهُ... إنّي لأَصْبِرُ عَنْ جُوعٍ وَعَنْ عَطَشٍ... لَكِنّني عَنْ لِقاءِ الرُّوحِ أوّاهُ... كان صوتُ بيتِنا مسموعًا هذه المرّة، ولقد ناداني بكلّ شَجاه، ولقد حننتُ كما حنّ القُشيريّ. فعدتُ.

كان وجه أبي قد تغيّر، ولِتَغيُّرِه تغيّرَ وجه البيت، صارَ حُزنُه يحكي، صار له لسان مُبين، قال: «قد هرمنا يا بُنَي. وماذا نبتغي من دُنيا إلى زوال. لقد عاشَ أبوكَ غنيًّا، أعطاه الله من الدُّنيا ما لم يُعطِ سِواه، ولكنّني ما وجدتُ لذّة إلاّ في ثلاثٍ، ولدٍ صالحٍ يطلبُ العلم، وصُحبةٍ تحثّ عليه، وخلوةٍ مع كتاب. وإنّ أصحابي ماتوا أو ماتَ أكثرهم، وانقطعَ ما بيننا لبُعد المسافة وتطاوُل العمر، وأمّا الخلوة بالكتاب فإنّها لأحبّ إليّ مِمّا سِواها، ولكنّ عينَيّ ضَعُفتا، ولم أعدْ أُبصِر كما كنتُ في السّابق، وأمّا الولد الصّالح، فلقد اختار الله أختكَ إلى جِواره، ولم يبقَ لي سِواك، فآمِنْ روعتي بالبِقاء إلى جانبي».

ووضعتْ أمّي يدها على جذعي تتلمّس الحِرز، وقالت: «ما زلتَ تحتفظُ به، أليسَ كذلك؟». ولم أشأ أنْ أقولَ لها قولتي القديمة، فقد رأيتُ أنّ إيمان العجائز صخرةٌ في القِيعان لا يُزحزحها شيءٌ، فهتفتُ وأنا أبتسم: «بالطّبع يا أُمّي، هل أستطيع أنْ أخالفَ أمركِ». ووضعتْ في عنقي مسبحةً طويلة، فهتفتُ: «إنّها مسبحتي الّتي كانتْ لي قبل أنْ أغادر إلى تُوبا». فابتسمت: «نعم». «احتفظتِ بها طَوال عشرين عامًا؟!». «وأريدُكَ أنْ تضعها في عنقك وتُخبّئها تحتَ قميصِكَ كلّما قُمت إلى الصّلاة».

قال أبي: «جاءَ مجموعةٌ من الهمج ومعهم عددٌ من الفرنسيس هاجموا القرية، وقصدوا بيتَنا، كانوا يُسمّونه بيت الشّريف، وعاثوا بالبيتِ فَسادًا، وسرقوا كثيرًا من محتوياته، ونهبوا عددًا من الخيول والشّياه». صحتُ: «كيفَ حدث هذا ولماذا؟». «إنّهم يُركّعون كلّ مَنْ يقف إلى جِانب الأئمّة، إضافةً إلى أنّهم يريدون عبيدًا يأخذونهم إلى إنجلترة والبرتغال وأمريكا وفرنسا للعمل». «لماذا لم تُخبرني يا أبي؟». «لم أشأ أنْ أزعجك، وأقطع عليكَ خلوتَك». «تُزعجني؟». «ثُمّ إنّ هذا حدثَ قبل سنتَين». «مِن الآن يجب أنْ نتسلّح يا أبي، البندقيّة الّتي في ...». قاطَعني: «لقد سُرِقَ كلّ ما كان في العُلّية».

قالتْ أُمّي: «العمر يمضي، وأنا سأمضي معه، ولا أريدُ أنْ أمضي قبل أنْ تتكحّل عيناي...». «أعرفُ يا أمّي... أعرف...». «لقد وعَدْتَني!». «بماذا؟». «أنْ أختار لكَ العَروس حين تعودُ من (تُوبا)».

«صحيح». «فَلِمَ الإبطاء؟». «هل وجدتِ عروسًا مناسبة؟». قفزتْ من مكانها كأنّها فتاةٌ في العشرين، وصاحتْ بصوتٍ يندَى فرحًا: «بالطّبع... بالطّبع يا بُنيّ..».

إنّه فجر الجُمُعة، وضعتُ المسبحة في عنقي، مررتُ بالقبر، قرأتُ على روحِها الفاتحة، نزلت الدّمعات في داخلي، مضيتُ إلى الصّخرة، الصّخرة الّتي ذابتْ من خلفها أختي، وغابتْ عن الوجود، وابتلعتْها دوّامة العَدَم... وقفتُ كما يقفُ الرّاهب في المحراب، والخاشع بين يدَي ربّ الأرباب، ورفعتُ الأذان. الأذان نِداء السّماء لأهل الأرض، نداء السرّ لأهل الكَشْف، وصوتُ الحقيقة لأهل الله.

تزوّجتُ عام ١٨٠٢م امرأةً صالحة، كانتْ ابنةَ أحدِ عُلماء (فوتا تور)، ومع أنّ أُمّي اختارتْها، إلاّ أنّها ابنةُ أحدِ أصدقاء أبي من العُلماء، «وهل يُنبِتُ الخَطّيَّ إلاّ وشيجُه... وتُغرَسُ إلاّ في منابِتِها النّخلُ؟!». وهكذا اكتمل العِقد، كانتْ حياتي سلسلة من الحلقات غير المُتّصلة، جاءتْ (أمارا) الّتي كنتُ أناديها (أميرة) لتصل ما انفرطَ من تلك الحلقات، ولقد كنتُ قِطَعًا مُبعثرةً هنا وهناك، فجاءتْ (أميرة) لتلمّ شَتاتي. ولقد ملأتْ حياتَنا فرحًا وبهجةً، فاستبشر بمقدمها البهيّ كلّ حجرٍ في البيت!

كانتْ تُشبه أختي الرّاحلة، غير أنّ لها غمّازتَين تغوصان أكثر كلّما اتّسعت ابتِسامتها، وكانت تلك الابتِسامة تكشف عن صَفٍّ مُنتظمٍ من اللآلئ البَرّاقة خلفَ وجهٍ كأنّه بُنٌّ محروقٌ، وكان خَدّاها

ناضِجَين مُمتلئَين على الدّوام، وعيناها لامِعتَين كأنّ فيهما انعِكاسًا لنورٍ قادمٍ من قاعٍ عميق. وكانت أجملَ رفيقةٍ للدّرب، وأعظم صديقةٍ في الحياة، وأقوى امرأةٍ في وقوفها إلى جانبي، وأرقّ أنثى تُنزل زوجَها منزلته، وأخذتْ منّي ومن أبي منهجنا في العِلم، ومن أبيها ذلك القَبس؛ فكانتْ أسطونًا في ذلك، ولو كان في (فوتا تور) يومَها أساطين من النّساء لكانتْ أوّلهنّ، ولجعلتُها تُعلّم النّاسَ أمورَ دينهم!

وكانتْ (أمارا) لأمّي صديقةً، وأحبّتْها أمّي ربّما أكثر مِمّا أحبّتْ (آمنة)، أو لعلّها وجدتْ فيها عِوضًا عنها، وأحبّها أبي كما أحبّ ابنته، وشعرَ أنّها بمقدمها أزاحتْ كثيرًا من جبال الهمّ الّتي أناختْ بكلكلها على البيت، وشَفى صدره من لواعج الهرم، وأَخلَى روحه من رماد الحزن، وكانتْ فرحةَ البيت كلّه، وهكذا تفعل المرأة؛ إذا حلّتْ بمحلٍّ جديبٍ أعشب!

وأنا؟ أحببتُها من كلّ قلبي، ووجدتُ فيها عِوضًا عن سنيّ الحرمان العشرين الّتي عِشتها في (تُوبا)، كانت اكتِمالي من نُقصان، وأوبتي من غِياب، وجاءتني وقد صنع الفراغ في روحي جُبًّا عميقة، فملأتْ تلك الجُبّ بماء الحبّ حتّى فاض، وسقى ما حوله، فأينع كلُّ يابس.

لكنّ الحياة لا تمضي دائِمًا على ما نحبّ ونريد، مرّ على زواجنا سنتان، فبدأتْ أُمّي تسألها: «لا أرى لكِ بطنًا». وكانتْ (أمارا) حييّة، ولا تخوضُ في أمورٍ كهذه كثيرًا، مع أنّه بين النّساء تنفلتُ كثيرٌ من

القيود، وتنحلّ كثيرٌ من العُقد، وكانتْ تردّ: «ما يشاء الله، لا ما نشاء». فتسكتُ أمّي، مرّة على رضى، ومرّة على سُخط، وثالثةً على غيظ.

بعد انتِهاء السّنة الثّالثة لزواجنا، دعتْني أمّي إلى غرفتها: «إنّها عاقر. وخيرٌ لك أنْ تتزوّج امرأةً أخرى». قالتْ هذه العبارة القاتلة بالنّسبة لي هكذا ببساطة، صُدِمتُ، وحاولتُ أنْ أسترجع ما قالتْ لعلّني أصدّق أنّها قالته بالفعل، وأنّني لم أكنْ واهِمًا، فلم تُمهلْني حتّى أفعل ذلك، بل هي أردفتْ: «إنّ امرأةً لا تُنجب حقلٌ بلا زرع، والشّجرة الّتي لا تُثمر فالفأسُ أولى بها». بلعتُ ريقي، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا قبل أنْ أردّ: «إنّها امرأةٌ صالحة، وهي أولى بالإكرام، لا بالإضرار، وإنّ الوقتَ ما زال مُبكّرًا، وإنّ...». قاطَعَتْني: «إنّها ثلاثُ سنواتٍ، وتقول لي ما زال الوقتُ مُبكّرًا... كان يجب أنْ يكون لي ثلاثةُ أحفادٍ، أحدهم يقفز على كتفيّ، وآخر يحبو بين يديّ، وثالثٌ يوقظني صوتُ بُكائه في اللّيل». «يا أُمّي. فلْنصبِرْ قليلاً». «لقد صبرتُ بما فيه الكِفاية». «قد يكون العُقم مِنّي يا أمّي». ردّتْ بسرعةٍ كأنّها كانت تتوقّع هذه الإجابة منّي: «فلْتتزوّجْ بثانيةٍ إذًا حتّى نعرف». قلتُ بإصرار: «لن أتزوّج بغير أميرتي». وخرجتُ من البيتِ مُغضَبًا.

أخرجني الغضب إلى النّهر، ابتعدتُ عن البيت أكثر ما يُمكنني، وتجاوزت حتّى الصّخرة الّتي أُكِلت خلفَها أختي، وبدت الحياة لي لُعبة، مهزلة، وحُلُمًا ثقيلاً... ظللتُ أمشي حتّى قلّ عددُ

الصّيّادين، وكان موسمَ الصّيد آنئذٍ ووقتَ الفيضان... وجلستُ إلى النّهر في موضعٍ لا يصل إليّ فيه أصواتُ النّاس. عَقَدْتُ رِجلَيّ على صَدري، ورُحت أتناول الحَصى من الأرض وأرميه في النّهر. كان الحصى يغوص، تخيّلتُ أنّنا الحصى، وأنّ يد الأقدار ترمينا في النّهر، وأنّ النّهر يبتلع ذلك الحصى، الحصى لا يعود، ونحن كذلك لا نعود إذا ابتلعنا نهر الموت، لكنّ الحصى قد يبقى في قعر النّهر، وقد يحرّكه التّدفّق حتّى يجري به إلى مصبّه الأخير، قلتُ: «لن أكون اليد الّتي ترمي أمارا في النّهر».

تذكّرتُ ما مضى من عمري في (تُوبا)، فكّرتُ بأنّ خير ما يُمكن أنْ أحمله إلى النّاس من قيمة هي العِلم، من غير المعقول أنْ تظلّ عشرون عامًا من الزُّهد والانقِطاع للعلم حبيسةً في صدري، إنّ أحبّ العِيال إلى الله أنفعُهم لعِياله، قلتُ: هذه الفِكرة ستُبعِد شبح التّفكير في الإنجاب إلى حين؛ سأبني مدرسةً في قريتنا، في السّاحة الّتي تفصل بيتنا عن النّهر، وسأعلّم فيه النّاس القراءة والكتابة والحِساب وعلوم العربيّة». قُمتُ وقد انتشى القلب والوِجدان لهذه الفِكرة.

مضيتُ إلى أبي: «العِلم في الصّدور وفي السّطور يا أبي؟». «ماذا وراءَك؟». «نُنشِئ مدرسةً نُعلّم فيها أولادَ القرية». «فكرةٌ عظيمة». «على غِرار مجالسكم أنتَ وأصدِقائك في القديم مع توسيع الفِكرة». «كيف؟». «المنهج الّذي تعلّمْتُه في (تُوبا) سأطبّقه هنا». «لكنّهم لن يُطيقوا حالة الزّهد الّتي عشتموها، ولا الضّوابط الصّارمة الّتي ألزمْتُم أنفسكم بها». «أدري، المنهج في العِلم، لا في سلوكنا الّذي كان يخصّنا

نحن المريدين، هنا لا مريدين، هنا مُتعلّمون، إذا أزلْنا غشاوة الجهل الّتي ترين على قلوبِ أبنائنا فقد نَجَحنا في صناعة إنسانٍ متعلّم، قادرٍ على أنْ يحمي بلاده، وألاّ يقبل بالمستعمر ولا بالمُستبدّ». «فليكنْ يا بُنيّ». «نحتاج إلى بعضِ المُعلّمين». «أستقدمهم لك». «وسنوسعَ المدرسة لتكون كذلك للإناث». «ستفتح على نفسك عُشّ الدّبابير». «البنات أولى بالتّعليم من البنين، إنّهنّ أمّهات المُستقبل، الأمُّ المتعلّمة خير من جيشٍ بكامل عَدَدِهِ وعُدّته». «لن يبعث النّاس للمدرسة بناتهم». «أدري، سيكونون قليلين، ولكنّنا إنْ لم نقمْ بهذا العبء فمن يقوم به إذًا؟ سنكون الرُّوّاد في تعليم البنات». «أنا معك». «وستكون أمارا رائدةً في تعليمهنّ». «أنا أيضًا معك».

لم ننجح إلاّ قليلاً، كان حُلُمًا، حُلُمًا اشتطّ به خيالي، أنا القادم من مدينة الأحلام طَوال حياتي، لم يبعثْ أحدٌ ابنته كما قال أبي، وبعثَ قليلون أبناءَهم. لكنّ ذلك لم يمنعني من المحاولة والثّبات. صارتْ (أمارا) تطوف على البيوت تُقنع الأمّهات، لكنّهن كُنّ يخفْن من الآباء، استمرْنا في المحاولة، نجحنا مع عددٍ لا بأسَ به بطريقة ذكيّة، قال أبي: «اجعل لكلّ مَنْ يأتي إلى مدرستكم للتّعلّم جُعلاً من طعامٍ بدلَ غِيابه عن البيت» قلتُ: «نِعم الرأي، وحتّى نُحفّزهم أكثر، سنجعل الجُعل مُدًّا من تمر، تتقوّى به العائلة كُلّها». كانتْ خُطّة جيّدة، قدرْنا أنْ نجمع بعضَ التّلاميذ.

المُستعمر عدوّ العِلم، العِلم رمحٌ مُشرَعٌ في وجه كلّ مستبدٍّ، إنّهم لا يريدون لنا أنْ نتعلّم، يريدون لنا أنْ نظلّ جَهَلةً، وعبيدًا،

وخدمًا، ولا نعرفُ من الحياة إلاّ الذّل والطّاعة وخِدمة السّيد وهو يسرق قوتي وقوتَ عِيالي وبلادي، ويغتال روحي، إنّهم لن يسكتوا، لقد أوقدْنا شرارةً في ظلام الجهل، وتلك الشّرارة ستُصبح شُعلة، وتلك الشّعلة ستكبر وتُصبح نارًا تحرق المحتلّ والمستبِدّ، وهذا أمرٌ لن يحتملوه، ولن يسكتوا عليه طويلاً!

(٢٤)

النّجوم تتراكضُ في الأفق!

في أواخر سنة ١٨٠٦ بدأتْ بطنُ (أمارا) تكبر. رقصتْ أُمّي من الفرح، وذبحَ أبي بقرةً دعا إلى طعامها فقراء القرية كلّها. وغنّتْ أُمّي مع مئة امرأةٍ في السّاحة الّتي تفصلنا عن النّهر أغاني الفرح الإفريقيّة الّتي توارثْها من آبائها وأجدادِها. ولم تُضأ السّاحة بعددٍ من القناديل المُلوّنة مثلما أُضيئتْ في تلك اللّيلة!

قالتْ أُمّي: وهي تتحسّس بطن (أمارا): «إنّه ولد». «كيف عرفتِ يا عمّتي؟». «إنّه يرفسُ كثيرًا». رفسَ الولد في تلك اللّحظة. ضحكت: «ألم أقلْ لك؟!».

صار كلّ شيءٍ في البيتِ يضحك، الجدارن، الأسقف، النّخلات، والنّهر، وحركة أبي وأُمّي. «الولد سِرّ كلّ هذا؟!» همستُ. ردّ أبي: «الولدُ سِرّ أبيه». سألتْني (أمارا): «ماذا ستُسمّيه؟». «حينَ يأتي بالسّلامة سيكونُ من السّهل تسميته». «أُمّكَ لن ترضَى بهذا الانتِظار الطّويل». «إنّها شهرٌ أو اثنان، ويهلّ الولد إلى الحياة، سيكون لدينا وقتٌ كافٍ من أجل تسميته حينَها». «فلْنُسمّه سيّد على اسم أبيك».

«إنّنا ننتظر المولود خلال يومَين أو ثلاثة». قالتْ أمّي. قلتُ: «أتمنّى أنْ يجد السّلامَ والرّاحة حينَ يأتي». «سيجدهما حتمًا في كنف

أبيه وجَدّه. هل جارٌ أمنعُ من جارنا، وهل منزلٌ آمنٌ من منزلنا. نحن محبوبون من أهل القرية كلّها، بل ومن القُرى المُجاورة، أبوكَ كريم، ما تركَ فقيرًا أو محتاجًا إلاّ وأحسنَ إليه، ثُمّ إنّ أباكَ من سُلالة الأشراف الّذين يهابُهم النّاسُ ويُجِلّونهم». «أرجو أنْ يشفع لنا وله كلّ ذلك». ضيّقتْ أُمّي عينَيها، همّتْ أنْ تسألني عن سبب تشاؤمي، لكنّها صمتتْ وحوّلتْ دفّة الحديث إلى جهةٍ أخرى، سألتْني: «ماذا ستُسمّيه؟». «أمارا قالتْ سنُسمّيه سيّد على اسم أبي». هزّتْ أُمّي رأسَها، وتابعتْ: «تعرفُ ما عليكَ أنْ تفعل حينَ يولَد؟». «عليّ أنْ أُؤذّن في أذنه اليُمنى، وأقيم الصّلاة في أذنه اليُسرى، وأُحنكه بالتّمر». «فلْتفعلْ، لكنْ لا تنسَ أنْ تأخذه إلى السّاحة في ليلة البدر، وترفعه على كفَّيْكَ إلى أعلى ما تستطيع، وتهتف باسمه للسّماء». «لكنّ هذا ليسَ من ديننا!». «إنّه من تقاليد أجدادنا، وعلينا احترام ذلك إلى جانب الدّين».

استأذنتُ أمّي في أنْ أذهبَ إلى النّهر، ردّت: «في هذه السّاعة؟». كان اللّيلُ قد انتصف. أجبتُها: «أريدُ أنْ أودّعه». صُعِقتْ: «وهل سترحل من جديد؟». «لا... لا... ولكنّني أشعر أنّني لن أراه مرّة ثانية». قالتْ: «آتي معك». قلتُ: «لا، أريدُ أنْ أذهبَ وحدي، بيني وبينه حكايةٌ أخيرةٌ عليّ أنْ أقولَها».

كانت السّماء صفحةً منبسطة إلى ما لا نهاية في تلك اللّيلة، مليئة بالنّجوم إلى حَدٍّ غير معتادٍ، كان تجمّع النّجوم وتجمهرها يُشكّل ضبابًا سديميًّا ملوّنًا، لم يكنْ في السّماء موضعُ إصبعٍ خاليًا من نجمة،

مشيتُ حتّى وصلتُ إلى الضّفّة القريبة من نخلة (آمنة)، من هنا بدا بيتُنا كائنًا أسطوريًا جاثمًا أمام النّهر كأنّه يحرسه. كانتْ صفحة النّهر صافية، وكانتْ حركة الماء خفيفةً جِدًّا، والسّكون سيّد كلّ شيء، والهدوء عَمّ حتّى الحصى، ولم أكنْ أسمع غير خطواتي على العشب الطّريّ، جلستُ على الضّفّة، لم يكنْ من شيءٍ ليثير الرّيبة أو الخوف، أو يجرح هدأة السّكون. في لحظةٍ ما رأيتُ النّجوم تتراكضُ في الأفق بسرعةٍ مَهولة، ثُمّ بدأتْ تتساقطُ من عليائها في النّهر، والنّهر يبلعها كلّها... فَزِعتُ... ارتفعتْ دَقّات قلبي، وقمتُ، نهضتُ على رِجلَيّ، وهززتُ رأسي، «لا بُدّ أنّني أحلم، أو أنّني أتخيّل ما أرى...». أغمضتُ عينَيّ، وأرسلتُ طرفي بعدها، ونظرتُ بحذرٍ إلى السّماء، فرأيتُ النّجوم في أماكنها تضحك، لم يسقط منها شيء. ولم تُغيّر من مواضعها!! حانتْ منّي التفاتة إلى بيتنا الجاثم عن يميني إلى الخلف، كان هادِئًا، ويبدو مسالِمًا تمامًا. قلتُ للنّهر: «لن تأخذني كما أخذتَ أُختي. نحن صديقان؛ أليسَ كذلك؟». ردّ بخرير خفيفٍ، لم يبتسم، لم يقلْ شيئًا، وتابعَ سيرَه إلى مُنتهاه.

عُدتُ مشبوب الفُؤاد، وأنا أردّد في نفسي: «لا بُدّ أنّ شيئًا حدث، أو سيحدث».

كان اللّيل الّذي هبط على القرية يحمل أمانًا خادِعًا. نامتْ أُمّي مطمئنّة تلك اللّيلة، ونِمنا جميعًا كذلك. نحنُ الأعزّ جارًا، والأمنع دارًا كما دأبتْ أنْ تقول، كما أنّنا لا نملك أعداءً لنخافهم، وكلّ مَنْ في القرية يُحبّنا ويطلبُ رِضانا.

كُتلةٌ سوداء كأنّها غمامةٌ من أشباحٍ لا تُرى تزحفُ إلى الأمام في هدوء، مُلفّعٍ بالسّواد يتقدّم الكُتلة، عيونٌ تتطاير بالشّرر تبدو من وسط اللّثام، أنفاسٌ تتلاحَق، ثُمّ أصواتٌ تعلو، ثُمّ صوتُ طَلَقات،ثُمّ رَكْضٌ محمومٌ، ثُمّ مِئاتٌ يقتحمون البيت، ثُمّ عشراتٌ يُكسّرون الأبواب، وأرجل تتناهب الأرض، وصرخات تشتم وتلعن وتتوعّد، وتهتف: «اخرجوا... هَيّا... هَيّا...»

صحوتُ مفزوعًا، تساءلتُ مرتاعًا: «هل هو حلم، ما أكثر أحلامي هذه الأيّام، وما أبأسها!!». لمعتْ شرارة رصاصة اتّجهتْ نحوي، لكنّها استقرّت في الجدار الّذي فوقَ رأسي، أصابتْني حُمّى الهلع؛ أنا لا أحلم إذًا. سمعتُ صياحَ أُمّي، استيقظتْ زوجتي، كانتْ واهنةً ومُتعبة، استغرقتْ قليلاً من الوقت معي لتستوعب ما يحدث، كان أبي قد بدأ صوتُه يعلو: «إنّهم القبائل يا عُمر». ركضتُ باتّجاه غرفةِ أبي، عددٌ كبيرٌ من الجنود المُلثّمين كانوا يحملون المصابيح، على ضوئها الشّاحب، بدا بيتُنا ساحةَ حربٍ حقيقيّة، استمرّ طوفان الهلع يفيضُ في كلّ زاوية، ركضتُ عندما سمعتُ صُراخَ أبي مرّة ثانية، مررتُ من بينهم، لم يميّزوني بعدُ، في الطّريق رأيتُ غرفة المكتبة تحترق، وجنود كثيرون يدخلون ويخرجون، وقفتُ على بابِها، مددتُ عنقي الّتي تسبح في العرق، ونظرتُ إلى جدرانها، إنّها النّظرات اليتيمة في اللّحظات الأخيرة الفارقة؛ كانت هناك آثار صفحات بيضاء منطبعة على الجدران وسط السناج الأسود الكثيف، كأنّها تحولّتِ الكتب إلى حَمامات حاولت الهرب من الحريق فرفرفتْ بأجنحتها بعيدًا، لكنها

اصطدمت بالجدران فانطبعت آثار تلك الأجنحة هناك؛ فتركتْ هذا البياض وسط هذا السّواد كله. لكنّ نار الحريق الحمراء طغتْ على ذلك البَياض، والتهمتْ ما تبقّى من مخطوطات.

تركتُ بابَ المكتبة وهُرِعتُ إلى غرفةِ أبي، كان أبي قد خرجَ منها هو وأمّي يبحثان عن النّجاة، انطلقتْ رصاصةٌ من جنديٍّ خلفي لا أدري إنْ كان قد صَوّبها إلى رأسي أم إلى رأسِ أبي، لكنّها اختارتْ رأسَ أبي، أصابتْه في جبهته فخَرّ على الأرض صريعًا، في ثوانٍ كان يغرق في بركةٍ من الدّماء تتجّمع عند رأسه. وراحَ جسد أبي يتلوّى، ويداه تتخابَطان، كأنّه يُحاول الإمساكَ بروحه الّتي تُغادر جَسَده، نظر نحوي، وعيناه زائِغتان، انفرجتْ شَفَتاه، كانتا تريدان أنْ تقولا لي شيئًا، لكنْ يبدو أنّ الموتَ سبقَني إلى روحه! صرختُ بأعلى صوتي: «أبي». لكنّ بندقّية أخرى كانتْ مُوجّهة إليّ من يدِ جُنديّ آخر، وقبل أنْ يضغطَ صاحبها على الزّناد لينقلني في لحظةٍ حاسمة إلى الضّفة الأخرى من النّهر مثلما فعَل مع أبي، صاحَ به الرّجل المُلثّم: «توقّف، لا تقتله، هذا بالذّات نُريدُه حَيًّا؛ إنّه يُساوي الكثير». عَدّل الرّجل الأقسام، وأعادَ الطّلقة من بيت النار، عرفتُها؛ إنّها بندقيّة أبي!

كانَ صراخ أُمّي ما يزال يأتي من غرفتِها، خمدَ صوتُها فجأة، توقّفتْ أنفاسي من هول ما توقّعت؛ هل قُتِلتْ؟ سمعتُ أحدهم يقول: «احملْها إلى العَرَبة». ركضتُ باتّجاه غرفتي أنا وأمارا، لأعرفَ ما حصل لها، لم أكدْ أخطو خُطوتَين حتّى رفع مُسلّحٌ كعب بندقيّته إلى الأعلى وهوى بها على وجهي، فترنّحتُ، وسقطتُ على

الأرض، ركضَ ثلاثةٌ باتّجاهي، كان أنفي ينزفُ دمًا، ووجهي يتعفّر بالأرض والدّمُ يُغطّيه، شدّوا يدَيّ خلفَ ظَهري، ووضعوا الأصفاد فيهما،بدأتِ الدُّنيا تغيمُ في عينَي، يبدو أنّني أفقد الوعي، أنهضني اثنان على قدَمَي، فتراخى جذعي، سارعَ أحدهم فرشقَ بعضَ الماء في وجهي، فصحوت، دفعوني إلى الخارج، كان بيتُنا في الخارج مُحاطًا بمئات الجنود، والمُلثّمين، كانتِ العَربات الجرّارة الّتي لم أرها من قبل مكتظّة بالنّاس، يبدو أنّهم جمعوهم من قريتنا ومن القُرى المُجاورة.

سارتِ العربةُ الّتي تحملني، كانت الشّوارع والأزقّة تحترق، البيوت تحترق، الصّرخات في كلّ مكان، صوتُ الطّلقات المُتتابع يُدويّ في الأرجاء، جُثث هنا وهناك، كان بعضُها تمشي فوقه العَربات كأنّه جذعُ خشبٍ مقطوع في الأرض، وتسحقه تحت عَجَلاته، بعضُ هؤلاء المُلقَون على الأرض كانوا يصرخون، لم ترحمهم العَجَلات، وهبتْه فقط صرخةَ رُعبٍ أخيرةً قبل أنْ تنكتم أصواتُهم إلى الأبد.

كان الفجر قد حلّ، الشّمسُ تحاول أنْ تصعد، لكنّها خجلى من أنْ تُشرِق على هذه الدّماء، وعلى هذا الخَراب، والوحشيّة، والموت، والهلع... كانتْ تصعدُ ببطءٍ شديد، وتتوقّف أحيانًا، لتُغطّي عينَيها، أو لتلتقطَ أنفاسَها اللّاهثة من هولِ ما ترى... القرية أُبيدتْ كُلّها، وبيتُنا، بيت الأعزّ جارًا والأمنع دارًا، أُحرِق، ونُهِبَ، وهُدّمتْ كثيرٌ من أجزائه، وقُتِلَ سيّده، ولا أدري ما حلّ بأمّي، ولا بزوجتي والطّفل الّذي يتهيّأ للخروج إلى هذا العالَم، هل سيفعلُ مثلما تفعل الشّمس؟ هل سيُغطّي بيدَيه على عينَيه حتّى لا يرى وحشيّة

الإنسان،وحتّى لا يرى كيفَ يشرب الأخ من دماء أخيه؟ ما الّذي سيدفعه لمجيء إلى عالَمٍ متوحّش مثل هذا؟!

ظلّتْ بيوت القرية تحترق نهارًا كامِلاً، كان فيها غنائم ثمينةٌ بالنّسبة (للصّيادين)، القرية أبيدتْ، سُوّيتْ بعضُ البيوت بالأرض، وتحوّل أكثرها إلى رمادٍ متهاوٍ، هل ستنتهي قريتي إلى الأبد؟ هل ستُمحى من الجُغرافيا؟ الأقوياء من الجبابرة يُقرّرون؛ اتّفاقية قبائل الوحوش مع الفرنسيّين تصنع ذلك، كُلُّ مَنْ قاومَ أُردِيَ بالرّصاص، العُمر مهمّ لهؤلاء الصّيّادين الّذين يختارون مَنْ يعيشُ ومَنْ يموت، الكِبار في السّنّ حتّى وإنْ لم يُقاوموا كانوا يقتلونهم على الفور، العجائز من الرّجال والنّساء أُطلِق عليهم الرّصاص وهم يتوسّلون إلى قاتليهم، أخذوا فقط ما رأوا أنّه قابلٌ للبيع من الأطفال والنّساء والرّجال، وحمّلوهم في الشّاحنات، وذهبوا بهم إلى أماكن إتمام الصّفقات.

لسعتْني شمسُ الظّهيرة فصحوت، كان القائد المُلثّم يُتمّ صفقته مع القائد الفرنسيّ، قال الأسود: «ثلاث وسبعون امرأة بثلاثٍ وسبعين زجاجة نبيذ، وعشرون عذراء بعشرين زجاجة (روم)، خمسةٌ وسِتّون طفلاً بخمسٍ وستّين كأسًا من البلّور، وأربعون رجلاً بأربعين بندقيّة». قهقه الفرنسيّ، حتّى بضّتْ عروق رقبته، وقال: «شُحنة دسمة». «تعبتُ كثيرًا في جَمعِها، وفقدتُ بعضَ رِجالي في هذه العمليّة». لكَ ما تريد». نادى على جنوده. رأيتُهم يحمّلون ثلاثة طرود ضخمة، قال الفرنسي: «كلّ طردٍ يحوي اثنتين وعشرين زجاجة نبيذ، يتبقّى لك سبع زجاجات، في صفقتنا القادمة آتيكَ بها». هَزّ

الأسود رأسه: «كلاّ. الآن آخذ بِضاعتي كامِلةً، وشهر بندقيّته». بصق الفرنسيّ على الأرض: «اذنْ انتقِ سبع نساء وأعِدْها، لا أحتاج كلّ هذا العدد». «ليس لديّ مكانٌ أخزنُ فيه هذه البِضاعة». «إذًا عليكَ أنْ تصبر للمرّة القادمة».

كان الأمر ما يزال يتمّ بين القائدين، يقول الأسود له: «لقد اصطدتُ لكَ خيرةَ رِجال فُوتا تور، إنّهم شبابٌ في العشرينيّات والثّلاثينيّات، مفتولي العَضَلات، وسوفَ تكسبُ من ورائهم مالاً وفيرًا». بصقَ الفرنسيّ التّبغ من فمه على عادته على الأرض، وقال غيرَ راضٍ: «سنرى، إنْ كانوا سيصمدون في البحر».

تسلّم الأسودُ بِضاعته، من الخمر والبنادق والكؤوس، ناقِصةً سبعَ زجاجاتٍ مُخبّاةً أو مُرجاةً لحملةٍ أخرى، حتّى يظلّ أمر الصّفقات بين الطّرفَين قائِمًا.

كانتْ في الخارج، هناك في قريتنا الوادعة، أعني الّتي كانتْ وادعة، ما تزال صَرَخات أمّي، ودماء أبي الّذي سقطَ على مرأى منّي، ما تزال تواصل صعودها إلى السّماء. أمّا أمارا والجنين الّذي في بطنها، فما أدري ما حلّ بهما. كان أنفي قد تورّم جرّاء الضّربة الّتي تلقيّتُها بكعب البندقيّة. كنتُ لا أزال غير مُصدّقٍ، أحاول أنْ أفهم ما جرى، وكيفَ جرى، لكنّني لم أهتدِ إلى ذلك أبدًا! ظلّ أمل أنْ يكون كلّ ما رأيتُه حُلُمًا يثقب عقلي!



غُوريه

إنّه شهر كانون الأوّل من عام ١٨٠٧م، بقينا في غابةٍ لا أدري أينَ هي ما يقربُ من ثلاثةِ أيام، كُنّا عُراة تمامًا، بقيتْ عِمامتي مُعلّقة عن يمين السّرير في غرفتي، لا أدري إنِ احترقتْ أو نجتْ. وأمّي؟ لا أدري، إنْ قُتِلتْ أم بقيتْ حيّة؟! على الأرجح قتلوها لِكِبرِ سِنّها. لا أدري كيفَ سيدفنون أبي؟ ربّما أحرقوه، مثلما أحرقوا عشرات الجُثث، رُبّما حفروا له ولبقيّة الموتى حُفرةً كبيرة، ودفنوهم في قَبْرٍ جماعيّ. إنَّ هؤلاء الوحوش ليس في قلوبهم أدنى ذَرّةٍ من رَحمة، تخايلتُ في رُؤاي عينا التّمساح وهما تسيلان بالدّمع، وأسنانه وهي تصطكّ على جسد أختي اللّين، والدّماء الّتي تتناثر كأنّها نافورة، ويتراشَقُ بعضُها على الماء فيحمرّ لونه، بدا التّمساح رحيمًا بالنّسبة إلى هؤلاء، على الأقلّ بكى وهو يأكل أختي!

هل وَلَدتْ (أمارا) ابننا (سيّد)؟ (سيّد) الّذي انتظرتُ مجيئه طويلاً، وأنا أعيشُ سنوات انتظاره لحظةً لحظةً، بالأمل، والصّبر، والرّضا، واليقين. هل سأُصبح أبًا يومًا ما؟ مَنْ يقول لي ماذا حدث معها هي وأُمّي؟ الجنودُ المُلثّمون هنا، لا يسمحون لنا بالحركة ولا بالكلام، ولا ننظر إليهم إلاّ ونحن مُلقَون على بطوننا في أرضٍ رطبةٍ زَلِقة باردة، وأيادينا مُقيّدة خلفَ ظهورنا، فإذا أردْنا أنْ ننظر، فإنّنا لا

نستطيع أنْ نلفّ جِذعنا، فلا يُتيح لنا المجال إلاّ رؤية أحذيتهم القذرة المليئة بالطّين. كان كُلّ شيءٍ هنا قَذِرًا، لكنْ لم يكنْ هناك أقذر من الإنسان!

المكان مليءٌ بأشجار النّخيل والموز، إنّها أشجار بلادنا، قُرانا، هل ما نزال هنا، في (فوتا تور) أمْ رَحّلونا إلى مكانٍ آخر؟ لا أحدَ يدري، سمعتُ أحدهم يتحدّث باللّهجة المحلّيّة: «لقد تعبْنا من حراسة هؤلاء، متى سنسلّمهم إلى الفرنسيس؟». ردّ آخر وهو يزفر: «غدًا صباحًا سنرحّلهم إلى الجزيرة». «الجزيرة؟». سأله. ردّ: «نعم، إلى السّاحل ومنه إلى الجزيرة، ليس السّاحل بعيدًا من هنا».

كان البردُ في اللّيلة الّتي سبقتْ ترحيلنا من هنا يحزّ عِظامنا. لا شيءَ يسترنا ألبتّة، بعضُنا من المحظوظين أبقَوا على قِطعة من القِماش تلفّ أوساطَهم، وتستر عوراتهم، للأسف لم يكنِ الحِرز على جذعي، عندما نمتُ تلك اللّيلة علّقتُه - خِلافًا لما تطلبه أمّي منّي - على الحائط إلى جانب العِمامة، مرّة أُخرى تُثبِت أُمّي أنّها على حَقّ، لقد فقدتُهما الآنَ معًا. غيرَ أنّ المِسبحة الطّويلة ما تزال تلتفّ على عنقي. قبل يومَين، أمسكَها أحدُ المُلثّمين المُوكّلين بحراستنا، رفَعَها، وهمّ بأنْ ينزعها من عنقي، لكنّه توقّف في اللّحظة الأخيرة، ونادَى صديقًا له، وسأله: «ما رأيك؟». «إنّها لا تُساوي شيئًا؛ خَشَب مُجوّف لا قيمة له». ضحك. تركَها، وهتف، وهو يضربُ على صفحة عنقي: «لتكنْ تعويذتك». وأطلقَ ضحكةً ساخرةً عاليةً!

حَمّلونا على عَرَباتٍ تجرّها الخُيول، رَمونا مع قُيودِنا مثلما تُرمى أجولة الخيش في قعر تلك العَرَبات، تكوّمنا لحومًا بشريّة، بعضُنا فوقَ بعض، لم يكنْ هناك حرمة، رَمَوا الرّجال أوّلاً في عربة، فلمّا امتلأتْ أغلقوها، وأتمّوا رَمْي ما تبقّى منهم في عربةِ أطفال، كادتْ أضلاعهم تتكسّر من ثِقَل الأجساد المتراكمة فوقَهم. صاح القائد: «هَيّا... هَيّا...». انطلقتِ البِضاعة، كُنّا خمسَ عربات، يجرّ كلّ عربةٍ ثلاثةُ خيول. سارتْ عبر طريقٍ بدأتُ أتعرّف إليه، إنّها قريبةٌ بالفعل من مدينة ساحليّة، المدينة الّتي يتجمّع فيها تُجّار الأسماكِ الكِبار، زرتُها بضع مرّات مع أبي، وأبي كان يعرفُ كثيرًا من أهلها، له هنا أصدقاء؛ هل سيتعرّفون إليّ، ويُخلّصونني من هذا العذاب؟ كان هذا خاطِرًا حالِمًا جِدًّا!! هنا أيضًا تُجّار الموارد الّذين ينقلون بضائِعهم عبر السّفن، هل نحن البِضاعةَ الجديدةَ لأحدِ هؤلاء التُّجّار؟!

ظلّت الخيول تجرّ العَربات الخمس منذ شروق الشّمس حتّى استوى الضُّحى، توقّفت العربات أخيرًا، لا بُدّ أنّنا وصلْنا، انكتمتْ أنفاسُنا ترقُّبًا لما يَحدُث. فُتِحتْ أبواب العَرَبات، صرّتْ صريرًا حادًّا، فاضطربتُ اضطِراب الماء يغلي في القِدْر، ومشى الصّرير في قلبي، وحَزّه كأنّه سِكّين، سأظلّ أتذكّر هذا الصرير بقيّة حياتي كُلّما فُتِحَ باب!

شَحَطونا من بين اللّحوم المُتكدّسة في العَرَبات من أرجلنا وأيدينا ما تزال مُقيّدة خلفَ ظهورنا، فهوينا من ارتفاع العربة على الأرض، المحظوظون هم الّذين سقطوا على جنوبهم أو ظهورهم،

أمّا الّذين سقطوا على رؤوسهم فكانوا يصرخون صرخاتٍ تضيع في المدى دون أنْ يرحمهم أحدٌ، وكانوا حينَ يُجلَدون من جديدٍ ليقفوا على أقدامهم يتركون بقعةً من الدّم القاني تحتَ رؤوسهم!

أمرونا أنْ نصطفّ في صفوف خلفَ بعضِنا، وكانوا يضربوننا بكعوب البنادِق على رؤوسنا، فهمتُ أنّه علينا أنْ تظلّ رؤوسنا مخفوضة، وجذوعنا كذلك، ولا ننظر إلاّ في الأرض. كانتْ هناك ثلاثةُ صفوف، صَفٌّ للرّجال، وثانٍ للنّساء، وثالثٌ للأطفال. كان الفرنسيّون يزعقون، لم نكنْ نفهم على كلماتهم، لكنّ العربات استدارتْ بعدَ بعض الوقت، وتركتْنا تحت رحمة البنادق المُشهرة على رؤوسنا من الخلف، كان هناك أكثر من ثلاثين جُنديًّا مُدجّجين بالسّلاح يتولّون أمر صفوفنا الثّلاثة، فكّرتُ بالهَرَب، ما تزال أقدامي حُرّة، يُمكن بسهولةٍ أنْ أجري في هذه الأنحاء، إنّها بلادي، وأنا حُرٌّ في بِلادي، وإنّه تُرابُ وطني، وسيكون رحيمًا بي، ومَنْ يدري فقد يلقاني أحدُ الّذين يعرفون أبي فيرقّ لحالي، ويرحمني، ويُخلّصني من العذاب...؟! لكنْ يبدو أنّني لم أكن الوحيد الّذي فكّرتُ في ذلك، فقد رأيتُ واحِدًا يبعد مسافةَ ثلاثةَ رجال من أمامي، يتلفّت حولَه يتحيّن فرصة ابتِعاد البندقيّة القريبة منه، ليُطلِقَ ساقَيه للرّيح، ويجري بأقصى سُرعته، «لقد فَعَلها» قلتُ في نفسي، فتشجّعتُ أكثر، لكنّه لم يكدْ يبتعد كثيرًا، حتّى عاجلته رصاصةٌ في رجلِه فأسقطته أرضًا، سقطَ على وجهه، وسَرعان ما انقلبَ على ظهره، وفي لحظات كان الجنديّ الفرنسيّ فوقَ رأسه وهو يزعق، ويضع فوهة البندقيّة على جبهته، نظر الجنديّ نحو مُسلَّحٍ آخر

يتقدّم الصّفوف الثّلاثة، وكان يتبختر ويعقد ذراعَيه خلفَ ظهره، يبدو أنّه رئيسهم، كانت نظرة الجندي إلى رئيسه نظرةَ استئذان، ما إنِ التقتْ عيناهُما، حتّى هَزّ الضّابطُ رأسَه، كان ذلك يعني المُوافقة، كانتْ لا تزال فوّهة البندقيّة تضغطُ على جبهة الفارّ، نظرتُ إليه، كانتْ عيناه تمتلئان بالرّعب والهلع والتّوسّل، مطّ شفتَيه، وتوسّل فِعلاً باللهجة المحلّيّة: «لا تقتلني... أرجوووك لا تقتلني». لكنّ هذه اللغة لا تفهمها هذه الوحوش، ضغط الجُنديّ على الزّناد فانفجر رأسُه على الفور، تناثرتْ قِطَع الرّأس عاليًا في الفَضاء، رشقَتْ دِماء الضّحيّة ثيابَ الجنديّ، فبصق، أبعدَ رأسه هذه المرّة، وأطلقَ رصاصةً ثانية في الهواء، فرجفَ كُلّ مَنْ في الصّفوف، مسح دماء الضّحيّة من على الفوهة، كان البُخار يتصاعد منها، لا أدري أهو بُخار الطّلقة، أم بُخار الدّماء الحارّة؟ لقد اختلطا!!

كان الرّئيس لا يزال يمشي مُتبخترًا وذِراعاه معقودتان خلفَ ظهره، تلفّظ بعضَ الجُمل بشكلٍ حازم، لا أدري إنْ كان شتَم أو لعنَ أو أطلقَ تحذيراتٍ من نوعٍ ما، أم أنّه جمَعَ كلّ ذلك في زعيقه؟!

جاءَ جنودٌ آخَرون بقيودٍ جديدة، أمروا بعضَ السُّود فوضعوها في أرجلنا، صارتْ أيدينا وأرجلُنا مُقيّدة، كانتْ قيود الأرجل حَلَقاتٍ دائريّة تُفتَح، ثُمّ تُلفّ على أسفل السّاق، ثُمّ تُغلَقُ، ويُحكَم إغلاقها بِمِسمارٍ ينزل في فتحةٍ مُعدّةٍ له عند التقاء نِصفَي الحلقة، ثُمّ يُدار حتّى تثبتَ الحلقة بشكلٍ تامّ، وكانتْ تصل بين

الحَلَقَتين سلسلة غليظةٌ من الزّرد، وفي منتصف السّلسلة الواصلة بين الحلقتَين، هناك سلسلة تتفرّع منها بطُول ذراع أو أقلّ وتنتهي بِكُرةٍ معدنيّة تزنُ ثلاثةَ أرطال، على الأسير أنْ يجرّها خلفَه وهو يمشي، وهي ثقيلةٌ على شابٍّ عشرينيّ قويّ العضلات، فكيفَ بالكِبار أو النّساء أو الأطفال، لقد عانَوا من جَرّها خلفهم أكثر من معاناتهم لو هُم جَرّوا شجرةً كبيرةً مقطوعةً على أرضٍ مليئةٍ بالصّخور، كان ذلك حتّى لا يهربَ أحدٌ.

مشينا كالقطيع؛ قطيعٍ من الحيوانات الّتي لا تملك من أمرها شيئًا. كان هناك قاربٌ كبيرٌ على السّاحل بانتظار أنْ يُقلّنا، صعدْنا بعد جُهدٍ كبيرٍ، ورؤوسنا تُلهبها حرارة الشّمس، وظهورنا تُلهبها ضَربات السّياط المجدولة، وقلوبنا تُرعِبها أصوات الزّعيق، والطّلقات التّحذيريّة الّتي تُطلَق فوقَ رؤوسنا من حينٍ لآخَر لتذكيرنا بطرد الأفكار السّوداء من رؤوسنا.

تكدّسنا ثانيةً في القارب، الرّجال والنّساء والأطفال. كان البؤس سربالاً يُغطّينا جميعًا ولم ينجُ منه أحدٌ، كُنّا نحن الرّجال نبكي دون دموع، وكانت النّساء تبكي دون صوتٍ، فقد كان الصّوت يكلّفها سوطًا يلتفّ على رأسِها فتفقد بذلك عينَها أو شيئًا من لحم وجهها، وكُنتَ أراهنّ تنسابُ الدّموع في خيوطٍ سريعةٍ من عيونهنّ، وهُنّ يُحاولْن كتْم أصواتهنّ برفع أيديهنّ المُثقلة بالقيود إلى أفواههنّ. وأنا؟ كنتُ زائغَ النّظرات لا أصدّق ما يجري حتّى هذه اللّحظة!

مشى القارب بكُتَلنا اللّحميّة السّوداء، ومعنا حُرّاسُنا البيض، يتهادَى في الماء باتّجاه جزيرةٍ صغيرةٍ في البحر. شهقتُ أوّل ما رأيتُها من بعيدٍ في البحر، إنّها جزيرة الموت والرّعب والجنون، إنها جزيرة (غوريه)!



(٢٦)

أنا عُمر... عُمر بن سيّد

رَسا القاربُ الكبير على ممرّ صخريّ، أنزلونا تحتَ تهديد البنادق والسِّياط، مشينا بهيئة القطيع مرّة أخرى، رؤوسنا في الأرض، جذوعنا محنيّة، وأيدينا خلفَ ظهورنا. عبرنا الممرّ إلى الجزيرة، صارتِ الجزيرة الصّغيرة الجميلة تمتدّ أمام ناظِرَي، لم أكنْ أدري أنّ هذا الجَمال الأخّاذ يختبِئ خلفَه قُبح البشر، وأنّ هذه الوداعة المتناهية يستتر خلفَها الرّعبُ والهذَيان، وأنّ هذه الحمامات البيضاء الّتي تطير في الفَضاء هي حَمامات الموت لا السّلام!

مشينا نجرّ خلفَنا قيودنا، ونحن الرّجال نجرّ إلى ذلك كُراتنا المعدنيّة الثقيلة. كُنّا نسير في ثلاثة صفوفٍ كالمُعتاد، ويُحيطُ بنا على الجانِبَين عددٌ من الحُرّاس، وأصابعهم على الزّناد، كان هناك شخصان أو ثلاثة موكّلون بضربِنا بالسّياط بسببٍ أو بدون سببٍ، وكان صوتُ السّوط وهو يصفر في الهواء فوقَ رأسِ أحدِنا يُصيبه بالرّعب وبالألم أكثر من ذلك الألم الّذي ينتج عن الضّربِ نفسِه، كان توقّع الضّرب أشدّ رُعبًا من الضّرب، وكان صوت السّوط البغيض هذا نذيرًا لنا بينَ يدَي عذابٍ شديد!

أدخلونا في الجزيرة إلى بيتٍ، سيكون واحِدًا من أسوأ محطّاتنا في الحياة، يُدعَى (بيت العبيد)، كان بيتًا قد شيّده العبيدُ الّذين جِيء بهم إلى جزيرة (غوريه) في دُفُعاتٍ سابقةٍ، عبرَ عشرات السّنين الماضية، وكان يتكوّن من طابقَين، الطّابق الأعلى يُوصَل إليه بدرجَين حلزونيَّين يصعدان إلى الطّابق عن يمين الدّاخل ويساره، وفي هذا الطّابق العُلويّ كانتْ مكاتب الضُّبّاط الفرنسيّين أو البريطانيّين الّذي يتولّون أمر شرائِنا، وأخذنا عبر السُّفن إلى العالَم الجديد في أمريكا أو فرنسا أو إسبانيا أو غيرها... غُرَفُ الضُّبّاط كانتْ مُهوّاة، ومُرتفعة، ومُطلّة على البحر، وتتجاور في صَفٍّ مُنتَظَم خلفَ ممرٍّ طويلٍ يمتدّ أمامها، يجلسُ فيها تُجّار الرّقيق وهم يسكرون أو يرقصون أو يدّخنون.

تحتَ هذه المكاتب بالطّول، وعن يمين الدّرج الحلزونيّ الأيمن، وعن يسار الدّرج الحلزونيّ الأيسر تقع غُرَف العبيد، أو قُلْ زنازين العبيد، كانتْ مكوّنة من (٢٨) زنزانةً، بعضُها محفورٌ في الصّخر، ليستْ أكثر من تابوتٍ مُغلَق.

دخلْنا إلى الممرّ الطّويل المُفضي إلى قبورنا، كان هناك عبيدٌ كثيرون في هذه الغُرف، عرفتُ ذلك من أصواتهم، لم يكنْ مسموحًا لهم بالوقوف، من خلفِ الأبواب المحروسة بالجنود الفرنسيّين المُسلّحين كانتْ تأتي الأصوات والهمهمات والتوّسلات، والبُكاء المخنوق أحيانًا أخرى.

أَدْخَلوني وأدخلوا معي خمسة عشر إلى غرفةٍ لا ترتفع أكثر من طُولي كثيرًا، وكانتْ محفورةً في الصّخر، وطولُها يساوي ثمانية أذرع وعرضُها كذلك، وكانتْ مليئة بالعبيد الّذين سبقونا إلى هنا، كان فيها ما يزيدُ عن مئةٍ قبلَ أنْ ندخلها، محشورين حشرًا، بأجسادٍ عاريةٍ متلاصقة ينزّ منها العرق، لا يكادُ يقدر الواحد على الجلوس، وسرعان ما عرفتُ أنّ الجلوس نِعمة، وأنّه لا تُتاح إلاّ ساعةً واحدةً في النّهار وبالتّناوب، إذ يبقَى الآخرون واقفين حتّى تحين ساعتُهم.

كانت الرّوائح خانقة، روائح كثيرة مختلطة، غريبة، نفّاذة، تزكم الأنوف، كدتُ أتقيّأ لشِدّتها أوّلَ ما دخلتُ، لولا أنّني تماسكتُ، أردتُ أنْ أسأل عن ذلك لكنّني آثرتُ الصّمت. بعد قليلٍ، أردتُ أنْ أتعرّف على الموجودين هنا، لم أكنْ أعرفُهم من وجوههم، ولم أكنْ لأرى تلك الوجوه بشكلٍ جيّدٍ بسبب الزّنزانة المُظلِمة الّتي لا ينفذُ إليها إلاّ قليلٌ من الضّوء من شقوق الباب، ومع أنّني اعتدتُ الظّلام، وصار بإمكاني أنْ أُميّز بعضَ الوجوه، لكنّني لم أعرفْ أحدًا. أردتُ أنْ تكون البداية من عندي، هتفتُ: «أنا عمر.. عمر بن سيّد... سيّد الفوتي.. من فوتا تور... أبي سيّد قريتنا، ويعرفه الكثيرون، رجلٌ من العلماء والوجهاء، ونحن سلالةُ أشراف... هل أحدٌ هنا من فوتا تور؟ هل أحدٌ يعرفُ أبي؟ هل أحدٌ يعرفني؟». تكلّمتُ أوّلاً بالعربيّة، ثُمّ لمّا رأيتُ الصّمت رَدًّا لأسئلتي، تكلّمتُ باللّهجة المحلّيّة فلم يُجِبْني كذلك أحدٌ، ونظرَ بعضُهم إليّ خائفًا، وبعضُهم الآخَر مستغربًا، وبعضٌ ثالثٌ مُشمئزًّا.

أيقنتُ أنّهم ليسوا من بِلادي، هتفتُ في نفسي: «لكنّهم يُشبهوننا؛ بِمَ؟ في اللّون، والطّول، والعملقة؟ نعم. هناك بعضُ الاختِلافات في اتّساع الجبهة، وحجم الأنف والشّفتَين، عرفتُ من خِلال أشكالهم ومعايشة مَنْ يُشبهها في مدينة (تُوبا) أنّهم إمّا من (غانا) أو (مالي). تعجّبْتُ: «كيفَ يأتون بإخوتنا من هذه الأماكن البعيدة، كيفَ يجمعونهم؟ كيفَ يسوقونهم إلى هنا؟ لا بُدّ أنّ وحشيّة الإنسان لا حدودَ لها».

في اللّيل، كانتْ هناك مهمّة صعبةٌ في ترتيب أمر النّوم؛ ينام عشرون فقط مِنّا ويقفُ البقيّة ينتظرون، كُنّا ننام على حرفِ أجسامنا بالطّول، لا نثني رُكَبنا ونضع ذراعَنا اليُمنى تحت جنبنا الأيمن، وذِراعَنا اليُسرى فوقَ جنبنا الأيسر من أجل أن نحجز أقلّ مساحةٍ ممكنة، وذلك لتوفير مناماتٍ للّذين يحينُ دورهم، وكان دور النّوم ساعةً واحدةً في اللّيل، وبعدَ أنْ تنتهي، يقوم رئيسُ العشرين التّالين المُنتظرين بإيقاظ العشرين السّابقين ليقفوا على أرجلهم في الطّرف الآخَر من الغرفة!!

وهكذا بلمحةِ بصر ولّتْ أيّام الثّراء والغِنى والرّاحة، وأيّام السّاحة الفسيحة أمام البيت، وأيّام الجُلوس على ضِفّة النّهر، وأيّام طِرادِ الخيل في المِضمار، وأيّام المُدارسة مع العُلماء، وأيّام التّمتّع بزرقة السّماء، وامتِداد الآفاق، وحلّ محلّ ذلك كلّه هذا الظّلام والاختِناق والضّيق!

كان دفء الشّمس يكفينا جميعًا، كانتْ نجوم اللّيل قادرةً أنْ تُمتّعنا جميعًا، وكانتْ مياه الله في أرضِه قادرةً على أنْ ترويَنا جميعًا، وكان الطّعام الّذي ألقاه الرّبّ في كلّ مكانٍ قادرًا على أنْ يقينا الجوع جميعًا، فلماذا اخترتمْ أنْ تدفَؤوا وتَرمونا في البرد، ولماذا اخترتم أنْ تستمتعوا بضوء النّجوم وتُلقونا في الظّلام، ولماذا اخترتم أنْ ترتووا وتتشقّق شِفاهُنا من العَطش، ولماذا اخترتم أنْ تشبعوا وتُتخَم بطونكم ونموت نحن من الجوع؟!!

مرّ اليوم الأوّل، ولم يأتونا بلقمةٍ واحدةٍ من أجل أنْ نأكلها، ولا حتّى بكأسِ ماءٍ ولو من ماء البحر المالح حتّى نشربها. وكانَ رُسغاي قد تورّما من حزّ القيد الحديديّ فيهما، وكذلك قدماي، ولم أكنِ الوحيد، كلّ مَنْ معي من الّذين يبلغ عددهم مئةً وستّة عشر رجلاً في هذه الغرفة فقط يُعانون ما أعاني وزِيادة. نظرتُ إلى الباب المُغلَق الّذي ينفذ منه النّور من أعلاه قليلاً ومن أسفله، صرختُ: «أريدُ أنْ أقضيَ حاجتي». لكنّ أحدًا لم يسمع صوتي. صرختُ من جديدٍ، فجاء الرّدّ بالفرنسيّة، عرفتُ من اللّهجة أنّه يشتم، ومن الضّرب بالبندقيّة على الباب أنّه يُهدّد. جذبني أحدُهم من يدي، وأشارَ بطرفِ عينِه إلى شخصٍ آخَر: «انظرْ»، كان هذا الشّخص يبول على الأرضِ في مكانه. أصابني الذّهول، ولكنّني تصنّعتُ الهدوء واللاّمُبالاة. شدّني من طرف يدي، وأشار إلى شخصٍ آخر، كان بعضُ معارفه قد أفسحوا له جزءًا من المكان واقِفين على أطرافِ أصابعهم، ليُتيحوا له أنْ يُقرفِص، ويتغوّط!! كانت الرّائحة لا تُطاق، لقد

عرفتُ مصدر هذه الرّائحة أو بعضها عندما دخلتُ أمسِ إلى هنا!! إنّهم يبولون في ثيابهم، وتحت أرجلهم، ويتغوّطون بين أقدامهم، ويتعايشون مع هذه الرّائحة. قال لي العارف ببعض العربيّة: «هدّئ من روعِكَ يا أخي؛ إنّنا محشورون في هذا المكان منذ أربعين يومًا، لم نخرجْ منه أبدًا، نأكل ونبول ونتغوّط وننام فيه!!». أربعون يومًا؟». «ربّما تطول المُدّة مَنْ يدري؟». «ماذا يحدثُ في العالَم يا أخي؟! لم أكنْ أعرفُ أنّ العالَمَ مَجنونٌ على هذا النّحو؟!». «انتظر قليلاً، فيمَ العَجَلة؛ ربّما نحنُ لم نَرَ شيئًا؟!».

بعد بضعة أيّام انفتحَت طاقة الكلام، وثقَ بي بعضُهم، وصرنا نجدُ لهجةً تجمعنا، لم أجد في كلّ مَنْ معي في هذه الغرفة مَنْ يتكلّم العربيّة، إلاّ اثنَين، كانا أيضًا من طلبة العِلم، صادَهم أبناء عُمومتهم بالشِّباك الّتي يصيدون بها القرود وباعوهم إلى الفرنسيّين!

جاءنا الطّعام في اليوم الثّالث، استلمَه «آبدو» المُوكّل بتوزيع الطّعام، بصقَ فيه الفرنسيّ، لم يتأفّف أحدٌ باستِثنائي، يبدو أنّ عليّ أنْ أدرّب نفسي على التّكيّف بشكلٍ أسرع، كان قد فتَحَ الباب، وركله بقدمه. تناوله (آبدو)، قال: «لقمةٌ واحدةٌ فقط لكلّ واحدٍ»، دار بالصّحفة الكبيرة علينا، تناولْنا لقمةً واحدةً كما أمرَنا، وتناول هو لقمته في النّهاية، بقي في الصّحفة بعضُ اللّقم، يعرفُ مَنْ يستحقّها من الكِبار ومن المرضَى، دار عليهم بِما تبقّى، كان بعضُنا ينظر يشتهي أنْ تكون له لقمةٌ ثانية، لكنّه لا سبيلَ إليها، وكان بعضُنا ينخر حسدًا لمن فاز بها، وكان يتمنّى أنْ تكون له؛ لكنْ لا سبيل إلى ذلك أيضًا.

حَشَرَني البول. فعلتُها على طريقتهم. ويلتاه ماذا سيحدثُ لو أنّني اضطررتُ إلى التّغوّط؟! تذكّرتُ ما كُنّا نردّده أيّام تُوبا: «إذا أردتَ أنْ تنظر إلى قيمة الدُّنيا فانظر إلى ما يخرجُ منك!». قلتُ لنفسي: «ليسَ هذا وقت العِظة. هل هناك مَنْ هو أشدُّ مِنّا بُؤسًا؟!».

(٢٧)

أَلْقِها في البحر!

بعضُ الزّنازين هنا كانَ طولها لا يزيد عن أربعِ أذرع وكذلك عرضُها. كانتْ لا تتّسع لخمسة أشخاص، ويُحشَر فيها خمسون شخصًا. والويل كلّ الويل لمن تندّ منه صيحة اعتِراضٍ أو احتجاج. كان السّوط بانتظاره، يُخرجونه إلى ساحة وسطيّة فارغة تتوزّع على جوانبها زنازينُنا، ويرفعونه بالسّلاسل على رافعة معلّقة بالسّقف، ويتولّى عبدٌ أسود جَلْدَه حتّى ينزفَ دمه كلّه، أو يُغمَى عليه، ثُمّ يُترك مُغمًى عليه في السّاحة وقتًا طويلاً، قبل أنْ يأتوا ببعضٍ دلاء الماء المالحة من البحر فيرشقوها في وجهه من أجل أنْ يستيقظ. كان هذا تحذيرًا لأكثر من ثلاثمئة عبدٍ شاهدوا التّعذيب عبر شقوق الأبواب وفتَحاته، أو سمعوا الصّرخات النّاجمة عنه.

كانت الأيدي تتيبّس، والأرجل تُصاب بالتّصلّب لطول الوقوف، وكان بعضُهم يختنق، فلا يجد مُتنفّسًا، فيموت، وكانوا لا يخرجونه من الزّنزانة إلاّ بعدَ يومَين أو ثلاثة. بعدَ أنْ يُنبّه الجنديّ الحارس أثناء توزيع الطّعام، أنّ هناك في الدّاخل جُثّة تنتظر أنْ تُدفَن. وكانوا يشحطونه في اليوم الثّالث أو الرّابع من رجلَيه، ورأسه يتدهدى على الأرض، ونحن نشيّعه بنظراتنا البائسة. ولم يكنْ يحظى بكفنٍ ولا تابوتٍ ولا حفرة ولا حتّى بالدُّعاء بالرّحمة، أو بدَفْنِهِ حسبَ دينِه. كانوا

يُنادُون على عبدَين آخرَين، يشحطانه على صخور الشّاطئ، وتتعرّض جمجمته للتكسّر وهي تترجرج على الصّخور، حتّى يُلقَى في قَعْر قاربٍ صغير، ينتظر القاربُ حتى يمتلئ بالجُثث، ثُمّ يسير في عُرضِ البحر، وهناك يتولّى عبدان آخَران إلقاء إخوتهم في البحر. تغوص الجثث، عميقًا... عميقًا حيثُ يشاء الله، بعيدًا عن الوحوش، ويمنعهم الماء وطبقاته من أنْ يسمعوا ما يدور في الأعلى، هناك في الجزيرة الدّمويّة، جزيرة (غوريه) حيثُ لم يسلم من الذّئاب البشريّة المفترسة إنسان!

لزنازين النّساء حكايات مُبكِية، هناك عشرات النّساء اللّواتي أُخِذن من الطّريق أو من البيوت، كثيرٌ من هؤلاء أُخِذن أثناء قَرْع الطُّبول والأغاني القَبَليّة، كان قَرعُ الطّبول بإيقاعٍ مدروس، والأغاني الّتي ترافقه عاملَ جذبٍ كبيرٍ للنّساء والرّجال على حَدٍّ سَواء، النّساء كُنّ أكثر، وكان الإيقاع يستهويهنّ بدرجةٍ أكبر، كُنّ يَخرُجْن كي يُشاركْنَ في الحفل والغِناء، وكان الصّيّادون يتربّصون بهنّ فوق الأشجار، ما إنْ تُصبحَ الواحدة منهنّ تحت الصّيّاد حتّى يُلقي عليها الشّبكة ويسحبُ الحبل فتنغلق خيوطها وتُطبِق على الضّحيّة، وتبدأ المرأة بالرّفس والصّراخ، لكنّ صراخها لا يطول كثيرًا، إذْ سرعان ما تُسحَب الشّبكة، وتُلقَى كما يُلقَى الحيوان في قعر عربةٍ، أو على ظهر خيلٍ، أو تُجرّ إلى مواضع تجميعٍ، يحرسها عددٌ من الجنود، حتّى تأتي العَرَبات لنقلهم إلى مكان تبديلهم بزجاجات النّبيذ.

في زنازين النّساء، كانت العذراوات الشّابّات يُصنّفْنَ على أنّهن الأغلى والأهمّ، فكانت زنازينهنّ تحتوي على زاوية تُقضَى فيها الحاجة،

لم يكنْ ذلك من أجلهنّ بالطّبع، كان من أجل السّيّد الأبيض الّذي لا يُريد أنْ يشمّ رائحة البُراز إذا دخل إليهنّ. وكانت العذراوات يُميَّزْنَ إمّا بلفّة الرأس، أو بشريطٍ أحمر يُوضَع على الرّسغ أوفي العُنُق. وكان لهنّ مساحة أكبر في الزّنازين أكبر من مساحة الأُخريات؛ كُنّ أحيانًا محطّ حسد من هؤلاء الأخريات! كان ذلك من العَجَب العُجاب!

في ساعات الملل الّتي تمرّ على الضّابط المُوكّل ببيت العبيد، كان يمدّ رجلَيه على الطّاولة في مكتبه، وينظر من خلال نافذته إلى زرقة البحر، ويطلب من أحدِ جنوده أنْ يأتيه بعذراء، ينزل الجنديّ، يعرفنَ من وجهه، وطريقة دخوله إليهنّ أنّه يُريدُ إحداهنّ للضّابط في الأعلى، فيتكوّرن، ترتعش أجسادُهنّ، ويُفكّرن بالألم الجسديّ والنّفسيّ الّذي سيُصيبهنّ إذا اغتُصِبْن من قِبَل ضابطٍ نَهِمٍ شَرِهٍ مُتوحّشٍ مُقرِفٍ، لم يغتسلْ، ولم يُمارس الجنس منذ شهور!

يتكوّرْنَ في الزّاوية، يصرخْن صرخاتٍ مكبوتة، تضعُ إحداهنّ يدَيها على رأسِها كأنّها تتوقّع أنْ ينهال عليها السّوط في أيّة لحظةٍ إذا رفضتْ، تضع أخرى يدَيها على فَرجِها، كأنّها تتوقّع أنّ شرَفَها سيُلَوّث في أيّة لحظةٍ غادرة، يحتمي بعضُهنّ ببعضِهنّ الآخَر من خلال التّكوّر والتّقوقع في الزّاوية، يفرّقهنّ الجنديّ في البداية بيده، وهو يصرخ: «هَيّا... لن يطول الأمر... الضّابط سيفعل ذلك بسُرعة». تبرقُ عيناه بالشّهوة، فيما هنّ تلتمع عيونهنّ بالرّعب. يتكوّرْنَ أكثر، لكنّ صبر الجنديّ ينفد، يلوّح بالسّوط، فيعلو صوتهنّ ويتكوّرن أكثر، يضربهنّ بكعب بُسطاره، ويلوّح

بالسّوط من جديد، يتفرّقنَ قليلاً، ينظرُ في وجوههنّ وصدورهنّ، يختار واحدة، يأمرها: «قفي». تقف وهي ترتجف، يُعاينها، يتلمّس صدرَها، وفرجَها، ويتحسّسُ بطنَها، وهي تشدّ على أسنانها، والدّموع تنفر من عينَيها، يأمرها ثانيةً: «استديري». يلمس مؤخّرتها، يضحك ضحكةً ساخرة: «جيّدة، لكنّك غير كافية». يأمرها بالسّوط أنْ تعود، تعودُ فرحةً وباكية كأنّها قد نجت من الجحيم. يأمر أخرى أنْ تقف، يُعاينها كما فعل مع الأولى، يشدّ هذه المرّة على مُؤخّرتها أكثر، يقيسها فاردًا كَفَّيه، يضحك ضحكةً فاجرة: «سيُسَرّ بكِ سيّدي كثيرًا». ترتعش مثل ورقةٍ يابسة، تهتزّ قدَماها، تشعر بسائلٍ دافئٍ يسيل بين قدمَيها، تبكي، تتوسّل، لكنّ الجنديّ، يشدّها من شَعرها، ويخرجُ بها من الزّنزانة، يصعدُ بها إلى الضّابط، يبصقُ الضّابطُ في وجهه: «لماذا تأخّرتَ إلى هذا الحدّ أيّها الكلب؟». يبتسم لشتيمة سيّده، يُدير رأسَها الّذي لا يزال يشدّ بشعره إليه، ويهتف: «انظر. لقد استغرقَ الأمر وقتًا حتّى أختار لكَ أجملهنّ وأملأهنّ وأشهاهنّ... انظر، ألا يستحقّ الأمر هذا التّأخير؟!». يشتمه من جديد، ويأمره أنْ يتركها، ويغلقَ خلفَه الباب... يُمزّق الضّابط ثِيابَها، يأمرها أنْ تستلقي، يفضّ بكارتها، يسيل الدّم، ويسيل معه الشّرف العسكريّ، والشّرف الإنسانيّ... تنهار، لم يعدْ لها شيءٌ في هذا العالَم من أجل أنْ تعيشَ له، تتمنّى الموت، يشحطونها بعد أنْ ينتهي منها الضّابط كخرقةٍ بالية، تتردّى على الدّرج، يقول للجنديّ الّذي شحَطها: «اعتنِ بها جيّدًا!».

تدخل إلى الزّنزانة، تحاول الأمّهات التّخفيف عنها، تظلّ صامتة، كانت تتمنّى أنْ تقتلهنّ جميعًا، وتقتل نفسَها.

بعدَ أنْ مَهّد له سيّده السّبيل، صار الجنّدي المُوكّل بجلبِ النّساء له، يدخل زنازين النّساء، يمشي بخُيلاء ديكٍ، ناقِرًا رِجلَيه وهو يُنقّلهما في فراغ الغرفة، وناظِرًا إلى دجاجاته بزَهو، يُفتّش عن العذراوات المُمتلئات، يجرّ واحدةً إلى الزّاوية، يمزّق ثِيابَها، أو ما تبقّى من ثِيابِها، يعلوها، ويغتصبها أمام أعين الأخريات، وهي تتلوّى من الألم، ويُبَحّ صوتُها من الصُّراخ، ثُمّ يلبسُ سرواله على عَجَلٍ، ويمضي وهو يُزرّر فتحة عُضوه. كان يغتصبُ كلّ مرّةٍ يبعثُه الضّابط عذراء، لم تُمكّنه في إحدى المرّات عذراء من نفسِها، هدّدها بالسّوط، لم تمتثلْ، هدّدها بالسّلاح، تمنّعتْ، رغّبها في الزّواج فلم تقبل. فهجمَ عليها هجوم الوحش على فريسةٍ خائفة، وراحَ يُعارِكُها حتّى يقضيَ وَطرَه، لكنّها قاومتْه، استنجدتْ بالأخريات، لكنّهنّ كُنّ خائِفات، خائِفاتٍ جدًّا، فلم يتحرّكنَ، فكّرتْ أكثرُ من واحدةٍ أنْ تُنجِدها، لكنّ الأمر لم يكنْ يستحقّ المُخاطرة في رأيِ بعضهنّ، ولا الموتُ بدون رحمة على يدِ هؤلاء الوحوش! كُنّ يقلْن: «الدّور سيأتينا عاجِلاً أم آجِلاً، فَلِمَ المُقاومة؟!». في هذه الأثناء قفزتْ إحداهنّ فوقَ ظهر الجنديّ الّذي كان لا يزال يُحاول أنْ يلج فرج العذراء المسكينة، وأنشبتْ أظافرها في عينَيه، حتّى بدأ الدّم ينزّ، كانتْ تغوصُ بأصابعها بكلّ ما فيها من حِقدٍ وغِلّ، بدأ الجنديّ يصيح، ونفضَ جسده فسقطتْ، وقام، وصرخ: «أيّتها العاهرة». كان قد صار نصفَ أعمى، سحبَ أقسام

مُسدّسه، وأرداها على الفَور. بعدَ الطّلقة الغادرة سكنَ كلّ شيء للحظات، قبل أنْ يُتمّ الجنديّ: «سأقتل كلّ عاهرةٍ ستقاوم من اليوم». كان صوتُ إطلاق الرّصاصة قد وصل إلى الضّابط، ناداه، رأى عينه الّتي بدأتْ تتورّم، سأله: «ماذا حصل؟». أجاب: «تمرّد». «تمرّد؟». «نعم يا سيّدي». «في أيّ قسم؟». «في قسم النّساء». «امممم.... قلتَ لي قِسم النّساء... عذراء الّتي تمرّدتْ؟». تردّد الجنديّ، لكنّه هتف بعدَ ذلك»: «نعم سيّدي». «امم... فهمت». خفقَ قلبُ الجنديّ، خافَ أنْ تلحقَ به عقوبة، ضحك الضّابط عندما لاحظَ ذلك على قَسمات وجهه، قال: «لا تخف، لنا الأعضاء نفسها، نحن بعيدون هنا عن نسائنا... يَضطرّنا ذلك إلى أنْ نفعل بعضَ الأشياء... نحن رِجالٌ في النّهاية... رِجالٌ مُفعَمون...». لمعتْ عينا الجندي، وشعر بالاطمِئنان: «صحيح سيّدي». «أعتقد أنّ لذلك ما يُبرّره». هَزّ الجنديّ رأسه، أردفَ الضّابط: «العذراء تساوي زُجاجةَ (روم)، لأجل ذلك سوفَ تخسرُ حصّتك من الخمر هذا الشّهر». سادَ الصّمتُ لحظةً، قبل أنْ يسأل الجنديّ من جديد: «سيّدي، ماذا نصنع بالجثّة؟». «ألقِها في البحر!».

(٢٨)

لقد كنتُ ولدًا مُطيعًا

قال له الضّابط: «أتيتَني في المرّة السّابقة بمن هي أشهَى من هذه الأخيرة؟ ما الّذي حَصَل لك؟ هل ما عُدتَ تُميِّز بين العذراوات، درجة حرارتهنّ، تكّور أثدائِهنّ... تنوّع تضاريسهنّ... التّضاريس مهمّة أيّها الجُنديّ؛ تَعرِف ذلك... على كلّ جزءٍ أنْ يأخذَ حقّه تمامًا من التكوّر أو التّمدّد أو السّعة أو التّقعّر أو الانبِساط، وإلاّ فلن نستطيع النّجاة».

بعضُ النّساء كانَ معهنّ أطفالهنّ، الطّفل الّذي يقلّ طوله عن طول ذِراع كان يُترَك مع أمّه، ستّ سنوات أو أقلّ، الّذين زاد أعمارهم عن ذلك، كانوا يُلحَقون بأقسام الرّجال، في غرفتنا كان هناك عددٌ منهم، كانوا ضائعين بين أجسادِنا العِملاقة، وفي الاكتِظاظ لم يكنْ يُسمَع لهم صوتٌ.

نظراتُ عينَيه كانتا تختصران الحُزنَ كُلّه. اقتربتُ منه، لم يشعرْ باقتِرابي، عشرات العبيد تلتصقُ أجسادهم به في اليوم الواحد. إنّه ليسَ أكثرَ من رَقَمٍ جديدٍ يُضاف إلى الأرقام البشريّة المُتكدّسة هنا، سألتُه: «مِنْ أينَ أخذوك؟». لم يردّ. سألتُ من جديد: «ما اسمُك؟». ظلّ صامِتًا وعيناه تفحصان في الأرض. سألتُه: «هل أخذوا أُمّك؟».

هَزّ رأسَه، قال نعم بطريقته، أردتُ أنْ أحتضنه، رأيتُ دمعةً تفرّ من عينَيه، سألتُه: «هل قتلوا أباك؟». هَزّ رأسه بالإيجاب. كانت دموعه تتساقطُ من عينَيه، استدرتُ نحوه وحضنتُه هذه المرّة، قلتُ له: «أنا أبوك، فلا تبتئس». ظلّ يبكي.

منذُ سبعة عشر يومًا ونحن هنا، نأكل ثلاث لُقمٍ في اليوم، ونبول في زنازيننا، ونتغوّط فيها، ويسمحون في كلّ عشرة أيّام أنْ ننظّفها، بعد أنْ تكون الرّائحة قد ملأتْ كلّ مكان، وبعدَ أنْ تبدأ الأمراض بنهشِ أجسامِنا، كان موتُ بعضِنا من الجرب أو من الرّائحة أو من الاختنِاق رحمةً لنا، كان بعضُنا يقول: «أراحَ واستراح». كان يُمكن بموته أنْ نُقسّم الهواء الشّحيح الّذي كان يتنفّسه هنا علينا جميعًا، فتقلّ فُرَص الاختِناق.

سبعةَ عشرَ يومًا الّتي قضيتُها هنا هي ستّون يومًا أوسبعون للّذين قَدِموا إلى بيت العبيد قبلي، إنّ البواخر لا تأتي كلّ يومٍ إلى هنا، ربّما كلّ شهرٍ أو شهرَين، ولا نَصعد إلا إلى البواخر الّتي ستقلّنا حسب الجهة الّتي سنذهبُ إليها، ربّما جاءتْ باخرة البرازيل فأخذتْ مَنْ بِيعوا إلى البرازيل من غُرَفِهم، أو مَنْ بِيعوا إلى بريطانيا. نحنُ لم تأتِ سفينتُنا بعدُ، لا أدري إلى أيّ جهةٍ سيذهبون بِنا.

بعضُ العذراوات اللّواتي اغْتُصِبْن، قَبِلْن أنْ يتحوّلْنَ إلى جوارٍ لبعضِ الضُّبّاط والجنود هنا على الجزيرة، كانت تقوم بما تقوم به العبدة في النّهار، وكانت تُسلّي سيّدها في اللّيل، لقد قبِلْن بذلك

لأنّ أشدّ منه ينتظرهنّ إذا ما رُحِّلن إلى دول العالَم الجديد المليء بالموت والقذارة!

صارت العذراوات يتقبّلْن الاغتِصاب كوسيلة للبقاء. «بعضُ الشّر أهونُ من بعضٍ»، هكذا قالتْ لهنّ إحداهنّ. وأردفتْ: «لو كنتُ عذراء لفعلتُ الشّيء ذاته، على الأقلّ ستحظَين بطعامٍ مرّتين أو ثلاثًا في اليوم، ومسكنٍ ترين فيه الشّمس أو تَستنشِقْنَ الهواء، بدلاً من البول والبُراز والظّلام الدّائم هنا. لو فكّرْتُنّ قليلاً، ما المقابل لهذا؟ أجسادُكنّ؟ نعم؛ ولْيَكُنْ، الجسد خِرقة، أمسكي بالخرقة ونظّفي نفسَكِ بعد كلّ عمليّة. الرّجال عبارة عن بهائم، عقولهم بين أرجلهم، إنّهم لا يُفكّرون إلاّ بأعضائهم، لو كُنّا كلباتٍ لأكلْنا لهم أعضاءَهم وأرحْنا أنفسنا من هذه القذارة، دَعِي هؤلاء الحمقى ينالون حَظّهم من جسدك، منذ البداية لم يكن هذا الجسد لنا، منذ البداية كان هذا الجسد الّذي تملكينه لعنة؟ فلْتحلّ عليهم اللّعنات لا علينا، المجدُ لنا نحن النّساء... المجدُ لنا».

كان الملل داعيةً للعبث، الضُّبّاط والجنود والتُّجار الّذين يعقدون الصّفقات على الممتلكات المحشورة تحت أرجلهم في الطّابق السُّفليّ يُصيبهم الملل والحنق من الانتِظار، السّفن لا تصل في مواعيدها، الإبحار عبر البحر الكبير محفوفٌ بالمخاطر، العواصف تُؤخّر بعضَ هذه السّفن شهرًا أو شهرَين عن أنْ تصل في الموعد المُتوقَّع. إطعام هذه المِئات من العبيد أمرٌ مُكلِف، ومُتعِب، الانتِظار خطير، المُحافظة على الممتلكات سليمة ليس سَهْلاً، هؤلاء السّود

لَعِينون، إنّهم كُتَلٌ لَزِجة لا يُمكن التّحكّم بها، كلّ ذلك يُصيبهم بالملل، ولا بُدّ من طريقةٍ للقضاء على هذا الملل في هذا الانتِظار الطّويل، كيفَ يُمكن كَسْرُ الرّتابة؟ بالاغتِصاب، كانتْ أكثر وسيلةٍ شائعة، تُجلَب العذراوات من الغرفَ أو النّساء الشّابّات، ويُمارَس معهنّ الجنس في غُرفَ الضُّبّاط والتُّجار، ثُمّ يُعَدْن إلى غُرفهنّ من جديد، أو يتحوّل بعضُهنّ إلى جَوارٍ، يقمْن بالخدمة، ويَعِشْنَ على هذه الجزيرة خادِمات ينتظِرْن الأفواج القادمة من العبيد الجُدُد.

الطّريقة الأخرى كانت التّسلّي بالجَلْدِ والشَّبْح، دخلوا إلى غُرفتنا، كان نِصْفُنا مرضى من قلّة الطّعام وكثرة القذارة، وقِلّة الماء والاستِحمام، أفرزوا بطريقةٍ عشوائيّة عشرة أو عشرين مِنّا وأخرجوهم إلى السّاحة، وراحوا يجلدونهم بوحشيّة دون سبب، كان العبيد غير مُقيّدين، فراحوا يركضون في السّاحة ويدورن فيها من الألم، والدّماء تنزفُ من أجسادهم، وتملأ الأرضيّة، وكان الجنود يقفون على الأطراف يُشهِرون بنادقهم لأيّ اعتِراضٍ أو محاولةٍ للمُقاومة.بعد وقتٍ قليلٍ صارتِ الأرضُ مُغطّاةً بالدّماء، صار كثيرٌ منهم تنزلق قدماه بسبب الدماء فيقع على الأرض، فتنهشه السّياط قبل أنْ يتمكّن من الوقوف ليهرب وينجو من العذاب المُحيق. كان الولد ذو السّنوات السّبع الّذي احتضنْتُه بينهم، لم يرحموه، سقطَ يتخبّطُ في دمه، ركضتُ نحوه وتكوّرتُ فوقه لأحميه من سِياطهم، سمعتُ ضَحِكاتٍ عاليةٍ وقهقهاتٍ فاجرةٍ فوقَ رأسي قبل أنْ تأكل السّياط من جِلدي.

أدخلونا بعدَ ذلك إلى الغُرفة، نجا الصّبي من الموت، ونجوتُ أنا، حاولتُ أنْ أمسح دماءَه ببعضِ الخِرَق البالية الّتي ألبسُها، لكنّها كانتْ ممتلئةً بالدّم، كانَ الصبيّ يبكي بصمت، ويشدّ على أسنانه من الألم، وكانتْ جروحي تحرقني، أغمضتُ عينَيّ في محاولةٍ للنّسيان، كيفَ يُمكن أنْ أنسَى، الجِراح لا تُنسَى، الصُّور تُنسَى، الدّماء لا تُنسَى، خاصّة وأنّ جرحها ما زال راعِفًا، ورائحتها ما زالتْ في الأنوف. أغمضتُ عينَيّ وأنا لا أزال أحيطُ جِذعَ الصّبيّ بذراعي، مرّتْ في خيالي صُورَ اليوم الّذي هجموا فيه على بيتنا، إنْ كانتْ (أمارا) ما تزال حَيّة، فمن المُؤكّد أنّ ابني قد جاءَ إلى هذه الحياة، (سيّد بن عمر)، هكذا اتّفقْنا أنْ نُسمّيه، تخيّلتُه في حِضن أمّه وهو ينظر بعينَيه ناحيتي فابتسمتُ، هتفتُ: «ابني... سيّد». ودنوتُ منه وقبّلتُه، ما أجمَلَ أنْ يكونَ لكَ ابنٌ، قلتُ له: «حينَ ستكبر ستسير على خُطا أبيك وجدّك... ستتعلّم على يدِ أكبر العُلماء، وستركب الخيل وتُصبح فارِسًا، وحينَها تعرفُ ما على الرّجال أنْ يفعلوا». صحوتُ من خيالاتي على ركلةِ أحدِ الجنود، قال لي: «هيه... أنت؟». وأشار إليّ أنْ أتبعه، خرجتُ خلفه، وأنا لا أدري لماذا قصدني أنا بالذّات! حينَ صرنا في السّاحة الّتي لم تجفّ دِماؤها ولا دِمائي، كان هناك آخَران فيها كذلك، وكان هناك ضابطٌ عرفتُه من قُبّعته الّتي يعتمرها، أمرنا الضّابط أنْ ننظّف السّاحة من الدّماء والأشلاء. نظّفْنا دماءنا، دماء إخوتي الإفريقيّين الّذين يُضرَبون ويُعذّبون ويُذبَحون، دون أنْ يدروا لماذا؟!

غادَرنا الضّابط فورَ أنْ شرَعنا بالتّنظيف، وطلبَ من الجنديّ أنْ يراقبنا. كانت الشّمس ترحل. كانتْ تغيب. كانتْ حمراء. انعكسَ شُعاعُها المرتحل على الدّم النّازف على الأرض من خلال الفتحات البعيدة فازداد احمِرارها، لا أدري إنْ كانتْ هي حمراء في الأصل، أم أنّها اكتسبتْ لونَها من لونِ دمائِنا، واستعارتْه من وريدِنا المفتوح للجشع والتوحّش الأوروبّي؟!

بعدَ أنْ أنهيْنا التّنظيف، أمرنا الجنديّ أنْ نقف ثلاثتُنا، ثُمّ تلا علينا قرار الضّابط: «ستُرمَون في السّجن». سألتُ أخي الّذي بجانبي ويفهم الفرنسيّة: «ماذا يقول؟». كرّر عليّ ما قاله الجنديّ: «ستُرمَون في السّجن». لم أدرِ هل أضحك أم أبكي. سألتُ أخي: «وهل نحن إلاّ في السّجن؟ ماذا يُسمّون الزنازين الّتي يحشروننا فيها؟!». لكَزَنِي بيده أنْ أسكت، وزعق بنا الجنديّ فسكَتْنا، فتابع: «جزاء تمرّدكم، ستمكثون في السّجن أسبوعًا».

كان في بيت العبيد سِجنٌ بالفِعل، لم أُصدّق في البداية، ظننتُ أنّ التكبّر قد أعمى الجُنديّ فخلّط، أو أنّ الخمر الّتي يشربها قد حجبتْ عقلَه فهذى، لكنّ السّجن في بيت العبيد كان حقيقةً لا وَهمًا، نعم؛ كان هناك سِجنٌ في السّجن!!

يا ربّ إبراهيم؛ ماذا يحدثُ لي؟ ماذا يحدثُ لنا؟ أيّ ذنبٍ ارتكبْتُه حتّى يكون هذا جَزائي؟ لقد كنتُ ولدًا مُطيعًا، مُحبًّا لله، حافِظًا لكِتابه، مواظِبًا على واجباتي الدّينيّة، طلبتُ العِلم لأكثر من

خمسٍ وعشرين سنة، وانقطعتُ للعبادة والعِلم رُبعَ قرنٍ، ثُمّ تزوّجتُ المرأة الّتي اختارتها لي أمّي، ولم أعانِدها في هذا الاختِيار، وكنتُ مُحبًّا لزوجتي لم أقبل أنْ أتزوّج بغيرها، ورعيتُ أبي وأمّي كما أرادا، وقمتُ بحقّ زوجتي على الوجه الّذي يُرضيك يا ربّ إبراهيم... الآن بعدَ كُلّ هذا؛ قُلْ لي ما الّذي فعلتُه حتّى أُبتَلى أنا وإخوتي هذا الابتِلاء الّذي فوقَ طاقتنا؟! نحنُ بشر؛ أنتَ خلقْتنا بهذا الضّعف البشريّ، إنّنا يا ربّ لسنا مُؤيّدين بجبريل حتّى نصبر على مثل النّار الّتي أُلقِيَ فيها إبراهيم!!

أخذوا ثلاثَتنا إلى السّجن، لم يكنِ السّجنُ بِناءً، كان فتحةً عميقةً، أو حفرةً أفقيّة في جدارٍ صخريّ، كان ارتفاعه ذراعًا واحدًا فقط، كان على كلّ واحدٍ أنْ يجثو على أربع مثل الكلب أو الحيوان، ويدخل إليه زحفًا، وكان عرضه كذلك ذراعًا، فلا يتّسع إلاّ لشخصٍ واحدٍ يجلسُ في عُرضِه مُقرفِصًا، دخلنا زاحفين على أربعٍ، حتّى إذا دخل ثالِثُنا أغلقوا الباب علينا، حلّ الظّلام على الفور في المكان، إنّه ليسَ سجنًا، إنّه تابوت، وكان الواحد مِنّا إذا جلسَ على مؤخّرته، فإنّ رأسه يكاد يرتطم بسقفِ السّجن، إنّه منخفضٌ إلى هذا الحدّ الّذي يُحوّله إلى كفنٍ حجريّ، دبّ الرُّعبُ فِيّ أنا والاثنَين الآخَرين. فجأةً غريزةُ البقاء اشتغلتْ. راح الأقرب إلى المخرج يحاول فتح الباب، لكنّه كان صلبًا مُحكم الإغلاق، كأنّما أوصدوا باب السّجن بصخرةٍ. وتذكّرتُ قصّة العُبّاد الثّلاثة الّذين أغلقتْ بابَ مغارتهم صخرةٌ كبيرٌ فَحُبِسوا داخلها، غير أنّهم حُبِسوا في مغارةٍ كان يُمكنهم الوقوف أو

التّجوّل أو التّمدّد فيها، لكنّنا هنا محبوسون في قناةٍ لا يزيدُ عرضُها عن عرض الواحدِ منّا. شرحتُ لهم القِصّة، وأنّ على كُلّ واحدٍ مِنّا أنْ يذكر عملاً من أعمال الخيرِ فَعَلَه في حياته حتّى تنزاح الصّخرة من باب السّجن، لكنّهم لم يفهموا ما أعنيه، لم يكونوا مُسلِمين، كانوا وثنيّين، حاولتُ أنْ أشرحَ لهم معنى الإسلام، وأمر التّوحيد، لكنّ الظّرف لم يكنْ يسمح بالكثير من الكلام. فكّرتُ بيني وبين نفسي بعملٍ صالحٍ صنعتُه قد يكونُ سببًا في انفراجة هذا الباب، لكنّني عَييت، أو أنساني هولُ اللّحظة ذلك العمل!

بدأنا نختنق من قلّة الهواء في اليوم الثّاني، وبدأنا نبول على أنفسنا. راجعتُ ما أحفظُ من القرآن، نسيتُ هول ما أنا فيه. تخيّلتُ ابني فوقَ ذراعَيّ أناغيه ويضحك، فتخفّفتُ قليلاً من العذاب الّذي يتربّص بنا، في اليوم الثّالث تشقّقتْ شِفاهنا من العطش، صرخ الأقرب إلى باب الصّخرة: «ماء... الرّحمة...». لم تُجاوز صرخته الباب، ارتدّتْ إلينا فبقينا في عذاباتنا، في اليوم الرّابع، شَقّوا باب السّجن، يبدو أنّهم تذكّروا أنّ هنا بشرًا يموتون ببطء، دفعوا لنا بعضَ الماء والطّعام، أحدُنا حينَ مددنا له الصّحفة ليأخذ حصتّه من اللُّقم لم يُحرّكْ ساكِنًا، كان قد مات. صرخْنا: «لدينا جُثّة... الجُثّة ستتعفّن...» لكنّ صرختنا كسابِقاتها ضاعتْ في القبر الّذي رُمينا فيه.

سألتُ الله أنْ يأخذ روحي برفق، وأنْ يرحمَ أخي الّذي مات. كانتْ عيناه في الظّلام تلمعان، لا أدري لماذا كنتُ أتخيّلهما كعينَي الأسد الّذي طاردني أيّام الخِدمة في (تُوبا). كان الفزع يتولّاني كلّما

نظرتُ إليهما، حاولتُ أنْ أُغلِقهما، لكنّهما تأبّتا، كنتُ خائفًا من أنّني ارتكبُ فِعلاً شنيعًا لو أنّني سرقتُ ثِيابه، واحتفظتُ بها لأيّام البرد الّتي لا ترحم. كُنّا نعيشُ مع ميّت، لم نكنْ نختلفُ عنه في الهيئة في شيء، إلاّ أنّ نَفَسًا خافِتًا كان يتردّد في صدرَيْنا لم يكنْ يتردّد في صدره!

في اليوم السّادس فتحوا علينا الباب الصّخريّ، كان الرّجلان قد ماتا، شحطونا، كنُت لا أقوى سِوى على تحريكِ عينَيّ لمواجهة الضّوء الّذي تدفّقَ عبر بوّابة القبر فجأة، أمّا رِجلاي فَظَلّتا على هيئة التّكوّر، واحتجتُ إلى يومَين حتّى أحلّ عُقدتهما بعدَ ألمٍ لا يُطاق. سأل الجُنديّ الضّابط: «ماذا نفعل بهما؟». زعق الضّابط في وجهه: «هل أنتَ جديدٌ هنا؟ هل هما أوّل زنجِيَّين يموتان أمام عينَيك؟». أطرقَ الجندي برأسه، وهتف: «نعم، يا سيّدي». ردّ بتأفّف: «ألقِهما في البحر!».

(٢٩)

مُتساوُونَ في الخَلْق

الله واحد. خَلَقَ الخلقَ كُلّه. خلقَ الموتَ والحياة. خلقَ الدّاء والدّواء. خلقَ هذا الابتِلاء الذي أنتم فيه، وقدّر الأمور لِحكمة. لا شيءَ يحدُثُ دون حِكمة. يا إخوتي لا تيأسوا من رحمة الله. الحِكمة في كلّ شيء. حتّى في الموتِ حكمة. في هذا العذاب الّذي يُصيبنا. لا أحدَ يدري لماذا جاؤوا بنا إلى هُنا؟ ولا يعرفُ بعضُنا بعضًا، جِئنا مِن بِلادٍ شَتّى، قد لا نشترك في الدّين ولا في العِرق ولا في اللّغة ولا في البلد، لكنّنا نشتركُ في اللّون، هذا السّواد الّذي في البدن هو بَياضٌ في القلب، فقط افتحوا قلوبَكم له، لله، العليّ، القدير، كُلّي القُدرة، افتحوا قلوبَكم له، فستتنزّل عليها الرّحمة. الله واحدٌ. الأرضُ أرضُ الله. والبَشَرُ خلقُ الله. الأبيضُ والأسودُ والأحمر كلّهم خَلْقُ الله. إنّنا في هذا سواء. مُتساوون في الخَلْق. نعرفه بالعِبادة. يعرفنا بالإخلاص. يرفع المؤمنين والعُلماء منّا إليه. آمِنوا بالله. هل أعرفكم؟ لا. هل تعرفونني؟ أنا عمر بن سيّد، مُسلمٌ من فوتا تور، بلدي الّذي وُلِدتُ فيه، بعيدٌ عن السّاحل من هنا، أنتم من بِلادٍ بعيدةٍ كذلك، أنا أؤمن بالله الواحد الأحد. أُدرِك أنّه وضعني في هذا الموضع للاختِبار في البداية، ثُمّ للفوز في النّهاية». قلتُ لهم هذا بشكلٍ متتابعٍ وغيرِ مُخطّطٍ له، قلتُه باللهجة المحلّيّة الّتي نفهمها جميعًا، كانوا يُنصِتون بخشوع وبحبّ، ربّما كان

في كلامي بعضُ العَزاء. الإيمان عَزاء. الكلمة الطّيبّة أكبر عزاء. ربّما بعضُهم استغربَ ما أقول. بعضُهم رآه غامِضًا، وبعضُهم الآخَر رَبَطه بطقوسه الدّينيّة الّتي شاهدَها في حفَلات الطّبول في قريته... لكنّ شيئًا ما جَذَبهم... كلمةٌ واحدةٌ من هذا الكلام المُتابع أصاختْ لها قلوبُهم أكثرَ مِنْ سِواها، كنتُ أرى ذلك في وجوههم، وعيونهم كلّما ردّدتُها أو مررتُ بها، إنّها كلمة (الله)، توقفتُ قليلاً.. نظرتُ في وجوههم، رفعتُ صوتي: «الله». فردّدوا خلفي: «الله». وأعدتُها وأنا أرفع صوتي: «الله». فرفعوا أصواتهم مثلي: «الله». ورُحنا نُنشد نشيدًا جماعيًّا: «الله... الله». وارتجّتْ جَنَباتُ زنزانتنا: «الله... الله...». بقينا وقتًا غير قليلٍ ونحن نصرخ بكلّ طاقتنا: «الله... الله..». حتّى هُرِع إلينا الجُنود، زعقوا.. شتَموا... لَعنوا، وهتفوا: «اخرسُوا أيّها الزّنوج الملاعين». توقف الهدير المُنداح. أخرجوا عشرةً مِنّا، جلدوهم حتّى سالتْ دِماؤهم، عادوا يجرّون أرجلهم جَرًّا، أفسَحْنا لهم مساحةً لكي يضطجعوا، ورُحتُ أهمسُ في آذانهم: «الله... الله...». وهم يبتسمون، نحنُ نتعافَى بكلمتك يا «الله»!

لقد مرّ عليّ هنا سبعةٌ وأربعون يومًا. صارتْ فيه (فوتا تور) بعيدة. والأحلام أبعد. وساحة البيت قصيّة. والبسطة الّتي أمام غرفتي خيالاً مُسافِرًا. كنتُ أرى كلّ شيءٍ في بيتنا يُحرَق. أبي عاودَتْني صُوَرُه وهو يغرقُ في بركةِ دمائه والرّصاصة تُفجّر دِماغه. صَرَخات أُمّي ظلّتْ منذُ أخذوني ترنّ في أذني إلى اليوم. رأيتُهم ينبشون قبر أختي. لم يجدوا شيئًا، حتّى الحِرْز اختفى. لم يعرفوا

أنّ آمنة لم تكنْ جسدًا، كانتْ روحًا سماويّة، ونوراً ملائكيًا. نبشوا القبر؛ ظنّوا أنّنا ندفن مع موتانا الذّهب والزّينة، لم يكونوا يعرفون أنّنا مُسلِمون، نبشوه حَجرًا حَجرًا، ولكنّهم لم يجدوا أختي. أختي اختفتْ منذ ذلك اليوم، صعدتْ إلى الله، جلستْ في سماواته، إنّها تتنعّم في مَلَكوته، ومَنْ كان عند الله فمن يستطيع أنْ يضرّه؟! أنا أتمنّى اليوم أنْ ألتحقَ بها، إنّها ما تزال طِفلة، صبيّة جميلة، اختارها الله وهي في الرّابعة عشرة كأجمل ما يكون الاختيار، أنا اليوم في السّابعة والثلاثين أُسام كلّ هذا الخسف والعذاب، لا بُدّ أنّ الله يُحبّها أكثرَ مِنّي حتّى يأخذها في رحلتها الأبديّة ويتركني بين هؤلاء المُجرمين!! الوحوش لم يكتفوا بأنْ نبشُوا قبرَها، بل أحرقوا النّخلة الّتي كانتْ تُظِلّ روحَها. لكنْ لا بأس، إنّها في رَحَموت الله لا يضيرها حَرْقٌ ولا نَبْشٌ ولا جوعٌ ولا عَطَش. أنا الآن جائعٌ وعطشان يا الله. نعم أنا جائعٌ فأطْعِمْني يالله. عطشانُ فَاسْقِني يا الله. عارٍ فاكْسُني يا الله. الله... الله... أجمل ما غنّينا بلفظِهِ في بيت العبيد وترنّمنا بِنُطقِه. العبيد الّذين لا يعبدون إلاّ الله!

اشتقتُ إلى صوتِ الأذان. الكَفَرةُ هنا لا يرفعون الأذان، ولا يُصلّون، ولا يتوجّهون لِجهة، ولا يعبدون الله. لا يعبدون أيّ إله، باستثناء إله شَهَواتهم ونَزَواتهم. إنّهم يعبدون إلى ذلك ألفَ شيطان، كلّ شيطانٍ يأتي مُتزيّنًا برغبة، الرّغَبات شياطين. أعرفُ ذلك. أنا خيرُ مَنْ يعرفه، لقد عِشْتُ في (تُوبا) خمسةَ وعشرين عامًا، وأعرفُ تمامًا أنّ الرّغبة شيطانٌ بألفِ قرنٍ، لقد درّبْتُ نفسي تمامًا على أنْ أتحاشاه،

لا يُمكنني أنْ أقتله، كنتُ فقط قادِرًا على أنْ أُقصيه، أنْ أُبقيه في حالةِ سُباتٍ طويل!

اشتقتُ إلى الأذان الّذي تنسجمُ على حروفه جوارحي، وتلتئم على إيقاعه جروحي، إلى ذلك الصوت الشّفيف، إلى ذلك النّداء الإلهيّ الّذي يُوقِظ كلّ مواطن الرّحمة والخشوع في القلب. قلتُ للّذين يفهمون العربيّة، سأرفعُ الأذان اللّيلة، أنتم ردّدوا ورائي، وسنجعل إخوتَنا يُرددون معنا... عندما هبطَ اللّيل، وبدأ الظّلام يسود برحيل الشّمس، برحيل نورها الّذي لا يزال رغم ما نعانيه في كلّ يومٍ يُشرِق، ليقول لنا إنّ الحياة ما زالتْ قادرةً على أنْ تُعاش، وأنّ الله ما زال حَيًّا، وأنّه موجودٌ حتّى في هذه الأماكن الّتي لا يعرفُ فيها أهلُها إلا القسوة والوحشيّة، ولا تتناوح فيها إلاّ الشّياطين.

بسطتُ كَفَّيَّ، وضعتُهما على أُذُنَيّ، ورفعتُ بالجملة الأولى صوتي: «الله أكبرُ... الله أكبر...». فردّد معي بعضُ العارفين بالعربيّة: «الله أكبر... الله أكبر...». ونظر البقيّة في وجوهنا، فرأوا فيها استِبشارًا وإصرارًا، فردّدوا: «الله أكبر... الله أكبر...». هذه المرّة ردّدْناه بهدوء وبشجن، لا كما ردّدْنا في المرّة الأولى كلمة: «الله» بتحَدٍّ وقُوّةٍ. ردّدت الزّنزانة عن بَكرةِ أبيها: «الله أكبر... الله أكبر...» وبكى بعضُنا، وحَنَّ بعضُنا إلى أهله، وخفقتْ قلوب آخرين، وجرّبْنا في ذلك سلوى من نوعٍ جديد، فأخذها النّاس لحنًا يتعارفون به بينهم.

إنّه اليوم الواحد والخمسون بالنّسبة لي. بعضُ مَنْ في زنزانتنا غادَر على مَتْنِ سفينةٍ ما. بعضُنا غادر ميّتًا ورُمِيَ في البحر، حتّى إنّه لم يحظَ بكفنٍ ولو كان جُوالاً؛ لقد رمَوه عارِيًا. بعضُنا غادرَ ليكون عبدًا للرّجال البيض في الجزيرة وفي بيت العبيد نفسِه. وبعضُنا ما زال ينتظر. لكنّنا عرفنا من بعضِ المُغادرين على السّفن إلى البلادِ الجديدة الّتي لم تَطأْها من قبلُ أقدامنا، أنّهم يذهبون بهم قبل المغادرة بأسبوعَين أو ثلاثة إلى غرفة التّوزين. توزين البشر، نعم إنّهم يَزِنوننا بالباوند، عرفتُ ذلك من بعضِ الّذين عادوا من تلك الغرفة، الغرفة يقففُ فيها المُختارون للتّوزين في صفٍّ طويل، حتّى يحينَ دور الواحد منهم، يصعد على ذلك المِيزان الّذي كُنّا في قريتنا نَزِنُ فيها العَلَفَ للدّواب، نعم، نحن - في اعتبارهم - أقلّ من الدّوابّ. إنّنا بضاعةٌ تُباع بالوزن، وكلّما زاد الوزن زادَ ثمنُ البِضاعة. هذا ليسَ تهكُّمًا ولا سُخريةً، هذه حقيقة، إنّهم يقومون بوزننا، في البداية شعرتُ بالقَهْر والغضب الشّديد لما يفعلونه، بعدَ مرور بعضِ الأسابيع، صار الذّهابُ بالواحدِ منّا إلى التّوزين هو بداية الفَرَج. كان التّوزين يحمل الفَرَج من جهتَين، أوّلاً احتماليّة زيادة كمّية الطّعام، وثانيهما مغادرة هذا الجزيرة البائسة.

كان ضابطُ التّوزين يَزِنُ الرّجال، فإذا كان الواحد منهم أقلّ من (١٠٠) باوند، والذي يساوي عشرين رِطلاً، كان يُذهَب به إلى زنازين التّسمين، من أجل توفير طعامٍ أكبر له حتّى يصل وزنه إلى هذا الحَدّ، ثُمّ يُرَحّل فوقَ السّفينة إلى الجهة الّتي ستبيعه.

اليوم؛ الثالث والخمسون، اختاروني للتّوزين، واختاروا معي آخرين، فَرِخنا كأنّما أطلِقَ سراحُنا وعُدنا إلى أهلِنا وأموالنا وبيوتنا، كان التّوزين إشارةً للخروج من هذا الجحيم فوقَ هذه الجزيرة، كُنّا نقول: «أخرجونا من هذا العذاب، فإنّه لو أخرجتمونا إلى أيّ مكانٍ آخَر فلن يكون أقسى مِمّا نحنُ فيه».

خرجتُ مع ما يقرب من ثلاثين إلى التّوزين، التّوزين يكون غالِبًا قبل الرّحيل بأسبوعَين إلى ثلاثة. «أنا طويل، ومتين الجذع، وقويّ الذّراعَين، سيكون وزني بالتّأكيد أكثر من (١٠٠) باوند». هكذا حدّثتُ نفسي، وأنا أنظر من خلفِ ظهور الواقفين أمامي إلى حيثُ الميزان.

كان الميزان ذا كَفّة واحدةٍ منبسطة، يقفُ عليها الرّجل، وهناك كتلة يُمكن زيادتها بتحريك المُؤشّر الحديديّ جهة اليمين، حتّى يتوازن العمود الشّاقولي مع المستوى الأفقي، عند إبرة المؤشّر يمكن للجنديّ أو الضّابط أنْ يقرأ الوزن. نصفُ الّذين صعدوا فوقَ كفّة الميزان أخذوهم إلى زنازين التّعليف والتّسمين، وكان الجندي يغتاظ كلّما قرأ الرّقم، ويضرب الرّجل بالسّوط وهو يصيح به: «كلّ هذا الأكل الّذي تأكلونه ولم يؤثّر في بطونكم أيّها الزّنوج الملاعين... أوه... كم هو مُكلِفٌ هذا العبد!!».

وصل الدّور عندي، رجف جِذعي دون بقيّة جسدي، أحسستُ بقشعريرةٍ تُموّجه كأنّه نهرٌنا مرّتْ عليه رِيحٌ خفيفة؛ أنا الآن

حيَوان؛ حَيَوان على الحقيقة، لقد نجحوا الوهلةِ أنْ يجعلوني أشعر هذا الشّعور؛ أنّي دابّة، لمَعتْ في خاطري آية التّكريم في سورة الإسراء: «ولقد كرّمْنا بني آدم» فازداد ارتِجافي وتردّدي، صرخَ بي الجنديّ الّذي رآني لم أصعد إلى كفّة الميزان بعدُ: «أنتَ أيّها اللّعين، هل أنتَ صخرة؟». صعدتُ الكفّة، عدّل الجنديّ المُؤشّر وأنا لا أزال أرتجف، اعتدلَ الشّاقول، قرّب الجندي رأسه، فتلَ شارِبَيه، استدعَى الأمر أنْ يُنادي الضّابط الّذي يقف على مقربةٍ في الزاوية، قال له: «إنّ وزنه (٩٥) باوندًا. ماذا نفعل؟!». ردّ وهو ينفثُ زفيرًا غاضِبًا: «سَجّلْه في الورقة (١٠٠) باوند، خمس باوندات هي وزن بُرازه. والآن أعِدْه إلى غرفته».

(٣٠)

أُمُّنا هي القارّةُ السّوداء

كدتُ أطيرُ من الفرحة، وأنا في طريقي من غرفة التّوزين إلى الزّنزانة، وداعًا لثلاثةٍ وخمسين يومًا في هذا الجحيم، إنّنا مُقبِلون على مرحلةٍ جديدةٍ، والجديد له جمالُه مهما كان قاسِيًا، حتّى الجحيم في أوّله يُحتَمل بطاقةٍ من طاقات الصّبر، لكنّ هذه الطّاقة مع الزّمن تنفد، ويُصبح الجحيم مُكرّرًا، وكلّ مرّةٍ يتضاعف الإحساس بقسوته، المشكلة تكون في الاعتِياد؛ الاعتِياد جحيمٌ آخَر!

أخرجونا إلى السّاحة، كانتْ هناك خمسُ ساحاتٍ مثل السّاحة الّتي أقفُ فيها وتتوزّع على أطرافها زنازيننا، وهناك خمسُ قوارب صغيرة تنتظر على الشّاطِئ، وبوّابةٌ واحِدةٌ للخروج، إنّها بوّابة اللّاعودة، كلّ مَنْ يخرج من هذه البوّابة لن يعود أبدًا، لا إلى الزّنازين، ولا إلى الجزيرة، ولا إلى بلده، ولا إلى إفريقيا كلّها؛ إنّها بوّابة الخروج النّهائيّ. بوّابة ليستْ أكثر من كُوّة في جدار صفّ الزّنازين، الجدار الّذي يفصل البيت كامِلاً عن البحر، قبلها البيت، وهي البرزخ، وبعدَها البحر، ومَنْ رَكِبَ البحر فلن يعود.

قيّدونا، أيدينا أمامنا بسلاسل وحلقات، وأرجلنا بسلاسل وحلقات، وكُرات للرّجال تزن الواحدة خمسَةَ عشرَ باونْدا. وحذّرونا

من الأفكار السّوداء الّتي قد تنقر دِماغَ بعضِنا؛ المُغامِرون مِنّا بالطّبع، ودَفَعونا بالسّياط إلى القوارب. ستكون هذه السّماء آخر سماءٍ لي في بلادي، سيكون هذا الهواء، هذا التّراب، وهذا الماء، وحتّى هذا العذاب، هو آخر ما سأراه من بلادي. ولقد كان رحيلاً بَتّ كلّ ما قبله، ولقد كان رحيلاً ليس مثلَه رحيل، وجَلاءً ليس مثله جَلاء!

مشيتُ الأرضَ الفاصلة حتّى صرتُ أمام البّوابة، أصابتْني رجفةٌ رَعَشَ لها جسدي كلّه، حتّى ذراعَاي ترجرجا، فلم أملك أنْ أهدِّئهما، راحتْ رجفتهما تحرّك السّلاسل فتُصدر صلصلةً كأنّها صلصلة الوداع، وجَرْسُ النّهايات... شدّني العبد الّذي يسير أمامي عندما قلّص المسافة وهو يجرّ السّلسلة الّتي تربطني به؛ جميعُنا كُنّا مربوطين بسلسلةٍ واحدةٍ طويلةٍ تجمع أوّلنا إلى آخرنا في عددٍ كبيرٍ جدًّا. وقفتُ في مُنتصف الكُوّة، في منتصف البوّابة، أنا الآن في البرزخ على الحقيقة، عادةً ما يكون البرزخ يفصل المرء عن واحدةٍ من حياتَين؛ إمّا النّعيم، وإمّا الجحيم؛ لقد تركْنا الجحيم وراءَنا، فليس من المعقول أنْ يكونَ أمامَنا أيضًا؟! لِمَ التّشاؤم؟! ليسَ في التّشاؤم أيُّ عدل. لِنتفاءَلْ؛ قد يكون القادم أحلى، قد يكون أجمل، قطعًا لن يكون أسوأ من الماضي، أنا لا يُمكن أنْ أتخيّل أنّه سيكون أسوأ مِمّا عِشْناه فوق هذه الجزيرة، حيواناتٍ تبول على نفسِها وتتغوّط، وتموت من الجوع والأمراض، وتُرمَى عاريةً في البحر كأنّها دوابّ نافقة، سيكون القادم أقلّ سوءًا إنْ لم يكنْ جميلاً، فلْنَعِشْ على هذا الأمل. الأمل حتّى ولو كان وهمًا؛ فإنّه أفضلُ من التّطيّر ولو كان حقيقةً!

شدّتني هذه المرّة سلسلةُ الّذي أمامي، وصرخة الجنديّ الّذي زعقَ خلفي، تابعنا سيرَنا، صعدنا القارب على وَقْع الصّرخات والضّربات، توجّهَ قارِبنا في البداية، كُنّا ما يقربُ من تسعينَ شخصًا من الرّجال والنّساء والأطفال، صَعَدْنا من القارب إلى سفينةٍ كبيرةٍ كانتْ تنتظر على مبعدةٍ من شاطِئ الجزيرة، وقفْنا على سطحها، بحراسة عددٍ جديدٍ من الجنود والتُّجّار والسّادة، من هنا شاهدتُ بقيّة القوارب وهي تسير باتّجاه سفينتنا، وعلى متن كلّ قاربٍ ما يُقارب العدد الّذي كان في قارِبنا. ومن هنا شاهدتُ الجزيرة، وشاهدتُ بيت العبيد، بدا قلعةً أسطوريّة قادمةً من العُصّور الوُسطَى، كان مقدودًا في الصّخر، يُشبه الصّخر في كلّ شيءٍ؛ لونٌ باهتٌ، وقسوةٌ بالِغة، وصمتٌ مُرعِب.

اكتمل عديدُنا، أكثر من نِصفنا كانوا عراةً بالكامل، الّذين سترهم الله، كانوا يلبسون خِرقةً على العورة، أو يلبسون بنطالاً من الخيش يُغطّي نِصفهم الأسفل، فيما نصفهم العُلويّ ظلّ عارِيًا.

تجمّعنا عندَ فتحةٍ في الطّرف الخلفيّ للسّفينة، كُنّا حولَها ما نقربُ من أربعمئة إنسانٍ، بكامل أعراقنا وبُلداننا وأجناسِنا، كان يجمعنا أنّ أُمّنا هي القارّة السّوداء، هي القارّة الّتي لم يُعجِبْ هدأتُها السّيّدَ الأوروبّي الأبيض فجاء ليسلخَ جِلْدَها، ويبيعَ أبناءَها، وينهبَ ثرواتِها. كُنّا نُحبّ النّاس، ونُحبّ بلادَنا، ونعيشُ لا نرفعُ سِلاحًا في وجه أحد، ونرضَى من العيش بما رَضِيَه الله لنا، حتّى جاء هذا الأبيض الكافر، فلمْ يرضَ لنا هذا الهدوء والصّفاء، فأثار بيننا

النّائِرات والعداوات، واشترى ولاءَ بعضِنا، وخيانته، فحرّك بيننا السّيف، وأسال بيدنا دِماءَنا، ثُمّ حرّض بعضَنا على بعضٍ فلمْ يلبثِ الأخ أنْ صار يصيدُ أخاه، والابنُ يقتلُ أباه، وكلّ ذلك من جشع هذا السّيدّ الأبيض وشَرَهِه، حتّى فشا بيننا الطّاعون، ولكنْ مهلاً؛ أليسَ هذا السّيدّ الأبيضُ هو الطّاعون نفسه؟

كانت الفتحة الّتي في آخر السّفينة مُستطيلة، تنزل إلى قعر السّفينة، إلى قبوها المُظلِم، وكانت بطول ثلاثة أذرع، وعرض ذراعَين تقريبًا، ويُنزَل عبرَها بدرجٍ، سأكتشف عدد درجاته لاحِقًا، وعلى آخرها من الجهة البعيدة يقفُ جُنديّ مُسلّح، يحمل بُندقيّة مُعبّأة وجاهزة للإطلاق، وله شارِبان غليظان جِدًّا وطويلان يُغطّيان نصفَ وجهه، وله سالِفان على جانبي لحيته غليظان كذلك، وأمّا ذقنه السُّفلَى فكانتْ حليقة، وعيناه زرقاوان تتّقدان كلّما أحدّ النّظر في أحدنا، ووجهه أبيض يلتهبُ بحمرة، وكان شَكلُه الفَظّ تجسيدًا للشّيطان لو كان للشّيطان أنْ يتهيّأ بصورةٍ بشريّ.

وكان هناك ثلاثة جنود، من المارشال البريطانيّ على ما يبدو، شعرُهم أشقر، ولهم سوالفُ غليظة، لكنّهم حليقو الذّقن والشّوارب، وكانوا يلبسون بِزَزًا عسكريّة؛ سترةً مخمليّة زرقاء، وبنطالاً أبيض، وجزمةً عسكريّة تصل إلى ما تحتَ الرّكبة بقليل، وكان هناك رُتبة على ما أظنّ على الكتفَين، عِبارة عن قِطعة غليظة من القِماش المُذهّب، وتنتهي بالشّبر عند زاوية الكتف على شكل دائرة من الخُيوط الصّغيرة المجدولة، وكان هذا الشّبر يتمايل ويهتزّ في حركة

دائبة كلّما مَشى أحدهم، وكانوا مُسلّحين بالمُسدّسات على جنوبهم، ولم يكونوا يحملون البنادق. وكان هناك خلفَهم سيّدٌ سمين، لا يلبسُ لِباسًا عسكريًّا، عرفتُ أنّه التّاجر الّذي اشترانا، لِيقوم ببيعنا في البلاد الّتي سنصلُ إليها، وكان يعتمر قُبّعة القراصنة، العريضة من الجانِبَين، والّتي تحملُ رِيشةً رفرافة في مُقدّمتها. وكان يلبسُ معطفًا طويلاً غيرَ مُزَرّر، وهو من الخلف يُشبه الذّيل، وله شَقٌّ في وسطه، وينتعل بُسطارًا من الجلد السّميك وفي مقدّمته زائدةٌ حديديّة، وكان يحمل سوطًا مُختِلفًا عن الأسواط السّابقة الّتي أكلتْ من جنوبنا وجلودنا، كان سوطُه من جِلدِ البقر مجدولاً، طوله ما يقربُ من ثلاثة أذرع، وينتهي بتشعّبات رفيعةٍ كثيرةٍ تلتفّ على جلدِ الضّحيّة مثل الأسلاك المعدنيّة، أو مثل الشّوك، ولا تُغادر جسدَ الضّحيّة إلاّ إذا أخذتْ من جِلده أو لحمه شيئًا، وحفرتْ فيه خطوطًا عميقة، وكان يزعقُ طَوال الوقت، ويركلُ برجِله كلّ أحدٍ يُصادفه، وقد ركل طِفلاً في بطنه بمُقدّمة حذائه الحديديّة، فرماه بضربةٍ واحدةٍ على الأرض، ينزفُ بطنُه دمًا. وكان هناك على الأطراف عددٌ يفوق العشرة من الحَرَس المُتأهّبين ببنادقهم لكلّ طارِئ.

كُنّا يتامَى. لا يعرفُ أحدٌ مِنّا أخاه. كانتْ هناك نِساء يحملْن أطفالهنّ الرُّضّع بين أيديهنّ، وكُنّ يرضعنهم ذليلاتٍ باكِياتٍ، ولا أدري ماذا سيَرضعُ طفلٌ من أُمّه في مثل هذه الحال؟! لقد كان يرضع الذّلّ والهوان والأسى والعبوديّة. وتذكّرتُ (أمارا) في تلك اللّحظة، ونزلتْ دموعي من جفوني، يا تُرى هل بقيتْ حَيّة؟ آه لو كنتُ

أعـرف؟ آه لـو أنّ أحـدًا يُخبرني بِـما حـلّ بها وبأُمّي، وبابنِنـا؟ هـل هـو في أمانٍ يـا تُـرى؟ هـل تقـوم عـلى رِعايته في مكانٍ مُريـح؟ هـل تُرضِعـه وتجدُ في ثديها حليبًا لـه، أمْ جَفّ مـن هـول مـا رأتْ وعاينتْ؟! وأبي؟ هـل دُفِـنَ بشـكلٍ لائق، أمْ أحرقـوه مـع البيـت، وتحـوّل جسـدهُ إلى رمـاد؟ آه ليتنـي أسـتطيع أنْ أعـرف!!

كان بعضُنـا مـن (فوتـا تـور)، ومـع أنّنـي لا أعرفهـم، لأنّنـي قضيـتُ شـبابي كلّـه في (توبـا)، إلاّ أنّنـي ميّـزتُ أحدهـم، اقتربـتُ منـه ونحـن مـا نـزال فـوقَ سـطح السّـفينة عنـد بـاب القبـو لا نـدري مـا يُفعَـل بنـا، سـألتُه: «هـل تعرف سيّد بن عمر الفوتي؟». نَظَـرَ إليّ كان في عُمر أبي لـو ظَـلّ أبي حَيًّـا، دقّـق النّظر فِيّ، وهتـفَ هـو ينظـر نحـو الجنـود خوفًـا مـن البطـش: «هـل أنـتَ عمـر؟». كِـدت أصرخُ من الفرحـة: «نعم». أمسـكني مـن يـدي، وشـدّها، ليقـول لي: «أخفِـضْ صوتَـك؟». «هـل تعرفنـي؟». «أعرفُـكَ وأعـرفُ أبـاك». «هـل أنـتَ أحـدُ العُلـماء الّذيـن درّسـوني وأنـا صغـير؟». «لا». «فمـنْ تكـون؟». «أحـدُ النُّسّـاخ الّذيـن نسـخوا لأبيـكَ المُصحـفَ وبعـضَ الكُتـب». كـدتُ أقفـز عـلى قدَمَـي، وأعانقـه، لـولا أنّ عينَيـه قالتـا لي لا تفعـل. همـسَ في أذني: «عـلى هـذه السّـفينة اثنـان مـن النُّسّـاخ الّذيـن أعرفهـم. لكـنْ يجـدر بنـا ألاّ نُكثـر الـكلام معًـا». لم يكـدْ يُنهـي جملَتـه، حتّـى لسَـعه سـوطٌ مـن خلفِـه، كان السّـوط تحذيـرًا بليغًـا.

عندمـا أعلـن قُبطـان السّـفينة أنّ عددنـا قـد اكتمـل، صـاحَ ذو القبّعـة، والمعطـف ذي الذّيـل: «هَيّـا، هاتـوا الحديـد». كانـتْ قـد أُشعِلتْ

نارٌ في موقدٍ خاصّ في موضعٍ في مطبخ السّفينة، وحُمّيَتْ عليها ثلاثةُ مياسم أو أربعة. كانوا يصفّوننا على الباب القريب من المطبخ، ثُمّ يَسِمُوننا واحِدًا واحِدًا، كان الوَسمُ بالنّار من أشدّ الأهوال الّتي عانيتُها في رحلتي الطّويلة في العبوديّة. كانَ يُؤتَى بالوسم المُحمّى بالنّار والمحفور في أسفله حرفا: (T S) بالإنجليزيّة، ويُدفَع من قِبَل بريطانيٍّ حقيرٍ خلف ظهر الواحد مِنّا وأعلى كتفه، حتّى يغوصَ الحرفان المُحمّيان في اللّحم، ويعلو صوتُ النّشيش النّاتج عن حرارة الحديد المُحَمّى مع اللحم البارد، وينطبع الحرفان هُناك، وقد بدَؤوا بكهلٍ قد جاوز الأربعين، ولمّا عَلا صُراخُه طالِبًا الرّحمة دبّ الخوفُ والذُّعر في قلوبنا، ومع أنّ بعضَنا فكّر في الهرب أو المُقاومة أو إلقاء نفسه في البحر إلاّ أنّ البنادق المُصوّبة والمُسدّسات المُوجّهة لم تسمحْ لنا بأنْ نفعل شيئًا مِمّا دار في بالِنا. وكمنّا ذليلين، خائفين، مُستسلمين للرّعب ننتظر دورَنا. فيما راحتْ رائحة اللّحم المُحترق تتصاعدُ في الأجواء!

ولقد جاء دوري، فتظاهرتُ بالشّجاعة والصّلابة، فتقدّمت، وكشفتُ بنفسي عن ظَهري، وأزلتُ القِماش عن كتفي، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا، قبل أنْ يهوي الحرفان المُرعِبان وهما يتوهّجان من حرارة النّار أمام عينَيّ على أعلى كتفي، وشددتُ على أسناني في محاولةٍ ألاّ أصرخ، فلم أثبتْ لحظة، وصرختُ بأعلى ما أستطيع، ولم تكنْ صرخاتُنا تعبيرًا عن الألم الفظيع فحسبُ، بل كانت إلى ذلك تنفيسًا له، ومحاولةً للتّخفيف منه. وارتميتُ في زاويةٍ من الزّوايا، وأنا في حالةٍ

من الألم أكادُ أفقد وعيي. وشاهدتُ ذو القبّعة اللّئيم يَسِمُ امرأةٍ من النّساء الرُّضّع، ولم يكتفِ بصرخاتها، فطلبَ أنْ يَسِمَ بالنّار الرّضيع الّذي بين يدَيها، فأبتْ أنْ تُعطيه له، فصرخ في وجهها، فتشبّثتْ بابنها أكثر، فركلها في بطنها، حتّى نزفت، وصرخ بها من جديد أنْ تدفع له ابنها، فلم تفعل، ولكنَّ عينَيها نَظَرَتا في لَحَظاتٍ خاطفةٍ يمنةً ويسرةً، فوثبتْ على قدمَيها وهي لا تزال تشدّ ابنَها بين ذراعَيها، وتخفضُ رأسَها فوقَه كأنّها تحميه حتّى من نَسَمات الهواء، وركضتْ بسرعةٍ إلى طرف السّفينة الخالي من الحِبال، وبسرعةٍ أدركَ ذو القبّعة ما تنوي فِعله، فتناول مُسدّسه، وسَحَبَ الأقسام، لكنّها كانتْ قد قفزتْ وصارتْ على الحافّة الخشبيّة، وركزتْ نفسَها على تِلك الحافّة، ولم يعدْ أمامها إلاّ الخُطوةَ الأخيرة، كانت الرّصاصة قد انطلقتْ من المُسدّس في اللّحظة الّتي رمتْ المرأة بنفسها ومعها طِفلَها إلى البحر، مالتْ بجذعها نحو الماء، وكان وجهها ينظر إلينا، كانتْ نظراته في تلك اللّحظات الخاطِفات يتكلّم بألفِ لغة، سمعتُها تقول: «أنا انتصرت... أنا تحرّرتُ... لا تحزنوا عَلَيّ، بل احزنوا على أنفسكم... أنتم ما زلتم عبيدًا، وما زال مشوار المُعاناة معكم في بدايته... أنا أنهيتُه بهذه القفزة الشُّجاعة... هل تملكون شَجاعتي؟». أجبتُها على سؤالها الأخير الّذي دارَ في خيالي: «كلاّ يا سيّدتي... كلاّ!». وراحتْ تغوصُ عميقًا في الماء مُتخلّصةً من وحشيّة ليس لها نظير!

أنزلونا مع آلامِنا وأوجاعنا وبُكاءِ أطفالِنا ونسائنا، وآهاتِنا المُخمَدة إلى قَبْو السّفينة بعد الزّوال، عندما فرغوا مِنْ وَسْمِنا جميعًا،

النّساء في البداية، ثُمّ الأطفال ثُمّ كُنّا نحن الرّجال آخِرَ النّاسِ نُزولاً. النّساء حُشِرْن مثل الأجنّة في قلبِ دَكّةٍ في آخِر القبو، كُنّ يتراصَصْنَ فوقَ بعضهنّ مُكدّساتٍ داخل فتحةٍ مستطيلةٍ في القبو ترتفع عن أرضيّة القبو نصف المسافة إلى سقفه، وكُنّ في هذه الدّكّة لا يستطعْنَ الوقوف، ولم يكنْ لهنّ مع التكدّس إلاّ القرفصة، وإحناء العنق بشكلٍ دائم حتّى تُصاب أعناقهنّ بالتّصلب، وكان بعضُهنّ تتكوّر مثل القُنفذ على ابنِها خوفَ أنْ يُصيبه شيءٌ من هذا الانحِشار. وكُنّ ينظرْن بعيونٍ تختصر البؤسَ في الكون، ولم تكنْ لديّ لغةٌ تستطيع التّعبير عن ذلك أبدًا!

كانت درجات السّلم تسع درجات مُتساويات الارتِفاع والدّرجة العاشرة الأقرب إلى القبو نصفُ ارتفاع أخواتها، يُمكن أنْ تقول إنّها تسعُ درجاتٍ ونصف، لا أدري فلسفة الرّقم، ليس هذا وقتَه. كانت السّلاسلُ لا تزال في أيدينا معقودةً خلفَنا وفي أرجُلِنا بعد أنْ فكّوا السّلسلة الطّويلة الّتي تجمع كلّنا، النّساء والأطفال اكتفوا بالسّلاسل الّتي في أرجلهم، ما إنْ أتممتُ نُزولَ الدّرجات حتّى حلّ الظّلام، وبدت الرّائحة العفنة في القاع أسوأ من الرّائحة الّتي كانت في زنازين بيت العبيد، نزل جنديّان أمرونا بالاستِلقاء على ظهورِنا والبقاء على ذلك حتّى يطلبوا مِنّا أمرًا آخر. وفعَلْنا ما طلبوا، ومضى وقتُ طويل، وبدأتُ أسمعُ بعضَ الهمهمات، ثُمّ بدأ الأطفال يبكون، وسمعتُ الأمّهات في الظّلام يُحاولْن تهدئة الرُّضّع، أو هدهدتهم، ولكنّهم لم يتوقّفوا عن البُكاء بسبب الجوع. وكُنّا لم نأكلْ أو نشربْ

شيئًا من الصّباح، ولا ندري متى يمنّ علينا السّيّد الأبيض ببعضِ الطّعام لكي يسكتَ هؤلاء الأطفال، ولكي يدرّ الحليب في أثداء هؤلاء مكتبة الأمّهات المسكينات!!

سَحَبُوا الغِطاء من فوق الفتحة، فأطبق الظّلام، لم نعدْ نرى شيئًا. وسادَ الصّمتُ قليلاً بانقطاع النّور. وحلّ محلّ الصوت الرّائحة، فبدأنا نشمّ روائح لا تُطاق. وأردتُ أنْ أصرفَ الذّهن عن ذلك، فصحتُ: «أنا عمر.. عمر بن سيّد الفُوتي... أبي عالمٌ وأمير... نحن مُسلِمون... لا نؤمن إلاّ بالله الواحدِ الأحد...». وتردّد صوتي اليتيم في قبو السّفينة المُظلِم، وشعرْنا باهتِزازةٍ في السّفينة، وبخبطِ أقدامٍ ثقيلةٍ تتراكضُ فوقَ رؤوسنا على سطح السّفينة، وبصياحِ القُبطان على ما يبدو: «هل فعلتُم ذلك بشكلٍ جيّدٍ... هَيّا ليسَ لدينا مزيدٌ من الوقت؟». وبصوتِ بوقٍ عالٍ يأتي من فوق، فهل بدأتِ الرّحلة نحو المجهول؟!

(٣١)

ثِقوا بالله وسَنَنْجُو

إنّه الظّلام من جديد. وهل يصنع أهل الشّيطان إلاّ الظّلام؟! هل يعرفون في حياتهم النّور؟! أنّى لهم أنْ يُدرِكوا أنّ الله هو النّور وهم لا يعرفونه؟! لا زالتْ آلامُنا من الوَسْمِ بالنّار تتكلّم. ولا زِلنا نبكي في اللّيل، وتنوح الثّكالى في كلّ حين، لا أدري كم مرّ من الوقت؟! ولا أدري إلى أينَ صِرْنا إذا كانت السّفينة قد أبحرت. بعضُنا نامَ دون أنْ يستيقظ، وبعضُنا ألجأته آلامه إلى أنْ يتمنّى الموت، فانتظر لحظةً يُنهي بها حياتَه، وبعضُنا واجه الأمر باللامُبالاة، والاستسلام لكلّ ما يقع خارجَ إرادته!

كان القبو يمتدّ على طول السّفينة النّصفي، وكان فيه فتحتان غير الفتحة الّتي يهبط منها الدّرج، ما زال الجوع والعطش سيّد الموقف. ناديتُ: «هل مِنْ أحدٍ من (فوتا تور)؟». أجابني صوتٌ: «نَعم، أنا..». ثُمّ صوتٌ ثانٍ وثالث، وردّد صوتٌ رابع: «أنا معك يا عمر بن سيّد، أنا النّسّاخ، معنا اثنان آخَران». كان الصّوت يبحثُ عن عيونٍ ليرى، كانت الأذن تحاول أنْ تلتقطَ الجِهة، أن تُحدّد من خلال الصّوت عُمَرَ المُتكلّم، أنْ تقول له: «لا تخفْ». شعرتُ بفرحةٍ لا أدري ما سِرُّها في هذا الظّلام الحِندس. رفعتُ صوتي: «نحن إخوة. نحن مؤمِنون. لا تفقدوا إيمانكم يا

إخوتي. إنّها أقدار. والله يختار لنا. لو عَرَضَ لنا ما صرفَ عنّا لاخترنا ما أراد. ثِقوا بالله وسَنَنْجُو». لا أدري إنْ كانتْ كلماتي وجدتْ لها موطِئًا نديًّا في قلوبهم، أم أنّها وقعتْ على صخرٍ لا تجدُ فيه إليه منفذًا. سمعتُ أحدهم يقول: «سأموت من العطش». هتفتُ: «الفرج قريب». ردّ: «نحن ننتظر، متى ينتهي كلّ هذا؟ ماذا نطلبُ غيرَ رشفةِ ماء، هل هذا كثير؟». سمعتُ آخَر يقول: «هل سيُلقوننا أحياء في مراجل من الماء المغليّ، ليطبخونا ثُمّ يأكلونا في الأرضِ الجديدة؟». هتفتُ: «مَنْ قال لكَ هذا؟ لا يا أخي... لا تسمح لهذه الخُرافات أنْ تنخر عقلك». «سمعتُ أنّهم يأكلون لحم البشر يا أخي». «لا يا أخي... لا يا أخي...!!». «إنّني أرتعشُ يا أخي... أنا خائف... خائفٌ جِدًّا...». لم أقلْ شيئًا. سادَ الصّمتُ لحظة. ثُمّ شعرنا أنّ السّفينة تهتزّ، وقعُ أقدامٍ ثقيلةٍ في الأعلى.

كشفوا الغِطاء الأوّل، ثُمّ الثّاني، كان الوقتُ ظُهرًا هكذا قدّرتُه في يومنا الثّالث في القَبو في الظّلام، انسكبَ النور فجأة، فَعَمِيَتْ عيونُ بعضِنا، خفضنْا رؤوسَنا، وألصقناها بصدورنا نتّقي الضّياء الّذي هاجَمَنا بغتةً. كان في الأعلى مُسلّحان، كلّ مُسلّحٍ يقفُ فوقَ فتحةٍ، الفتحة كانتْ بطول ثلاثة أذرع وعرضِ ذراعَين، بحجم فتحة الدّرج غير أنّها عبارةٌ عن سقفٍ من الحديدِ المُتشابِك لا تنفذ منه الكفّ الواحدة، كانَ فقط لمهمّة الإطعام والسّقاية السّريعَين، كان المُسلّحان يُمسكُ كلّ واحدٍ منهما بدلوٍ صغيرةٍ مليئةٍ بالماء، راح كلّ واحدٍ منهم يسكبَ الماء من خلال الفَتَحات: «الآن اشربوا... ألستم

عطشِي... هَيّا... هَيّا أيّها الزّنوج الملاعين...». وبدأ الماء يهوي من الأعلى، ونحن ننظر إلى أقدام الرّجلَين الأبيضَين، وسيقانهم تُقابل عُيوننا حاجِبةً بعضَ النّور، وكان الماء يتراشَق، لم نَدْرِ أوّل الأمر كيف نتعامل مع هذا الكنز المَهدور؟ وما الّذي ينبغي فِعله وهو يتساقطُ من سَطْحِ السّفينة إلينا في القَبْو، لكنّ صُراخَ الرّجلَين أعادَ إلينا إدراكَنا، وما يجب أنْ نفعله، صاحا: «هَيّا أيّها الملاعين... افتحوا أفواهَكم واشربوا». وتسابَقْنا نمدّ أعناقَنا، وأيدينا مُقيدّة خلفَ ظهورنا، نتلقّى ماءَ الحَياة، ونفتحُ أفواهَنا، فيدخل إليها بعضُ الرّذاذ المُتراشِق من الماء، كان كثيرٌ منه يقع مهدورًا على قاع القَبو، لأنّ أفواهنا لم تَلْحَقْ به، ولم تتوقّع في أيّ بقعةٍ سينسكب، والمحظوظون أولئك الّذين كان الانصِباب يقع على وجوههم مُباشَرة، فيسيل على وجوههم ويدخل مناخرهم ويشربون ما تسمح به زاوية السّكب. استمرّ الرّجلان يسكبان الماء من الدّلاء، وهما يضحكان ويُقهقِهان، واستمرَرْنا نحن نتلقّف الماء، ونمدّ جذوعنا، وأعناقَنا، وأفواهنا، ونتصيّد الأمكنة الّتي يسيل فيها... الفتحة الثّانية كانتْ تنسكبُ على دَكّة النّساء، كُنّ أكثَر حَظًّا مِنّا، كان الحشر والجلوس قرفصةً يُتيح لهنّ تلقّي الماء من زوايا تُمكّنهنّ من الاسِتفادة منه أكثر ما يُمكن. إضافةً إلى أنّه كان لا يجد موضعًا بسبب انحِشار أجسادهن كي يقع على الأرض ويذهب هدرًا، فكان يقع على أجسادهنّ المتكوّمة، وكُنّ يلحَسْنَه عن تلك الأجساد دون تردّد، فإنّ نداء الحياة أثمن من أن تُصِمّ عنه أذنَيك بسبب الحياء!!

أُغلِقت الفتحتان، وسادَ الظّلام من جديد. نِصفُنا لم يحصلْ على قطرةٍ واحدةٍ، النّصف الآخَر دخل جوفَه ماءٌ متناثر لم يبلّ الرّيق، ولم يشفِ الغليل. وبعضُنا كادَ يبكي. بالطّبع صارَ الاستِلقاء مُقيّدًا ككلبٍ أجرب في الموضع الّذي يقع تحت الفتحتين مباشرةً هو الموضع الأهمّ، وقد فكّرتُ بالفعل أنْ أتّفق مع المحبوسين هنا أنْ يتمّ التّبديل فيه، حتّى إذا دخلتِ الرأفةُ قلب الرّجل الأبيضِ مرّة أخرى وأراد أنْ يرمي لنا ماءً أو طعامًا، يتلقّاه أناسٌ جُدُد، فقد أخذ السّابقون حَظّهم مِمّا رَزَقنا الله. لكنّ الفكرة وإنْ كانتْ ستُلاقِي قَبول الطّرف الأبعد عن الفتحة، أو ذلك الّذي يقع بين الفتحتَين والمُرشّح ألاّ يصل إليه أيّ شيء، إلاّ أنّها ستُحدِث نِزاعًا يُؤدّي إلى مشاكل لا تُحمَد عُقباها فيما لو أصرّت الفِئة الّتي يسقطُ عليها الغيثُ ألاّ تُغيّر مَكانها!

عَنّ ببالي أنْ أسأل ونحن ما زِلنا في القبو: «هل أبحرْنا؟». رفعتُ عقيرتي بصوتٍ عالٍ: «هل يعرفُ أحدٌ ما إذا كُنّا غادرنا جزيرة غوريه أمْ أنّنا ما زِلنا نراوح في مكاننا؟». سمعتُ صوتًا - لعلّه النّسّاخ - يُجيب: «نحنُ لم نَبْرَح مكاننا». علتْ أصواتٌ من كلّ مكانٍ تحتجّ على هذه الإجابة المُتشائِمة، لكنّه أردفَ قائِلاً بلهجة الواثق: «أنا خبيرٌ في المِلاحة، وركبتُ سُفُنًا كثيرة، وأستطيع أنْ أقول إنّ السّفينة لم تزلْ واقفةً في مكانها لم تتحرّكْ بوصةً واحِدة». كانت هذه الإجابة كفيلةً بأنْ تبعثَ اليأسَ فينا من جديد. قلتُ: «سنبحر إلى البلدِ الّذي يحترم حقوقنا على أيّة حال. ولن يطول الأمر كثيرًا».

في اليـوم الرّابع في القبو، عرفتُ أنّ أكثرنـا فعَلَ وهـو مرتـاح الضّمـير مـا كان يفعلـه في بيـت العبيـد مـن التّبـوّل والتّغـوّط. نحـن لم نكـنْ قادِريـن عـلى الوقوف على أرجلنا حتّى نفعلها في زاويةٍ ما في قاع السّفينة، ولم يكـنْ هنـاك مـاء لكـي نـشرب حتّى يكـون هنـاك ماءٌ لكي نبرأ من بَوْلنا. عمّـت الرّائحـة وطغـتْ. لم نعـدْ نُطيـقُ أنفسَـنا. كان ذلـك مدرجـةً أخرى للاستِسـلام القسـريّ. نحـن نُقتَل يا رَبّ إبراهيم بأيدي طائفـةٍ مـن الّذيـن نَسَـوا أنّـكَ خلقْتنـا مـن نفـسٍ واحـدة!

في ظُهـر اليـوم الرّابـع فتَحـوا الغِطـاء عـلى الفتحتَين، بالغريـزة زَحَـفَ الجـزء الّـذي لم ينـلْ حَظّـه مـن المـاء في المرّة السّـابقة إلى منتصـف الفتحـة، ورفـع جِذعـه مثـل إنسـانٍ عاجـز فبانـتْ عُـرُوق رَقَبَتِـه، وفتـحَ فمـه في لَهفـةٍ لسـقوط الرّحمـات القادِمـات مـع قَطَـرات المـاء، كان المـاء يهـوي عـلى أرجـل السّـادة البيـض، عـلى أحذيتهـم القَـذِرة أوّلاً، ثُـمّ يواصـل سـقوطه إلى أفواهنـا الفاغـرة، وأعناقِنـا المُشرئبّـة، رَضِي القِسـم الّـذي نـال حظّـه في اليـوم السّـابق أنْ يُخلِي بعـضَ مكانـه مـن أجـل العطـشى الجُـدُد. شربـوا مـا قَسَـم الله لهـم مـن المـاء. ثُـمّ لم نرتـحْ مـن قهقهـات البِيـض الفاجـرة إلاّ عندمـا أغلقـوا الفتحتَين.

في ظهـر ذلـك اليـومِ سـمعنا صرخـاتٍ عاليـة، وسـمعنا أصـواتَ بـكاء واستِغاثات، عرفْنـا مـا يحـدث، إنّهـا دفعـةٌ جديـدةٌ إذًا. تأكّدْنـا جميعًـا مـن أنّ مـا قالـه النّسّـاخ صحيـح، إنّـه يعـرفُ أكثـر منّـا، كانـت المعرفـة قُوّة، وكُنّـا مُسـتعدّين بعـدَ أنْ صـدَقَ في هـذه أنْ نسـتشيره في كلّ أمـرٍ آخَـر، حتّى ولـو كان في الطّـبّ الّـذي لم يكـنْ لـه بالطّبـع أيّـة صلـةٍ بـه!!

أزالوا الغِطاء المُحكَم عن فتحة الدّرجات التّسع ونِصف الدّرجة، وهَبَط الفوج الجديد، استقبلْناهم بفرحةٍ غريبة؛ فرحةِ أنْ ترى وجوهًا جديدة، أنْ تعرفَ ولو واحدًا من بين هؤلاء، كلّهم ولو لم يكنْ في معرفته أيّة فائدة، فرحةِ أنْ تسمعَ منهم أخبار العالَم العُلويّ، الّذي يدوسنا بأقدامه كلّما عَنّ له أنْ يتبختر فوقَ رؤوسنا أو يشرب أو يرقص.

لم ندر كيفَ سيتّسع لهم القبو الّذي ضاقَ بنا نحن الفوجَ الأوّل، ولكنْ لا خَيار لنا، كان يُمكن أنْ يلتصق كثيرٌ منّا بجدران القبو الرّطبة. ويلتصق به الّذي بعده، كما لو كُنّا ورقًا التصقَ بجذع شجرةٍ. بالطّبع جاءت معهم روائِحهم، فأضافوها إلى روائِحنا. كان ذلك في شهر حزيران من عام ١٨٠٧م، كان العرق يسيل من كلّ جسدٍ، ويفوح من كلّ زاوية، ودرجة الحرارة هنا مع الخشب لا يُمكن احتمالها، وكان الهواء في جوّ القبو قليلاً وساخنًا وخانقًا، وكان عددٌ كبيرٌ منّا مُرشّحًا ببساطةٍ أنْ يغادر هذه الحياة دون أنْ يعرفَ أحدٌ، ودون أنْ يُعلِنَ هو عن ساعةِ فراقِه لنا، ودون أنْ نعرفَ ما السّبب الّذي بعثَ به من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى؛ هل هو المرض؟ هل هو الجوع والعطش؟ هل هو الاختِناق؟ هل هو الانتِحار؟ هل هوَ اليأس؟ أمْ أنّ الموت الّذي كان يحوم فوقَ رؤوسنا في ذلك القَبو كان عبارةً عن مزيجٍ من هذا كُلّه؟!

فتَحوا الفجوتَين من جديد. لا بُدّ أنّ خيرًا نازِلاً من السّماء هذه المرّة. نعم؛ إنّه الطّعام. لكنّ الفرصة الآن في الحُصول عليه

أصعبَ من المرّات السّابقة مع اكتِظاظ المكان، وصعوبة التّزاحم تحت مركز الفتحتين. بدؤوا بسكبِ الطّعام، كان مرَقًا، وكان ساخِنًا، وكان يُمكن أنْ يؤذي الوجه لسخونته، ولكنّ صوتَ الحياة كان طاغِيًا، تلقّفتْ أفواهُنا وألسنتنا الطّعامَ المدلوق، كان الرّجال البيض يمشون على الفتحة جِيئةً وذهابًا وهم يسكبون الطّعام من القِدْر، كُنّا نصطاده بأفواهنا الّتي تصلّبتْ وهي تفغر أشداقَها على اتِساعها، وتُميل أعناقَها حتّى تتساوَى مع الميل الأفقي فتحظَى بأكبر انسِكابٍ من الدّلقة في الفم. كُنّا جَوعَى، وكان الجوع يحوّلنا إلى قرودٍ تتلقّف الفُول أو الموز وهي تنتظر اللّحظة المُناسبة للقفز في الزّاوية المناسِبة، لقد كان مشهدًا يُفجّر طاقات الضّحك والسّخرية لدى البِيض، وكُنّا مشغولين عن سخريتهم وضَحِكاتهم بالتقاط اللّقمة الّتي تُعيد وَصْلَ خيط الحياة قبل أنْ ينقطع في اللّحظة الأخيرة!

بعد أنْ أنهَوا سكب الطّعام، راحَ بعضُنا يلعَق ما سقطَ منه على الأرض، بعضُه كان يستقرّ على خدودِ بعضِنا، أو على شَعْرِ لحيته أو رأسِه، ولأنّ أيدينا كانتْ مُقيّدةً خلفَنا، فإنّنا كُنّا نمدّ أعناقنا، ثُمّ ألسنتنا إلى تلك الخدود والذّقون والرّؤوس ونلعَق ما استقرّ فوقَها مِمّا تناثَر من طِعام، نلعقه بشهيّة كبيرةٍ، وبتوقٍ أكبر للمحافظة على حياتنا الّتي تُعانِدُ في كلّ مرّةٍ للهروب من أجسادِنا!

(٣٢)

لَيْسَ فِي البَحْرِ سوى البحْرِ..!!

في اليومِ التّاسع، كنتُ أحتاجُ إلى تركيز شديدٍ كي أعدّ الأيّام دون أنْ أخطِئ. لكنْ ماذا لو أخطأتُ في يوم أو يومين؛ مَنْ سيُحاسبني، ما قيمة عَدّي؟ ما قيمةُ الأيّام لإنسانٍ تتشابه عنده الأيّام، فلا هو ينتظر قادِمًا، ولا هو يأسى على ذاهبٍ؟ لِأيّ جِهةٍ سيكون هذا العَدّ مُفيدًا؛ سوى لي، أنا الّذي اعتدتُ من قبلُ أنْ أحسب حِساب كلّ شيءٍ، وأنضبط في كلّ وقتٍ أقضيه أو حركةٍ آتي بها.

نعم؛ في اليوم التّاسع، اليوم الّذي رأيتُ فيه فِئرانًا كثيرةً تجول في قَعْر السّفينة، ورأيتُ أحدَها ينقرُ بِسنَّيه البارِزَين خَدّ أحد الموتى. كان أكثرنا مَرضى. كُنّا جميعًا متّسخين. كان الوَهَنُ قد أصابَنا جميعًا في ذلك اليوم عصَبوا عيونَنا، ودفعونا من ظهورنا بكعوب البنادق والسّياط، وصَعَدْنا إلى سَطْح السّفينة، قالوا لنا: «سوفَ تغتسلون من قذاراتكم... قذاراتكم لا تنتهي أيّها الزّنوج».

كانوا قدْ وَكّلوا بعضَنا بشطفِ قاع السّفينة. ظهرَ ماءٌ كثيرٌ فجأة. امتلأ القبو بالماء. رَشُّوا فيه بعضَ القار ليقضي على الرّوائح ومُخلّفاتنا. وبعضَ الحُبوب الّتي تقتل الفِئران. صار نَظِيفًا، على غير عَهدِنا به، وصارَ فارِغًا، منظره وهو فارغٌ جميلٌ، رائع، مُدهِش؛ إنّه

بيتُنا، ولا ندري كم سيظلّ بيتَنا ومأوانا، وموضع طعامنا وشرابنا ونومِنا، و... وموتِنا أيضًا!

أزالوا العِصابةَ عن عينَيّ. ورأيتُ عددًا كبيرًا منّا قد أزالوا عن أعينهم العِصابات كذلك، ووقفوا في دائرةٍ مُتراصّين ينتظرون أنْ يذهبوا إلى الطّرف الخلفيّ الأقصى للسّفينة. إنّهم يُعِدّوننا للاستِحمام بالفعل، ولكنّ ذلك على خِلاف ما توقّعنا؛ أنْ يحظَى كلّ واحدٍ مِنّا بنصيبه من الماء، فيسكُبُه على جسدِه، ويفرك فيه جِلده، حتّى ينظّف ما علقَ به من بقايا الغائط أو من الجرَب. كُنّا جميعًا قد دَبّ فينا الجرب، ودَبّتْ فينا حَكّة، كانتْ تُلجِئنا مع الاستِمرار فيها إلى أنْ ينزف الدّم من قروحنا.

أعطَونا قبل أنْ نستحمّ خِرَقًا من القِماش عليها قارٌ أسود، وطلبوا مِنّا أنْ نفركَ بها أجسادَنا، ونُغلقَ الفتحات النّاتجة عن الجروح أو التّقرّحات، كان ذلك ممتعًا. بدأنا بفركِ كلّ عضوْ فينا، لم يكنْ فِينا إلاّ مِنّا، باستِثناء هؤلاء البِيض. كُنّا أكثر من أربعمئة عبدٍ نُساقُ إلى مصيرنا دون أنْ نملك أيّ حَقٍّ من حقوقنا، كنّا بِضاعة، وكانوا - لولا أنّهم يُريدون أنْ يوصلونا أحياء إلى البلدِ الّتي نمضي إليها - يتمنّون التّخلّص مِنّا؛ بجَعْلنا أهدافًا حَيّة لرصاص بنادقهم؛ سيَعُدّون ذلك تسليةً تكسر الرّتابة والملل اللّذَين يتذمّرون منهما!

كُنّا نفرك جَسَدنا نحن الرّجال، مُتجاوزين أمر الحَياء، ومشغولين بتنظيف أنفِسنا عن أنْ ينظر بعضُنا إلى عورات بَعض.

وكانت النّساء كذلك، وقد اتّخذْنَ زاويةً بعيدةً عنّا، فيما كانت عيون البِيض تفيض بالشّهوة والحيَوانيّة وهم يعاينون أجسادَهنّ، ويُطلِقون على عادتهم ضِحكاتهم الفاجرة.

كلّ واحدٍ كان ينتهي من فَركِ جسده، ينتظر دوره لكي يقفز في دَلْوٍ كبيرةٍ، كبيرةٍ جِدًّا إلى حَدّ أنّها تساوي برميلاً أو أقلّ قليلاً، وكان البِيضُ يصرخون: «حافِظوا على الماء أيّها الملاعين... ليسَ لدينا منه كفاية... أمامنا وقتٌ طويلٌ حتّى نصل إلى تشارلستون...». كانتْ هذه هي المرّة الأولى الّتي أسمعُ فيها هذا الاسم، همس به في أذني النّسّاخ الخبير بالمِلاحة على حَدّ قولِه، والّذي لازَمني منذ البِداية، وكان يعرفُ الإنجليزيّة: «سيذهبون بنا إلى تشارلستون، إنّها مدينة كبيرة، لكنّها سيّئة... هناك لن ترى شيئًا مِمّا تراه هنا..». وأردفَ الأبيضُ الزّعّاق ذو القُبّعة القرصانيّة وهو يُحذّر أحد المُوكّلين بالدّلاء: «كلّ ثلاثة يغتسلون في دلوٍ واحدةٍ من الماء بالتّناوب».

شعرتُ بالحنين فجأة، أين يُمكن أنْ تكون أمّي وزوجتي وابني؟ آه يا ابني؟ ما الّذي حَدَث لك؟! قطَع حنيني صوتُ السّلسلة المجذوبة من الرّجل الّذي أمامي. كان قد اقتربَ دوري.

تقدّمتُ قليلاً فانكشفَ لي جانبُ البَرّ من هذه الزّاوية؛ صدقَ النّسّاخ من جديد. نحن لم نبرحْ مكاننا بُوصةً واحدة. إنّ السّاحل الغربيّ يتراءى بكامل امتداده، ليسَ بعيدًا عن هنا، وعلى الجزيرة بيتُ العبيد يبدو ثابِتًا، كأنّما نمنا نحنُ تسعةَ أيّامٍ وظلّ هو مُستيقِظًا

طوال هذه الأيّام واللّيالي، وكان على عادته، باهِتًا قاسِيًا شديدَ العِناد، تنكسر على صُخوره الأمواج، وتعودُ خائِبةً باكية!

لقد كانت الفترة السّابِقة كُلّها تجميعًا لأكبرِ عددٍ مِنّا، وإتمامًا للصّفقات بين التُّجّار، وفرزًا للعبيد بحسب السُّفُن والجهات الّتي سيرحلون نحوها؛ سفينتنا الّتي تحمل الرّمز (T.S)، والّذي وُسِمْنا به جميعًا، سوفَ تُبحِر نحو (تشارلستون)، وما هذه المُسمّاة بهذا الاسم، أتكون بِلادًا تُعطي لخلقِ الله ما أعطاهم الله؟!

على الشّاطِئ المُجانِب لبيت العبيد كان هناك عددٌ من الأطفال الصّغار يقفزون، أصواتهم لا تصل إلى هنا واضحة، أخلاطٌ من الأصوات فحسب، أو ربّما خُيّل إليّ أنّني صنعتُ أصواتهم بنفسي، وملأتُ بها أُذني؛ يبدو أنّني مُشتاقٌ جِدًّا لأصوات الأطفال البهيجة، أصواتهم عندما لم يكنْ لهم من الحياة إلاّ ذلك الجانب الغامض والسّاحر والبريء، قبل أنْ تُلقي بهم الحياة في أتونها، لقد رأيتُني أنا وآمنة، ونحن نملأ السّاحة الفسيحة الّتي تفصل بيتنا عن النّهر صِياحًا وركضًا وفَرَحًا، وتساءلت: «عندما يكبر ابني، ويُصبح في الرّابعة أو الخامسة هل سيجد ساحةً فسيحة من أجل أنْ يلعبَ فيها؟».

لقد رأيتُني في تلك السّاحة، ذلك الطّفل الّذي كانت الحياة لا تُشكّل له أكثر من لهوٍ لا يُفكذر في عاقبته، يُطاردُ النّسمات، ويجلسُ إلى النّهر، ويعبثُ بِحَصاه، ويغمسُ رجلَيه في مائه، كان عالمَه بين يدَي

أبيه عالمًا مسحورًا، إنّه ذات الطّفل الّذي سيتمنّى عندما يكبُر أنّه لم يَكُنْه يومًا.

لَسَعني سوطٌ على ظهري: «اقفز أيّها الزّنجيّ. ليسَ لدينا النّهار بطوله». كان الرّجلان اللّذان سبَقاني إلى القفز في الدّلو قد أتمّا استِحمامهما، كان الاستِحمام بعدَ القفز في الدّلو، يتمّ بأنْ تأخذ بكفّيك الماء وتدعكَ به جذعك، وتسكبه على رأسِك، وتُمرّره تحتَ إبطَيك، وإذا كانت الغريزة قويّة لديك، فإنّك سوفَ تنحني، وتغوصَ برأسِك في الدّلو كي تشعر بالماء في عينَيك ومناخيرك حتّى لو سبّب لك ذلك وجعًا في الضّلع، لكنّه يُعوّض بشعورٍ من السّعادة لا بأسَ به في غمر الرّأس كامِلاً في الماء.

كنتُ الثّالث في الاستِحمام بالدّلو نفسِها، قبل أنْ تُدلَقَ في البحر، وتُملأ بالماء النّظيف لثلاثةٍ جُدُد. كان الاثنان اللّذان سَبَقاني قد فازا بماءٍ أنظفَ بكثيرٍ من الّذي فُزتُ به، خرجتُ عارِيًا تمامًا، والماء يسيل على جسدي، ورحتُ أنفضُ شَعري ورأسي، فراح ما تبقّى عليهما من الماء يتراشق في كلّ مكان، ولولا بقيّة من وَقار لغنّيتُ ورقصتُ، كان شعورًا طافِحًا بالسّعادة.

تناولتُ ثوبي الّذي نشرتُه بعدَ أنْ فركتُه بخِرقة القار من على أحد حِبال السّفينة، كانت الشّمس والهواء قد خَلّصاه من كثيرٍ من القذارة، كان الثّوب قِطعتَين، ولم يكنْ ذلك لكثيرين، كان ذلك يُعدّ ترفًا، لم يحظَ به إلاّ عددٌ لا يتجاوز أصابع اليدَين، الأكثريّة هنا،

تلبسُ ما يُغطّي نِصفَها الأسفل، ونصفها الأعلى عارٍ، سواءً من النّساء والرّجال، وعددٌ آخر ليس بالقليل أيضًا، صعد إلى السفينة من بيت العبيد ولم يكنْ يلبسُ شيئًا، وكانت الأثداء للنّساء تترجرج، والأعضاء للرّجال تتدلّى!

لا أدري كيفَ حافظتُ طَوال الفترة السّابقة في بيت العبيد، والأيام الّتي قضيناها في قعر السّفينة على المسبحة الخشبيّة الّتي كنتُ أضعها في عنقي! يبدو أنّها ليستْ كأي شيءٍ آخر، إنّها ليستْ ذات قيمة ماديّة كي يستولي عليها الرّجال البِيض، ثُمّ إنّها ليست كأيّ قِطعةٍ أخرى يسهل فُقدانها؛ إنّها ترتبطُ بالعنق، ولا يُمكن إزالتُها من مكانها إلاّ إذا أُزيلتِ العُنُق من مكانها!!

كانت المِسبحة تعني لي الكثير. وستظلّ رمزًا لوصيّة أمّي بعد أنْ احترق الحِرز مع المخطوطات في البيت، وسأحافظ عليها في كلّ مراحل حياتي اللّاحقة، وستكون ملجئي إلى الله حينَ أُناجيه؛ مرّةً بعدَ مرّة تُثبِتُ أُمّي أنّها على حَقّ.

بقينا أكثر من نصف اليوم، ونحن نغتسل، ونمرح، ونضحك... كان ذلك تمرينًا على طَردِ شبح البؤس وغول الكآبة مهما كانا كبيرَين... نستطيع أنْ نفرح... هكذا حَدّثتُ نفسي. بعدَ أنْ أتممْنا عمليّة الاغتِسال وتنظيف قَعْر السّفينة، شُدّتِ الحِبال، ورُفِعتَ الأشرعة، وأطلق صاحبُ البوقِ نفختَه، فسرى صوتُه شاقًّا الماء والهواء، مُعلِنًا عن الارتِحال بنفسِه هذه المرّة... كنتُ لا أزال أغوصُ

في الأشجار الّتي تُشبه أشجار (فوتا تور) في الشّاطِئ البعيد، والسّفينة تُولّي للشّاطئ، ولفوتا تور، ولأفريقيا كلّها ظَهْرَها، ماخرةً عُبابَ الماء نحو العالَم الجديد!

أيُّها الحادِي بِنا ثَكْلَى إلى البَحْرِ الكَبِيْرْ... ماضِيًا في اللُّجِّ نَحْوَ اليَابِسَةْ... لَيْسَ في البَحْرِ سِوَى البَحْرِ. سِوَى التِّيْهِ... سِوَى الأَحْزانِ وَالمَوْتِ المَرِيْرْ... واللّيالِي الدّامِسَةْ... فَإلى أَيْن تَسِيْرْ...؟! غَنِّنا حتّى يَرِقَّ القَلْبُ في هَذِي الدُّرُوبِ القَارِسَةْ... فَنُجُومُ الله ما زالتْ مَعَ الأَحْزانِ تَضْحَكْ... في لَيالٍ عَابِسَةْ... وَسَنَضْحَكْ... مِثْلَما الأَفْلاكُ تَضْحَكْ... أيُّها البَحْرُ الكَبِيْرْ...

(٣٣)

لم أُصدّقْ أنّني فعلتُها!!

مكثْنا عشرة أيّام أخرى في القبو، كانت السّفينة قد مضتْ في البحر الكبير، البحر الّذي لا تُرى أطرافه، ولا تنتهي جوانِبه. بعد مرور تسعة أيّام في الأسفل، فكّوا قيودَنا الّتي تُربَط بها أيدينا خلفَ ظهورنا، بقينا مثل الدّواب في الزّريبة مربوطين بسلسلةٍ تجمع العشرات مِنّا إلى عمودٍ خشبيّ أو ركنٍ في القبو.

كانوا لا يزالون يَسقوننا ويُطعِموننا بالطّريقة إيّاها، يفتحون الغِطاء الّذي يكشفُ عن فتحاتٍ مُربّعة مُتشابِكة من الحديد، ويسكبون الماء، ويَدلقون الطّعام. حاولتُ أنْ أنظّمهم، أيّام (تُوبا) كان التّنظيم والانضِباط والعمل بوتيرةٍ دقيقة أهمّ ما يُميّز المُريد، وكان لا بُدّ من نِظامٍ يحكم الجميع، وشيخٍ لا تُخالَف أوامره أبدًا. لو كان شيءٌ واحدٌ من هذه الثّلاثة معمولاً به هنا في القبو، لتجاوزنا كثيرًا من المشاكل. لكنّ العشوائيّة تحكمنا.

بالغريزة، وبحبّ الآخرين، وبالإنسانيّة الّتي فُطِرنا عليها صِرنا نُبدّل أماكننا في كلّ مرّة تحت مركز الفتحتَين، حتّى نتبادل الحصول على الماء والطّعام. كان الماء يُسكَب مرّة واحدةً كلّ يومٍ في المساء، وكان الطّعام يُدلَق كلّ يومَين في الظُّهر. غير أنّ هذه الطّريقة

الحيوانيّة في الاستِلقاء ومَدّ الجِذع، واشرئباب العُنُق كانتْ قد ألقتْ بثقلها على عقول عددٍ مِنّا، فخلط بين حُرّيتّه السّابقة وبين عبوديّته، بين الفضاءات الفسيحة وبين هذا القبو المُعتِم، بين النّهر المُنسكِب وبين القطرات الّتي تتبخّر قبل أنْ تسقط في الفم، فجُنّ؛ نعم جُنّ بعضُنا، لم يستطعْ أنْ يتحمّل، كان يصرخُ في اللّيل صُراخًا هستيريًّا. ويحرّكُ يدَيه في الهواء، ثُمّ هو يهوي بكلتا قبضتيه على أقربِ جسدٍ منه، ثُمّ هو يضربُ رأسه بعمودٍ هنا أو جدارٍ هناك، ثُمّ لا يُوقِفه عن الصّراخ شيءٌ حتّى يفتحَ أحدُ الإنجليز المُسلّحين الغِطاء عن الفتحة، ويسألنا: «مَنْ كان يصرخ؟!». فلا يُجيبُه أحدٌ، ثُمّ هو يزعق: «إذا لم يأتِ إلى هنا، تحتَ مرأى عينَي، فسأُطلِق النّار على أوّل مَنْ يقع تحت مرمى الرّصاص». ظننّا أنّه مجنونٌ هو الآخَر حتّى يُطلِق تهديدًا مثل هذا، ولمّا طال الصّمت، وسَمِعنا التّهديد مرّة أخرى، صرخَ أحدنا للّذي كان يصرخ: «أنتَ... هيّا تقدّم إلى مركز الفتحة». لكنّ الرّوح غالية، ردّ الصّارخ: «أنا...؟ أنا لم أصرخ...». كان العَرَق قد بدأ يتصبّب على جسده العاري، «سأعدّ إلى الثّلاثة» زعقَ الإنجليزيّ. قال: «واحد..». هوتْ قلوبنا بين أرجلنا... أردف: «اثنان..» صعدتِ القلوب حتّى بلغتِ الحناجر... كان عددٌ مِن القريبين من الفتحة قد صارَ لا إرادِيًّا يبتعد عن المركز، لكنّ المكان كان مُكتَظًّا. عددٌ آخَر قد بدَأ يهمس في أذن الّذي كان يصرخ: «هيّا... تريدُنا أنْ نموت جميعًا». كانتْ عيناه قد بدأتا تتقلّبان... عندما هتفَ الإنجليزيّ: «ثلاثة..». كان الدّم قد جَمَد في عروقنا،

فيما دفعَ أحدُنا الصّارخ إلى المركز، وكانت الرّصاصة قد انطلقتْ فدخلتْ من فمه المَشدوه وخرجتْ من عنقه، تفجّرَ رأسهُ، وتناثرتْ شظاياه، وتراشقَ دمه، كنتُ أقربَ النّاسِ إليه، فلم يبقَ في ثيابي - الّتي اجتهدتُ أنْ تبقى نظيفةً - موضعٌ إلاّ وأصابه دمٌ من دمه، أو لحمٌ من لحمه.

بقي القتيل بيننا ليلةً كاملة. لم نستطع أنْ نغسله، ولا أنْ نُكفّنه بالطّبع. لكنّني سألتُهم: «من أيِّ قوميّة هو؟». فلمْ يُجِبْني أحدٌ، قلتُ للنّسّاخ الّذي تعرّفتُ عليه: «سنعدُّه مُسْلِمًا، وسنُصلّي عليه، وسنطلبُ لروحه الرّحمة». يومَها دخل مُصطلح صلاة الجنازة إلى قاموس القاطِنين في هذا القبو، لم يُصلّ معنا إلاّ ستّة، لا أدري إنْ كان هناك مُسلِمون آخرون. «الله واحد» قلتُ، وأردفتُ: «ونحن جميعًا عبيدُه لا عبيدُ هؤلاء». ورفعتُ إصبعي إلى سقف القبو، لكنّ النّظرات الزّائغة رَمقَتْني بخوف.

كان جُثمانه في اللّيل مخيفًا. أعني وجوده بجانبنا، فلم يكنْ هناك من سبيلٍ لرؤيته في الظّلام، أنْ تنام إلى جانب جُثّة أمرٌ ليسَ سهلاً، مع أنّ الكثير مِنّا لم يكترثْ كثيرًا، نامَ ليله الطّويل غيرَ قلق. كانَ كَسْرُ ذلك الشّعور هو انتصارٌ للوحشيّة واللاّمُبالاة، أنْ يموتَ هذا الشّعور بأنّ هذا الّذي قُتِل هو أخونا، إنسانٌ كانتْ له روح، وكان له أهل، وربّما أبناء، وزوجة، وبيت، وبلدٌ يُحبّه... أنْ نتحوّل إلى أرقامٍ، لا يهمّ إنْ نقصتْ رَقَمًا حتّى لو كان هذا الرّقم من لحمٍ ودم؛ فتلك كانت المُصيبة. ولقد صِرْنا بالفعل أرقامًا، بل أرقامًا بلا قيمة في

أيّ خانةٍ كانت؛ سواءَ أكانت في خانة الآحاد أو العشرات أو المِئات... أرقامٌ مثل الزّبد على سطح هذا البحر الّذي يحملنا جميعًا في مَجاهيله.

لم أكفّ عن التّفكير في الجثّة، كانتْ رائحة دمه تعبقُ في أنفي، قرأتُ لروحه سورة الفاتحة عشرين مرّة. زحفتُ من مكاني، وجلستُ إلى جِواره، تحسّستُ شَعرَ رأسه فوجدتُه مُلبّدًا قد نشفَ الدّم عليه، نزلتُ قليلاً إلى فمه فوجدتُ يدي غاصتْ في جوفِ أشلاءٍ مُمزّقة... رفعتُ يدي وهي ترجف، سألتُ نفسي: «ماذا تفعل؟ هل جُنِنتَ؟». أجبتُني: «كنتُ أريدُ أنْ أقول له: لا تقلق، لقد صرتَ إلى جِوار الله».

بكيتُ، على إنسانيّة مهدورة، على روحٍ تُسلَب بهذه السّهولة والعشوائيّة. كان القبو ساكِنًا. هادِئًا. أصواتُ بعضِ الأنفاسِ هي الّتي تُسمَع فحسب، الجميع يغطّ في نومٍ عميقٍ، هل كانوا بالفعل لا يكترثون؟ مَنْ قال لكَ ذلك؟ هل فَتّشتَ في أعماقهم، ونقّبتَ عن دواخلهم حتّى تُقرّر؟ إنْ كانوا لا يُعبّرون عن اكتِراثهم بطريقتك؛ فليسَ معنى ذلك أنّهم لا يشعرون؟ ربّما تمزّقوا أكثرَ منكَ على موتِه، لكنّهم لم ينطِقوا. ربّما كان في هؤلاء أحدُ أقاربه الّذي يُحبّه، وعاشَ معه كلّ حياته، لكنّه من الخوف لم يُفصِح عن نفسه، ربّما كان هنا ابنُه أو أخوه أو عمّه وأنتَ لا تدري؟ ربّما كان الغطّ في النّوم وسيلةً للهروب من الأسى، ربّما كان سبيلاً إلى النّسيان والتّخفّف من الأعباء الّتي لا يحتملها الإنسان لو كان واعِيًا، إنّه طريقةٌ للاحتِجاج الصّامت، فَلِمَ تعدّ نفسكَ الأكثر تأثّرًا بما جرى؟ هؤلاء كلّهم عوالمُ من الأحاسيس لا تبدو لك؛ لأنّك ببساطةٍ لا ترى!

النّوم إلى جِوار جُثّة يُشعِرك بهوان الدُّنيا، يُشعرك بقدرة الله، وغضبه، ورحمته، وانتقامه، وعَفوه... يُشعِرك بأنّ الموتَ أقربَ إليك مِنْ وريدِكَ الّذي يجري فيه دَمُك، إنّه يختبِئ في الغيب الّذي نعيشُ تحتَ عباءَته جميعًا!

في الصّباح، أزالوا الغِطاء فعرفْنا أنّ هناكَ فرجًا من نوعٍ ما. لا يُزالُ غِطاء الدّرج إلاّ إذا كانوا يريدون مِنّا أنْ نتناول الطّعامِ على سطح السّفينة مُستمتعين باتّساع البحر، وبزُرقة الماء، وبامتداد الأفق، وبروعة الشّمس. هكذا فكّرتُ. غير أنّ الّذي نزلَ إنجليزيٌّ مُسلّح، وكان وحده، في تلك اللّحظة فكّرتُ بالانقِضاض عليه، وانتزاع بندقيّته منه وقَتْلِه، ثُمّ تحرير الرّجال من سلاسلهم، والصّعود إلى سطح السّفينة، والاستيلاء عليها، لكنّني في اللّحظة الّتي فكّرتُ فيها بذلك، عدلتُ عن هذا التّفكير في اللّحظة الّتي بعدها مُباشرة، فأمر الاستيلاء على سفينةٍ لا يتمّ دون تخطيط عميق، وتنسيقٍ دقيق، ثُمّ إنّني قد أُبيح لنفسي الاستيلاء على السّفينة، وتوجيهها عن طريق النّسّاخ المَلاّح عائدًا بها إلى الغرب الإفريقيّ حيثُ بلادنا، لكنّني لن أُبيح لنفسي أنْ أقتلَ أحدًا مهما كانت الدّوافع، ومهما سوّلها لي الشّيطان؛ فأنا لا أتبعُ دينًا يُبيح القتل، ويعشق الدّماء، ويستمتع بالصّرخات، أنا أتبع دينَ الرّحمة، ونبيّ الرحمة، دينًا يقوم على أنْ تُحِبّ لأخيكَ ما تُحبُّ لنفسِك.

تفحّصَ الإنجليزيّ المُسلّح وجوهَنا، وتوقّف عندي، وهو يُعاينني. أمرني بالوقوف فوقفتُ، أعطاني المِفتاح لأفكّ قيودي، فظننتُ

أنّني أحلم، وقفتُ جامدًا أُبحلقُ فيه وهو يمدّه لي، زعق: «فُكّ قيودَك أيّها الزّنجيّ». ورجع إلى الخلف لكي أتمكّن من ذلك. باغتني الطّلب، تسرّبتْ إليّ الأحلام وأنا أفكّ قيودي، لا بُدّ أنّه الفَرَج، وأنّني في طريقي إلى استِعادة حُرّيتي، بل ذهبتُ إلى أبعدَ من ذلك، سوف يحرّرونا جميعًا، إمّا لأنّ دينَهم أمرهم بالعدل وترك الظُّلم، ولا بُدّ من أنْ تأتيهم أوقاتٌ تصحو فيها ضمائرهم، وهذه هي لحظةُ استيقاظ الضّمير.. أتممتُ عملي. واعتدلتُ بجذعي. تفحّص شخصًا آخر، وطلبَ منّي ثانية: «فُكّ قيودَه» توقفّتُ برهةً أقلّ من المرّة الأولى، وسألتُ نفسي: «هل يطلبُ منّي فِعلاً أنْ أفكّ قيدَ أخي؟!». ها هو يزعق، إنّه بالفعل يطلبُ منّي ذلك. حمدتُ الله أنّني لم أنفّذ الوساوس الّتي أوحَى بها الشّيطان إليّ مِنَ انتِزاع بندقيّته وقَتْله، ها هو يفعل ما كنتُ أتمناه دون أنْ نرتكب ذلك الجرم الشّنيع، ودون أنْ أُمضي ذلك الخاطر الإجراميّ. فيما كنتُ أُتِمّ فَكّ قيودِ أخي الّذي اختارَه، كانت مساحات الأمل تزداد: «لا بُدّ أنّه بعدَ قليلٍ سيطلب منّي أنْ أفكّ قيود مَنْ في القبو كلّهم». رفعتُ جذعي، وجّه البندقيّة إلينا نحن الاثنين، وزعق: «احمِلا جُثّة هذا الزّنجيّ الحقير». حملْناها تحت تهديد السّلاح، كان حظّي أنْ أحمل يدَيه، فكان وجهه المُشوّه - وقد صار أزرق، واسودّ الدّم في التّجاويف - تحتَ عينَيّ، أشحتُ برأسي، فيما حملَ أخي الآخر رِجلَيه، صعدْنا الدّرجات التّسع ونصف الدّرجة، ولفحتْنا بعضُ النّسائم المُنعشِة أوّل ما لمسَ أنفُنا الفضاءَ الفسيح، زعقَ الإنجليزيّ مُشيرًا بفوهة البندقيّة: «إلى هناك... إلى هناك...». قادَنا إلى

الجزء الّذي رمتْ منه المرأةَ مع الرّضيع نفسَها، لمعت الصّورة في ذهني سريعًا، خفقَ قلبي، رجفتُ، ارتختْ يدَاي، سقط القتيل من يدَي، وبقيتْ قدمَاه في يد الشّخص الآخَر، وارتختْ من بعدها رُكبي، وسقطتُ على الأرض، ركضَ الإنجليزيّ إليّ، وضع فوهة البندقيّة بينَ عينَيّ، وزعق: «هَيّا أيها اللّعين... هَيّا...». حملتُه من جديد، وصلنا إلى طرفِ السّفينة: «الآن ارمِياه في البحر». تردّدتُ ثانيةً، راحَ خَطٌّ من دموع القهر ينسرب على خدّيّ، زعق: «هل تريدان أن تموتا معه.. هل تريدان أنْ ألقيَ بكما إلى البحر؟!». كان أخي الآخَر قد رفَعَ رجلَيه، ونظَر إليّ بعينَين تتوسّلان: «هَيّا... إنّه لن ينتظر كثيرًا». رفعتُ ذراعَيه، ووجهه الّذي ذهبَ أكثره، ورميته مع أخي في البحر.

عدتُ إلى القَبو وقد هرمت عشرين عامًا؛ لم أُصدّقْ أنّني فعلتُها!!



(٣٤)

النظافة من الإيمان!

الخُرافات لا تُعمّر طويلاً. الإيمان لا يموت. في القبو راحت الخُرافات بسبب الرّعب الّذي عشنا فيه تنتهي. اللّجوء إلى صَنَمٍ أو إلهٍ من شجرٍ أو من حجرٍ أو من خشبٍ لن يكون مُفيدًا في قلب هذا الموت المُتربّص بنا في كلّ لحظة. كُنّا نبحثُ عن قوّةٍ أكبر نلجأ إليها، ونَلوذُ بِحماها. كُنّا غرقَى في بحر آلامنا؛ والغريق يتعلّق بقشّةٍ كما يقولون.

الجهل يبدأ بصاحِبه فيقتله. لو تخلّصوا من الجهل لعرفوا، ولو عرفوا لآمنوا، ولو آمنوا لاطمأنّوا. «تباركَ الّذي بيده المُلك». لنرفعَ اسمَ الله يا إخوتي، الله الّذي له المُلك. هؤلاء لا يملكون من أمرهم شيئًا؛ ماذا لديهم حتّى يقتلوا ويُعذّبوا ويُهدّدوا؟ لا شيءَ غير السّلاح. تخيّلوا لو أنّ الأمر كان معكوسًا، نحن الّذين كان لدينا السّلاح، وكانوا هُم عُزّلاً مثلنا، كم سيكون لهم من قوّةٍ أو تأثير؟ لا شيء... على الإطلاق. لكنّنا لسنا مثلهم، حتّى لو حملْنا السّلاح فلن نَقتل لمجرّد القتل كما يفعلون، وحتّى لو كانت لدينا القُوّة لن نتجبّر في استِخدامها لطردِ الملل والتّسلية كما يتجبّرون. شدّني أحدهُم من عنقي: «لو كنتُ أملكُ سِلاحًا، بندقيّة، أو بلطةً، أو سِكّينًا أو حتّى حبلاً مجدولاً، لما توانيتُ في أنْ أقتل. أنْ أشفي غليلي من هؤلاء الّذين

حرقـوا أولادي أحيـاء، نحـن نُقتَـل، وتريدُنـا أنْ نسـكت؟!». كانـتْ جذبتُـه قويّـة إلى حـدّ شـعرتُ فيـه أنّـه لـو اسـتمرّ بالجـذب سيخلع عنقـي مـن مكانهـا.

في اللّيـل، قبـل أنْ تخلـدَ إلى النّـوم أجسـادُهم المُتعبـة، وأرواحهـم التّائهـة، وأحزانهـم العميقـة، كنـتُ أقـرأ عليهـم آيـات الله. أُجوّدهـا كـما كنتُ أجوّدهـا في أيّام القِيام في (تُوبا) في الجزء الثّاني من اللّيـل. صَغَتْ إليهـا قُلُوبُهـم. بـدؤوا يسـألون: «مـا الإلـه الّـذي تُؤمـن بـه يـا أخـي؟». «الله الواحـدُ الأحـد. خالـقُ كلّ شيءٍ». «وهـل يـرى كلّ مـا يحصُـل معنـا ويسـمعه؟». «بالطّبـع يـا إخوتي؛ يـرى حتّـى مـا تُفكّـرون فيـه، ويسـمع مـا في الضّمـير، الله لا تأخـذه سِـنةٌ ولا نـوم». «فلـماذا يتركنـا في هـذا العـذاب؟ ألسْـنا خلقَـه؛ فلـماذا لا يُدافـع عنّـا. هـل هـو مسـرور لرؤيتنـا نمـوت؟». «إنّـه ابتِـلاء. وابتِـلاء الله لا أحـدَ يقـدر عـلى دفْعـه إذا نـزل». «فـماذا نفعـل إذًا؟». «نصـبر، وندعـوه». «ومـا نتيجـة صبرنـا». «الفـوز». «الفـوز؟ الفـوز بـماذا؟».

صـار لـديّ درسٌ إيمانيّ لهـم كلّ ليلـةٍ. أقـرأ عليهـم مـن القـرآن نحـوًا مـن سـاعة. بـدأت كلـمات الله تُعالِـج جروحَهـم. «ونُنـزِّلُ مـن القـرآن مـا هـو شِـفاء». بعضُهـم آمـنَ. وبعضُهـم اكتفـى بالسّـماع. وبعضُهـم انتحـى الزّاويـة الأبعـدَ في القبـو واستسـلم للنّـوم مُلقِيًـا كلّ مـا خلفَـه في جِرابـه.

قلـتُ لهـم: «هنـاك كلـماتٌ يُمكـن أنْ تمدّكـم بالصـبر والأمـل إنْ أنتـم قرأتموهـا في أوقـات الشّـدة». سـألني بعضُهـم: «سِـحر؟». أجبتُهـم:

«لا، بل هي كلمات الله». «تَعويذة؟». «ليستْ تمامًا، لكنْ يُمكن أنْ تُسمّوها كذلك». صمتوا، حَكّ بعضُهم ذقونهم، ونظَر بعضُهم إليّ بطرف عينَيه زاوِيًا فمه، تلهّف آخرون، طلبَ منّي عددٌ ثالثٌ بِشوقٍ: «فلتقلْها لنا إذًا». «لا يكفي أنْ أقولها، عليكم أنْ تردّدوها خلفي». «سنفعل». «ربّما لن تفهموا في البداية ما تعني، ولكنْ لا بأس، هل أنتم مستعدّون؟». «هَيّا يا أخي». في تلك اللّيلة قرأتُ لهم الفاتحة خمسين مرّة، رَدَّدوها خلفي آيةً آيةً حتّى حفظها المُردّدون عن ظَهْر قلب. للعربيّة سِحر؛ هل أحسّوا بهذا السّحر؟ لحروفها نَغَمٌ أخاذ؛ هل شعروا بهذا النّغم؟ العربيّة كلّها نَغَمٌ وسِحرٌ فكيف إذا كانتْ عربيّةَ القرآن، شرحتُها لهم في اللّيلة الثّانية، ووقفتُ مُجاهِرًا للصّلاة بها لأوّل مرّةٍ، ووقف معي أكثرُ من ثلاثين رجلاً. قلتُ لهم: «إنّها تعويذتكم، ستكون عونَكم في المحن الشّديدة». كانتْ هديّةً. هديّة ثمينة؛ هكذا قالوا لي.

كانت الفِئران قد بدأتْ تغزو مطبخ السّفينة، وتعبثُ بمحتوياتها، وكانتْ كبيرةً وجريئةً إلى الحدّ الّذي وجدَ فيه البَحّارون بعضَ الأواني مُنكفِئة، وأخرى ساقطة من أماكنها! محاولات السّادة البِيض في القَضاء عليها لم تُفلِح كثيرًا، قرّر القُبطان أنّنا نحنُ الزّنوج مصدر هذه الفِئران، وأنّها خَطَرٌ على السّفينة مثلَنا، وأنّنا جلبْناها معنا من أفريقيا، وأنّ القبو الّذي يعجّ بها هو مرتعها ومصدر تكاثُرها، فصار لا بُدّ من التّنظيف والاستِحمام. أكلتِ الفِئران طعام السّيّد الأبيض، نامتْ في أكياس المَؤونة، وعشّشتْ في كلّ ما هو قابلٌ للقَرْض.

«دواء الفِئران لن ينفع إذا قُمْنا برشّه أعلى موجودات السّفينة، يجب أنْ نبدأ من القاع، ثُمّ نصعدُ للأعلى. نظافة القاع نظافة الرأس». هكذا أمر القُبطان. كان رجلاً صارِمًا، وجهه صفيق، وساعِداه مفتولان، وعيناه خضراوان ضيّقتان، ولون بشرته أبيضُ شمعيّ، وكانتْ له حواجبُ رماديّة كَثّة، وبعضُ شَعَراتها يتهدّل على جفنَيه، وكان لا يخلع لِباسه الرّسميّ حتّى لو أوى إلى النّوم. وكان قليلَ الكلام.

أخرجونا في اليومِ العشرين لتنظيف القبو وللاستِحمام، كنتُ مع الّذين صعدوا أعلى السّفينة، وكان الاستِحمام يتمّ كما تمّ في السّابق، دلوٌ لكلّ ثلاثة. كان المنظر من فوقَ السّفينة مَهِيبًا. كُنّا ننظر مذهولين ومدهوشين إلى الماء. كان الماء يُغطّي الجِهاتِ كُلّها. لم يبدُ في الأفق موضعٌ خالٍ منه، ولم تكنْ هناك يابسةٌ قريبةٌ أو بعيدةٌ. ليس في البحرِ سِوى الماء. وليسَ في البحر سِوى البحر. وبدتْ سفينتنا الشّراعيّة الضّخمة نُقطة بيضاء تائهة في محيطٍ أزرق. وكانت السّفينة تتهادَى على وقعِ الرّياح على الأشرعة، وحركةِ الأمواج، فتتمايل في سيرها، كأنّها تُهدهِدنا، كان شعورًا طافِحًا بالسّعادة لنا، مضَينا نذرع سطح السّفينة وزَعَقات البِيض لا تكفّ، وهم يصرخون: «هَيّا... تقدّمْ إلى الماء...». نحنُ في الماء!

عندما اغتسلْتُ، لبستُ ثوبي سريعًا، نظرتُ إلى الشّمس، وإلى جهة الشّرق، إلى مكّة المُكرّمة توجّهتُ وبدأتُ أرفعُ الأذان... الصّوت الّذي أشتاقُه منذُ تلك الأيّام البعيدة في (تُوبا)، إنّه نِداء الله، النّداء الّذي تمرّ يدُه الدّافِئة على كلّ قلبٍ فتملؤه بالرّضا.

عندما أتممتُ: «الله أكبر... الله أكبر...» رأيتُ إنجليزيًّا يتوجّه بسِلاحه نحوي، رفعَ كَعْبَ بُندقيّته، توقّعتُ الأسوأ، وقدّرتُ أنّه سيهوي في أيّة لحظةٍ إمّا بالرّصاصة أو بكعب البندقيّة على صدري أو رأسي، كنُت قد بدأتُ في: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله...» فقرّرتُ ألا أتوقّف مهما كان الثّمن، زعقَ الإنجليزيّ آمِرًا إيّايَ بالتّوقف، لكنّ الحرفَ العربيّ، والصّوتَ النّديّ، واللّحن الشّجيّ، كان قد جذبَ القُبطان فيما يبدو، فبرز من قُمرته، بلباسه الرّسميّ، ومن خلفه عَلَمُ بلاده يخفق، لمحته بطرفِ عينيّ، أشار للأبيض أنْ يتراجع. شجّعني ذلك إلى أنْ أستمرّ. أكملتُ الأذان كامِلاً، والقُبطان يُصغي ويبتسم. شجّعني ذلك أكثر، فأقمتُ الصّلاة، وقف خلفي ما يقربُ من عشرين. وصلّينا صلاةَ الظّهر. لقد بدؤوا يعرفون الله أيّها السّادة.

القبو لا يكفّ عن أنْ يتحوّل بعدَ يومَين من تنظيفه إلى سطحٍ دبقٍ ولزجٍ وعَفِن، وتفوح منه روائح لا تُطاق. قررتُ أنْ أفعل شيئًا مِمّا كُنتُ أفعله في (توبا)، لقد لزمتُ تنظيف مسجدنا هناك أكثرَ من عشرةِ أعوامٍ متتابِعة، أفنعجز عن أنْ ننظّف نحن أنفُسنا. قلتُ لهم: «دينُنا يدعو إلى النّظافة. النّظافة من الإيمان. هذه الفِئران مع أنّها خَلْقُ الله، وقَدَر الله، لكنّها لا يُمكن أنْ تزيدَ بؤسَنا بؤسًا لو أنّنا حافظْنا على شيءٍ من النّظافة». قال لي مَنْ صاروا يثقون بي: «ماذا يُمكن أنْ نفعل؟». أجبتُ: «سنخصّص مكانًا واحِدًا لِقضاء الحاجة، وسنُهيّئه لذلك. نحن أقوياء. أجسادُنا رغم كلّ ما مررنا به ما زالتْ قادرةً على أنْ تعمل».

كسرْنا بعضَ الخشب النّاتئ من بعضِ الجدران، بخبرةِ بعضِ النّجارين الّذين كانوا يعملون في المدن السّاحليّة، استطَعْنا أنْ نُهيِّئ حمّامًا للرّجال وآخر للنّساء. بدا أنّ ما فعلْناه كان حُلُمًا. لو وجدتُ آذانًا صاغيةً لفعلتُ ذلك من البداية، كانت المشكلة في الثّقة. الآن يبدو أنّني حُزتُها. ظلّتِ الرّائحة تتجوّل في فضاء القبو، لكنْ قلّتْ إلى أقلّ حَدٍّ ممكن. الرّوائح تُسافِر، تذهب بعيدًا، تُغادر من خلال الشّقوق إلى الأعلى، حتّى لو لم تفعل ذلك، فإنّنا يُمكن أنْ نعتادَها مع الزّمن، لكنّ القذارة لا يُمكن أنْ تغادر، إنّها تلتصقُ بِك. لقد تخلّصْنا منها إلى أبعدِ حَدّ. صار هناك مكانٌ جيّدٌ للصّلاة. الصّلاة شِفاء. وصار هناك مكانٌ جيّدٌ لكي نقصّ الحكايات!

الحكايات؟ نعم. كان هذا وسيلةً مُترَفة لكي نقضي على الوقت الطّويل الّذي يقضي علينا هنا. بلهجاتنا، بلغاتنا المحلّية، كان يجلسُ في سط الدّائرة النّظيفة واحدٌ يقصّ حكايته، كانت الحكايات وسيلةً للتّخفّف من أعباء الحُزن، لكنّها كانت وسيلةً لتفتيق الجروح، بعضُنا آثَر الصّمت على أنْ يستعيد جِراحَه النّازفة.

أرخى القُبطان قبضته على مُمتلكاته البشريّة في القَبو، أو هكذا خُيّل إليّ. قلّ عددُ الفِئران، وقلّ الأكل المنخور، ونَظُفتِ الأمكنة، صِرْنا نخرجُ إلى السّطح كل ثلاثة أيّام أو أربعة، نحملُ بُرازَنا في كنيفٍ خشبيّ، ونرمي مُحتوياته في البحر، ونغسل الكنيف، ونعود به إلى القبو.

(٣٥)

تَفاءَلوا بالخيرِ تجدُوه

كيفَ يُمكن للإنسان أنْ ينسى الماضي؟ هل الماضي خَطّ في صفحةٍ بيضاء يُمكن أنْ يُمحَى؟ إنّ تذكّر الماضي مُتعِب، مُحزِن، وقادرٌ على إنهاكِك أكثر مِمّا هو قادرٌ على إنهاضِك! أنا لم أنسَ نظرةَ أختي الّتي مرّ عليها أكثر من خمسةٍ وعشرين عامًا حتّى أنسى نظرةَ أبي الّتي لم يمرّ عليها إلاّ بضعة شهور. كيفَ يُسقط واحدٌ حالمٌ مثلي هذه النّظرات من حِسابه؟ كيفَ ينظر إلى الأمام مُغلِقًا صفحة قلبه عن الماضي؟ صعب. بل مُستحيل.

في اللّيل حلمتُ (بأمارا)، حلمتُ أنّها استطاعت الإفلات من القتل، كانتْ غرفتنا هي الأقرب إلى السّاحة الّتي تفصلنا عن النّهر، رأيتُها تركضُ وهي تُمسِكَ ببطنها المُنتفخة، وتحاول جاهدةً أنْ تهربَ بأقصى طاقتِها لكنْ دون أنْ تُسبّب أذًى للطّفل الّذي في بطنها، كانتْ على وشكِ الولادة، سمعتُها تصرخ: «سيسقط هنا، لا... لا أستطيع الاستمرار، سوف ألِدُ في هذه السّاحة...!!». لجأتْ بسرعةٍ إلى ظلّ نخلةٍ، فجأةً ظهرتْ صورة مريم عليها السّلام إلى جانبها في الحلم، كانتْ مريم تمسحُ بيدها على جبين (أمارا)، تُشجّعها، تُهدّئ من رَوعها، وتقول لها ما قاله لها جبريل: «وهُزّي إليكِ بجِذع النّخلة تُساقط عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا». ابتسمتْ. هدأتْ.

ورأيتُ مريم عليها السّلام، تسقيها من ماء النّهر، كان النّهر في ذلك الحُلُم وادِعًا، ليس فيه صيّادون، وليس فيه تماسيح، ولا حتّى صخور. وكان ماؤه عذبًا جِدًّا، أو هكذا خُيّل إليّ. لكنْ في وسطِ هذا الهدوء الّذي أشاعتْه مريم عليها السّلام في روحي وفي روح (أمارا)، بدأتْ أصواتُ البرابرة والقَتَلة تأتي من بيتنا، خرجوا مع بنادقهم، وحينَ رأوا (أمارا)، تضع يديها على بطنها، والأخرى خلفَ ظهرها، وهي تتألّم، هَجَموا باتّجاهها، إنّها صيدٌ ثمينٌ كذلك، جحظتْ عينا (أمارا) عندما رأتْهم، تحاملتْ على نفسِها وهربتْ باتّجاه النّهر. كان النّهر فارِغًا، لم يكنْ على ضِفّته أيّ بشريّ، لقد هربوا جميعًا عندما علموا بهجوم البرابرة وجدّفوا بقواربهم بعيدًا عن المكان، كان الوقتُ فجرًا، وكانت النّجوم تتساقطُ على صفحة الماء، وكان الهدوء يلفّ النّهر. وقفتْ (أمارا) محتارةً ماذا تفعل؛ الماء من أمامها والبرابرة بأسلحتهم من خلفِها، فكّرتْ أن ترمي بنفسِها في الماء وتسبح، لكنّها لا تُجيد السّباحة، وستغرق، وسيغرق معها ابنُنا، إنّه انتحارٌ يقتلُ نفسَين معًا. تمنّتْ في تلك اللّحظة أن تذوب، أنْ تُصبح شيئًا غير مرئيّ. لكنّ ذلك لا يحدث حتّى في الأحلام. هتفتُ بها: «لا تفعلي، ستغرقين». فسمعتُها تردّ: «كلا، إنّ معي ربّي سيهدين». برزَ فجأةً زورقٌ لم يكنْ موجودًا على الضّفة، كانت الزّوارق منذ أكثر من ساعةٍ قد هربتْ جميعُها. كان زورقًا يتقلقل على الماء عندَ قدمَيها، ألقتْ نظرةً إليه، لم يكنْ فيه أحدٌ، هل يكون صاحبه قد غرق، أو قد هربَ سِباحةً أو يكونُ مختبِئًا في مكانٍ

ما؟! لكنّ الزّورق ظلّ يتأرجح كأنّما يحثّها على الإسراع في ركوبه، انحنتْ ببطنها المُنتفخة، وركبتْه، وراحتْ تُجدّف بكلّ قواها مبتعدةً عن الضفّة باتّجاه الضّفة الأخرى، كان البرابرة قد وصلوا. صاحوا: «توقّفي.. توقّفي..». لكنّها بذلتْ كلّ قواها في التّجديف، واتّجهتْ بالزّورق خلفَ شُجيرات نابتات في وسط النّهر. وجّه أوّل البرابرة بندقيّته إلى رأسِها، وأطلقَ رصاصته وهو لا يزال يصرخ ويلهث: «توقّفي». شعرتُ بأنّه أطلقَ الرّصاصة نحوي، وأنّها قد أصابتْني، دوّى صوتُ الرّصاصة، وشقّ الماء، لكنّ القارب كان قد نجا هو و(أمارا) مُلتفًّا في تلك اللّحظات خلفَ تلك الشّجيرات المائيّة، ومُختفِيًا عن الأنظار. ثُمّ سكَنَت الأصواتُ كلّها للحظات. بكيتُ من الفرحة، لقد نجتْ (أمارا) إذًا... ثُمّ، ها هي، نعم رأيتُها تتابعُ طريقَها إلى الضّفة الأخرى، كان صوتُ الطّلقات على ضفّة النّهر القريب من بيتنا لا يزال يُسمَع، والنّيران الّتي تلتهم أجزاء كبيرة من البيت لا تزال تُرى. تركت (أمارا) الزّورق على الضّفة الثّانية، ونجتْ بنفسِها، وكافحتْ من أجل أنْ تبتعد في الأدغال أكبر مسافةٍ ممكنة، أوتْ إلى نخلةٍ جديدةٍ، وظهرتْ لها مريم من جديد، وقامتْ هذه المرّة بمساعدتها على الولادة، وفجأة... سمعتُه؛ نعم، سمعتُ ذلك الصّوت الّذي عشتُ زمنًا طويلاً أنتظر سَماعه، إنّه بُكاء طفلي، ابني الّذي وُلِدَ للتّو... لقد ولدتْ (أمارا) ابنَنا الجميل، تناولتْه مريم من تحتها، ولفّته بشالٍ كانتْ تضعه على كتفيها، وباركَتْه... وفجأةً سمعتُ صراخًا عاليًا يتردّد في أذني، وضربةً شديدةً في بطني،

صحوتُ من الصّوت والألم مفزوعًا، ومع شدّة الألم، إلاّ أنّني صحوتُ من الحلم وأنا أبتسم؛ فلقد تلقّيتُ البُشرى بولادة زوجتي قبل قليل...!!

كان الصّوت المُفزِع لأحدنا الّذي تركَ رجلَيه تهويان في وادي الجنون، الكلمات وحدها لا تكفي لكي تُبرِّئنا من الجنون الّذي يسقطُ فيه بعضُنا.. وعلى عادة الإنجليز كلّما سمعوا صوتًا عاليًا ومُستمرًّا كهذا... وضربًا على الجدران بقبضة اليدَين والرّجلَين، وخَبطًا بالرأس على سقف القبو - أنْ يفتحوا الفتحة العُلويّة، ويمدّوا فوهة البندقيّة وتبدأ تهديداتهم. قال المُسلّح: «إلى الفتحة أيّها الزّنجي الدّابّة». سارَ طوعًا هذه المرّة، لم يدفعه أحدٌ، يبدو أنّه لم يكتفِ بالجنون، بل يريدُ الموت، عَمّر الإنجليزيّ البندقيّة، وهَمّ أنْ يُطلق رصاصته في وجه أخينا، لكنّني سارعتُ بالوقوف في مركز الفتحة، وإرجاع المجنون وحمايته خلفَ ظهري، وقلتُ كلمة واحدةً بالإنجليزيّة: «نحنُ آسِفون» تعلّمْتُها مؤخّرًا. ثُمّ تابعتُ بالإشارة إلى عقلي: «أنّ هذا الزّنجيّ مجنون»، وبإشارةٍ أخرى لنا، ثُمّ إلى فَمي، وسحبِ كَفَّيَّ على فَمي بـ: «أنّنا سنخرس جميعًا بعد الآن». تراجع الإنجليزيّ إلى الوراء، وأعادَ إغلاق غِطاء الفتحة. روحٌ أخرى لم تذهبْ هدرًا!

قلتُ للنّسّاخ: «لقد ولدتْ زوجتي ابنَنا». «أنت متزوّج؟». «مِن خمسِ سنواتٍ خلتْ». «ومتى ولدتْ امرأتُك؟». «اللّيلة». نظرَ إليّ شاكًّا، ظنّ أنّني التحقتُ بقافلة المجانين: «كيفَ عرفتَ؟ مَنْ أخبرك؟». «رأيتُها في الحلم». «في الحلم؟». «نعم». «الأحلام!!». «لقد

رأيتها. لم يكذبْ حلمٌ واحدٌ رأيتُه». «يا أخي... يا عمر، لو كان أبوكَ حَيًّا لَمَا رَضِي لك هذا؟». «لو كان أبي حَيًّا فلن تكون سعادَته أقلّ من سَعادتي». وتنهّد النّسّاخ، وحدّق بعيدًا عنّي، وكأنّه يريدُ أنْ يقول: «لماذا عَلَيّ أنْ أستمع إلى المجانين؟». أردفتُ: «وسأُسمّيه على اسم أبي كما اتّفقتُ معها قبل أنْ يأسروني». «سيّد؟». «نعم، سيّد بن عمر بن سيّد الفُوتي». «جميل، ابنُك، وأنت حُرٌّ به». «وسأقوم بطقوس تسميته كما وعدتُ أُمّي». ووقفتُ مادًّا ذراعيّ في إلى الأعلى فارتطمَ رأسي بالقَبو. وضحكتُ، وتابعتُ: «سأفعل ذلك في أوّل مرّةٍ نخرجُ فيها إلى سطح السّفينة». ردّ بيأس: «لن يخرجونا قبلَ أنْ تمرّ عشرة أيّام على الأقلّ». «بلى، سيخرجوننا من أجل تنظيف الكنيف، أنسيت؟».

مرّتْ ليلةٌ واحدة. كُنّا نيامًا، نغرقُ في بحورٍ من الهذيانات المُختلفة المُختلطة. تداخلتْ أحلامُنا، مع آمالِنا، وعرجَتْ بها آلامُنا، وألقتْ بها وبنا في أتونِ الانتِظار والمجهول والبُؤس.

كانت السّفينة تتأرجح، أصواتُ ريحٍ عاصِفة تتناهَى إلى مسامعنا من خلال شقوق الفتحات الثّلاث، وماء يتراشَق داخل القبو، صحا النّسّاخ، بخبرته قال: «إنّها عاصفة مَطَريّة شديدة، وستؤدّي إلى كوارث، وستُلحق بالسّفينة كثيرًا من الخسائر». وأردف: «إذا كُنّا نحن في القبو نشعر باضطراب السّفينة، وهو المكان الأقلّ للشّعور بذلك لأنّه الأكثر ثباتًا، فكيفَ يشعر مَنْ على سَطح السّفينة أو الّذي في قُمَر النّوم؟». مرّتْ لحَظَات عصيبةٌ قبل أنْ يفتح الإنجليز الغِطاء الذي فوق فتحة الدّرج، ونظرتُ إلى النّسّاخ مُعاتِبًا: «ها هو

الفَرَج قد أتى... لا تُفتَح هذه الطّاقة إلاّ للطّعام أو الاستِحمام، أو لأمرٍ فيه خيرٌ لنا... ألم أقلْ لك؟!». نظَر إليّ النّسّاخ، ورأيتُ الخوفَ في عينَيه، كان يبلع رِيقَه ويقول: «أينَ الخير والعاصفة تكادُ تمزّق الأشرعة وتكسر الصّواري؟». «يا أخي لا تكنْ متشائِمًا دائِمًا. تفاءلوا بالخير تجدوه». اخترقتْني نظَراتُه المرعوبة هذه المرّة.

كانَ زعيق الإنجليز قد بدأ ينهال علينا: «اخرجوا... هيّا... إلى السّطح...». قادونا بالسّلاسل الطّويلة، وهم لا يزالون يزعقون: «هَيّا بسرعة... بسرعة...». قال لي النّسّاخ الّذي كان يليني في السّلسلة: «إنّهم سيُضحّون بنا». أشرتُ بيدي له أنْ يصمت: «أنا سأقوم بطقوس تسمية ابني».

عندما صرنا فوق السّطح، كان المنظر مُرعِبًا بالفعل، كان البحر هائِجًا، وكانت السّماء غاضبةً، والأمواج عاليةٌ، تكاد ترتفعُ أعلى من شِراع السّفينة، كانت الأمواج بالفعل جِبالاً من الماء، وكانت تدور حول مركزها، وتعلو إلى قِمّتها، ثُمّ تهوي، فيهوي جزءٌ منها على سطح سفينتنا، فيفيضُ السّطح بالماء، والسّفينة تتأرجح كأنّها ورقةٌ يابسة يحرّكها صبيّ لا يدري إلى أيّ جهة. وتملّكنا الرُّعب كما تملّك البَحّارة، ومع هذا فقد جاهدتُ أنْ أخلعَ قميصي، وألفّه كأنّه خرقةٌ في داخلها صَبيّ، ورفعتُ يدَيّ بقدر ما أستطيع رغم السّلاسل الّتي كانتْ فيهما، وهتفت: «يا ربّ، هذا ابني وهبتُه لخِدمتك، وقد سمّيتُه سيّد... وأنا أبوه... أنا عمر بن سيّد الفُوتي». وكانت الأمطار تضربُ وجوهنا وأجسادَنا، وتنزل كأنّها كتلٌ مصبوبة لا قطرات،

وراح الإنجليز، يصرخون: «هَيّا أيّها الأوغاد.. بسرعة.. بسرعة...». والرّيح تصفعنا بالمطر فنُغلِق عيوننا ولا نكادُ نرى. ودفعوا السّلسلة الّتي صارَ فيها أكثر من أربعينَ زِنجيًّا إلى وسط الجانب الأيمن من السّفينة، وهمسَ النّسّاخُ في أذني: «اطلبْ رحمته؛ فإنّنا سنموت في لَحَظات». كانت كلماته ترتجف لا هو، وسألتُه هذه المرّة، وقد تسلّل إليّ رُعبُه: «ماذا سيفعلون؟!». وردّ: «إنّ جُوالات الذّرة، وصناديق الخمر، بل والحِبال الّتي على هذه السّفينة أثمن منّا». وسمعتُ القُبطان الرّحيم، يأمر أحَدَ بَحّارته: «أزل القاطع الخشبيّ الآن... هَيّا». وسحَب عتَلةً في وسط القاطِع الخشبيّ، وأرجعها إلى الخلف، فانزاح معه جانبٌ من خشب السّفينة بطول ذراعَين. وصاحَ القُبطان من جديد: «الآنَ هَيّا ألقوهم». ودفَعَ اثنان من الإنجليز الزّنجيّ الّذي يقف في مقدّمة السّلسلة، فهوى في الماء مُقيّد اليدَين والرّجلَين، وسحَبَ بِثقله الّذي خلفَه، وصارَ السّحبُ أقوى وأسرع بسبب الثّقل المُتزايد مع كلّ جسدٍ يهوي، وبدأنا نتساقطُ كُتَلاً لحميّة في لُبّ الموت، وكان الرّعب يملأ عيونَنا، ورُحنا نصرخ: «الرّحمة... الرّحمة...». وسمعتُ النّسّاخ، يقول: «رحمَتَكَ يا ربّ». وسمعتُه يتشهّد، وهوى أمامي، وهوى إنجليزيّ كان يقف عندَ القاطِع على السّلسلة الّتي تشدّنا بالبلطة فقطَعها، وكان بيني وبين الموت شَعرة، ونجوتُ، ولم أُفِق من الصّدمة، ولم أستوعبْ ما حدث، لقد ابتلع الموت الفاغر فاه صديقي النّسّاخ، وقرّر القُبطان أنْ يُغلقَ فمه عندما صرتُ لقمةً بين أشداقِه. كان قَطْعُ السّلسلة هو وصل الخيط مع

الحياة بالنّسبة لي، لقد قال لهم القُبطان: «ألقُوا عشرين زنجيًّا». كان رقمي هو الواحد والعشرين.

عادَ مَنْ نجا من الموت إلى القَبو. كنتُ أستعيدُ المشهد غيرَ مُصدّق. كان بيني وبين الموت لحظةٌ فارقة، هي لحظةُ ضربةِ الإنجليزيّ بالبلطة على السّلسلة الّتي لا تزيدُ عن ذراع، والّتي تربطُ بينَ قدمَي الزنّجي وقدَمي الّذي يليه. كانتْ ضربةَ الحياة، لكنّها كانت الضّربة الّتي أقفلتْ كذلك باب الموت على صديقي، وأقفلتْه في وجهي. بكيتُ يومَها طويلاً. لم أستطعْ أنْ أنام، ولم يستطعْ أحدٌ منّا أنْ ينام، ظلّتْ صُورهم وهم يغوصون في شِدق الماء تخطر على بالي، وكانت تُلجِئني في اللّيل إلى هَذَيانات محمومة، احتجتُ إلى وقتٍ طويل لكي أُشفَى من تبعاتها.

استمرّت السّماء في غَضبِها ثلاثة أيّام، لم يهدأ سطحُ السّفينة، ولم تتوقّف الرّياح عن العُواء. ثُمّ أشرقت الشّمسُ في اليوم الرّابع. وهدأتِ الأمواج، وعادَت الحياة لتنظّف بمِكنستها القويّة مُخلّفات الموت الهارب.

(٣٦)

وَبَشِّرِ الصَّابِرِين

إنّه اليوم الثّلاثون لإبحارنا من بيت العبيد في السّاحل الإفريقيّ الغربيّ إلى العالَم الجديد. لقد أرخوا القبضة الشّديدة المُحكَمَة علينا قليلاً، صِرنا نصعد إلى أعلى السّفينة مرّةً كلّ يومَين. صار تنظيفُ القبو سَهلاً ومُمكِنًا. كُنّا نرمي قذاراتنا في البحر، لكنْ قبل أنْ تتجمّع كثيرًا وتُصبح روائحها لا تُطاق. لقد ابتلع البحر كثيرًا مِنّا، لم أرَه يبكي مرّة، ولا يأسَى على إخوتنا الّذين صاروا في جَوفِه، أينَ يمكن أنْ يكونوا قد استقرّوا؟ كم استغرقهم الوقت حتّى يصلوا من سطح الماء حيثُ رُمُوا إلى قاع هذا البحر الكبير، ويغوصوا في رماله، أو يتحوّلوا إلى جزءٍ متحجّرٍ من صخوره؟!

لا زلتُ أرى يدَي النّسّاخ، وهما ممدوتان نحوي، كان أخي يهوي على بطنه برجلَيه أوّلاً، مَدّ يدَيه، وهو يستغيث، لكنّني كنتُ على حافّة الموت مِثله، كيفَ يُنقِذُ مَنْ هو في يدِ الموت إنسانًا آخر يهمّ الموت ذاته في ابتِلاعه.

انشقّ الماء أوّل ما سقطَ فيه النّسّاخ، كنتُ لا أزال أراه، من موقعي هذا كنتُ أرى الزّبد الّذي خَلّفه سقوطه في الماء في شِبه دائرة، ثُمّ بقبقة الماء وهي تُتمّ عمليّة ازدِراده، لم يكنْ البحر يعلم

أنّـه ابتلـع أشـهر النّسّـاخين في الغـرب الإفريقـيّ كلّـه، أولئـك الّذيـن خَطّـتْ أصابعُهـم المصاحـفَ الشّريفـة، ونمّقـتْ زخرفـةَ الآيـات القرآنيّـة الكريمـة.

لم أنـمْ ليلـة الإسـقاط، فكّـرتُ طَـوال اللّيـل كيـفَ قَضى الّذيـن رُمُـوا في البحـر دقائقَهـم ولَحَظاتِهـم الأخـيرة، كيـفَ أحسّـوا، كيـفَ بـدؤوا يموتـون، لا بـدّ أنّهـم في البدايـة شـعروا بخبطـة أجسـادهم في المـاء، كأنَّ لحَمَهـم تشَقّق، ثُـمّ حاولـوا بأيديهـم السّباحة وإنقـاذ أنفسـهم، ولكـنّ الحديـد والأجسـادَ المتابعـة في السّقوط جذبتْهـم إلى الأسـفل، ثُـمّ هـا هـو صديقـي النّسّـاخ، يخبـط بيدَيـه المـاء مـن حولـه، لكـنّ الكُـرات المعدنيّـة والسّلاسـل الثّقيلـة وأجسـاد مَـنْ سَـبقُوه تشـدّه إلى الأسـفل فيغـوص، يُصبـح تحـت سـطح المـاء بعـشرة أذرع في أقـلّ مـن لَحَظـات، ثُـمّ تبـدأ فُقاعـات المـاء تخـرج مـن أنفـه وفمـه في محاولـةٍ للتنفّـس، لكـنّ المـاء يدخـل في فمـه، فيبـدأ الاختِنـاق، ثُـمّ هـو مـن الرّعـب يفتـح عينَيـه، فـلا يـرى سِـوى المـوت، وينظـر أسـفلَه، فـيرى أخـاه الّـذي قبلـه يأخـذه معـه بعيـدًا في هـذا المـوت، ثُـمّ يَضيقُ النّفـس، وتتصاعـدَ الفُقاعـات إلى الأعـلى، ويـزداد الاختنـاق، وتبـدأ الـرّوح تُغالـب الجسـد في الخـروج، لكنّهـا غاليـة لا تخـرج بسـهولة، ثُـمّ تبـدأ مُحاولات مُسـتميتة مـن الرَّفـس والخَبْـط، لكنّهـا يائسـة، ثُـمّ الاستِسـلام للمـوت الّـذي لا يسـتطيع أحدٌ الصّمـود أمامـه طويـلاً، ثُـمّ هـا هـم يرحلـون جميعًـا في سلسـلةٍ واحـدةٍ، كلّ سـابقٍ قـدّمَ اللاّحـق للمـوت الّـذي ابتلعهـم تِباعًـا، ولم يُفلِـتْ منهـم أحـدًا!

بعدَ ليلتَين من تلك الحادثة، اقتربَ منّي أحدُ الإخوة الّذين وثقوا بي. كان مُؤمنًا، عَزّاني باللّهجة المحلّيّة عن موتِ النَّسّاخ، وعن موتِنا جميعًا. وقال لي، وهو يشير إلى النّساء: «لقد ألقَوا منهنّ سبعًا». أسندَ جِذعه إلى جانبي إلى جدار القبو، كانت القيود تصلصل في قدَمَيه، صمَتَ للحظات، قبل أنْ يدور بجذعه نحوي ويعتنقني، ويبدأ بالبُكاء، وهو يقول: «لماذا يحدثُ معنا كلّ هذا؟». لم أجدْ لديّ إجابة، كنتُ أريدُ أنْ أقول: «إنّها الأقدار». لكنّني لم أستطعْ نُطقَها، كنتُ أريدُ أنْ أستمرّ في عِظتي السّابقة، فأقول: «كلّ شيءٍ يحدثُ لحكمة» لكنّني أيضًا جَبُنْتُ عن التّلفّظ بها، كنتُ أريدُ أنْ أقول له: «لا شيء يُمكن أنْ يوقِفَ الموت إذا جاء، ولا قُوّة تستطيع أنْ تَصرِفَ وجهه عنكَ إذا قرّر أنْ ينظرَ في عينَيك». قلتُ بعدَ فترةٍ من البُكاء المُشتَرَك: «ليس لدينا خيار، ماذا كان يُمكن أنْ نفعل؟». نظَرَ إليّ، وصافحني وهو يحاول أنْ يُوقِفَ دموعه: «أنا مختار... أنا مُسلِمٌ... وكنتُ أعمل في السّاحل، يمكنني أنْ أُعلِّمَك الإنجليزيّة، فأنا أعرفها جَيّدًا». شددتُ على يده، وقلتُ: «وأنا عمر، أنا مُسلِمٌ تعلّمتُ في توبا علوم العربيّة والدّين خمسةً وعشرين عامًا، وأستطيع أنْ أعلّمك العربيّة». تعانقْنا بعدَها، صار لدينا هدفٌ جديد.

كان (مختار) يعلّمني معاني الأدوات والأشياء والموجودات، مفردةً مفردة، معنى القُبطان، والسّفينة، والشّراع، والبحر، والماء، ... وغيرها، وعلّمني كذلك معنى السّوط والبندقيّة والحبال والقيود والحديد،... وغيرها، ثُمّ علّمني معنى الكأس والطّاولة والصّحن،

والخُبز، والحساء، ... وغيرها. ولأنّني كنتُ أحفظُ بسرعةٍ فلم يأخذ تعليمي الكلمات المُفردة أكثر من ثلاثة أيّام، ثُمّ بدأ يعلّمني نُطقَ الجُمل والتّراكيب، وصرتُ أستطيع ببعضِ الرّبط أنْ أخاطبه بالإنجليزيّة بشيءٍ من اليُسر. كُنّا نقسم النّهار نِصفَين، أعلّمه العربيّة، ويعلّمني الإنجليزيّة، بالطّبع لم يكنْ لدينا لا رقوق، ولا أقلام، ولا حبر، ولا رِيَش، كلّ ما كان لدينا هو ذاكرتنا، ولقد كانتْ قويّة جِدًّا في ظلام القبو، لدرجة أنّنا تعلّمْنا بسرعة!

اتّخَذْنا بعد أسبوعٍ أنا ومختار قلمًا خاصًّا. الأفكار في الظّلام أيضًا تكون مُضيئة. استطعْنا فَكّ زردَتين من سلسلة القيود، واحدة لي وأخرى له، وفردْناها فصارت بطول أصبع أو أطول قليلاً، وصِرنا نستخدمها لحفر الحروف العربيّة والإنجليزيّة على خشب القاع في القبو أو السقف أو الجدران، فإنّها جميعها كانتْ في مُتناوَل اليد.

صِرْنا نكتبُ جُملاً. علّمْتُه بعضَ السّور. في درسي المسائيّ، كنتُ أقرأ عليهم جميعًا من القرآن، لكنّني مع (مختار) كنتُ أستمرّ معه في القراءة وحده، كان له هذا الاستثناء لأنّه جعلني استِثناءً أيضًا حينَ بادرَ إلى تعليمي اللّغة الإنجليزيّة. لم يبدُ الأمر بهذا السّوء، لا أدري إنْ كان ذلك حَقًّا، أم لأنّنا اعتدْنا ما نحنُ فيه، فصرنا نخترقُ هذا السّواد القاتم ببعضِ هذه الأنشطة الّتي تنشّط القلبَ والعقل، وتُفتّتُ الزّمن الّذي يبدو أصلدَ من الكُرات المعدنيّة الّتي كانوا يربِطون بها أرجلنا.

بدأنا نحفرُ بعضَ الآيات بقلم الزّرد الّذي اخترعناه، قلتُ له: «حروف القرآن مُقدّسة، ومُبجّلة، ومُنزّهة، ولذا يجب ألاّ نحفرها على أرضيّة القبو حيثُ تدوسُ أقدامنا وحيثُ تتجوّل الفِئران بِحُرّيّة، يُمكننا أنْ ننقشها على أعلى الجدران الخشبيّة أو على سقف القبو. أعجبتْه الفِكرة، نقشتُ أنا على الجدار بخطّ عربيّ جميل تدرّبتُ عليه كثيرًا في (تُوبا)، قوله: «واصبِرْ وما صبرُكَ إلاّ بالله». وأفهمْتُه معناها. ثُمّ نقشَ هو بعدَ ذلك: «وبشّرِ الصّابرين». وأفهمْتُه معناها. أعجَبَه ذلك، صارت الجُدران والسّقف ألواحًا للكتابة، جذب هذا كثيرين هنا، سألوا: «كيفَ نكتبُ مثلكم؟».

خرجْنا إلى السّطح في اليوم الخامس والثّلاثين لإبحارنا من السّاحل الغربيّ. قلتُ لمختار: «يُفترَض أنْ نعدّ الأيّام الّتي نقضيها في البحر، لا أحدَ يدري ماذا يحدث؟ على الإنسان أن يعدّ أيّامه ويُحسِنَ فيها عَمَلَه قبل أنْ تنفلتَ من بينِ يدَيه. هل رأيتَ أولئك الإنجليز المُسلّحين، إنّنا أحسنُ حالاً منهم، هم ينتظرون أنْ يحصلوا على أجورهم في الدّنيا، ونحن لا ننتظر. هم يحرسوننا خائفين مِنّا، ونحن لا نُفكّر بالحراسة. نعم قد يُخيفنا السّوط، والبندقيّة، لكنّنا أحرارٌ أكثر منهم!». تبسّم: «هل تعلّمْتَ هذا كلّه في تُوبا؟». «آه يا صديقي، لو أردتُ أنْ أحدّثكَ عن توبا كلّ يومٍ فلن أتوقّف قبل عامٍ كامل». ضحك: «حدّثْنا ما دمنا أحياء».

اقتربْتُ من إنجليزيّ يقف متأهّبًا عند الدّرج الّذي يُوصل إلى قُمرة القِيادة، وألقيتُ عليه التّحيّة بالإنجليزيّة الّتي تعلّمْتُها:

«مرحبًا». نَظَر إليّ مُحدِّقًا عينيه غيرَ مُصدّق، لكنّني أتبعتُها بقولي: «نحن شُركاء على هذه السّفينة» بالإنجليزيّة أيضًا، ازدراني هذه المرّة، وكادَ يبصُق على الأرض، لولا أنّني غادرت وأنا أقول له بالإنجليزيّة أيضًا: «طابَ وقتُك!».

جَمعونا هذه المرّة في صباح اليوم التّاسع والثلاثين من إبحارنا، كان يومًا مُشمِسًا ودافِئًا، والهواء يهبّ عليلاً، وكان البحر لا يزال يُحيطُ بالسّفينة من كلّ جهة. فهمتُ أنّه لم يبقَ لنا الكثير حتّى نصلَ إلى ميناء (تشارلستون) في العالَم الجديد، وأنّهم يُحسِنون معاملتنا لأنّهم يريدون أنْ يصل العدد المتبقّي مِنّا إلى الميناء بأحسنِ صحّة جسديّة من أجل إتمام الصّفقات مع المزادات والتُّجّار الّذين ينتظرون سفينتنا منذُ أسابيع.

وزّعوا علينا طعامًا جيّدًا ونحن في أعلى السّفينة، فأكلْنا بشهيّة كبيرة، واستمتعنا بسماء أجمل، وشمسٍ أروع. كُنّا جميعًا جلوسًا على الأرض، عندما بدأ القُبطان يُصدِر أوامره بالإنجليزيّة إلى بَحّارته وجنوده، من أجل إثبات أسمائنا وأوصافنا في دفتر العبيد، كانت الأوراق تبدو من هنا بينَ يدَي القُبطان، وقد أحضروا له طاولةٍ، وبدأ بتسجيلنا واحِدًا واحِدًا. قَسمها بخطٍّ دقيقٍ إلى نصفين أو عمودَين، وكلّ نصفٍ في أربعة أعمدة، عمودٌ عريضٌ للاسم الثلاثيّ، وثلاثة أعمدة ضيّقة كلّ عمودٍ بعرض الإبهام لصفات الطّول والوزن والعلامة الفارقة. وقد رأيتُ ذلك في يدِ أحدِ البَحّارة، فقد وزّع القُبطان هذه الأوراق على عددٍ منهم كي يقوم كلّ واحدٍ بتسجيل الصّفّ المُوكّل به. وكان البَحّارة يتوقّفون عند كلّ واحدٍ مِنّا، ويُعاينوننا لإثبات صِفاتنا بشكلٍ دقيق في الدّفتر!!

استمرّ تسجيلُنا حتّى وقتِ الزّوال، وبدأت الشّمس ترحل جهة الغرب، وقد أعلنَ القُبطان في نهاية الأمر أنّنا ثلاثمئةٍ وأربعٌ وثمانون قِطعةً كما سمّانا بالإنجليزيّة، ثُمّ فَصّل لبحّارته أعدادَنا من الرّجال والنّساء والأطفال، كلٌّ على حِدة!

نزلْنا إلى القبو، حلّ الظّلام. صعدْنا رأينا الله. نزلْنا حلّ الظّلام ورأينا الله. بقينا نصعد في الصّباح، وننزل في المساء، ونأكل طعامًا ساخِنًا وجيّدًا إذا ما قورنَ بما كُنّا نأكله في السّابق، وكُنّا نُساقَ إلى مصيرنا. ولم أرَ البحر في صعودنا ونزولنا يحكي لنا قِصّة، أو يعتذر عمّن ابتلعهم، أو يشعر بنا مرّة، أو يقول لنا: «تُصبِحون على خير!».

(٣٧)

في العالَم الجديد

«إذا كانوا يفعلون بنا هذا ونحن هنا، فماذا سيفعلون بنا في (تشارلستون)؟». قلتُ لمختار. ردّ: «لا تتفاءلْ كثيرًا». «أليسَ بعد الموت مُصيبة». قلتُ. ضحك: «الموت لا يشبع». «لا تقلق، لن يأكل إلاّ الثمرة الّتي حان قِطافُها». «وما أدراك أنّه حانَ قِطافُنا؟». «إذا حان قِطافُنا فلن ينفع الحذر، سيأكل ثمرتَنا ونحن ننظر إليه، لن ينفع إلاّ التّسليم، ورحمة الله واسعة».

في اليوم الثّاني والأربعين من رحيلنا عن ذلك الغرب الإفريقيّ الجميل من ديارٍ ما نُحبّ لها مغنى، إلى ديار لا نعرفُ لها معنى، بدتْ من بُعدٍ في الأفق الغربيّ سواحل (تشارلستون)، عرفْنا أنّنا سنصل إلى الميناء غدًا، اليوم الثّالث والأربعين في الضّحى. وأنّنا سننزلُ في الميناء المُقام على تقاطع نَهرَي (أشلي) و(كُوبر). من هنا، من هذا البُعد، كانت الأشرعة البيضاء تبدو كما لو كانتْ حماماتٍ ترفرف في مكانها، لم يظهرْ لنا غير هذه الأشرعة، يبدو أنّنا - كما قالوا - نحتاج إلى يومٍ كاملٍ لنصل إلى السّاحل.

ربطونا في السّلاسل، كان السّادة البِيض مُبتهجين ومُهتاجين، سمعتُ أحدهم يقول: «لم نخسر أكثر من ثلاثين عبدًا، هذه المرّة حافظنْا على البضاعة بشكلٍ كبير، أظنّ أنّه أقلّ عدد نفقده في تجارتنا منذ عشرة أعوام!».

رَسَتِ السّفينة في الميناء، حَظينا بصباحٍ مُشرِق، وبطعامٍ هَنِيّ، كانتْ هناك حركة دائبة على الميناء، كان يعجّ بالسّفن، والملاّحين، والسّادة التُّجّار، وكانت السّماء صافية، والبحر وادِعًا، وزرقته مُغرِية، كان يبدو أنّنا مُقبِلون على يومٍ جيّد.

كانت أرجلُنا وأيدينا مُقيّدةً بالسّلاسل نحن الرّجال، وتجمعنا سلسلةٌ ثالثة، الأطفال كانوا في أحضان أمّهاتهم، بعضُهم رُبِطَ إلى أمّه وسار أمامها، وأُخرَيات رُبِطْنَ من أقدامهنّ فحسب. سِرْنا في موكبٍ واحدٍ، كانت هناك أبواقٌ تصدح على الميناء، وثيابٌ بيضاء وصفراء وزرقاء فاتحة تلمع على الأجساد الإنجليزيّة، قال أحدهم بالإنجليزيّة للسّيّد الّذي كان يسوقُنا: «مرحبًا بكم في العالَمِ الجديد. الولاية كلّها تضجّ بالحياة وبالنّساء وبالمرح... مرحبًا». فردّ عليه السّيّد، وهو يرفعُ له قُبّعته: «مَرحى... مرحى...».

ظللْنا سائرين تحتَ حراسة بنادق الرّجال البِيض حتّى نزلْنا من السّفينة، على الميناء من بعيدٍ، رأيتُ نساءً شقراوات يُلوّحْنَ بمناديل حريريّة بيضاء، وكُنّ يتحرّكْنَ باضطرابٍ وابتِهاج. لم يكنّ يلوّحْنَ لنا بالطّبع، بل لأزواجهنّ الّذين غيّبهم البحثُ عن السُّود البغيضين أمثالَنا عامًا كامِلاً!

جمعونا على أرضيّة المِيناء، سمعْنا أصواتًا تهتف: «إنّهم عددٌ كبير، لا بُدّ أنْ تعثر على مُرادِك فيهم». «لم أرَ مثل هذا العدد من قبل!». «النّساء.. انظر إلى هؤلاء الزّنجيّات، إنّهنّ يحظَين بمؤخّرات رائعة».

واستمرّ اللّغط، بينما راحتْ عُيُوني تتفحّص الوجوه والأمكنة. ولم أشعرْ بشيءٍ، فقط قليلٍ من التّوجّس والرّيبة.

دَفَعونا - سائرين على الأقدام من الميناء - حتّى وصلْنا إلى كوخٍ كبيرٍ، وقفَ أوّلنا على بابه، ومعه القُبطان، أظهر للقائم على مدخل الكوخ دفتر العبيد، وقال: «إنّهم مُسجّلون بالكامل هنا، مئتان وثلاثةٌ وعشرون رجلاً، ومئةٌ وستٌّ وثلاثون امرأةً وخمسةٌ وعشرون طِفلاً». هَزّ رأسه مُتعجّبًا: «إنّها بِضاعةٌ كبيرة، لا يُمكن أنْ نبيعها في يوم، ربّما نحتاج إلى ثلاثة أيّام». ردّ القُبطان، وهو يضع إبهامَيه في وسط الحزام الّذي يتمنطق به»: «لستُ مُستعجِلاً، سأُقيم على الأقلّ أسبوعًا في (تشارلستون) قبل أنْ أرتحل».

دُفِعنا واحِدًا واحِدًا إلى داخل الكوخ الكبير، وكان هناك ثلاثةٌ يتأكّدون من عددنا المُسجّل في الدّفتر ومن أوصافنا. أتممنا في فترةٍ وجيزةٍ الدّخول وأُغلِقَ علينا الباب من الخارج، كان الكوخ خِلْوًا إلاّ من بعضِ الصّناديق الفارغة المُتوزّعة على الأطراف، وبعضُ التّبن أو الحشائش اليابسة الّتي تُستَخدم علفًا للدّواب كما يبدو، نظرنا في وجوه بعضِنا، كُنّا نريدُ أنْ نقول: «ماذا سيفعلون بنا؟». لكنّنا اكتفينا بالنّظرات، أرادَ بعضُنا أنْ يرحّب بإخوته، أنْ يقول لهم كلمةً تُطمئنهم، أنْ يقول أيّ شيءٍ، لكنّ الدّهشة والاستِغراب، واغتِراف العَين من المكان الجديد الّذي دُفِعنا إليه، كانتْ كُلُّها تدفعنا إلى الصّمت.

أجلتُ عيني في الأنحاء، كان هناك على الباب من الخارج عَلَمٌ يرفرف، عرفتُ أنّه علم أمريكا، عَلَم العالَم الجديد، كان مكوّنًا من اللّونين الأبيض والأحمر في خطوط مُستطيلة متساوية، كان عددها ثلاثة عشر مستطيلاً، ويُغطّي الجزء الأعلى الأيسر منه مُستطيلٌ أزرق صغير مليءٌ بالنّجوم. رأيتُه من هنا من خلال النّافذة بعد أنْ صعدتُ فوق أحد الصّناديق الخشبيّة. وكانت الشّبابيك مستطيلة لكّن ارتفاعها أكبر من عرضها، وكانت زُجاجيّة محميّة بمربّعات خشبيّة رفيعة.

لم تمرّ ساعة حتّى فُتِحَ الباب، ودخل أكثر من عشرين شخصًا، كانوا يلبسون القُبّعات السّوداء العالية والّتي تكون على هيئةِ دائرة واسعةً حول الرأس، وكان أكثرهم يضع سيجارًا في فمه. ويُدّخن، وهو يركل الهَواء بقدمَيه. كانوا ينظرون في وجوهنا، ويتفحّصوننا.

في الحال، جيءَ بدرجٍ خشبيّ، يرتفع عن الأرض خمسَ درجاتٍ، وينتهي ببسطةٍ واسعةٍ، يُمكن أنْ يقفَ عليها ثلاثة أشخاصٍ أو أربعة. كانتْ هذه البسطة هي المكان الّذي سنُعرض فوقه للبيع!!

فكَ قيودَ بعضِنا رجلٌ أبيض ذو شاربَين أشقرَين غليظَين، عرفتُ أنّه من الرّجال المُسلّحين الّذين كانوا معنا في السّفينة. أوّل عَرضٍ كان لأمٍّ معها رضيعُها بين يدَيها، وطفلُها الّذي لا يتجاوز عمره عشرة أعوام. أصعَدَهم السّيّد الأبيض على الدّرج، وأوقفهم على البسطة، وراح يقول: «امرأةٌ شابّة، زنجيّة، لكنّها كما تُشاهدون

بطنها لا تكفّ عن الإنجاب، هذان وَلَدَاها، وهي قادرةٌ على إنجاب المزيدِ من العبيد من أجل العمل. وانظروا إلى ابنَيها، إنّهما ذكران، هذا الولد ذو عشرة الأعوام قادرٌ على العمل من الآن، والآخر قريبًا سيكون قادرًا هو الآخر على ذلك... مَنْ يبدأ المزاد؟!». كان الرّجال العشرون قد اصطفّوا، ورفع أحدهم يده، وهتف: «أدفع أربعمئة دولار». ردّ عليه الإنجليزيّ: «أربعمئة دولار؟ هل أنتَ تشتري ثلاث دجاجاتٍ، هذا السّعر يُمكنكَ أنْ تدفعه لثلاث دجاجاتٍ...» وأطلقَ ضِحكةً طويلة، وأردف: «يبدو أنّكَ جديدٌ على المهنة، أو أنّك قادمٌ من الولايات الشّماليّة، من عند أولئك اللّعينين، نحن لا نقبل هذا الرّقم بالطّفل الرّضيع حتّى أعطيهم لك جميعًا به!». هتفَ ثانٍ في حمأة ثرثرة التّاجر: «أدفع ستّمئة». «ستمئة؟ امم... ستّمئة، تقصد للولد ذي الأعوام العشرة. أحمق...». علا صِياح. هتفَ ثالث: «أدفعُ في المرأة... أنا لا أريدُ الطّفلَين». برقتْ عينا الإنجليزيّ، مَسّد ذقنه، وأمالَها إلى الأمام: «كم تدفع؟». «أدفع ستّمئة». «لا... لا يُمكن... المرأة وحدها بسبعمئة دولار». صرخَ ثالث: «أنا أدفع ألفَ دولار بهم جميعًا». برقتْ عينا الإنجليزيّ من جديد: «هَيّا.. هَيّا... أروني بعضَ الحماسة أيّها البليدون... هَيّا... مَنْ يدفعُ أكثر؟». تقدّم خامسٌ: «أنا يُمكن أنْ أدفع... لكنْ...». هتف الإنجليزيّ: «لكنْ ماذا؟». «عليّ أنْ أُعاين البِضاعة الّتي سأدفع فيها سِعرًا غاليًا». «بالطّبع... بالطّبع يا سيّدي». نزل الإنجليزيّ عن الدّرجة الثّانية الّتي كان يقفُ عليها، وانحنى رافِعًا القُبّعة للمُزاوِد الخامس، وهتف: «تفضّلْ يا سيّدي..

تفضّل...». صَعَدَ الرّجل الأمريكيّ، وقف من خلفَ المرأة، كانت المرأة ترتجف، أمسكَ بمؤخّرتها، ضحك ضحكةً خفيفةً، ثُمّ انفجر ضاحِكًا، وانفجر الآخرون معه، ثُمّ استدار أمامها، وأزاحَ الولد قليلاً وأمسكَ بثديَيها، ثُمّ مدّ يده إلى الأسفل، واستدار برأسه إلى الإنجليزيّ: «نعم، إنّها تستحقّ، أنا أدفع فيها سبعمئة دولارٍ وحدها، ولا أريدُ الطّفلَين». «لكَ ذلك يا سيّدي، المرأة لك». ارتجفت المرأة من جديد، هتفتْ بلغتها المحلّيّة: «لا يا سيّدي، لا تبعْني وحدي، بِعْني مع ابنَيّ هذين» كان هناك عبدٌ رابعٌ يقف أسفل البسطة على الأرض قد أحضره الإنجليزيّ للتّرجمة، لكنّ السّيّد الإنجليزيّ، صرخ في وجهها: «وهل تجرُئين على أنْ تطلبي منّي شيئًا كهذا...؟! اخرسي أيّتها العاهرة... لقد بِعتُكِ وحدكِ... كان الله في عوني حتّى أستطيع بيعَ ابنَيك هذين الأحمقين لسيّد آخَر». وصعدَ الدّرجات نَحوها، وراح ينتزع رضيعَها منها، وهي تبكي، وتصرخ، لكنّه استمرّ في نَزعه، ولّما كانتْ مقاومتها شديدة، رَفَع السّوط ليضربها، فصرخ السّيّد الّذي اشتراها: «ماذا تفعل أيّها الأحمق؟ لا تضربْها، إنّها ملكي، وعليّ أنْ أستفيد منها صالحةً لا مريضة ولا مجروحة... ابتعِدْ... ابتعدْ...» فترك الإنجليزيّ السّوط، لكنّه استمرّ في نزع الرّضيع منها، وهي تبكي وتتوسّل إليه، حتّى سُمِعَ صوتٌ من السّادة المُشترين، يهتف: «إذا أخذتَ ابنَها منها، فإنّه سيموت من الجوع، إنّها الوحيدة القادرة على العناية به وإرضاعه، وإذا مات فستخسر ثمنه». تراجع الإنجليزيّ قليلاً قبلَ أنْ يهتف: «أنتَ أحمق يا سيّدي، اسمح لي أنْ أقول لكَ

ذلك، هناك كثيرٌ من الزّنجيّات القادرات على إرضاعه، وعندي في بِضاعتي نِساء أكثر للعناية بالرّضيع... هل فهمت...؟» لكنّ الرّجل الرّحيم أردف: «إنّك لا تضمن كم سيعيش إذا أبعدْتَه عن أمّه...». هنا برقتْ عينا الإنجليزيّ، وقفز من فوق البسطة، واقترب حتّى صار في مواجهة الرّجل، وهتف: «إذا كان قلبُكَ رقيقًا، فلنشترها معًا». «كنتُ سأفعل لو كان معي ما يكفي». «كم معك؟». «ستّمئة دولار». «إنّها لا تكفي أنّ تشتري بها المرأة وحدها، فلماذا تتدخّل يا سيّدي فيما لا يعنيك، اذهب واشترِ بهذا الرّقم عبدًا عجوزًا لا يقدر حتّى أنْ يُعيل نفسَه، قبل أنْ تحشر أنفك في شؤوني الخاصّة». كانت المرأة لا تزال تبكي وتنوح، في هذه اللّحظة علا صوتُ الّذي دفعَ فيها سبعمئة دولار: «لقد اشتريتُها أيّها الإنجليزيّ، فلماذا تُضيعْ وقتي في المهاترة مع الآخرين... هَيّا، هاتِ صَكّ بيعِها، ووقّعْه لي، لكي أدفعَ لكَ ثَمَنها». لم تُجدِ توسّلات الأمّ مع الإنجليزيّ شيئًا، جَرّها من شَعرها، وأعطَاها للإنجليزيّ، وبقي ابنُها على البسطة يبكي، حتّى صرخَ في امرأةٍ زنجيّةٍ أخرى أنْ تأتي لتأخذه حتّى يرى في شأنه ما يرى. أمّا الولد، فرسّا عليه المزاد فبيع بثلاثمئةٍ وعشرين دولارًا. وكان ذاهِلاً عمّا يجري، عيناه دامِعتان، لم يدرِ ما يفعل، ولم تكنْ لديه القُدرة ليحول دون أنْ يقع الأمر.

باع الإنجليزيّ خلال ساعتَين ما يقرب من ثلاثين عبدًا، وعند الظّهيرة، بدأ يبيع دون بسطة المزاد، فقد سمحَ بعد أنْ كُتِبت الأسماء، أنْ يدخل أيّ أحدٍ من أجل أنْ يُعاين البِضاعة، فكان

المُشترون يمرّون علينا، ينظرون في وجوهنا، يتلمّسون أجسادَنا، ويطلبون منّا أنْ نفتحَ أفواهَنا، ويفحصون أسنانَنا، ويطلبون كذلك أنْ نسعل، ويرفعون بأطرافِ أصابعهم عيوننا، وكانوا يسألون عن أعمارنا، وكان لكلّ واحدٍ مِنّا سِعر، وبيع بعضُنا إلى أسيادٍ لهم مزارع في (تشارلستون)، وبعضُنا ذُهِب به إلى (فيرجينيا)، وآخرون إلى شمال (كارولينا)، وغيرها، الابن الرّضيع لم يُبعْ في اليوم الأوّل، ولكنّني رأيْته يُباع في اليوم الثّاني مع امرأةٍ عجوز، وقد بيعا مَعًا بأربعمة دولار، مئتان لكلّ واحدٍ منهما، وكان السّيّد الّذي اشتراهما يريدُ فقط العجوز من أجل الطّبخ وتنظيف المنزل، وأقنعتْه بأنّها ستخدمه حتّى تموت، وستُربّي الطّفل على الخِدمة، حتّى ينفعه بعدَ موتها حينَ يكبر قليلاً، فاقتنع.

وانتهَى ضجيج اليوم الأوّل، وقد بيع ما يقربُ من ثُلُثِنا. وقد كان يومًا مليئًا بالصّياح والبُكاء والتّضرّعات معًا، كُنّا نُساق إلى بسطة المَزاد كأنّنا أقلّ من أنْ نكون بشرًا، بل أقلّ من أنْ نكون دوابّ، بل كُنّا آلاتٍ مُسخّرةً للخدمة والطّاعة العمياء، وليس لها من أمرها شيء، ولقد شاهدتُ مآسيَ في عمليّات البيع يشيبُ لها رأس الوليد، وسمعتُ آهاتٍ، وبكاءاتٍ، وتوسّلاتٍ ينفلق لها قلبُ الحجر، وفي المقابل، رأيتُ عارًا، وأياديَ تمتدّ لا تحسبُ للخلق ولا للحياء ولا للذّمة شيئًا، وسمعتُ ضحكاتٍ فاجرةً ينْدَى لها جبين الإنسانيّة.

وكان يومًا فارقًا في حياتي، وسيظلّ في ذاكرتي إلى أنْ أموت!

(٣٨)

كُلُّ مُنتَظَرِآت

نِمنا على أرضيّة الكوخ، بعد أن انتهى مَزادُ اليوم الأوّل، بحلول المغرب جاؤونا بطعامٍ وشراب. كنتُ قد بدأتُ أرى. كان المكان محطّةً في الحياة سيكون لها ما بعدَها. كلّ سؤالٍ في هذا المكان كان يتيمًا ووحيدًا وحزينًا، فأمّا يتيم فلا سؤالٌ يُشبِه الآخَر، وأمّا وحيد فلا إجابةَ له، وأمّا حزينٌ فلأنّ كلّ سؤال كان ينزفُ قبل أنْ يُقال!

في اللّيل لم أنمْ. إلى أيّ جهنّم قد ولجْنا اليوم؟ إلى أيّ مكانٍ سيأخذوننا؟ ما الّذي صنعتْه إفريقيا لهذا الغرب المُتوحّش حتّى يكون كلّ هذا؟ ماذا يصنع الإنسانُ بأخيه الإنسان؟ أكان ما رأيتُه حقيقةً أم أنّني ما زلتُ مُصابًا بدوار البحر وأهذي؟ أكانتْ (تُوبا) المدينة الفاضلة، وكانت (تشارلستون) مدينة الشّيطان؟ أكانتا مدينتَي الطّهر والعهر؛ وكان عليّ أنْ أجرّبهما معًا حتّى أعرف أنْ الحياةَ ليستْ لونًا واحِدًا، وأنّها لا تسير على ما تشتهي وتتمنّى؟!

في اللّيل كان هناك ثلاثةُ حُرّاس أُغلقَتْ عليهم أبواب الكوخ الكبير معنا من أجل حراستنا. رأيتهم قد اتّخذوا ثلاثة صناديق في الزّاوية القريبة من المدخل الرّئيسيّ، وراحوا يسكرون ويُقهقِهون،

وكان العَلَمُ الأمريكيّ يرفرف أمامهم خارج الباب، وهم يستلقون في آخر اللّيل من شدّة السُّكر، ويُغطّون وجوههم بقُبّعاتهم، ويغطسون في نومٍ أثيم!

في الصّباح دخل أحدُ الأمريكيّين البِيض، ركلَ الإنجليز الثّلاثة بحذائه، وصرخ بهم: «استيقظوا... لقد استأجرتم الكوخ لثلاثة أيّام، إنْ لم تَنفُق البضاعة خلال الأيام الثّلاثة فستُضطرّون لدفع الإيجار في الأيّام الّتي تزيدُ عن ذلك». نَهَضَ الثّلاثة مُتثاقلين، بصقوا على الأرض، وعدّلوا قُبّعاتهم فوقَ رؤوسهم، وتمطّوا قبل أنْ يبدؤوا بالمُناداة على المُشترين الّذين بدأ الشّارع الواسع أمام الكوخ يعجّ بهم.

كان في الشّارع استِراحات، وأماكن تبيع أشربةً ساخنة، عرفتُ لاحقًا أنّ القهوة كانت أحدَها، وكان هناك متاجر أخرى لبيع الخيول، وثالثة لبيع الأطعمة، ورابعة لبيع صناديق الخمر القادمة مع السّفن التّجاريّة. وكان في الشّارع كذلك مزاداتٌ لبيع البشر.

كنتُ في فجر هذا اليوم قد استيقظتُ ورفعتُ الأذان. كنتُ حزينًا إلى الحدّ الّذي كانتْ دموعي تسيل على خَدّي طَوال رَفْعي له. كانت أكثر الجُمل الّتي استلّتْ شَهَقاتي من أعماق روحي هما: «أشهد أنْ لا إله إلا الله...» و»حَيّ على الصّلاة...». فأنْ تُوحّد الله في أرضٍ تعبد أكثر من إله فذلك مدعاةٌ للوجد الشّديد، وأنْ تُنادي النّاس إلى الصّلاة وتحثّهم عليها في مجتمعٍ لا يعرفُ ما هي الصّلاة فهو وجدٌ أشدّ. لم أحسّ أنّ أحدًا قد استيقظ، كُنّا نحنُ الأفارقة

نغطّ في نوم عميقٍ من تعبٍ أو لننسى، وكان الحَرَس الثّلاثة يغطون فيه من سُكرٍ وفجور. غير أنّ أحدهم عن يميني لا يبعدُ كثيرًا عنّي، رأيتُه يرفع رأسه، وينظر بعنقه المائلة إليّ، ثُمّ قام، وراحَ يُردّد معي كلمات الأذان، ولمّا أنهيتُ، سَعَى إليّ واعتنقني، وبكى على كَتِفَيّ. وسألتُه أنْ يصبر، فما لنا غيرُه، وهتفتُ: «نَحنُ مَشَاؤون يا أخي!». قال لي: «إنّه مُسلِم، وإنّ اسمه (مَبابو)، وإنّ هناكَ عددًا من المُسلِمين من قريته، ولكنّهم لا يُظهِرون ذلك لأنّهم خائِفون». صلّى إلى جانبي، وقرأتُ في الصّلاة: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ».

في الضُّحى، كان قد بدأ المُشترون يدخلون إلى داخل الكوخ، مرّوا بالكثيرين، واشترَوهم مُباشرة. بعضُ التّجّار كان مُستعجِلاً ليذهب بعبده إلى العمل دون تأخير، فمزارعه تحتاج إلى عددٍ كبيرٍ من العُمّال، والإنتاج لا يحتمل التّأجيل، ولا المُساومة على الثّمن، وإنْ كانوا لا يدفعون ثمنًا إلاّ إذا رأوا أنّ البِضاعة تستحقّ.

اشتروا في هذا اليوم (مختار)، واشتروا النّساء، ولم يبقَ من الصّغيرات أو القادرات على العمل أيّة واحدة، باستثناء العجائز، وكانت المرأة تُباع بين ستّمئة إلى ثمانمئة دولار، واشتروا كذلك عددًا كبيرًا من الرّجال، وكان الرّجل يُباع بين سبعمئة إلى ألف دولار، حسبَ عُمره، وصحّته، وقُوّته البدنيّة، وطوله، وسَبْكِ جسده، فقد كان كثيرٌ مِنّا مشدود الجسم.

وكنتُ أراوغ المُشترين، أهربُ من عيونهم، وأتحاشى نَظَراتهم الّتي تقع عليّ أوّل ما تقع، وأُعطيهم ظَهري، وأخطُو كالخائف بعيدًا، ولا أدري لِمَ كنتُ أفعل ذلك؟ أكنتُ أهربُ من العبوديّة وهي قدرٌ لا مفرّ منه؟ أمْ كنتُ أؤجّل شِرائي لأشاهِدَ كيفَ يُباع إخوتي؟ أمْ كنتُ أعيشُ على أملٍ أن أكون حُرًّا، ولو ليومٍ أو ليومَين آخرَين؟ أمْ كنتُ أتوقّع أنْ أقع في يدِ مالك شِرّير، فكنتُ أرجو أنْ أقع في يدِ مالكٍ يحترمُ شيئًا من حقوقي؟ لا أدري على وجه الدّقّة مِمّ كنتُ أهرب؟ لعلّني كنتُ أهربُ من نفسي الّتي سأصير عليها بعد أنْ أقعَ في يد سيّدي، أنْ أتحوّل أنا المُسلِم الحُرّ الثّريّ العالِمِ إلى عبدٍ في سوقِ نخاسةٍ يُساق إلى عبوديّته صاغِرًا ذليلاً! وكنتُ أتظاهَر بالمرض لكلّ مَنْ يقوم بفَحصِي. وأصطنع السّعال، وأبدي ارتِخاء قُوايَ ووَهني. ومع ذلك كلّه كنتُ أدركُ أنّ خوفي من الشّيء وتجاهُلَه أو تأجيلَه لا يمنع وقوعَه!

بعد الظُّهر، رأيتُ أحدَ النّخّاسين الإنجليز الّذين جلبونا من بِلادنا، يصيح أنّه سيُقيم مزادًا علنيًّا على عبيده في الشّارع، وكان قد استأجَر مكان المزاد، وبالفعل دَفَعونا بالسّياط، فهِجنا كما تَهيج الغنم، وصلصلتِ القيود في أيدينا، وقرقعتْ في أرجلنا، وتَدافَعْنا إلى الباب الرّئيس نريدُ الخروج منه كما أُمِرنا هاربين من السّياط الّتي تلسَع ظهورنا.

كُنّا ما يقرب من سبعين قد صرنا في سلاسلنا في الشّارع على الجهة المُقابِلة للكوخ الكبير، واصطففْنا خلفَ بعضِنا، وكُنّا نُعرَضُ واحِدًا واحِدًا فوقَ منصّة العَرض، وكانتْ منصّة العَرض

عِبارةً عن أربعة أعمدة حجريّة، بين كلّ عمودٍ وآخر مقدار ذراعٍ ونصف الذّراع، وترتفع عن الأرض كذلك بمقدار ذراعٍ ونصف الذّراع، وفوقَ الأعمدة بسطةٌ حجريّة تُغطّي المساحة بين الزّوايا الأربع، وكان الواحدِ منّا حين يحينُ دورُه، تُفكّ قيودُ رِجليه، وتبقى قُيودُ يدَيه، ويُطلَبُ منه أنْ يقفز فوق البسطة برشاقةٍ متناهية، وكان بعضُنا لا يستطيع ذلك، فهي عاليةٌ نوعًا ما، ولكنّ السّوط كان يُعلّمه لشدّة الألم أنْ يقفز حتّى ولو لم يفعلْها في حياته من قَبْل، وكان بعضُنا يقع على جنبه أو رأسه فينزفُ دمًا، فيصعد رغمًا عنه، وكانت النّساء الكبيرات لا تقدر على ذلك، فيقوم الإنجليزيّ بضربِها، ثُمّ دَفْعِها بمساعدة آخر من مُؤخّرتِها حتّى يُصعِداها إلى الدّكّة، وهو يشتم: «عاهرات... لا أدري ما الّذي حدث لِعَقل القُبطان اللّعين حتّى يقبل بأنْ يجلب بِضاعةً رديئةً كهذه؟!».

وكان العبد إذا صار فوق الدّكّة أو البسطة الحجريّة، نادَى عليه سيّده في المَزاد: «عَبْدٌ من العمالقة، انظروا إلى اتّساع جبهته... إنّه يفهم من أوّل مرّة... انظر إلى طوله الفارع وعَضَلاته المفتولة، إنّه يستطيع وحدَه أنْ يجرّ عربةً لا تجرّها ثلاثةُ ثيران...» ويضحك قبل أنْ يُتابع: «وانظر إلى الّذي بين رجلَيه، إنّه قادرٌ على إخصاب الزّنجيات، وسيجعل كلّ زنجيّة عندكم تُنجب لكم عشرةً من العبيد الإضافيّين، إنّه لا يُقاوَم». ودفع أحدهم: «ستّمئة..». فصرخ: «أبله... اذهبْ وابحثْ لكَ عن مزادٍ آخر... بِضاعتي ليس لها مثيلٌ في السّوق كلّه». فدفع آخر: «سبعمئة..». فقال: «فكّروا أيّها السّادة في

الّذين سينثرهم في المستقبل من هذا الّذي بين فَخِذَيه...» فدفع ثالث: «ثمانمئة..». فقال: «إنّه يستطيع أنْ يحصد في مزارع القُطن أكثر من ثلاثةِ مُجتمعين... ويستطيع أنْ يعمل في مزارع القصب مكان خمسةٍ من البُلَداء... إنّه قادرٌ على أنْ يعمل ثماني عشرةَ ساعةً لو طُلِبَ منه ذلك...». فدفعَ رابع: «ثمانمئة وخمسين...». فقال: «قليلٌ على هذا العبد الممتاز... إنّه يستطيع أنْ يُهيِّئ أرضا بأكملها للزّراعة في غضون يومَين... انظروا إلى عضَلاته أيّها السّادة... ألا يستحقّ أكثر...؟!».. فدفَع خامسٌ: «تسعمئة دولار...». فباعه إليه.

واشترى سيّد أكثر من سبعة عبيدٍ دُفعةً واحدة، فاستأجرَ لهم عَرَبةٍ من تلك العَرَبات الّتي تُنقَل فيها الخنازير، وأُدخِلوا إليها، وكان قاعُها مليئًا بقاذروات الخنازير، ورَوْثهم، والتّبن اليابس الّذي يوضَع لهم، وحُشِروا فيها أسوأ مِمّا تُحشَر الخنازير أنفسها، وأُغلِقَ عليهم بابُها المُشبّك بفتحات معدنيّة صغيرةٍ كتلك الّتي كانتْ أيّام السّفينة من فوقهم في القبو، وسِيقوا إلى مزارع سيّدهم، وهم ينظرون ساهِمين من خلال تلك الفَتَحات، يُودّعون عالمًا بائِسًا إلى عالَمٍ أشدّ بؤسًا منه! وأمّا مَنْ كان يُحشَر في عربةٍ تُنقَل فيها الخُيول أو الثّيران، فإنّه يكون محظوظًا؛ محظوظًا جِدًّا!

ثُمّ حانَ دوري، وكلّ مُنتظَرٍ آت. وكلّ قَدَرٍ واقع. وكلّ أمرٍ إليه. ففُكّتْ قُيودُ رِجلَيّ، وقفزتُ بخفّة إلى الدّكّة الحجريّة، ثُمّ راحَ الإنجليزيّ يصيح: «عَبدٌ يعرفُ كلّ شيءٍ عن العمل... من أقوى العبيد الّذين جئنا بهم من ذلك المكان البعيد... تحمّل كلّ متاعب الرّحلة...

وازداد نَشاطًا... انظروا إليه، عَضَلاته المفتولة، طوله الفارع، ساعديه القويَّين القادرَين على تفتيت الصّخر... وحَمْل العَربَة مع الخيول الّتي تجرّها...». ضحك أحدهم، هتف بالدَّلاّل المُسترسِل في عرضِ صِفات عبده: «إذا كان كما تقول فلماذا لم يُبَعْ حتّى الآن... وقد وصلتِ البضاعة أمسِ صباحًا؟». فردّ: «بالطّبع يا سيّدي... أنا لن أعرض البضاعة الممتازة كلّها مرّة واحدةً في اليوم الأوّل، عليّ أنْ أخبِّئ ما كان منها جيّدًا على مدى الأيّام الثّلاثة...». وضحك بانتِصار، ثُمّ أردف: «لِمثل هذه اللّحظة خبّأتُ هذا العبد القويّ... والآن هل تريدُه؟». «نعم». «وماذا تنتظر، كم تدفع؟». «سبعمئة دولار...». فقال النّخّاس مُغتاظًا: «اغربْ عن وجهي، لولا أنّ سحنتك تقول إنّك إيرلنديّ لبصقتُ في وجهك... والآن مَنْ يدفع أكثر؟!». ردّ صوتٌ: «أنا أدفع خمسين دولارًا فوق ما دفعَ الإيرلنديّ». فصرخَ النّخّاس: «اغرُبا أيّها الأحمقان، لا بُدّ أنّكما مُتّفقان كي تشترياه بثمنٍ زهيدٍ ثُمّ تبيعاه بضعفِ هذا الثّمن وتتقاسما الرّبح بينكما... ابحثا لكما عن خدعةٍ أخرى غير هذه... أو اذهبوا إلى تاجرٍ غِرّ واضحكا عليه بذلك... والآن؛ مَنْ يدفع أكثر؟». ردّ صوتٌ ثالث: «أنا أدفع ثمانمئةِ دولار». تجاهله النّخّاس، وراح يردّد: «إنّه أقوى عبدٍ في المجموعة، عمره سبعةٌ وثلاثون عامًا، لكنّه يبدو شابًّا في أوّل العشرين، وأنا متأكّد أنّه مَنْ يشتريه سيحصل على ستّين عامًا على الأقلّ من خِدمته قبل أنْ يُرمَى في حُفرة...» ردّ صوتٌ رابع: «أنا أدفَع فيه ثمانمئة وخمسين دولارًا، ولا أظنّ أنّه يستحقّ اكثر من ذلك...». قال النَّخّاس: «كَلاّ... كلاّ

أيّها البُخلاء، إنّه يستحقّ أكثر من ذلك بكثير...». وتقدّمَ رجلٌ يبدو من بريقِ عينَيه أنّه كان يُتابع المشهدَ من أوّله، خَصّر ذراعَيه حول وسطه، وصاح: «لِماذا تخدع النّاس يا إدوارد؟». التفتَ إليه النّخّاس، وهتف: «مَنْ؟ جونسون؟ أهلاً باللّصّ الكبير». ومشى إليه، وعانقه: «اشتقتُ إليكَ أيّها الوغد». أطلقَ جونسون يدَي إدوارد، وقال: «سأعاين البِضاعة؛ أليسَ من حقّي؟». «بالطّبع يا سيّد جونسون... لكَ ذلك...». وانحنى ورفعَ له القبّعة، فضحك جونسون وقال: «ألستَ مُشتاقًا لمبارزةٍ بالمُسدّسات أيّها الكلب السّلوقيّ». «بالطّبع يا سيّدي... سنرتّب ذلك...». أشار جونسون: «والآن أنزِلْه... أريدُ مُعاينته». نزلتُ. نَظَر جونسون في عينَيّ مُباشرةً، فتعوّذتُ بالله، واضطربتُ وأنا أرى الشّرر يتطاير منهما، وهو لا يزال يُخصّر ذراعَيه، وقُبّعته البُنّية مركوزةٌ فوقَ رأسه يتدلّى منها خيطان يربطهما تحت ذقنه، ذقنه الحليقة، وشارِباه المُتهدّلان على شفتَيه، وكان هناك مُسدّسان على جنبَيه. هتف: «امم... أظنّ أنّني سأشتريه». حلّ ذراعَيه عن وسطه، وجسّ صدري، ثُمّ نزل بكلتا يدَيه، ففركَ ساقَيّ من الأعلى، ونزلَ أكثر، وأمسكَ بقبضةِ يده على ظهر ساقي من الأسفل وشَدّ عليها بقسوة، فأمسكتُ نفسي عن الصّراخ من شدّة الألم. ثُمّ نَهض، وفتَح فمي، ونظر في أسناني، ومَسَحها بباطن إبهامه، ثُمّ بإصبعَي السّبابة والإبهام بكلتا يدَيه باعدَ بينَ جفنَي عينَيّ وشدّهما حتّى آلَماني، وراحَ ينظر في البياض الّذي يُحيط بالحدَقة، ثُمّ فركَ شَعْرَ رأسي فركتَين، فتأرجح رأسي قبل أنْ أستعيدَ توازني، وضحك بصوتٍ عالٍ: «إنّه

يستحقّ... يستحقّ أنْ يكون عبدًا مِثاليًّا». رقصَ قلبُ إدوارد: «قُلْ لهم يا سيّدي، قل لهؤلاء الأغرار، لهؤلاء الجَهَلة الّذين لا يُقدّرون قيمة الأشياء... والآن هل ستشتريه أمْ أُعيده إلى الدّكّة لأبحَثَ عن مُشترٍ آخَر له؟!». «لا... لا تُعِدْه... سأشتريه... ولكنْ قُلْ لي من أينَ أتيتَ به؟». «من غرب إفريقيا». «أعرف يا أحمق... أعرف... أنا أقصد من أيّ المناطق في غربِ إفريقيا؟». «إذا لم أكنْ مُخطِئًا... من بلادِ السّاحل». «يا أحمق، بلادُ السّاحل كثيرة. من أيّ بلاد السّاحل جِئتَ به؟». «وما أدراني يا سيّدي، إذا كنتُ سأسأل كلّ عبدٍ أحمله في سفينتي عن بلاده، فلن أحملَ فيها أحدًا». «حسنًا... أعرفُ أنّكَ لا تعرف... والآن كم تريدُ ثمنًا له؟». «ألفٌ ومِئتا دولارٍ يا سيّدي... وأنا متأكّدٌ أنّكَ لن تندم يا جونسون... إنّه ثمنٌ مناسبٌ لعبدٍ رائعٍ مثله». «لن أدفعَ فيه إلاّ ألف دولارٍ يا إدوارد». «وأنا بِعت».

(٣٩)

الزّنجيَ الجيّد هو الزّنجيّ الصّامت

وهكذا صِرتُ عبدًا للسّيّد (جونسون)، كانتْ هناك عربةٌ تنتظرنا على مقربةٍ من المزاد، جرّني من عُنُقي خلفه، وكان قد وضعَ سلسلةً حديديّةً تربطُ عُنقي إلى يدَيّ ورجلَيّ، وصاحَ بي ما اسمُك وهو لا يزال يجرّني بشدّة ويجذبني من السلسلة ويمشي بخطواتٍ سريعة، ولأنّ السلسلة الّتي تُقيّد رِجلَيّ ليست طويلةً بالحدّ الّذي يُمكّنني من أوسّع خطواتي لألحق بمشيه السّريع، فإنّني كنتُ أتعثّر وأسقط على الأرض، فكان يشدّني، وهو يصرخ: «انهضْ أيّها الزّنجيّ الحقير». ثُمّ أردف، قلتَ لي: «ما اسمُك؟». فأجبتُه: «عمر». فردّ: «هذا اسمٌ لا يُناسِبك. سأختار لكَ اسمًا لاحِقًا... والآن هَيّا، نحنُ محتاجون لكلّ دقيقة».

كانت العربة الّتي تنتظرنا هي عربةٌ يجرّها حِصانان، خلفهما دَكّةٌ خشبيّة للسّائس، وخلفَها صندوقٌ لحمل المحاصيل يرتكز على دولابَين معدنيّين كبيرَين، كان الصّندوق مليئًا بمخلّفات قصب السُّكّر، وبعضِ الأربطة، وبعض الورق اليابس، وكان فيها كذلك بعض الجُوالات من قماش سميك.

قال لي السّيّد (جونسون): «اقفزْ فوق الجُوالات». أعاقتني القيود الّتي في رِجلَيّ، ففكّهما، كان أثرهما قد غاصَ في لَحمي، وبدا ظاهِرًا تمزّق اللّحم وتخثّر الدّم حولهما، نظر إليهما، وداسَهما بباطن حذائه، فأحسستُ أنّ الوجع يخترق جمجمة رأسي، شَدّ أكثر، وهتف: «هكذا من أجل أنْ تندمل هذه الجروح. غدًا يُمكن للعمّ جون أنْ يفركهما لكَ ببعضِ الأعشاب كي تلتئم الجروح وتخفّ التّقيّحات بشكلٍ أسرع. والآن... هَيّا اقفز فوق الجُوالات». فعلت. ربطَ السّلسلة الّتي تجمع يدَيّ إلى عنقي بحلقة دائريّة تصل بين ظَهر دكّته الخشبيّة الّتي سيجلسُ عليها وأوّل العربة. عندما تأكّد أنْ الحلقة قد أُحكِمَ إدخالها في الحلقة الأخرى، زَمّ شفتَيه، وهتف: «لِنَرَ إنْ كنتَ تستحقّ الثّمن الّذي دفَعْتُه فيك. الوغد إدوارد لن يسلم من غضبي لو اكتشفتُ أنّه خدعني، هذا الكلب السّلوقيّ اللّعين».

كانت العَرَبة قد بدأتْ تترك الشّريط السّاحليّ الّذي يتمدّد عليه الميناء، وتذهب باتّجاه الجنوب الغربيّ، كنتُ أتقافز في الصّندوق الخلفيّ كلّما تعثّرت عَجَلات العربة بحجارةٍ في الطّريق. كانت الطّريق قد بدأتْ تتوغّل في الأدغال، صارتْ تلتوي، وهي تسير بين المزارع المنتشرة عن اليمين والشّمال. أدار السّيدّ (جونسون) رأسه نحوي ونظر من فوق كتفَيه، وأشار: «أترى، هذه مزارع القُطن، وتلك الّتي تبدو هناك مزارع القصب... وهناك لو سِرنا مسافة بضعة كيلو مترات، ستجد مزارع التّبغ...». وهتف: «قلتَ لي ما اسمُك؟». «عمر... اسمي عمر بن سيّد...». ما شأني باسمِ أبيك،

نحن لا ننادي العبيد إلاّ باسمٍ واحدٍ، ونحن نُعطيهم هذا الاسم». أجبتُه بتحدٍّ: «اسمي عمر... أبي أعطاني اسمًا...». زعق السّيّد (جونسون): «اخرسْ... أسماؤكم الّتي جئتم بها من بلادكم القذرة ستتركونها خلفَكم... ستكون لكم هنا أسماءٌ جديدة.. أنتَ لستَ في إفريقيا... أنتَ في أمريكيا أيّها العبد الوقح... اللّيلة أو غدًا سأنظر أيّ الأسماء سيكون ملائمًا لك». سكتّ، كان الزّبد يتناثر من تحت شواربه الغليظة الّتي كانتْ تهتزّ كلّما رفع صوته بالكلام.

كُنّا لا نزال نسير في وسط المزارع، المزارع هنا كبيرةٌ، كبيرةٌ جِدًّا، وشاسعة، ويعمل فيها الكثير من العبيد، مررنا في الطّريق على المِئات منهم، وكانوا لا يزالون ينحنون ويقطفون زهرة القُطن، ويجمعونها في سلالٍ من القصب المجدول معلّقةً على أكتافهم. أو مركوزةً فوقَها. كان العاملون في المزارع أكثرهم من النّساء... كُنّ ينظرْنَ إليّ وأنا في العربة نَظَراتٍ خاطِفة، ويَرمُقْنني بنظراتٍ غريبة، ربّما رأيتُها كذلك لأنّني غريبٌ بالفِعل... هذا أوّل وصولي إلى هذه البلاد، أو رُبّما كانت هذه النّظرات نَظَرات إشفاقٍ عَلَيّ لمعرفتهنّ بالسّيّد (جونسون). استمْرَرْنا في السّير بالعربة، تجرّأتُ وسألتُ السّيّد جونسون): «هل مزرعتُكَ بعيدةٌ من هنا يا سيّدي؟». لوّح بالسّوط، وهو يزفر: «يا للوَقاحة. وما شأنُكَ أنتَ؟ قريبًا ستتعلّم الطّريقة الّتي يجب أنْ تتعامل فيها مع سيّدك... هذه الوقاحة لن تطول». كانتِ الشّمسُ قد بدأتْ تغرب، ومن بعيد بدتْ صفراء باهتة، كان ذلك في شهر سبتمر من عام ١٨٠٧، وكانتْ تودّع العالَمَ من

تلك الجهة، كانتْ أشعّتها الواهنة تُحاول النّفاذ من خلال الأشجار البعيدة وجذوعها العالية. رأيتُ بعضَ العبيد يتوقّفون عن العمل، ويبدؤون بإفراغ ما في سِلالهم الصّغيرة من القُطن في جوالات كبيرة، ورأيتُ آخرين في المزارع الّتي على الجهة الأخرى، يرفعون الجُوالات المجزوزة المُتجمّعة ويحملونها إلى عَرَباتٍ ويعبّئونها هناك. وسمعتُ في تلك الأثناء بوقا عاليَ الصّوت يُمسِكه رجلٌ أبيض، وهو ينفخ فيه، وسألتُ السّيّد جونسون: «لماذا ينفخ هذا الرّجل الأبيض في البوق؟». وهذه المرّة هوى بالفعل بسوطه عليّ بعد أنِ التفّ بجذعه: «أوه... أيّها الزّنجيّ الأحمق... أنتَ كثيرُ الأسئلة... ستعرفُ قريبًا أنّ الزّنجيّ الجيّد هو الزّنجيّ الصّامت... بعضُ الكلمات ستكلّفك حياتك إنْ أنتَ لم تحسب لها حِسابًا... وقريبًا سيُعلّمك العمّ (جون) أنّ الصمت حِكمة». ثُمّ قهقه بينما صرختُ أنا من شِدّة الألم، فتابع: «وقريبًا أيضًا ستعرفُ لماذا يُستخدَم هذا البوق». ولفتَ نظر السّيّد (جونسون) المسبحة الّتي حافظتُ عليها مُعلّقةً في عنقي، وسألني وهو ينظر على الطّريق أمامه والعربة تهتزّ به قليلاً يمنةً ويسرةً: «ما هذه الّتي تلبسُها في عنقك؟». «مِسبحة» أجبتُه. وسأل بازدِراء: «تعويذة؟». «أمّي صنعتْها لي». ردّ ساخِرًا: «ستكون تعويذةً جيّدة... أنا متأكّدٌ من أنّها ستحميك، وخاصّة غدًا عندما يبدأ العمل».

كانت الشّمس قد غطستْ في الغرب الأمريكي هذه المرّة، لأوّل مرّة أرى الشّمس تغربُ في هذه البِلاد الجديدة، بعد أنْ كانت إحدى لحظات التّأمّل الّتي أحرصُ على مشاهدتها في الغرب

الإفريقـيّ، وخاصّـة في السّـنوات الأولى مـن حيـاتي، قبـل ذهـابي لطلـب العِلـم في (توبـا).

مالـتِ العربـة عـن الطّريـق، ودخلـتْ طريقًـا فرعيًّـا، يمتلـئ بأشـجارٍ غريبـةٍ غير تلـك الّتـي اعتـدْتُ عـلى رؤيتهـا في إفريقيـا، عرفـتُ فيـم بعـدُ أنّهـا أشـجار الصنوبـر والسّـرو والسـيكويا. وكانـتْ أشـجارًا عملاقـة، ترتفـع في السّـماء ارتفاعـاتٍ شـاهقة أعـلى مـن أشـجار النّخيـل والمـوز في (فوتـا تـور). سرعـان مـا توقّفـت العربـة أمـام عـددٍ مـن الأكـواخ مُحاطـةٍ بسـياجٍ كبـير، ونـزل السّـيّد (جونسـون)، وتلقّـاه عـلى البـاب العـم (جـون) يحمـل مِصباحًـا، كان العـمّ (جـون) في السّـتّين مـن العُمـر، أشـيبَ الشّـعر، وكان حليـقَ الذّقـن والشّـوارب، ويلبـس لِباسًـا إفرنجيًّـا يُشـبه لِبـاس أسـياده، لكـنّ القطعـة الّتـي يلبسـها عـلى نصفـه الأعـلى لم تكـنْ طويلـةً مثلهـم، وكان يلبـس تحتهـا قميصًـا أبيـض، ويلـفّ عُنُقَـه بشـبرٍ أسـود، ولم يكـنْ يعتمـر قُبّعـة، وكان أصلـع قليـلاً، ومَحنـيّ الظّهـر مـن الجـزء القريـب مـن الكتفَـين، وكان ينظـر بشـكلٍ مائـلٍ ومـؤدّبٍ مـن أسـفلَ إلى أعـلى. وكانـتْ عينـاه واسِـعتَين، وقـد أزاح اللّـون الرّمـاديّ قليـلاً مـن سَـواد حدقَتَيـه، وبـدتْ عينـاه عـلى ضـوء المصبـاح في غَبَـش الغـروب حزينتَـين ولا مُباليتَـين. وكانـت أسـنانه البيضـاء الكبـيرة تلمـعُ في الظّـلام!

وسـأله السّـيّد: «هـل عـادَ العبيـد مـن المـزارع؟». «لقـد عـادوا قبـل قليـل يـا سـيّدي، إنّهـم يأكلـون الآن، وسـيأوون إلى فُرُشِـهم خـلال أقـلّ مـن سـاعة». «هـل حسـبْتَ نصيـبَ كلّ عبـدٍ مـن الطّعـام. إنّ الطّعـام الّـذي في المخـزن لا يكفـي لشـهرَين..». «بالطّبـع، حِصّـة كلّ عبـدٍ محسـوبة

يا سيّدي، لن يأخذَ فوقَها حبّةَ ذرةٍ واحدة». «نعم.. عليكَ أنْ تهتمَّ بذلك». «بالطّبع يا سيّدي، هل هذا عبدٌ جديدٌ؟» وأشارَ نحوي. «سيُضاف إلى العبيد الّذين سيعملون في مزارع القطن والقصب». «هَيّا». وأشار لي العَمّ (جون). نزلتُ من العَرَبة، وسأله العمّ (جون): «ما اسمُه يا سيّدي؟». ونظر إليه السّيد، ثُمّ إليّ، وسأل، وقد اقتربَ نحوي، وأمسكَ بذقني: «ماذا نُسمّيه؟ ما رأيك؟ إنّه لا يحمل اسمًا... إنّه فتى قويّ، ولا بُدّ أنْ يكون الاسم كذلك». هتفتُ بصوتٍ خفيضٍ: «بل أحمل اسمًا، أنا عُمر... عمر بن سيّد». وهذه المرّة استشاط السّيّد (جونسون) غضبًا، وهتفَ بالعمّ (جون): «أريدُكَ أنّ تعلّمه الأدب في حضرة سيّده». وناوله السّوط، وراح العم (جون) ينهال عليّ بالسّوط، وأنا أصرخ، ولم أكنْ أدري أنّ التّلفّظ باسمي سيكلّفني كلّ هذا العذاب. واقتربَ منّي بعد أنْ ضربني أكثر من عشر مرّات وهو يلهث، وهتفَ بصوتٍ مُتقطّع: «عليكَ أنْ تصمتَ حتّى يستطيع السّيّد إعطاءَك اسمًا مُناسِبًا... هل تفهم ما أقول؟». وتراجع إلى الوراء بينما رحتُ أنا أرتعشُ من القهر والوجع، وقال العمّ (جون): «يُمكنك الآن أنْ تُسمّيه يا سيّدي».

وحَكّ السّيّد (جونسون) ذقنه بأطراف أصابعه، ورفعها إلى الأعلى، وضَيّقَ عينيه، قبل أنْ يقول: سأُسمّيه ماريان... ماريان... نعم ماريان... ما رأيك؟». كان السّؤال بالطّبع موجّهًا إلى العَمّ (جون) الّذي سارع بالقول: «إنّه اسمٌ مُناسِب... سيكون هذا اسمَه من الآن».

(٤٠)

نعم، صرتُ عبدًا

دفعني العَمّ (جون) إلى كوخٍ صغيرٍ يقع في وسط عددٍ من الأكواخ المُشابهة، عرفتُ فيما بعد أنّها للدّواب والبغال والخنازير والعبيد. كان الكوخ الّذي سار بي العمّ (جون) إليه يقع ثالِثًا في التّرتيب، وكان صغيرًا، وفارِغًا تقريبًا، على الباب، همس بأذني: «كُنْ حكيمًا. أنا أعرفُ أنّك ما زلتَ جديدًا، في بداية وصولي إلى هذه البلاد كنتُ مِثلك، لكنّ طول العهد يُنسي، والحياة ستسير إنْ رضيت عنها أو غضبتَ منها، وأنا أنصحكَ بالرّضا». أردتُ أنْ أقول: «المهمّ أنْ ترضَى الحياةُ عنّي». لكنّني آثرتُ الصّمت!

وأقفلَ عليّ الباب، فوجدتني وحدي في كوخٍ اتّضح لي على الفور من الرّائحة أنّه كان إسطبلاً، وقفزتْ إليّ صورة غرفتي، والبسطة والسّاحة والنّهر، ونزلتْ دمعةٌ من عيني، كان الكوخ يتّسع لثلاثة خيول، حسبَ تقسيم حواجز الخشب الّتي رأيتُها هنا، ولسببٍ ما تحوّل ليسكنه البشر. بالطّبع، كان واضِحًا أنّه هُجِرَ منذ فترةٍ طويلة، إذْ لم يبقَ إلاّ الآثار الّتي تكادُ تُمحَى. بعضُ المعالف. بل هو معلفٌ واحدٌ للدّقة، الآخران أُخِذا، رُبّما كانا صالِحَين، باستثناء الأخير هذا. والرّوث الجافّ، أخذتُ بعضَه وفركتُه بينَ يدَيّ، كان يابِسًا، وما في داخله كذلك، وقدّرتُ أنّ هذا المكان تحوّل من

إسطبلٍ للخيول إلى محطّةٍ للبشر من العبيد الجدد قبل ستّة أشهر. لم يكنْ هنالك شيءٌ على الأرض من أجل النّوم، كان البرد في أواخر شهر سبتمبر في اللّيل قد تسلّل إليّ، لم يكنْ بردًا قارِسًا، لكنّني لففتُ ذراعَيّ على جذعي أتّقي بعضًا منه. شعرتُ بالعطش للحظة، نظرتُ في الأنحاء أبحثُ عن ماء فما وجدتُ شيئًا. ولا حتّى طعامًا، بل ولا كسرة خبزٍ يابسة، أخرجتُ نَفسًا طويلاً، كان حارًّا، مُعبّأً باللّوعة.

قلتُ لنفسي: «أصبر اللّيلة، وغدًا في الصّباح يكون لله في أمري شأن». وبحثتُ في الأرضِ عن شيءٍ أضعه تحتَ رأسي حتّى أنام، فما وجدتُ غير المِعلَف، ولكنّه كان عالِيًا على أنْ يوضَع تحت رأسٍ ويُتّخذ مِخدّة، فجمعتُ بعضَ القَشّ، وفردْتُه تحت جذعي، ورأسي، وحاولتُ النّوم. أنّى لمحزونٍ مثلي أنْ ينام. ردّدتُ آية الكرسي، والمُعوّذات، والأدعية الّتي أحفظُها من أجل أنْ أستجلبَ طائر النّوم، لكنّه ظلّ يحلّق بعيدًا خارج الكوخ. نظرتُ في العتمة الّتي تُزيحُها بعضُ الأنوار القادمة من المشاعل الّتي على السّياج خلفَ الأكواخ، فمكا رأيتُ سِواي. واقِفًا هناك، طِفلاً صغيرًا، يجري في السّاحة، لا هَمّ له إلاّ أنْ يسبقَ ظِلّه، وكانتْ أختي إلى جانبي تركضُ مثلي، وتضحك، وهي تهتف: «لن تسبقني». لقد كانتْ صادقةً تمامًا؛ لقد سبقتْني في عُبور القنطرة فوق النّهر المُوصلة إلى الضّفّة الأخرى.

تسلّل البردُ من الأرض إلى جسدي، تقلّبتُ على جنبي الآخَر، فركتُ يدَيّ، ووضعتُهما متطابقتَين بينَ رُكبتَيّ، تكوّرتُ على

نفسي، قلتُ للدّفء: «أعطِني قليلاً منك». لكنّه أَبى. وقلتُ للنّوم: «زُرْني بُرهة». لكنّه استعصى.

إنّها أوّل ليلةٍ لي في مزرعة مالكي. وسألتُ نفسي: «مالِكي؟ كلاّ. لم يكنْ لأحدٍ أنْ يملكني؛ فأنا حُرّ». ثُمّ همستُ بوجع: «كلاّ. أنا عبدٌ. وتلك هي الحقيقة الآن». أنا عمر بن سيّد الفوتي العالِمِ الّذي جلستُ إلى أسطوانة مسجد (توبا) أعلّم المئات من المريدين أمورَ دينهم أصبحتُ عبدًا، هكذا دون أنْ أدري كيف صرتُ عبدًا، ولا ما الطّريق الّتي سلكْتُها حتّى أصل إلى هنا.... أنا عُمر بن سيّد بن عمر الفُوتي من نسل الأشراف والوُجهاء، وسليل علماء فوتا تور، وحفيدُ الصّحابة، والثريّ الغنيّ، الّذي كانتْ أموالُه تُطعِم أهل القرية كلّهم صرتُ عبدًا... عبدًا هكذا ببساطة... نُقِلت من السّاحل الغربي لإفريقيا، وقطعتُ البحر الكبير مُقيّدًا بالسّلاسل، مُهانًا، مُذَلاًّ، مَبصوقًا في وجهه، مَطلوبٌ منه أنْ ينظر إلى الأرض عندما يكلّم الوحش الأبيض... صرتُ عبدًا... نعم، صِرتُ عبدًا... وأحسستُ بطاقةٍ مُتفجّرة في داخلي أنْ أقف على قدمَيّ، وأرفعَ يدَيّ كلتيهما إلى السّماء، وأمدّهما بقدر ما أستطيع، وأصرخ صرخةً جبّارة أُفرّغ فيها طوفان الغضب والقَهر المحبوس في أعماقي، ثُمّ أظلّ أصرخ وأصرخ حتّى يُصيبني الإعياء، وأسقطُ بعدَها على الأرض مُنهكًا، خائر القُوى... لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث، جُلّ ما فعلتُه، أنّني تقلّبتُ إلى الجهة الأخري، ورُحتُ أمسح دموعي الّتي راحتْ تنهمر بغزارةٍ فوقَ خَدَّيّ.

في الصّباح، قبل أنْ تُشرِقَ الشّمس، سمعتُ صوتَ البوق الّذي سمعتُه من قبل وأنا قادمٌ مساء أمس مع السّيّد (جونسون). فتحَ العمّ (جون) الباب عَليّ، وصرخ: «هَيّا يا ماريان... اليوم ستبدأ العمل في مزارع القُطن». نهضتُ لا أدري ما الّذي سأفعله، هرولتُ خارجَ الباب، كان البوقُ لا يزال يصدح، قال لي: «هذا البوقُ لتجميع العبيد الذّاهبين إلى مزارع القُطن». خرجتُ. من هنا تمكّنتُ من مشاهدة العبد الّذي ينفخُ في البوق، كان البوقُ طويلاً، وكان أطول من العبدِ نفسه، وكان يُمسكه بشكلٍ مائلٍ إلى الأعلى، وله فتحتان من طرفَيه، كانت الفتحة الّتي ينفخُ فيها صغيرةٌ، والفتحة البعيدة كبيرةٌ بحجم رأسِ طفلٍ. وكان ينفخ بقوّة، لدرجة أنّ أوداجه تنفر من رقبته، وفمه يُشكّل كُرتَين صغيرتَين على الجانِبَين، وكان الصّوت عالِيًا يصل إلى آخر المزرعة إنْ لم يتجاوزها، وقَوِيًّا إلى درجة أنّه يستطيع أنْ يُوقِظ الموتى من قبورهم!

سرعان ما رأيتُ ثلاثةً من السود ورجلاً أبيضَ يركبُ على حصان، والشّمسُ لم تُرسِل أوّل أشعّتها إلى أرضِنا البائسة، كان الرّجال السّود، يُسارعون إلى ربطِ العبيد بالقيود، وكان ذلك يتمّ بطريقةٍ مُهينةٍ جِدًّا، إذْ كانتْ هناك أعواد خشبيّة، يكون لها ساقٌ بطول ذراعين، وتنتهي بشُعبتَين منفرجَتين طول الواحدة أقلّ من ذراع، وكانت الشُّعبتان توضَعان على عنق العبد، ويُمدّ الجذع أمامه، ويُربَط هذا الجذع إلى جذعٍ آخَر ينتهي بشُعبتَين منفرجتَين كذلك، تُوضَعان على عنق العبد الّذي أمامه، وهكذا إلى بقيّة العبيد، كان هذا للرّجال،

أمّا النّساء فكانتْ تُقيّد أحيانًا أيديهنّ، وأحيانًا أرجلهنّ، ورأيتُ بعضهنّ، يحملنَ أطفالهنّ الصّغار في أكياسٍ تتدلّى على ظهورهنّ، أو على أفخاذهنّ، أمّا الأطفال الأكبر قليلاً، فكانوا يُربَطون بحبلٍ غليظ وتجرّهم أمّهاتهم خلفهم.

وَدَفَعني العمّ (جون) من ظهري: «هَيّا... ماذا تنتظر...؟ لن يشفعَ لكَ عند ذلك الرّجل الأبيض أنّك جديدٌ... ستنهال عليكَ السّياط إنْ لم تُسرِع». سألْتُه: «ماذا أفعل؟». «هناك، خلفَ آخِر عبد، ضَع الشُّعبتَين في عنقك، وسيقوم أحدُ السّود الثّلاثة بربطها بالّذي خلفَك». وهرولتُ، وكان الرّجل الأبيض الّذي يركبُ الجواد يزعق، ويشتم، وكان يركضُ بجواده بجانب صَفّ العبيد، ويلسَع بطرف السّوط ظهر أحدهم أو ساقَه أو مؤخّرته، وكان يبدو ضارِبًا ماهِرًا بالسّوط، إذ كان يضربُ ضربًا خفيفًا لتذكير العبد بعبوديّته وبواجبه، ولم يكنْ ضربًا مُبرّحًا حتّى لا يُوقفه عن العمل، وكان بمهارته يجعل ذنب السّوط، لا السّوط كُلّه يُصيب هذا الجزء أو ذاك مِمّا يختار هو ويرى أنّه نافِعٌ لهذا العبد دون ذلك، وكان لديه مِقياسٌ لشِدّة الضّربة، فالضّربة الّتي كان يوجّهها إلى رجل تكون أقسى من تلك الّتي يوجّهها إلى امرأة، وهذه أقسى من تلك الّتي يُوجّهها إلى طفل.

وهكذا وُضِعت الشّعبتان في عُنُقي، وصرتُ عُضوًا في قافلة العبيد. كانت الشُّعبتان من خشبٍ قويّ، وكانتا تُحيطان بعنقي وتضغطان عليه كلّ مرّة من جهة حسب حركتي أنا والعبد الّذي أمامي، وكان يُمكن أنْ يكسر العنق إذا كانت الحركة سريعة، أو يُصيب

الواحدَ مِنّا بالاختِناق. وقال العمّ (جون) الّذي كان قد أحضر جوادًا جاهِزًا للامتطاء، وصار إلى جانبي: «ستعتاد على هاتين الشُّعبتَين. لا تقلق». ورأيتُ السّيّد (جونسون) يخرج من كوخٍ نظيفٍ، وهو يُعدّل مِنظقتَه الّتي يحمل فيها باغات الرّصاص والمُسدّسين، ورأيتُ العمّ (جون) يُهرَع بالجوادِ إليه، حتّى إذا صار أمام الكوخ، نزل السّيّد (جونسون) الدّرجات الّتي أمام الكوخ، ثُمّ حدثَ ما لم أتوقّعه، ولم أُشاهِده من قبل، جثا العمّ (جون) على ركبتَيه، وانحنى بجذعه، حتّى صارَ في مستوى الرِّكاب، ثُمّ رأيتُ السّيّد (جونسون) يطأ بحِذائه على ظهره، ويتّخذ منه درجةً يمتطيها ليسهل عليه ركوب جَواده. وبعدَ أنْ ركبَ السّيّد (جونسون)، قام العمّ (جون) من الأرض، وانحنى لسيّده من جديدٍ مُمتنًّا، ونظر السّيّد المزهوّ أمامه، وأشار بيده، فكان ذلك إعلانًا لبداية مسير القافلة!

ظللْنا نسير في الطّرقات، رِجالاً ونساءً وأطفالاً، حتّى نصل إلى مزرعة القطن الّتي تخصّ السّيّد (جونسون). عرفتُ أنّ السّيّد الّذي يركبُ الجَواد هو (فرانك)، وهو رئيس العُمّال، ويعمل لدى السّيّد (جونسون)، ولم يكنْ يعمل لحسابه طَوال الوقت، فإنّه كان أجيرًا، ويذهب إلى أيّ صاحبِ مزرعةٍ يدفع له أكثر في مراقبة العُمّال، ويجب أنْ تتوافر فيه صِفات القسوة والجِدّية، واستِخدام السّوط بمهارةٍ، ولرؤساء العُمّال أسواطٌ تختلفُ في الطّول والجَدْل والحجم عن غيرهم، وعليهم ألاّ يتكلّموا مع أحدٍ في أيّ أمرٍ خارج العمل ومتابعة سَيْره؛ ليكون الإنتاج أعلى ما يُمكن، وله الحقّ في أنْ يضرب،

أو يجلد، أو يبتُرَ حتّى أيّ عُضوٍ من جسدِ أيّ عبدٍ أسود إذا رأى أنّه يستحقّ ذلك، وله التّصرّف في أمر العبيد من العقوبة الّتي يراها مناسبة لضمان سير العمل باستثناء الإعدام.

سارَ معنا السيّد (جونسون) بجواده مسافةً من الطّريق، ثُمّ انفتل عند أحد المُنعطفات وغاب عنّا، وتابعْنا نحنُ سيرَنا حتّى وصلْنا إلى مزرعة القُطن. واستنجدتُ بالّذي أمامي لكي يُعلّمني قطفَ زهرة القُطن، فعلّمني: للقُطنِ نجايب، أو جوزة، هذه الجوزة تتشقّق مثل الوردة، ولها بتلات، وبداخل هذه البتلات، هناك القُطن الأبيض، عليكَ أنْ تتعلّم كيفَ تحصل من داخل البَتلات على الجزء الأبيض بأكبر ما يُمكنك، حتى لا يبقَى في الداخل منه شيء، لأنّ السّيّد (فرانك) يراقبُ كلّ مَنْ لا يهتمّ بذلك، خُذ هذا الجزء الرّخو الأبيض الجميل، وضَعه في السّلّة، كلّ واحدٍ معه سَلّة عليه أنْ يملأها، ثُمّ يذهب بها إلى بيدر القُطن، المكان الّذي نُجمّع فيه المحصول، وأشارَ إليه: «هناك».

بدأتُ بجمع القُطن كما تعلّمتُ، كان السّيّد (فرانك)، يعرفُ العبيد جميعهم، ويعرف أنّني جديد، فكان يُكثِر من مراقبتي، صرَخَ بي أكثر من مرّة، ونالني سوطُه على ظَهري مرّتين، وكان يزعق: «إنّه اليوم الأوّل لك؛ أليسَ كذلك أيّها الزّنجيّ، أنا لا أدري من أينَ يأتي سيّدكَ الأحمق بكم؟ اللّعين يترك أمر تعليمهم عَليّ، كم مرةً قلتُ له: ائتِ بالعبيد الّذين عملوا في مزارع القُطن من قبل، إنّك بهذا تُدمّر الإنتاج». وسألني: «ما اسمُك؟». فهتفتُ: «عمر». فزعق: «الاسم

الّـذي أعطـاه لـكَ سـيّدك؟». «ماريـان». «حَسَـنًا يـا ماريـان، اليـوم تغاضيـتُ عنـك... مـن غـدٍ سـأبدًا بمُحاسـبتك إنْ لم تتعلّـم قطـفَ القُطـن بمهـارة».

أخـذ منِـي التّعـب كلّ مأخـذ، سـألتُ العبـدَ الّـذي علّمنـي: «أليسـتْ هنـاك فـترة راحـة، منـذ الـشّروق ونحـن نعمـل؟». ضحـك: «كان هـذا سـؤالي كذلـك في اليـوم الّـذي جِئـتُ بـه إلى هـذه البلاد النّحسـة، هنـا...». وتوقّـف قليـلاً وأردف: «هنـا، سـتموت وأنـتَ تعمـل... ليسَ هنـاك وقـتٌ للرّاحـة، عندمـا تبـدأ الشّـمسُ بالزّوال، نتوقّـف عـن العمـل مـدّةً يـسيرةً للطّعـام والـشّراب، نـأكل ونـشرب بسرعـة ونعـودُ إلى العمل».

كُنّـا نحمـل سِـلال القُطـن، ونذهـبُ إلى البيـدر، أو مـكان تجميعه، وكان عـلى البيـدر عبـدٌ مـن العبيـد الثّلاثـة الّذيـن رأيتُهـم يُسـاعِدون إخوتهـم مـن العبيـد الآخريـن عـلى ربـط القيـود في أيديهـم، أو النِّـير في أعناقهـم. كان العبـد الوحيـد في المزرعـة كلّهـا القـادر عـلى تمييز الأسـماء، لديـه قائمـة بأسـمائنا جميعًـا، وكان يعـدّ عـلى كلّ عبـدٍ عـدد السّـلال الّتـي ملأهـا بزهـرة القُطـن، وعندمـا وصلـتُ إليـه بالسّـلّة الأولى، هتـف بي: «أنـتَ ماريـان؟ أليـسَ كذلـك؟». هـززتُ رأسي. أردف: «أنـتَ جديـد عـليّ، ولم يُضَـف إلى قائمـة الأسـماء لـديّ إلاّ اسـم ماريـان في هـذا الصّبـاح، فـلا بُـدّ أنّـه أنـت؟». هـززتُ رأسي مـرّة أخـرى. سـجّل في دفـتره السّـلّة، ونظـر في عينَـيّ وقـال بلهجـةٍ بـدتْ ودودة: «أنصحـك ألاّ تتقاعَـس، وأنْ تتعلّـم بسرعـة، أوّلاً لـن تـسلم مِـنْ سِـياط فرانـك إذا تقاعسْـت، ثُـمّ عـلى كلّ عبـدٍ أنْ يجمـع حَـدًّا مـن السّـلال لا يقـلّ عنـه، حتّـى لـو كان جديـدًا،

وإذا قلّ عن هذا الحدّ فإنّك لن تتصوّر العقوبة الّتي ستلحق بك».

هُرِعتُ إلى الحقل، أعرفُ أنّ النّجاة تكون بالانغِماس في العمل، فرحتُ أجتهد بكلّ طاقتي. كُنّا قد أنهِكنا تمامًا، لا أدري كيفَ يحتمل العبيد العمل كلّ هذا الوقت دون راحةٍ باستثناء فترة الأكل. قال لي العبد الّذي علّمني أوّل مرّة: «نحن نعمل في مزارع القُطن والقصب منذ عشرين عامًا، وبالوتيرة نفسها. إذا عرفتَ حجم المأساة يهونُ عليكَ احتمالُها».

كانت الشّمس قد بدأتْ ترحل. رفعَ العبدُ البوق ذاته الّذي نادانا به لنجيء إلى هنا، ولكنْ هذه المرّة لنحمل سِلالَنا ونعود إلى أكواخِنا. كُنّا قد عملنا خمسَ عشرة ساعةً متواصلة، ونالَنا فيها سوطُ السّيّد الأبيض، وسوط الجوع، وسوطُ العطش، وكان نصفُنا حافِيًا، ونصفُنا الآخَر شبهَ عارٍ. كان صوتُ البوق هذه المرّة جميلاً وموسيقيًا كأنّه صوتُ النّجاة من الموت، اصطففْنا بطريقةٍ سلسلةٍ كأنّنا بدأنا نعتادُها، وقام الثّلاثة إيّاهم، فوضعوا الأغلال في أيدينا، والأعواد ذوات الشُّعَب في أعناقنا، وقفلنا راجعين.

(٤١)

التّرويض!!

كان السّيّد (جونسون) والعمّ (جون) يجلسان في انتِظارنا، بادَره رئيس العُمّال حالَ وصولنا: «عليكَ أنْ تشتري عبيدًا يعرفون قطف القُطن بأسرعَ من هذا». وطافتْ نظراته على العبيد حتّى وقفتْ عندي. أشار السّيّد (جونسون) إلى العمّ (جون)، فقام هذا الأخير، وقَصَدني من بين العبيد جميعًا، وفَكّ قيودي، وأزاح الجذع ذا الشُّعبتَين الّذي كان يضغط على عنقي، وتنفّستُ الصُّعداء، وحرّكتُ كَفّي بحركةٍ اهتزازيّة من أجل أنْ أجرِي الدّم فيهما، ورحُت بإحدى كَفّي أضغطُ على رُسغي في الكفّ الأخرى لأشعر ببعض الرّاحة. ورحتُ أبتسم لأنّني أوّل عبدٍ تُفكّ قيوده، ولم أكنْ في أوّل السّلسلة ولا في آخرها، وحانتْ منّي التِفاتة إلى وجوه العبيد على ضوء المصابيح المركوزة فوق السّياج على مسافات مُتباعدة، والّتي أشعَلها العَمّ (جون) قُبيل وصولنا، فرأيتُ وجوهًا مُتوجّسة، كنتُ لا أزال أبتسم وأنا أرى الشّفقة والخوف في عيونهم، فيما راح بعضُهم يُشيح عنّي برأسه قبل أنْ تلتقي عيوننا. ولم أفهم شيئًا؛ لماذا ينظرون إليّ هذه النّظرات القَلِقة؟!

دَفَعني العم (جون) من ظهري إلى أقرب شجرة، وأمرني أنْ أحتضنها بذراعَيّ، وراح وسطَ دهشتي يربطُ بين طرفَي ذراعَيّ بسلسلةٍ أحكمت الدّائرة مع الشّجرة، ثُمّ مَزّق القميصَ عن ظَهري،

ثُمّ فجأةً تناولَ سوطًا، فأوقفه السّيّد (جونسون): «كلاّ، هذه المرّة سأقوم بهذه المهمّة بنفسي». وأخذ السّوط من العم (جون) وانهال عَليّ به. كنتُ ما أزال تحت تأثير محاولة فَهْم ما يجري، فلم أصرخ مع أوّل سوطٍ، وكنتُ لا أزال أفتّش عن الذّنب الّذي ارتكبْتُه من أجل جلدي بالسّوط بهذه الطّريقة المُهينة، لكنّني بدأتُ أصرخُ مع السّوط الخامس: «آه...». ثُمّ علتْ صَرخاتي من بعد: «آآآآآآآ....» ورحتُ أتوسّل وأبكي: «ما الّذي فعلتُه حتّى أستحقّ الجلْد؟». وكان الجلد يتمّ تحت سَمْع العبيد وبصرهم، وكانَ ألم الإهانة مع ألم الجَلْد، وظلّ السّيّد جونسون يضربني، حتّى بدأ الدّم يسيل في خطوطٍ متعرّجة على ظَهري، وبدأتْ يداي ترتخيان، وفكّي يتهدّل، وعيوني تَزيغ، وكنتُ لا أزال أسمع لُهاث السّيّد جونسون وتعبَه، وهو يتوعّد: «عليكمْ أنْ تتعلّموا بأسرع من هذا...». وسقطَ السّيّد (جونسون) على الأرض من الإعياء، وكنتُ أنا قد أُغمِي عَليّ.

صرفَ السّيّد (جونسون) العبيد إلى أكواخهم، وهو يزعق: «هَيّا أيّتها الخنازير اللّعينة... اغربوا عن وجهي... إنّ الخنازير أكثر فائدةً منكم أيّها الكُسالَى». وأشارَ العم (توم) للعبيد، ففُكّتْ قيودُهم على عَجَل، وأُدخِلوا وهم يرتعِشون إلى الأكواخ. فيما حَمَلني العمّ (توم) بمعاونة عبدٍ آخر اسمه (دانيال)، وأدخَلاني إلى الكوخ الّذي نمتُ فيه اللّيلة الفائتة.

كنتُ لا أزالُ فاقِدًا للوعي، عندما، دخلت العَمّة (تيري)، وبيدها مسحوق، وراحتْ تفركُ به ظَهري بلطف. كانتْ قد أتمّتْ

نِصفَ مَهمَّتِها عندما صدرتْ منّي أنّة خافتة، ثُمّ تبعتْها أنّةٌ أخرى، ثُمّ استيقظتُ مع الأنّة الثّالثة. نظَرت العمّة (تيري) إليّ وأنا لا أزال مستلقِيًا على بطني، وهي تُعالِج آثار السّياط الّتي انحفرتْ على ظهري، وقالت: «ستُشفَى قريبًا. الحمدُ لله أنّكَ لم تمت». لم أجدْ لِما تقوله أيّ معنًى في حالتي، فلقد كنتُ في تلك اللّحظة أتمنّى لو أنّني مُتّ على الحقيقة. اقتربَ شخصٌ آخَر رأيتُ شبَحه حينَ وقع بين نظري وبين المصباح المُعلّق، وقرفص بالقرب منّي وقال: «أنا دانيال». وابتسمَ ابتِسامةً حزينة، كان رجلاً في أواسط الخمسينات، هكذا قدّرْتُه، وأردف، وهو يُشيح بنظره بعيدًا: «ستُشفَى. ستهتاج عليك الجروح ربّما ثلاثة أسابيع أو شهر، لكنّكَ نجوت». تنهّدْتُ، وسألتُه: «أينَ العَمّ جون؟». ردّ: «إنّه ينام في ملحقٍ بجانب كوخ السّيّد (جونسون)، ماذا تريدُ منه؟». «كنُت أودّ أنْ أسأله بما أنّه هو الّذي قيّدني إلى جذع الشّجرة، عن الجُرم الّذي ارتكبتُه من أجل أنْ ينهال عليّ السّيّد (جونسون) بهذه الوحشيّة». «لا تسأله، أنا أعرف». «أنتَ تعرف؟!». «كلّ العبيد هنا يعرفون». «إذًا قُلْ لي بربّك ما ذنبي؟». «أنتَ لم تصل إلى عدد سلال القُطن الّتي يجب أن تصلَ إليه؟». «وهل هذا ذنب؟». «بالطّبع..» ثُمّ استدرك: «عند السّيّد الأبيض...». «لكنّه اليوم الأوّل لي في قطف القُطن». «إنّه لا يهمّه ذلك... ثُمّ...» وسكت، فاستنطقتُه: «ثُمّ ماذا، هل هناكَ سببٌ آخَر؟». «نعم، إنّه التّرويض». سألتُ مُستغرِبًا: «التّرويض؟!». «نعم، كلّ عبدٍ جديدٍ يشتريه يقوم بضَربِه بهذه الطّريقة لكي يتمّ ترويضه، وينخرط في سِلك العبيد». وشعرتُ للحظةٍ بالغَثيان، وتقيأتُ على الفَور.

كانتِ العَمّة (تيري) قد أتمّتْ مَهمّتها، وابتسمتْ من جديد، وقالتْ: «لم يصل إلى العظم. أنت قويّ. وستُشفى». جاءني (دانيال) بكأسٍ من الماء، ثُمّ أجلسني ببطء، لكنّني لم أستطِعْ، فأضجعني على جانبي الأيمن، وجعلَ تحت مِرفقي شيئًا من الخيش، وأسقاني الماء. ثُمّ جاءت العَمّة (تيري) من الزّاوية البعيدة الّتي كان يقف فيها اثنان، بصحنٍ معدنيّ صغيرٍ فيه طَعام، وقالت: «حُصّتك، خبأتُها لك حتّى تستيقظ». وراحتْ تُطعمني إيّاها. شعرتُ بشيءٍ من الطّمأنينة، لكنّ جوارحي كانتْ تصرخ: «يا ربّ إبراهيم أيّ خطيئةٍ دفعتْنا إلى هذه البلادِ المجنونة؟!».

كنتُ قد استعدتُ وعيي تمامًا، وكان (دانيال) قد جلس قربي، وقال مشيرًا إلى الآخرين الموجودين في الغرفة: «نحن عائلة». وقرفصتُ إلى جانبه العمّة (تيري)، ثُمّ أشارَ إلى الشّابّين البعيدَين، وقال: «هذه (ويندي)، وهذا (بيتر)، وهما ابناي، وُلِدَا عبدَين كما ترى. أنا جِئتُ شابًّا من غينيا إذا كنتَ تعرفها...» قفزتْ بلادي إلى روحي وهو يسألني إنْ كنتُ أعرفها، قاطعتُه: «أنا من فوتا تور.. من السّاحل الغربي...». ابتسم، وأكمل: «جِئتُ إلى هنا، أعني... تعرف... باعوني عبدًا وأنا في الثّامنة عشرة من عمري...» وكشفَ عن ظَهره، وتابع: «تعرف، هذا الوسم، الّذي لم ينجُ منه أحدٌ... كانتْ أمّي معنا، وأبي كذلك...»، قاطعْتُه: «ليتهما كانا معي، أبي قُتِل برصاصةٍ في رأسه داخل بيتنا، ولا أدري ما حلّ بأمّي، ولا بزوجتي...» أكمل وهو يبتسم، وطَرَفا عينَيه يدمعان: «أمّي اغتُصِبَت أمام أبي في

بيت العبيد، ثُمّ قتلوها وألقَوا جُثّتها في البحر، وأبي حُمِل معنا في ذات السّفينة الّتي عبرت البحر الكبير، لكنّه كان مُشترِكًا في شغبٍ حدث فوقَها، فقُطِعَ رأسُه مع سبعةٍ آخرين من العبيد وعُلّق على أسياخ من الحديد على أطراف السّفينة، وكانوا يُخرِجوننا من القبو كلّ يوم لمدّة أسبوع لكي نراهم ولا نُفكّر بالعودة إلى الشّغب مرّة أخرى، ثُمّ يُعيدوننا إلى القبو... تمنّيتُ في لحَظاتٍ كثيرةٍ أنْ أقبّل رأسَ أبي المقطوع، أو أبكي على ما تبقّى منه، ولكنّ العقوبة كانتْ أنْ يضعوا رأسي إلى جانب رأسه، بعد ذلك بقينا في القبو عشرة أيّام لم نخرج منه، وعندما خرجْنا كانت الرّؤوس قد اختفتْ... كلّ ما كنتُ أتمنّاه أنْ أحضن رأسَه بينَ يدَيّ ولو للحظة قبل أنْ يُلقوا به في البحر، فيغوص حتّى يختفي في تجويف حجرٍ في القاع...». شعرتُ أنّ آلامي تخفّ مع آلامِه، بعضُ الألمِ يُنسي الألم، صمتُّ هذه المرّة، وهززتُ برأسي أشجّعه على أنْ يُتابع، فأردف، وهو يمسح دموعه بأطراف أصابعه: «بقيتُ في خدمة الرّجال البيض خمسةً وثلاثين عامًا، بعدَ عشرين عامًا في خدمة مالكي قبل هذا المالك الشّرير، سمحَ لي بالزّواج، فتزوّجت العمّة (تيري)، كُنّا ما نزالُ شبابًا...» وضَحِكَ وضحكتُ، وأردف: «لا يغرّنّك الشّيبُ الّذي علا رؤوسنا... لقد رأينا ما يُشيب... وأنجبتْ لي (تيري) (بيتر) و(ويندي)، إنّهما جيلان كما ترى، لكنّهما عبدان... وهما... وهما لا يسلمان من تحرّش السّيّد جونسون الحقير». جاءا فجلسا إلى جانب أبوَيهما، وتابع هو: «قَدَرُنا أنْ نحيا في هذا البؤس. لم نكنْ نملك مالاً حتّى نشتري أنفُسنا. لم يُسمَح لنا بالعمل مقابل

أجر، ولا في أيّ سنةٍ من السّنواتِ الّتي تقترب من الأربعين عامًا...».
نهضتُ قليلاً بجذعي: «ولكن...». وتوقّفتُ، وأجلتُ نَظَري من حولي، وأكمل هو عنّي: «ماذا تريدُ أنْ تقول؟ تريدُ أنْ تقول: ألم تُفكّر بالهرب؟ بالطّبع يا (ماريان)...» قاطعتُه: «أنا عمر...» ابتسم: «لن يُناديك به أحدٌ مِنّا نحن العبيد، ليس لأنّه لا يريد ذلك، بل لأنّ السّياط ستهوي على وجهه إذا سمعه أحدٌ البيض... ولكنْ إكرامًا لك... ولأنّ السّيّد لا يسمعنا، فسأقول... بالطّبع فكّرتُ بالهَرب، ليس هناك عبدٌ في هذه البلاد الملعونة لم يُفكّرْ بالهرب... لكنّ نجاح الهرب يساوي تمامًا نجاتك من الغرق حين تُلقَى في بحرٍ عميق مُقيّد اليدَين والرّجلَين... أنا أنصحك أنْ تُفكّر في أشياء أخرى ربّما تعود عليكَ بالفائدة، تعَلّمْ مثلاً صناعة المعالف». اعتدلتُ وأنا لا أزال أتلوّى من الألم، ونظرتُ إليه بتحدٍّ: «ما الّذي سيحدث إنْ هربتُ...؟! ألا ترى أنّ الهروب سهلٌ...؟! أطلِقْ ساقَيك للرّيح، وإذا كنتَ قويًّا وبصّحة جيّدة، فستبتعد مسافةً كافيةً قبل أنْ يلحقَ بكَ أحدٌ». ضحك، وقال وهو يضع كفّه على خَدّه: «الأمر ليس بهذه السّهولة أبدًا». فحدّقتُ فيه من جديد: «لا أدري كيفَ صبرتُم على هذا العذاب كلّ هذه السّنوات؟!». مدّ هذه المرّة رجلَيه، وكانت العمّة (تيري) تعبثُ بعودٍ في الأرض، كأنّ الكلام لا يعنيها، وقال: «يا (عُمر)، أنا هنا منذ اثنتي عشرةَ سنةً أخدم السّيّد (جونسون)، إنّه قاسٍ بلا شَكّ، قاسٍ جِدًّا، ولكنْ هناكَ سادةٌ بِيضٌ أشدّ منه قسوة. أنتَ لم تعرف عن الوحشيّة شيئًا بعدُ». تنهدّتُ أردتُ أنْ أقول له: «الجُبناء هم وحدهم

لا يُقدِمون على الحرب. على المرء أنْ يتحلّ بالشّجاعة حتّى يفعلها». ولكنّني صَمتّ، وقال هو: «أنصحك مرّة أخرى؛ لا تُفكّر بالحرب... والآن، هَيّا سننام، علينا أنْ نرتاح، غدًا لدينا عملٌ طويل». أردتُ أنْ أسأله: «هل سأذهب أنا أيضًا لجني القُطن معكم وأنا بهذه الحال؟». وخفتُ أنْ تكون الإجابة المرعبة بـ:»نعم»، فآثرتُ أنْ تظلّ الإجابة مجهولةً، وأنْ أعيش على أمل أنْ يرأف المالك بي، فلا يبعثني إلى المزارع بهذه الحال المُزرية!

(٤٢)

الشّعوب الّتي تعيشُ على الخُرافات يَسهُل استعبادُها

أيقظنا البُوق، كان يوقظ العِظام الرّميمة، صحونا، قال لي (دانيال): «تهيّأ للخروج». نظرتُ إليه، وأنا لا أكادُ أقوى على النّهوض بجذعي: «وأنا في هذه الحال؟». ردّ: «إنّهم لا يشعرون بنا؟ هذه الأوجاع الّتي تهدّ الجِبال لا يحسبون لها حِسابًا، إنّهم لا يفهمون إلاّ في الأرقام، وإذا حصدتَ اليومَ عددًا من سِلال القُطن أقلّ من أمس، فستلقَى كلّ هذا الجلد الّذي سيقضي عليك». قلتُ بيأس: «إذا كان سيُقضَى عليّ في الحالَين، فليقضُوا عليّ هنا». رَدّ: «الديكَ فرصةٌ للنّجاة إذا قمتَ، هَيّا بِنا». كان العمّ (جون) قد صار على الباب: «هَيّا يا (ماريان) لن يرحمكَ السيّد (جونسون)، عليكَ أنْ تعرفَ هذا». لم تُغِظني قسوة السّيّد (جونسون) بقدر ما أغاظتْني مناداته لي بـ (ماريان).

نهضتُ متحامِلاً على نفسي. انتظمْنا في الصّفّ. كان ورائي (دانيال)، همس: «ستُقاوم. لا أسمح لكَ أنْ تستسلم، هل تسمعني؟». بعثتْ كلماته الهِمّة في نفسي، تذكّرتُ أيّام التّعب في (توبا)، كُنّا نتداوى من التعَب التّعب، نغمسُ أنفسَنا فيه بعد أنْ يكون بلغَ مبلَغه العظيم حتّى ننسى.

صارتْ يداي مع تعبي أمهر في قطف القُطن، الشّرير لو تجاوز عنّي أمس، لأريتُه أنّني أفضلُ مَنْ يعمل في مزرعته... أما وقد ملأ ظهري بالحُفَر، فلن أكون كما يجب أنْ أكون، لكنّني لن أسمح لنفسي أنْ أقطفَ عددًا من السّلال أقلّ مِمّا فعلتُه أمس». همستُ لنفسي، لقد استيقظَ فِيّ نداء الحياة القويّ.

رحتُ أستعلي على جِراحي، لن يهزمني هذا الرّجل الشّرير، عملتُ بجِدّ كأنّني صحيح البدن تمامًا، قبُيل الظّهر سقطتُ على الأرضِ من الأعياء، كانتْ جروح ظهري قد نزفتْ دمًا كثيرًا، سارع (دانيال) حتّى لا يراني (فرانك) فَرَشّ بعضِ الماء في وجهي، وسَقاني شيئًا منه، فتعافيتُ وقمتُ من جديد. توقّفْنا قليلاً للطّعام، أكلْنا في أقلّ من نصفِ ساعة، كنتُ محتاجًا إلى بعضِ الطعام لأُقيم جسدي على رِجلَيّ، شربتُ ماءً كافِيًا، وانطلقتُ من جديد كأنّني بدأتُ للتّوّ، قُبَيل الغروب أُغمِي علَيّ ثانِيةً، أيقظني (دانيال) برشق الماء في وجهي، ومَسَحه به. كان مَلاكي الحارس، كان صديقًا حقيقيًا، قال لي: «هَيّا قبل أنْ يراكَ المُراقب، فتستيقظ فيه الوحشيّة». تابعتُ العمل، وأنا لا أكادَ أقوى على الرّؤية، كانت الأشياء قد بدأتْ تتغبّش في مدى بصري، اختلطتِ الألوان والموجودات، وسال بعضُها فوقَ بعضٍ، وكدتُ أسقطُ للمرّة الثّالثة، لولا أنّ بوق انتهاء العمل راح يُطلِق موسيقاه الجميلة!

في كوخنا المُشترك، الكوخ الّذي قال عنه (دانيال) إنّه كوخُ العائلة، قضيتُ ليلتي الثّالثة، تابعت العمّة (تيري) مسح

جروحـي وترطيبهـا بالمـاء، قالـت وهـي تُعايـن الأخاديـد المُتقاطعـة في ظهـري: «لا بُـدّ أنّ الله يُحبّـك، لقـد مـات بأقـلّ مـن هـذه الكثيـرون قبلَـك». ابتسـمَتْ: «يبـدو أنّـكَ بسـبعة أرواح». ضحكـتُ: «هِـي روحٌ واحـدة، ولكـنّ الصّـبر يوسّـع مـدّة إقامتهـا في الجسـد». اتّسـعتْ ابتسـامتُها، وضحكـتْ ضحكـةً خفيفـة: «يبـدو أنّـكَ تعـرفُ أشـياء كثيرة». «أنـا؟». هَزّتْ رأسَـها. أجبـتُ: «نعـم، مـاذا تعرفـين أنـتِ عـن إفريقيـا». قالـتْ: «ليسَ كثيرًا». «بعضُنـا لا يعـرفُ غـير أسـاطيرها، لأنّـه لم يحظَ بفرصـةٍ ليتعلّـم». «أسـاطير؟». «الأسـاطير الّتـي كانـتْ تُـروى في المسـاءات، حـينَ تميـل الشّـمسُ للغـروب، ثُـمّ تسـقطُ خلـف التّـلال البعيـدة كأنّهـا كـرةٌ نحاسـيّة، ثُـمّ يصبـح الهـواء بـارِدًا مُنعِشًـا، ويسـود الهُدوء المـكان، قبـل أنْ يبـدأ وقـت (التـوم- تومـز)، ونقيـق الضّفـادع، وصـوتُ جداجـد اللّيـل، في وسـط السّـاحة الدّائريّـة الّتـي تُحيـط ببيـوت العائلـة، حيـثُ تكـون النّسـاء قـد أعـددنَ وجبـة (الفوفـو) مـن الـذّرة الشّـعبيّة، والرّجـال يُقرفِصـون حـول هـذه الدّائـرة عُـراةً مـن نصفهـم الأعـلى، لا يلبسـون إلاّ خرقـةً تُغطّـي عوراتهـم، ويدخّنـون مـن غلايـين قصـيرة مصنوعـة مـن الطّـين، والأطفـال عرايـا تمامًـا، وصاحـب الطّبـل ينتظـر الإشـارة مـن سـيّد المـكان ليبـدأ الـضّرب عـلى طبلـه بإيقاعاتـه الّتـي يرقـص عليهـا الجميـع، ويُغنّـون أغانيهـم الرّعويـة، فـإذا سـكتوا قـام الحَـكّاء، فقـصّ عليهـم الأسـاطير». كانـت العمّـة (تـيري) تُصغـي باهتِـمامٍ مُتعجّبـة، وكذلـك (دانيـال) فيـما لم يبـدُ اهتِـمام عـلى الولدَيـن. طفـرتْ دمعـة مـن عينَـي (تـيري): «لقـد أعدْتنـا إلى حكايـا أبي». قلـتُ

لها: «بهذه الأساطير، وبهذه الطّبول صرنا اليوم إلى هنا، لقد كانوا يستخدمونها فَخًّا لاصطِيادنا... حدثَ ذلك لأنّنا لم نكنْ مُتعلّمين... لم نجدْ مَنْ يُحرّرنا من الأساطير والخُرافات... نحنُ لسنا شعبَ خُرافات، الشّعوب الّتي تعيش على الخرافات هي شعوبٌ يسهل استِعبادها..». أحدّتِ النّظر فِيّ: «هل تقول ذلك عن تراثِنا؟!». «ليسَ تراثَنا يا (تيري)، ليس تراثنا، بل أوهمونا أنّه تراثُنا... تراثُنا هو دينُنا». زمّتْ شفَتَيها: «أيّ دين؟». «الدّين الّذي جاء به أجدادُنا إلى بِلادنا، الإسلام». هزّتْ رأسَها: «يبدو أنّكَ تعرفُ أشياء كثيرة، أكثر مِمّا ينبغي لعبد». رددتُ: «وستعرفون ما أعرف». تلفّتَتْ حولَها، وغيّرتْ من نبرةِ صوتِها: «عليكَ أنْ تأكل. الجروح يجب أنْ تتعافَى».

ظلّتْ العمّة (تيري) تقتطع من حصّتها من الطّعام من أجلي، وكانتْ تقول: «سوفَ نغلق هذه الأخاديد الّتي في ظَهرك بزيادة كمّيّة الطّعام. السّيّد (جونسون) بخيل، وهو يحسب طعام الواحد منّا بالحبّة». سألتُها: «ولكنّ العمّ (جون) هو المُكلّف بتوزيع الطّعام علينا، فلماذا لا يسخو على إخوته بشيءٍ من الزّيادة؟». شهقتْ (تيري)، وضربتْ صدرها بباطن كَفّها: «إنّه لا يستطيع، لو اكتشفَ السّيّد (جونسون) أنّه يفعل ذلك، فسيكون ذلك آخرَ يومٍ في حياته».

تعافيتُ مع الزّمن. الزّمن طريقٌ للشّفاء والتّعافي. صحبة العمّة (تيري)، والعمّ (دانيال) طريقٌ أخرى للشّفاء، لقد رَعَياني كما لو كنتُ ابنَهما.

كُنّا نعمل في اليوم خمسَ عشرة ساعةً، كُنّا نسمع صوتَ البوق مع غروب الشمس، مع سقوطها اللّطيف في الأفق الغربيّ، ثُمّ صارتِ الشّمس تسقط في ذلك الأفق ولا نسمع البوق! صارتِ الشّمس تغربُ قبل أنْ يمضي علينا خمسَ عشرة ساعة بسبب تقلّب الفصول، وكُنتُ أظنّ أنّ غروبها هو مؤشّر انتهائنا من العمل، ولكنّ ذلك لم يحدث، وصرنا نعمل حتّى بعدَ الغروب، كان هناك عبيدٌ يأتون بمصابيح يحملونها في الأشهر الّتي بدأتْ تغربْ فيها الشّمس في ساعةٍ أبكر، كانوا مُكلّفين بإيقادها، وتوزيعها على مسافاتٍ متباعدة بحيثُ يرى الجميع المحصول الّذي يحصدونه، وهكذا صرنا نعود مع العِشاء. ولم يكنْ أحدٌ من مُلاّكنا يرحمنا، أو يخفّف عنّا ساعةً من العذاب!!

ظللتُ طَوال شهوري الأولى أُصلّي هنا بالسّرّ، لم أكنْ قادِرًا على الجهر بعبادتي أمام العبيد، ولم أكنْ أثق بأحدٍ، أو هذا ما تعلّمته منذ اليومِ الأوّل، وأكّد به عليّ (دانيال): «الثقة مَزلَقة». وكان يكفي أنْ أومِئ برأسي وأنا أعمل في المزرعة، وأحرّك جذعي بحركات لا يشكّ فيها الرّائي، ولا يحسبها إلاّ انحِناءً لالتِقاط شيءٍ من المحصول، أو أداةٍ من الأرض! ولم نكنْ نجدُ ماءً كثيرًا لنشربه في المزارع حتّى أجدَ الماء للوضوء، فكنتُ أتيمّم، وأحاول بكلّ ما أستطيع ألاّ أُضيع صلاةً واحدة، ولكنّ ربّ الصّلوات الّذي كان يرى كلّ شيءٍ ويسمعه، هو الّذي قال: «لا يُكلّف الله نفسًا إلاّ وُسعَها».

بدأنا نتناقش أنا و (دانيال) في أمورٍ كثيرة، كُنّا نجلسُ في الكوخ الّذي نظّفته العمّة (تيري) وابنتُها فصار صالِحًا بعضَ الشّيء

للمبيت بعد أنْ كان إسطبلاً للخيول، ومع تهيئته للمبيت، إلاّ أنّه لم يكنْ واحدٌ مِنا يجد فِراشًا ولو مِنْ حصيرٍ لينام عليه، فكُنّا ننام الخمسة على الأرض، ولا نجدُ ما يقينا البردَ في الشّتاء حتّى خيشًا أو قماشًا مُهترِئًا!

كان الحديث الّذي يسود بين العبيد في أمسياتهم، يدور حولَ أحلامهم البعيدة في الحُرّيّة، وحول تذكّر عهودهم قبل أنْ يجيئوا إلى هنا، وحنينهم إلى الماضي، وإلى أوطانهم، ومرابع صِباهم، لم يكونوا يقولون شيئًا كثيرًا، ولربّما غَنّوا بعضَ أغانيهم الّتي أحضروها معهم من تلك البلاد. وكنتُ أنا من هؤلاء بطبيعة الحال. أمّا العبيد الّذين كان يشتطّ بهم الحديث في مجال السّياسة، وهذا نادِرًا ما كان يحدث، فإنّ حديثهم كان يدور حول تحرير العبيد في برامج نفرٍ قليلٍ من الرّؤساء الّذين يترشّحون للانتخابات. قال لي (دانيال) ذات مرّة: «لا تُصدّقْ رؤساء أمريكا أبدًا، لا تُصدّقهم ولو حلفوا أمامك، إنّهم يكذبون كما يتكلّمون». وسألتُه: «ماذا تعني؟». فردّ: «جورج واشنطون أوّل رئيس لأمريكا الّذي أراد أنْ يظهر بمظهر الدّاعي إلى حقوقنا، لم يفعل أكثرَ من أنّه أوصى -من رَحمته- عندما حَضَرَتْهُ الوفاة أنْ يُعتَقَ كلّ عبيده، لكنْ... بعدَ موت زوجته». قلتُ وأنا أضربُ كَفًّا بكفّ: «يا لَقلبِه الكبير!». «رؤساء أمريكا وقادة الجيش والإقطاعيّون وكلّ مَنْ يملك قليلاً من المال يستعبدوننا، ولنْ يتخلّوا عن وضع القيود في أيدينا، ولا السّماح لنا بالتعلّم، ولا العمل مقابل أجر... نحن نحلم، نحلم كثيرًا يا عُمر». سألتُه وهو يتدفّق بالكلام بحرقة: «وأنتَ كيفَ عرفتَ ذلك؟». «أنا؟». «نعم، مِنْ أينَ تأتي

بهذا، هل تحضر اجتماعاتهم؟». اقتربَ منّي، ونظرَ حولَه، وهمس، كأنّه لا يُريد لأحدٍ آخَرَ أنْ يسمعنا: «كلّا، أنا تعلّمتُ القراءة والكتابة هنا، وأتسلّل أحيانًا إلى غرفة العم (جون) وأقرأ الصّحف الّتي يبعثها البريدُ للسّيدّ (جونسون)، وأحيانًا أتظاهر بتنظيف مكتب السّيّد (جونسون) وأقرأ بعض الكتب أثناء غيابه عن المزرعة؛ السّيّد (جونسون) يملك مكتبةً صغيرةً في كوخه». وسألتُه: «هل يُمكن أنْ نقرأ من مكتبته؟!». ورأيتُه ارتجف بدنُه رجفة سريعة، ووضع يدَه على عنقه، وهمس: «لو أمسكَ بنا فإنّه سيشنقنا تحت أعلى شجرة، وسيجعل أجسادَنا تتدلّى ثلاثة أيّام أمام بقيّة العبيد لكي يشاهدوا نتيجة جرمنا، وفظاعة أعمالِنا!».



(٤٣)

لا تحلمْ كثيرًا

البـوق اللّعين، صوتُـه المُخيـف الّـذي ترتعـشُ لـه الأوصـال، صـوتُ الجنائـز، العمـل المُسـتمرّ، الـدُّم الّـذي يسـيلُ كـما يسـلُ العَـرق. النّظـرات الزّائغـة. اللُّهـاث الدّائـم، القامـات المحنيّـة، العيـون الحائـرة، الرّحـة المفقـودة. الطّريـق القاسية، اليـد الأقسـى، القلـب الّـذي قُـدّ مـن صَخـرٍ؛ أيّهـا السّـيّد الأبيـض ألا توجـدُ هدنـةٌ مـع المـوت؟ ألا توجـدُ فـترةٌ يسـتريحُ فيهـا هـذا الجَسَـدُ المُنهَـك؟! ألا يوجـدُ في قلوبكـم مِقـدارُ ذرّة مـن رَحـة؟ نحـن أيضًـا بشر، مـن لحـمٍ ودم، ولنـا قلـوبٌ نابِضـة، ولنـا أرواحٌ حَيّـة، ألا يوجـدُ هدنـة؟! الرّحـة... الرّحـة أيّهـا السّـيّد الأبيـض!!

أكلَ القُطـنُ مـن عافيتنـا، مـن حياتنـا، مـن أعمارِنـا المهـدورة ونحـن نركـضُ خلفَـه، كان بَياضُـه قاتِـلاً، زهرتُـه الجميلـة الّتي تتفتّق عنها الأكـمام صـارتْ تبـدو لنـا قاتِـلاً يتربّـص بنـا، يطلُـعُ لنـا في المنام، زَعقَـات السّـيّد (فرانـك) هـي الأخـرى كانـتْ قاتِـلاً يُضـاف إلى سلسـلة القَتَلَـة، سـوطهُ الّـذي يزيـد عـن أربعـة أذرع، ضربُـه الماهـر، تأديبُـه المُسـتمرّ... كلّ ذلـك كان يطلـع لنـا في المَنـام، يُنغّـص علينـا هـدْأةَ اللّيـل. أصعـبُ الأوقـات هـي تلـك الّتـي نـأوي فيهـا إلى فُرُشِـنا، ومـع أنّهـا يُفـتَرَضُ أنْ تكـونَ أهونَهـا، وأجملَهـا، وأعذَبَهـا، وأهنأهـا، فهـي راحـةٌ مـن بعـدِ تعـب،

ونـومٌ مـن طـولِ اسـتيقاظ؛ إلاّ أنّهـا كانـتْ وعـدًا بالشّـقاء المُنتَظَـر، وعـدًا بالمـوتِ المُحتَمَـل، وعـدًا بصباحٍ كلّـه ضنَـكٌ وعَطَـشٌ وجـوعٌ، فكنّـا ننـام ونحـن نرتجِـف، ونغفـو - إذا غَفَونـا - كأنّنـا نغفـو عـلى مِهـادٍ مـن شـوكٍ وجِـراب.

لم نكـنْ - بالطّبـع - كعبيـد يُسـمح لنـا أنْ نرافـق العَرَبـات الكبـيرة الّتـي تـأتي كلّ أسـبوعٍ مرّتـين أو ثلاثًـا، لتأخـذ مـا قطفنـاه مـن زهـرة القُطـن، وتذهـب بـه إلى المصانـع أو المَحالـج. كنـتُ أتحـرّق شـوقًا لكـي أرى مـا يحدث في تلك الأماكـن، وكيـفَ تتحـوّل هـذه الزهـرة اللّيّنة الطّريّـة إلى لِبـاسٍ، وإلى مِخـدّات ناعمـة، وإلى فُـرُش مرفوعـة؛ إنّهـا حُلُـم المحـروم. بالطّبـع لم يكـنْ لنـا نحـن العبيـدَ في الولايـات الجنوبيّـة، ولا حتّـى في أمريـكا كلّهـا أنْ نحصـل عـلى جـزءٍ ولـو يسـيرٍ مِمّـا نحصـده، لم يكـنْ لِتَعبنـا طَـوال الموسـم أنْ يَهَبنـا عنـد السّـيّد الأبيـض أيّـةَ قيمـة، كُنّـا نمـوت؛ نمـوت عـلى الحقيقـة في المـزارع مـن أجـل أنْ ينـام السّـيّد الأبيـض عـلى البُسُـطِ الوثـيرة، ويهنـأ بنـومٍ ليّن. وأمّـا نحـنُ، فلنـا المـوت الزّؤام، أو الجحيـم إذا بقينـا عـلى قيـدِ الحيـاة!

لم يكـنِ السّـيّد (جونسـون) يُعطينـا لِباسًـا نسـتر بـه أجسـادَنا العاريـة إلاّ مرّتـين في السّـنة، لِبـاس الصّيـف ولبـاس الشّـتاء، وكان لِبـاس الصّيـف الّـذي يُفـتَرَض بـه أنْ يسـتمرّ صالِحًـا للّبـس سـتّةَ أشـهر يتعـرّض للتمـزّق مـن أوّل شَـهر، فلقـد كُنّـا نعمـل بـين الحجـارة والشّـوك، ونكـدح بـين الصّخـور والأتربـة والزّواحـف، وإذا قُـدّر لنـا

أنْ نسلمَ من هذه الأخطار، كانتْ سِياطُ أسيادِنا تنهال على ظهُورنا بسببٍ أو بدونه، فيتمزّق الثّوب من أوّل ضربةٍ، وكثيرًا ما كنتَ ترى بعضَنا يقضي وقتَ العمل كلّه دون شيءٍ يستر نصفَه الأعلى. وكان لِباس الشّتاء لا يختلف كثيرًا عن لِباس الصّيف، لم يكنْ يقينا البرد، ولا حَزّ العِظام، ولم نكنْ نملك من وسيلةٍ للتّدفِئة إلاّ أنْ نُشعل النّار في أكواخِنا، إذا سمَحَ لنا بذلك السّيّد الأبيض، وكُنّا نحمل الحطب الّذي سنوقد به النّار من الطّريق إذا حالَفَنا الحظّ، فلم يكنْ مسموحًا أنْ نأخذ جذعةً واحدةً من أخشاب السّيّد (جونسون) المُكوّمة أمام كوخه الأنيق، والّتي يُلقمها العمّ (جون) في موقد ناره الأكثر أناقةً. وكان السّيّد (جونسون) يقضي مساءاته الشّتوية، أمام الموقد في جوّ مُشبَع بالدّفء، ونحن نتكوّر ونرتجف من البرد على بعدِ خطواتٍ منه، وكان يتسلّى بقراءة الصّحف، ونحن لا نقوى على الحديث من رعشة القَرّ، وكان يدخّن من غليونه على الدّوام وينفثُ دُخانه في الفَضاء، وهو يمدّ رجلَيه على مِخدّة من القُطن الممتاز، عاقِدًا نهايتَيهما باسترخاء!

لم يكنْ لنا، ولا لأيّ عبدٍ، باستثناء واحدٍ ربّما، ذلك هو العمّ (جون) أنْ ينامَ على فِراش، جميعُنا كُنّا ننام على الأرض، على أرضيّة صلدة، يتخلّل منها البرد في أجسادِنا تَخلُّلَ الضّباب القارس بين الأشجار. أو ننام على أرضٍ طينيّة، تفقد صلادتها في الشّتاء، فنحسّ أنّنا ننام على الطّين. المحظوظ مِنّا من استطاع في غفلةٍ من العمّ (جون) والسّيّد (جونسون) أنْ يصنع لوحًا من الخشب، بضمّ

فَلَقَاتٍ من جذوع الأشجار، ورَبْطِها بعضِها إلى بعض، لكي تشكّل حاجِزًا بين جلده وبين الأرض الذّابحة!

كان موسم القُطن ينتهي بانتهاء الخريف تقريبًا، وكانتْ هناك بضعة شهور من فصل الشّتاء تفصل بين موسم القُطن وموسم قصب السُّكّر. وفي هذه الأشهر الباردة لم يكنْ يُسمَح لواحدٍ من العبيد أنْ يرتاح أبدًا، فكُنّا نقوم بأعمال لا تقلّ إنهاكًا من العمل في المزارع، ولم يكنِ الطّبخ للسّيّد، أو غسل ثيابه، أو تنظيف إسطبلاته، أو إطعام خيوله وثيرانه، أو تنسيق الورود النّابتة في حديقته، أو ترتيب جونات القَشّ، أو إصلاح السّياج، أو سَنّ الفؤوس والمعاول، أو... يُعَدّ عند السّيّد الأبيض عملاً يستحقّ الذِّكر!!

بعد أنِ انتهى موسم القُطن، أَخَذَنا مُراقبُ العُمّال (فرانك) إلى أرضٍ جديدة، أرضٍ لم تطأها قبلَنا قدمُ إنسان. وأعطانا معاول ومرافش وفؤوسًا، وطلبَ مِنّا أنْ نعمل لَها مَسْحًا كامِلاً؛ وكان المسح الكامل يعني أنْ تُسوّى كلّها على انبساطٍ واحد، فكلّ ما فيها من هَضباتٍ يجب أنْ يُزال، وكلّ ما فيها من حُفَر يجب أنْ يُردَم، وكلّ ما فيها من حجارة يجب أنْ يُعزَق، وكُلُّ ما فيها من أعشابٍ أونباتاتٍ زائدةٍ يجب أنْ يُقلَع، وكُلُّ ما فيها من أشجارٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ يجب أنْ يُقطَع، ويجب أنْ تكون في النّهاية كَفًّا مبسوطةً لا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتا، وتكون مُهيّأةً للزّراعة، إذْ إنّ بعضَ مزارع السّيّد كان يجب أن تُزرَع سنةً وتُترَك سنة، ولا بُدّ في السّنة الّتي تُترَك فيها المزرعة لترتاح أنْ نُهيّئ أرضًا جديدةً قابلةً للزّراعة، وكانت الأرضُ - بالفعل - لها

حَقٌّ في أنْ تأخذ سنةً كاملةً لترتاح، ونحن البشر لم يكنْ لنا حَقٌّ في يومٍ واحدٍ لنرتاحَ فيه!!

كانت الأراضي الّتي علينا استِصلاحُها يجب أنْ يتوافر فيها شرطٌ أساسيّ مُهمّ، وهو أنْ تكون قريبةً من النّهر، أو يُمكن جلبُ الماء إليها بسهولة، أو بشقّ قناةٍ خاصّة من أقربِ نهرٍ إليها، ولم يكنْ أمر صعوبة الأرض، وطبيعتها القاسية ليمنع السّيّد (جونسون) من أنْ يأمرنا باستِصلاحها، كانتْ هناك أراضٍ تحتاج إلى عددٍ أضعاف عددنا، وإلى زمنٍ طويل من أجل إنهاء العمل فيها، ولكنّ السّيّد الشّرّير، كان يطلبُ منّا أنْ ننتهي من العمل قبل بدء موسم البِذار أو الزّراعة، ويأمر بذلك مراقب العُمّال، قائلاً له: «أريدُها أنْ تكون جاهزةً قبل عيد الميلاد، وبأيّ ثمنٍ».

وكُنّا نعمل في الأرضِ الجديدة أكثر من خمسَ عشرة ساعةً الّتي كُنّا نعملها في السّابق، وألهبتِ السّياط ظهور المَرضى أو الّذين لا يعملون وَفْقَ الخُطّة، ولم يكنِ السّوط يفرّق بين صغيرٍ ولا كبير، ولا بين رجلٍ أو امرأةٍ أو طفل، ولم نكنْ نحصل في تلك الفترة على طعامٍ جيّدٍ، لأنّ مخزون الذّرة الّذي في مخازن المالك الأبيض قد قلّت في موسم الشّتاء، وصار على العمّ (جون) التّقنين، والتّقتير في الحصص المفروضة الّتي يوزّعها علينا، إضافة إلى أنّ كثيرًا مِنّا أُصيب بالحُمّى والوَهن والتّعب الشّديد، وبعضُنا اضطُرّ إلى أنْ يأكل من حشائش الأرض الرّطبة وأعشابِها، وبعضُنا كان يشربُ المياه المُلوّثة بالطّين فكان ذلك يسبّب له تقيُّؤًا مُستمرًّا، وجَفّتْ أثداء الأمّهات

المُرضِعات من الحليب، فكان أطفالهنّ يموتون في أحضانهنّ، ولكنّ ذلك كلّه لم يشفعْ لنا، وظللْنا نسمع صوتَ البوق اللّعين قبل أنْ تصحو الشّمس، ونعود بعدَ أنْ تغيب!

في نهاية شهر كانون الأوّل من عام ١٨٠٨م وقُبيل عيد الميلاد، كُنّا قد انتهَينا من العمل المُهلك الّذي طُلب مِنّا، ولكنّنا فقدْنا مع نهايته ثلاثةَ رجالٍ وامرأة ورضيعها. ولمْ يُسمح لنا بإقامة مراسم لدفنهم، وأحدهم الّذي تُوفّيَ في الأرض الّتي كُنّا نعمل فيها، دُفِنَ في إحدى حُفَرِها، ورُدِمَتْ جُثّته بالتّراب، كما لو كنت تردم جثّة كلبٍ أو أيّ حَيَوانٍ نافق!

صِرتُ أُفكّر بالهَربِ بشكلٍ جِدّيّ. لم أعدْ أطيقُ هذا كُلّه. أشدُّ ما أخافُ منه أنْ أستمرئ الذّلّ، أنْ أعتاد السوط، بل وأنتظره، أنْ يكون مغموسًا باللّقمة الّتي آكُلُها. كان كثيرٌ مِنّا قد استقرّ به الأمر على هذا النّحو، لقد كانوا يُقنعوننا بأنّنا عبيدٌ، خُلِقنا لكي نكون كذلك، وأنّ مَنْ جاء حامِلاً معه بقايا حُرّيةٍ من بلاده البعيدة فعليه أنْ يتخلّص منها هنا، ويدفنها عميقًا في هذه الأرض الجديدة؛ الأرضِ المُحرّمة علينا نحن السّودَ أنْ نعيشَ فيها أحرارًا!

صارت فكرة الهروب تَعِنّ في بالي كثيرًا، صرتُ أحلم بها في اللّيل، أراني قفزتُ فوقَ السّياج ولا قمر في السّماء سِوى رغبتي، وأطلقتُ ساقَيّ للرّيح، وكانت الأرض سهلةً، وكانتْ تُطوَى تحتَ قَدَمَيّ، وأخذتْ ترفعني إلى الأعلى، وصرتُ أحلّق في السّماء، ثُمّ

تلقّتْني غيمة مُسافرة، وأخذتْني في أعماقِها وطارتْ بي بعيدًا، ثُم...
ثُمّ صحوتُ وأنا ألهث.

كانت العمّة (تيري) تقول: «لا تحلمْ كثيرًا. نحنُ خُلِقنا عبيدًا». أثورُ في داخلي، أشعر بحرارةٍ عاليةٍ تخترق رأسي، ولكنّني أضبطُ نفسي، أحاول أنْ أشرحَ لها مقولة جدّي عمر بن الخَطّاب: «متى استعبدْتُم النّاس وقد ولدَتْهم أمّهاتُهم أحرارًا»، تُدير عنّي صفحة وجهها، وتقول: «لم يعدْ عمر موجودًا بيننا!».

في أيّام عيد الميلاد، كان يُسمَح للعبيد بأنْ يرتاحوا يومَي السّبت والأحد، ويعودوا للعمل يومَ الاثنين، وكان يُسمَح لهم بالغِناء، وطبخ الطّعام لأنفسهم، وتبادل الزّيارة فيما بينهم، أو التّجمّع في مكانٍ واحدٍ والسّمر فيه بعيدًا عن كوخ السّيّد حتّى لا تتلوّث أُذناه في هدأته بضجيجنا البدائيّ، وكان العبيدُ كلّهم يتحمّلون تعبَ السّنة كلّها على أمل أنْ يأتي هذا اليوم، ولقد أتى بالفعل لكنْ على دِماء أربعةٍ مِنّا. وكانوا يُدارون الحُزنَ بالفَرح، وقال لي (دانيال): «صحيحٌ أنّنا حَزِنّا لأنّنا فقدْنا أربعةً من إخوتنا، ولكنّنا إذا لم نفرح فإنّ الحزنَ مثل النّار، تُغذّيها الذّكرى حتّى تكبر وتحرق كلّ شيءٍ في طريقِها، لا تجعل النّار تحرق قلبكَ يا عُمر، نحن نحتفل لننسى، فانسَ يا أخي!!».

(٤٤)

بَرْقٌ تلألأَ في الظَلام المُسدَلِ

اجتمعْنا حول نارٍ كبيرة أشعلْناها في ساحةٍ بين مجموعةٍ من أكواخِنا والسّياج، كُنّا أكثر من أربعين عبدًا، لا أدري كم كُنّا بالضّبط، فلم يكنْ يُسمَح لنا إلاّ في مثل هذا العيد أنْ نلتقي، أو أنْ نتكلّم، كلّ ما أعرفه من عبيد السّيّد (جونسون) هو وجوههم الّتي تُصادفني في صباحات الذّهاب إلى العمل، أو مساءات العودة منه، ونُتفًا من الأخبار كنتُ أسمعها من (دانيال) لطول خدمته هنا، أو من العمّ (جون) الّذي يعرفنا جميعًا بُحكم عمله معنا، وهو الأقدم على الإطلاق!

قلتُ لـ (دانيال): «أرجو ألاّ يتحوّل اجتِماعُنا حول النّار إلى ما كان بعضُنا أو آباؤنا يفعله في أدغال أفريقيا». ردّ: «لن تستطيع أنْ تمنع النّاس من البهجة». أجبتُه، ونحن نغذّ الخُطا إلى النّار: «أنا أوّل المُبتهجين يا أخي، لكنّ الاستِمرار في الاستِماع إلى الخُرافات سوف يُرسّخ عقيدة العبوديّة في قلوبنا، نحن أحرار يا أخي...». ورفعتُ صوتي بالجُملة الأخيرة، فقاطَعني وهو يضع يده على فمي: «لولا أنّني أُحبّك لكنتُ وشيتُ بكَ إلى السّيّد (جونسون)، تخيّل أنّه سمعك تقولها..». قلتُ منزعِجًا: «ولْيَسْمَعْها؛ ماذا سيحدث؟». ردّ، وهو ما يزال يتلفّتُ حوله: «اخفض صوتَك يا أخي، سيتسبّب هذا بقتلِنا

جميعًا». «لقد قتلوكم يا أخي، قتلوكم وانتهى». أوقفني من يده وقد كِدْنا نصل إلى الحلقة الدّائريّة المُلتفّة حول النّار، وضيّقَ عينَيه: «ماذا تعني؟». «لقد قَتَلوكم بالخوف يا أخي، قتلوكم بالسّوط، أخمدوا هذا الصّوت الحقيقيّ الّذي خلقَكم الله عليه، أخمدوا صوتَ الحُرّيّة، نحن نولدُ أحرارًا يا أخي، هذا السّيّد الّذي يزعم أنّه مُتفوّق، ليسَ متفوّقًا في شيءٍ سِوى في القتل والدّم والضّرب والشّنق والموت...». أخذَ نَفَسًا عميقًا وبسطَ كَفَّيْه أمامي، وقال مُهدِّئًا: «الخوف... نعم الخوف... لقد فعلوا، هل هذا ما تريدُ أنْ تسمعه، نعم نحن خائِفون، ولكنّ هذا الخوف الّذي تعيبه علينا، هو الّذي أنقذَنا حتّى الآن من الموت، نحن لا نملكُ شيئًا يا أخي... نخاف؟ نعم، نخافُ على أبنائنا، نخافُ على حياتنا، وأنتَ تدّعي شَجاعةً مُطلقَةً؟ سوفَ تنتهي هذه الشّجاعة يوم تُعلّق مقلوبًا مِنْ رِجلَيكَ في أعلى شجرةِ صنوبرٍ هنا، مُقيّدةً يداكَ خلفَ ظهرك، تنزفُ دمَكَ قطرةً قطرةً، وتبقَى على هذه الحال حتّى تأكل النّسور من رأسِك، لا يجرؤ أحدٌ على مساعدتك؛ لأنّه إنْ فعل، فسيُعلّق ببساطةٍ إلى جانبك». كان يشدّ على الكلمات، ويُحدّق في عينَيّ بقوّة، وختم بعبارةٍ كانتْ أشدّ إيلامًا: «يومَ يعلّقونك سنرى شجاعتك، ما زلتَ غِرًّا يا أخي... لكنّني أغفر لكَ ما قلتَ». وهمستُ لنفسي: «وأنا أغفر لَكَ ما قلتَ، لقد كان خوفَ الطّريدة من الصّيّاد، أعرفُ هذا الخوفَ تمامًا يا أخي!».

تناسَينا أنا و(دانيال) مُناكفتَنا السّابقة، واندمجْنا سريعًا مع إخوتنا الّذين تنادَوا من الأكواخ، كان احتفالُنا بهيجًا حقًّا، وكنتُ

محتاجًا لـه بالفِعـل، جـاءتِ النّسـاء بأطعمـةٍ سـاخنةٍ شـهيّة، طبخـوا الدّجاج، كان الدّجـاج لا يزورنـا في السّـنة إلاّ لِمامًـا، مائـدة اليـوم كانـتْ مليئـة بالدّجـاج، كانـتْ إفريقيـا بكامـل روائحهـا وبهاراتهـا وطعومهـا تحـضر في تلـك المائـدة. صنعـت العمّـة (تـيري) مـع ابنتهـا (ويـنـدي) كعكعـةً يسـيل لهـا اللّعـاب، لم تكـنْ من طَعـام قومنـا، قالـتْ: «إنّهـا تعلّمَتْها هنـا». لكـزتُ (دانيـال): «لأمريـكا وجـهٌ جيّـد». ضحـك، قالـتِ امـرأةٌ لَمَعَ وجههـا الأسـود عـلى ألسـنة النّـار الرّاقصـة: «غنّـوا لنـا يـا أصحـابَ الأصـواتِ الشّـجيّة». غَنّـى (دانيـال)، كان صوتُـه إفريقيًّـا بامتِيـاز، قـال لي قبـل أنْ يبـدأ: «ستسـمع إفريقيـا مـن خـلال صـوتي». ثُـمّ مـال بجذعـه إلى الجِهـة الأخـرى، وأردف: «ولكنّـني لا أضمـن أنْ يسـتمرّ... هـذه الأجيـال الّـتي تـأتي مـن أصلابنـا تنسَـى أُمّنـا جميعًـا، بعـدَ جيلَـين أو ثلاثـة، ستُصبح أغـاني إفريقيـا مـن المـاضي المنسيّ يـا صديقـي». أجبتُـه هامِسًـا: «أَجّـلْ تشـاؤمكَ الغريـبَ هـذا، وغَنِّنـا». غَنّـى (دانيـال):

«إنّ لِـيْ أُمّـا تسامَتْ للسّـماءْ

رُوحُـــها شَمْـــسٌ مُنيــرَةْ

وكذا لِـــي والِدٌ فَــوْقَ السّـــماءْ

يَجْمَعُ الأَنْجُمَ فـي كَفّ كبيرةْ

ولنا أختٌ قد اختارتْ لها بيتَ السّماءْ

وَجْهُها كالبَدْرِ في دُنيا ضَرِيرَةْ

وأنا يومًا سَأَمْضِي للسَّماءْ

تارِكًا خَلْفِيَ آهاتٍ مَرِيرَةْ

وبكَى وأبكَى. لقد كان كثيرٌ من هؤلاء المُتحلّقين حول النّار قد فَقَدوا أَحِبَّاءَهم وأقربَ النّاسِ إليهم إمّا لقسوة الرّجل الأبيض، أو لِجَشعه، أو لنزوته، كان التّفكير بما وراء الموت، بالرّاحة في الأعالي عند الله - رُبّما - هو التّعويض الوحيد لهم عمّا لاقَوه من عذابٍ، وكانوا يُعبّرون عنه بالكلمات!

«نريدُ أنْ نضحك» قالتْ فتاةٌ من بين هذه الحلقة الّتي بلّلت الدّموع نُحورَها، وصعدَ صوتٌ: «ألا يكفي ذلك الحُزن المُستمرّ، فلنأخذْ من الحزن إجازة، ونعقد اتّفاقًا مع الفرح». وغنّتِ النّساء، وعزفَ عازفُ الكَمان، ورقصَ بعضُ الشّباب والصّبايا، ودار الفرحُ بكأسِه علينا جميعًا، وسكتوا من التّعب، حتّى إذا قلّ ضجيجُ الكلمات، قامَ (دانيال) فقال: «إنّ ماريان...» فجذبتُه من كُمّه: «هذا ليسَ اسمي». فهبطَ هامِسًا في أذني: «إنّ اسمك عمر هو عندي، أنا أناديكَ به بيننا، أمّا أمام هؤلاء، ففيهم مَنْ ينقل الخبر إلى السّيّد الأبيض بأسرع مِمّا ينقل هواء الشّتاء دُخانَ المواقد». وهتفَ مَنْ كان ينتظر: «نعم، ما شأنُ ماريان هذا...؟» فأجاب (دانيال): «ماريان يعرفُ الكثير من الحكايا والقصص، ويحفظُ الكثير من القصائد... وأنا أطلبُ منه أنْ يقرأ لنا مِمّا يحفظ». وقفتُ في مكاني من الدّائرة، كان لهبُ النّار يُظهِر وجهي تارةً ويُخفيه تارةً، فأبدو قادِمًا من الغيب،

قلـتُ: «أنـا...» وشـدّني مـن يـدي (دانيـال) حتّـى لا أتلفّـظ باسـمي، فنظـرتُ إليـه وطمأنتـهُ بإشـارةٍ مـن رأسي: «أنـا أتكلّـم العربيّـة إلى جانـب لغتنـا المحلّيّـة، وكذلـك لغـة السّـيّد الأبيـض، وأحفـظُ كتابًـا جـاء بـه نبيُّنـا محمّـد صلّى الله عليـه وسَـلّم مـن عنـد الله، وسـأتلو عليكـم بعضًـا منـه». وتلـوتُ عليهـم مـن سـورة المُلـك، وذكّرْتهـم بأنّـه الله هـو مالـكُ كلّ شيء، وأنّ هـذا ليـسَ لأحـدٍ سِـواه، فـلا حـقّ لأحـدٍ مـن البـشر بامتِلاكهـم مهـما ادّعـى ذلـك.

كانـوا يُصغُـون باهتِـمام، ويُنصِتـون لا تسـمع للمـكان مـن صـوتٍ سـوى صـوتي وأنـا أرتّـل القـرآن ترتيـلاً، وصـوتُ طقطقـة الحطـب في النّـار إذا سـكتّ، ثُـمّ لـمّـا أنهيـتُ، قلـتُ: «وأحفـظُ مـن أشـعار العـرب الكثـير، وكان هنـاك شـاعرٌ يُشـبهنا، اسـمه عنـترة، عـاشَ قبـل مـا يزيـدُ عـن ألـفِ سـنةٍ، وكانـتْ أُمّـه أمَـةً سـوداء، ولـدتْ مـن أبيـه، ولم يعـترف بـه أبـوه بعـد ولادتـه، لأنّـه لم يجِـئ مـن امـرأةٍ حُـرّة، وضمّـه إلى العبيـد...». وسـمعتُ أصـواتَ تنهّـدات، وبعضُهـم رفَـعَ يـدَه، وحـلّ عُقـدة رجلـه، وقالـتْ بعـضُ الهَمَسـات: «لا بُـدّ أنّ أبـاه كان يفعـل مـا يفعـل هـذا السّـيّد الأبيـض الشّريـر». وتابعـتُ: «لكنّـه كان يُحـبّ أمّـه ويفتخـر بهـا، ويلـومَ أبـاه الّـذي أنكـره». لـوى (دانيـال) رأسـه باتّجاهـي، وشـدّني مـن يـدي، وسـأل: «قُـلْ لنـا مـاذا قـال في أمّـه». قلـتُ: «لقـد قـال:

وأنا ابنُ سوداءِ الجبينِ كأنّها

ضَبُعٌ ترعرَعُ في رُسُومِ المنزلِ

السّاقُ منها مثلُ ساقِ نَعامةٍ
والشَّعْرُ مِنّها مثلُ حَبِّ الفُلفلِ
والثَّغرُ مـن تحتِ اللّثامِ كأنّهُ
بَرْقٌ تلألأَ فـي الظّلامِ المُسدَلِ

وشرحتُ لهم الأبيات، فلّما وصلتُ إلى شرحِ البيتِ الأخير ضَحِكوا، فقلتُ لهم: «إنّ ضَحِكاتكم الّتي أبانت عن أسنانكم البيضاء اللاّمعة في هذا الظّلام الشّديد السّواد هي شرحٌ عمليٌّ لهذا البيت الأخير».

وسَهِرْنا حتّى كاد الفجر يأذنُ بالقدوم. وكانتْ عُطلةُ اليوم التّالي تُغرينا بالسّهر، لكنّ أجسادَنا الّتي اعتادَتْ طوال العام كلّه أنْ تنام باكِرًا ارتخَتْ، وغلبَنا النُّعاس، وصار الواحد يفتح جاهِدًا جَفنَين، كأنّما حَطّ عليهما طائر الرُّخّ، وكُنّا نسمع بعضَ الكلام، وبعضَ الضّحكات، وبعضَ الهَمَسات، وبعضَ الأشخاصِ قد قاموا من أماكنهم وغادَروا الحلَقَة، ونحن نسقطُ في جُبّ النّوم، ونصحو برهة، ثُمّ نسقط عميقًا، ثُمّ لم يكنْ من جَرّ أرجلِنا إلى أكواخنا بُدّ، فسِرنا وقد حِظينا بليلةٍ علينا أنْ ننتظر عامًا كامِلاً حتّى تتكرّر!

(٤٥)

الحياةَ لا تدبّ إلا في ذراعَيه

دأبَ السّيّد (جونسون) في كلّ عيد ميلادٍ أنْ يأتينا براهبٍ من أقربِ كنيسةٍ من أجلِ أنْ يعِظَنا، ولو كان وعظًا لتعاليم المسيح لكان الأمر فيه خيرٌ، ولكنّه كان وعظًا من أجل تثبيت فِكرة أنّنا نحن الّذين جِئنا من إفريقيا عبارة عن رَعاع، همج، لا يعرفون شيئًا، وأنّ الفضل قبل الرّبّ لأمريكا الّتي جعلتْ مِنّا بشرًا، مع أنّهم حتّى هذه لم يكونوا يعترفون بها، فنحن لم نكنْ في عُرفهم بشرًا، بل كُنّا حيواناتٍ أو دوابّ، وبرعايتهم لنا ارتقينا من دوابّ غير نافعة إلى دوابّ نافعة، ومن حَيَوانات غير مُفيدة إلى حَيَوانات مُفيدة، ومن أجل ذلك علينا أنْ نشكر الرّجل الأبيض، وأمريكا، ثُمّ الرّبّ الّذي وهبَ لنا هذين!

جَمَعنا السّيّد (جون) بأمرٍ من سَيّده، أمام الكوخ الأنيق ذي الأعمدة الحجريّة الإسطوانيّة الّتي يرتفع القرميد الأخضر فوقَها بشكلٍ هرَميّ، كان القِسّ يلبسُ رداءً أرجوانيًا، ينسدل على جسده بالكامل، ويتدلّى من جانبيه شريطٌ عريضٌ يُشبه الحِزام، وكان يُمسك بيمينه الصّليب، وبيساره الكِتاب المُقدّس، وأذكر أنّ اسمه كان (روبرت)، وكانتْ له لحيةٌ طويلةٌ وعريضة، وكانتْ تزداد عرضًا كلّما هوتْ إلى أسفل صدره، وكان شَعره كذلك طويلاً، وقد خلطَه الشّيبُ فصار رماديًا، وكان يلبسُ قُبّعةً سوداء خفيفةً ليستْ عالية، ولا عريضة، ولا

تُغطّي غير قُمع رأسه، وقد جلسْنا على الأرض في المسافة الخالية بين باب السّيّد العالي وبينه، وقد كان أبيض البَشَرة، ومَنْ كان قريبًا منه رأى عُروقًا صغيرةً زرقاء تتعرّج في خدّين أحمرين مُنتفخين. وكان السّيّد (جونسون) يجلسُ على كرسيٍّ عن يمينه، فيما كان القسّيس واقفًا!

بدأ القسيس (روبرت) موعظته فقال: «إنّ الرّبّ الّذي مات من أجلكم يدعوكم، أقبلوا عليه بقلوبكم، فكلّ مَنْ يسمَعْ إليه يعشْ في مَلَكُوته، أرأيتم لو قِيْلَ لكمْ إنّ الرّبّ أعطاكم يومًا واحِدًا لتعيشوه، ومن بعدها ستكون النّهاية، ماذا كنتم ستفعلون، ستقولون نودّع أحبابَنا، أو نعمل شيئًا مُفيدًا، أو نصلّي من أجل أنفسِنا، إنّ أحسنَ ما يُمكن أنْ تفعلوه هو أنْ تُطِيعوه، تطيعوا الرّبّ الّذي ضَحّى بنفسه على الصّليب من أجلكم، إنّ هذا الرّبّ يقول في إنجيل لوقا...». توقّف بالطّبع قليلاً؛ لأنّه لم يكنْ يحفظُ النّصّ، وفتح الكتاب المُقدّس الّذي بين يَدَيه على العلامة حيثُ إنجيل لوقا، وتابع: «وأنا الآن أقتبس، أنصِتوا جيّدًا إلى ما قاله: (وَأَمَّا ذلِكَ الْعَبْدُ الَّذِي يَعْلَمُ إِرَادَةَ سَيِّدِهِ وَلاَ يَسْتَعِدُّ وَلاَ يَفْعَلُ بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ، فَيُضْرَبُ كَثِيرًا. وَلكِنَّ الَّذِي لاَ يَعْلَمُ، وَيَفْعَلُ مَا يَسْتَحِقُّ ضَرَبَاتٍ، يُضْرَبُ قَلِيلاً. فَكُلُّ مَنْ أُعْطِيَ كَثِيرًا يُطْلَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ، وَمَنْ يُودِعُونَهُ كَثِيرًا يُطَالِبُونَهُ بِأَكْثَرَ). نعم انتهى الاقتِباس». وطَوى الكِتاب، ثُمّ تابع: «هكذا تكون الطّاعة للسّيّد، وإذا ضَربكم فإنّما ذلك من أجل أنْ تستقيم الأمور، فلا يُمكن أنْ تسير الحياةُ دون أنْ يكون هذا المِيزانُ قائِمًا، وإنّه لا علاقةَ للرّجل الأبيضِ بهذا الاختِيار، إنّ الرّبّ قال في العهد القديم أنّ هذا

عِقابٌ منه للسّود يجب أنْ ترضوا به... امممم...». وتوقّف بالطّبع لأنّه لا يحفظُ النّص، وفتحَ الكِتاب المُقدّسَ عند العلامة الثّانية، ونظر في الكتاب، وتابع: «وأنا أقتبس الآن مرّة أخرى، يقول الرّبّ في سفر التكوين: « وابتدأ نوحٌ يكونُ فلاّحا وغرس كَرْمًا. وشَرِبَ مِن الخَمرِ فَسَكِرَ وتَعَرَّى داخلَ خِبائه. فأبصر حامٌ أبو كنعانَ عَورةَ أبيهِ، وأخبرَ أخَوَيهِ خارِجًا. فأخذَ سامٌ ويافثٌ الرّداء ووضعاه على أكتافهما ومَشَيا إلى الوَراءِ، وسَتَرا عَورة أبيهما ووجْهاهُما إلى الوراء. فَلَمْ يُبْصِرا عَوْرَةَ أبيْهِما. فَلَمّا اسْتَيقظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عِلم ما فعل به ابْنُه الصَّغيرُ، فَقالَ: مَلعونٌ كَنعان! عَبْدَ العَبِيْدِ يَكُونُ لإخْوتِهِ. وقال: مُبارَكٌ الرَّبُّ إلَهُ سَام. وَلْيَكُنْ كَنْعانُ عبْدًا لهم. لِيَفتحِ اللهُ ليافث فيسْكُن في مساكِنِ سَامِ، وَلْيَكُنْ كَنعانُ عَبْدًا لَهُم)... انتهى الاقتِباس». ثُمّ أغلقَ الكتاب المُقدّس، وأردف: «أرأيتم يا إخوتي، إنّ دعوةَ نوحٍ قد أصابت ابنه (حام) لأنّه اطّلع على عورة أبيه من دون خَجَل، وأنتم ذرّية (حام)، وهذا قدر الله فيكم. والآن صَلُّوا من أجل أنْ يقبلَكم، فإنّه يقبلَ كلّ الخَطَأةِ والمُذنبين». وكُنّا جميعًا نُصغي، ونحن نُلقي برؤوسنا على صدورنا، أو ننظر في الأرض، وإذا دَعا القسّيس بدعوةٍ ردّدْنا خلفه إنْ فهمْنا الصّلاة أم لم نفهمْها: «آمين». وعندما انتهتْ عِظته، وهَمّ أنْ يعودَ إلى كنيسته، أو يشرب بعضَ ما أعدّ له السّيّد (جونسون)، وقفتُ، وقلتُ: «أيّها القسّيس المُحتَرم. أنا أؤمن بالله». فانتبه. وبدا أنّ كلّ مَنْ في المكان قد انتبه، وكان هو قد توقّف عن أنْ يُتمّ ذهابَه، وعادَ بخطوتَيه إلى مكانه الأوّل، واستثمرتُ هذه الفرصة في الإصاخة

إليّ، وتابعتُ: «هل يسمح لي مَقامكَ الجليّ أنْ أسأل سؤالاً؟». كان السّيّد (جونسون) قد بدأ الشّرر يتطاير من عينَيه، لكنّني أردفتُ حتّى أُلطّف الجوّ قليلاً: «بعضُ الأمور قد أُشكلتْ عَلَيّ، وأنا أريدُ من حضرتكَ أنْ تدلّني على الصّواب، فهل هذا ممكن؟». كان القسّيس قد أتمّ استِعداده ليقول لي وهو يضع الصّليب فوق الكتاب المُقدّس، وكلاهما تحت كَفّيه اللّذين عَقَدهما معًا على بطنه، وحرّر يده الّتي تحمل الصّليب، وأشار بها نحوي ليأذن لي، وقال: «بالطّبع يا بُنيّ، تفضّلْ... تفضّل». اعتدلتُ تمامًا في وقفتي كجذع شجرةٍ، وقلت: «سيّدي أليس نوحًا نبيًّا من أنبياء الله؟». فردّ: «ما في ذلك شكّ؟». «ألا يدخل أنبياء الله ملكوتَه؟». «بلى يا بُنَيّ، بلى... ولكنْ لماذا هذه الأسئلة؟». فقلتُ: «وأنا أعلم أنّ بولس قال في رسالته إلى أهل كورنثوس إنّ السّكّيرين لا يدخلون ملكوت السّماوات، ألم يقل: (أمْ لستمْ تعلمون أنّ الظّالمين لا يَرِثون مَلَكوت الله؟ لا تَضِلّوا: لا زُناة، ولا عَبَدَةُ أوثانٍ ولا فاسِقون ولا مأبونون ولا مُضاجِعو ذُكورٍ ولا سارِقون ولا طَمّاعون ولا سِكّيرون ولا شَتّامون ولا خاطِفون يَرِثون مَلَكوت الله) فكيفَ تقول إنّ نوحًا وهو نبيّ ويدخل ملكوت الله وهو يسكر؟ مُنَزّهٌ نوحٌ عن هذا القول. نحن لا نقبلُ أنْ نُوسَم به، نحن هؤلاء الزّنوج الموجودون في عِظَتِك اليوم، ونحنُ أفرادٌ عادِيّون، فكيفَ تقبل أنتَ أنْ يوسَم به نبيٌّ مُبجّلٌ عند الله». كان الغضب قد بلغَ مبلَغه عند السّيّد (جونسون) الّذي وقف على قدَمَيه، وصرخ: «اخرسْ أيّها العبدُ اللّعين؟ مَنْ عَلّمَكَ هذا؟ أنا أقولُ لكَ خيرًا من قولك: «إنّ العبدَ لا

نفسَ له ولا روحَ له وليسَ له فِطنةٌ ولا ذَكاء ولا إرادة، وإنّ الحياةَ لا تدبّ إلاّ في ذراعَيه». وصمتُّ أمام هِياج السّيّد (جونسون)، فيما كان الجميع مذهولاً، بينما لم يُصدّق القسّيس أُذنَيه، ولا أخوتي الّذين يبدو أنّهم قدّروا هذا الكلام الجديد على أسماعهم، لكنّهم كذلك خافوا من عواقبه، أمّا القسّيس (روبرت) فهدّأ من غضب السّيّد (جونسون)، وقال لي: «أكملْ يا بُنيّ. إذا كنت تريدُ أنْ تطرح سؤالاً جديدًا؟». «نعم يا سيّدي، لديّ سؤال أخير». «تفضّلْ». «هل الله الّذي يعبده البيض يختلف عن الله الّذي يعبده السّود؟ ردّ القسّيس مُضطربًا: «لا.. لا يا بُنيّ...». فقلتُ: «فلماذا يوجَد كنائس للبيض ولا يوجد مثلُها للسّود؟ ولماذا يعبد البيض الرّبّ تحت سقفٍ مُزيّن ويعبده السّود في العَراء؟». تلعثمَ القِسّيس، لقد أدركَ خطورة الطّريق الّتي أدّتْ به إلى هنا، ردّ: «هذا أمرٌ سوفَ يُبحَث مع الحكومة يا بُنيّ. نحن نعمل بجدّ من أجل ما تُنادي به، ولكنّ التّغيير إلى ما نريدُه جميعًا مرهونٌ بإرادة الرّبّ». قفز السّيّد (جونسون)، وهتف: «لنْ يتغيّر شيءٌ، أنا أعرفُ ما يجري في اجتماعات حُكّام الولايات، أتمنّى من سعادتك أنْ تُنهي هذه العِظة، لدى هؤلاء العبيد ما يفعلونه».

في الطّريق إلى كوخنا، كان (دانيال) يرتجف: «لقد قضيتَ علينا، لا أدري شكل المُصيبة الّتي حَلّتْ بِنا!». قلتُ له بِعِنادٍ: «إذا كان هذا هو الّدين الّذي يدعوننا إليه من أجل تشريع العبوديّة فإنّه لا حاجةَ لنا به». ردّ بغيظٍ: «إنّه يُساوي حُرّيّتنا إذا لم تعلَم». سألتُه: «لم أفهم؟». أجاب: «إنّهم يقولون: كلّ مَنْ يتحوّل من العبيد إلى المسيحيّة

فإنّه يشتري بهذا التحوّل حُرّيّته». زفرتُ زفرةً حرّى، وقلتُ: «على القساوسة ألاّ يستمروا في خِداعهم للنّاس». التفتَ إليّ وقال بصوتٍ خفيضٍ أقربَ إلى الهمس: «أنت؟ كيفَ تعرفُ كلّ هذا؟!».

طرقَ بابَنا قبل الغُروب العمّ (جون)، فتحتُ له، نَظَر إليّ بعينَين مَرعوبتَين ويائستَين: «لقد أغضبْتَ السّيّد (جونسون) يا (ماريان)، لم أره غاضِبًا على هذا النّحو طَوال ثلاثين عامًا». «لم أُرِد أنْ أفعلِ ذلك، كنتُ فقط أريدُ أنْ أقول ما أعتقد، أليسَ هذا الحقّ مكفولاً لي في الكتاب المُقدّس؟!». «الكتاب المُقدّس؟ مَنْ قال لكَ إنّهم يؤمنون به؟ إنّهم لا يُؤمنون إلاّ بالمال أيّها الأبله». كان وراء العمّ (جون) اثنان من أشدّاء العبيد، طولاً ومتانةً. جَرّاني بِناء على أمرِ من العمّ (جون)، قال وهم يمضون بي: «سوفَ أكونُ لطيفًا معك بالقدر الّذي لا يُوقعني فِي انتقال العقوبة منكَ إليّ». كان عبدٌ ثالثٌ قد رفَع دَكّةً من الخشبِ على أربعةِ قوائم، ونصبَها أمام كوخ السّيّد (جونسون) الّذي كان ينتظر أمام المدخل، وقد جلسَ إلى كُرسيّ، يُشاهِد الغروب، وهو يحمل في يده زُجاجةَ خمرٍ كبيرة. لم يقلْ كلمةً واحدةً، كانتْ رجله المعقودة فوق تلك القائمة، تهتزّ بشكلٍ كبير، تتأرجح صعودًا وهبوطًا. أمرني العَبدان أنْ أنام على بطني، وأُسبِلَ يَدَيّ إلى جانبيّ، وأنْ أُدير رأسي في هذه الوضعيّة جهة السّيّد (جونسون) حتّى يراني، فعلتُ ما أمراني به، لم يكنْ أمامي خيارٌ آخر، تذكّرتُ ما كنتُ أسمعه في (تُوبا) من الشّيخ: «إنّها حربٌ يا بُنيّ، وعليكَ أنْ تخرجَ منها حَيًّا»، وكان يقصد بالحربِ الدّنيا، وكان يقصد

بالخروج حَيّا أنْ تنجو من خطاياها، وتفوز بالنّعيم الأبديّ في الآخرة.

بدأتِ الحَبال تلتفّ على جسدي، جذعي، ظهري، ساقَيّ، كلّ شبرٍ فِيّ، لم أكن أستطيع أنْ أحرّك شيئًا حتّى رأسي، ثُمّ جاء العبدان القويّان بسوطَين لم أرَ مثلهما من قبلُ، لقد كانا مُرعِبَين حقًّا؛ كان طول الواحد منهما خمسة أذرع، وكان عرضُه عند القبضة لا تكاد الكفّ تُكمل استِدارتها حوله، وكان ينتهي بذنبٍ من جلدٍ غليظٍ لا أدري أيّ جلدٍ هو، وبدأ الأوّل ينهال على ظهري به، كانت آثار الجَلْد من السّنة الماضية لا تزال موجودة، راحتْ صرخاتي تشقّ عِنان السّماء، فيما راح الدّم ينفر من ظهري كأنّه يتفجّر تفجّرًا، وراح اللّحم ينسلخ عن ظهري، وتتساقط منه نُتَفٌ على الدّكة، ويسقط بعضُها تحت أقدام الجَلاّدَين، وكان إذا تعبَ أحدهما، ارتاح ليتولّى الثّاني إكمال مهمّته، وكنتُ أسمع السّيّد (جونسون)، يُقهقه ويكرع من زجاجة الخمر، وهو يقول: «ذُقْ طعم الحرّيّة أيّها العبدُ المُتعلّم... ألم أقلْ لكَ في السّابق إنّ العبد المُتعلّم عدوّ لنفسه قبل أنْ يكون عدوًّا للآخرين؟! وإنّه خطيرٌ يقعُ خطرُه أوّل ما يقع عليه قبل أنْ يقع على الآخرين...؟! تريدُ أنْ تُمالِئ العبيد، وتُظهِر براعتكَ أمامهم؟! هؤلاء العبيد أيّها الأخرق لا يعرفون إلاّ الطّاعة، لم يُخلَقوا إلاّ للخضوع، هل تتوقّع أنْ يؤمنوا يومًا بترّهاتك؟ أنْ يسيروا خلفكَ وهم يهتفون بحياتك، ويُنشِدون: حَرِّرْنا... حَرِّرْنا... إنّهم لا يؤمنون إلاّ بهذا السّوط الّذي ستُضطرّ أنتَ أيضًا إلى أنْ تؤمن به بعدَ اليوم، تريدُ أنْ تكون وكيلاً عن الرّبّ، أيّها المُغفّل: إنّ الرّبّ وهو ذو حكمةٍ بالغةٍ لا يُمكن أنْ

يضع روحًا طيّبةً في جِسْمٍ حالكِ السّواد». وسقطتُ بالفعل في عالَمٍ حالكِ السّواد، وفقدتُ الوعي.

بقيتُ في الكوخ شهرًا حتّى تعافيتُ. ظلّت العمّة (تيري) تُطيّب الجروح بمسحوقها السّحريّ، بكلماتها الحنونة، بعتابِها اللّطيف، وكانت كلّما صحوتُ قالتْ لي عبارتها القديمة: «أنتَ قويّ. وستُشفَى».

(٤٦)

الآلة الشيطانيّة!

إنّها أواخر شهر آذار من عام ١٨١٠، مضى ثلاثةُ أعوامٍ وأنا في هذا العذاب. لم أرتحْ منه يومًا، لم يرتحْ منه أحدٌ مِنّا يومًا، حتّى السّيّد (جونسون) كان يتعب وهو يقوم بتعذيبنا، وكان دائمَ الصُّراخ في وجوهنا: «أنتم لا تكفّون عن تعذيبي أيّها الملاعين، متى يأتي اليوم الّذي أتخلّص فيه منكم جميعًا وأرتاح!».

لم يكن السّيّد (جونسون) متزوّجًا، أعني لم يكنْ له زوجةٌ تبيتُ معه في كوخه، كان يقضي لياليه في ذلك الكوخ يسكر، ويرقصُ، ويُغنّي، ويزعق، وكُنّا نسمع صَرَخاته من أكواخنا تتناهى إلينا في اللّيالي الصّافية، ولربّما خرجَ عارِيًا أمام بيته، وشَتَم ولَعَن الحياة، ولعنَ نفسه، ثُمّ عادَ إلى مسكنه ونامَ كأنّه لم يفعلْ شيئًا. باختِصار كُنّا تحتَ رحمةِ رجلٍ مجنون!

كان موسم قصب السُّكّر قد حلّ. انتقلْنا إلى مزرعته، بالطّريقة إيّاها، نسير في قافلة من العبيد المُقيّدين بالسّلاسل حتّى نصل إلى الأرض الشّاسعة. لم يكنْ عددُنا كافِيًا لقطف القصب ومتابعة إنتاجه في المعاصر، فكان السّيّد (جونسون) يلجأ إلى استِئجار عبيدٍ من مالكٍ آخر في مزرعةٍ أُخرى، وهكذا وفدَ إلينا عشرة عبيدٍ جُدُد، ولم يكن السّيّد (جونسون) يملك المال ليدفعه للسّيّد الّذي يملكهم بشكلٍ

مُبـاشَر، فـكان يسـتأجرهم بالدَّيـن طِيلـةَ موسـم الحَصـاد، عـلى أمـل أنْ يُعطـيَ أجرتهـم لسـيّدهم بعـد أنْ يبيـع محصولـه.

كان العبيـدُ المُسـتأجَرون يتمتّعـون بشـبه حصانـةٍ تحميهـم مـن التّعذيـب أحيانًـا، إذ لم يكـن المراقِـب (فرانـك) يجرؤ عـلى إيقـاع العقوبـة بهـم، وهـم لا يتبعـون لسـيّده، ولم يكـنْ هـذا مـن أجـل الرأفـة بهـم، ولكـنْ مـن أجـل الغرامـات الّتـي تكـون مكتوبـةً في عقـد اسـتِئجارهم فيـما لَـو وقـع عليهـم الأذى. ولهـذا كان بعضُنـا ينظـر إليهـم بحسـدٍ، لأنّهـم ربّـما سُـمِحَ لهـم بالانتِهـاء مـن العمـل قبـل سـاعةٍ مـن الموعـد المُحـدّد، مـن أجـل أنْ يصلـوا إلى مزرعـةِ سـيّدهم البعيـدة، وكان ينـدر أنْ يهـوي عـلى ظَهرهـم سـوطٌ، أويتلقّـون صفعـةً في الوجـه مـن دون سـابق إنـذار، أو رفسـةً في البطـن مـن دون سـبب! وكُنّـا نتمنّـى أنْ يـأتي موسـم التّبـغ مثـلاً، وسـيّدنا لا يملـك مزرعـةً للتّبـغ، فيؤجّرنـا إلى مَـنْ يملـك واحـدةً، وكُنّـا نفضّـل ذلـك عـلى العمـل في مزرعـة سـيّدنا عـلى أمـل أنْ يكـونَ تأجيرنـا إلى سـيّد آخـر أقـلّ قسـوة! وبالطّبـع لم نكـنْ نحصـل عـلى بنـسٍ واحـدٍ لِقـاء هـذا التّأجـير، فقـد كان المـال كلّـه يذهـب إلى جيـب الرّجـل الأبيـض!

كُنّـا نتجمّـع قبـل شروق الشّـمس، يوقظنـا بـوقٌ زعيقُـه يسـاوي زعيـق المـوت، ولا نعـودُ إلى أكواخنـا إلاّ في اللّيـل، إذْ كانـت الشّـمس في هـذه الشّـهور تغـربُ مُبكّـرًا، ولقـد كُنّـا نـصرخُ جميعًـا صرخـةً واحـدةً في الفجـر إذا سـمعْنا البـوقَ كأنّنـا نُسـاق للذّبـح، وكان بعضُنـا يبكـي كأنّـه سيُشـوى بالنّـار بعـدَ قليـل، ولقـد كُنّـا نعـودُ مـن المزرعـةِ أسـمالاً باليـة، وأشـباحًا خاويـة، وصُـورًا ليـس لهـا إلاّ هياكلهـا!

وكُنّا نُداوِي أنفسَنا بأنفُسِنا، فلم يكنْ يُسمَح لأيِّ واحدٍ منّا أنْ يذهب إلى أيّة عيادة، ولا أنْ يراه أو يزوره أيُّ طبيبٍ ولو كان مُشفِيًا على الموت، ولقد شاهدتُ بأمّ عيني موت العَشَرات الّذين كان يُمكن إنقاذهم بسهولة لو أنّهم عُولِجوا في لحظتها، أمّا السّيّد الأبيض فكان يزوره طبيبٌ في كوخه، يأتي إليه بشكلٍ دوريّ، وكان يدفع له وهو يقول: «إنّ هؤلاء الملاعين يُقصّرون في أعمارنا، ما الخطيئة الّتي يُعاقِبنا عليها الرّبّ بهم؟!». وكان الطّبيب يقول: «العبدُ له هيئة بشريّ وروح شَيطان، وإذا لم تكنْ مُستعدًّا له دائِمًا فإنّه مُستعدّ أنْ يطعنك إذا أعطيتَه ظهرك». وكان السّيّد (جونسون) يتأوّه بلا سبب بين يدَي الطّبيب ويهتف بحزن: «إنّهم يظنّون أنّنا نُخيفهم بمعاقبتنا له، ولكنّهم لا يدرون أنّنا نخافُ منهم أكثرَ مِمّا يخافون مِنّا!».

كُنّا ننحني في مزارع القصب وبأيدينا سكاكين أو مناجل من حديد، نجزّ بها سيقان القصب، وكانت هذه المناجل تُؤثّر في أيدينا، وتسبّب لنا تقرّحاتٍ كثيرة، فقد كُنّا ننحني لأكثر من خمسَ عشرةَ ساعةً، ونحن نقصّ بها سيقانًا صلدةً تحتاجُ إلى قُوّةٍ كبيرةٍ في الذّراعَين، وكانتْ جذوعنا تُؤلمنا لطول ما ننحني، وكانت أعوادُ القصب عاليةً أعلى من أطول رجلٍ فينا، يصل ارتفاعها إلى خمسة أذرع، وكانتْ مُتراصّة بعضُها إلى بعضٍ فتحجب عنّا الهواء، وكانتْ تزيدُ بهذا من درجة حرارة الجوّ، فكان ذلك يُصيبنا أحيانًا بضربةِ الشّمس، فنسقطُ على الأرض، فيأتي المُراقب (فرانك) فيسكبُ على وجوهنا الماء لنستيقظ ونتابع العمل. ولقد كان يُطلَب منّا أنّ ننهي

حصادَ هذا الجزء من المزرعة، ونُحذّر بأنّنا لن نعودَ إلاّ بعد إنهائه، ولو أدّى ذلك إلى أنْ نعمل ستّ عشرةَ ساعةً أو أكثر، وكان كثيرٌ من عيدان القصب سريع التّلف إذا لم يُجمَع ويُنقَل للتّو، وكُنّا لا نحلم بالعودة إلاّ إذا أتممْنا ما طُلِبَ منّا.

وصرتُ بعدَ انتهائي في اللّيل من عملي في مزرعة القصب، وبعدَ أنْ تُفكّ قيودي لآوي إلى الفِراش، أنتظر حتّى تخلو السّاحة من كلّ أحدٍ، وأتأكّد أنّ السّيّد (جونسون) نائمٌ في كوخه، فأذهب إلى العمّ (جون) وأسهر عنده لبعضِ الوقت، فلقد هرم في السّنوات الثّلاث الأخيرة عنْ أوّل ما رأيتُه، ولقد رأيتُ أنّه من واجبي أنْ أقفَ معه في شيخوخته.

وكان كثيرًا ما يغلبنا الجوع، فلا نستطيع أنْ نأكل شيئًا ولو كان من حِصّتنا إلاّ في الوقت المُحدّد الّذي يكون بعد الزّوال مُباشرة، ولم يكنْ مسموحًا لنا أنْ نمصّ لو مقدار إصبع من قصب السّكّر، وكثيرًا ما حَدّثتني نفسي أنْ أفعل، فإنّ السّكّر كان يُعطيني قُوّة على الاستِمرار، ولكنّه كان محرّمًا علينا ولو كان قليلاً. وبعضُنا لم يكنْ يُقاوم فكان يفعل ذلك في السّرّ، وحدث أنْ ضبطَ المُراقِب اثنَين من عبيد السّيّد (جونسون) يمصّان مقدار مُضغةٍ من القصب في فمهما، فجلَدهما عشر جلدات لكلّ واحدٍ منهما، ولكنّ السّيّد (جونسون) لمّا عَلِمَ بالأمر، قال للمُراقِب: «هذه عقوبةٌ غيرُ كافيةٍ؛ عليكَ أنْ تكون أكثرَ ذكاءً». وأمَرَ أنْ يُفتَح فمُ كلّ واحدٍ منهما بِكُلاّب، وقلعَ أسنانهما كلّها! وبعدَ يومَين ماتَ أحدهما.

صار التّفكير بالهرب مُلِحًّا بالنّسبة لي بعد أنْ مات أحدُ هذين العبدين المسكينَين اللّذين قَضَما قضمة من قصب السّيّد (جونسون)، صرتُ أخافُ أنْ أعتادَ على ما يُوقع بنا من عذابٍ أو مهانةٍ، أنْ أقول كما قال الكثيرون يومَها: «إنّهما يستحقّان ذلك، ألم يُحَذّرهما السّيّد (جونسون)؟ لو أنّهما صَبَرا قليلاً لأكلا؟ أو لو استأذنا في تلك المَضغة لأُذِنَ لهما، إنّهما يستحقّان العقوبة الّتي نزلتْ بهما؟». صرتُ أخافُ بالفعل أنْ أنحاز إلى هذه الفِئة من العبيد، ولقد بدأتُ أشعر أنّني أفعل ذلك!!

كانتْ عيدان القصب تُعصَر بمعاصر خاصّة، ثُمّ يملأ العصير بمراجل معدنيّة، وتُوقَد تحتها النّار حتّى يغلي ما فيها، ثُمّ تُطفأ النّار، ويُعرّض العصير للهواء بدرجاتٍ مُعيّنة، حتّى يجفّ السّائل ويتبلور إلى حبيبات السُّكّر، ثُمّ يُعبّأ في جوالات ويُباع للتُّجّار.

في أحدِ الأيّام الّتي كُنّا مُنهمِكين فيها في قَصّ جذوع القصب، جاء السّيّد (جونسون) ومعه عَرَبةٌ كبيرةٌ، أُسنِدت المهمّة إلى بعضِنا من أجلْ ملئِها بِرُزَمِ القصب كالعادة، وقد كان السّيّد (جونسون) يختار أنْ يرافقَ العَرَبة اثنان أو ثلاثةٌ من عبيده ليقوموا بتنزيل الحمولة في المعصرة، ومتابعة سجلّ المعصور منها. ولقد كان كُلّ واحدٍ يتطلّع إلى أنْ يكون مِنَ المُختارين لهذه المَهمّة، وتوقّفتُ أنظر إلى مالِكنا، وأنا أُعرّض صدري وعَضَلاتي، إلى أنْ وقعتْ عيناه عَليّ، فرجوتُ أنْ يفعلها، وإذا به يصيح: «هيه... أنتَ أيّها العبد المُتعلّم... هذا ما يليقُ بكَ... تعال». وهرولتُ نحوه، كان ذلك معناه أنْ تركبَ العربة، وهي تسير

بكَ بينَ الأشجار، وتشعر بالهواء البارد المنعش مع حركتها، وترتاح من الانحِناء في الجوّ الحارّ لجزّ عيدان القصب، إضافة إلى رؤية مكانٍ جديدٍ وأُناسٍ جُدُد، فإنّ بعضَنا يمكثُ في المكان الواحد نصفَ قرنٍ لا يُفارقه أبدًا. وكنتُ إلى ذلك متشوّقًا أنْ أرى العمليّة الّتي يتمّ فيها استخراج عصير القصب من العيدان وكيفيّة تحويله إلى سُكّر.

وبالفعل أنهينا مَلْءَ العربة بالحمولة، وقفزنا نحن الثّلاثة إلى جوفها، وانطلقتْ بِنا. أتممْنا الأمر كما طُلِبَ منّا، وكان ذلك مدعاةً للسّيّد (جونسون) أنْ يجعلنا نحن الثّلاثة دائمًا ما نكون في المجموعة الذّاهبة إلى المعصرة، وكان هذا سببًا لسعادتنا، ولكنّنا لم نكنْ ندري ما يختبئ خلفَ الأَكَمَة!!

كان في المعصرة آلةٌ كبيرةٌ، فيها عددٌ من البكَرات الّتي كانتْ تعمل بالبُخار، وكان منظرها مَهيبًا، لم أكنْ أتوقّع أنْ تتحوّل إلى آلةٍ شيطانيّة، كان العامل يضع فيها أعوادَ القصب العملاقة الّتي تنزلقُ كأنّها عيدانٌ صغيرةٌ رفيعةٌ محمولةٌ في فم عصفور، وتنسحقُ تحت الأسطوانات الّتي تدور بقوّة البُخار دون توقّف.

كان هناك عبدٌ يحمل الرُّزمَ على ظهره من فوقِ العربة، ويوصلها إلى باب المعصرة، حيثُ أكون أنا بانتظاره، لأقوم بدوري بِحَمل العيدان إلى العبد الواقف على الآلة ليُلقّمها الحمولة، وكان يضع رُزمةً من تلك الأعواد دُفعةً واحدةً، فلقد كان مكان التّلقيم كبيرًا وكلّ ذلك كان يُساعدُ في تعجيل عمليّة الإنتاج، وليس عند

المالك الأبيض أهمّ من التّعجيل بذلك، وبالتّالي سرعة الحصول على المال.

في لحظةٍ لا أدري كيفَ حدثتْ؛ سمعتُ صوتَ صُراخٍ بشريّ مرعب، كان ذلك صُراخَ العبد الّذي يقف عند التّلقيم، كانتْ يده قد دخلتْ في مكان التّلقيم، وراحت البكرة العاملة بقوّة البُخار تفرمُ يده، فتراشَقَ الدّم في الأنحاء، ثُمّ هي بقوّتها المَهولة راحتْ تسحبه إليها، ففرمتْ لحمه، قبل أنْ يُدركَ صاحب المعصرة ما يحدث، ويُسرِع إلى إطفاء الآلة، ومات المسكينُ على الفور، لقد صار لحمًا مطحونًا في لَحَظاتٍ معدودة!

وعندما سَمِعَ السّيّد (جونسون) بالأمر لم يكترثْ للرّوح الّتي فُقِدتْ، بل شَتَم ولعن العبيد، وقلّةَ فَهْمِهم، وأنّهم بلا عقول، وأنّهم سيؤدّون إلى خسارته بسبب غبائهم، وبعد أنْ هدأ قال: «سأشتري مكانه عبدًا آخر»، وأوصَى أنْ يرافقَ المُلقِّمَ عبدٌ قويّ يحملُ بلطةً مسنونةً؛ فإذا وقعتْ يدُ المُلقّم تحت البَكَرةِ سارعَ صاحبُ البلطةِ إلى قَطْعها، فعند السّيّد (جونسون) أنّ خسارة إحدى يدَي العبد أقلّ من خسارة العبدِ نفسه!!

ولم أحتمل هيئة أنْ يكون عبدٌ متأهّب لقطع يد أخيه الّتي تنزلق تحتَ البكرات المُسنّنة، وخفتُ أنْ يأتي عليّ الدور ويُطلَب منّي أنْ أحملَ تلك البَلْطة، وأقف متأهّبًا لقطعِ اليد المسكينة، فحاولتُ أنْ أنشغل بحصاد القصب في المزرعة حتّى لا يختارني السيّد (جونسون)

لمرافقة العَرَبة إلى المعصرة، ولكنّه كان يختارني في كلّ مرّة، وكان يقول لي باحتِقار: «أيّها العبد المُتفذلك، إنّني أبعثُكَ إلى مكانٍ يليقُ بمقامك السّامي...»، ويُطلقُ ضحكةً خبيثة. ولم يكنْ لديّ خيارٌ في الرّفض، ولقد رأيتُ عبدًا قطَعَ يدَ أخيه، ثُمّ قمنا بِكَيِّها بالنّار، وكان يصرخ مُسترجِمًا من الألم، وبعدَ ذلكَ شكَرنا على أنّنا أنقذناه من فُقدان رأسه تحتَ المِقصلة!!

صارتْ تأتيني الكوابيس بعد أنْ فُرِمَ ذلك المسكين، وصرتُ أستيقظُ في أنصاف اللّيالي مفزوعًا، وكان دائِمًا ما يَشغلُني سُؤال ذابح: «لماذا لم أهربْ حتّى الآن؟!».

(٤٧)

سُؤال الهرب

كثيرٌ من الأسئلة يبقى مُعلّقًا، ولا أحَدَ يدري سببًا لذلك، ولكنّه في النّهاية يجدُ جوابًا، سؤال الهرب كان من هذا النّوع؛ ففي ربيع عام ١٨١٢م فعلتُها، هربتُ. أكلتُ أربع كعكاتٍ من صُنع العَمّة (تيري)، وقلتُ لها: «سامحيني إذا أكلتُ أكثر من حِصّتي، أحتاج أنْ أكون قَوِيًّا غَدًا». فهمتْ ما أنويه، فدمعتْ عيناها: «لا نُريد أنا و(دانيال)، ولا أولادُنا أنْ نفقدك». أجبتُها وقد اضطربتُ: «الأمر يستحقّ المُحاولة».

كان العمّ (جون) قد كَبِرَ كثيرًا، نحن لا ننظر إلى أنفسنا حينَ تعمل فينا يَدُ الزّمن، أنا جِئتُ إلى هنا في الثّلاثينيّات من عمري، وأنا الآن في الأربعينيّات، لا أدري كيفَ تمرّ الأيام؟ لا أدري كيفَ تُصبح صُور أبي وأمّي وأختي (آمنة)، وزوجتي (أمارا)، وابني (سيّد) الّذي لم أره، ونهرنا، و(فوتا تور)، و(تُوبا) كلّها من الماضي؟ هل يُمكن أنْ يُنسَوا؟ لو كانتْ لهم رُسُومٌ لعلّقتها على جِدار هذا الكُوخ البالي الّذي نعيشُ فيه، لكنّ رُسُومهم ليستْ موجودةً إلاّ في قلبي، وقلبي جرتْ فيه دِماءٌ كثيرة، ومرّتْ عليه صُورٌ مُتابِعةٌ دامِية، حتّى اختلطَ بعضُها ببعضٍ، وأنسَى بعضُها بعضًا. صُور الموت أشدّ الصّور قسوةً، وأكثرها قُدرةً على محو ما هو دونَها، لكنّنا كنّا نهربُ من تلك

الصّور القاسية إلى أخرى نستطيع أنْ نرمّم بها جروحَنا الّتي يبدو أنّها لا تتعافَ مع الزّمن، ولكنّها تزداد نَزْفًا.

(بيتر) و (ويندي) كَبِرا هما الآخران. صارتْ (ويندي) عروسًا. تزوّجتْ. وأنجبتْ. سمعتُ أنّ السّيّد (جونسون) يُرغِم (بيتر) على ارتكاب الفاحشة من أجل الإخصاب، وزيادة إنتاج العبيد، لقد علمتُ أنّه كان يفعلها دائِمًا مع أبناء الأفارقة كلّما صارَ أحدهم شابًا، يجعله ينام مع الفتيات، من أجل أنْ تُنجِب تلك الفَتَيات له مزيدًا من العبيد، في مزرعته عددٌ منهم. العمّة (تيري) كانت حزينة، كنتُ أعرف ذلك من وجهها، كان (تيري) يغيب بعد أنْ نعود من العمل في المزارع، كان يُقال إنّ لديه عملاً آخَر، وهو عملٌ مهمّ، هكذا كانوا يَقولون لأبويه، لكنّهما كانا يعرفان ماذا يُرادُ له أنْ يفعل! كانوا يكرهون ما يُضطرّون إليه، ولكنّهم مثلهم مثل الآخرين لا يملكون خيارًا، ولا يستطيعون الرّفض. إنّهم محكومون بالخوف، هكذا قال رئيس الولايات (جون آدامز): «الخوف هو أساس معظم الحكومات»، إنّهم يُقيمون دولتَهم على الخوف، هذه أمريكا يا سادة، وهذه سياستُها: ازرع الخوفَ في القلوب تنحني لكَ الرّقاب. لقد كان أبناء جنسي محكومين بالخوف تمامًا، غير أنّني كنتُ أسمعُ من خلال الصّحف الّتي أجدها عند العمّ (جون) بعضَ الأنباء عن حالات تمرّد للسّود، كنتُ قد سمعتُ حتّى ذلك العهد عن ثوراتٍ بالبلطات والفؤوس للزّنوج من أجل الحصول على حريّتهم، لكنّها جميعَها انتهتْ، وعُلّق أفرادها مشنوقين من تحت الأشجار، وتُرِكوا في

الطّرق العامّة بضعة أيّام ليُشاهِدهم كلّ مَنْ تُسوّل له نفسه أنْ يُطالِبَ بحريّته.

ليالِيَ كثيرةٌ سمِرتُ فيها في كوخ العمّ (جون) سِرًّا، كانت المرّة الأولى قبل ما يقرب من عام، كُنّا عائدين من مزرعة القصب، حينَ أوى العبيد إلى أكواخهم، بقيتُ مكاني، لا أدري كيفَ تركني العمّ (جون) وغادر إلى كوخه، وتبعْتُه بنظراتي، كنتُ أرى في جذعه الّذي تقوّس فِعل الزّمن، لوهلةٍ سألتُ نفسي: «أين عائلته؟ لن يكون نبتَ من الأرض فجأةً أو هبطَ من السّماء هبوطًا، لا بُدَّ أنّ له عائلة، والدَيه، إخوته، أو أبناءه إنْ تزوّج؟ ما الّذي حدثَ لهم يا تُرى؟». كان العمّ (جون) قد غاب داخل كوخه، مشيتُ بهدوء، حتّى صِرتُ قريبًا من نافذة غرفته، كان جالِسًا وحده، ينظر في الفراغ، وعلى ضوء المصباح الّذي أوقده، كان يُلقي بعضَ الجذعات في النّار ويُغنّي أغنيةً حزينة:

قَدْ جِئتُ وحيدًا من بَلَدِي

فِي صَدْرِي قَلْبٌ كاللَّهَبِ

سَرَقوا وَطَنِي... قَتَلُوا وَلَدِي

وأَقَامُوا الصَّخْرَ عَلَى غَضَبِي

حَكَمُوا بِالسَّوْطِ عَلى جَسِدِي

وعَلَيَّ المَوْتَ بِلا سَبَبِ

فمتى أرتاحُ مِنَ الكَبَدِ

قد تعبتْ رُوحي مِنْ تَعَبِي؟!

وقفتُ على النّافذة وأنا أتطلّع حولي لأتأكّد من أنّه لا أحدَ يراني، كان اللّيل عميقًا فأَمِنْتُ ظُلمته، نقرتُ نافذته بأصابعي، فانتبه، فرآني، فأشرتُ إليه أنْ يسمح لي بالدّخول، فأشار إليّ مُغضَبًا أنْ أرحلَ سريعًا قبل أنْ يرانا السّيّد (جونسون)، لكنّني ظللتُ واقِفًا، وأعدتُ له بالإشارة أنْ يفتح لِي الباب، وقفَ هذه المرّة، وتطلّع من النّافذة يمنةً ويسرة، قبل أنْ يُشير بيده: هَيّا، ودار ليفتح الباب، ودخلت.

«أنتَ وحيد؟»، قلتُ له. استَفهمَ، أجبتُ: «سمعتُكَ تُغنّي بذلك». «كانتْ لي عائلة». «لا تحزن». «نحن الزّنجيين خُلِق الحُزن من أجلنا». «لا. ألبتّة يا عمّ، نحنُ خُلِقنا من أجل أنْ نعبده». «نعبدَ مَن؟». «ماذا كنتَ تعبد في إفريقيا؟!». «لم أكنْ أعبدُ شيئًا». «أعني مَن هو إلهك؟». «لا أدري ماذا كان يعبدُ أبواي، لكنّني رأيتُهما مع بقيّة أفراد العائلة في بعضِ المواسم يدورون حول تمثال مصنوعٍ من الخشب». «إنّهم وثنيّون إذًا». «ولْيعبدوا ما يشاؤون، انظرْ إلى حالِنا». «اسمع يا عمّ، نحن مُطالَبون أنْ نعبدَ الله، الله وحده قادرٌ على أنْ يُخلّصنا مِمّا نحن فيه». «الله؟ هل يرى ويسمع ما يحدثُ لنا؟». «بالطّبع، لكنْ لا تقلْ لي لماذا لا يتدخّل؟ إنّه خَلَقَنا لنعبده لا لكي ننتظر منه أنْ يُحقّق لنا رَغَباتِنا، إنّ ما نحن فيه سببُه هو تعدّد الآلهة، وكثرةُ أسمائها وأشكالِها وألوانها، نحن

نعبد الله الّذي أرسلَ الأنبياء والرّسل ليُخبِروا عنه، وخاتم الأنبياء محمّد. ألم تسمع عِظة القسّيس الّذي تكلّم عن نوح، نوح نبيٌّ من المُبجّلين عند الله، لكنّه تكلّم عنه بسوء، الدّين الحقيقيّ هو دين التوحيد، الدّين الّذي لا يفرّق بين الرّسل ولا يستهزئ بهم، كما أنّه لا يُفرّق بين البشر ولا يستهزِئ بهم ولا يَستعبدُهم، يجب أنْ نتحدّث عن الأنبياء بأدبٍ وتنزيه؟». «أنتَ تعلمُ كثيرًا يا ماريان». «أنا عمر، وسأبقَى عمر إلى أنْ أموت، نعم، أنا تعلّمتُ علم الدّين وفقهه وشرائعه، وعلم الأديان، وعلم العربيّة، وغيرها من العلوم، طلبتُها في بلدي في (فوتا تور) وفي مدينة (تُوبا) خمسةَ وعشرين عامًا، وأحفظُ هنا في صدري القرآن الكريم، وهو ثالثُ الكتب السّماويّة بعد التّوراة والإنجيل، لكنّه لم يَطَلْه أيُّ تغيير أو تبديلٍ، هل تريدُ أنْ أحدّثكَ عنه؟». «بالطّبع، ولكنْ ماذا أُعِدّ لكَ؟ قلتَ لي أنتَ من مدن السّاحل في الغرب الإفريقيّ، أنا من وسط إفريقيا، أنتم هناك في السّاحل هل تُحبّون الشّاي؟». «بالطّبع. هل لديكَ شاي؟». «سأعدّ لكَ كوبًا شهيًّا». «أنا لم أشربْه منذ أنْ أُخِذتُ من بيتنا في ذلك الصّباح البعيد».

تكرّرت زياراتي للعمّ (جون)، كنتُ إذا زرتُه يوم الأحد، أتركُ يومَين أوثلاثة لا أزوره فيهما؛ حتّى لا يلحَظَ السّيّد (جونسون) تلك العلاقة، واتّسع بيننا بحر الكلام، وامتدّ حتّى وَثِقَ أحدُنا بالآخَر، وكانتْ لي معه حوارات طويلة، أسلمَ بعدَها، وصار يُصلّي، لكنّه كان يفعل ذلك بعيدًا عن عينَي مالِكنا.

أمّا باب الحِكايات فقد انفتح على مِصراعَيه، ثلاثون عامًا من العمل لدى السّيّد (جونسون) بسطَها أمامي العمّ (جون) صفحةً صفحة، وأقرأنيها سطرًا سطرًا، فبانَ لي من شخصيّة السّيّد (جونسون) ما لم يكنْ في الحُسبان، ولم يكنْ بطشُه بِنا إلا أحدَ ألوانِ شخصيّته.

قال لي: السّيّد (جونسون) فاسقٌ بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، لقد كان يُرغمني على أنْ آتي له كلّ ليلةٍ بفتاةٍ من الزّنجيات، وكان يُمارس معها الرّذيلة، وكان يختار من الفتيان الزّنوج ما يُسمّيهم بالمُخصِبين، فيُدخلهم على البنات، ليطؤوهنّ، ويتناسَلْن، وقد كان يبيع أولاد الزّنجيّات أطفالاً لم يتجاوزوا الثّامنة كأنّهم طيورٌ داجِنة، أو إوزّ أو بطّ، إلى أيّ مُشترٍ يجده، وقد كانتْ بعضُ الأمّهات اللّواتي لا يعرفْن آباء أطفالهنّ أو يعرفْن، لم يكنْ ذلك لِيُحدِثَ فرقًا، كُنّ يُقبّلْنَ أقدام السّيّد (جونسون) حتّى لا يبيعَ أطفالَهنّ من دونهنّ، وكُنّ يقلْنَ له: «نحن لا نطلبُ ألاّ تبيعَ أطفالَنا، ولكنْ لا تبعْهم وحدهم، بِعْنا معهم». وكُنّ يَلقَين ضربًا موجِعًا، ورَفسًا في البطن بحذائه الثّقيل، وكان يقول: «وهل أنا مجنون؟! سأستبقيكنّ من أجل المزيد من العبيد، إنّكنّ دجاجاتي اللّواتي يَبِضْنَ لي ذهبًا». وهكذا فرّق على مدى عشرين عامًا بين كثيرٍ من الأمّهات وأطفالهنّ، ولم يكنْ لِيطرفَ له جفنٌ!

أترى إلى كلّ هؤلاء الخلاسيّين، إنّهم منه أو من سادةٍ بيضٍ مرّوا بمزرعته وأقاموا عنده بِضعة أيّام، إنّهم نِتاج ليالٍ حمراء،

ونزواتٍ عابرة. ستقول لي: «وماذا كنتم تفعلون لكي تُوقِفوا كلّ هذا الفجور؟». سأقول لك: «لم نكنْ نستطيع أنْ نفعل شيئًا؟» ستقول لي: «لِماذا لم تشتكوا إلى المحكمة؟!». سأقول لك: «إنّ القانون يحميه ولا يحمينا؛ القانون الأمريكيّ لا يأخذ بشهادة العبد الأسود، ولا يعتبره إنسانًا يستطيع أنْ يشهد أو يُقدّم شكوى، ولقد كان بعضُنا يتمرّد أحيانًا، فيُصبّ فوق رأسه العذابُ صبًّا، أو كان يُقتَل بدمٍ باردٍ، ولم يكن أحدٌ من القَتَلة البيض ليُحاسَب على جريمته، آلاف الأرواح من الزّنوج أُزهقت على أيدي رصاصات البيض، ولم يدن القانون قاتِلاً واحِدًا، إذْ لم يكنْ للعبدِ حتّى لو ذهبَ إلى المحكمة، وقال إنّه شاهدَ عمليّة القتل بأمّ عينيه أنْ يُؤخذَ بشهادته، أمّا الأبيض فمُصدَّقٌ من دون شهادة!

يا عمر، من بيننا اليوم على الأقلّ في هذه المزرعة، ما لا يقلّ عن سبعة أولاد وثلاث بنات من صُلبه وحده، كان يدعو في بعضِ أعياد الميلاد، أو في أيّام تحقيق الرّبح عددًا من البيض الّذين قَدِموا معه من (إيرلندا)، ويُدخِل كلّ واحدٍ منهم على فتاةٍ أو أكثر، كلّ الخلاسيّين من عبيد هذه المزرعة والخلاسيّات هُنّ من فجوره وفجور رِفاقه، وجميعهم يُعامَلون معاملة العبيد، دون أنْ تربطه بأيّ واحدٍ منهم عاطفة الأبوّة، أو يرقّ لحالهم ولو قليلاً!!

بعدَ عامٍ كان قلبي قد تحوّل إلى كُتلةٍ من السّواد، وأنا أسمع حكايا السّيّد (جونسون) الّتي لا تُصدّق، لكنْ عليكَ أنْ تُصدّق ما يحدث في النّهاية، لأنّك أصبحتَ جزءًا حقيقيًّا من المشهد. اليوم

(ونـدي) تُجبَرَ عـلى الفجـور، و(بيـتر) كذلـك، وأبواهمـا لا يملـكان إلاّ البـكاء أو الصّمـت المريـر.

قلـتُ لـه في تلـك اللّيلـة الّتـي سـبقتْ أكلي للكعـكاتِ الأربـع: «سأهرب». «لـن تنجـح، التّجربـة برهـان؛ كثيرون حاولـوا قبلَـك». «وأنا واحـدٌ مـن هـؤلاء؛ أريـدُ أنْ أجـرّب». «جـرّب، لكـنّ الأمانـة تقتـضي أنْ أقـول لـك إنّ نسـبة فشـلها تزيـد عـن تسـعةٍ وتسـعين بالمِئـة». «سـأجرّب على أيّة حال. لـن أخسر شـيئًا، هـل لـديّ مـا أخسره؟ هـل بعـدَ المـوت خـوف؟». «شيءٌ آخَـر أريـدُكَ أنْ تعرفـه». «مـا هـو؟». «إنّ نسـبة النّجـاح الّتـي لا تتعـدّى الواحـد في المِئـة، هـي مـن الطّريـق الّتـي سـأدلّك عليهـا لكـي تهـرب». «فلْيكـنْ، لـن أنسـى لـكَ أنّـكَ سـاعدْتَني. قـل لي يـا عـمّ (جـون)، قل لي...».

(٤٨)

اقتلني أنا بدلا منه!

قبل أنْ يُطلِق البوقُ صوت الموت، كنتُ قد شددتُ الحِزام على بطني، وكففتُ طرفَي البنطال العريض الّذي ألبسه، وتسلّلتُ من باب الكوخ، كانت العمّة (تيري) مُستيقظة، نظرتْ إليّ بزاوية عينَيها من بعيد، كانتْ تُعِدّ مزيدًا من الكعك، قالتْ وهي تُقدّم لي صُرّة ملفوفةً منه: «ستُعينكَ إذا وُفّقتَ في الاختِباء لأطولِ فترةٍ مُمكِنة». شكرتُها، أردفتْ: «إلى أيّ مكانٍ نويتَ أنْ تهرب؟». «ليس لي مكانٌ أهربُ إليه، سأهربُ فحسب». ردّتْ: «يقولون إنّ الولايات الشّماليّة تمنح الحرّيّة للعبيد الفارّين». تنهّدتُ: «سمعتُ ذلك، وسمعتُ أيضًا أنّ كثيرًا من الزّنوج هربوا باتّجاه كندا». «إنّها بعيدة». «سأختبِئ لأيّام عن الأنظار ريثما أجدُ طريقةً للتوجّه إلى الشّمال أو إلى كندا». «سأُصلّي من أجلك». انحنيتُ شاكِرًا، وخرجتُ من الباب على أطرافِ أصابعي، كانت بقيّة العائلة ما تزال تغطّ في نومٍ عميقٍ.

كانت اللّيلة مُقمِرة، هادِئة، وبرودتُها مُحتَملة، وكانت المزرعة عن بكرة أبيها تتمدّد على سريرٍ واحِدٍ من الهدوء، لم يكنْ صوتٌ ليُسمَع لا للبشر الّذين تضمّهم، ولا للحيوانات، ولا للطّيور، ولا حتّى للهواء، الّذي بدا أنّه سَكَن ليزيدَ الهدوء هدوءًا،

كان البدر سيّدَ الموقف، مدّ ظلاله النّاعسة، وضوءه الخفيّ على الأشجار، فمدّت هذه نفسَها على التّراب، كانتْ ليلةَ عشقٍ فريدة، لو كان لي مثلَها في (فوتا تور) لجلستُها مع (أمارا) على النّهر نحكي عن حياتنا وأحلامنا، ونقطع خرير النّهر الصّافي بضحكاتنا؛ لكنْ كيفَ يعودُ فائت؟!

قطعتُ السّياج بخفّة فَهْد، ومشيتُ بضعَ خطواتٍ على أصابِعي بهدوء خارجَه، وحانتْ منّي التِفاتةٍ إلى الوراء حيثُ السّياج والأكواخ والمزرعة كلّها، فلم أرَ ما يُثير الشّك، فزاد اطمِئناني، وهدأ قلبي، خطوتُ بِضع خطوات أخرى لأتبيّن الطّريق أمامي على ما تبقّى من خيوط اللّيل الّتي بدأتْ تنحل لتسمح لخيوط الفجر أنْ تحل محلّها... آنئذٍ، وبسرعةِ غزالٍ هاربٍ من أسدٍ رحتُ أركضُ في المدى الفسيح، ركضتُ بأقصى طاقتي دون أنْ أنظر ورائي... كنتُ أنهبُ الأرضَ نهبًا، وأقفز في المسافاتِ قفزًا، وأسبح في الهواءِ سَبحًا... بقيتُ على هذه الحال راكِضًا دون توقّف، ودون أنْ أنظر خلفي، ما يقرب من ساعةٍ، ثُمّ كلّتْ قدمَاي، ولم يعدْ صدري يحتمل ضربات قلبي على حاجزه، فتوقّفتُ لألتقطَ أنفاسي، كانتِ الشّمس قد أشرقتْ للتّو، ولم أكنْ قد سمعتُ صوتَ البوق الّذي يُطلَق من أجل بداية يوم العمل للعبيد، ولا أدري لماذا لم أسمعه؟ فكّرتُ أنّه أُطلِقَ وأنا في ركضي، وكان قلبي من الخوف والهلع هو الّذي يعمل لا سمعي ولا عقلي فلم أسمعْه، أو أنّني - إذا كنتُ متفائِلاً - ابتعدتُ مسافةً لا يصل إليها صوتُ البوق اللّعين!

سقطتُ على الأرضِ لأرتاح، مددتُ قدمَيّ، وأسندتُ ظهري بباطنِ كَفَّيّ على الأرضِ الطّريّة، ونظرتُ في الأفق أمامي الّذي بدا خاليًا إلاّ مِن بعضِ الأشجار البعيدة جدًّا، وقدّرتُ أنّها مزارع لِملاّكٍ بيض، ورجّحتُ أنّها مزارع قصب، وأمام هذه الفرحة بالنّجاة رُحتُ أضحك، وعلا صوتُ ضَحِكاتي إلى الحدّ الهستيريّ، ورحتُ أهتف: «لقد فعلتُها، هربتُ، نعم هربتُ من (جونسون) الفاسق... من هذا الشّرير القاتل الفاجر...». ولا أدري كيف سمحتُ لنفسي أنْ أتلفّظ بسيلٍ من الشّتائم في تلك اللّحظة، لكنّني شعرتُ براحةٍ غريبةٍ وأنا أتلفّظ بها.

لم أدرِ إلى أيّ جهةٍ أمضي، فكّرتُ أنّني إذا ذهبتُ إلى تلك المزرعة الّتي تبعد من هنا أكثر من خمسة أميال أنْ يُمسِكوا بي، ويحتسبوني أحدَ عبيدهم، فقد قال لي العمّ (جون) من قبلُ: «إنّ بعضَ تُجّار العبيد أو أصحاب المزارع إذا أمسكَ بعبيدٍ فارّ، يُقسِم أمام ملأٍ بأنّ هذا العبد هو مِلكُه، ويتحوّل إلى ملكيّته بالفعل دون أنْ يتحقّق أحدٌ من ذلك، ودون أنْ يسمعوا للعبدِ نفسِه». وخفتُ أنْ تَجِدني في الطّريق دوريّةٌ من الحرس أو مُتعقّبي العبيد فيأخذوني ويضربوني ويُعيدوني إلى السّيّد (جونسون)، واحترتُ ماذا أفعل، فقلتُ: «الشّمس ما زالتْ في أوّلها، فلأنَمْ قليلاً، وبعد أنْ أستيقظ يخلق الله ما لا تعلمون».

كنتُ أريدُ أنْ أغفوَ غفوةً عابرة، لا أنْ أنام نومًا ثقيلاً أو طويلاً. في الغفوة، رأيتُ النّهر الّذي في (فوتا تور) يتحوّل إلى أفعى سوداء،

راحتْ تلتفّ عليّ، فاستيقظتُ فَزِعًا، ومن بعيدٍ من جهة الصّيّادين سمعتُ أصواتَ كِلابٍ... لكنّني لم أتبيّن إذا كانتْ أصواتُ الكلاب في الحلم، أمْ أنّني استيقظتُ وسمعتُها بالفعل، فقرّرتُ أنْ أتحقّق بأكلِ كعكةٍ، مددتُ يدي إلى اللّفّة الّتي زَوّدَتني بها العمّة (تيري) فلم أجدْ فيها شيئًا، كنتُ قد قضيتُ عليها من المرّة الأولى، نظرتُ في الشّمس فإذا ضوؤها يُعمي العيون، فتأكّدتُ أنّني استيقظتُ، وأنّ الأفعى كانتْ في الحلم، أمّا الكلاب فلا بُدّ أنّها في الحقيقة، أصختُ السّمع أكثر، فسمعتُ بالفعل أصواتَ كلابٍ، كانتْ لا تزال بعيدةً بعضَ الشّيء، لكنْ يبدو أنّها بدأتْ تقترب وبسرعة، فنهضتُ مثل غزالٍ مذعور، تلفّتُّ حولي، ثُمّ صوّبتُ نظري إلى جهة الصّوت، فرأيتُ سَوادًا يركضُ باتّجاهي، أدرتُ وجهي نحو الجهةِ المُعاكِسة لاتّجاه الصّوتِ، وأطلقتُ ساقَيّ للرّيح.

كانتْ هذه كلاب الصّيد السّوداء الّتي يستخدمها مُلاّك العبيد في تتبّع الفارّين، وكان السّيّد (جونسون) يملك عددًا منها، وقد أطلقَ في ذلك الصّباح أشرسَ أنواعها، بقيتُ أركضُ دون أنْ أنظر ورائي، كان صوتُ الكلاب يقتربُ مع كلّ لحظةٍ، وازداد خوفي من أنْ تُمسِكَ بي، كان صوتُها مُرعِبًا، وخُيّل إليّ أنّ لُهاثَها صار مسموعًا، فازداد هلعي، ورحتُ أركضُ بأقصى ما أستطيع، لكنّني في ذروة ركضي أحسستُ من الخوف أنّ رُكبي قد انحلّت وأنّني أركضُ في مكاني، وأنّني لا أقطعُ مسافةً من الأرض، بينما شعرتُ أنّ الكلاب راحتْ تُقلّص المسافةَ بيننا بسرعةٍ، وهذا ما حدث، صارتِ الكلاب على مرمى الحصى، حانتْ

منّي التِفاتةٌ إلى الوراء فانخلع قلبي، لقد كانتْ أربعةَ كلابٍ كبيرةٍ، كلّ كلبٍ بحجم الحِمار، وكُلّها سوداء، وكانتْ تفغر أفواهها، وتبرز أنيابُها الصّفراء من بين أشداقِها. وجحظتْ عيناي، وسقطتُ من شدّة الفزع، وقفزتْ فوقي الكلاب، وراحتْ تنهشُ من جسدي، وتَلِغ في دمي، وكانتْ عيونُها تتّقد جمرًا أحمر في سواد جسمها الكامل، ومناخيرها تنفتح وتنغلق لشدّة لُهاثِها، ولم تكفّ لحظةً عن أنْ تغرز مخالِبها وأنيابَها في لَحمي وأنا أصرخ، كان لُعابُها يسيل من زوايا أفواهها، وسرعان ما تحوّل اللّعاب إلى دم، لقد كان دمي، إنّها ليستْ كلابًا عاديّة، إنّها كِلابٌ مُدرّبة على الافتِراس، وسال دمٌ من ذراعَيّ، ورِجلَيّ، وجسدي، وتمزّقتْ ثِيابي، وهي تتناهبني، وكلّ كلبٍ آخذٌ بجزءٍ من جسمي يجرّه إليه، ورحتُ أستغيث، ولم يكنْ أحدٌ من البشر في المكان ليُغيثني، كنتُ وحدي مع الكلاب محاصرًا بها من كلّ جهة، كانت الكلاب بعد أنْ أتمّتْ عمليّة النّهش قد هدأتْ، وبدأتْ تدور حولي، وتشكّل طوقًا يصعبُ اختِراقُه، لقد كانتْ مدرّبةً على ذلك، وراحتْ تهرّ، وتنبح، وتكشّر عن أنيابه المُرعِبة، وهي تنتظر عَرَبة السّيّد (جونسون) الّتي يقودها المُراقِب (فرانك).

شَحَطني (فرانك) من قدَمَيّ، وألقاني مثل كومةِ قذارةٍ في صندوق العربة، وربطني بالسّلاسل، وعادَ بي إلى المزرعة. لم أسمعْه ينبسُ في الطّريق بكلمةٍ واحدةٍ، كان جسده ورأسه الغاطس في قبّعته الرّماديّة يهتزّان على وقع عجلات العَرَبة كأنّه خَيال مآتة. كان طوال الطّريق يُفكّر بالطّريقة الّتي يُمكن أنْ يُعذّبني بها السّيّد (جونسون)،

لقد كان يدرك خيالَه الواسع في اختِراع أساليب التّعذيب الّتي لم تكنْ لتخطر حتّى على بال الشّيطان نفسه.

علمتُ من العمّ (جون) أنّ تعقّبي كان سهلاً، وأنّ عمليّة هروبي تدلّ على سذاجتي، فقد عرفَ المراقب من خلال تفقّده لعدد العبيد أنّني لم أحضر، وعندما بحثَ في الدّفتر الّذي بين يدَيه، عرفَ الاسم المفقود، فتوجّه بالسّؤال إلى العمّ (جون) الّذي قال له: «لا أدري. ربّما ما زال نائِمًا في الكوخ. فتّشوا عنه هناك». كان الكوخ خاليًا بالطّبع، فساق العمَّ (جون) إلى السّيّد (جونسون)، الّذي أرغَمَه تحت التّعذيب أنْ يقول له: «نعم، أظنّ أنّه هرب»، عزل السّيّد (جونسون) كلّ مَنْ في الكوخ الّذي كنتُ أنام فيه وقام بتعذيبهم، لكنّ أحدًا لم يعترفْ له بشيءٍ، وقالوا قولةً واحدة: «صحونا على صوتِ البوق ولم نجده»، فقرّر إطلاق النّار على (دانيال) قائِلاً: «لقد عشتَ بما يكفي، ولم تعدْ لكَ كبيرُ فائدة» فاعترضت العمّة (تيري) فوّهة البندقيّة وافتدتْ زوجَها بنفسِها، وهتفتْ بتحدٍّ: «اقتلْني أنا بدلاً منه. لم يكنْ له ذنبٌ، وأقسمُ لك بالآلهة الّتي تعبدها أنّه لم يكنْ يعرف»، وهنا تدخّل العمّ (جون) وهتفَ بصوتٍ عالٍ لكنّه مُضطرب: «هذا كافٍ... سيّدي... لم يكنْ أحدٌ يعرف أنّ (ماريان) سيهرب، لا أحد، أنا فقط الّذي أعرف، وأنا الّذي شجّعتُه على الهرب، وإذا أردتَ أنْ تعاقبَ أحدًا يستحقّ العِقاب فلن يكونَ سِواي».

أحضرَ السّيّد جونسون قطعةً من ثوبٍ قديمٍ كنتُ ألبسه، وجعل الكلاب تتشمّمها قبل أنْ ينطلق العبيد مع شروق الشّمس إلى

المزارع للعمل، وراحتِ الكلاب تتعقّبني من خلال الرّائحة، وهكذا ألقَوا عليّ القبض، بدا أنّني وقعتُ في ورطةٍ كبيرة، وأنّ العمّ (جون) وقعَ في ورطةٍ أكبر!

(٤٩)

سافرتْ عيناه بعيدًا

مرّ يومُ هربي بسلامٍ، لم يحدث أيُّ شيء! أمرني السّيّد (جونسون) أنْ ألزمَ مكاني في الكوخ، وأمر العمّ (جون) بأنْ يلزم كوخه هو الآخر، بدأ الشّكّ ينقرُ هدأتي، ليس من عادة السّيّد (جونسون) أنْ يجعل الأمر يمرّ دون عقوبة! قلتُ ربّما خطّأ نفسَه، ووجدَ أنّ الأمر لا يستحقّ أيّة عقوبة فالعبدُ الهارب قد عادَ دون أيّة خسائر، لكنّني تراجعتُ عن هذا الخاطر عندما تذكّرتُ أنّه صوّب بندقيّته إلى صدر (دانيال) لكي يقتله، فخفتُ، ثُمّ فكّرتُ أنّه فعلَ ذلك من أجل إخافته ومعرفة الحقيقة، ولم يكنْ يريدُ قتله في الواقع، وقلتُ لا بُدّ أنّ ساعةً رحمانيّة قد هبطتْ على قلبه المُتحجّر، فقرّر أنْ ينسى الأمر وكأنّه لم يحدث، ثُمّ تراجعتُ عن هذا التّفكير المُتفائل مرّة أخرى، وقلتُ: ماذا لو أرادَ أنْ يوقع بِنا العقوبة، بالعمّ (جون) أو بي أو بـ (تيري)؟! لا بُدّ أنّنا سنتمنّى الموت قبل أنْ يأتي، وهنا ارتعشتْ أطرافي، وأرسلتُ نظرةً إلى الباب وفكّرتُ في الهرب من جديد، وتحرّكتْ رِجلاي فِعلاً قبل أنْ يوقفني خاطرٌ مُعاكِس: ماذا لو أطلقوا ورائي الكلاب المسعورة ثانيةً؟! سيكون من السّهل إلقاء القبض عليّ، وإذا كان قد نوى أنْ يُسامحني في المرّة الأولى فلن يُسامحني هذه المرّة، عندئذٍ هبطَ صدري المُتحفّز، وانسبلتْ رِجلاي المتوثّبتان.

وبقيتُ نهاري كامِلاً أقلّب الاحتِمالات كلّها، ولقد عشتُ من خوف العقاب في عقاب، ومن ترقّب الآتي في عذاب!

عادَ العبيد العاملون في المزارع في أوّل اللّيل، وأُدخلوا إلى أكواخهم، سارعت العمّة (تيري) أوّل ما دخلتْ إلى تفقّد جسدي، وهتفتْ: «هل أصابَكَ سوء؟». فزعتْ لمّا رأتْ أثر أنياب الكلاب في جسدي. أجبتُها: «كلا، بعضُ الجروح البسيطة، لا تقلقي، أنا قويّ كما تقولين دائمًا، وسأُشفى بإذن الله». بكتْ: «لقد كاد اللّعين يقتل دانيال». «أعرفُ أنّني السّبب، وأنا أعتذر عن أنّني عرّضتُه للموت». «لا عليك، ماذا حدث للعمّ (جون)؟». «أعتقد أنّه في كوخه، لقد طلبَ منه كما طلبَ منّي أنْ نلتزم أكواخَنا». تدخّل (دانيال): «لا أظنّ أنّ الأمر سيمرّ من دون عقوبة». رأيتُ نظرات (بيتر) و(ويندي) تريدُ أنْ تخترقني، لقد كانتْ تقول: «إذا أردتَ أنْ تهرب فذلك أمرٌ يخصّك، لكنْ لماذا علينا أنْ نتحمّل حماقتَك؟! ما شأنُنا نحن بكلّ هذا؟!». أردتُ أنْ أشرحَ لهما أنّ هذا هو نِداء الحرّيّة، وهو غريزيّ ولا يُمكن مقاومته، ويجب أنْ يُعمّقه كلّ واحدٍ منّا في نفسِه، لكنّني قدّرتُ أنّه لا فائدة في هذا الظّرف من قول مثل هذا الكلام، فيما راح الأولادُ الصّغار يتضاغَون، هبّت العمّة (تيري): «سأُعِدّ الطّعام». اقتربَ منّي (دانيال)، كان قد شابَ أكثر، أرادَ أنْ يلفّ بعض القِماش على بعضِ الجروح، لكنّ العمّة طلبتْ من (ويندي) ذلك: «إنّه عَمُّكِ، من الجميل أنْ يحظَى بمساعدتك». هبطت (ويندي) بعد أنْ أودعتْ صغيرَها في مهدٍ كنتُ قد صنعتُه لأوّل أولادها عندما كانتْ

بطنُها مُنتفِخة، وبيدها قِطعةٌ من القماش، سكبتْ عليها بعض الماء، ومسحت الجروح المتخثّرة، وبعضَ المواضع الّتي بدأتْ تتحوّل إلى لونٍ أزرق مع السّواد الّذي يبدو داكِنًا، ثُمّ لفّتْ أربطةً أخرى من القِماش النّظيف على بعضِ الجروح الغائرة، وهتفت: «ستنجو، إنّكَ قويّ». كم تُشبهُ أُمّها!

تعَشّينا معًا في تلك اللّيلة، لقد كانوا عائلتي بالفِعل، وهذه العائِلةُ تكبرُ شيئًا فشيئًا. ولدان من بطنِ (ويندي)، وولدٌ من ظهر (بيتر). ومَنْ يدري ماذا تُخبّئ الأيّام من ذرّيّة أخرى؟ سكن معنا والدُ طفلَي (ويندي) فترةً، ثُمّ بعثَه السّيّد (جونسون) إلى مهمّاتٍ أخرى. كُنّا جميعًا نبيتُ في الكوخِ إيّاه، الكوخ الّذي نمتُ فيه أوّل ليلةٍ قبل ما يزيدُ عن أربعةِ أعوام، وكان إسطبلاً، لا يصلح حتّى للحيوانات، وكان بابُه يُدخل الهواء القارس في اللّيالي الباردة، وسقفه يُدخل الماء في اللّيالي الماطرة، ولكّننا أنا و(دانيال) أصلَحْناه بما نستطيع عبرَ شهورٍ طويلة، أغلقْنا فجوات الرّيح والمطر، وصنعنا بسطاتٍ من خشب الأشجار الّتي كُنّا نحملها معنا عائِدين من عملنا في المزارع، كانتْ تلك البسطات مع بعضِ القش فوقَها وأوراق الشّجر أحيانًا، تُشكّل أسِرّتنا المُرفَّهة.

في فجر اليوم التّالي لهروبي لم يزعق البوق، ولم يُصدِر صوتَه الجنائزيّ، ومع ذلك لم يبقَ عبدٌ إلاّ استيقظَ في الوقت إيّاه من دون نِداء، لقد كان هناك نِداءٌ آخَر في أعماقهم لا أدري بِمَ يُسمّى يجعلهم

يسمعون البوق حتّى ولو لم ينفخ فيه صاحِبه، لأنّ صوتَه المُرعِب كان موجودًا في أعماق كلّ واحدٍ مِنّا، يقتحم أُذُنَه في اللّحظة إيّاها من كلّ يومٍ، ويجعله يثِبُ مذعورًا كأنّه يُساقُ إلى المحشر.

لِذا؛ كُنّا جميعًا نقفُ في سلسلتنا ننتظر التّقييد من العبيدِ الموكّلين بذلك، كان العبيدُ موجودين لكنّهم لم يُقيّدوا أيًّا مِنّا، وكان العمّ (جون) موجودًا لكنّه لم يدر ما يفعل هو الآخَر، وكان المراقب (فرانك) كذلك موجودًا، وكان يطوفُ بحصانه على السّلسلة من أوّلها إلى آخرها ليتأكّد من أنّه لا يُوجَد نقصٌ في عددنا، وحين راحتْ نَظَراتُنا تسأل ما الّذي سيحدثُ دون أنْ نجرؤ على النُّطق بالسّؤال، برز السّيّد (جونسون) من كوخه مع شروق الشّمس، وسأل المراقب: «هل جميع العبيد موجودون؟». فردّ: «جميعهم سيّدي». «إذًا اصنع ما طلبتُه منك».

هملجَ المُراقب بحصانه في السّاحة الموجودة أمام كوخ السّيّد (جونسون)، كانتْ هناك كومةٌ كبيرةٌ من الحطب، وفوقَها ثلاثةُ أعمدةٍ من حديدٍ تلتقي في زاويةٍ هرميّة، تتدلّى منها سلسلةٌ طويلة، أشار السّيّد (جونسون) للعبيد الثلاثة الأشدّاء الّذين يقومون بربطِنا فمزّقوا ثِياب العمّ (جون) عنه، وربطوه أمام ذهوله وذهولنا؛ قيّدوا يدَيه خلفَ ظهره، ولفّوا على جسمه سلسلة حديديّة طويلة أكثر من ستّ لفّات، وقيّدوا كذلك قدمَيه مجموعتَين بعضهما إلى بعضٍ، كان العمّ (جون) ينظر إلينا نظراتٍ زائغة، وكان يودّ أنْ يقول شيئًا، أنْ

يحتجّ، أنْ يسأل على الأقلّ ما الّذي يفعلونه به، أنْ يصرخ، أنْ يقومَ بأيّ شيء، لكنّه لسببٍ لا أحدَ يدريه ظلّ صامتًا، فيما نحن قافلة العبيد لم تَجِزْ ما تفعل، بعدأنْ أصبح العمّ (جون) ملفوفًا بأكمله بالزّرد والسّلاسل، حمله الثّلاثة وعلّقوه في أعلى القوائم الثّلاثة، وصار مثل الذّبيحة متدلّيًا، ومن تحته كومة الحطب الكبيرة، أشار السّيّد (جونسون) فرفعوه مسافةً أعلى فوقَ الكومة، ثُمّ أشار إشارةً أخرى إلى فرانك، فأقبل يسعى مبتهِجًا، صَبّ شيئًا من القار على الحطب، ثُمّ أوقد النّار، فسرى الاشتِعال في الحطب سريعًا، وارتفعتْ ألسنة اللّهب إلى الأعلى، وبدا المنظر أنّه ليسَ حقيقيًّا؛ بل من عالَم الخيال الشّيطانيّ، لقد أرادَ السّيّد جونسون أنْ يشوي العمّ (جون)!! راحت حرارة النّار تصعد إلى العمّ (جون)، وراحتْ نظراته المرعوبة تُحدّق في النّار أسفله، كان حَمّ النّار هو الّذي يصل إليه، دون أنْ تصل ألسنتها، فلم يكن الهدف أنْ يحترق ويموت دفعةً واحدةً، بل أراد السّيّد (جونسون) أنْ يشويه على نارٍ هادِئة، ويستمتع بتعذيبه. أدركَ العمّ (جون) ما ينويه السّيّد (جونسون)، فراح يسترحم، وراح يستغيث: «لقد خدمتُكَ ثلاثين عامًا ونظّفتُ حتّى حِذاءَكَ يا سيّدي، ألا يشفعُ ذلك لي؟ لقد أطعتكَ وقبّلتُ التّراب بين يديك كلّ هذه السّنوات الطّويلة، ألا ترحمني؟ آآآه... آآآآآآآه...». لكنّ السّيّد (جونسون) راح يُشعل النّار في غليونه مرّةً بعدَ مرّة، وينفثُ النّار من دُخانه في استِمتاع، فكّرتُ في أنْ أنقضَ على السّيّد المجنون وأُنشِبَ أظافري في رَقَبته، لكنّ الخوف الّذي تمكّن منّي هو الآخَر منعني

مـن أنْ أتقـدّم باتّجاهـه خُطـوةً واحـدةٍ، أمّـا بقيّـة العبيـد فكانـوا ينظـرون إلى العـمّ (جـون) يُشـوَى والنّـار مـن تحتـه دون أنْ يكـون بمقدورهـم أنْ يفعلـوا شـيئًا، كان حَـمّ النّـار قـد بـدأ يلسـع جسـد العـمّ (جـون) فـراح يـصرخ، ثُـمّ اشـتدّ حَـمّ النّـار فعـلا صُراخـه أكثـر، ثُـمّ راحَ المُراقِـب يُرخِـي السّلسـلة فهبـطَ جسـد العـمّ (جـون) العـاري أقـربَ إلى النّـار، فأخذَ جسـده يسـيح، ويتقاطَـر مـا فيـه مـن شـحم، وشـمَمْنا جميعًـا رائحـة شـواء لحمـه البشريّ، ثُـمّ هـوت السّلسـلة أكثـر فشـقّتْ صَرخاتـه الولايـةَ كُلّهـا، فيـما كان السّـيّد (جونسـون) يُتابِـعُ تدخينـه، ويهـزّ سـاقَيه بحركـةٍ عصبيّـة، ثُـمّ غـادر السّـاحة إلى كوخـه، وراحَ يسـكبُ لنفسِـه كأسًـا مـن الخمـر، ويُطالِـع الصّحـف الملقـاة عـلى طاولتـه، وكان صُراخ العـمّ (جـون) المسكين مـا يـزال يتـوالى، مـرّتْ لحظَـاتٌ كأنّهـا دهـورٌ، قبـل أنْ يُطـلّ علينـا السّـيّد (جونسـون) مـن نافـذة كوخـه، ويهتـف بالمراقـب (فرانـك): «هـذا اللّعـين لا يجعلنـي أقـرأ جريـدة الصّبـاح، إنّ صُراخَـه يُزعجنـي، بإمكانـكَ أنْ تُطلِـقَ النّـار عـلى رأسِـه، وتريحنـي مـن صوتـه». لم يفعـل المُراقـب مـا أمـره بـه السّـيّد (جونسـون)، بـل طلـبَ مـن العبيـد أنْ يسـحبوه مـن السّلسـلة، ويضعـوا في فمـه قطعـةً كبـيرةً مـن القـماش كي لا يـصرخ، وقـال بصـوتٍ عـالٍ موجّهًـا كلامـه للسّـيّد (جونسـون): «لـن يزعجك بعـدَ الآن سـيّدي، بإمكانـك أنْ تسـتمتع بقـراءة الصّحـف كـما يحلـو لـك».

أنزلـه العبيـد الثّلاثـة بعد أنْ شُـوِيَ جسـدُه بالكامـل، كان هذا بعد سـاعتَين، كان قـد فقـد الوعـي، والأرجـح أنّـه مـات، أمـرَ المراقـب جميـع العبيـد أنْ يتوجّهـوا إلى المزارع للعمـل كالمعتـاد، وأمـرني ألاّ أغـادر معهـم.

سارعتُ فصببتُ دلاءً من الماء على النّار حتّى خمدت، ثُمّ لففتُ العمّ (جون) بغِطاءٍ من القِماش، وأنزلتُه من بين الدُّخان الكثيف، وحملتُه إلى كوخه، لم يعترضْ على ما فعلتُ لا السّيّد (جونسون) ولا المراقب (فرانك).

كان يبدو ميّتًا على الأرجح، بقيتُ معه النّهار كلّه، ركضتُ إلى الكوخ الّذي أنام فيه، بحثتُ عن المسحوق الّذي كانت العمّة (تيري) تُرمّمُ به جروحي، أخذتُ شيئًا منه وعدتُ إليه، دهنتُ به بعضَ المواضع، ولكنّ اللّحم كان قد سقطَ في بعضِ الأجزاء من جسده، وتفحّم في أجزاء أخرى. حاولتُ أنْ أسكبَ في فمه بعضَ الماء، فظلّ في موته.

في الظّهر، رأيتُ صدره يعلو، فعرفتُ أنّ فيه بقيّة من حياة، سارعتُ إليه، قطرتُ في فمه بعض القطرات، وهتفتُ وأنا أبكي: «استيقظ يا عمّ (جون)، استيقظ... أنا آسف لِما حصل... سامحني... لم أكنْ أدري بأنّ (جونسون) مجنونٌ إلى هذا الحدّ... إنّه لا يخاف الله... مَنْ يظنّ نفسه هذا الكافر؟». فتحَ العمّ (جون) عينَيه، وتحرّكتْ شِفاهُه قليلاً، بدا أنّه يريدُ أنْ يقول شيئًا، اقتربتُ من فمه لأسمع ما يودّ قولَه: «أنا...أنا...» ثُمّ لم يستطع أنْ يُكمل ما كان يريد قولَه، هتفتُ: «ماذا تريد يا عمّ جون؟ ماذا تريد..؟». وكانتْ دموعي تنسكب على خَدّي، اقتربتُ أكثر، همس: «أنا الّذي أطلبُ منكَ أنْ تُسامحني على ما فعلتُه بكَ في السّابق... سامحْني». «بالطّبع يا عمّ جون أنا أسامحك...». «هل سيغفر الله لي؟». «الإسلام دينُ تسامُح... ودين

التّحمّل، والصّفح، والعفو، وهو يجبّ ما قبله، وربّك الغفّار». «يبدو أنّه لم يبقَ لي في الدّنيا إلاّ لحظات». «انطق بالشّهادتين يا عمّ». «نعم... أشهدُ ألاّ إله إلاّ الله وأشهدُ أنّ محمّدًا رسول الله... الآن سأموتُ مرتاحًا يا عمر...». بكيتُ، وأنا أحمل ما تبقّى منه بين يَدَي، تابع همسَه، كان صوتُه خافِتًا، لكنّه كان واضِحًا: «أنا سأذهب إلى عائلتي.. إنّها نهاية الآلام يا عمر... لكنْ هل تعتقد أنّ الله سيغفر لي كلّ ما أجبرني عليه السّيّد (جونسون)؟». «نعم يا عمّ... يغفر لك». «وأنت؟». «بالطّبع أغفر لك». ثُمّ ارتخى بين يَدَيّ، وسافرتْ عيناه بعيدًا.

(٥٠)

إنّها تمرّ على أيّة حال!

كفّنْتُه، وحفرتُ له قبرًا خارج السّياج، وقلتُ في نفسي: «لم يكنْ ينتمي لهذه المزرعة، كان ينتمي لله». ثُمّ توقّفتُ، إنّها أرضُ الله، وهي هنا كذلك. حفرتُ في الأرض ثلاث أذرع، بقيتُ نهار اليوم التّالي وأنا أحفر التّراب وأبكي، أضجعتُه على شِقّه الأيمن جهة الشرق، حيثُ الكعبة، قِبلتُنا نحن المسلمين، وحيثُ انطلقَ النّور، ووضعتُ بعضَ جذوع الشّجر فوقَ جسده، أدخلتُها في أطراف القبر، فشكّلتْ طبقةً حاميةً تُشبه ظهر التّابوت، صار جسده محميًّا، ثُمّ أهلتُ التّراب، وصلّيتُ عليه صلاةَ الجنازة، لم يُصلّ معي أحدٌ، كانوا جميعًا في العمل، ولو كانوا هنا لَما فعلوا أيضًا، فلقد كانوا وما زالوا محكومين بالخوف.

زرعتُ عندَ رأسِ الشّاهدة شجرةَ صنوبرٍ، إنّها حانية، وهواؤها لطيفٌ حينَ تكبر، سقيتُها بدموعي قبل أنْ أسقيها بالماء، رفعتُ يدَيّ بالدّعاء، وارتجّتْ أكتافي وأنا أدعو، لم أكنْ أعرف لِمَ بكيتُ عليه هكذا، كان قاسِيًا عليّ أوّل ما جِئتُ هنا، فَلِمَ هبطتْ عليّ الرّحمةُ من أجله هكذا؟ ربّما لأنّه مُسلِم، ربّما لأنّه مات بطريقةٍ بشعة، ربّما لأنّه طلبَ منّي ذلك، وربّما لأنّني كنتُ أبكي على نفسي ابتِداءً لا عليه، فلقد كان كلّ واحدٍ منّا نحن العبيد مُرشّحًا لأنّ يكون مكانه،

بكَيتُ من القهر الّذي نحن فيه، من العجز، من المهانة، بكيتُ على الإنسانيّة الّتي تفنّنوا في نَزعها مِنّا؟ على مَنْ يكون الحقّ في ذلك؟ على القانون الّذي يُبيح لهم استِعبادَنا، أم على البشر الّذين تحوّلوا إلى وحوش؟ وهل القانون إلاّ صنيعة البشر، لكنّه صنيعةُ بعضِهم من القُساة، فلماذا حينَ يُفَعّل هذا القانون يتحوّل البِيض الّذين في قلوبهم رحمةٌ إلى وحوشٍ مفترسة؟!

تركني السّيّد (جونسون) ولم يُوقع بي أيّة عقوبة، كان ذلك مدعاة للخوف أكثر مِمّا لو فعَلَها، فالعقوبة تُريح الخائف منها، وإذا وقعتْ بَرِئ الجسدُ مع أوجاعه من انتِظار وقوعها. كنتُ أتمنّى أنْ أُعاقَب منه، أو أعرف حجم العقوبة على الأقلّ لكي أستعدّ لها، لكنّه تركني هكذا أتخيّل، وخيالي واسعٌ جِدًّا، وهذا الخيال كان يُوقِع عليّ عقوبةٍ من نوعٍ آخَر، أحسُّ وجعها في روحي؛ لقد كانتْ أنكى من العقاب الجسديّ بلا شَكّ!!

كُنّا عائدين ذات مساءٍ من العمل في المزارع، فهالَنا عددُ المصابيح الّتي أُشعِلتْ على السّياج، كانت المزرعة من بعيدٍ تبدو مزرعةً أرستقراطيّة تستعدّ لاحتفال كبير، كان قبر العمّ (جون) خارج السّياج يبدو من خلال ضوء المصابيح كأنّه أسطورة، خرافة من غابات إفريقيا، نصّ خارج الورقة، أو سطرٌ خارج المتن، أو لطخةٌ من حبرٍ في سَوادٍ لا ينتهي، وكانت شجرة الصّنوبر الصّغيرة الّتي لم تنمُ كثيرًا بعدُ ريشةً تزحفُ باتّجاه الغرب!

كان السّيّد (جونسون) في هذا المشهد الاحتِفاليّ، يقفُ أمام كوخه، وقد لبسَ حِزامه الجلديّ، وثِيابَه الأنيقة، ورَكَزَ المُسدّسَين على جانِبَيه، وكان يعقدُ ذراعَيه أسفلَ صدره، وينتظرنا، اصطفَفْنا كما أَمَرنا المُراقب هذه المرّة صفوفًا متتاليةً أمامه، كلّ عشرةٍ في صَفّ، وانتظرْنا ما يحدث.

قال السّيّد (جونسون): «لا بُدّ أنّكم حزنتم على موت العمّ (جون)؟». فسرتْ همهماتٌ كثيرةٌ في الصّفوف، لكنّ أحدًا لم يقلْ كلمةً واحدةً، كان السّيّد (جونسون) يضع قبضةَ يده على فَمِه مُطرِقًا في الأرض، قبل أنْ يُنزِلها، ويتابع بصوتٍ يرشحُ بالحزن: «وأنا كذلك... لقد حزنتُ أكثر من حزنِ أيّ واحدٍ منكم على موته، لقد كان صديقًا عزيزًا، صحيحٌ أنّ السّود مفطورون على الخِسّة والغدر والخِداع والخِيانة والغباء، والحيوانيّة لكثرة مُخالطتهم للحيوانات في إفريقيا حتّى صاروا أشبه الخلق بها... ولكنّني علّمْتُه، وتابعتُه خلال ثلاثين عامًا حتّى خلّصْتُه من هذه الآفات... لقد صارَ عبدًا جيّدًا يفهم على سيّده بالإشارة، وهذا نادِرًا ما يحدث... اسمعوا... » توقّف السّيّد (جونسون) برهةً عن الكلام، ثُمّ عادَ إليه صارِخًا: «اسمعوا أيّتها الحيوانات المُدلّلة، لأوّل مرّة سأقول لكم قِصّتي، ولستُ متأكّدًا من أنّكم ستفهمون ما أقول، ولكنّني سأقولها على أيّة حال، فلعلّ بعضكم يعتبر ويتّعظ؛ لقد جِئتُ من (إيرلندا)، إلى هذه البِلاد وعانيتُ أكثرَ مِمّا تُعانون، كان أبي سِكّيرًا، وكانتْ لديه مزرعةٌ ورثها عن أبيه، ولكنّه أضاعها في القِمار، ولَزِمَه دَينٌ كبيرٌ، ولمّا

لم يستطعْ أنْ يَسُدّ دَينَه، خيّره الدّائنون بين أنْ يأخذوه أو يأخذوني، فضَحّى بي، ولو كنتُ مكانَه لفعلتُ ما فعل، ساقَني سيّدي البريطانيّ من بلدي (إيرلندا) إلى هنا لأعمل عشر سنواتٍ مقابل سَداد دَينِ أبي، وركبتُ البحر كما ركبتموه، وتعرّضتُ لأكثر مِمّا تعرّضتم له، كان عمري ستّة عشر عامًا حينَ ساقوني إلى (فيرجينيا) وعملتُ في ظروفٍ لن تتخيّلوها عشرةَ أعوامٍ بلا مقابل، كان المقابل سَدادَ دينِ أبي الّذي لم أدرِ منذ أنْ ساقوني من (إيرلندا) هل ظلّ على قيد الحياة أم مات. البريطانيّون هنا في المُستعمَرات مُتوحّشون، ذُقْتُ ما لم يذقْه أحدٌ منكم، لقد كان طعامي الأعشاب الجافّة، ولو حالفني الحظّ فسأجدُ حفنةً من الأعشاب الطّريّة، أنتم الآن تحصلون على طعامٍ كنتُ أحلم أنْ أحصل عليه مرّة واحدةً في الشّهر؛ أنتم تأكلونه في كلّ يومٍ. لقد لعقتُ حِذاء السيّد البريطانيّ، ونظّفتُ مؤخّرته، ومسحتُ قيأه أيّها المُدلّلون، لقد نمتُ في العَراء شهورًا، قبل أنْ يتعطّف عَلَيّ ويرميني مع الخنازير في الحظيرة نفسِها، أنتم تنعمون في مزرعتي بدلالٍ لم يحصل لي طَوال السّنوات العشر الّتي قضيتُها في عبوديّة مقيتةٍ أكثر مِمّا تتخيّلون... أترونَ هذه الطّريقة الّتي شويتُ بها العمّ (جون)، لقد تعرّضتُ لها أنا أيضًا، شَواني سيّدي لأنّني أخذتُ كوز ذرةٍ من المستودع... بقيتُ فوق النّار حتّى نضج جلدي...». وتوقّف قليلاً، ثُمّ كشفَ عن ظهره، وأداره ناحيتنا، وأردف: «انظروا... انظروا أيّها المُنَعّمون...»، تنهّد طويلاً، وأعادَ ارتدِاء ثوبه، ثُم تابع: «في السّادسة والعشرين وقّع لي سيّدي البريطاني على ورقة الاستِئجار أنّني أتممتُ

المُدّة... صحيحٌ أنّني صِرتُ حُرًّا، ولكنّني كنتُ لا أملك شيئًا، كنتُ فقيرًا إلى الحدّ الّذي لم أجدْ فيه طعامًا لثلاثة أيّام، ولم يكنْ لديّ حِذاء، فعملتُ في المزارع بأجرة، عملتُ في هذه المزرعة مع العمّ (جون)، وجمعتُ أموالي خلال عشرةِ أعوام، وفي السّادسة والثلاثين اشتريتُها من مالِكها، وصارتْ لي، لقد عملتُ فيها بأظافري حتّى تصير على ما صارتْ عليه، وها أنا الآن أمامكم، ماذا تريدون أكثر من هذه القِصّة كي تعرفوا نِعَم السّيّد الأبيض عليكم، فإذا ذُقتم لونًا بسيطًا من ألوان العقوبة الّتي أُوقِعها عليكم، فلقد ذُقتُ أشدّ منها آلافَ المرّات، ولو رأيتم كيفَ كان يُعاملني سيّدي من الوحشيّة، لحمدتُم الله عليّ؛ أنا السّيّد الرّقيق المُرهَف الأحاسيس...» وتوقّف قليلاً وبدا أنّه بكى، وراح يمسح دموعه بمنديلٍ أخرجه من جيبه، ثُمّ تابع: «والآن، كلّ ما أريدُه منكم أنْ تكونوا عبيدًا صالِحين، لا تفتعلوا المشاكل، ولا تخونوا ثِقتي، ولا تغدروا، ولا تتستّروا على أحدٍ يقع منه خطأ، لقد كان العمّ (جون) خدومًا وقليلَ الغَباء، ولكنّه خانني، والخيانة لا تُغتَفر، ولقد كان عزيزًا عَليّ، ولكنّ النّظام أعزّ عليّ منه، وإنّني مستعدٌّ أنْ أُضحّي بنصف ما أملك في سبيل ما أعتقد. في النّهاية الحياةُ لا تَرحم، وهي بلا قِيمة لمن يهدر تلك القيمة، وعليكم أنْ تُدرِكوا أنّه لا حياة العمّ (جون) ولا حياة غيره من الزّنوج تُساوي عندي شيئًا؛ إن حياة الزّنجي تساوي عندي سِنتًا واحدًا، نصف سنتٍ لِقَتله ونصف سنت لِدَفنِه». ثُمّ أعطانا ظهرَه ومشى مثلَ مَلِكٍ إلى باب كوخه، وصفق خلفَه الباب، وأُدخِلنا نحن إلى مساكننا.

إنّها سَنواتٌ، وإنّها تمرّ، بالعذاب أو بدونه، تعمل فِينا، تأكل من أعمارنا أكثر مِمّا تأكله السّياط، وتغوصُ فينا كما تغوص السّكين في قالب زُبدٍ. نذهل عن أنفسِنا، لا نتخيّل أنّها ستمرّ مع كلّ هذا الألم، لكنّ السّنوات لا تكترث بالألم إنْ كان يُحتمل أول لا، إنّها تمرّ على أيّة حال!

توسّعتْ عائلة (دانيال)، صار لديه أحفادٌ كثيرون، كان بطنُ (ويندي) ينتفخ دائِمًا، صار عندها (هنري) وُلِد عام ١٨١٤م، و(إملي) وُلِدت عام ١٨١٣م، و(أماندا) وُلِدتْ عام ١٨١٢م، وكان لهم أبٌ يبيتُ معنا في الكوخ يومًا أو يومَين ويغيبُ شهرًا. أمّا (بيتر)، فكان له أولادٌ لا أحدَ يعرفُ أمّهاتهم على الأقلّ كان هذا بالنّسبة لي، لم أكنْ أعرف أينَ كان يبعثه الفاسق السّيّد (جونسون)، لكنّه جاء بطفلٍ أوائل عام ١٨١٤م، وقال إنّه ابنُه، وإنّ أمّه ماتت، فتكفّلتْ (ويندي) بإرضاعه مع طفلها (هنري).

ناداني السّيّد (جونسون) ذاتَ ليلة، وقفتُ أمامه في غرفته، اقتربَ مِنّي، عاينني معاينة تُجّار العبيد، تلك المُعاينة الّتي حدثتْ لي أوّل ما اشتُريت، قال لي وهو يضحك: «إنّكَ ما تزال قادِرًا على الإنجاب، سيكون لطيفًا لو أنّكَ أخصبْتَ بعضَ النّساء الزّنجيّات هنا، العبيد هم رأسُ مالي في هذه المزرعة». بقيتُ صامِتًا، اقتربَ منّي: «ما بالُكَ تقفُ كالتّمثال. أنا لم أعاقبْكَ على هروبكَ الأثيم قبل سنتَين، أليستْ هذه خدمةً جليلةً أسديتُها لك، أريدُ منك أنْ تُسدي لي خدمة أيّها العبد؛ تخيّل أنا السّيّد (جونسون) بعظمتي

أطلبُ منك خِدمة، إنّها خدمةٌ مُمتعة، أريدُ أنْ تقذف بُنطفِك في أرحامِ بني جنسك، هل هذا صعب؟ كلاّ إنّك ما تزال قويًّا، وتبدو فَحلاً». بقيتُ صامتًا، وقد بدأتُ أشعر بالخوفِ والإهانة والخزي من طلبٍ كهذا، كان لا يزال يهذي: «أتريدُها عذراء أم غير ذلك، لا بُدّ أنّكَ تفضّلها عذراء، هذا الجسد المشوق لا بُدّ أنّ العذراء ستدفعه إلى أنْ يتدفّق فيها أكثر من غيرها... هَيّا لِماذا أنتَ صامت؟». ابتلعتُ ريقي قبل أنْ أقول: «أنا مؤمن يا سيّدي وأخاف الله، ديني يُحرّم عَلَيّ ذلك». «مُؤمن...». وأطلقَ ضِحكةً مُجلجِلة: «لا تقلق يا (ماريان)... لا تقلق، سآتيك بفتاةٍ تُناسب إيمانك، أنا أعرفُ ما تريد.. والآن عُدْ إلى كوخك وأمهلْني بعضَ الوقت».

في الصّباح، كان قد طلبَ من أحدِ العبيد الثّلاثة أنْ يُجهّزوا غرفة العمّ (جون) في كوخه، والسّرير فيها، وأدخلني إليها، وأغلقَ علَيّ الباب، وقال وهو يغمز بإحدى عينَيه: «إنّها تستحقّ... أليسَ كذلك؟». وأغلقَ الباب وهتف: «إذا فعلتَ ما يجبُ عليكَ أنْ تفعله فسآتيكَ بالمزيد منهنّ. إنّ هؤلاء الزّنجيّات شَهِيّات، وساخنات جِدًّا، ويعرفْنَ في السّرير أكثر مِمّا نعرفُ نحن الرّجال في الحرب».

كانتْ هناك فتاة زنجيّة تتمدّد عاريةً على السّرير، سارعتُ إلى إسبال الغِطاء عليها، وقلتُ: «البَسِي ثيابك». ارتجفتْ أوّل الأمر، ظنّتْ أنّني سأهجم عليها وأمارس معها الرّذيلة، كانتْ لا تزال تنظر إليّ بعينَين دامِعتَين زائغتَين. قلتُ: «هَيّا. البَسي ثِيابك، لن يحصلَ لكِ شيء. ديني يحول بيني وبين الفاحشة». «إنّه لن يقبل بذلك».

سألتُها: «مَنْ هو؟». أشارتْ إلى الباب، وقالتْ بهمسٍ لا أكادُ أسمعه: «إنّه دائمًا ما يكون خلفَ الباب، ينظر من ذلك الثّقب ليُشاهِدَ كلّ شيء، إنّه مهووسٌ بذلك». قلتُ بحزم: «لن أفعل ولو كان يراقبنا... هذا رجلٌ مجنون...» وشددتُ على أسناني. «لقد اغتصبني السّيّد (جونسون) مرّةً لأنّني تأخّرتُ قليلاً عن طابور الصّباح يوم العمل». «إنّه وحشٌ في ثِياب بشر». وعلا صوتي. رجفتْ: «سيعاقبنا». «فليفعلْ». «سيعلّقنا أو يشوينا كما فعل مع العمّ (جون)». «لن أفعل شيئًا، فلْيشربْ ماءَ البحر». فتح الباب على صياحي، وصرخ: «أنتَ عديمُ الفائدة. أنا أعرفُ كيفَ أجعلك تُطيعُ سيّدك». وهجمَ على الفتاة المسكينة، كان ثورًا هائِجًا، ظلّ كذلك وهي تصرخ تحته حتّى انقلبَ على ظهره، وراح يشخر.

قيّدني المراقب (فرانك)، وألقى بي مربوطًا مثل الكلب إلى درابزين الدّرجات الثّلاث الّتي تقود إلى كوخ السّيّد (جونسون)، تركني حتّى يستيقظَ سيّده، فيرى ما يصنع معي. عندما استيقظَ سيّده، هُرِعَ إلى زجاجة خمر، ظلّ يكرع منها حتّى صارَ يترنّح، ثُمّ أشار للمراقب (فرانك): «ما رأيُك؟ أينَ سنُعلّق هذا الزّنجي المُتعلّم؟». ردّ عليه: «من المُستَحسن أنْ ننتظر عودة بقيّة العبيد من أجل أنْ يَروه مُعلّقًا، من المهمّ أنْ يُشاهِدوه وهو يتدلّى مثل جروٍ مذعور». «ألم يعودوا يا (فرانك)؟ ألم تغب الشّمس؟». «لا يا سيّدي. لكنّهم سيعودون قريبًا». «علّقه من الآن يا (فرانك)، أنا أريدُ أنْ أستمتع بمنظره قبل أنْ يأتوا».

عُلِّقتُ عصر ذلك اليوم في وسط السّاحة الّتي أمام أكواخ العبيد، رأسي إلى الأسفل ورِجلاي إلى الأعلى. لا أدري كم بقيتُ على تلك الحال، لأنّ آخر ما أتذكّره هو رحيل الشّمس، كانتْ في الجهة الّتي أنظر إليها، وكانتْ حمراء قانية، كأنّها تنزفُ دمًا.

(٥١)

شهرُ الحريَة والجمَال

صحوتُ بين يدَي العمّة (تيري)، كانتْ تبتسم، كان قد مرّ عليّ يومان منذ أنْ عُلّقت في السّاحة، قالتْ لي قولتَها المملوءة أملاً: «لن تموت، أنتَ قويّ، وستُشفى». كانتْ آلام رُسغَيّ، وكاحلَي قدَمَي لا تُطاق، لكنّ المسحوق السّحريّ الّذي تدلّك به العمّة (تيري) مواضع الألم يذهب بأكثرها. أردفتْ: «أعرفُ ما حدث، السّيّد (جونسون) شيطان وإنّه لا أحدَ يتوقّع ماذا يُمكن أنْ يفعل».

للحظةٍ تمنّيتُ الموت، تمنّيتُ لو أنّ الله لم يُعِشْني إلى هذه اللّحظة حتّى أعاين كلّ هذه الأهوال، وأعايش كل هذه المصائب، ولم أستطعْ حتّى بعد مرور ما يقرب من عشر سنواتٍ أنْ أفسّر ما حصل معي، كيفَ أُخِذتُ من دون أيّ جريرةٍ من بلدي، وأنا الشّريف العالم المعروف فيها إلى بلادٍ بعيدةٍ كلّ ما فيها يُنكرني، وكلّ أذىً فيها يتربّص بي وبإخواني؟ لماذا لم أمتْ مع أبي؟ لِماذا لم يُطلِقوا عليّ الرّصاص بدلاً منه؟ لماذا لم أحترق مثل الّذين احترقوا في شوارع قريتنا يومئذٍ؟ لماذا لم أهربْ وأختفي كما فعلتْ (أمارا)؟ ولماذا لم ألقِ بنفسي من فوق السّفينة كما فعلتْ تلك الأمّ الّتي رمتْ بنفسها ومعها طِفلَها إلى البحر؟ لكنّني لم أجدْ جوابًا شافِيًا على أيّ سؤالٍ من هذه الأسئلة الكثيرة!

لقد كنتُ أتمنّى الموت، باعتبار أنّه سيكون حَلاً لكلّ ما أنا فيه من المشاكل والمصائب. ولكنّ الموت ليسَ حَلاً على أيّة حال. إنّ الموت نهاية هذه الحياة على هذه الأرض، وإذا لم أكنْ مُستعدًا بما يكفي لما بعدَه، لا أريدُ أنْ أموت على هذه الحال، أريدُ أنْ ألقَى الله خالِيًا من أوزار الدُّنيا، ومن أثقالِها. هل تبدو الحياة من هذه الزّاوية لها معنى، هل تبدو غالية؟ نعم، إنّ الحياة غاليةٌ على كلّ حَيّ، لكنّ حياةً تسير على هذا النّحو الّذي نعيشُه لَهِيَ حياةٌ عصيبة، أفلا يكون الفرجُ قريبًا؟ إنّني لأتوقُ إلى لحظةٍ ينتهي فيها كلّ هذا؟ هل يمكن أنْ يعودَ أبي؟ كلاّ، لقد صار في رحمة الله. هل يمكن أنْ ألتقي أمّي؟ مَنْ يدري؟ هل يُمكن أنْ تظهر لي في هذه الأرض (أمارا)؟ ومعها ابنُنا وقد صار عمره عشر سنوات؟ كيفَ ستظهر وبيننا شهور من البحر والدُّوار؟ كيفَ سألتقيها وبيننا الكثير من ماء البحر وماء السّنوات؟ لكنْ هل يُمكن أنْ تكون بيعتْ في سوق العبيد كما فعلوا معي؟ إنّني مستعدٌّ أنْ أطوفَ أرجاء أمريكا ذراعًا ذِراعًا وشبرًا شِبرًا وأنا أبحثُ عنها على أمل اللّقاء، لو كنتُ أعرفُ أنّ هذا الأمل موجودٌ ولو بنسبةٍ أقلّ من عشر العُشر فسأُفني حياتي كلّها وأنا أعيش مترقّبًا له. مَنْ يدري، قد تحدث المُعجِزات؛ وإنّ الله قادِرٌ على أنْ يهبَ قلبي المحزون فرحةً مثلَ هذه ولو بعدَ حين!

كنتُ - مع مرور الوقت - قد أصبحتُ ماهِرًا في النّجارة، كان لديّ منشارٌ، ومطرقة، ومسامير، وكنتُ قد تدرّبْتُ على صِناعة أدوات البيت، صنعتُ هاونًا من خشبِ الصّنوبر، حفرتُ في جذع

غليظٍ تجويفًا عميقًا، وصقلتُه من الدّاخل، وصنعتُ له مِطرقةً خشبيّة، بِخَفّ أطراف جذع شجرةٍ وتقليمه، وتلبيس رأسه قطعةَ صاجٍ حديديّة ليكون أكثر فعاليّة، صار بإمكان العمّة (تيري) أنْ تستخدمه من أجل أنْ تدقّ فيه حبوب الذّرة، وتطحنها من أجل إعداد كعكها الشّهيّ، وَفَّرَ هذا الهاون عليها الجُهد والوقت، وقد سُرّتْ كثيرًا بعدَ أنْ حصلتْ عليه، وصارتْ تستخدمه من بعدها ابنتها (ويندي)، الّتي كُنّا نُسمّيها مُرضِعة المزرعة، إذ إنّه كان يجتمع أحيانًا في كوخنا ستّة أطفال تقوم بإرضاعهم، بسبب غيابِ أمّهاتهم أو موتهنّ. وصار صُنع الكعك أو بعضِ الحلوى مُهمًّا لهذه الأمّ المُرضِعة الّتي بدأتْ تُشبه أمّها العمّة (تيري) في كلّ شيء.

برعتُ كذلك في صناعة المُهود، صنعتُ ثلاثةً منها في السّنتين الأخيرتَين، اثنَين بقِيا في كوخنا من أجل أبناء (ويندي) و(بيتر)، وواحدٌ أعطيناه إلى كوخٍ فيه أمٌّ مرضعة كذلك. وصرتُ معروفًا في المزرعة بالنّجّار، حتّى إنّ السّيّد (جونسون) كثيرًا ما احتاج إلى خَدَماتي، وكان يطلبُ منّي أنْ أصلِحَ له السّياج، أو أُرمّم الدّرجات المُهترئات المُوصِلات إلى كوخه، وهي ذاتها الدّرجات الّتي رُبِطت إلى درابزينها ككلبٍ أجرب. وكُنتُ كذلك أصنع له رفوفًا للكتب الّتي في كوخه، وكان ذلك من أسعدِ أوقاتي، إذ كنتُ أستغلّ ذلك في قراءة الكتب أثناء تثبيتي لرفٍّ أو لزيادة آخَر في تلك المكتبة، ولقد كان السّيّد (جونسون) يعرفُ أنّني أقرأ كُتُبَه خِلسةً، ولكنّه كان يتظاهر بأنّه لا يعرف.

كان بيت السّيّد (جونسون) في الرّبيع يبدو لوحةً فائقة الجمال، كان سِياجه يمتلِئ بالورود الفوّاحة، متعدّدة الألوان، وكان يحبّ الورود القرمزيّة، والبيضاء، وكانتْ هناك عرائش من الورود تتسلّق على جدران الكوخ وعلى الأعمدة الأسطوانيّة القائمة في المدخل، وتتلوّى في الرّبيع وهي تذرّ ألوانها المتنوّعة الجميلة، وروائحها الشّذيّة المُريحة، وكان مَنْ يرى الكوخ وجَماله في الرّبيع، وكثرة الخضرة والخصب الّتي تحيطُ به وتتدلّى في عرائشه، لا يُمكن أنْ يخطر له ببالٍ أنّه يسكن خلفَ هذا الجمال كلّه شيطانٌ مَريد!

إنّه الرّبيع مرّةً أخرى، لا أدري لِماذا يُلِحّ عليّ الهَرَبُ في الرّبيع دائِمًا؟ ربّما لأنّه شهرُ الحرّيّة والجَمال، والحرّيّة في الرّبيع أجمل منها في أيّ فصلٍ سواه، وإنْ كانت لجميلةً في أيّ فصلٍ وفي أيّ وقت. قرّرتُ هذه المرّة ألاّ أُخبِرَ أحدًا، وألاّ يحسّ أحدٌ بما عقدتُ العزم عليه.

حدث ذلك عام ١٨١٦م، حيثُ تكون الأنهار فوّارة الجريان، والمُستنقعات مليئة بالمياه، والمستنقعات - كما عرفتُ فيما بعد - تُشكّل طوق النّجاة بالنّسبة للعبيد الهاربين، إذ لم يكنْ لينجو أيّ عبدٍ هاربٍ في الولايات الجنوبيّة وخاصّة في (تشارلستون) بدون الاستِعانة بها، والسّبب أنّها تُخفي رائحة العبد، ولا تستطيع الكلاب المُدرّبة على تتبّع الرّائحة أنْ تشمّها.

نعم، هربتُ مع اكتمال البدر في إحدى ليالي الرّبيع من عام ١٨١٦م، كان هروبًا رومنطيقيًّا كما يقولون، وأنا أُخبّئ فيّ روحَ شاعرٍ،

ولقد قطعتُ السّياج الّذي أحفظه عن غيبٍ من جهة الشّمال هذه المرّة، وأطلقتُ ساقَيّ للرّيح. وقدّرتُ أنّه حتّى يصحو المراقب (فرانك) والسّيّد (جونسون)، ويأمره هذا الأخير بإطلاق الكلاب خلفَ رائحتي، أكون قد قطعتُ مسافةً كافيّة تُقرّبني من المستنقع الّذي عَلَيّ عبوره، وقدّرتُ أنّني سأصل إلى المستنقع قُبيل أنْ ترسل الشّمس أولى خُيُوطها، وهذا ما تَمّ بالفعل، كان الهواء منعشًا، ممّا سَهّل عليّ عمليّة الرّكض، والحرارة منخفضةٌ بحيثُ لا أُصاب بالعطش سريعًا، وبالفعل انفتق الضّوء عن بدء النّهار، ولاحَ المستنقع الكبير أمامي، وحينَها سمعتُ نباح الكِلاب المسعورة، بالطّبع خِفتُ بعض الشّيء، ولكنّني قلتُ: «ها هو طوقُ النّجاةِ أمامك». كان السّيّد (جونسون) لا يدري أنّني سَبّاحٌ ماهرٌ، وأنّني كنتُ أسبحُ في نهر (فوتا تور) من زمنٍ قديمٍ. بالطّبع كان العبيد في كلّ أمريكا ممنوعين من السّباحة أو من تعلّمها خشيةَ هروبهم، وكان السّادة البِيض يعتمدون على أنّ العبد إذا لم يقع بين أنياب الكلاب المُدرّبة على صيدهم، فإنّهم سيموتون غرقًا في الأنهار أو المُستنقَعات، ولم يمرّ عامٌ واحدٌ على ولايات الجنوب دون أنْ تبتلع أنهارُها ومستنقعاتُها عشرات العبيد الهاربين في جوفها!

كان المستنقع أمامي، وصوتُ الكلاب المُرعب يُلهِبُ سَمْعي، لم أتوقّف، في ماء المستنقع نجاتي، واصلتُ الرّكض حتّى صِرتُ على حافّة المستنقع، بيني وبين النّجاة أمرٌ واحدٌ بسيطٌ؛ هو القفز والسّباحة فيه حتّى أصل إلى الضّفّة الأخرى، ولكنّني عندما هممتُ بِفعل ذلك رأيتُ التّمساح الّذي أكل أختي في المستنقع فاغِرًا فاه ينتظرني، صُعِقتُ.

وتسمّرتْ ساقايَ في مكانهما، كان صوتُ الكلاب يثقب أذني فيقشعرّ له بدني كلّ لحظةٍ، نفضتُ رأسي، لا يُمكن أنْ يكون التّمساح الّذي أكل أختي موجودًا هنا، أنا بالتّأكيد أتخيّل؛ لكنّني أراه، هل هذا معقول، إنّه يملك ذات العينين، وذات الأسنان، وذات الحراشف السّميكة، وإنّه إلى ذلك كلّه يبكي، كما رأيتُه في ذلك اليوم يبكي، هل هذا معقول؟! مستحيل؟ إنّه من الشّيطان ومن الذّكرى السّيّئة الّتي تريدُ أنْ تهزمني في الوقت الّذي صار بيني وبين النّجاح في عمليّة هروبي خطوةٌ واحدةٌ هي القفز، اقتربتِ الكلابُ من خلفي أكثر، وصارتْ مرئيّة، إنّها الكلاب الأربعة السوداء، تتحرّك كأنّها فهودٌ مفترسة، نفضتُ رأسي مرّة، ثُمّ مرّتين، ورددتُ بعضَ الأدعية وأنا مُغمَضَ العينين، ثُمّ فتحتهما فتراءى لي المستنقع خاليًا من كلّ شيءٍ، فتأكّدتُ أنّني أحلم أو أهذي، وأنّني أرى أشياء غير موجودة، كانت الكلاب قد زادتْ من سرعتها لّما رأتني، في تلك اللّحظة الّتي تُحسّ أنّ الموت مثل وحشٍ كبير يفتح فمه على اتّساع شدقَيه يُريد أنْ يلتهمك، تقفز هارِبًا منه، فيُطبِق هو ذَينِكَ الشّدقَين سعيدًا ظَنًّا منه بأنّه يُطبِقهما على وليمته، لكنّه لا يجد غير الفراغ، إذ تكون الطّريدة قد نجت، وكانت الطّريدةُ أنا، وقد صرتُ في الماء، ورُحتُ أسبح باتّجاه الضّفّةِ الأخرى. فيما وقفتْ الكلاب من خلفي، وهي تواصل نُباحها الرّهيب، وأشداقها تسيل زبدًا يتساقط على الأرض، وراحتْ تدور في أمكنتها، تهزّ ذيولها، وتتشمّم الأرض في استِكانة، لقد خابَ مسعاها، وظلّتْ هناك تنتظر المراقب (فرانك) الّذي سيُصاب هو الآخَر بخيبة أملٍ عندما يصل ويرى ما حدث.

رحتُ أسبحُ بكلّ ما أُوتيت من قُوّةٍ، وقد ازددتُ طمأنينةً بتوقّف الكلاب عن النّباح، لكنّ هذه الطّمأنينة تلاشَتْ عندما رأيتُ عددًا من التّماسيح يسبح في الماء معي، لم أكنْ أحلم إذًا، إنّها الحقيقة، دبّ فِيّ الهلع، فرحتُ أخبطُ يدَيّ ورِجلَيّ في الماء، معتقدًا أنّ هذه هي الطّريقة المُثلى في النّجاة من الموت بين فكّي تِمساحٍ جائع. غير أنّ التّماسيح لم تكنْ هي المصيبة الوحيدة، إذ صارتْ هناك أشياء ليّنة تمسّ فخذيّ، وجذعي، وقدميّ، أخذتّ نفسًا عميقًا، وغطستُ في الماء، وفتحتُ عينَيّ لأعرفَ نوعَ هذه الكائنات اللّيّنة الّتي تفعل ذلك، فرأيتُ عددًا كبيرًا من الأفاعي يسبح معي في ذلك المُستنقع، فزادَ هلعي، وقرّرتُ أنْ أهربَ من الموت ولو بمواجهته، فسبحتُ بأقصى طاقتي، كان المستنقع إلى ذلك مملوءًا ببعض الحيوانات النّافقة الّتي تطفو أمام عينَيك فجأة، بالإضافة إلى جذوع أشجارٍ تعترض طريقَك، وبعضَ الأدوات المرميّة أو الّتي نقلتْها حركة المِياه، لكنّ ذلك كلّه زادَ من عزيمتي لأبلغ الضفّة الأخرى بأسرع وقتٍ وبأيّ ثمنٍ.

بعدَ مواجهة الموت أكثر من عشرين مرّة، وصلتُ إلى الضّفّة الأخرى، وعندما جررتُ نفسي من الماء كانتْ أجواء كثيرة في جسدي تنزف، لقد جرحتْني جذوع الأشجار، وأطرافها الحادّة، وكانتْ ثِيابي قد تمزّقت، وكان صدري يعلو ويهبط، ولم أصدّق أنّني نجوت؛ فمن هنا شاهدتُ عددًا من التّماسيح يمخر عباب المستنقع كأنّه في حلبة سِباق، وكان بعضُها يطفو فوق السّطح، ويفتح فمه على اتّساعه

ويُخرِج صوتًا مُرعِبًا، وكان شكله مع أسنانه يبدو لي أنّه يضحك!

تلفّتُّ حولِي، خلفي غابةٌ متشابكة الأشجار، خلفَ هذه الغابة لا بُدّ أنْ أجدَ سبيلاً جديدةً للاستمرار في الهرب، الفصل الأوّل من هذه العمليّة تَمّ بنجاح، كلاب السّيّد (جونسون) عادتْ خائبة، ولأوّل مرّة أشعر بلذّة الانتِصار!

(٥٢)

الصّندوق السّاخن

عصرتُ ثيابي من الماء، ونشرتُها على بعضِ الجذّوع، وانتظرتُ قليلاً حتّى تجفّ. صعدتُ في هذه الأثناء فوقَ شجرةٍ عالية، ظللتُ أصعدُ حتّى أرى ما وراء هذه الأشجار المُتشابكة، فتراءى لي من بعيدٍ بناءٌ كبيرٌ على الفَور عرفتُ أنّه كنيسة، فقد مررتُ بها يُشبه هذا البِناء أثناء ذهابي إلى معاصر القصب، أو إلى مكابس القُطن، فكّرتُ فيما يُمكن أنْ أفعله، فقلتُ: ربّما اللّجوء إلى الكنيسة في مثل حالتي هو أسلَمُ شيء. فعزمتُ على ذلك.

هبطتُ، ولبستُ ثيابي، وانطلقتُ من بين الجذوع والأغصان والحشائش والحجارة والصّخور، أمضي بلا توقّفٍ حتّى صرتُ على مقربةٍ من الكنيسة، كانتْ هناك بعضُ البيوت والمزارع تنتشر عن يمينها وشمالها وخلفَها، وقدّرتُ أنّ الكنيسة هي بوّابة هذه القرية، فحدّثتُ نفسي: أمضي إليها، وأجدُ فيها مأواي، ولو إلى حين.

دخلتُها، كان بابُها مفتوحًا، لم يكنْ يومَ الأحد، فلم يكن هناك مُصلّون ولا قسّيسٌ يقف أمامهم للعِظة، كانتْ خاليةً تمامًا، كانت قاعة العِظة فسيحة جدًّا، وعاليةً جِدًّا، وكانت المقاعد الخشبيّة تتراصّ في صفوفٍ أفقيّة قُبالةَ المذبح، هالني وأنا أطوفُ بنظراتي في

أرجائِها النّقوش والصّور الّتي تملأ الجدران، خلفَ المذبح، كانت الواجهة مليئةً بصورٍ قدّيسين لم أعرفْهم،ربّما لأنّني لا أعرفُ صُورهم، غير أنّني أعرفُ شخصيّات الكتاب المُقدّس جميعهم، كان عهد التّصوير في المسيحيّة متأخّرًا بعضَ الشّيء، ولذلك فكلّ رسومات شخصيّات الكتاب المُقدّس وعلى رأسهم المسيح عليه السّلام ومريم ليستْ حقيقيّة، وإنّما هي تخيّليّة تقريبيّة، فما بالك بشخصيّات العهد القديم، إضافةً إلى أنّ اليهود بخلاف المسيحيّين لم يكونوا يُؤمنون بالتّصوير، فكلّ ما نراه من صورٍ مرسومةٍ لشخصيّات العهد القديم فإنّما صوّرها على الأغلب أتباع المسيحيّة لا اليهوديّة.

كان أمام الجدار الّذي تنتهي به الكنيسة، عمودان أسطوانيّان يرتفعان عاليًا حتّى أعلى السّقف، وكانا ينتهيان بقوسٍ، قدّرتُ أنّ ذلك البِناء من تأثير دخول الإمبراطوريّةالرّومانية إلى المسيحيّة في القرن الرّابع الميلاديّ. بالطّبع الكنيسة تقليدٌ لكنائس كُبرى في أرض الله، ولن يكون قد مرّ على بِناء هذه الكنيسة أكثر من عقدَين أو ثلاثة عقودٍ من الزّمن.

وجدتُ حرّية في التّنقّل في أبهاء الكنيسة، فرحتُ أذرع بَهوها الفسيح نشيطًا سعيدًا، ورحتُ أتأمّل بعض الكتابات المنقوشة بالإنجليزيّة على بعضِ الجدران، قرأتُ بدايات إنجيل يوحنا، يبدو أنّ بداية إنجيله كانتْ مُلهمة إلى الحدّ الّذي رأيتُه في أكثر من مكانٍ هنا في هذه الكنيسة: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ الله، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ». وهذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ الله». ستجد هاتين الآيتَين

منقوشتَين في مكانٍ، وستجد في مكانٍ آخَر الآيات الثّلاث التّالية منقوشةً: «كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ، والنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ». أحسستُ في الأخيرة شيئًا من الآية الخامسة والثّلاثين من سورة النّور في القرآن الكريم: «الله نور السّماوات والأرض».

كنتُ لا أزال أطوفُ في الأبهاء، عندما سمعتُ صوتَ أقدامٍ خفيفةٍ على الأرض من خلفي، تطلّعتُ، فإذا هو القسّيس، كان لا يزال يمشي إليّ ليُقلّص المسافة الواسعة بيننا، وكان يلبس قُفطانًا أسود، ويعتمر طاقيّة صغيرةً قرمزيّة، قدّرتُ عمره من جذعه المستقيم أنّه في أواسط الأربعينيّات قريبًا من عمري، وكان يبتسم، وتتّسع ابتسامته مع اقتراب خُطُواته، ولمّا تقابلنا مَدّ يده مُصافِحًا، فسلّمْتُ عليه، ثُمّ قال: «أهلاً بكَ في بيت الرّبّ. من أين أتيت؟». قلتُ له: «أنا عمر، وأنا عبدٌ هارب». جفل من الكلمةالأخيرة: «هاربٌ؟ ظننتُ أنّكَ حرّ!». «لا يوجد أحرار في (تشارلستون) يا سيّدي، أنتَ تعلم أنّ قانون العبوديّة قائمٌ في هذه الولاية». «أعلم، لكنْ ظننتُ أنّكَ قادمٌ من ولايات الشّمال، أو أنّكَ اشتريتَ حرّيّتك». «هل يملك العبدُ مالاً من أجل أنْ يشتري نفسه، أنتَ تعلمُ أيضًا أنّنا نعمل طَوال النّهار واللّيل على مدار العام ولا نحصل على سنتٍ واحدٍ». «أعرف... أعرف..». «أنا هربتُ من ظلمِ سيّدي، إنه كافرٌ لا يخافُ الله». «ما اسمُ سيّدك هذا؟». «السّيّد جونسون». «وأين تقع مزرعته؟».«خلفَ هذا المستنقع جهةَ الجنوب». «امم... لا بأس». «هل يُمكن أنْ يقبلني

بيتُ الرّبّ؟». تردّد القسّيس قليلاً، وحَكّ ذقنه الحليقة قبل أنْ يقول: «بالطّبع، إنّ الرّبّ يفتح ذراعَيه لكلّ مَنْ قصده».

بِتّ في منامات الكنيسة، تذكّرتُ منامات (توبا)، يا للحنين حينَ يطعن الفُؤاد، تذكّرتُ اللّيالي الّتي مرّت في الزّهد والانقِطاع لله، فهاجني الشّوق، قمتُ من منتصف اللّيل، توضّأتُ بماء الكنيسة، وولجتُ بَهوها، وقريبًا من المذبح قمتُ بينَ يدي الله، حتّى اقترب الفجر، رفعتُ صوتي بالأذان، كانت الكلمات يتردّد صداها في المكان، وكانتْ: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله» تعبر فضاء الكنيسة وتحلّق في الهواء، وتمسحُ على كلّ جدارٍ وحجرٍ فيه، بكيتُ، إنّني مشتاقٌ جِدًّا إلى هذه العبادة. صلّيتُ الفجر، وقرأتُ فيه سورةَ الملك في الرّكعة الأولى، وسورة النّصر في الرّكعة الثّانية، وتذكّرتُ أنّه مهما تجبّر الإنسان وظَلَم، فإنّ الله يَقصِمه.

أيقظني أحدُ العاملين في الكنيسة صباح اليوم، وقدّم لي فَطورًا شهيًّا، أكلتُ حتّى شبعتُ، لم أجدْ أطيبَ ولا أوفر ولا أشهى منه منذُ قدومي إلى هذه البلاد الجديدة، باستثناء كعك العمّة (تيري). ورأيتُ القسّيس قريبًا من الظّهر يقفُ أمامي ويبتسم، ويقول: «إنّ الرّبّ يُحبّك، وإنّه من أجل ذلك سوفَ يُجري عليكَ حُكمَه فلا تقلق». وقُبَيل العصر كان قد جاء المراقب (فرانك)، وقام القسّيس بتسليمي إليه، وكان يقول وهم يضعون القيود في يَدَيّ من الخلف: «يَأْتِي سَيِّدُ ذلِكَ الْعَبْدِ فِي يَوْمٍ لاَ يَنْتَظِرُهُ وَفِي سَاعَةٍ لاَ يَعْرِفُهَا، فَيَقْطَعُهُ وَيَجْعَلُ نَصِيبَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ».

ليتَني أبصُقُ ما أكلتُه في كنيستك أيّها القسّيس اللّئيم، إنّ صفةَ الخائن لا تنطبقُ إلاّ عليك، ولكنْ إذا كان فهمُكَ لإنجيل (لوقا) على هذا النّحو فأنا ألتمس لكَ عذرًا، وإذا كنتُ أريدُ أنْ ألومَ أحدًا فعليّ أنْ ألوم مجلس الكنائس الّذي لم يجدْ أغبى منكَ ليكون إمامًا لأهل دينه في هذا الكنيسة!

ضحك السّيّد (جونسون) عندما رآني، حك بشدّة: «أيّها العبد المسكين، لماذا تفشلُ دائمًا في الهرب؟ أنا أرثي لحالك، ليتكَ أفلتَ هذه المرّة؟ إذا كنتَ ستجرّب كلّ ثلاث سنواتٍ أو أربع الهرب ولا تنجح، فأنتَ حِمار، حمار؟ كلاّ، أنتَ بلا عقلٍ ألم أقلْ لكَ إنّ الحياة لا تدبّ إلاّ في ذراعَيك؟ لماذا لا تبقَى في مزرعتي، وتكون مُطيعًا وتقوم بأعمال مفيدة بدلاً من محاولات الهرب البائسة، يُمكنك أنْ تكونَ نَجّارًا محترفًا، وإذا توسّعتْ أعمالُكَ في النّجارة، وسَمِعَ بكَ بعضُ المُلاّك في المزارع الأخرى، فإنّه يُمكنني أنْ أؤجّركَ لهم مقابل دولاراتٍ جيّدة؟ هه ما رأيُك؟ أظنّ أنّ هذا يُناسِبك أكثر مِنْ أنْ أتركك مع الزّنجيات الجميلات في سرير العمّ (جون)... امم، والآن يا (فرانك) هل سنعلّقه من رقبته في تلك الشّجرة أمْ من رِجليه...؟! امم أظنّ أنّه من المُبكّر أنْ نعلّقه من رقبته، ما زال فيه بعضُ الفائدة، وأنا ما زلتُ آمل أنْ يستوعب هذا الزّنجي المُتعلّم استحالة الهروب، وإنْ كنتُ لا أظنّ أنّه سيقتنع بذلك. والآن علّقه مُتدلّيًا من رجليه تحت تلك الشّجرة ثلاثةَ أيّام». اعترضَ السّيّد (فرانك)، قائلاً: «لِتَسْمَحْ لي يا سيّدي». «ماذا هنالك يا (فرانك)؟». «لقد تدلّى من تحت تلك الشّجرة سابِقًا، ولم ينفعْ هذا العقاب». «ماذا

تقترحُ إذًا؟». «الصّندوق السّاخن». «الصّندوق السّاخن! هل لدينا واحدٌ؟». «لا، ولكنّني أستطيعُ توفير واحدٍ من المزارع الّتي عملتُ عندها في السّابق». «فلْتفعلْ إذًا».

كان (الصّندوق السّاخن) مُصطلحًا لأبشع أنواع التّعذيب المُستخدَمة مع العبيد، هو عبارة عن صُندوقٍ من الحديد، على قدر حجم العبد، لا يزيدُ ارتِفاعه عن ذراع، وطوله ذراعين، وعرضُه ذراع، ولقد حُشِرتُ فيه حشرًا، إذ لِقصره اضطُرِرتُ إلى أنْ أثني ساقَي عندما تمدّدتُ فيه، كان عرضُه يكاد لا يزيد عن عرضِ جسمي كثيرًا، وارتفاعه لا يسمح لمسافةٍ أنْ تكون فارغةً فوق كتفَي، وكان عبارة عن تابوتٍ حديديّ ضيّق، يُكبَس فيه العبدُ كبسًا، وأنا أعرفَ أنّ مثل هذا استُخدِم في أدوات التّعذيب في محاكم التفتيش في الأندلس، وهكذا صِرتُ قطعة لحمٍ بشريّة مكبوسةً في صندوقٍ حديديّ ليسَ فيه مجالٌ للتّنفّس إلاّ ما يأتي الهواء من خلال الشّقوق، وهو قليلٌ جِدًّا، وبالطّبع فأنتَ في الدّاخل تعيشُ في ظلامٍ دامس، وكان الصّندوق يُوضَع في الشّمس، فترتفع درجة حرارة الحديد، فيحترق الجلد، ويضيق التّنفس، ولا تجدُ هواءً لكي تصرخَ من الألم، ولقد بقيتُ فيه أربعةَ أيّام حتّى أُخرِجتُ في اليوم الخامس وأنا أتأرجح على حبل الموت، وكان التكهّن بموتي منذ اليوم الثّاني أقرب منه إلى بقائي حَيًا حتّى اليوم الخامس!

العمّة (تيري) حاضرة في المشاكل الّتي أفتعلها، وجهها يكون باسِمًا كلّما عُدتُ من الموت إلى الحياة، وعبارتُها حاضرةٌ دائمًا: «أنتَ قويّ، لن تموت، وستُشفَى قريبًا». لكنّها هذه المرّة أضافتْ لها جُزءًا

جديدًا: «إنّك مثل القِطط بسبعة أرواح». قلتُ لها إنّني قِطٌّ إفريقيّ مُميّز. ضَحِكت. ثُمّ سكتتْ، وشَحُبَ وجهها، قالتْ وهي تسقيني بعض الشّراب: «عليكَ أنْ تتزوّج يا عُمر، لو وجدتَ امرأةً تحنو عليك، فقد أصبتَ من الدُّنيا غايةَ ما تريد، إنّ تفكيركَ بالهرب واحدٌ من أهمّ أسبابه أنّكَ بدون عائلة». أجبتُها وأنا أشكر تفكيرها الدّائم بي: «ولكنّكم أنتم عائلتي». «لا تُقنع نفسكَ بما ليس صحيحًا، عائلتُك هي زوجتك، نحن سنرحل عمّا قريب، انظر إليّ أنا ودانيال، لم يبقَ من العُمر ما يرغّب فيه بعدُ، نحن سنرحل، أنتَ تحتاج إلى امرأة، هناك نساءٌ كثيراتٌ يقبلْنَ بكَ ويسعدْن». قلتُ وأنا أتنهّد: «ليتني أقدر على ذلك يا عمّة، لا أستطيع أنْ أتخيّل نفسي مع امرأةٍ أخرى بعدَ (أمارا)». «سنزوّجك بامرأةٍ تُشبهها، امرأةٍ تُحقّق لكَ ما حقّقتْه (أمارا)، الولد؛ أليس كذلك؟ مع أنّه لا أحدَ يدري ما حَلّ بهما...». قاطعتُها: «لا تقولي ذلك أمامي... إنّني اجدُ للحياةِ معنًى وأنا أتخيّل أنّهما ما زالا حَيَّين، وأنّ ابني قد كَبُر، وترعرع في قريتنا، وبين أبناء قبيلته بأمانٍ، وإنّه سيسير في طريق العِلم، وسيُحدّث النّاسَ عنّي، وعن علمائنا، وعن أولئك الّذين جاؤوا بالنّور، نور الإسلام إلى إفريقيا». «أنا معك، لكنّ كلّ ذلك لا يمنع أنْ تجدَ لك زوجةً حتّى تهدأ، وتفكّر كيفَ يستمرّ نسلكَ بعدَ موتك. لا يكنْ فهمُكَ السّاذج للوفاء يمنعك من أنْ تستمرّ في حياتك». أطلقتُ زفرةً حرّى من صدري، وهتفت: «ربّما الشّعور النّفسيّ يُفسّر ما أنا فيه يا عمّة (تيري)، إنّه أصعب من وطأة الذّكرى عليّ، أنا لا أتخيّل نفسي مع امرأةٍ أخرى بعد (أمارا)!».

(٥٣)

كأسٌ للنّسيان!

يبدو أنّهم عائلتي بالفِعل، صارَ عَلَيّ أنْ أرعاهم، فليعتبروني جَدّهم، أو شخصًا يسكنُ معهم في الكوخ نفسه، يُحبّهم ويعدّهم عائلته. ربّما من الجيّد أنْ أحظى بلقب الجدّ أو العمّ أو الأخ الكبير بين هذه العائلة، أتمنّى أنْ أكونَ خفيف الظّلّ عليهم. الكوخ ضاقَ بِنا؛ لقد كبر الصّغار، وتزوّجوا وأنجبوا، قَسَمْنا الكوخ إلى خمسة أقسامٍ، واعتبرنا أنّ كلّ قسمٍ بيت، تسكنُ فيه عائلةٌ من عوائلنا الخمس المرشّحة للزّيادة في المستقبل!

الأطفال شكل الحياة البهيّ، جانبها المُضيء، وجوههم تُعيد للحياة معناها، وعيونهم تهب الأمل في عالَمٍ كلّ ما فيه يائسٌ وكئيب، وضحكاتهم تقول لك: إنّ الحياة جديرةٌ بأنْ تُعاشَ مهما كانتْ قاسِية. عندما صار عُمرُ (أماندا) ثمانية أعوام في سنة ١٨٢٠م، بدأتُ أعلّمهم حروفَ العربيّة، كُنت - وأنا النّجّار الماهر - قد صنعتُ لهم لوحًا من خشب، حففتُ جوانبه، وجعلتُ تلك الجوانب أسطوانيّة سَلِسة، وصقلتُ وجهه، لتهيئته للكتابة، وكان طوله ذراعًا ونصف الذّراع، وعرضه ذراعٌ واحدةٌ، ودهنتُه بالقار، وسكبت عليه شيئًا من الزّيت، وجفّفتُه حتّى صارَ جاهِزًا للكتابة فوقه، صار اللّوح قاتم السّواد، ولِذا استعملتُ للكتابة فوقه الطّباشير البيضاء الّتي كنتُ أقصّها

مـن بعـضِ أحجـار الأرض، وكان لونـه يُشـبه لونَنـا، والطّباشـير تُشـبه أسـنانَنا، وكان الصّغـار يضحكـون، كان هنـاك (هنـري) ذو الأعـوام السّـتة، و(إميـلي) ذات الأعـوام السّـبعة، وجيعهـم اعتبرتُهـم في صَـفٍّ واحدٍ، وبـدأتُ أعلّمهـم. في البداية كان تعليمهـم سِرًّا عـن أبيهـم، إذ كان السّيّد (جونسـون) يستبقيني في المزرعـة ولا يبعـثُ بي للعمـل مـن أجـل أنْ أُصلِـحَ لـه بعـضَ ما في منزلـه مـن أعطـال، وفي تلـك الأيّام الّتي لا أذهـبُ بها إلى العمـل خـارج المزرعـة كان يـرضَى أنْ يُبقـي الأولاد الصّغار في رِعايتي، وكنـتُ أُنهـي أعمال السّيّد (جونسـون) بـأسرع مـا يُمكـن، ويكـون هـو قـد غـادر لبعـضِ مصالحـه إمّـا إلى المـزارع أو إلى مصانـع القصـب والقُطـن، وحينَهـا تكـون الفُرصَـة مواتيـةً بالنّسـبة لي.

في البدايـة علّمتُهـم حـروفَ العربيّـة، حرفًـا حرفًـا، وكيفيّـة رَسْـمِه، وكانـوا يُبـدون استِعدادًا كبيرًا للتّعلّـم، وسرعـان مـا كانـتْ حـروفُ العربيّـة في أفواههـم، وكُنّـا نكرّرهـا في اليـوم عشر مـرّات عـلى الأقـلّ، واخترعـتُ لهـم أغنيـةً مـن خلالهـا، وكُنّـا نغنّيهـا معًـا، وكانـوا يرقصـون عـلى إيقاعهـا، فينشـطون للتّعلّـم أكثـرَ فأكثـر.

لم يَطُلِ الأمـر حتّى عرفـت العمّـة (تيري)، وقالـتْ مُعاتِبـة: «أنـا لا أعـترِضُ على تعليمهـم، فلـو كان الأمـر بيـدي لتعلّمـتُ معهـم، ولكـنّ السّيّد (جونسـون) لـو عَلِـمَ بالأمـر فسـيوقِع بنـا عقوبـاتٍ قاسـيةً لا نجـرؤ على تخيُّلِهـا. إنّ حَـقّ التّعليـم للعبيـد لم تُقـرّه أيّـة ولايـة، ولـو أنّ ولايـةً أقرّتْـه فـإنّ السّـيّد (جونسـون) لـن يقبـل بتعليـم أيّ واحـدٍ منّـا، إنّـه يقـول دائِمًـا: الزّنـوج كومـةٌ مـن الغَبـاء، ليـس لهـم عقـول، ولا يسـتطيعون التّعلّـم، وإذا

تعلّم أحدهم فإنّه سيوقع المصائب على نفسه قبل أنْ يُوقِعها على مَنْ حوله». طمأنتْها: «لن يعلم السّيّد (جونسون) بالأمر، وعلى هؤلاء الصّغار أنْ يتعلّموا ويُعلّموا غيرهم عندما يكبرون، العبد المُتعلّم أقدر على أنْ يحرّر نفسه من عبوديّته من العبد الجاهل. العِلم سِلاح».

لم تعترضِ العمّة (تبري)، أمّا (دانيال)، فكان يكتفي بالاستماع إلى الحديث، ولم يتدخّل في الأمر، وإنْ كانتْ عيناه تُؤيّدان تعليم الصّغار. حانتْ من بعد ذلك كثيرٌ من الفُرَص الّتي استطعتُ فيها أنْ أكتبَ للصّغار قِصار السُّوَر من القرآن الكريم، ونردّدها معًا حتّى نحفظها، ثُمّ أمحوها، وأطلبُ من كلّ واحدٍ من الثلاثة أنْ يكتبها على اللّوح من ذاكرته، وقد كانوا يَجِدون في ذلك متعةً لا توصَف، وكنتُ أرى بريق السّعادة في عيونهم، ولم يكنْ أحدٌ يُدرك أنّ بريقًا يدلّ على سعادة أشدّ من سعادتهم كان يلمع في عينَيّ، وتذكّرتُ أبي الّذي قال للشّيخ الّذي حفّظني القرآن: «ابدأْ معه من (ألم. ذلك الكتاب)؛ فإنّ القرآن مثل الموج، مَنْ سار مع اتّجاه الموج وصل، ومَنْ سار عكسه أو غالَبه غَرِق». وفكّرتُ أنْ أصنع مع هؤلاء الصّغار ما صنعه معي شيخي، ولكنّني تراجعتُ، فلا وقتَ هنا لكي يحفظوا القرآن كلّه، ثُمّ إنّنا لا نستطيع أنْ نُغافل السّيّد (جونسون) لنقوم بهذه الدّروس كثيرًا، ثُمّ ما لا يُدركَ كُلّه لا يُترَك بعضُه، وهكذا، صار الصّغار يحفظون ما يقرب من نصف الجزء الثّلاثين من القرآن الكريم.

وحلّ عيد ميلاد سنة ١٨٢١م، وكان العبيدُ يُمنَحون يومَين في السّنة من أصل ثلاثمئة وخمسةٍ وستّين يومًا، ليرتاحوا ويحتفلوا،

وقد كان الاحتِفال هذه المرّة مُختلِفًا، فقد نَظّمْنا فيه مسابقاتٍ للقفز، وأخرى للتّسلّق، وثالثةً للجري، ورابعةً للرّقص، ونَعِمْنا بليلةٍ هانئة، وقد كنتُ أنظر إلى الصّغار وقد كبروا وصاروا في سنّ الزّواج، فأرى أثر الزّمن، فأفرح وأحزن، أفرح حينَ أرى نهر الحياة يستمرّ في جَرَيانه غير عابِئٍ بأشجار الحزن الباسقة. وأحزن أنْ أرى نفسي وحيدًا، وقد مرّ على القيود الّتي تُكبّل روحي حوالي خمسةَ عشر عامًا، وإلى الآن لا شيءَ لديّ، لا حُرّيّةَ تُشتَرى، ولا ضوء في نهاية الأفق، وكلّما قلتُ إنّ السّيّد (جونسون) قد كبر هو الآخَر، وقد رقّ قلبُه، يصدر منه ما يجعلني أتراجع أمام وحشيّة الإنسان الّتي لا يُمكن تفسيرها.

كان المُتسابِق الّذي يستطيع أنْ يصعدَ أعلى شجرةٍ في السّاحة، ويأخذ من هناك ورقةً، وينزل، ويركض إلى النّار المُشتعلة في وسطِ حلقتنا، ويلقيها فيها يحصل على جائزة، كانت الجائزة غالِبًا طبقًا من الكعك الشّهيّ الّذي تبرعُ فيه النّساء في ذلك اليوم.

العبيد الثّلاثة الّذين وُكِلوا بربْطنا كانوا يُشاركوننا هذا الاحتِفال أيضًا، ومع أنّ ملامحهم وهم يربطوننا لم تكنْ تنتمي لنا، وكانوا يَبدُون أعداءً غِلاظَ الأفئدة، إلاّ أنّهم كانوا يعودون إلى طبيعتهم الّتي هي طبيعتنا، ويُشبهوننا في كلّ شيءٍ، ويجلسون معنا، ويحتفلون، ويرقصون، ويُغنّون، ويبكون أيضًا، كأنّ القسوة كانتْ لِباسًا يُجبَرون على ارتِدائه في صباحات العمل، فلّما ينتهي ذلك كلّه يخلعونه عن أنفسهم، ويرجعون إلينا.

أحدُ العبيد الثّلاثة كان قد اصطاد غزالاً اللّيلة الفائتة، وخبّأه من أجل هذه اللّحظة التّاريخيّة الّتي تجيء مرّة واحدةً كلّ عامٍ، وكان قد رفعه على مراجل ثلاثةٍ، وعلّقه فوقَ النّار لِيُنضِجه، وتذكّرتُ العمّ (جون) في تلك اللّحظة فأَنِفَتْ نفسي، لكنّ العبد استمرّ يُقلّب الغَزال، ويقتطع ما شَوى منه ويأكل، وقامَ مِن بعده الآخَرون وراحوا بين فقرةٍ وأخرى، وبين قصّة وأختِها يقتطعون شيئًا من لحم الغزال المشويّ ويأكلونه بتلذّذ، أمّا أنا فكلّما هممتُ أنْ أفعل ذلك تذكّرتُ العمّ (جون)، وكنتُ أراه مكان الغَزال، فيصيبني الغَثَيان، فأتراجع، وأجلسُ مكاني أنشغلُ بأيّ شيءٍ آخَر.

ولقد كان وقتُ الغِناء هو المُفضّل لنا جميعًا، وكُنّا نكتشفُ كلّ عامٍ أصواتًا شجيّة جديدة، وكُنّا كذلك نسمع أغاني جديدة، لم يكنْ صاحِبُها قد أفصَحَ عنها في عيد الميلاد في أيّ سنةٍ من السّنوات السّابقة. ولقد كان الحنين والحُزن هما صانِعي الأغنية في المقام الأوّل. الأغنيات رِثاء الرّاحلين، والباقين كذلك، لقد كُنّا نرثي أنفسنا، نبكي على ذواتنا الّتي ماتت منذ أوّل سوطٍ أسالَ الدّمَ من ظهورنا ورَضِينا به وألِفناه من بعدُ واعتدْنا عليه. كُنّا نغنّي لنغرق في أحزاننا أو لنتخفّف منها، كانتْ دموعنا هي نِتاجَ ما تفيضُ به الكأس الملأى من شعورنا، ومن الطّبيعيّ أنّ كلّ ما زادَ من ماء الكأسِ يفيض، ولم تكنْ في الكون كلّه كؤوس أكثر امتِلاءً بماء الحزن والحنين والشّوق والشّجن من كؤوسنا!

كُنّا بلا أوطان ولذلك كُنّا نَحِنّ ونبكي، ونَحِنّ وتبكي كلماتُنا، الإنسان بلا وطن سَهمٌ في الهواء لا يدري إلى أين يسير، ولا أيَّ هدفٍ

سيُصيب. لن تكون أمريكا وطنًا لنا بأيّ حالٍ من الأحوال، بالنّسبة لي؛ لو صار عمري مئة سنة فلن أعترفَ بأمريكا وطنًا، أمريكا تقتلُنا، والأوطان لا تقتل أبناءَها، لم يكن لهذه البِلاد إلاّ أنْ تكونَ فاجرةً، تنام مع عشيقٍ عابرٍ في اللّيل، وتقتله في الصّباح!!

أوطاننا تُشبهنا، إنّها صورةُ حُبّنا وكبريائنا وهدوئنا وصفاء قُلوبِنا، ولم أجدْ في هذه البلاد الفجّة إلاّ عكس ذلك كلّه، هنا الكُره والسّوط والذّلّ والصّخب واللُّهاث والحسد والقلوب المليئة بالوَخم، فأنّى لها أنْ تحلم أنْ تُسمّينا مُواطنيها؛ ولو حدث ذلك يومًا ما، فإنّني أدعو الله أنْ أموت قبلَ أنْ يأتي ذلك اليوم!

تقول لي العَمّة (تيري): «إنّها فرصةٌ مُناسِبة، انظر إلى هؤلاء النّساء الجميلات، قُلْ أيّ واحدةٍ أعجبَتْك، وأنا أخطبها لك، إنّهم يعرفونك، إنّك مشهورٌ لديهم، أحبّوك لأنّكَ شُجاع، الشّجاعة هي ما نفتقده نحن العبيد، بالطّبع نحن شُجعان، ولكنّنا نُحبّ الحياة أيضًا، وهذا ما يجعلنا نبدو جبناء، ولكنّنا لسنا كذلك...»، تضحك ثُمّ تقول لي: «أنا أعرفك. أعرفك جيّدًا. أنا أعرفُ الرّجال، الرّجل من دون امرأةٍ جسدٌ ميّت، كأسٌ فارغة، ورقةٌ في الطّريق تدوسُها الأقدام، إنّهم ينتظرون يدًا حانية تُعيد الحياة لذلك الجسد الميّت، وتملأ تلك الكأس، وتلتقطُ تلك الورقة». أقول لها وأنا أهزّ برأسي: «أراكِ أصبحتِ حكيمة يا عمّة تيري». تردّ وهي تلكزني بمرفقها: «مَنْ يُجالسك خمسةَ عشرَ عامًا لا بُدّ أنْ يُصبح حكيمًا، إنّ مجتمع السّود سوفَ يكون مَدِينًا لك يومًا ما، مَدِينًا للعلم الّذي تُفيدُ به أبناءَ

جيلك... والآن.. لا تخرجْ عن الموضوع، قلْ أيّ النّساء أعجبتْك؟!».
أَصمِت، ماذا أقول لها، كيف ستفهم ما أنا فيه، أنظر في الأرض أفحَصها على ضوء النّار بعينين ذاهلتَين وألعبُ بالتّراب، تصمت هي الأخرى، قبل أنْ تعود للكلام من جديد: «لا بأس يا عمر، لا بأسَ يا أخي... دَعْنا ننتظر فقرة الرّقص، لا بُدّ أنّكَ حينَ ترى النّساء يرقصْن، يتحرّك فيك الشّوق إليهنّ... أنا متأكّدة أنّكَ لن تقاوم».

أعودُ من تلك اللّيلة مُثقلاً بأحزان السّنين الفائتات، أريدُ أنْ أنسى، لو كانتْ هنالك كأسٌ تَهَب النّسيانَ لشربتُها. لو كانتْ هناك امرأةٌ تُنسيني لتزوّجْتها، لو كانتْ هناك حياةٌ تخلعُ عنّي رِداء الذّكرى، وتُلبِسني ثوبَ النّسيان لعِشتُها، لكنّني مُشبَعٌ بالحنين، والحنين داءٌ لا يُشفَى منه قلبي، وأنا في مراحل متقدّمةٍ منه!

أحاول مع الأطفال أنْ أنسى، ضَحِكاتهم الملائكيّة تُعيدني إلى عهد البراءة الأولى، لَثَغاتُهم وهم يردّدون الحروف خلفي تفصلني عن واقعي الأليم، أندمج في تعليمهم، أذوب في الآيات الّتي أترنّم بها وهم يُرتّلونها بطريقتي، أُذهَل عن نفسي بالحروف النّورانيّة، أنهل من كأسِ المعرفة الإلهيّة، أطوف حول ذاتي المُشرقة بوجود الله... هكذا، هكذا يكون النّسيان!

(٥٤)

مَنْ تعَلَّمَ تحرَّر

أرأيتَ إلى هذه النّجوم في اللّيل؛ إنّها تتحدّث إليكَ، هل حاولتَ أنْ تُصغي؟! كم مرّةً عليّ أنْ أنظر إلى النّجوم لكي أسمعَها؟! كم مرّة عليّ أنْ أتأمّل دورانها وأنا ثابتٌ في مركزي لكي أتعلّم أنّ الحياة لا تتوقّف أبدًا؟!

كانت المِسبحة لا تزال معي، المسبحة إيّاها الّتي أحضرتُها من (فوتا تور)، الأثر الوحيد الّذي يدلّ على وطني، كلّ شيءٍ ما عداها أصابَه التّلف أو تغيّر، ثيابي بالطّبع تغيّرت عبر عشرينَ عامًا هي زمنُ هبوطي على هذا الكوكب الّذي يُسمّونه الأرض الجديدة، عمامتي ظلّتْ مُعلّقةً على الشّجرة الّتي فوقَ شاهدةِ قبرِ آمنة، أو على الجدار الّذي يعلو رأسي في غرفة النّوم، وعمامة أبي ظلّتْ مُعلّقة على النّخلة الأقرب إلى ضفّة النّهر حيثُ رفعتُ أذان الفجر لأوّل مرّةٍ في حياتي، هل عمامتي وعِمامة أبي ظلّتا على ذلك الشّجر، أمْ أنّهما سَقَطَتا هما الأُخرَيان وتلوّثتا في الطّين، وداسَتْهما آلافُ الأقدام؟! مَنْ يلبس العمائم في دولة الأئمّة في هذه الأيّام؟! مَنْ يدلّ النّاس على الله في مدينة (توبا) الآن؟ هل الله ما زال يُعبَد في بلادي أمْ أنّ الوثنيّين مع المُستعمر الإنجليزيّ قتلوا أهل الله، وساموهم الخسف بالحديد والنّار، وباعوا مَنْ تبقّى منهم لأهل الفجور في هذه البلاد؟!

اتّخذتُ سِجّادةً للصّلاة منذ أكثر من عشرة أعوام، خِطتُها بنفسي، كانتْ من قِماشٍ سميكٍ صلب، من ذلك النّوع الّذي يستخدمونه في خِيم العساكر في الحروب، وجدتُ خيمةً مُمزّقة على جانب الطّريق ونحن عائدون من أحد أيّام العمل في المزارع البعيدة، فسحبتُها معي، كانت الخيمة إمّا لمقاتلين فرّوا أو قُتِلوا، في حربٍ داميةٍ بين الولايات، لقد مرّ عليها زمنٌ طويلٌ، القِماش في أجزاء منه كثيرة قد تلف، لكنّني استصلحتُ ما كان كافِيًا لعمل سجّادة لأؤدّي فوقَها صَلَواتي، كنتُ أقول للعمّة (تيري)، وأخي (دانيال) الّذي كان يُتقن الصّمتَ إتقانه العمل في المزارع: «إنّنا لله، علينا أنْ نعيشَ حياتَنا من أجله، ولو تلوتَ معي القرآن لوجدتَ كثيرًا من العَزاء، وكنتُ أتلو عليهم قوله تعالى: «ونُنزّل من القرآن ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين».

تُصبِح سجّادة الصّلاة أحيانًا مِخدّة حينَ يكثُرُ عددُنا في الكوخ، كانتْ تُقضَى فيها مآربُ كثيرة، تحوّلت إلى غِطاء للأطفال حديثي الوِلادة في الأعوام الّتي كانت الأمّهات يلِدْنَ فيها في كلّ عامٍ ولدًا أو اثنين، وكانت العمّة (تيري) تؤمن بأنّ القرآن الّذي أقرؤه والصّلاة الّتي أصلّيها يُباركان السّجادة، وكانتْ تريدُ بذلك البَركة للأولاد، وأنْ تكون السّجّادة سببًا في أنْ ينموا بصّحة وعافية، ويكبروا في أمان، وألاّ تُصيبهم الأمراض، كنتُ أحاول عبثًا أنْ أقنعها أنّ هذا المُعتَقَد خاطِئ، وأنّ الأمر كلّه بيد الله، ولكنّها كانت تقول: «ولْيكنْ، إنّني أقوم بذلك زِيادةً في البركة». كانتْ تُشبه أمّي كثيرًا في ذلك. وكم ذكّرتْني بِها في مواقف كثيرة، فألهبتْ دموعي. استُخدمت

السّجادة كذلك لوضع الكعك السّاخن فيها حتّى لا يبرد سريعًا، واستُخدِمت كذلك لتكون حصيرةَ الأولاد في أيّام البرد، وكنتُ أرى العَمّة (تيري) تعلّقها على باب الكوخ كتعويذةٍ لحمايتنا من أيّ أذى!

صرتُ ألبسُ فوقَ رأسي طاقيّة من الصّوف في أيّام الشّتاء، تلفّ رأسي بأكمله، تقيه البرد، وتُشعرني بالدّفء، وطاقيّة من القِماش الخفيف، أقرب إلى القِماش الّذي كُنّا نرتديه فوقَ أجسادِنا أيّام الصّيف. طاقيّة الشّتاء الصّوفيّة عاشتْ معي إلى اليوم، إنّني أحتفظُ بها من أجل ليالي الزّمهرير.

في شهر أيّار من عام ١٨٢٢م، دعاني السّيّد (جونسون) إلى كوخه، توقّعتُ أنّه - على عادته - يريد منّي أنْ أُصلِحَ له بعض الأعطال، أو أُثبّت له بعض المنجورات، فحملتُ مِطرقتي ومساميري ودخلتُ عليه، كان فَزِعًا، يرتعشُ في كرسيّه، بادَرني بالقول: «هل تريدون قتلَنا؟». لم أفهم ماذا يقصد، لكنّني رأيتُ رعبًا حقيقيًّا في عينَيه، كانت عيناه تَزُوغان حول المِطرقة الّتي في يدي كأنّه كان يتوقّع منّي أنْ أهوي بها فوقَ رأسِه في أيّة لحظة: «هل تُريدَ أنتَ أيضًا أنْ تقتلني؟». سألتُه: «ماذا تعني؟». دفَعَ إليّ بصحيفةٍ، وقال لي: «ألستَ تستطيع القراءة؟». قرأتُ في الصّحيفة سِيرة عبدٍ أسود اسمه (دنمارك فيسي)، سحبَ الصّحيفةَ مِنّي بسرعة، وسألني بصوتٍ راعش: «هل تنتمي لجماعته؟ هل تريدون قتلَنا حَقًّا... أرجوك قُلْ لي... قُلْ لي يا ماريان... ألم أكنْ لطيفًا معك؟!». لأوّل مرّة أرى السّيّد (جونسون) ضعيفًا بهذا الشّكل، كان ينظر إلى المطرقة

والمسامير وهو يتوسّل: «أرجوك لا تقلْ لي إنّكَ تنوي قتلي». اقتربتُ منه لكي أُهدِّئه، لكنّه ازداد رَجَفانًا، ابتعدتُ خطوتين إلى الخلف، وأنزلتُ العِدّة الّتي كانتْ معي على الأرض، ورفعتُ كَفّيّ وقلّبْتُهما فارغتَين أمامه، وقلتُ له: «لا تخف..» فقاطعني: «إذًا أنتَ لا تنتمي لجماعته؟». «لا، ولا أعرفُ مَنْ هو؟». «هل تُقسِم بالله الّذي تُؤمن به أنّكَ لن تقتلني». هبطتُ على رُكبتَيّ لأزيدَ في اطمِئنانه، وقلتُ: «سيّد (جونسون)، أنا لستُ قاتِلاً، ولن أكون، أنا لستُ مِثلكَ سيّدي، أنا أحبّ الخير لكلّ النّاس، وأريدُ لهم جميعًا أنْ يعيشوا في سلام». رأيتُ في وجهه بعضَ الطّمأنينة، دفعَ إليّ الصّحيفة مرّة أخرى، وقال لي: «اقرأ... اقرأ يا عمّ (ماريان)... أكملِ القراءة...». كانت الصّحيفة تقول إنّ (دنمارك فيسي استطاع تنظيم تسعة آلاف للقيام بتمرّدٍ كبيرٍ في (تشارلستون)، توقّفتُ عن القراءة، وضحكت: «إنّهم هنا، في هذه المُقاطعة الصّغيرة من (كارولينا) الجنوبيّة يا سيّدي..». ردّ وهو يبلع رِيقه: «هذا ما يُخيفني، أخشى أنْ يكون قد أقنع بعضَ العبيد العاملين في مزارعي، تخيّل لقد أقنع تسعة آلاف عبدٍ ليُصبِحوا مجرمين مثله». أكملتُ القراءة: «وأنّ هذا العبد قد ربح ورقة بانصيب واشترى بالمال الّذي حصل عليه حرّيّته وهو في سنّ الثّانية والثّلاثين. ولكنه لم يتمكّنْ من شراء زوجته الأولى وأطفاله من العبودية...». توقّفتُ: «إذا كان حُرًّا من دون عائلته، فما فائدة هذه الحرّيّة؟». ردّ السّيّد (جونسون): «أنتَ عبدٌ طيّبٌ يا ماريان... وأنتَ مُتعلّم... وإنّني أتطلّع مثلك إلى اليوم الّذي تُصبِح

فيه حُرًّا!». سألتُه: «ولكنّكَ تستطيع أنْ تمنحني هذه الحرّيّة». ردّ بصوتٍ خفيضٍ: «لا أستطيع. ثُمّ إنّ عليكَ أنْ تملكَ المال من أجل أنْ تشتري نفسَك». «ولكنّكَ لا تسمح لنا بالحصول على المال، وإذا أجّرْتَنا إلى سيّدٍ آخَر، فإنّكَ لا تُعطينا ولو أقلّ من بضعة سنتاتٍ من الأجر الّذي نحصل عليه لِقاء عملنا». «عليكَ إذًا أنْ تفوز بورقة يانصيب». «اليانصيب مُحرّم في ديني، إنّه نوعٌ من أنواع الرّبا». مطّ شفتَيه ولم يقلْ شيئًا، فيما رُحتُ أتابع القراءة في الصّحيفة: «يتزعّم (دنمارك فيسي) مجموعةً من العبيد النّاقمين وهم يُخطّطون لقتل الأسياد في (تشارلستون) وتحرير العبيد والإبحار إلى جمهورية هايتي». توقّفتُ عن القراءة، أخذ السّيد (جونسون) الصّحيفة منّي: «أنتَ لستَ من هؤلاء؟». «سيّد (جونسون) هل تريدُني أنْ أُصلِحَ لكَ شيئًا في كوخك؟ عليّ أنْ أهتمّ بالصّغار». «كلاّ. اغربْ عن وجهي».

بعدَ شهرٍ من يوم الهلع بالنّسبة للسيّد (جونسون)، أعطاني صحيفةً وهو يُدخّن من غليونه، ويعقد رِجلَيه، ويمدّهما في وجهي: «اقرأ هذا الخبر... هنا». وكان يُشير بإصبعه إلى خبرٍ بالخطّ العريض، يقول: «دنمارك فيسي يقع في يد العدالة، بعد خيانة أحد العبيد له، الشّرطة تعتقل ١٣١ من المتمرّدين، ومحكمة (تشارلستون) في ٢٢ يوليو من عام ١٨٢٢م تُصدر حُكمَ الإعدام شنقًا على (دنمارك فيسي) وخمسة وثلاثين من العبيد الّذين معه». كانتْ صُور بعضهم كذلك مُعلّقين منشورةً في الصّحيفة. ضحك السّيّد (جونسون)، وهتف: «هذه نهاية مَنْ يتمرّد على سيّده وعلى قوانين هذه البِلاد...»

ابتلعَ ضِحكته، وتابع: «أنتَ لستَ منهم كما قلت، أنا أثقُ بك يا (ماريان)، أرجو ألاّ تخون ثقتي أيّها العبدُ الطّيّب».

سأكون صادقًا مع نفسي، لقد اعتبرتُ السّيّد (فيسي) بطلاً، وحدّثتني نفسي أنْ أقودَ حركةَ تمرّد مثله، من أجل أنْ أحرّر إخوتي من العبيد، فلقد ذاقوا من العذابات المريرة ما لا يُمكن للغةٍ أنْ تصفه، ولكنّني لن أقتل مِثله، ستكون حركة تمرّد سِلميّة، لن أسعى إلى إراقةِ قطرةِ دمٍ واحدةٍ، لكنّ الثّورات وحركات التّمرّد غالِبًا ما تنتهي بالدّم، تراجعتُ وأنا أرى منظر الدّماء في خيالي، وأسمع الصّرخات من الذّبح في أذني: «لا... لا... أنا لستُ قاتِلاً، ولنْ أكون داعيةً له». نفضتُ رأسي لأسقِط الصّور الّتي تماثلتْ لي، وهمستُ في داخلي: «يُمكن أنْ تكون ثورةً من نوعٍ آخَر، ثورةً على الجهل، إنّ العبد المتعلّم عبدٌ حُرّ ولو بعدَ حين؛ فمن تَعَلَّمَ تحرَّر»، حينئذٍ قرّرتُ أنْ أُعلّم كلّ عبدٍ أراه، أو أعيشَ معه، أو تكون لي به صِلة من أيّ نوع.

في عام ١٨٢٩م تزوّجت (أماندا) من شابّ اسمه (ألبرت) أحبّها في مزارع القُطن، كان عمره تسعة عشر عامًا فيما كانت هي في السّابعة عشرة من عمرها، كان شابًّا يمتلك - بالإضافة إلى عمله في المزارع - مهارةَ صُنع الباغات والفوهات والأقسام للمُسدّسات، وقد رفعَ ذلك منزلته في عين السّيّد (جونسون)، فقد كان يطلبُ منه أنْ يُطوّر له مُسدّساته، ويعتني بها.

استغللنا بعضَ الأيّام الّتي عُدنا مُبكّرين فيها ساعةً، وكان ذلك أيام الشّتاء، إذْ إنّ قوانين الولاية تلطّفتْ بِنا وتكرّمتْ علينا، فخفّضتْ ساعات العمل من خمسَ عشرةَ ساعةً إلى أربعَ عشرة. كانتْ هذه السّاعة كافيةً لأنْ نعقدَ القِران، كنتُ أنا وليَّها المُنتدَب لإكمال المراسم، لقد كانتْ (أماندا) طفلتي منذُ أنْ بدأتْ تحبو، لقد لاعبتُها أكثرَ من أمّها ومن جَدّتها، وكثيرًا ما قمتُ بدور الحاضنة لها في غياب أمّها، وهي من أنجب طُلاّبي، ومعها شيءٌ من القرآن، وهي مُسلمة، وقد اشترطتُ على (ألبرت) أنْ يُسلِمَ حتّى يصحّ زواجها، وقد قَبِلَ بذلك، وعلّمتُه الشّهادتين وسورةَ الفاتحة، وسورتين قصيرتين يقرأ بهما في الصَّلَوات، وكان سعيدًا بإسلامه سعادته بزوجته. وقد تَمّ ذلك في شهر شباط من عام ١٨٢٩م، وكانَ حفلاً بهيجًا، غنّينا فيه داخل كوخنا، ورقصْنا، وسَمَح السّيّد (جونسون) لوالدَي (ألبرت) بحضور الحفل، وأكلْنا بالطّبع من كعك العمّة (تيري) الجدّة الّتي صارتْ حركتُها ثقيلة لِهَرَمِها، ثُمّ لَمّا انتهى الحفل، عادَ والدا (ألبرت) إلى كوخهما، وكُنتُ قد هيّأتُ للعروسَين زاويةً في الكوخ، ونجرتُ لهما سريرًا يُعدّ أفضل ما صنعتُ في حياتي، وغطّينا زاويتَهما بستائر رقعناها من ثيابٍ قديمة من أجل أنْ يحظَوا بشيءٍ من الخصوصيّة. وهكذا كبرتْ عائلة الكوخ، وراحتْ تتمدّد وتتوسّع، والكوخُ على حاله!

مشت الحياة برغم كلّ صعوباتها، كانتْ هناك فتراتُ هناءٍ وسطَ العذاب، زواجُ حبيبَين يتعارفان في مزارع القُطن، غِناءُ

عصفورَيـن يتناغَيـان عـلى نافـذة الكـوخ، ولادةُ طفـلٍ يُصبـح بعدهـا العروسـان أبوَيـن! وهـذا مـا كان، ولـدَتْ (أمانـدا) طفلَهـا الأوّل في أوائل الرّبيـع من عـام ١٨٣٠م، وكان وَلَـدًا فسـمّته (عُمر) على اسـمي، وكـم فرحـتُ بذلـك فرحًـا كبيرًا، ومـع الأيّام، صـاروا يُنادُونـه (مـورو)، وكانـت (تـيري) تبتسـم ابتِسـامةً واهنـة، محاولـةً أنْ تُحافِـظَ عـلى بهائِهـا وحضورهـا، وهـي تقـول: «إنّ نُطـقَ كلمـة (عمـر) صعـبٌ، لكنّ (مـورو) سـهلة...». وهكـذا صـار هنـاكَ مَـنْ يحمـل اسـمي في العائلـة.



(٥٥)

إنّ الحرّيّة تستحقّ أنْ تُغامِر من أجلِها

حينَ أتذكّر ذلك اليوم الّذي اسْتُرِقتُ فيه، أدركُ أنّ الله حَقّ، وأنّ الوقوفَ بينَ يديه حَقّ، وأنّه لن يضيع عند الله شيء. لم أُخلَقْ عبدًا؛ أنا حُرّ، إلى اليوم ما زلتُ أرى أنّني جديرٌ بحرّيّتي، ولهذا سأسعى إليها بكلّ ما أستطيع ما دامَ فِيّ عِرْقٌ ينبض، كُلّ هذه الأغلال الّتي رُكِّبت على ظهري، وكُلّ هذه الأصفاد الّتي أُحكِمتْ حول قدَمَيّ لم تَخدِشْ طهارةَ الحُلم لديّ؛ أنا أحلمُ بالحرّيّة... أنا حُرّ. لا أرى في الوجود شيئًا يستحقّ العيش من أجله أجلّ من الحُرّيّة، تبدو حقيقةً ناصِعة وسط باطلٍ لا ينتهي، لطخةٌ من بياضٍ في سَوادٍ لا نِهائيّ!

تجاوزتُ السّتّين من عُمري، إنّها سنواتٌ ثقيلة، لم أرَ فيها أمّي كثيرًا ولا أبي أخذتْني (تُوبا) منهما، ولم أرَ فيها (أمارا) إلاّ سنواتٍ قليلةً جِدًّا، أخذني منها عدم اقتِناعي بالزّواج في البداية، ثُمّ أخذني مِنها الرّقّ البغيض والحربُ الكريهة، ثُمّ لم أرَ ابني المُنتَظر أبدًا، ابني الّذي ظلّ يُشكّل امتِدادًا لحلم العِلم في روحي منذُ اليوم الأوّل الّذي عرفتُ فيه قيمة العِلم، لو أنّه حَيّ سيكون قد مضى من عُمره ثلاثةٌ وعشرونَ عامًا، سيكون على أبواب الزّواج، قد يكون تزوّج فتاةً تدلّه على أنْ يُكمِل ما بدأتُه، وما بدأه أبي من قبلُ، وأكثر ما أتمنّاه ألاّ يكون قد وقعَ بين المُتاجرين بالبشر من الّذين يدّعون أنّهم بشر.

إنّها ستّون عامًا ثقيلة، ثقيلة جدًّا، وما زلتُ أفكّر بالهرب، لقد صِرتُ أشعرُ أنّني ثقيلٌ على هذه العائلة الّتي غَصّ بها الكوخ، لقد زادوا عن عشرةٍ في مكانٍ واحدٍ، وهم مُرشّحون لمزيدٍ من الانفِجار في كلّ عام. لم أكنْ واحِدًا منهم بأيّ حالٍ من الأحوال، وإنْ لم يُشعروني بالفرق بيننا، وإنْ أظهروا كثيرًا من الودّ، لكنّ الوُدّ لا يستمرّ، والنّساء الجديدات، يقلْن لأزواجهم من الّذين وُلِدوا بعد أنْ بدأتُ أعيشُ في هذا الكوخ: إنّهم عجائز ألم يكتفوا من الحياة؟». وكانوا بالطّبع يقصدونني ابتِداءً، إنّني لا ألومهم، إنّهم وُلِدوا ورأوني في وجههم صامِدًا كلّ هذه السّنين رغم الأهوال الكثيرة، لا بأس، قد لا يأسَى على فِراقي الكثيرون من هذه العائلة، ما أنا إلاّ غُصنٌ مقطوعٌ من شجرة، وإنْ كانوا هُمُ الشّجرة، وما أنا إلاّ ورقةٌ ذابلةٌ تتهيّأ للسّقوط من جذعها، وإنْ كانوا هُم الجذع!

قد لا أكون فُزتُ بحُبّ أحدٍ هنا، لكنّني فُزتُ بحبّ الله، الّذي دلّني عليه، فعرفتُه، وآمنتُ بحِكمته، فهوّنتْ تلك المعرفة عليّ كلّ ألم.

نعم سأهرب، ولن أعودَ إلى هذه المزرعة مهما كانت النّتائج، سأطلبُ أنْ أكون عبدًا لأيّ سيّدٍ بعدَ اليوم باستثناء السّيّد (جونسون)، فإنّه كلّما كبر ازداد في الضّلال، إنّه في السّبعين من عمره، وما زال يسكر في اللّيالي، ويبدأ الصُّراخ على عادته حتّى يصل إلينا صُراخه في الأكواخ البعيدة، ويخرجُ من باب بيته شبهَ عارٍ في اللّيالي الباردة المَطِيرة، يسبّ ويلعن، وربّما أطلق النّار في

الهواء من دون سبب، ثُمّ عادَ ككلبٍ يجرّ ذيله خلفه إلى غرفته؛ إنّه رجلٌ لا يُمكن احتِماله!

زرتُ قبر العمّ (جون)، إنّه قريبٌ من السّياج، لا يبعدُ كثيرًا عن هنا، لا أدري لماذا فعلتُ ذلك؟ ربّما لأودّعه، فقد كنتُ أشعرُ أنّني لن أعودَ إلى هنا. ربّما لأقرأ على روحه الفاتحة، فلقد طلبتْ روحُه الرّحمة. وربّما لأدعو له، فقد رأيتُ فيه أبي أوّل ما جِئتُ إلى هنا، ولكنّ قسوته عندما جَلَدني أوّل مرّة نزع صورته الّتي هيّأتُ نفسي لها، أنا أعرفُ أنّ قسوته كانتْ غِطاء مُصطنعًا، دورًا أُجبِر على أدائه، لكنّني لم أستطع أنْ أنسجم مع ذلك الدّور أو أتقبّله، حينَ بدأتُ أزوره قبل أنْ يحرقه السّيّد (جونسون) عرفتُ كم تكون قصصنا نحن العبيد حزينة، وجراحنا عميقة، وأنّنا محتاجون إلى يدٍ تمسح على رؤوسنا مهما كبرنا، لا إلى يدٍ تلومنا وتنهرنا.

شجرة الصّنوبر الّتي غرستُها على شاهدته كان طولها ذراعَين، الآن طُولها يزيدُ عن خمسة أذرع، لقد نمتْ بسرعةٍ، ومدّتْ أغصانها وأوراقَها الرّفيعة فوقَ قبره كأنّها تحنو عليه. وتُظلّله من حرّ الصّيف، وتسكب الماء على قبره قَطَراتٍ من خلال أوراقها في فصل الشّتاء لكي يسقيه الماء لا يُغرِقُه.

إنّه ربيع عام ١٨٣٠م، إنّه الرّبيع مرّةً ثالثة، وإنّه الهروب الثّالث، ولا بُدّ هذه المرّة من أنْ ينجح، إنّني بذلتُ أقصى ما أستطيع، ولا بُدّ أنّ الله الّذي يرى سوفَ يكتب لي النّجاح الحقيقيّ هذه المرّة،

أنا متيقن من ذلك تمامًا. كان أحدُ الرُّضع يبكي حينَ شققتُ الباب بهدوء لأخرج، كان صوتُه يقول لي: «امضِ؛ فإنّ الحياة تستحق أنْ تُعاش، وإنّ الحرّية تستحق أنْ تُغامِر من أجلِها». وكان صوتٌ آخَر قادمٌ من أعماقي يقول: «إنْ متّ فإنّ اسمك باقٍ في (مورو) الصّغير ابن (أماندا)».

بَكّرتُ هذه المرّة في الهرب، خرجتُ بعد أنْ صلّيتُ العِشاءَ الأخيرة، ونمتُ قليلاً، وقُمتُ بعدَ انتِصاف اللّيل، دعوتُ الله لي وللعائلة أنْ يحميها، كان الجميع يغطّون في نومٍ عميق، ولكنّني شككتُ أنّ عيون العمّة (تيري) كانتْ تنظر إليّ في الظّلام، وباستثناء بُكاء الطّفل الّذي سكتَ من فوره كان كلّ شيءٍ هادِئًا.

هذه المرّة لم أركض أوّل ما خرجتُ. مشيتُ بهدوء، قطعتُ السّياج، وتوجّهتُ إلى الطّريق الّتي تُوصِل إلى ولاية كارولينا الشّماليّة، لعلّني من هناك أستطيع أنْ أستمرّ في المشي حتّى أصِل إلى ولايات الشّمال الّتي تحرّم الرّق، كان ذلك جنونًا بالطّبع، فإنّ الوصول إلى ولاية فيرجينيا مثلاً وهي أقربُ ولايةٍ لكارولينا الشّماليّة يحتاج إلى شهرٍ من المشي، وإذا أردتُ أنْ أذهب إلى ولايةٍ تكون أقلّ خطورةً وأكثر أمنًا مثل ولاية (فيلادلفيا) أو (نيويورك) فإنّني أحتاج إلى ستّة أشهرٍ من المشي المُتواصِل، ولو كان الأمر يُقضَى بالمشي لمشيتُ سنتَين إذا كانت النّهاية أنْ أحصلَ على حُرّيتي، ولكنّ المُشكلة في الطّعام الّذي لا أملكُ منه إلاّ كعكات العمّة (تيري) والتّي لن تمكث أكثر من يومَين، والماء الّذي قد لا تعثر على ماءٍ نظيفٍ، فتموتَ عطشًا،

والوحوش الّتي تعجّ بها الأدغال ما بين الولايات، والّتي تكثرُ فيها السّباع المفترسة، والزواحف السّامّة. لقد كنتُ مجنونًا أُقدِم على عملٍ جنونيّ، ولكنّ نِداء الحرّيّة كان مجنونًا هو الآخَر، فلم يجعلْ من كلّ هذه عوائقَ بالنّسبة لي. نعم لم تكنْ لتخيفني الأسود ولا الأفاعي ولا الوحوش ولا قلّة الماء والطّعام، ولكنّني أخافُ من المُرتزقة المأجورين، الّذين يُلقون القبض على العبيد الفارّين مقابل أجرٍ، وهم منتشرون في الطّرق الرّئيسيّة الّتي تصل بين الولايات، وبين المقاطعات والمزراع، هؤلاء كنتُ أفضّل أنْ أموت بين فكّيّ تمساحٍ كما ماتتْ أختي، على أنْ أقع بين أيديهم.

كان انتِظار الحرّيّة في مزرعة السّيّد (جونسون) ضربًا من الوهم، إنّه قذر وبخيل وعدائيّ، وكنتُ أقول له: «اجعلْني أعمل أيّ عملٍ فوقَ عملي في المزارع، وأعطِني مقابله ولو ربع دولارٍ في اليوم حتّى أشتري نفسي منك، فكان يرفض، فأقول له دعني أعمل عندكَ عشر سنواتٍ عملاً إضافيًّا مقابل أنْ تكتب لي صَكّ حُرّيتي بعد ذلك، فكان يسخر منّي، ويقول: «عليكَ أنْ تملك المال أوّلاً، وإنّكَ لو عملتَ حياتكَ كلّها في عملٍ إضافيّ لي لَما ملكتَ نصفَ ثمنك!».
كيفَ أملكُه أيّها الفاجر وأنتَ لا تسمح لأيّ واحدٍ أنْ يحصل على سنتٍ منه!

لقد أدركتُ أنّ انتظار الحرّيّة عبوديّة بوجهٍ من الوجوه، وأنّ الأحرار لا ينتظرون شيئًا، ولهذا أنا أحاول بما أملك، «لا يُكلّف الله نفسًا إلاّ ما آتاها» أنْ أصيرَ حُرًّا. ولولا أنّني أخافُ أنْ يقع العِقاب

على مَنْ بعدي، وقد هَرِمَ أصدِقاء الرّحلة الطّويلة، لحاولتُ في كلّ شهرٍ أنْ أهرب، لكنّني ما يقرب من رُبع قرن في خدمةِ هذا الأفاك تكفي.

سلكتُ طريقَ الشّمال، أعرفُ ذلك من نجم الشّمال، ونجم الشّمال كان دليلَ البحث عن حرّيتي في تلك اللّيلة، ركضتُ في السّاحات الّتي تسمح لي بالرّكض، فأنا هرمتُ ولم أعدْ شابًّا كما كنتُ في السّابق، لم أعدْ ذلك العَدّاء الّذي كان مُستعِدًّا أنْ يُسابِق الفهد، أنا اليوم أجري بما أقدر قبل أنْ يبدأ صدري يعلو ويهبطُ بشدّة فأرتاح في هذه البراري تحت شجرةٍ، قبل أنْ أواصل السير من جديد. كما خطّطتُ حتّى الآن، لم تتعقّبْني كِلاب السّيّد (جونسون) هذه المرّة، إمّا لأنّ بعضَها كان قد مات هو الآخَر، وجرتْ عليه سُنّة الموت كما تجري على البشر، أو لأنّها هرمت، ولم تعد قادرةً على الجري السّريع ولا على الصّيد كما كانت من قبلُ، وإمّا لأنّني منذ منتصف اللّيل وأنا أسير فأتاحَ لي ذلك أنْ أبتعدَ بالقدر الكافي.

لا أدري كم هي المسافة الّتي قطعتُها عندما بدأ شروقُ الشّمس، ولكنّني أعتقد أنّها كافِية لأكون قد نجوتُ من كِلاب سيّدي. نمتُ في ظلّ شجرةٍ حتّى ارتفعتِ الشّمس، أيقظني شيءٌ ليّن يمشي على بطني، تحسّسْتُه، ثُمّ صرختُ ورميتُه فَزِعًا، لقد كانتْ أفعى، وقفتُ على قَدَمَيّ مذعورًا، لكنّ ذلك أعطاني قُوّة لكي أجري، جريتُ باتّجاه الشّمال من جديدٍ مثل غَزال.

عند الزّوال شعرتُ بعطشٍ شديدٍ، رأيتُ من بعيدٍ عمّالاً يعملون في إحدى المزارع، خُيّل إليّ أنّ فيها ذلك الصّنف من العبيد الثّائرين الّذين تَبِعوا العبد المُحرّر (دنمارك فيسي)، لبدتُ على مقربةٍ من المزرعة بحيثُ أراهم ولا يرونني، ثُمّ استغللتُ فترة ابتِعاد المُراقب عن المكان الّذي ألبدُ فيه، فركضتُ باتّجاه قُلّة ماءٍ مربوطةٍ إلى شجرةٍ ظليلة، أدنيتُها من فمي ورحتُ أعبّ منها، قبل أنْ ينتبه لي أحدٌ، كنتُ قد ارتويتُ تمامًا، أعدتُها إلى مكانها وأنا أقول في نفسي: «النّاس شُركاء في ثلاثة، الماء والكلأ والنّار». قبل أنْ أضعها كان هناك عبدٌ يرمقني، لقد رآني، ولا أدري إنْ عرف أنّني مُتطفّل عليهم، خِفتُ أنْ يُمسكَني أو يشي بي إلى المُراقب، لكنّ نظرات عينيه الودودة أشعرتْني بالأمان، أشار برأسِه، فقرأتُ في إشارته: «اهربْ قبل أنْ يراكَ أحدٌ غيري». هربتُ، لكنّني ممتلِئ بالنّشاطِ والنّشوة.

مرّ اليوم الأوّل بسلام، كانت الكعكات قد انتهتْ في مساء اليوم الثّاني، نمتُ شاكِرًا لله، وتذكّرتُ أنّ على الله رِزقَ غدٍ فلم أقلق. صحوتُ، وصلّيتُ الفجر، ومضيتُ أنهبُ الأرض لأصل إلى ولايات الشّمال.

مضى أسبوعٌ وأنا في البراري، أمرّ بالمزارع مُتخفّيًا، فآكل ما يُقيتُ جسدي، وأشربُ ما يُمكّنني من المتابعة. بدا كلّ شيءٍ ممتِعًا، للحظةٍ شعرتُ أنّني حُرّ، وأنّ الحُرّيّة أنْ تفعل ما تريدُ بملءِ إرادتك، لا أنْ تفعل ما يريده سيّدُك أو نِظامه الّذي يحكمك. صرتُ أذرع الطّرقات - مع التّعب - كأنّني فراشةٌ تتنقّلُ في الحقول،

ونحلةٌ تمرّ بالزّهور. كلّ الصّعوبات الّتي واجهتُها من تشقّق القدمَين أحيانًا بسبب حجرٍ ناتِئٍ من الصّوّان، أو جرحٍ في الجسد بسببِ غصنٍ يابسٍ من شجرةٍ يعترضُ طريقكَ فجأة، أو صوتِ وحشٍ مُفترسٍ يتناهى إليكَ صوتُه من خلفَ أشجارٍ عملاقة، أو عُواء ذئبٍ يجرح هدأتك في اللّيل البهيم، كلّ ذلك تغلّبْتُ عليه، لم يكنْ شيئًا لأهتمّ به كثيرًا، قليلٌ من الحذر، مع كثيرٍ من التّوكّل على الله، تكون النّجاة.

في اليوم التّاسع أو العاشر، في صباح ذلك اليوم، وكنتُ أنام على جانب الطّريق، وكان ذلك خَطَئِي القاتل، أيقظتْني فوهة بندقيّة، كانت الفوّهة مُصوّبة إلى جبيني، وكانتْ في يدِ رجلٍ أبيض ومن خلفه ثلاثةُ رِجال آخَرين، عرفتُ على الفَور أنّهم من المُرتزقة الّذين يقبضون على العبيد الفارّين، صاحَ بي: «قِفْ أيّها العبد». وقفتُ رافِعًا يَدَيّ، وهتفتُ: «أنا حُرّ. لا تُطلِقِ النّار... لا تُطلِقِ النّار... أنا حُرّ». ضحك، وأعجبه خوفي، وكتم ضِحكته قبل أنْ يقول بغلظةٍ شادًّا على كلماته: «تقول إنّكَ حُرّ... أينَ صَكّ حُرّيّتك؟». رددتُ وأنا لا أزالُ أرفعُ يدَيّ: «لقد نسيتُه في المزرعة». «نسيتَه؟ ألا تعرف أنّ العبدَ إذا صار حُرًّا فلا يُسمَح له بالتّجوّل إلاّ ومعه صَكّ الحُرّيّة... والآنَ إذا كنتَ صادِقًا، فأبْرِزْ لي هذا الصّكّ...» ورفعَ بندقيّته من جديدٍ في وجهي. ولم أجدْ شيئًا لأقوله، فعاينني مرّتَين، قبل أنْ ينفجرَ ضاحِكًا: «تكذب، هههههه... تكذب أيّها العبد البائس... تكذب... أنتَ عبدٌ... لا يليق بمثلكَ إلاّ أنْ يكون عبدًا، أنتم أيّها العبيد مُخادِعون...»

ثُمَّ نظر إلى الرّجال الثّلاثة الّذين معه: «إنّه صيدٌ ثمينٌ، مئة دولارٍ في انتِظارِنا أيّها الرّجال، سوفَ نحظَى بكثيرٍ من المرح اليوم».

(٥٦)

الهُروبُ جَريمة

لَكمةٌ واحدةٌ كانتْ كفيلةً بأنْ أفقد الوعي، حُمِلتُ على ظهرِ جوادٍ مَغشيًّا عليّ، واستيقظتُ في السّجن، كان ذلك ظهر اليوم العاشر لهروبي، لا أدري كيفَ تصرّف السّيّد (جونسون) عندما عرفَ أنّني هربتُ، ولا أدري على مَنْ ألقى اللّوم هذه المرّة بعدَ أنْ فَشِلَ في القبض عليّ، ومَنْ ناله العذاب الأليم بسببي؟! كلّ ما أرجوه ألاّ يكون مَسّ أحدًا بسوء، فليس من ذنبٍ لأحدٍ.

فتّحتُ عينَيّ في السّجن، قال لي أحدُ العبيد السُّجناء: «مرحبًا بك، من أيّ مقاطعة أنت؟». «أنا من تشارلستون في كارولينا الجنوبيّة». أجبتُه. ابتسم. وسأل: «من أيّ مقاطعةٍ في تشارلستون؟». «لا أدري، أنا من مزرعة السّيّد (جونسون)». ابتسم ولم يقلْ شيئًا، سألتُه: «أينَ نحن؟». «في السّجن». «في أيّ سجن؟». «في سجن (فايتفل) في كارولينا الشّماليّة». «يااه... قطعتُ كلّ هذه المسافات لأُرمَى في السّجن!». «الحظّ السّيئ رفيق العبد الأسود». «لا تقل ذلك». «ستُحاكَم على الأغلب بعدَ يومَين أو ثلاثة». «أُحاكَم؟». «نعم». «على أيّ شيءٍ؟». «الهروب جريمة».

كان السّجن غرفةً واسعةً، لكنّها رطبة جِدًّا، قدّرتُ من النّوافذ العالية الصّغيرة أنّها تقبعُ تحتَ الأرض، ومن تلك النوافذ

بدتْ أرجلٌ كثيرةٌ تروح وتجيء. كانتْ أحذيتهم تدلّ على أنّ أكثرهم من رجال الشُّرطة. توقّعتُ الأسوأ، لكنّني فرحتُ مع ذلك لأنّني تخلّصْتُ من السّيّد (جونسون)، كانت المسافة بيننا كبيرة، لن يراني بعدَ اليوم.

في صباح اليوم الثّاني، أخذوني مُقيّدًا إلى قاعة المحكمة، كان أوّل وجهٍ أراه فيها هو وجه السّيّد (جونسون)، كدتُ أقع على الأرض من الصّدمة، اللّعين لحِقني إلى هنا!!

سألني القاضي الّذي كان يلبسُ لِباسَ الرّهبان، رداءً أسودَ فضفاضًا، وكان يُسرّح شَعره بطريقةٍ غريبةٍ، في دوائر مُلتفّة أسفل عنُقه، وكان حليقَ اللّحية والشّارب، وأصفر الوجه ممطوطًا، وعِظام ذقنه بارزةٌ تمامًا، وفي وسط تلك الذّقن الحليقة كان هناك تجويفٌ صغير: «هل السّيّد جونسون الّذي يقف عن يمين المحكمة هو سيّدك؟». أجبتُ: «نعم؟». «هل أنتَ مُذنِب؟». «لا». «يُمكنكَ أنْ تُوكّل محامِيًا إذا أردتَ، أو أنْ تُدافِعَ عن نفسك». «كيفَ أوكّل مُحامِيًا سيّدي القاضي، فأنا لا أملك سنتًا واحدًا». «المحكمة ستتولّى ذلك». طلبَ السّيّد (جونسون) الإذن بالكلام، فأذن له القاضي: «سيّدي، إنّ هذا العبدَ هربَ من مزرعتي قبل أكثر من عشرةِ أيّام، وإنّني لم أتبلّغ إلاّ أمسِ بإلقاء القبض عليه، وقد تسبّب بالفوضى في المزرعة، فلا أحدَ يستطيع أنْ يقوم بالأعمال الّتي يقوم بها، وإنّني قضيتُ منذ ليلة أمس على ظَهر جَوادي كي أحضر هذه المُحاكمة، وقد تعطّلتْ

أشغالي بسبب ذلك، كلّ ما أريدُه سيّدي القاضي هو...» ورفعَ القاضي الّذي كان يقرأ في الأوراق الّتي بين يدَيه وجهه، ثُمّ رفعَ النّظارة عن عينَيه، وأرعَى انتِباهه للسّيّد (جونسون) الّذي تابع: «كلّ ما أريدُه سيّدي أنْ يعودَ معي، هذا كلّ شيء». أخذَ القاضي النّظر فيه، ثُمّ فِيّ، ثُمّ أغلق الأوراق الّتي بينَ يديه، وأجّل المحكمة عشرةَ أيّام.

عُدتُ إلى السّجن. كانتْ جدران السّجن فارغة وباردة وتبعثُ على الألم. القيود تُؤلمني هي الأخرى، جرّها يُشبه جرّ أثقال الدّنيا كلّها وهمومها، فكّرتُ في هؤلاء البائسين الّذين أُلقِيَ عليهم القبضُ معي، كان أكثرهم من الهاربين من أسيادهم، كان الاستِماع إلى قصصهم فيها شيءٌ من الإلهام. مثلاً؛ أحدهم حاول الهرب أكثر من خمسين مرّة، استصغرتُ نفسي، ثلاث مرّات على مدى ربع قرن، إنّني لأكثر العبيد رِضًى بالذّلّ إذًا، قال لي: «أرى وجه أمّي يدعونني إلى الهرب كلّ مساء، لم أعدْ من عملٍ واحدٍ إلاّ رأيتُها تدعونني إلى الهرب، كانتْ أمّي أطيب النّاس قلبًا، وأكثرهم إيمانًا بإخوتها من السُّود، لكنّ الكلب اغتصبَها، وقتلها بعد أنْ اغتصبَها». ليس هناك شيءٌ مُبهج في قصص الهاربين، كلّها تطفح بالألم: «إنّني عملتُ ثلاث عشرةَ سنةً بأجر عشرين سِنتًا، أي خُمس دولار في اليوم، واشتريتُ بالمال الّذي جمعتُه حرّيتي، وقد كتبَ لي سيّدي صَكّ حرّيتي، وخرجتُ فَرِحًا من مزرعته، ولكنّهم اصطادوني بعد يومَين، وعندما عرضتُ عليهم صَكّ الحرّيّة قالوا لي إنّه مُزوّر، وكان يجب أنْ يظهر فيه ختم الولاية، ولم يُوثّق في سِجِلاّتها، وجاؤوا بي إلى هنا».

لو بقيتُ أستمع إلى قصص الهاربين، فلن ينتهي هذا أبدًا، القصص كثيرة، والآلام أكثر، والحزن يقطر من كلّ حرفٍ فيها. كان عليّ أنْ أفعل شيئًا آخر في هذا المكان، كان عددُ السّجناء في هذا المهجع قليلاً، عشرةُ سُجناء يزيدون أو يقلّون في اليوم واحِدًا أو اثنَين إمّا بدخول هاربٍ جديدٍ أو بخروجه، وكان يبدو أنّ هذا السّجن مكانُ توقيف لا قضاء محكوميّة، كما أنّني لم أكنْ أدري إذا كانتْ هناك مهاجع أخرى مثل هذا المهجع في سجن المحكمة هذه.

لم يكنْ هناك شيءٌ مُزعِج، باستثناء الخروج إلى المحكمة، والعودة أحيانًا بأحكام قاسية، كأنْ تكون الجَلد، أو الغرامة، أو... الشّنق، قد يكون الشّنقُ أسوأها في نظر كلّ مَنْ دخل السّجن، كان الشّنق يتمّ على العبيد الّذين هربوا وآذَوا سيّدهم أو رَجُلاً أبيض في هروبهم... غير أنّ أسوأ هذه الأحكام بالنّسبة لي كان أنْ يُعادَ الهارب إلى سيّده، إنّني قد أقبلُ بالإعدام، أو الجَلْد، أو الشَّبْح، أو... ولكنّني لا يُمكن أنْ أحتمل العودة إلى السّيّد (جونسون)، لقد كان مجرّد التّفكير في العودة إليه كابوسًا مُستمرًّا لا يُمكن الاستيقاظ منه!

في صبيحة اليوم الثّالث، وقبلَ أنْ تُعقَد المحكمة لبعضِنا، وقفتُ في وسط الغرفة، وقلتُ: «اسمعوني يا قوم...». نظَرَ إليّ بعضُهم مِمّن كان قد استيقظ، فيما تقلّبَ آخَرون على جنوبهم وهم ينامون على دِكَكٍ خشبيّة مُنزعِجين من صوتي، وهتفَ أحدهم: «لا تبدأ، نريدُ أنْ ننام». غير أنّني تابعتُ وأنا أرفع يدي: «أنا عمر... عمر بن سيّد، أنا من (فوتا تور) في بلاد ما بين النّهرَين في غرب إفريقيا، أنا مُسلم،

ومُتعلّم، وأعتقد أنّ أهمَّ سِلاحٍ يُمكن أنْ يحمله العبد ويواجه به الحياة وأخطارَها ليس المُسدّس، ولا السّوط، ولا البَلْطة، ولا السّيف... أهمّ سِلاحٍ هو العِلم... العِلم حرّيّة، وبمقدار ما تتعلّم بمقدار ما تتخلّص من عبوديّتك... وأنا مُستعدّ أنْ أُعلّمكم... هل تقبلون بذلك؟». مَطّ بعضُهم شفتَيه، فيما ظلّ آخرون ينظرون إليّ لا يُدركون مقصدي من وراء هذا الكلام، وبعضهم تقلّب منزعجًا وشخر يريدني أنْ أسكت. فيما تكلّم أحدهم، وقال: «إنّنا لن نمكثَ هنا طويلاً، سنغادر في غضونِ شهرٍ أو شهرَين أو أقلّ»، فرددتُ: «تمامًا، ولهذا يجب أنْ تتعلّموا، إنّها فرصةٌ ثمينةٌ لا تتكرّر، وبعضُنا ربّما سيُغادر بعدَ يومٍ أو يومَين من الآن، وسيكون مُفيدًا أنْ يتعلّم فيها بمقدار ما يُمكنه أنْ يتعلّم... هل تقبلون بذلك؟». قطَع الإجابة انفِتاح باب المهجع، حيثُ نادى الشّرطي بصوتٍ عالٍ: «فريدرك» لم يردّ أحدٌ، فصاحَ بصوتٍ أعلى مِنْ سابقه: «أين اللّعين (فريدرك)؟». فرأيتُ أحدهم لكزَ نائمًا برجله: «استيقظ... إنّهم يطلبونك». قام (فريدرك) من نومته سريعًا، قيّده الشّرطيّ على باب المهجع، وهو لا يزال يصيح: «ملاعين، تهربون من أسيادكم، وتنامون وقتَ محاكمتكم... لو كنتُ حاكِمًا لهذه الولاية، لأمرتُ أنْ يُعدَم كلّ زنجيٍّ يهربُ من سيّده دون مُحاكَمة...». وخرج.

بعدَ أنْ خرج، رفعتُ يدي من جديد: «أوّل شيءٍ يجب أنْ تتعلّموه، هو أنّ الله واحدٌ، خالقُ كلّ شيء، ومالكُ كلِّ أمر، ولا يحدث أيّ شيءٍ دون علمه، وقدّر السّماوات وأطباقَها، والأرض وأقواتَها».

كان صوتي هذا أوّل صوتٍ جديدٍ ربّما يسمعونه، أحسستُ أنّه غاصَ في بئرٍ عميقة، وظلّ يغوص دون أنْ يعثر على الماء أو يعثر على القاع، ولقد ضاع!

بدأتُ أرتّل لهم سورة الإخلاص، كنتُ قد قرأتُها بالعربيّة الّتي بدا أنّه لا أحدَ في المهجع يفهمها: «قل هو الله أحد. الله...» وقاطَعني صوتُ مِزلاج الباب الّذي فُتح من جديد، لِيُطلّ من خلفِه شُرطيّان، أحدهما يحمل سلّة الخبز، والآخر يحمل صَحفة الطّعام، وضعاها أمام الباب من الدّاخل، وأغلقا الباب، وراحا. تركني السُّجناء عند (الله)، وهُرِعوا جميعًا إلى الطّعام، كان نداء المعدة أقوى من نِداء العِلم، ومَنْ أرادَ أنْ يُعلّم فعليه أنْ يعلّم شِباعًا قبل أنْ يبدأ، أو أنْ يُقدّم الطّعام والشّراب بينَ يدَي درسِه.

شاركتُهم توزيع الطّعام، لم يكنْ هناك تزاحُم، كان الطّعام يكفي المرء ليلته، والقليل من الخُبز يُقيم الأوَد، وكلّ طعامٍ للجائع شهيٌّ، ولا يُطيّب الطّعامَ إلاّ العافية. وأكلْنا هنيئًا مريئًا، وشعرتُ بالنُّعاس بعدَ ذلك!

(٥٧)

إنّها العربيّة يا سيّدي

كان باب الزّنزانة أو المهجع قائمًا في أقصى الزّاوية الجنوبيّة، اتّخذتُ من الحائط الّذي يليه، والّذي يمتدّ أكثر من سبع أذرع لوحًا للكتابة، في الزّاوية المقابلة للباب حيثُ النّوافذ العالية، وجدتُ فحمًا كثيرًا، ولا أدري إنْ كان يُستَخدم في الشّتاء لتدفئة المهجع، أم أنّ هذا المهجع كان مخزنًا للفحم الّذي يُستخدَم لتدفِئة قاعة المحكمة ومُلحلقاتها في السّابق، ثُمّ حوّلوه إلى زنزانة، وبقي ما بقي من الفحم في تلك الزّاوية. وأيًّا كان سبب وجود الفحم، فلقد حظيتُ بالكثير منه لأكتب على الحائط، ولو استمررتُ في الكتابة عامًا كامِلاً لَمَا نفد ذلك الفحم!

قسمتُ الحائط الكبير إلى ثلاثة أقسام، كان القسم الأيمن للحروف العربيّة، والحروف الإنكليزيّة، والقسم الأوسط لتركيب الجُمَل منها، والقسم الأيسر لآياتِ القرآن، ومعانيها بالإنكليزيّة، لم أتكلّف في اليوم الأوّل سِوى كتابة الحروف باللّغتَين على القسم الأوّل، كانوا عشرة تلاميذ مساجين، وكان الأمر طريفًا وجديدًا بالنّسبة لهم، ولقد وجدتُ اهتِمامًا منهم وإنْ كان مُتفاوِتًا، ولم ألحظ إلاّ عبدًا واحِدًا كان ضعيف البصر لم ينضمّ إلى مجموعتنا وإنْ راحَ يُتابِعنا من بعيد.

هَيّا أيّها الإخوة الرّائعون، ردّدوا ورائي... وتحوّل ترداد الحروف إلى نشيدٍ، وكان النّشيد طاقةً تتفجّر في أعماقهم، فشدّهم ذلك إلى التّعلّم، كانوا يُفرّغون بالصّوت العالي كمّيّة من الهمّ والحزن والذّكريات والألم المتخثّر في أعماقهم. إنّنا نبرأ من جِراحنا برفع الصّوت؛ جراح الجسد وجِراح الرّوح، هَيّا لا تتوقّفوا، أسمِعوني صوتكم عاليًا، اصدَحوا بحروف العربيّة الجميلة، أنشِدوا معي إيقاعَها العذب، ولا تقولوا إنّكم لا تحتاجون ذلك، ولا تستمتعون به، إنّني أرى بريقَ السّعادة في أعينكم يُنيرُ ظلام هذا المكان!

كانوا يردّدون بحماسةٍ كأنّهم ذاهِبون إلى معركة، لقد كان عددهم القليل دافِعًا لي لكي أستمرّ، استمرّ نشيدُ الحروف وحدها يومَين، كان قِسم الحروف مقسومًا هو الآخَر بشكلٍ هندسيّ إلى قسمين، وكلّ حرف من حروف العربيّة والإنكليزيّة يأخذُ مساحةً متساوية، فلقد حرصتُ على أنْ يكون المنظر أنيقًا، والمسافات بين الحروف متساويةً تقريبًا، وكنتُ أنظر أفقيًّا بعيني على امتداد الحائط مُلصِقًا خدّي على أوّله من أجل أنْ تكن الأسطر أفقيّة ليس فيها اعوِجاج ولا هبوط أو صعود، كأنّها مِسطرة. وقد شجّعهم المنظر على التّعلّم بشغف.

في اليوم الثّالث، صرتُ أكتب كلماتٍ على القسم الثّاني، وأشير بإصبعي إلى كلّ حرفٍ في القسم الأوّل الّذي تتكوّن منه الكلمة في القسم الثّاني، لقد مكّنني الحائط الكبير الفارغ من أنْ أكتبَ بحرّيّتي، وأنْ أنتقل بين الكلمات والحروف بحريّتي، وأنْ نردّد أنا وهم تلك

الحروف والكلمات بحريّتنا، وكأنّ تلك الحرّية الصّغيرة كانتْ تعويضًا عن حرّيتنا الكبيرة المفقودة، وكأنّ ذلك الفضاء البسيط كان تعويضًا عن فضائنا الحقيقيّ الممتدّ امتداد السّماء.

صار سهلاً بعد أنْ عرفوا تركيب الحروف، أنْ أنتقل في اليوم الخامس إلى تركيب الجمل، كان القسم الثّالث الأيسر قد خصّصْتُه للجمل الطّويلة وللنّصوص. أوّل شيءٍ كتبتُه في الأعلى هو سورة الإخلاص، كتبتُها بخطّ أنيق، باللّغة العربيّة الأشدّ أناقةً: «قل هو الله أحد. الله الصّمد». وأبرزتُ لفظَي الجلالة من خلال كتابتهما بحجمٍ أكبر، ومن خلال النّبر عليهما بشكلٍ أقوى، وبعدَ أنْ ردّدوها ورائي، شرحتُها لهم بالإنجليزيّة، ثُمّ قضينا ساعةً كامِلةً نترنّم فقط بلفظ الجلالة، أقول: «يا إخواني... معًا: الله..». فيردّدون: «الله» فأعيد: «الله... الله...» فيُردّدون: «الله... الله...». وذُبْنا في اللّفظ ورفعْنا عقيرتَنا بالصّوت حتّى اهتزّتْ جُدران السّجن.

وكانتْ ثاني سورةٍ أكتبُها هي سورة النّصر: «إذا جاء نصر الله والفتح». وطَرِبوا الذكر الله، فردّدوا مُرنِّمين. ومن بعدها انتقيتُ لهم من السّور قِصارَها، وذات الإيقاع العذب، والسّورُ القِصارُ كُلُّها كذلك. وخرج أحدُنا في اليوم الرّابع، وبكى بُكاءً حقيقيًّا، لم يبكِ على أنّه سيُعاد إلى سيّده، بل كان قد اندمج في التّعلّم، إذ إنّه وُلِدَ في هذه البِلاد الّتي تُحرّم على العبد أنْ يتعلّم حرفًا واحِدًا، بل كانتْ تنصب له المِشنقة إذا عرفتْ أنّه يفعل ذلك. اليوم قتلْنا الخوف، وتعلّمْنا، اليوم ماذا يفعلون بِنا؟! إنّنا نتوقّع كلّ شيءٍ؛ الجلد، الشّنق، القتل

بالرّصاص، العودة إلى القيود، الموتُ تحتَ عَجلات العربة الحديديّة، الحَرق، لكنّنا نتعلّم، وإذا كُنّا ذاهبين إلى هذه المآسي، فلْيكنْ معنا زادٌ من العِلم، إذ بالعِلم يُمكن أنْ نتحرّر.

القسم الأوّل من الحائط وهو الأيمن والّذي يضمّ الحروف العربيّة والإنكليزيّة، ظلّ قائما دون أنْ يُمحَى، في حينَ مُحِيَ القسم الأوسط والقسم الأيسر حتّى الآن أكثر من عشر مرّات في الأسبوع، وخلال هذا الأسبوع كُنّا نمحو الكلمات والجُمَل المكتوبة بالفحم الأسود بثيابِنا، حتّى تحوّل لونُ ثيابنا إلى لوننا، سوادٌ في سواد، ولكنّ نور العِلم كان يملؤنا بسعادةٍ لا تُوصَف.

كتبتُ في اليوم الثّامن، عبارة عمر بن الخَطّاب: «متى استعبدْتمُ النّاس وقد ولدَتْهم أمّهاتُهم أحرارًا». وأفهمْتُهم أنّ الإنسانَ يولدُ حُرًّا، وليس لسيّدك أنْ يستعبدك، ولا أنْ يملكك، ولا أنْ يتصرّف بكَ كأنّك إحدى مواشيه، كان بالطّبع هذا كلامًا خطيرًا، ولم يعتادوا أنْ يسمعوه، ولربّما ارتعشَ بعضُهم في البداية لّما سَمِعَه من الخوف، لكنّهم وجدوا فيه متعةً بعدَ ذلك، ورأوا أنّه يُعبّر عن غريزتهم الّتي رَكَزَها الله فيهم، وفِطرتَه الّتي خَلَقهم عليها، فلا أحدَ يُحبّ أنْ يعيشَ عبدًا، وصارتْ كلماتي نشيدَ ثورتهم الدّاخليّة، وشعرتُ أنا بشيءٍ من السّعادة، ووجدتُ بالفِعل أنّني أقومُ بعملٍ ثوريّ، لكنّني لا أحملُ سِلاحًا ولا أقتل أحدًا، غير أنّني أعلّم النّاس، ولم تكنْ هناك ثورةٌ أسمى من ذلك!

في الجـدران المُتبقّيـة، وبالفحـم الكثـير، كتـبَ عـددٌ مـن العبيـد لفـظ الجلالـة، وراحـوا يُمارِسـون حُرّيّتهـم في الكتابـة على الجـدران، وكانوا يغرقـون في الضّحـك مُبتهجين بـما كتَبـوا، ولم يبقَ شـبرٌ من الجـدران إلاّ خَـطّ عليـه أحدُنـا شـيئًا، وجمعتُهـم في ليلـة اليـوم العـاشر، وقلـتُ لهـم: «غـدًا سـيكون النُّطـقُ علـيّ بالحُكـم، وقـد أعـودُ إلى هنـا وقـد لا أعـود، القـاضي سيُقرّر ذلـك، وأنـا أريـدُ أنْ أودّعكـم، لكنّـني قبـل أنْ أوَدّعكـم، أريـدُ أنْ أدعوكـم إلى أنْ تؤمنـوا بـالله الواحـد الأحـد، وتتوجّهـوا إليـه في صَلَواتكـم، إنّنـا ننجـو بهـذا الدّيـن الّـذي ارتضـاه ربّ البشـر للبشـر؛ إنّـه ديـن العدالـة والحرّيّـة، إنّـه الإسـلام».

في الأيّـام العشـرة السّـابقة خـرج مـن هنـا إلى المحكمـة ثلاثـةٌ مِنّـا ولم يعـودوا، كان الشّرطـيّ الّـذي يدخـل إلى المهجـع لأَخْـذ كلّ واحـدٍ، ينظـر إلى الحائـط المكتـوب عليـه، ثُـمّ إلى الجـدران المُعبّـأة بسـواد الفحـم، ويهـزّ رأسـه مُتعجّبًـا، لم أدرِ أنّـه نقـلَ ذلـك إلى قريبـه الّـذي يعمـل نائبًـا لرئيـس المحكمـة.

في الصّبـاح جـاء الشّرطـيّ، ومعـه نائـب رئيـس المحكمـة الّـذي عرفـتُ فيـما بعـد أنّ اسـمه (بـوب)، وكان رجـلاً مُهذّبًا، طـافَ في الأرجاء، ورأى الجـدار الّـذي أعلّـم عليـه المساجين، وبـدا أنّـه أعجبـه، سـأل: «مَنْ كتـب هـذا؟» فقلـتُ: «أنـا». «أنـتَ؟». «نعـم». «إنّهـا لغـةٌ غريبـةٌ». «إنّهـا العربيّـة يـا سـيّدي، لغـة كتابنـا المُقـدّس نحـن المُسـلمين». «إنّكـم تكتبونهـا مـن اليمـين إلى اليسـار؟!». «نعـم، سـيّدي». التـفـّ لينظـر إلى الحائـط الّـذى خلفَـه، وسـأل: «وهـذه؟». أجابَـه غـير واحـدٍ مِنّـا: «أنـا... أنـا...

أنـا...». «وأنتـم مُتعلّمـون كذلـك؟». «لا، تعلّمْنـا هنـا؟». «هنـا؟». «نعـمْ، هـو علّمَنـا». هَـزّ رأسَـه وهـو يعقـد ذراعَيـه عـلى وسـطه، وطلـبَ مـن الشّرطـيّ أنْ يُنـادي عـلى العبـد الّـذي حـانَ وقـتُ محكمتـه، فنـادى الشّرطـيّ: «ماريـان... ماريـان..». فقلـت: «نعـم». سـأل (بـوب): «ألم تُقـل قبـلَ قليـل إنّ اسـمكَ عمـر؟». «عمـر هـو اسـمي الحقيقـيّ، سيّدي هـو الّـذي يُناديني بِـ (ماريـان)، ولكنّـي لسـتُ (ماريـان) ولـن أكـون، ولـولا إجـراءات المحكمـة لمـا اعترفـتْ بالاسـم». «يبـدو أنّـكَ جـريء، جـريءٌ جِـدّا». «أنـا لا أقـولُ شـيئًا أكثـر مِمّـا يجـب أنْ أقـول».

خرجْنـا ثلاثتنـا مـن البـاب، اسـتبقاني الشّرطـيّ في البهـو الّـذي يسـبق قاعـة المحكمـة ريثـما تنعقـد، ثُـمّ دخلْنـا، تفاجـأتُ بـأنّ (بـوب) الّـذي زارنـا في الزّنزانـة يجلـسُ عـن يمـين القـاضي رئيـس المحكمـة، وكان هنـاك نائـبٌ آخَـر يجلـسُ عـن يسـاره، وكان السّـيّد (جونسـون) حـاضِرًا ومعـه رجـلٌ أبيـض آخَـر أراه لأوّل مـرّة، طلـبَ منّـي الرّئيـس أنْ أقـف، وقفـتُ، ووجّـه إليّ التّهمـة الآتيـة: «أنـتَ مُتّهـم بالهـرب مـن مزرعـة السّـيّد (جونسـون)، هـل تعـرفُ عقوبـةَ ذلـك؟». وقفـتُ عـلى منصّـة المتّهمـين، وسُـمِحَ لي بالحديـث: «قبـل أنْ أعـرفَ عقوبـة العبـد الهـارب، ألا تريـدُ أنْ تعـرفَ لمـاذا هربـتُ؟ إنّ السّـيّد (جونسـون) رجـلٌ لا يعـرفُ الله، قتَـلَ العديـد مـن عبيـده، وأحـرقَ بعضَهـم، واغتصـبَ النّسـاء في مزرعتـه، وارتكـب أفظـع الفواحـش والمُوبِقـات، ولقـد عانيـتُ أنـا منـه وتحمّلـتُ مـا لا طاقـةَ للجِبـال بِحَمْلـه، أليسـتْ هـذه مُوجِبـاتٍ للهـرب؟ ولـو كان السّـيّد جونسـون يُعاملنـا معاملـةً حسـنةً لوجـد منّـا الطّاعـة،

ولعرفَ أثر هذه المعاملة على الإنتاج، إنّ السّادة البِيض لا يُدركون أنّ الشّدّة والقَسوة تجعل العبد يعمل بدافع الخوف لا دافع الواجب، فيأتي الأمر وهو غير مطمئنّ ولا مُرتاح، فيُوهِنُ بذلك بدَنه، فيقصّر في الإنتاج، ولو وجد العبدُ من سيّده ما يجعله مُطمئنًا، لعمل العبد بدافع الواجب، ولأنتجَ ما تقرّ به عينُ سيّده، ودَفَعه ذلك إلى المزيد».

وسكتُّ، وقد بدا العَجَبُ على وجه القُضاة الثّلاثة، ثُمّ سُمِحَ للسّيّد (جونسون) بالحديث، فقال: «إنّ عَبِيدي يا سيّدي يحظَون بما لا يحظَى به العبيدُ في المزارع الأخرى، إنّهم يعملون أقلّ مِما فرضه قانون الولاية، ويحصلون على طعامٍ وفير، وعلى مبيتٍ آمن، وهذا العبد بالذّات هربَ مرّتَين قبل هذه المرّة وسامحتُه، ولم أُوقِعْ به أيّة عقوبة، وتوقّعتُ منه أنْ يُقدّر لي هذا الجميل، فلا يهرب، ويكون عبدًا مُطيعًا، ولكنّه أنكَره ورَكَله برجلَيه، وإنّ كلّ ما قالَه هذا العبد الآبق كَذِبٌ في كذب». فوقفتُ وقد انتفضتُ مِنَ الغضب: «أنا لا أكذب يا سيّدي، إنّه هو الّذي يكذب»، ونزعتُ عنّي ثِيابي على الفَور وأدرتُ لهم ظَهري، وقلتُ لهم: «انظروا، إنّ عُمُر هذه السّياط أكثر من عشرين عامًا، ولا تزال آثارُها على جسدي، إنّ عيونكم من بُعيد لن تُخطِئ رؤية الأخاديد الّتي تغوص في لحمي رغم مرور هذه السّنواتِ كلّها، وإنّ السّيّد (جونسون) قد ألقاني في (الصّندوق السّاخن) خمسةَ أيّام حتّى رأيتُ الموت في اليوم ألفَ مرّة، وإنّني...» فقاطعني رئيس المحكمة، وضربَ بمِطرقته أمامه لأسكت، فسكتّ، ثُمّ إنّه رفعَ الجلسةَ للتّشاور.

أُلقِيتُ في قفص المحكمة، ريثما يدخل القُضاة مرّة أخرى، ونادَى الكاتب: «محكمة» فوقفْنا جميعًا، وقرّر القاضي: «لقد تبيّن للمحكمة المُوقّرة أنّ العبد (ماريان) مُذنب، ولهذا حكمْنا عليه بأنْ يُجلَد مئة جلدة تنفّذها شُرطة المحكمة، ويُغَرّم مئةَ دولار، ويُعادُ إلى سيّده».

لم يكنْ أسوأ من الجزء الثّالث في هذا القرار، لو اكتفى بالجلد والغرامة الّتي لا أملكها لكان الأمر أهون، لكنّ العودة إلى السّيّد (جونسون) كانت تعني ما هو أفظع من الموت، بكيتُ في أعماقي، وانكمشتُ على نفسي.

(٥٨)

لا تَجمَعوا على أنفسِكم عُبوديّتَين!

أعادوني إلى المهجع بحلول الظّهر تقريبًا، أخبرتُ زملائي في الزّنزانةِ بما حدث، توقّعتُ أنْ يأتوا في لَحَظاتٍ لتنفيذ الحُكم، لكنّ الأمر استمرّ أسبوعًا كامِلاً، لم يُنفّذ فِيّ شيءٌ، ولم أُجلَدْ، ولم أخرج من هنا، ولم أعرفْ ماذا يحصل، ولكنّني عرفتُ فيما بعدُ أنّ أحدًا من الّذين حَضروا الجلسة وهو مُحامٍ، ولا أدري إنْ كان هو الّذي عيّنَته المحكمة أم لا، قد قدّم استِئنافًا للحُكم؛ فهل يُمكن أنْ تنجو الطّريدة؟!

عُدتُ إلى تعليم العبيد، وكتبتُ آيةً هذه المرّة على الحائط بخطّ جميل، كنتُ أيّام (تُوبا) قد تدرّبْتُ عليها مِرارًا: «قُلْ هل يستوي الّذين يعلَمون والّذين لا يَعلَمون». وطلبتُ من كلّ واحدٍ منهم أنْ يكتبوا على حِيطانهم: «أنا حُرّ... إنّني أطلبُ شيئًا واحِدًا في هذا العالَم؛ أنْ أكونَ حُرًّا، هل هذا كثير؟!». وفكّرتُ: «ماذا لو كانت الحرّيّة الّتي نسعى إليها تعرفُ ذلك، ولكنّها لا تَسعى إلينا ولا تُريدُنا؟!».

في حديقة حاكم الولاية، على مائدة عشاءٍ طافحةٍ بأطايب الطّعام، وبالمُسكِرات من كلّ نوع، كان السّيّد (جيم أوين) شقيق الحاكم يُصغي إلى (بوب): «لقد رأيتُ في المحكمةِ عَجَبًا». ردّ (جيم): «المحكمةُ كلّها عجائب». «لكّن هذه العجيبة من نوعٍ مُختلف!».

«ماذا رأيتَ يا (بوب)، يبدو أنّكَ أثرْتَ فُضولي؟». «لقد رأيتُ عبدًا حكم القاضي عليه بالجلد والغرامة وأنْ يعود إلى سيّده أمس». «وما العجيب في هذا يا (بوب)، يبدو أنّه فاتني أنْ أنتبه؟!». «إنّ هذا العبد ذَكِيّ، مُتعلّم، يكتب بلغةٍ غير مفهومة، وبخطٍّ عجيبٍ آيةً في الأناقة والجَمال». اعتدل السّيّد (جيم أوين)، وقال بصوتٍ فيه استِغراب: «تقول لي إنّه عبد؟». «نعم». «وإنّه يكتب بلغةٍ غير مفهومة؟». «نعم سيّدي». «وإنّه ذكيّ؟». «نعم يا سيّدي». «ومتى كان العبيد يعرفون القراءة والكتابة؟ وهل يُمكن لمن خلقَ الله له عقلاً قاصِرًا أنْ يكون ذكيًّا؟!». «ليسَ الخبرُ كالمعاينة يا سيّدي؟». «ماذا تعني؟». «لقد دافعَ عن نفسِه في المحكمة بلغةٍ بليغةٍ لم أرَ عبدًا يتكلّم بحرفٍ منها، وبمنطقٍ لا يتفوّه به إلاّ أهل المنطق». «وتعني ذلك يا بوب؟». «لقد قلتُ لكَ إنّني رأيتُ عَجَبًا». كان السّيّد (جيم أوين) قد أمال الكأس ليشرب، ولكنّه أوقفها قبل أنْ يضعها بين شفتَيه، وأهبطَها قليلاً، وسأل: «وقلتَ لي إنّ رئيس المحكمة قد حَكَم عليه، فهل نُفِّذ الحُكم؟». «لا». «ولماذا؟». «لأنّني طلبتُ من المحامي الّذي عيّنَته المحكمة أنْ يُقدّم استِئنافًا للحُكم». «وهل تبيّنتْ نتيجة الاستِئناف؟». «لا، ما زال أمامَنا بعضُ الوقت». «وفي هذه الحالة؟». «ماذا؟». «أعني، هل يُمكن أنْ أراه؟». «بالطّبع، يُمكن لأيّ مواطنٍ أمريكيّ أنْ يزور أيّ سجين». «لقد دفعني الفُضُول لرؤيته». «سأرتّب لكَ ذلك».

زارنا السّيّد (جيم أوين) برفقة السّيّد (بوب) في السّجن في اليوم الرّابع لحُكم المحكمة، نَهضْنا جميعًا على أرجلنا عندما علمْنا

أنّ نائب رئيس المحكمة، وشقيق حاكم ولاية كارولينا الشّمالية في مهجعنا، قال له (بوب): «إنّه هناك». وأشارَ إليّ، كان في تلك اللّحظة ينظر إلى الحائط الّذي أكتبُ عليه، كنتُ قد مسحتُ القسم الثّاني الأوسط والثّالث الأيسر، وملأتُهما بالآيات العشر الأولى من سورة الكهف، والآيات الأخيرة من سورة إبراهيم، وظلّ السّيّد (أوين) ذاهِلاً عنّي بما كتبتُ، توقّف أمام الكلمات مدهوشًا، ظلّ يتأمّلها زمنًا، ويقتربُ من العبارات، ثُمّ يبتعد خُطوةً، ويحكّ ذقنه، وأخيرًا سألني عن أوّل آيةٍ كتبتُها في القِسم الثّالث، وكنتُ قد ميّزتُ لفظَ الجلالة فيها على عادتي، وطلبَ مِنّي أنْ أقرأها، فقرأتُها بترتيلِ صَلَوات القِيام في (تُوبا)، وكانت الآية تقول: «ولا تحسبنّ الله غافِلاً عمّا يعمل الظّالِمون». وطلبَ منّي أنْ أشرحها له بالإنكليزيّة، ففعلتُ، فرجفَ، وخرجَ مُضطرِبًا خائِفًا، وكنتُ من قبلُ قد شرحتُها لزملائي من السّجناء فوجدوا فيها عَزَاءً وناموا ليلتها مُطمئنّين!! فهل تفعل الآيةُ في العبدِ غير الّذي تفعله في الحُرّ؟!

ظلّ السّيّد (بوب) يلهثُ وراء السّيّد (جيم أوين) خارِجًا من المهجع، عابِرًا ساحة المحكمة، ثُمّ إلى عَرَبته: «اصعدْ يا (بوب)... اصعدْ...» صعد (بوب) في العربة إلى جانبه وهو يلهث: «ماذا دهاكَ يا سيّدي؟». «أريدُ أنْ أعرفَ من النّاحية القانونيّة، قبل أنْ تُنفّذ المحكمة الحُكم، هل يُمكنني أنْ أشتريه من مالكه السّابق؟». «لا يا سيّدي، ولكنّها يُمكن أنْ تُحيل أمر تنفيذ العقوبة إلى المالك الجديد». «تعني، نستطيعُ شِراءَه، وننفّذ نحن فيه أمر الجَلْد». «تمامًا، وتدفع

لمالكه القديم الغرامة بالإضافة إلى سِعره». «إذًا اشتَرِه لي بأيّ سعرٍ يطلبه مالِكُه السّابق غدًا، ولا تتأخّر».

كثرتْ زيارة السّادة، هكذا حدّثتُ نفسي وأنا أرى وجه السيّد (بوب) للمرّة الثّالثة، وتابعتُ:«هل أحبّوا الخطّ العربيّ؟». «تعال إلى هنا يا (ماريان)». اقتربتُ: «أنا عمر...». «نعم يا عمر، إنّ السّيّد (جيم أوين) الّذي زاركَ هنا أمسِ يريدُ أنْ يشتريك من السّيّد (جونسون)، فهل تقبل؟». دارتْ بي الأرضُ من الفرحة، أخيرًا سأتخلّص من وجه هذا الفاجر الفاسق، أخفيتُ شعوري العارم بالفرحة، وسألتُه ببراءةٍ مُصطَنَعة: «وهل لِيَ خَيار؟». «إنّ السّيّد (جيم أوين) خيّرني». «ولكنْ أنا لديّ عائِلة». «عائلة؟». «نعم، إنّهم ما زالوا عبيدًا للسّيّد (جونسون) ويسكنون في مزرعته». «كم عددهم؟». حسبتُ أعدادَهم في ذهني بسرعة، وهتفتُ: «اثنا عشر عبدًا، خمسة ذكور، وسبعة إناث». حَكَ ذقنه: «امممم... عليّ أنْ أرجع إلى السّيّد (جيم)». وغادر السّجن.

مرّتْ ثلاثةُ أيّامٍ على تلك الزّيارة الّتي رأيتُ فيها بصيصَ الأمل، خفتُ أنْ أكون قد تماديتُ، ولقد قال لي كلّ العبيد الّذين سمعوا الحِوار مُنكِرين: «إنّكَ تتصرّف كسيّد» فقلتُ لهم: «ومَنْ قال لكم إنّني لستُ كذلك، بل مَنْ قال لكم إنّكم لستُم كذلك؟ إنّنا أحرار... أحرار يا سادة... لا تنظروا إلى هذه الجُدران الّتي تحبسنا، ولا إلى تلك الأغلال الّتي تُقيّدنا، ولا إلى تلك السّياط الّتي لا تُفارِق ظهورنا... بل انظروا إلى قلوبِنا... نحنُ أحرار بالفِطرة... نحنُ أحرار

بالوِلادة... حَرِّروا عقولكم يا إخوتي إنْ لم تتحرّر أجسادُكم، أتريدون أنْ تجمعوا على أنفسِكم عبوديّتَين؟!». وهاجوا من بعدِها وماجوا.

استطال غِياب السّيّد (بوب)، وخشيتُ أنْ يكون قد عَدَلَ السّيّد (جيم) عن نيّته في شِرائي وتخليصي من السّيّد اللّئيم (جونسون)، أو أنّ السّيّد (جونسون) قد طلبَ مالاً كثيرًا فِيّ وفي العبيد الآخرين لا قِبَل للسّيّد (جيم) بِدَفْعِه، أو أنّ السّيّد (جونسون) رَفَض أنْ يبيعني حتّى ولو دفعوا له مالاً كثيرًا لأنّه يُريد إبقائي عنده لِيُبالِغ في إيذائي وإذلالي بعدَ أنْ تحدّيتُه، وكذّبْتُه أمام الجميع في المحكمة... وراودَتني هواجسُ كثيرةٌ، وتمنّيتُ لو أنّني لم أُبالِغْ ورضيتُ بشرائي وحدي، والطّلب من سيّدي الجديد السّماح لي بزيارة عائلتي مرّة في العام... لقد كنتُ مُستعدًّا أنْ أُباعَ للشّيطان على أنْ أظلّ عند السّيّد (جونسون)، أمّا الآن فيبدو أنّ الأقدار ستُعيدني إليه... وبقيتُ في بحر تلك الهواجس غارِقًا حتّى مساء اليوم السّادس.

دخل السّيّد (بوب) ومعه صَكّ شرائي الجديد، وقال لي: «هَيّا». ودّعتُ زُملائي، وأبقيتُ على كلماتي مكتوبةً على جِداري، وطلبتُ منهم أنْ يُحافِظوا على شُعلة التّعليم ألاّ تنطفِئ؛ السّجين القديم يُعلّم السّجين الجديد.

في الطّريق ركبتُ إلى جانبِ السّيّد (بوب)، شعرتُ بسعادة الحُرّيّة، لم يكنْ لعبدٍ أسود أنْ يجلسَ إلى جانبِ حُرّ أبيض من قبلُ، ومَنْ يكون هذا الحُرّ؟ إنّه نائب رئيس محكمة كارولينا الشّماليّة، كان

الجـوادَان الأسـودان ينهبـان الأرضَ أمامَنـا، سـألتُه: «ولكنّنـي لا أرى عائلتي معنـا». «لا تقلق». «هـل اشـتراهم السّـيّد (جيـم)؟». «نعـم، لقـد عانَـى كثـيرًا». «أَمِـنْ أجـل ذلـك تأخّـرتَ حتّـى عُـدتَ إليّ؟!». «نعـم». «والآن؟». «والآن مـاذا؟». «مـاذا سـيحلّ بهـم؟». «لقـد سَـبَقوك إلى مزرعـة السّـيّد (جيـم)، لقـد رَهَـنَ السّـيّد (جيـم) محصـول مزرعتَيـن لـه في القُطـن عـلى مـدى عامَـين مقابِـل شِراء عائلتـك الـ...» وتوقّـف عـن إكـمال جُملتـه، كان يبـدو عليـه أنّـه منزعـجٌ مـن ذلـك، وأكمـل مُتأفّفًـا: «إنّهـم ليسـوا عائلـة، إنّهـم مقاطعـة، هـل هنـاك عائلـة تتكـوّن مـن ثلاثـة عـشر فـردًا؟». ضحكـتُ في داخـلي، وغمرتْنـي أمـواجٌ مـن السّـعادة، وأردفـتُ: «إنّهـم مُرشّـحون للزّيـادة، ثُـمّ إنّ السّـيّد (جيـم) لم يشـترهم ويُعتقهـم، إنّهـم أصبحـوا عبيـدًا لـه». نَظـرَ هـذه المـرّة في وجهـي، وبـدتْ في وجهـه رغبـةٌ عارِمـةٌ بصفعـي، وقـال بغيـظ: «إنّـكَ وَقِـح». تابعـتُ كأنّـه لم يقـلْ شـيئًا: «(أمانـدا) مثـلاً أرضٌ خصبـة، تُنتـج في كلّ عـامٍ زرعًـا جديـدًا، وأختهـا (إميـلي) لا بُـدّ أنّهـا تزوّجـتْ هـي الأخـرى أو عـلى وشـك ذلـك، وأبنـاء (أمانـدا) لـن يطـول بهـم الأمـر حتّـى يتزوّجـوا، وينجِبـوا لنـا المزيـد...». لم يقـل السّـيّد بـوب شـيئًا، ظـلّ صامِتًـا يحثّ الجـوادَيـن عـلى الإسراع، كانـتْ أصـواتُ أقـدامِ الجـوادَيـن تُعيدانني إلى ذكريـاتٍ قديمـة، إلى وطـنٍ بعيـدٍ، وإلى أُسرةٍ لـن تعـود.

كـسرتُ حاجـز الصّـمتِ بيننـا، وسـألتُه: «قُـلْ لي سـيّد بـوب؟». فقاطعنـي: «أووفـف، لم أدرِ أنّـكَ ثرثـارٌ عـلى هـذا النّحـو». سـألتُ مـن جديـد: «قـلْ لي يـا سـيّد (بـوب) لمـاذا انصـاع رجـلٌ مثـل السّـيّد (جيـم)

لرغبتي، وقَبِل أنْ يشتري العائلة بأكملها؟». نظر إليّ وهو يهزّ رأسَه مُتأسِّفًا: «والله لقد سألتُ نفسي هذا السّؤال خلالَ اليومين الفائتَين مئة مرّة». قلتُ له: «وهل وجدتَ الإجابة؟». هزَّ الجوادَين ولم يَفُهْ بكلمةٍ، فيما رحتُ أنا أجولُ بنظري في الأنحاء وأنا طَرِبٌ من السّعادة.

(٥٩)

العبوديّة أبشع أنواع الظُّلم

كانت مزرعة السّيّد (جيم) تقع قرب نهر (كيب فير) في مقاطعة (بلادن) في ولاية كارولينا الشّماليّة، داهمتني رغباتٌ كثيرةٌ، ومشاعر فيّاضة، وهاجمني جيشٌ من الدّموع وأنا أتخيّل نفسي قد تخلّصتُ من السّيّد (جونسون)، بل إنّني لم أرَ وجهه خلال إتمام صفقةٍ بيعي لسيّدي الجديد.

كان البيتُ قصرًا مُنيفًا، ساحة خضراء، ممتدّة، مُعتنَى بها، وسياج من الأصص يمتلئ بالورود ثرثارة الألوان، كان المنزل مبنيًّا من الحجر، في مدخله يقوم عمودان أسطوانيّان حجريّان، ويرتكز عليهما مُثلّث حجريّ، مزخرف بالنّقوش، وبالتّماثيل الصّغيرة، وتنبسطُ أمام البيت مساحةٌ خضراء أخرى قد اعتنى بها البُستانيّ بأشدّ مِمّا اعتنى بالسّاحة الكبيرة، وفي أقصى هذه الحديقة المنزليّة عن يمينه وشِماله تقف شجرتان عِملاقتان ترتفعان أعلى من البيت العالي، وتمدّان ظِلالَهما فيشعر الرّائي بالرّاحة وببرد الظّلال، وساقُ كلّ شجرةٍ لو لففتُ عليها ذِراعَيّ لَمَا أحطتُ بنصف مُحيطها. وكان هناك درجٌ يصعد إلى أوّل المنزل، وكان عدد الدّرجات ثماني درجات، وعلى جانبي الدّرجات درابزين من الحجر، وفي أوّل الدّرابزين عمودٌ حجريّ من كلّ جهة، وفوق قاعدة كلّ عمود من الأعلى يربضُ

تِمثالان بدا أنّهما لِملائكة أو قِدّيسين أو رجال كنيسة، لستُ أدري على وجه الدّقة.

أخذني السّيد (بوب) إلى الكوخ الّذي من المُفترَض أنْ تكون فيه عائلتي قد سبقتني إليه، كان الكوخ ضمن أكواخ العبيد، وكانتْ تقع على صَفٍّ واحدٍ متناسقٍ مجموعةٌ من تلك الأكواخ تصل إلى عشرةٍ أوتزيد، وبينها وبين منزل السّيّد (جيم) مسافةٌ كبيرة تزيدُ عن ستّمئة ذراع، على الباب من بعيد شاهدتُ العمّة (تيري)، و(دانيال)، كان الوقتُ عصرًا، ولا بُدّ أنّهما خرجا أمام الكوخ لاستِقبالي، نزلتُ من العَرَبة قفزًا، قبل أنْ أسمعَ السّيّد (بوب) يقول لي: «سأمرّ بك في أوّل اللّيل لاصطِحابِك إلى السّيّد (جيم)، إنّه يريدُ أنْ يراك». على الباب كدتُ أصيحُ من الفرحة، عندما شاهدتُ العمّة (تيري) تبدو بصحّة جيّدة، وكذلك (دانيال)، يبدو أنّ يد الأثيم (جونسون) لم تمسّهما. تعانقْنا، سألتُها إنْ كانتْ أحضرتْ معها سِجّادة الصّلاة الّتي صنعتُها؟ فردّت: «لقد أحضرتُ كلّ شيءٍ في الكوخ، وتفقّدْتُ أشياءَك شيئًا شيئًا، وأتيتُ بها كلّها».

دلفْنا إلى الدّاخل، كان الكوخ مُهيّأً لنا جميعًا، مُقسّمًا بفواصل خشبيّة عالية، إلى خمسة أقسام، في كلّ قِسم غرفةٌ صالحةٌ للنوم، واسعة، وكانتْ لكلّ غرفةٍ نافذةٌ تُطلّ على سهلٍ فسيح يقع خلفَ المزرعة، فيه أشجار عملاقةٌ متباعدة، تُعطي المكان منظرًا رومنطيقيًا مُريحًا. أمّا الحمّام، فكان خارج الكوخ، وكان هناك حمّامان فقط للعوائل الخمسة، وسرعان ما اتّفقْنا أنْ نُخصّص أحدهما للرّجال والآخر للنّساء.

تفقّدتُ العائلة فردًا فردًا، ورأيتُ شابًّا جديدًا قدّرتُ أنّه في الثّامنة عشرة من عمره، فعرفتُ أنّه سينتمي لنا بطريقةٍ أو بأخرى، وسألتُ عن (بيتر) فقد لاحظتُ أنّه غير موجود، فقالتْ لي العمّة (تيري) بحزنٍ: «لقد رفض أنْ يأتي. وفضّل أنْ يظلّ عند السّيّد (جونسون)، لا أدري ما الّذي يفعله السّيّد (جونسون) ليبقى عنده؟». لاحظتُ أنّ (إميلي) تبكي، وأنّ عينَيها قد انتفختا من بكاءٍ طويلٍ مُستمرّ، فسألتُها، فأشاحتْ بوجهها عنّي، فنظرتُ إلى العمّة (تيري)، فقالتْ: «إنّ السّيّد (جونسون) قد اغتصبها انتقامًا منّا ومنك لهروبك». فصرختُ صرخةً شقّت السّكون، ورحتُ أبكي، وألعنُ الوحشَ البشريّ الّذي لا زال ينهشُ لحمَنا، هدّأتِ العمّة (تيري) من غضبي، وقالتْ: «هذا الشّابّ خَطَبها». وأشارت إلى الشّابّ الجديد، وتابعتْ: «اسمُه (ويليام)، وسيتزوّجان قريبًا...». صمتتْ قبل أنْ تتابع، وهي تنظر إليّ بامتِنان: «نشكرُكَ على أنّكَ أصررتَ على أنْ يشترينا السّيّد (جيم) معك؟ لكن... قُلْ لي كيفَ تعرّفتَ إليه... وما الّذي حدَث معك خلال الأيّام العشرة الّتي هربْتَ فيها؟».

«سأُحدّثكِ يا عمّة (تيري) بكلّ شيءٍ... لا تقلقي...».

اجتمعنا مع الغروب على مائدةٍ واحدة، قلتُ لهم: «أنا أعتذر عن كلّ أذًى سبّبتُه لكم في السّابق، لكنّ هروبي كان يستحقّ، إنّ إصراري على خلاصي وخلاصكم معي من السّيّد (جونسون) كان أفضل ما حدثَ لنا في السّنوات الأخيرة. نحن هنا...» وأردتُ أنْ أبدأ بعَرْضِ المزايا، قبل أنْ يُقاطعني (دانيال): «ما الّذي تغيّر يا عمر؟ لقد تحوّلْنا

من سيّدٍ قديمٍ إلى سيّدٍ جديدٍ». رددتُ: «لكنّنا تخلّصْنا من سيّدٍ شرّير إلى سيّدٍ رحيم». «نحن ما زلنا عبيدًا يا عمر، تذكّر ذلك، والسّادة البيض لا يختلف بعضُهم عن بعضٍ كثيرًا، لا تُبالِغْ في مدح هذا السّيّد، لأنّني أخافُ أنْ تمسّك سِياطُه قبل أنْ تمسّنا، إنّهم يعدّوننا أشياء، موجودات، مُمتلَكات، لقد اشترانا سيّدَك الجديد كما يشتري مجموعة من الأبقار، لا أدري إنْ كان ثمن الواحدِ مِنّا يُساوي نصفَ بقرةٍ هذه الأيام أو أقلّ من ذلك!». «لا تقلْ ذلك يا دانيال، كُنْ مُتفائِلاً يا أخي، على الأقلّ لن يكون هذا السّيّد الجديدُ مُغتصِبًا، ولن ينتهك أجسادَ الزّنجيّات». «قد يكون كما تقول يا عمر، ولكنّه لن يُسامح واحِدًا منّا إذا أخطأ». «بالطّبع لن يُسامحه، ولو كنتُ مكانه لَما سامحتُ المُخطِئ». «ليس هذا ما قصدتُ، إنّما سيُوقِع بنا أشدّ العقوبات، وسيعاملنا كالحيوانات، كلّ ما اختلف أنّنا انتقلْنا من سيّدٍ خشن إلى سيّدٍ ناعمٍ، مِن سيّدٍ يرفعُ البندقيّة إلى سيّدٍ يكتفي بالسّوط، العبوديّة هي مأساتنا يا أخي، نحن ما زلنا نرسفُ في قيودها». اقتربتُ منه، احتضنْتُه، سَحّتْ دموعي على أكتافه: «لم أكنْ أعرفُ أنّ توقكَ إلى الحرّيّة يبلغ بك أنْ تقول هذا، إنّني أتّفق معك يا أخي، لكنْ دَعْنا ننظر إلى الجانب المُضيء من هذه التّجربة، وهي ما زالتْ في أوّلها، ومن المُبكّر أنْ نحكم عليها من الآن!».

أكلْنا الطّعام صامتِين، لم يقلْ أحدٌ من بعدِ ذلك كلمة، كُنّا ننظر في عيوننا نظرةَ المأخوذ والمُترقّب والمُتوجّس، وقد اختلفتْ لغة كلّ عينٍ؛ كنتُ أرى الحُزنَ في عيونِ الكبار، وشيئًا من الفرح الحذِر في عيون الصّغار، ولم أرَ لغة التّفاؤل إلا في عينَي العمّة (تيري).

بعد الغروب بقليل جاءني مراقب العُمّال الجديد للسّيّد (جيم)، كان اسمُه (مارك)، طلبَ منّي أنْ أركبَ العربة لأصطحبه إلى السّيّد (جيم)، وقفتِ العربة أمام القصر، ترجّلْنا منها، ودخلنا إلى الدّاخل، عند البوّابة تركني المُراقِب وتولّى أمر إرشادي عبدٌ آخَر، كان السّيّد (جيم) ينتظر في قاعة الطّعام، كانتْ قاعةً فسيحة، جُدرانها من الرّخام، وعالية، تتدلّى من أسقفها ثُريّات بلّوريّة مُذهّبة، وكانت الجدران مزيّنةً بلوحاتٍ قدّرتُ حسب علمي أنّها تُعبّر عن أحداث الكتاب المُقدّس، فقد رأيتُ عرس قانا، وجِدال المسيح في عيد الفِصح، والعشاء الأخير، والصّلب على جبل الجلجلة، ولقاء المسيح بمَتّى العشار، وجلوس ابنَي زبدي عن يمين المسيح ويساره، بالطّبع لم تكنْ هذه اللّوحات تُزيّن جدران غرفة الطّعام فحسب، بل رأيتُها تتوزّع على جدران البيت كلّها. هالَني الموقف، والأبّهة، ورُحتُ أطأ على السّجّاد الوثير، وأنظر مُندهِشًا إلى الأرائك المحفورة، والمرايا المُعلّقة، وبقيتُ أُجيل النّظر من حولي حتّى جلستُ إلى المائدة، قال لي السّيّد (جيم): «لقد صِرتَ عبدي». أجبتُ: «لنقلْ خادِمَك، فالعبوديّة لله». «لن نختلف، كلّ ما أريدُ أنْ أعرفَه ماذا كنتَ تكتبُ هناك على جدران السّجن؟». أشرتُ إلى لوحة (عُرس قانا) القريبة منّا، وسألتُه: «هل تعرفُ ما تقول تلك اللّوحة، ومن أين استُوحِيت؟». ردّ سؤالي مُندهِشًا بسؤال: «وهل تعرفَ أنت؟». فأجبتُه: «أعرف، وأعرفُ أكثرَ مِمّا تعرف». استفزّته العِبارة، ورأى فيها تطاوُلاً، فأجاب وهو يتناول بالشّوكة قِطعةً من اللّحم أمامه: «لم تُجِبْني عن سُؤالي؟!». «تقصد

العبارات على جدران السّجن؟». «وهل غيرُها؟». «إنّها آياتٌ من الكتاب المُقدّس». الكتاب المُقدّس؟». «كتابُنا المُقدّس نحن المُسلِمين». «امم» وتنهّد، ثُمّ تابع: «لكنّ الآية الّتي قرأتَها لي أرعبتني؟». «أهذا سبب شِرائكَ لي؟». ردّ سؤالي بسؤال مرّة أخرى: «هل أنتَ عرّاف؟». ضحكتُ هذه المرّة بملءِ فمي، وتجاهلتُ سؤاله الأخير، وهتفتُ: «ما الّذي أرعبكَ فيها؟». «الوعيدُ الشّديد». «إنّه لا يُرعب إلاّ كلّ ظالمٍ». «وما تعريفُ الظّلم». «إنّ العبوديّة ظُلم». «لن تعرّف الظّلم بهذا التّجريد وهذه البساطة». «دعني أقلِ الآتي: إنّ العبوديّة أبشعُ أنواع الظُّلم». «لكنّني لا أظلم عبيدي». لقد ظلمْتَهم بمجرّد شِرائهم». «هل تريدُ منّي أنْ أُعتقهم؟!». «إنْ كنتَ لا تريدُ أنْ تُصيبكَ لعنة الآية». «أنتَ تمزح، أنا لم أخالف القانون، وأعامل عبيدي كما لو كانوا من عائلتي». «القانون الّذي وضعه البشر هو ركنٌ متينٌ من أركان الظّلم، وعليه قامتْ كلّ هذه الفظائع الّتي تراها». ضَحِك ضحكةً مَشوبةً بقلق: «أنتَ فيلسوف. أينَ تعلّمْتَ؟». «لقد كنتُ في بلدي عالِمًا، طلبتُ العلم خمسةً وعشرين عامًا. وانقطعتُ له تلك الفترة كلّها وتخلّيتُ فيها عن أهلي وقريتي ورفاهية عيشي». «لقد تحوّلتَ إلى راهبٍ إذًا؟». «ليس بمفهوم المسيحيّة عن الرّهبنة». «وهل تعرفُ المسيحيّة؟». «نعم، وغيرَها، لقد درستُ عِلمَ الأديان الّذي تُسمّونه أنتم عِلمَ اللاّهوت». «لماذا لا تأكل؟». «لستُ جائِعًا، لقد أكلتُ مع عائلتي قبلَ قليل». «لستَ جائِعًا أمْ أنّ دينَك لا يُبيح أنْ تأكل من طعام مِمّن يدِينون بغير دينِك». «المسيحيّة؟ كلا، نحن نأكل

من طَعامهم». «إذًا، لِمَ لا تبدأ؟». «أنا لا أُدخِل الطّعام على الطّعام، لقد أكلتُ حَقًّا، ثُمّ إنّني لستُ مُعتادًا على هذه الرّفاهية من قبلُ، ولو رأيتَني أيّام (تُوبا) لدُهِشت من أنّ الواحد كان يقضي نهارَه وليلَهَ على ثلاث لُقيمات». ضَحِك. مسح ذقنه بمنديلٍ حريريّ، وهتف: «لأكنْ صريحًا معك، لقد أثارتْ كتاباتُك فضولي، لكنّها أثارتْ خوفي أكثر، خِفتُ أنْ تلحقني لعنةُ آياتك إذا لم أستمِلْكَ إلى جانبي من جهة، وأعرفَ ما أنتَ من جهةٍ أخرى، بالطّبع ستتعجّب من أنّني أفعل هذا مع عبدٍ... ولكنْ في النّهاية كلّنا بشر...». قاطَعتُه: «إذا كُنّا جميعًا بشرًا مُتساوين، فلماذا يستعبدُ بعضُنا بعضًا؟!». ردّ بكلماتٍ حازمة: «أنا قلتُ إنّنا بشر، ولكنّني لم أقلْ إنّنا مُتساوون، ثُمّ لا تُحدّثني عن العبوديّة الّتي جاءت إلى هذه البلاد منذ أكثر من مئتَي سنة». «أنتم بأفعالكم تُكرّسونها». «يا ماريان...». «أنا عمر». «يا عمر إنّ إلغاء عبوديّة لها أكثر من قرنَين لا يتمّ بمناقشةٍ بينَ اثنين على طاولة الطّعام في قاعةٍ مُذهّبَة، إنّ اقتِلاع شجرةٍ مُعمّرةٍ لا يتمّ بجذبةٍ واحدة». «أنا أتّفق معك، لكنّنا إنْ ظللنا نرمي الأمور على عاتق الزّمن، فلن يتحرّك ولن يتغيّر شيء، لنكنْ نحن البداية.. ثُمّ إنّ كثيرًا من الحركات الّتي تدعو إلى إلغاء الرّقّ قد بدأتْ تنتشر في الولايات الشّماليّة..». «هذا صحيح، وهذا ما عنيتُه، أنا معك أيضًا ضِدّ العبوديّة، ولكنّ القضاء عليها يحتاجُ إلى نَفَسٍ طويل، وصبرٍ أطول...» صمتَ وأنا أضع يدي على خَدّي وأنظر إليه، وقد بدا منزعِجًا جِدًّا: «والآن... ألا تأكل؟».

وزّع المراقب (مارك) العبيدَ الجُدُد على أعمالهم، بعضُهم ذهب يعمل في مزارع القُطن، وبعضُهم ذهبَ يعمل في مزارع التّبغ، كان العمل في مزارع التّبغ أشدّ إرهاقًا من العمل في مزارع القُطن.

في الأسبوع الثّاني من إقامتي هنا، استأذنتُ السّيّد (جيم) أنْ يأذن للعمّة (تيري)، و(دانيال) أنْ يبقيا في المزرعة هنا ولا يذهبا إلى العمل، فوافقَ على أنْ تتولّى العمّة (تيري) أعمال الطّبخ مع العامِلات الأُخرَيات، وأنْ يتولّى (دانيال) تنسيق الحديقتَين مع البُستانيّ الآخَر.

كان السّيّد (جيم) يملك مزارع للذّرة كذلك، وكان عبيدُه إمّا يعملون في جني المحصول وقتَ الحَصاد، أو يعملون على تقليب الأرض وحرثِها، وصُنع الأخاديد فيها، وتهيئتها للزّراعة في الموسم القادم، كان مُنظّمًا، وكان يُحوّل عبيده إلى آلاتٍ مُنظّمة تعمل باتّساق، وكان لديه مُراقِبون يوزّعون الأعمال على العبيد حتّى لا يسود النّظام، وتكون الإنتاجيّة أعلى ما يُمكن، لقد كان رجلاً أرستقراطيًّا، قادِمًا من أرستقراطيّات العصور الوُسطَى. وكانتْ لديه مزارع للأبقار، وأخرى للخنازير، وكان لديه خُبراء في تسمين الخنازير، وإشباعها بالقاذورات والطّين ووخم المُستنقعات، وكان جَزّاروه يُقدّدون لحم الخنازير لتكون وجبته اليوميّة جاهزةً له ولضُيوفِه، وكان التّقديد والتّدخين يُشرِف عليه خبراء كذلك، وعُمّالٌ مَهرة، يُعَرّضون لحم الخنزير المَسلوخ للهَواء حتّى لا تتسلّل إليه الدّيدان، وأمّا لحم الخنزير الّذي تتسلّل إليه الدّيدان وتعيثُ فيه، فكانَ يُرمَى إلى عبيده لِيأكلوه!!

(٦٠)

لا تَمُتْ مثلي عبدًا!

صِرتُ أنا من يستقبل ضُيُوف السّيّد (جيم)، ومن يُشرف على موائد الطّعام الّتي كانوا يجتمعون حولها، كانتْ هناك مناسبة واحدة على الأقلّ كلّ شهر، تُقام فيها الولائم، ويُدعَى إليها أعيان الولاية وتُجّارُها. ولقد رأيتُ من هذا المُجتمع عجبًا، كان التّرف يجعل لَهَواتهم تتدلّى تحتَ أذقانهم، وكانتْ وجوههم من البَياضِ شَمْعيّة، ولقد سمعتُهم وأنا أوزّع الطّعام على موائدهم يهرفون بما لا يعرفون، ويتشدّقون بكثيرٍ من الهُراء، ولم يكنْ يُسمَح لي أنْ أناقِش أو أتدخّل ما لم يطلبْ سيّدي منّي ذلك.

صِرتُ كذلك القريب من السّيّد (جيم)، أعني أنا مَنْ يُنظّف له مكتبه، ويُرتّب له أوراقَه، وينضّد له كُتُبَه، ولقد صنعتُ له مكتبةً وضعَ فيها كثيرًا من كتب التاريخ، وأتاح الوقتُ الكثير هُنا أنْ أقرأ في مكتبة السّيّد (جيم) كلّما سنحتْ لي الفُرصة. ولقد كنتُ شَغوفًا بالعِلم وما زلت، ولقد وجدتُ في القراءة ذهولاً عن نفسي، أنا الّذي صِرتُ أمشي إلى السّبعين بأقدامٍ مُرتجِفة!

في هذا العام ١٨٣١م اندلعتْ ثورة (نات تارنر)، الّذي ولد عام ١٨٠٠م، وكان قد ورث عن أمّه كُره العبوديّة، صنع منه عِلمُ اللاهوت ثائرًا، ولأنّه يملك خِطام الكلمة فقد استطاع أنْ

يُؤثِّر في أتباعه من رِجال الكنيسة، ونادَى نفسه في (فيرجينيا) نبيًّا أرسَلَه الله لكي يُخلّص شعبه العبيد السّود من العبوديّة، لقد سَمّى نفسَه المُخلِّص؛ تلك سَقطةٌ كبيرة، لقد كان هَوَسُه الدّينيّ هي سِمَته ومُشكلته، فقد أتاح له هذا الهَوَس أنْ يزداد أتباعه بشكلٍ مُتسارِع وهو لا يزال في أواخر العشرينيّات من عمره، لكنّه على الجانب الآخَر بالَغ في خيالاته فعدّ نفسَه نبيًّا، وكانَ ينتظر إشارةً من الله لكي يهجمَ على مزارع البِيض، ويقتل ويذبح، ويُحرّر العبيد منها، وكان كسوفُ الشّمس في أحد الأيّام هو علامتَه!! وهل بعد هذا من جَهل؟! لقد كان خيالُه مريضًا باعتِقادي، قادَ (نات تارنر) جيشَه من السُّود وكان سِلاحهم المناجل والفُؤوس، على بُعد سبعين مِيلاً من (رتشموند) بولاية (فيرجينيا)، وكان قد نَظّمهم بشكلٍ يُمكن القول إنّهم جيشٌ، لأنّه اعتمدَ الجُنديّة والطّاعة، واستمدّها من مركزه الدّينيّ، باعتباره المُبلِّغ عن الكتاب المُقدّس، نشبتْ بين جيشه وبين البِيض معركةٌ بالسّلاح الأبيض من جهته، وبالبنادق والمُسدّسات من جهة البِيض، وكانت النّتيجة أنْ قُتِل (٥٧) من البِيض، و (٧٣) من السُّود، وقد أفزعَ البِيضَ أنْ يتمكّن عبدٌ من قِيادة جيشٍ بهذا التّنظيم، وأنْ يقتلَ منهم هذا العدد، خاصّةً أنّه لا يملك الرّصاص، وليس في يديه إلاّ أدوات بدائيّة بسيطة، فأفزع ذلك الولاية والولايات كلّها، وعُدّ خَطَرًا مُحدِقًا بالأمّة، وغَرّ أتباعَ (النّبيّ) انتصارُ نبيّهم، فراحوا يسرقون وينهبون ويسكرون، فثقلتْ حركتُهم لكثرةِ ما سَكِروا، وارتَختْ أبدانُهم لكثرةِ ما أكلوا، فكان

ذلك مقتلةً له ولهم، ظلّ (تارنر) يناور شهرًا ونصف، خلالَها انفضّ عنه أتباعُه لأنّهم رأوا احتماليّة أنْ يُقتلوا، ولم يثبتْ معه إلاّ سبعةَ عشرَ رجلاً أسود، حُوصِروا من (٣٠٠٠) جنديّ أبيض، وسرعان ما أُلقِي القبض عليه مع أتباعه وأُعدِموا جميعًا في شهر نوفمبر من عام ١٨٣١م.

أنا أعتقد أنّ ثورة (تارنر) من أهمّ ثورات العبيد في هذه البِلاد الجديدة، وإنّ شططَها في الارتكاز على عبيدٍ يتبعون نِداءً دينيًّا بشكلٍ أعمى، دون أنْ يُدرِكوا هم ما يفعلون ومشروعيّة مطالبهم، هو ما قَضى عليهم، ولقد كان الدّرس الّذي استفدتُه من هذه الثّورة، أنّه: «عليكَ أنْ تُحرّر عقلَ العبد قبل أنْ تُحرّر يده».

مع كلّ ذلك، فقد أثّرتْ تلك الثّورة على عددٍ من القوانين في الولايات، فاتُّخِذتْ تدابير - لكنّها محدودة - لتخفيف قسوة المصير الّذي يُعانيه السّود، فقد صوّتتْ ولاية (لويزيانا) على قانونٍ يُحدّد أوقاتَ طعامهم، كما وضعتْ ولاية (جورجيا) عقوباتٍ على مَنْ يُسيءُ معاملة العبيد، وحدّدتْ ولاية (كارولينا) الجنوبيّة ساعات العمل بخمسَ عشرةَ ساعةً في الصيف، وبأربعَ عشرةَ ساعةً في الشّتاء. لكنّ تَعلُّم العبد ظلّ جُرمًا يُحاسَب عليه، وقد تصل عقوبته إلى الإعدام، وهكذا ترى أنّ العالَم الجديد، رفعَ قيدًا من مئة قيدٍ في أيدينا وأرجلنا، ولكنّه أبقَى على أثقلِ قيدٍ وأقساه وأصعبه، ذلك القيد الّذي وَضَعه على عقولنا.

قبلَ أنْ يُعدَم الثّائر (تارنر) كنتُ قد طلبتُ من السّيّد (جيم) أنْ يسمح لي بالحصول على أوراقٍ وأقلام، وقد استجاب، في شهر أكتوبر من هذا العام، عام ١٨٣١م، بدأتُ أكتبُ ما حصلَ معي منذُ ولادتي، إنّني أسعَى إلى أنْ أرى نفسي عبر مراحل حياتي كلّها، وأستخلصَ فيها ما أستطيع من الدّروس، من أجل ابني الّذي أتوقّع أنْ يقرأ ما كتبتُه له، في يومٍ - هو في عِلم الله - لا أدري متى سيأتي، ولكنّني على يقينٍ من أنّه قادم.

منذ ستّة شهور وأنا أدخل في نقاشاتٍ مُطوّلة مع السّيّد (جيم) حول المسيحيّة، مُشكلته أنّه لم يقرأ الكتاب المُقدّس جيّدًا، لا أدري بأيّ وجهٍ يناقشني في أشياء اكتسبَ القناعة بها من الكتاب المُقدّس على حَدّ قوله، والكتابُ المُقدّس نفسه لا يقولها، ولا يُؤمن بها. حاولتُ أنْ أوضّح له ذلك أكثرَ من مرّة، ولكنّه ردّ على مُحاولاتي بأنْ أهداني نسخةً بالإنجليزيّة من هذا الكتاب المُقدّس، فقبلتُها شاكِرًا، وقلتُ له: «لقد درستُ هذا الكتاب في أيّامي الأولى لطلب العِلم، ولكنّني سأُهديكَ نُسخةً من القرآن». فنظر إليّ مُستغرِبًا، وقال: «وهل تملك نُسخةً منه؟». أجبتُه بثقة: «ستكون لك نسخةٌ خلال سنة إنْ أردت». فردّ: «هل ستَسْتقدِمُها من مكانٍ ما؟». «لا، ولكنّني سأكتبها لك، هبْني الأوراق الكافية، والحبر الكافي، والوقت الكافي، وستكون لك نُسخةٌ ربّما تكون الأولى في هذه البِلاد المكتوبة بخطّ اليد، نسخةٌ من الكِتاب الّذي يُؤمن به أتباع محمّد كما تُسمّوننا». هَزّ رأسه ومضى، فيما كنتُ قد عقدتُ العزم على أنْ أُكرّس ما تبقّى من حياتي للقراءة والكتابة.

في أواخر هذا العام، قبل أنْ ينصرم بخمسة أيّام، وفيما كان ضيوف السّيّد (جيم) يتناولون الأطعمة، ويسكرون، ويُغنّون ويرقصون، وتظهر همجيّتهم من خِلال القاذورات الّتي يُخلّفونها وراءهم، ومن خلال ابتِذالهم الّذي ينحو بهم إلى ارتكاب أفعالٍ مشينةٍ على الملأ ومن دون حَياء، ناداني أحدُ أصحاب الياقات الحمراء، والقُبّعات المُزيّنة بالرّيش، وقال لي وهو مخمور: «سمعتُ أنّكَ تُجيدُ الكتابة؟». لم أشأ أنْ أبصقَ في وجهه لرائحته الكريهة، ولكنّني بقيتُ صامتًا، فجذبني من عنقي جذبةً شديدةً كادتْ تخنقني، وزعق: «أنا أكلّمك أيّها الزّنجيّ، فلماذا لا تردّ؟!». لم يكنْ من المناسب أنْ أفتعل شِجارًا مع أحدِ ضيوفِ سيّدي، فأجبتُ بتقزّز: «نعم، أنا أُجيد الكتابة». فردّ: «وهل ما زلتَ عبدًا؟». «نعم». «فلماذا لا تكتب مُذكّراتك؟». لم أقلْ شيئًا، لقد كانَ طلبًا غريبًا، وأنا أكتبُ مذكّراتي بالفِعل، ولكنْ لماذا يطلبُها هذا الأخرق منّي؟ فيما تابعَ هو: «لديّ دار نشرٍ، إنها ناشِئة، ولكنّها تهتمّ بإصدار كتب السِّيَر والمُذكّرات، عندنا مَنْ كتب عن حرب الاستِقلال، وعن تاريخ أمريكا الجديد، ونحنُ بصدد طِباعة مُذكّرات اثنين من رؤساء أمريكا السّابقين، هما (توماس جيفرسون)، و(جيمس مونرو) الّذي تُوفّي قبل أسابيع...»، توقّف قليلاً قبل أنْ يُتمّ: «ماذا قلتُ لك؟ هل سألتُكَ شيئًا؟ هههه... أنتَ أيّها العبد؟ لماذا تقفُ كالأبله هنا؟ هَيّا ائتني بكأسٍ من النّبيذ قبل أنْ أشقّ حنجرتك».

وضعتْ (إميلي) إبنَها الخلاسي في أوائل عام ١٨٣١م وسَمّيناه (إدوارد)، وتزوّجتْ (إميلي) و(ويليام) عام ١٨٣٣م ورُزِقا بتوأمين؛

ولـدٍ سَـمّيناه (أنـدرو)، وبنـتٍ سَـمّيناها (إيزابيـل)، وهكـذا توسّـعتِ العائلـة، وامتـدّتْ، وامتـدّ بِنـا الزّمـن، وصـارتِ الأشـياء تُكـرّر أنفُسَـها، وفقـدتْ بريقَهـا ودَهشـتَها، ولم أجـدْ عـزَاءً فيـها أنـا فيـه غـير انغـماسي في الكتابـة، بـدأتُ مـن قريـبٍ في عقـدِ مقارنـات بـين الكتـب السّـماويّة الثّلاثـة، صَدّرْتُهـا بالقواسـم المُشـتَركة في الأخـلاق، وتشّـعبْتُ بعدَهـا، إنّ الحديـثَ عـن الكتـاب المُقـدّس يأخـذ أكثـر مـن نصـفِ الوقـتِ الّـذي أقضيـه في مكتـب السّـيّد (جيـم)، لقـد وجـدَ متعـةً في نقـاشي، وتحـوّلْنـا إلى شـيخٍ وقسّـيس بـدلاً مـن كوننـا عبـدًا وسـيّدًا.

ومـع كلّ مـا بَـدا مـن حُسـنِ تعامـل السّـيّد (جيـم) معـي ومـع عائلتـي، إلاّ أنّـه لم يُحرّر أيّ واحـدٍ منّـا، بـل لم يقبـلْ فِكـرة أنّ نعمـل بجـزءٍ بسـيطٍ مـن الأجـر لسـنواتٍ طويلـةٍ كـي يُصبـحَ مَـنْ ظـلّ شـابًا منّـا أحـرارًا، أمّـا نحـن الكبـار في السّـنّ مـن هـذه العائلـة فقـد نَفَـذَ فينـا قـدرُ الله!!

بعـدَ ولادة التّوأمـين بأسـبوع تُـوفّي (دانيـال)، قـال لي - وهـو عـلى فِـراش المـوت - كلمـةً ظلّـتْ سِـكّينا في صـدري، تمنّيـتُ لـو أنّـه مـات قبـل أنْ يقولَهـا: «إنّ العبوديّـة مأسـاتُنا جميعًـا، وإنّ هـذا السّـيد خَدَعـك، وإنّ لـه مقاصـدَ خبيثـة سـتتبيّن لـك مـع الزّمـن، ولئـن كان السّـيّد الّـذي قبلَـه ذئبًـا بأنيـاب تنهـشُ لحمَنـا في وضـح النّهـار، فإنّ هـذا حَمَـلٌ يُخفِـي خلفَـه ذئبًـا ينهـشُ لحمَنـا في غبـشِ اللّيـل دون أنْ نـدري، لا تمـتْ مثلي عبـدًا، إن اسـتطعتَ أنْ تُصبـح حُـرًّا ولـو دفعـتَ لأجـل ذلـك حياتَـك، فافْعـلْ».

(٦١)

الحُرِيَة مُقابل الدِّين

في أوائل عام ١٨٣٢م، ناداني السّيّد (جيم) إلى مكتبه، وقال لي: «هناكَ سببٌ آخَر لشرائي لك، وقبولي بشراء عائلتك معك، كنتُ قد أخفيتُه عنك في السابق، ولقد جاء وقتُ الإفصاح عنه». ابتسمتُ وسألتُه: «أنا مستمعٌ جيّد». ردّ: «إنّ لي ابنة مُصابةً بالفَزَع، تقومُ في الليل وهي تصرخ، لا تمرّ ليلةٌ إلاّ وتستيقظُ مفزوعةً، ناديتُ قِسّيسًا، فقال لي: إنّ الشّيطان يسكنُ جسدَها، وإنّها غيرُ مؤمنةٍ بالرّبّ، فسألتُه عن الحلّ، فقال: علينا أنْ نُخرِجَ الشّيطان اللّعين منها، سلّمْتُه ابنتي واثِقًا بقدرة الرّبّ على الشّفاء، وظلّ أكثر من ثلاثةِ أشهرٍ يزورُها في اللّيل، ويطلب منّا أنّ نتركه معها وحدهما، ويخرج من عندها بعدَ ساعةٍ أو اثنتين، ولكنّ شيئًا على حالِها لم يتغيّر، ومرّةً استرقتُ النّظر إلى ما يفعله، ففوجِئتُ بأشياء لا أريدُ أنْ أقولها كان يفعلها معها، ثُمّ إنّني طلبْتُ منه أنْ أكونَ حاضِرًا بعدَ ذلك، فصار في جَلَساتِ طرد إبليس أو الأرواح الشّرّيرة منها يهذي بكلماتٍ لا أدري إنْ كانتْ من الكِتابِ المُقدّس أم لا، ويمدّ الصّليب أمام وجهها، ويقلبه أحيانًا، ورأيتُه يرشّ ما يُسمّيه الماء المُقدّس على جسدها، ويقترب من عنقها، ويتلمّسها، ويهذي بكلماتٍ أخرى غريبة، ورأيتُه يُشير بالصّليب إلى النّافذة، ويتوجّه إلى كائنٍ لا أدري ما هو بالحديث... لقد كان يفعل

أشياءَ غريبة، لكنّ ابنتي لم تُشفَ إلى اليوم...» ثُمّ صمت، فسألتُه: «وما شأني أنا بهذه القِصّة؟». فردّ: «صحيح أنّ الآية الّتي قرأتَها لي - ذلك اليوم البعيد - أرعبَتْني، لكنّها في المقابل جعلتْني أطمئنّ إلى أنّ قائلها يملك قُوّةً لا تنبغي لأحدٍ منّا، وأنّ الّذي يُؤمن به يأوي إلى رُكنٍ شديد، ثُمّ إنّي رأيتُ الصّدق في وجهك، والطّيبةَ في قلبك، والقُوّة في منطقك، فقلتُ...» وسكت ثانية، فحثَثْتُه على أنْ يُكمِل، فتابع: «فقلتُ أدفع في شِراء هذا العبد الصّالح مالاً مهما كان مِقداره، فلعلّ وجوده في البيت يكون بركةً للبيتِ ولأهلِ البيت، ولمّا طلبْتَ أنْ تُشترَى عائلتُكَ معك، لم يكنْ لي بهم حاجة، ولكنّ حاجتي إليكَ جعلتْ أيّ ثمنٍ يُدفَع فيما يتعلّق بكَ قليلاً على أمل أنْ تُشفَى ابنتي، وإنّها وحيدتي، هي فتاةٌ طيّبة في العشرين من عمرها، لكنّها لم ترَ من الحياةِ شيئًا بسبب هذا الدّاء الغريب الّذي أصابَها». وسكتَ من جديدٍ، وطال سُكُوته، فسألتُه: «وما المطلوبُ منّي؟». «هل يُمكنكَ أنْ تشفيَ ابنتي؟!». فتنهّدتُ قبل أن أُجيبه: «سيّدي، وجودُ شخصٍ مثلي أو أيّ شخصٍ آخَر لا يهبُ البركةَ للمكان الّذي يحلّ فيه، هذا الاعتِقاد الخاطِئ الأوّل الّذي وقعتَ فيه، والاعتِقاد الثّاني الخاطِئ الثّاني هو أنّني قادِرٌ على شِفاء ابنتك، فالشّافي هو الله، لكنّني أنا وغيري يُمكن أنْ نكون وسائل لذلك الشّفاء، والاعتِقاد الثّالث الصّواب الّذي أحبّ أنْ تعرفه، هو أنّ كتابَنا القرآن الكريم، يُمكن بإذن الله أنْ يشفي ابنتَك». وقفَ على رجلَيه خلفَ مكتبه وقد أشرقتْ عيناه: «وهل يُمكنه ذلك حقًّا؟». «الله هو الّذي يُمكنه ذلك،

ولقد قالَ في هذا الكتاب: وننزّل من القرآن ما هو شِفاء، ويُمكن أنْ أرقِيَ ابنتكَ بما أنزل الله». «فهلاّ أسديتَ لي هذه الخدمة». «سأفعل».

تحسّنتْ صِحّة ابنته، لم تعدْ تقومُ من نومها مفزوعة، وأقبلتْ على الحياة نشيطةً، وصارتْ تُمارس أمور حياتها بشكلٍ اعتياديّ، وكان ذلك مدعاةً إلى أنْ ينظر إليّ السّيّد (جيم) كمُخلّص، وقال لي مرّة: «إنّكم أنتم المُسلِمين تملكون قُوًى سحريّة». فأجبتُه: «لا أحدَ يملك ذلك». «وكتابُكم؟». «يملك بإذن الله أنْ ينْفُذ في خلقه قدَرُه، وما عَدَا ذلك فهي خُرافات». «إنّني مهتمٌّ به، ولكنّني مهتمٌّ أكثر أنْ تُصبح مسيحيًّا». «أُصبحُ مسيحيًّا؟! لماذا؟». «إنّ قلبكَ الطّيّب هو قلبُ مسيحيّ حقيقيّ». «لا علاقةَ بين القلب الطّيّب والمسيحيّ، لكنّني أطمع أنْ تكون أنتَ مُسلِمًا». «مُسلِمًا؟ لماذا؟». «لأنّ الإسلامَ دينُ التّوحيد، ودينُ الفِطرة، ودينُ العقل، ولقد كان المسيح عليه السّلامُ مُسلِمًا». «المسيح كان مُسلِمًا؟ هل بدأتَ تَهذي؟». «وكان موسى عليه السّلام مُسلِمًا، وإبراهيم عليه السّلام مُسلِمًا، وجميع الأنبياء مُسلِمين، وكلّهم مُوحّدِين، وما من نبيّ ادّعى أنّه الله، ولا أنّه ابن الله، ولا أنّه إلهٌ معَ الله، وأوّلهم في التّوحيد المسيح، ولكنّكَ لم تقرأ الكتاب المُقدّس جيّدًا». وقف السّيّد (جيم)، أخرج سلسلةَ السّاعة من جيبه، ونظرَ فيها، وقال: «لديّ موعدٌ مع إدارة مصانع التّبغ. وعليّ أنْ أخرجَ في الحال كي لا أتأخر عليهم. قُمْ بعملكَ في تنظيف المكتب جيّدًا».

قالتْ لي العمّة (تيري): «إنّ المراقب (مارك) أبلغهم رِسالةَ من السّيّد (جيم) إنّهم يُمكن أنْ يُصبِحوا أحرارًا بمجرّد اعتِناقهم

المسيحيّة، وإنّ السّيّد (جيم) مُستعدٌّ أنْ يكتبَ بنفسِه صَكّ حريّة أيّ عبدٍ مقابل الدّخول في المسيحيّة، وإنّه سيوثّقه في محكمة الولاية». قلتُ لها: «إنّ دانيال كان على حَقّ، حينَ قال لي عن السّيّد (جيم) قبل أنْ يموت إنّ نواياه الخبيثة سوفَ تتكشّف لك مع الزّمن...» هززتُ رأسي قبل أنْ أسألَها: «وأنتِ ما رأيك؟». «أنا معك، مؤمنٌ بدينك، أنا مُسلِمة، ولم يبقَ من عمري الكثير، ولا أريدُ أنْ أموتَ إلاّ على دينك، المُشكلة ليستْ فِيّ، بل في أولادِي وأحفادي، فإنّ كثيرًا منهم طرِبَ فؤادُه للخبر، ومن المُمكِن أنْ يتحوّلوا إلى المسيحيّة ونحن لا ندري». «لقد فَعَلها إذًا؟! إنّهم يُساومونا على حُرّيّتنا، هؤلاء المُبشّرون لا يمتّون إلى المسيح بِصِلة، إنّهم تُجّار، خُبثاء، أفلا دَعَوا إلى دينهم بالمنطق، وبالإقناع، بدلاً من جعل الحرّيّة مقابل الدِّين، إنّها مساومةٌ خسيسةٌ، ولكنّني أرى أنّهم سينجحون، ولقد نَجَحوا مع الكثيرين من قبلُ، وإنّ عددَ المسيحيّين من العبيد سيزدادُ بشكلٍ كبير، وسيكونون مسيحيّين بلا إيمان، وبلا معرفةٍ بهذا الدّين، ولكنّهم لا يعرفون أنّهم يزيدون بذلك من عبوديّتهم. أنا على ثغرةٍ إذًا؟!». سكتُّ، قبل أنْ أتابع بصوتٍ أقربَ إلى الهمس: «إذًا من أجل ذلك أهداني السّيّد (جيم) في السّابق الإنجيل، ومن أجل ذلك قال لي في مكتبه إنّه يطمع بأنْ أكونَ مسيحيًّا!!».

بدأتُ بكتابة القرآن من أوّله، لقد وفّر لي السيّد (جيم) كلّ شيء، ومهما كانتْ نواياه من وراء ذلك، فالمهمّ أنّني أملكُ ما أريدُ من أجل أنْ أكتب. كتبتُ سورة البقرة في شهرٍ تقريبًا، وحبّرتُ الخَطّ

فيها تحبرًا. لقد كنتُ أسعَى إلى أنْ يُسلِمَ السّيّد (جيم) بأقوى مِمّا كان يسعَى إلى أنْ أُصبِحَ مسيحيًّا! إنّ إسلامَ السّيّد (جيم) وهو الثّريّ الّذي يملك أكثر من متّي عبدٍ، وأكثر من عشر مزارع، وهو شقيق حاكم الولاية، سيكون له تأثيرٌ كبيرٌ على الآخرين، وتذكّرتُ قِصّة سعدُ بن مُعاذ سيّد الأوس الّذي أسلمَ بإسلامِه قومُه أجمعين، وطمعتُ في أنْ يحدثَ هذا هنا.

كنتُ أنظّف مكتب السّيّد (جيم) عندما دخلَ وفي يده صحيفة وهو يضحك، كان ذلك في منتصف عام ١٨٣٥م، قال لي: «اقرأ». كان ذلك مقالاً في صحيفةٍ تصدر في مدينة (فيلادلفيا) كتبه طبيبٌ من مدينة (فايتفل)، يقول: «لقد مرّ على هذا السّجن عبدٌ عجيب، هذا العبد الهارب مُذهِل، إنّها قِصّة (الأمير مورو)، الذي بعد أن أُلقِيَ عليه القبض وتمّ سجنه، كتب ببراعةٍ من اليمين إلى اليسار، وبما بدا للمراقبين المُحلّيّين لغة مجهولة». وضحكتُ أنا بدوري، وقلتُ للسّيّد (جيم): «انظر إلى هذا السّبق الصّحفيّ، لقد مرّ على حادثة سجني أكثر من أربع سنواتٍ، والقصّة تظهر في الصّحيفة اليوم، ثُمّ انظر ماذا دَعاني، بالأمير، وأنا لستُ كذلك، ثُمّ انظر الجهل بالآخَر إلى ماذا يقود، إنّه عَدّ الكتابة من اليمين إلى اليسار أمرًا مُذهِلاً، وعدّ كتابتي من العجائب، وما ذلك إلاّ لأنّه حَكَم بما رأى وبما خبر وبما جرّب، وفي الحقيقة ما رأى ولا خَبِرَ ولا جَرّب إلا القليل، ولذلك جاءتْ عباراته مُضحِكةً لمن يعرف». ردّ السّيّد (جيم): «لكنْ لا تُنكِر فضل الصّحيفة، صحيحٌ أنّ الخبر جاءَ

متأخَرًا جِدًّا، ولكنّكَ أصبحتَ مشهورًا الآن، وفي الحقيقة، بدأ كثيرٌ من الصّحفيين يسألون عنك، وعندما يعرفون أنّكَ عبدي، سوف يتقاطَرون إلى هذه المزرعة من أجل إجراء المقابلات معك...». وضحك بصوتٍ عالٍ، وهتف: «انظر إلى ما تفعله الصّحف». فرددتُ: «انظر إلى ما تفعله جَهالةُ الصّحف». فردّ: «هناك صُحُف نادتْ بعدالة قضيّة تحرير العبيد». «مَاذا تقصد؟». «هناك مثلاً صحيفة (المُحرّر) الّتي أصدرها (ويليام غاريسون) الّذي حاربَ فِكرة التّدرّج في تحرير العبيد، فراحَ يُطالِبُ بتحريرٍ آنيّ للعبيد وبلا شُروطٍ». «هل هو رجلٌ أبيض؟». «نعم». «إنّه رجلٌ حُرّ، هذا الّذي ينطق بهذه الكلمات». «لقد ذهبَ أبعدَ من ذلك؛ إذ رفَضَ أولئك الّذين وافقوه على تحرير العبيد على أنْ يُدفَع لهم تعويضٌ مقابلَ ذلك». «حَقًّا؟! فماذا قال؟». «قال إنّ التّعويض يعني أنْ ندفعَ للّصّ مالاً كي يُعيدَ ما سَرَقه!». «سيّد (جيم)؟». «نعم؟». «لماذا لا تأتي بمثل هذه الصّحف إلى هنا؟».

أعطاني خبر صحيفة (فيلادلفيا) - الّذي نُشِرَ متأخّرًا جِدًّا - بُعدًا اجتماعيًّا جديدًا، ولعلّ ذلك مكّنني من أنْ يُلبّي السّيّد (جيم) رغباتي المُتزايدة في طلب المزيد من الورق والأحبار، والّذي مكّنني بدوره من أنْ أُنهي كتابة القرآن الكريم في عامٍ واحدٍ كما خَطّطْتُ، وأهديتُه للسّيّد (جيم) الّذي أقام احتِفالاً في المزرعة بهذه المُناسبة، وطلبَ أنْ تُصنَع حافِظة جلديّة ممتازة للمخطوط، واحتفظَ به في صُندوقٍ مُذهّب في مكتبته.

أمّا مكتبته فصارتْ ملكًا لي تقريبًا، إذ لم أكنْ لأضيّع لحظةً واحدةً بعد أن أُنهي أعمالي المطلوبة منّي في البقاء فيها ومُطالعة كُتُبِها، ولقد وافق السّيّد (جيم) أنْ يكون لي مُلحَقٌ بالقصر أستطيع المبيتَ فيه بدلاً من المسافة الطّويلة الّتي أقطعها من أكواخ العبيد إلى هنا، وخاصّة أنّ عملي اقتصر على ما في داخل هذا البيت الكبير، وأنّني هرمتُ كذلك، وهكذا بدأتُ أبعِدُ عن عائلتي، ولم أعدْ أبيتُ معهم، ولم أعدْ أراهم كثيرًا، وكانتْ نتائج ذلك مُحزِنةً بالنّسبة لي، فقد اشترى بعضُهم حرّيّته مقابل مسيحيّته.

في عام ١٨٣٦م وُلِدَ للسّيّد (جيم) ولدٌ بعدَ ربع قرنٍ من عدم الإنجاب، وصارَ شقيقًا لأخته المُتعافية من الفزع، وفَرِحَ به السّيّد (جيم) فَرَحًا لا يُوصَف، وسمّاه (جُورج)، ولأجل مَقدَمه وأعفَى كلّ مَنْ جاوز السّتّين من عُمُره من العمل في المزارع، وأوجدَ له عَمَلاً في ما يتّصل بالبيت الكبير، ثُمّ إنّه أقام له الاحتِفالات على مدى أسبوعٍ لم يهدأ فيه الطّعام والشّراب والغِناء والرّقص. وصار ابنَه المُدلّل الّذي وهبَ له كلّ شيء.

(٦٢)

الفاتحةُ لِكلِّ كِتاب

كتبتُ في نسخة الإنجيل الّتي أهداني إيّاها السّيّد (جيم) سورةَ الفاتحة في أوّل صفحة، إنّ كتابًا مُقدّسًا لا يبدأ بالفاتحة يظلّ ناقِصًا، الفاتحة الّتي في القرآن يجب أنْ تكون فاتِحةَ كلّ شيء، أريتُها للسّيّد (جيم) ذاتَ صباحٍ في مكتبه، رتّلتها، وشرحتُ له معانيها، كان لا بُدّ من أنْ تُقرّب له المفاهيم من خلال إيقاع المعاني الخالدة والصّالحة لكلّ زمانٍ ومكانٍ على زماننا هذا ومكاننا. ربّما هَزّ رأسَه أكثر من عشر مرّات وأنا أفسّر له هذه الآيات السّبع!

في عام ١٨٣٨م بلغَ (مورو) ابن (أماندا) الثّامنة من عمره، صارَ عليّ أنْ آخذه من عائلته لأعلّمه على طريقتي، سمعَ السّيّد (جيم) لي بذلك، صار يقضي معي وقتًا طويلاً في النّهار في المُلحَق الّذي صرتُ أنام فيه مُلاصِقًا للقصر، لقد بدأتُ أعلّمه العربيّة، والقرآن، وكعادة أيّ طفلٍ تعلّم بسرعة، وصار لصيقًا بي، وصرنا نُشاهَدُ معًا، وتوحّد اسمانا، فصاروا يقولون (مورو) الكبير، و(مورو) الصّغير، وإذا أطلقت (مورو) وحدها عنت الكبير، وكان لا بُدّ من أنْ تُتبع الكلمة بالصّغير إذا كان المقصود ابن (أماندا).

كان (مورو) ولدًا ذكيًّا ولمّاحًا، وكنتُ أحبّه، لا أدري لِماذا، ولكنّه ملكَ عليّ وقتي، وتخيّلتُ ابني فيه، بل تخيّلتُ فيه امتِدادي، أنا

الّذي ليس له زوجةٌ ولا أبناء، وجدتُ في هذا الولد المُختلف تعويضًا، ولا أدري إنْ كان مختلفًا حَقًّا، أم أنّنا إذا أحببْنا أحدًا وجدْناه مُختلِفًا، المهمّ أنّه لمّا صار في العاشرة كان يُمكنه أنْ يقرأ طِوال السّور دون أنْ يقع في خطأٍ واحدٍ، ولقد عُنيتُ بتعليمه الإنكليزيّة كذلك، واخترتُ له بعضَ قصائد (شكسبير) من مكتبة السّيّد (جيم) وشرحتُها له، وحفظَ مقاطع منها. ثُمّ إنّه كان يُصلّي على سِجّادتي الّتي صنعتُها قبل سنواتٍ من خيمةٍ مهترئةٍ باقية من حربٍ في بلدِ الحروب إلى جانبي، فنبدو ساقًا وغُصنًا، وجذعًا وثمرة، وجسدًا وعيْنًا، ولقد صار منّي بمنزلة الابنِ من أبيه، وكانتْ أمّه تستطيل غِيابه بين يديّ، لكنّها كانتْ فَرِحةً بما يتلقّى من تعليمٍ منفردٍ، وعنايةٍ خاصّة.

ظلّتْ الحديقةُ الخاصّة بالبيت الكبير مسؤوليّتي حتّى هذا العام وقد جاوزتُ السّبعين، وبدأتْ عروقُ يديّ تظهر، وجلدهما يتجعّد، وبدأتْ علامات الكِبَر تبدو ظاهرةً على جبيني الّذي تغضّن، وظهرتْ فيه خطوطٌ واضحة، وأمّا الشّيبُ فحدّثْ ولا حرج، ومع أنّ قبّعتي لزمتْ رأسي في السّنوات الأخيرة فأخفتْ اشتعال ذلك الشّيب في ذلك الرّأس، لكنّ الشّعر النّافر من طرفَيها قريبًا من العنق ظلّ بارِزًا وواضِحًا فيه أثرُ الزّمن، ولا أدري إنْ جاوز المرء السّبعين ماذا يبقَى له؟ وعيناي اللّوزيّتان اللّتان كانتا أقربَ إلى عينَي أسدٍ إفريقيّ أعرفه ويعرفني خبا بريقُهما مع الزّمن، وانطفأتْ تلك الشّعلة الّتي تتّقد فيهما، وثَقُل الجفنان فوقَهما، فصارا مُنتفخَين قليلاً، قد علاهما جناحان لطائرٍ مُهاجرٍ بريشٍ غليظٍ!

شَغلتْني الحديقة عن بعضِ الوساوس، فصرتُ أرى في الورود المُتفتّحة تجدّد الحياة، وفي الخُضرة ربيع القلب، وفي الأشجار المُعمَّرة عَزاءً لبقاء الرّوح في جسدي إلى هذا العُمر، وتخيّلتُ عددَ البشر الّذين مرّوا من تحت هذه الشّجرة العِملاقة أو قالوا تحتها، أو احتَموا بظِلّها، ولا أدري كم من حبيبٍ قال لحبيبته كلامًا جميلاً هنا، وكم من حبيبةٍ عاتبتْ حبيبَها في ظِلالِها، وكم من صرخةٍ شقّتْ سكون الفضاء بسببِ عبدٍ جُلِد مربوطًا إلى جذعها، وكم من قرارات اتُّخِذتْ للحرب في دائرة قادةِ حربٍ اجتمعوا في أندائها، وكم من قِدْرٍ جُهّز فيها الطّبخ للجوعى أيّام الإغاثات هنا، وأخيرًا... كم من حفلةٍ للسّيّد جيم على مقربةٍ منها، هزّتْ أصواتُها وغناءُ موسيقيّيها أوراقَها الّتي عاصرتْ كلّ هؤلاء، وأطلّتْ عليهم جميعًا من عليائها، ومَضوا جميعًا، وسيمضي السّيّد (جيم)، وسأمضي أنا كذلك، وستبقَى هذه الشّجرة واقفةً بكلّ كبريائها زمنًا طويلاً صامتةً، ولو كانتْ تملك القدرة على الكلام لقالتْ في البشر أشياء كثيرةً تخجل الأذن من سَماعها، وتقشعرّ الأبدان لمجرّد حدوثها.

انطلقتْ ابنة السّيّد (جيم) إلى الحياة بعد تعافيها بكلّ نشاطٍ وقُوّة، فكانتْ كثيرة الحركة والكَلام، منفتحةً على الجميع، وكم ناقشتْني في أمور القراءة ولكنْ باستِعلاء الأبيض الّذي يَرِثه عن أسلافه، فقد كانتْ ترى فِيّ مجرّد عبدٍ مخلوقٍ لتلبية رغبات أسياده، وكانتْ تأمرني أنْ أذهبَ إلى إسطبلاتِ الخيول لآتيها بفرسِها البلقاء المُميّزة، لتركبَها وتنطلقَ فوقَها في السّاحة، وفي الأدغال القريبةِ من

هنا، وتَقضي ربّما ساعةً أو ساعتَين في لَهوها، قبل أنْ تعود، وتتوقّع منّي أنْ أنتظرها على باب القصر قريبًا من الأسدَين الرّابِضَين لآخذ منها - وأنا أنحني - خِطامَ الفَرَس، وأذهب به إلى مربطه في الإسطبلات. ولقد كانتْ مُحِبّةً للحياةِ والغِناء والرّقص، وكانتْ تملأ حفلاتِ أبيها صخبًا إلى الحدّ الّذي أزعجَ السّيّد (جيم) منها أكثر من مرّة، لكنّها لم تكنْ لتبالي بذلك أبدًا. وكانت تأكل وتشرب وتدلق الشّراب عن قصدٍ، وربّما تحدّتْ بعضَ ضُيوفِ أبيها في سِباقٍ بالخيل في ساحة القصر، أو غير ذلك، حتّى رجاها أبوها أكثر من مرّة أنْ تكفّ عن هذا. ولكنْ من دون فائدة!

جمحَتْ بها الفَرَس، أو هي الّتي جمحتْ به، فكلاهما كان له من الجموح نصيبٌ، كان ذلك في ضَحْوة أحد الأيّام من صيف عام ١٨٤٤م في الغابة القريبة من البيت جهة الجنوب، فسقطتْ عن ظهره وهي تحاول أنْ تُهدِّئ من جموحه، وكانتْ سقطتُها على صخرةٍ، فدُقّتْ عنقُها، ثُمّ أسلمتْها السّقطة القويّة إلى أنْ تهوي بعد الدّقّة الأولى، فتَتَدَهْدَهُ من تلك الصّخرة في سَقَطَاتٍ مُتابِعة، كانتْ صيحتُها العالية غير كافيةٍ ليعرفَ أحدٌ ما حدثَ معها، فزحفتْ على بطنها، لكي تصل إلى أقربِ موضعٍ يكونُ فيه صوتُها مسموعًا، لكنّها لم تُفلِح في ذلك، إلى أنْ عثرَ عليها العبيدُ العائِدون من العمل في إحدى المزارع، وكان قد مرّ عليها النّهار بِطُوله، ولم تُفلِح كذلك محاولات البحث عنها في إيجادها بعد مُلاحظة غيابِها الطّويل، حُمِلَتْ إلى البيت على وجه السّرعة، وانتظرَ جسدُها أو جُثّتها المُسجّاة على

سريرها في غرفتها أكثر من ساعتَين حتّى جاء الطّبيب، مكثَ الطّبيب في محاولاته حتّى منتصف اللّيل، لكنّه لم يُفلِح في إيقاظِها، ولكنّه مع ذلك لم يحسم أمرَ موتِها، ورَجاه السّيّد (جيم) أنْ يبيت حتّى يكون قريبًا منها إذا استيقظتْ، وهذا ما كان. ولمّا استيقظتْ كان عليها أنْ تقضي ما تبقّى لها من حياتها في فِراشِها، فقد أصيبتْ بالشّلل الكامل، ولم يكنْ يتحرّك فيها شيءٌ باستثناء عينَيها وشفتَيها.

وأصابَ السّيّد (جيم) كربٌ كبيرٌ، ورمتْه الهواجس في كلّ وادٍ، وكان يصرخ في ساعات خلوته كلّما تذكّر هيئة ابنته الرّزيّة: «أينَ أنتَ أيّها الرّبّ حتّى تُنقِذَ ابنتي. لو كنتَ موجودًا لساعَدْتَنا... لم يعدْ لي حاجةٌ لأن أؤمن بكَ بعدَ اليوم، ألا ترى، ألا تسمع، ألا تُبصِر ما حلّ بحبّة القلب...؟!». وألحدَ السّيّد (جيم) بعدَ ذلك، ونثرَ إيمانه السّابق رمادًا في مهبّ الرّيح، ولكنّه لجأ إليّ كوسيلةٍ أخيرةٍ ليخرج من جُبّ الكآبة والحزن الّذي سقطَ فيه، فقلتُ له: «إنّها ليستْ بحاجةٍ لي، إنّما هي بحاجةٍ إلى متابعة الطّبيب لا إلى راقٍ». فتوسّل إليّ أنْ أرقِيَها، كما فعلتُ قبلَ سنواتٍ، فلمّا قرأتُ عليها القرآن لم ينفعها في رَدّ ما كان قد كتبَه الله عليها، لكنّ أباها الّذي كان يُتابع عينَيها والطّمأنينة السّاجيةَ فيها، قال حينَ أسلمتْ رُوحَها: «لقدْ ماتت بسلام».

كَبُرَ (جورج) ابن السّيّد (جيم)، ولم ألحظْ مرور الأيّام إلاّ عندما صارَ يأتيه مُعلّمون خاصّون يقومون على تربيته، فابتِداءً من عام ١٨٤٦م صارَ يأتيه خمسةُ مؤدّبين، كان يأتيه يوم الاثنين مُعلّم اللاّهوت، ويوم الثلاثاء مُعلّم اللّغة والأدب، ويوم الأربعاء مُعلّم

الرّياضيّات والجبر، ويوم الخميس معلّم الفنون والموسيقى، ويوم الجمعة مُعلّم الفروسيّة والقِتال. ولقد كان ولدًا مُشاكِسًا كثيرٌ الحركة، جامِحًا بأشدّ من جموح أخته، ونُشّئ على أنّه سيّد هذا المكان، وربّ هذا القصر الكبير، والآمر النّاهي فيه، حتّى في وجودِ أبيه.

في عام ١٨٤٩م قرأتُ هذا الخبر المُثير في الصّحف الّتي يأتي بها السّيّد (جيم): «هربت (هاريت تابمان) من العبودية عام ١٨٤٩م من مزرعةِ سيّدها في (ماريلاند) إلى (فيلادلفيا)، وبدأتْ هناكَ عَمَلَها في تحرير العبيد». أثارَ الخبر إعجابي من جهتين: الأولى أنّها كانتْ محاولة امرأةٍ لا رجلٍ لإنقاذ إخوتها من العُبوديّة، والثّانية أنّها نفّذت الهرب، وهذا ما ذكّرني بمحاولاتي السّابقة، ثُمّ إنّها قامتْ بعدَ ذلك بنشاطٍ سلميٍّ لتحرير العبيد، إذْ إنّها لم تستخدم في ذلك سِلاحًا من أيّ نوعٍ لا ناريًّا ولا أبيض، ولم تُطلِق في هذه العمليّة رصاصةً واحدة، لكنّها قدّمتْ الكثير في مسيرة تحرير العبيد الطّويلة.

هربّتْ (هارييت تابمان) عائلتَها في بدايات نشاطِها إلى (كندا)، وقامت بعد ذلك بتحرير عددٍ كبيرٍ من العبيد باستخدام بيوت آمنة وطرق سرّيّة كانت تعرف بـ «نَفَق سِكّة الحديد». كانت امرأةً مُكافِحة، وشُجاعة، وكانتْ شجاعتُها لا نظيرَ لها، إذْ إنّها تحدّتْ بعملها البُطوليّ هذا القانون الأمريكيّ الّذي يُجيز الرّقّ ويحميه، ووقفتْ في وجه أباطرة الرّقّ وتُجّاره الجشِعين، وكانتْ تضع روحَها على كَفّها في نِضالٍ إنسانيّ تاريخيّ. ونجحت (هارييت) فيما بعد من تهريب ما يقرب من (٨٠٠) عبد إلى شمال كندا. ووصل انزِعاج

السّلطات منها إلى أنْ وضعوا مكافأةً قدرها (٢٥٠٠٠٠) دولارًا لمنْ يدلّهم عليها، وكان هذا أكبرَ اعترافٍ بها، وبتأثيرها، ولم يكن العبدُ في تلك الأيّام يُباع بأكثر من (١٠٠٠) دولار!

نحنُ ما زلنا نُقاتل، لن يضيرَنا أنّنا وحدَنا في الميدان، ما دامتْ قضيّتُنا عادِلة، وحُصولُنا على حريّتنا واضحًا مثل انبِلاج الشّمس في صباحِ يومٍ بهيّ بعدَ ليلٍ طويل، وهل ضَرّ أهلَ الحقّ قلّةُ السّائرين في الطّريق، إنّ إيماننا بانتِصار قضيّتنا يُهوّن كلّ تعبٍ في سبيلِها، وكلّ تضحيةٍ من أجلها، وهل قالوا لكم إنّ القضايا العادلة تنتصر دون تضحيات؟!

في عام ١٨٥٠م أنجبتْ (أماندا) ولدَها الخامس أو السّادس، لم أعدْ أتذكّر، لكنّ ما أتذكّره أنّها كانت بِنتًا، وسَمّوها (هارييت) تيمُّنًا ببطولة (هارييت تابمان) ودورها في تحريرنا من مآسينا الّتي لم تنتهِ!



(٦٣)

صورةٌ للذكرى

إنّها ثمانون عامًا يا إلهي، مرّتْ كأنّها أحلام، بحلوها ومُرّها، بطيئةً أو سريعة، مُفرِحة أومُحزِنة، سعيدة أو شقيّة، في بلدي البعيد، أو في هذا البلد، هنا أو هناك، كانتْ أحلامًا بكلّ تناقضاتها، كلّ ما فيها يدعوك لأنْ تقف وتتفكّر فيما مضى وفيما هو آتٍ، فيما انقضَى وفيما تبقّى، إنّها أحلامٌ لأنّكَ لم تقبضْ على شيءٍ منها، وإنّها أحلامٌ لأنّك لم تحقّقْ مِمّا كنتَ تريدُه منها شيئًا، وإنّها أحلامٌ لأنّكَ كنتَ تقفُ منها على مسافةِ الحلم نفسه، تنظر إليها وهي تعمل فيك، تنفذ من خلالك، وتَعبُر، دون أنْ يكون لك قدرةٌ على أنْ توقِفها، أو تُغيّر مجراها، أو تلوّنها، أو تُحدّثها، أو حتّى تقول لها كلمةً واحدةً، كأنْ تكون: «أهلاً». أو... «وداعًا»!!

إنّها ثمانون عامًا، وماذا يرى الإنسان وهو يقف في قِمّة النّهايات، وينظر إلى السّهل البعيد الممتدّ أمامه؟! هل سينجو؟! أمْ أنّ الجرف سيهوي به في وادٍ سحيق؟! إنّها ثمانون عامًا شابَ لها الفؤاد قبل أنْ يشيب الفَوْد، وشابتْ لها الرّوح قبل أنْ يشيب الجسد، وطعنتْني فيه الذّكريات في كلّ يومٍ طعنةً حتّى لم يبقَ عضوٌ فيّ إلاّ وغاصتْ فيه تلك الطعنات عميقًا، وأثخنتْني بالجِراح حتّى لم يعدْ فِيّ دمٌ لِينَزف، ولا صوتٌ لأقول، ولا قدرةٌ لأرى.

إنّها ثمانون عامًا، ولقد قالَها من قبلُ مَنْ بلَغَها:

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ

ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يسأمِ

مضتِ الحياة، مَنْ يستطيعُ أنْ يُوقِفَ مَدّها الهادر المُتابِع منذ أنْ أذن الله لها مع بدء الخليقة أنْ تتدفّق؟ لا يهمّها من ابتلَعه طوفانُها، ولا يضَيرها من استغاثَ مِمّن استسلم تحتَ هدير أمواجِها، سائرةٌ تحصدُ في طريقها أرواحَ الأحياء إلى أنْ يأذن الله!

كَبُر (جورج)، صار يخرج للتّدريب على الصّيد مع مدرّب خاصّ، وصار يحضر اجتماعات أبيه التّجاريّة كلّها، وصار يأمر وينهَى كسيّد وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، ولقد كان يراني كثيرًا في مكتب أبيه، فلا يُعجِبه النّقاش الّذي يدور بيننا، وكان يتدخّل أحيانًا فيه، فيقول موجّهًا الكلامَ لأبيه: «كيفَ تسمح لصاحب هذه البشرة السّوداء وهذا العجوز الخَرِف أنْ يُناقِشك بهذه الطّريقة كأنّه نِدٌّ لَك؟! هل تفعل هذا مع أيّ عبدٍ آخر يا أبي؟!» وكثيرًا ما كان يُمسِك بيده إحدى التّحف الزّجاجيّة، ويضربها بكلّ قوّته في الجِدار، فتتكسّر، ثُمّ يأمرني: «أيّها العبدُ اللّعين، قُمْ بواجبك، هَيّا نظّفْ هذه الفوضى». وكان يقفُ فوقَ رأسي وأنا أنظّف فوضاه، ويكاد يركلني وهو يقول: «هذا مكانُكَ الطّبيعيّ؛ أنْ تكون تحتَ الأقدام، عليكَ ألاّ ترفع رأسكَ كثيرًا. أتعرفُ لماذا أيّها الزّنجي؟ لأنّ الرأسَ المرفوع سهل القنص».

حينَ بلغَ الثّامنة عشرةَ من عمره في عام ١٨٥٤م، صار هو الّذي يُلقي خُطبةَ الاحتِفالات الشّهريّة بدلاً من أبيه، وصار هو الّذي يدعو القسّيس للعِظة في السُّود، دون أنْ يحضرها، وصار هو الّذي يستقدم عازِفي الكهان، والآلات الموسيقيّة، والفِرق الغِنائيّة، وصار هو سيّد الظّلّ للبيت الكبير!

كان (مورو) الصّغير لا يزال يُرافقني، وفي الحقيقة لم يعدْ صغيرًا، ولكنّه كان ظِلّي هو الآخر، وامتِداد تجربتي الّتي كنتُ أودّ أنْ أنقلَها إليه، لعلّها تستمرّ فيه، وصار مُساعِدي، وقد سَمَح له السّيّد (جيم) بأنْ يظلّ برفقتي لسببٍ واحدٍ، حتّى يُساعدني إذا قمتُ بعملٍ يحتاجُ إلى قُوّةٍ بدنيّة. وكُنتُ قد استعضتُ به عن استِخدام عُكّازٍ أتوكّأ عليه، ولكنّ الأمر لن يطول كثيرًا قبل أنْ يكونَ لي عُكّازٌ على وجه الحقيقة، يكون رفيقي في سنوات ما بعد الثّمانين!

حينَ صادَفَنا السّيّد (جورج) أنا و(مورو) الصّغير في مكتب أبيه ذاتَ مرّة، استشاط غضبًا، وصرخ: «ماذا يفعل هذا العبد الحقير هنا؟». وكان يقصد (مورو) الصّغير، فقلتُ بصوتٍ هادِئ لعلّني أمتصّ غضبه: «إنّه يُساعدني كما ترى، ولقد كبرت». «إذا كبرتْ، فاجلسْ في كوخك حتّى تأتي ساعتُك، أمّا هذا العبد المُتطاول فليذهبْ إلى عمله». واقتربَ منه، وجذبه من عنقه جذبةً شديدة، وسأله: «ما اسمك؟». «مورو». «كم عمرك؟». «أربعةٌ وعشرون عامًا». فشدّ على عنقه بقوّة أكبر، وهتف بغضب: «عمرك أربعةٌ وعشرن عامًا، وتجلسُ هنا من دون عملٍ، أنا أعرفُ كيفَ أُدير هذه المزرعة من

العبيد الحمقى، يبدو أنَّ الأمور بدأتْ تُفلِت من يدِ أبي» وأطلقه، ثُمّ بصقَ في وجهه، وأمر بأنْ يُجلَدَ خمسين جلدةً، ثُمّ طلبَ من المُراقبين بأنْ يُلحِقوه في أشدّ وظائف المزارع قسوةً؛ فأُلحِقَ بمزارع التّبغ.

لا أدري كم أكل الدّهر وشرب من العمّة (تيري)، لكنّها بدأتْ تزحفُ نحو الموت هي الأخرى، أو يزحفُ الموتُ نحوها، أيّهما يرضَى بضِيافة الآخَر فهو الزّاحفُ نحوه، زرتُها بعدَ غِيابِ شهورٍ لم أرها فيها، بسبب بقائي في مُلحَقي وانشِغالي بالكتابة، حينَ رأيتُها مُمدّدةً على فِراشِها، كانتْ تبدو في هيئةٍ يُرثَى لها، واهنة، ضعيفةً، قد ارتخَى في جسدها كلّ عضو، عندما رأتني جاهدَتْ بكلّ قُواها أنْ تنهضَ من فِراشِها، لم يكنْ هناكَ أحدٌ يعتني بها في أوقات العمل طَوال النّهار، كان أولادُها أو أحفادُها يكتفون بوضع الماء عند رأسِها لكي تشرب إذا عطشتْ، وصحنًا من الطّعام البائت لتأكل إذا جاعتْ، ولم يكنْ يُسمَح لأحدٍ بأنْ يبقَى عندها، حتى الأطفال الّذين صار عمرهم ستّ سنين أو سبعًا، كانتْ أمّهاتهم يأخذْنهم معهنّ، وكان هناك أطفالٌ رُضّعٌ، يُحمَلون في أكياسٍ خلفَ ظهورهنّ أو على سيقانهنّ.

كانتْ وحيدة، وبائسة، وحزينة، لكنّ وميض فرحٍ قديمٍ لَمَع في عينَيها لرؤيتي، نهضتْ بكلّ ما تبقّى لها من قُوّة، وأرادتْ أنْ تقوم لكي تُعِدّ لي شيئًا من الطّعام أو الشّراب بِما توفر، فأشرتُ إليها والدّمعةُ تترقرقُ في عينَيّ أنْ ترتاح، فإنّما جِئتُ لتفقّدها، قالتْ لي: «نحنُ عِشنا معًا ومع المرحوم (دانيال) حوالي خمسين عامًا فكيفَ

هانَ عليكَ أنْ تتركني؟ لقد قصم رحيل (دانيال) ظهري، وتُريدُ أنتَ تقصِمَ روحي؟». أجبتُها: «لا، يا عَمّة، ولكنّ السّيّد جيم يحتاجني في مكتبه». «بالطّبع، فأنتَ أصبحتَ زنجيّ البيت ونحنُ زِنجيّي الحقول، أنتَ تأكل مِمّا يأكل السّيّد (جيم) ونحن نأكل التُّراب، لقد وجدتَ عنده راحةَ العيش وتركتَ شقاءَنا!». «شقاؤكم يا عمّة (تيري) هو حياتي، البقاء معكم، مع مَنْ يُحبّونني وأحبّهم هو الفرح الحقيقيّ، لا تظنّي أنّني أعيشُ هناكَ سعيدًا، أنا منكم، وسأناضل من أجلكم، من أجل أنْ يتغيّر هذا العذاب الّذي يُحيطُ بنا من كلّ جانب». رفعتْ العمّة رأسَها، وقرّبتْ عنقها منّي وهمست: «لا تتغيّرْ، المهمّ ألاّ تتغيّر، ولا تنسَ ما حدثَ معنا، ولا تتركْنا وحدنا». كدتُ أبكي، رددتُ: «أنا هناك وحيدٌ أيضًا، وأُكلَّفُ أحيانًا بأعمالٍ فوقَ طاقتي، وما زلتُ إلى هذا العمر أقوم بأعمال البستنة وتنظيف مكتب السّيّد (جيم) الكبير، وفي الآونة الأخيرة، بدأ ابنه السّيّد (جورج) بالتّدخّل في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وهو يُسبّب لي ضيقًا شديدًا، وقبل فترةٍ جلد (مورو) الصّغير، وأهانه، وبعث به إلى العمل في مزارع التّبغ». «لقد لاحظتُ ذلك يا عُمر، إنّ السّادة البِيض لن يتغيّروا، إذا كان الأب ذئبًا فهل تتوقّع أنْ يَلِدَ حَمَلاً، إنّ الأفعى لا تلدُ إلاّ أفعى، وهذا قدرُنا، إنّنا نحاول معهم حياةً لا يعيشُها أحدٌ من البشر، لكنّنا لا نملك أمام الظّلم إلاّ رحمةَ الله». «على أيّة حال، أريدُ أنْ أطمئنّ على الأولاد والأحفاد، وأولاد الأحفاد، هل العائلة بأكملها طيّبة؟». «إنّنا بخير، نرضَى بما أراده الله لنا». «كم صار عددُ أفراد العائلة؟». «لا أدري، مثلكَ، لم أعدْ منذ

سنين أُحصي مَنْ وُلِدَ لكثرتهم، ربّما هم زادوا عن خمسةٍ وعشرين... ماذا تعني كثرتُهم، إنّهم كلّهم عبيدٌ، لم يُصنَع السّوط في هذه البلاد المشؤومة إلاّ لظهورهم». «يا عَمّة (تيري)، أبلغني السّيّد (جيم) بأنّ مصوّر النّفوس في هذه الولاية سوفَ يمرّ بالمزرعة غدًا صباحًا قبل أنْ يذهب العُمّال على المزارع، ويريد أنْ يأخذ للعبيد صورًا ليُحصِيهم، بالطّبع نريدُ أنْ نلبسَ أحسنَ ما عندنا، ونُسرّح شَعرنا بأجمل التّسريحات، ونضع طاقات الزّهور على صدورنا، وياقات الفَخامة على أعناقنا، نُريد أنْ نتصوّر صورةً تاريخيّة للذّكرى، قالوا إنّنا يُمكن أنْ نحصل على نُسخةٍ من تلك الصّورة بعدَ أسبوع». لم تكترث العمّة (تيري) لذلك كثيرًا، وأشاحتْ بيدها ورأسِها كأنّ الأمر لا يعنيها. بِتّ تلك اللّيلة في كوخهم، واستقبلتُ العائلة في آخر النّهار عائدين من أعمالهم، وشرحتُ لهم فِكرة الصّورة فرحّبوا بها، وناموا ليلتهم فَرِحين.

في الصّباح، كُنّا على هذه الهيئة أمام عدسة الكاميرا، كوخٌ خشبيٌّ مُهترئ الباب، ومفتوحٌ على السّواد الدّاخلي، وتتدلّى على الطّرف سلسلةٌ من الزرد هي التّي يُغلَق بها الكوخ من الخارج، وأمام الباب عتبةٌ عبارةٌ عن درجتَين من الخشب كذلك، كانتْ تجلس عليها أُمّان هما (ويندي) و(أماندا)، وأمامها كان هناك كرسيّ خشبيّ مُزيّن في الأطراف بباقةٍ من الزّهور، وكان مُهيّئًا أنْ يكونَ قلبَ الصّورة، وتجلس عليها الملكة، وبالفعل كانتْ تجلس عليه العمّة (تيري)، عن يمينها كان هناك صَفٌّ من الرّجال الواقفين من الآباء

والأبناء، على الأغلب هم: (هنري) و(ألبرت) و(ويليام) و(مورو) الصّغير، وشابّان آخران لم أعرفهما. وعلى اليسار كان هناكَ صَفٌّ من النّساء الواقفات من الأمّهات والبنات، على الأغلب هم: (إميلي) و(ناتلي) وفي حضنها طفلةٌ صغيرة، و(إيزابيل) وشابّة رابعةٌ لم أتبيّن اسمَها. وأمام هذا الصّفّ الممتدّ عن يمين العمّة (تيري) وعن يسارها، كان هناك صَفٌّ أطول قليلاً، يضمّ عددًا من الأولاد والبنات الصّغار أعمارهم دون الخامسة عشرة، وكانوا عددهم عشرةً يفترشون الأرض، وينظرون بعيونٍ ملؤها الدّهشة والتّرقب جهةَ العَدَسة. أمّا أنا فكنتُ قد رتّبْتُهم هذا التّرتيب، قبل أنْ أقف عن يمين العمّة (تيري) مباشرةً حائلاً بينها وبين (هنري)، وقد كُنّا في المنظر العامّ سودًا نفيضُ بَياضًا وحُبًا، وكُنّا بالفِعل نلبسُ أفضل ثِيابنا، كان هناك بعضُ الفتيات يقفْن بدلال، ثانياتٍ أذرعهنّ وعاقداتٍ إيّاها على أوساطهنّ، وكان الصّغار من الشّباب يلبسون قُبّعات جيل المراهقين الّتي انتشرتْ في أيّامنا هذه، تلك الّتي يكون لها زائدةٌ على شكلِ قوسٍ أمامها تُظلّل الوجه، وتكون من قماشٍ مُخمليّ أو صوفيّ ثقيل، وبعضُ الأمّهات عقدْن أكفهنّ كأنّهنّ واقفاتٍ للصّلاة، ووضعنها عن يمين خدودهنّ، ورسمْنَ ابتساماتٍ غايةً في الجمال، وأنا؟ كنتُ قد وضعتُ فوقَ رأسي برنيطةً استعرتُها من السّيّد (جيم) كان يلبسها في احتفالاته، وكنتُ ألبس مِعطفًا خفيفًا أسودَ، وقد لففتُ فوقَ عنقي شَبرًا أسودَ كذلك، فاختصر السّوادان مع لوني فائق السّواد نصفَ قرنٍ من عمري، ولقد ابتسمتُ ابتِسامةً لم أبتسمْها في حياتي.

بعدَ أسبوع بعثتْ لنا دائرة النّفوس نُسخةً من الصّورة التّاريخيّة، فعملتُ لها إطارًا راقيًا من الخشب، وحميتُها بزجاجٍ شفّافٍ لكنّه قويّ، وعلّقناها في صدر الكوخ، ليراها كلّ مَنْ يدخل، وكان يظهر فيها كيفَ شكّلَتْنا يَدُ الحياة، وصوّرَتْنا، وبعثتْ بنا على هذا النّحو، كان تعاقُبُ الأجيال فيها يظهر من الطّفل الرّضيع إلى العمّة تيري التّسعينيّة، مرورًا بالآباء، ثُمّ الأجداد، ثُمّ آباء الأجدادا ولئنْ كنتُ غريبًا عن هذه الشّجرة الباسقة الممتدّة الفُروع، إلاّ أنّني كُنتُ أوّل بُستانيٍّ يرعاها، وإنّني وإنْ لم أكنِ الجذر فيها، إلاّ أنّنا كنتُ الماء الّذي سَقاها، واعتنى بها حتّى صارتْ إلى هذه الحال.

فرحت العمّة (تيري) بالصّورة، وكانتْ تطلب من أحد أحفادِها أو أبناء أحفادها أنْ يُنزلها لها من على الحائط، وتقضي السّاعات في تأمّلها، وكم كانتْ تهمس، دون أنْ يلحظَ أحدٌ: «آه، لو كان (دانيال) فيها!».

كان شِتاء عام ١٨٥٥م قاسِيًا، هطلتْ فيه أمطارٌ شديدةٌ، نفذتْ إلى الكوخ فأغرقتْه بالماء، ثُمّ أعقبهَا رِياحٌ عاصفة، كانَ صوتُ عُوائها يبعثُ الفزع في القلوب، وفي شهر كانون الأوّل في آخره، وقبل عيد الميلاد بأيّام، سقطتْ ثُلوجٌ كثيفةٌ، فغطّتِ الطّرقات، وسكَنَ بعدَها كلّ شيء. ومكثَ أهل الأكواخ في أكواخهم، ولمّا طلعَ الصّباح على كوخنا كانت العمّة (تيري) قد فارقتِ الحياة، ورحلتْ بقلبِها الأبيض الّذي كان أشدّ من بياض الثّلج آنئذٍ، بكيتُ لموتها بكاءً شديدًا، لقد انكسر الغُصن الثّاني بعد انكسار الأوّل برحيل (دانيال)،

وشعرتُ هذه المرّة أكثر من أيّة مرّةٍ سابقة بأنّني أصبحتُ وحيدًا، رحلت (تيري) الّتي كانتْ أوّل مَنْ عالجَ جروحي، وهدّأ اضطِرابي، وأزال قلقي، قبلَ خمسينَ عامًا حينَ جِئتُ إلى هذه البلاد الغربية العجيبة القاتِلة، كانتْ أمّي، وكانتْ ملاذي، تعلّمتُ منها كيفَ يكون الصّبر طريق المُؤمنين، وكيفَ يكون الأمل عِلاجَ البائسين، وها هي ترحل، فكيفَ سيكون الصّبر على فِراقها، وكيفَ يكون الأمل بقضاء ما تبقّى لي من حياةٍ في هذه الحياة؟!

خرجنا في الثّلج، وكان السّيّد (جورج) يريدُنا أنْ نأخذها على ظَهر حَصان، ونرميها في الثّلج بعيدًا عن المزرعة في أحد الأدغال، فاستهجنتُ هذا الاقتِراح الأثيم في نفسي، وأصررتُ على أنْ أدفنها كما يليق بمُناضِلة، مُناضِلة خدمَت البِيْض - ومن ضمنهم هذا الفتى المُتعجرِف المُتهوّر الّذي يقول هذا الكَلام - كلّ حياتِها، وأفنتْ عُمرَها في تلك الخِدمة دون أنْ تشكو أو تعترض أو تضجر.

خرجنا بالمعاول، أنا وأبناؤها وأحفادُها، وحفرنا لها خلفَ كوخنا، يُمكننا أنْ نزورَه بسهولةٍ كلّما أردْنا، وغَسّلتْها بناتُها غُسل المُسلمين، وصلّينا عليها صلاة المُسلمين، ودفنّاها في ذلك القبر الّذي حَوى ثراهُ جسدَها الطّاهر. وهل الحياة إلاّ ما كان، عبرتْ هي من بوّابة الموت، لتكون أصغرُ حفيداتها في انتظار مولودٍ جديدٍ سيعبر على الضّفّة الأخرى من بوّابة الحياة!

(٦٤)

لا يُمكن أنْ تُغسَل إلاّ بالدّم!

صار السّيّد (جورج) يستقصدُ أنْ يجلسَ معنا أنا وأبوه إذا كُنّا كذلك في مكتبه، وصار يتقصّد الإساءة باللفظ أو الفِعل إليّ، وكان أبوه ينصحه، ويعظه، لكنّه لا يستمع ولا يتّعظ، ثمّ إنّه حُبّبَ إليه اللّهو، فكان يقضي لياليه في الشّراب، وزيّنَ له الشّيطانُ القسوة، وأفسدَتْه السُّلطةُ الّتي بين يدَيه، فكان يقضي نهاراته في الطّواف على المزارع فوق جَواده، ومعه سوطُه الشّهير، يضربُ به مَنْ يقع في وجهه دون سبب، ومَنْ يختاره هو على هَواه دون ذنب. فكان العُمّال إذا رأوه تحاشَوه، وإذا أبصروه قادِمًا من بعيدٍ فوقَ صهوة حِصانه انكمشوا على أنفسِهم، وذُعِروا، وتوقّع كلّ واحدٍ منهم أنْ يهوي السّوط على ظهره في أيّة لحظةٍ، ولم يكنْ يردعه رادِعٌ، وشَكَا إليّ بعضُ العبيد ما يفعله، لعلّني أُحدّث أباه، فيحدّثه أبوه في ذلك فيكفّ، ففعلتُ، ولكنّه لم يرتدع، إلى أنْ ضربَ بسوطِه إحدى العامِلات مرّة، وهي منحنيةٌ تجزّ ساق القصب، فالتفّ السّوطُ على رأسِها، فجذَبَه السّيّد (جورج) بقوّة، ورجَع بخيلِه إلى الوراء مع تلك الجذبة، فاقتلعَ عينَ المِسكينة، وراحتْ تصيح، وتولول، فيما راحَ هو يُقهقه، وفقدتْ عينَها بهذه السّرعة، وَنَصَحَها المُراقب ألاّ تقول شيئًا، وأنْ تسكتَ على ما حدث، وأنّه سيُريحها سائر هذا اليوم، وسيزيدُ في حِصّتها من الطّعام، وتسرّب الخبرُ إليّ، فقصصتُه على أبيه،

ورجوتُـه أنْ يفعـل شـيئًا، قبـل أنْ يُدمّـر ابنُـه المتهـوّر مـا بنـاه طَـوال هـذه السّـنوات، ولكـنّ الأب كان ضعيفًا، وهـو أضعـفُ أمـامَ ابنـه، وكان يقـول لي: «إنّـه لم يبـقَ لي بعـدَ أنْ رحلـتْ أختـه سِـواه». «ولكنّـه يفتـكُ بسُـمعتك عنـد العبيـد، وإنّ هـذه الأفعـال مـن شـأنِها أنْ تقلّـل إنتاجيّتهـم لأنّهـم خائفـون، ومـن شـأنِها أنْ تجعـل بعضَهـم يُفكّـر بالانتِقـام، أو التّمـرّد، وقـد يحدثُ ما لا يُحمَد عُقباه». وكان أبوه يُدرك ذلـك، ولكـنّ الولـد الطّائش بـدل أنْ يتوقّـف، أو يرعـوي، زادَ مـن أفعالـه الهمجيّـة.

ولم أصبِرْ على ذلك، حتّى واجهتُه في مكتـب أبيـه: «إنّـكَ تُسيءُ إلى أبيـكَ، وتُسيءُ إلى نفسِـك». «ومـا شـأنُكَ أنـت؟ انظـروا مـن يتكلّـم؟ لم أكـنْ أدري أنّ للـدّودة فـمًا!». نظـرتُ إليـه مُحنقًـا، لكنّـني كتمـتُ مـع هَرَمـي غضبـي، وقلـت: «إننـا لسـنا ديدانًـا أيّهـا السّـيّد المُتعجـرف، ولسـنا حَيواناتٍ حتّـى تتصـرّف بنـا كـما تشـاء، ولسـنا أدواتٍ حتّى تُعـذّب مَن تريـد، وتقتلـع عَيـن مـن تريـد، إنّنـا بشر، ولنـا حقـوق». اقـتربَ منّـي، وأمسـكَ بِفكّـي، وشـدّ عـلى كلماتـه المَغِيظـة: «لم تكونـوا بشرًا، ولـن تكونـوا، وأنـتَ؟ أنـتَ بالـذّات أيّهـا العَجـوز الخَـرِف إمّـا أنْ تعـرفَ حـدودك، وإمّـا أنْ أعـرّفكَ أنا إيّاهـا». وأطلقنـي، وقـد كـدتُ أختنـق، فهتفـتُ وأنـا ألتقـطُ أنفاسـي: «إنّني في سِـنّ جَـدّك أيّهـا الغِـرّ، وعندمـا جِئـتُ إلى هـذه المزرعـة لم تكـنْ قـد جِئـتَ أنـتَ إلى الحيـاة، ولقـد شـهدتُ ولادَتـكَ، وفـرحَ أبيـكَ بـك، وحملتُـكَ بـينَ يـدَيّ، ولـو كان لديـكَ شيءٌ من الأخـلاق مـا فعلـتَ مـا فعلـت، ولكـنّ البـشر وحدهـم هـم الّذيـن يعرفـون قيمـة الأخـلاق، ثُـمّ عليـكَ أنْ تعـرفَ أيّهـا البَطِـرِ أنّ كلّ مـا أنـتَ فيـه مـن نِعمـةٍ ومـن تـرفٍ ومـن ثـراءٍ فاحـشٍ،

إنّما جاء من عَرَقِ هؤلاء العبيد الّذين تحتقرهم، وقامَ على أكتافهم، وَسَقَوه من دِمائهم، فلا تكنْ ناكِرًا لجميل صُنعهم». فردّ هائِجًا: «إنّكَ لتستحقّ القتل والسّحق، إنّ الثّيران في حظائر أبي لتعمل في المزارع أكثر منكم، وإنّ الأبقار في الزّرائب لتحلبُ لبنًا أكثر منكم، وإنّ الكلابَ في المزارع لتحرسُ بشكلٍ أحسنَ منكم، وإنّ الخنازير في لَحْمِها لتُشبع البُطون أكثر منكم، فما الفضل الّذي تُدِلّ بها علينا أيّها الخرف اللّعين؟! ثُمّ إنّنا دفعْنا أثمانًا لشرائكم أكثر بكثيرٍ من الأثمان الّتي دفعناها في الحَيَوانات؛ فمن هو الأفضل بينكما إذًا؟». ثُمّ تدخّل أبوه، وطردَه خارج المكتب، فخرجَ مُغضبًا، وزعق في وجه أبيه وهو يُشير بإصبعه مُهدِّدًا قبل أنْ يخرج: «وأنت... أنتَ مَنْ جرّأت مثل هذا الحُثالةِ علينا، أنتَ مَنْ دلّلْتَ هؤلاء العبيد حتّى تمرّدوا على أسيادهم... لكنّني لن أتركهم لكَ بعدَ اليوم، أنا أعرفُ دواء عبيدكَ الحمقى... هذا...» وأشارَ إليّ: «عبدُكَ هذا لا أدري لِمَ اشتريته وهو لا يُساوي سنتًا واحِدًا، عجوزٌ يبول على نفسه، ويحتاج إلى مَنْ يُعينه حتّى يقومَ بخدمتنا، وإذا كان السّبب الّذي سمعتُه عن شرائكَ له صحيحًا، فلا بُدّ أنّكَ فقدتَ عقلكَ أيضًا». وخرج بعدَ أنْ كسر بعضَ الزّجاج، وصرخ بي قائِلاً: «نظّفْ هذه الفوضى أيّها اللّعين».

مرّ على تلك الحادثة شهر، لم تشتكِ الزّنجيّة، وذهبتْ عينُها سُدًى، ولم يعترض أحدٌ، ولم يُحاسَب الفاعل، بل ظَلّ يتباهَى بأنّه يستطيع اقتِلاع عينِ أيّ عبد من ضربةٍ واحدةٍ بالسّوط، ولقد ارتكبَ بعدَ ذلك من الفظائع ما تُسوّدُ به الصّفَحات.

كنتُ - على عادتي - في مكتب السّيّد (جيم) أقرأ الصّحف الّتي تصل إليه، وصرتُ أقرؤها سِرًّا، أو بعيدًا عن عينَي ابنه حتّى أتجنّب حماقاته، في هذا العام ١٨٥٦م دخلَ قلبي شيءٌ من الأمل في طريق التّحرير، لكنّه من جديدٍ ليس الطّريق الّذي ارتضيتُه، كان طريق (هريت تابمان) هو ما أُفضّله، هذه المرّة، جاءتْ مُحاربةُ الرّقّ من رجلٍ أبيض، بخلاف كلّ المحاولات السّابقة الّتي قام بها رِجالٌ سُود، كان الثّائر واسمُه (جون براون) أحد القادة العسكريّين في الحرب الأهليّة بين مؤيّدي الرّقّ ومُناهضيه، عَمِل قبل أنْ يكون عسكريًّا في مهنٍ متعدّدة، فقد كان سائقًا، وعاملاً بالأجرة، ومزارعًا، وتاجرَ صُوف، ودبّاغًا. لكنّ كُرهه للعبوديّة الّذي تشبّعه منذ طفولته، جعله يتوجّه في أيار ١٨٥٦م إلى مُخيّم على ضفاف (بوتاواتومي) وأمام عددٍ من الشّهود قتل بالفأس خمسة رجال من المشتبه بهم في قتلِ خمسةٍ من العبيد من قبلُ. ثُمّ شنّ في عام ١٨٥٨م هجومًا على أحد الأمكنة في ولاية (ميسوري)، وحرّر عددًا من العبيد وقامَ بتهريبهم إلى (كندا). في العام ذاته ١٨٥٨م دعا في مدينة «شاتام» الكنديّة إلى مؤتمر حضره عددٌ من السُّود والبِيض وسنّ دستورًا تحرّريًا، وانتُخِب قائدًا أعلى لحكومةٍ وهمية، لقد كانَ طَمُوحًا بشكلٍ كبيرٍ!

في عام ١٨٥٩م هاجم ومعه عشرون مُسلّحًا فقط قاعدة عسكرية على الحدود بين (فيرجينيا) و(ميريلاند)، واستولى على مستودعٍ للذّخيرة تابعٍ لحكومة الاتّحاد من أجل أنْ يقوم بثروةٍ لتحرير

العبيد، وظنّ أنّ العبيد سيثورون معه، وسيقفون موجًا طامًّا إلى جانبه، فهو يفعل ذلك من أجلهم، لكنّ الّذين تبعوه قليلون، صمدَ أمام هجوم القاعدة العسكريّة يومَين، واحتَجز ستين شخصًا منهم عسكريّون كرهائن. لكنّ هجومًا كاسِحًا مُضادًّا من قِبَل الجيش أوقعه أسيرًا بعد أن قُتِل عشرة من رجاله، بينهم اثنان من أبنائه. جرتْ له مُحاكمةٌ وحُكِم عليه بالإعدام شنقًا.

درسٌ آخَر يُضاف إلى حَركات التّمرّد، يجب أنْ تكون هناك عقيدةٌ تبني عليها التِفافَ النّاس من حولك، الطّموح لا يكفي، الأحلام بالحرّيّة لا تكفي، العقيدة الّتي يجب أنْ تزرعها في عقول العبيد بوجوب التّحرّر ربّما تكون السّبيل، الثّورة بالسّلاح غالِبًا ما تكتسبُ تأييدًا أقلّ من ثورة الأفكار والإرادة والثّورة السّلميّة، إضافةً إلى أنّ مُقاومي تلك الثّورة الّذين يقفون ضِدّها يكتسبون - لكونها مسلّحة - شرعيّة في القَضاء عليها، ثلاثة أرباع الثّورات المُسلّحة باءتْ بالفشل.

ما تذكّره النّاس من ثورة (جون براون) بعد موته، ليسَ عددَ أتباعه، ولا عددَ الّذين قَتَلهم، ولا الرّصاصاتِ الّتي أطلقَها، ولا الذّخائر الّتي غَنِمها، ولا عدد الّذين استُشهِدوا من جيشِه، ما تبقّى كلماته الّتي قالَها بينَ يدَي إعدامه، والّتي حوّلتْه إلى أسطورة، لقد قال بِما يُشبه النّبوءة: «إنّ موتي سوفَ يخدمُ قضيّة الحرّيّة أكثر من أيّة وسيلةٍ أخرى، وإنّ جرائمَ هذا البلد الآثم، لا يُمكن أنْ تُغسَل

إلاّ بالدّم». ومع أنّ رِفاقه اقترحوا عليه تدبير هروبه، وكانوا قادِرين على ذلك، لكنّه أبى، وحُوكِم، وأُعدِم، وقال فيه الفيلسوف (رالف إيمرسون): «هذا القِدّيس سيجعل للمشنقة مجدًا كمجد الصّليب».

ماتَ هذا الثّائر في ذلك المكان البعيد، وولدتْ (إيزابيل) هنا ابنَها الثّاني، وسَمّتْه (جون) تيمّنًا بالعمّ (جون) الّذي كانتْ تسمعُ عنه من جدّة أمّها العمّة (تيري)، ولا أدري أنا ما حال شجرة الصّنوبر الّتي زرعتْها فوقَ قبره؟! وتيمّنًا كذلك بالثّائر (جون براون)، متّى ستتوقّف هذه البطون عن الانتِفاخ؟!

عُدتُ للكتابة والقراءة، الانغِماس فيهما من أنجع الوسائل الّتي حمتْني في هذه البِلاد من الخَرَف، ومن الموت، ولقد أرادَ السّيّد (جيم) أنْ يُكفّر عن حماقات ابنه في ذلك اليوم الّذي تناقشنا فيه هُنا، فمَدّني بأوراقٍ جديدة، وبحبرٍ وفير، وكان يأتي إلى مُلحَقي أحيانًا، وينظر إليّ مُعجَبًا، ويهزّ رأسه، ويقول: «لا أدري كيفَ تملك الصّبر والجَلَدَ على الكتابة حتّى هذه السّن...» وتوقّف قليلاً قبل أنْ يُتابع: «أريدُ أنْ أقول لكَ شيئًا... لا تكترثْ لِما قالَه ابني في ذلك اليوم... إنّه طائشٌ، وما زال صغيرًا». وخرج.

نحن نكتب لنُحيي ما مات، نكتب لكي تبقى الذّكرى سيّدة الحياة، ومع أنّها تَحرِق وتُؤلِم، لكنّها أيضًا تُضيءُ وتكشف!

(٦٥)

البِيض في وَضْعٍ مُتفوِّق، والسُّود في وَضْعٍ أدنى!

لم تُحدِث ثورة (جون براون) فرقًا في قوانين الرّقّ، فقد ظلّ القانون القديم معمولاً به؛ قال رئيس المحكمة العُليا في (ميسوري) في عام ١٨٥٧م: «إنّ السُّود لا يحقّ لهم الطّموح إلى صفة مواطن... وإنّهم عندما وُضِعَ الدّستور الأمريكيّ ووُوفِقَ عليه، كان الزّنوج يُعَدّون كائناتٍ من مرتبةٍ دُنيا تنحدر إلى مستوًى ليس لهم فيه أيّ حَقٍّ يُلزِم الأبيضَ باحترامه... ثُمّ إنّ السّود ليسوا مَعنيّين ولا مَشمُولين بإعلان الاستقلال الّذي أقرّ مبدأ المساواة بين النّاسِ جميعًا».

في تلك الأيّام كان نجم (إبراهام لنكولن) قد بدأ يصعدُ بشكلٍ سريعٍ، كانتْ خِطاباته تسبقه، وبلاغته فيما يختبئ وراء كلماته تُرضِي طموح البِيض والسُّود معًا، ودِقّته في عباراته تُقدّمه باعتباره رئيسًا مُحتملاً قادِمًا للولايات المُتّحدة، وفيما كان (لنكولن) يسعى إلى تحقيق حُلمه وطُموحه، ويطوفُ أرجاء الولايات كلّها من أجل ذلك الحُلُم، كان هناك مِئات الألوف من العبيد في كلّ مكانٍ يذهبُ إليه، يُعانون أشدّ المعاناة، ويُضطَهدون أشدّ الاضطِهاد!

يبدو أنّني انشغلتُ بالسّياسة هذه الأيّام، لقد كان الانشِغال بها يدعوني إلى أنْ أعيشَ الحالَين من يأسٍ وأمل، أرى أنّ هناكَ أملاً

سيتحقّق بتحرير العبيد من خِلال قانونٍ يسري على كلّ البشر الموجودين فوقَ هذه الأرض، ولكنّ مواجهته وخاصّة مِن ولايات الجنوب، وممثّليها في مجلس الشّيوخ يجعل اليأس يستشري. مع ذلك لا زلتُ أحلم بأنْ يتحقّق الحلم بإدخال قانون تحرير العبيد هذا إلى الدّستور الأمريكيّ من دون دِماء، ويسري علينا نحن السُّود جميعًا، وأنا واحدٌ منهم، فنستيقظ ذات صباحٍ وقد صِرْنا أحرارًا، إنّني من كلّ قلبي أتمنّى أنْ يأتي ذلك اليوم قبل أنْ أموت، أريدُ أنْ أصيرَ حُرًّا ولو يومًا واحِدًا قبل رحيلي عن هذه الفانية!

أنا الآن لا أعبر ردهة المُلحَق الّذي أعيشُ فيه، ولا أقفُ في مكتب السّيّد (جيم) إلاّ على عُكّازي، لقد أحنتِ الأهوال ظَهري، وقوّستِ السّنون عِظامي، وها أنذا في أيّام البردِ أرتجفُ مثل رجفةِ طفلٍ يتعلّم المشي في عامِه الأوّل، إنّها دورة الحياةِ إذًا، فيا ربّ إذا حانتْ ساعتي فلا تحرمْني من رَحمتك.

شَغَلتْ حملة (لنكولن) في الانتِخابات الرّئاسيّة الصّحف، كانت الصّحف الّتي تتسابَق إلى حضور الحملات، وخطابات المُرشَّحين للانتِخابات، تقفُ طويلاً أمام عبارات (لنكولن)، وتحتاج إلى تفسير، قال (لنكولن) في معرض حديثه عن الرّقّ: «إنّ العبوديّة مُدانةٌ خُلُقيًّا، ولكنّ الدّستور لا يُخوّل الكونغرس إلغاءَها». فيتركُ الباب مُوارِبًا، ثُمّ هو أمام حشدٍ كبيرٍ يقول: «علينا أنْ نعرفَ ما إذا كانَ الأسودُ كائِنًا بشريًّا أم لا، فإذا لم يكنْ بشرًا فيستطيع إذًا مَنْ هو بَشَرٌ أنْ يُعامِله كما يروقُ له بمقتضى السّيادة الشّعبيّة، أمّا إذا كان

الأسودُ من البشر، أفلا يكونُ الحُؤول بينَه وبينَ حُكمِ نفسِه تهديمًا للسّيادة الشّعبيّة؟».

(لنكولن) ذكيّ، لكنّه مُراوغ، وخطيبٌ تهتزّ له الأجسادُ على الأعواد، وتطرب الآذان لعباراته الفلسفيّة. ألقى (لنكولن) خِطابًا بعد إعدام الثّائر (جون براون) قال فيه: «إنّ بيتًا مُنقسِمًا على نفسِه لا يُمكن أنْ يستمرّ في العيش، وإنّ هذا الوطن لا يُمكن أنْ يظلّ مُنقسِمًا إلى ولاياتٍ حُرّة وأخرى استِرقاقيّة. وأنا لا أحبّ لهذا الاتّحاد أنْ ينهار وأنْ ينهدمَ هذا البيت، وإنّما أحبّ أنْ يزول الانقِسام، وأنْ يظلّ البيتُ قائِمَ الأركان، وهذا لا يُمكن أنْ يتحقّق إلاّ بأحدِ أمرَين: إمّا أنْ يكونَ في الولايات المُتّحدة رِقٌّ أو لا يكون». مَهّد هذا الخِطاب له الطّريقَ إلى الفوز، وفاز فِعلاً برئاسة أمريكا وصار رئيسًا في ١٤ آذار من عام ١٨٦١م، ولمّا علمت الولايات الجنوبيّة بفوزه، أخذتْ تنسحب من الاتّحاد واحدةً بعدَ الأخرى. حتّى انسحبتْ خمسُ ولاياتٍ وشكّلتْ ما يُسمّى (الولايات المُتحالفة الأمريكيّة). ثُمّ كان إطلاقُ النّار في يوم ١٢ إبريل من عام ١٨٦١م على قلعة (سومتر) في ميناء (تشارلستون) في (كارولينا) الجنوبيّة، الميناء الّذي حطّتْ فيه سفينتي أوّل ما قدمتُ إلى هذه البِلاد قبل ما يزيد عن خمسةٍ وخمسينَ عامًا، واضطُرّت حامية القلعة إلى الاستِسلام، وردّ (لنكولن) على ذلك بأنْ دَعا الأمريكيّين للتّطوّع في الجيش لمواجهة الانفِصال وحماية الاتّحاد، فلبّى رغبةَ الرّئيس أفواجٌ من الشّماليّين خِفافًا، وكان ذلك أوّل السُّبُل في الذّهاب إلى الحرب الأهليّة المُدمّرة.

قال لي السّيّد (جيم) ونحن في مكتبه: «ها هو (لنكولن) يسعَى إلى تحرير العبيد». هززتُ رأسي قائلاً: «بالنّسبة للسّيد لنكولن لا توجد حرّية، توجد خِطابات عن الحرّيّة». لم يُعجِبْه قولي، فطلب: «هل يمكن أنْ توضّح ما قلت؟». رددتُ: «إنّه ليسَ تمامًا كما تقول يا سيّدي، الحرّية فِعْلٌ شُجاعٌ، لا أقوالٌ بَرّاقة». «كيف؟». «إنّه يسعى إلى الحِفاظ على الاتّحاد أكثرَ مِمّا يسعى إلى تحريرنا». «وكيفَ عرفْتَ ذلك؟». «ربّما لم تُدقّقْ في خطاباته، ولا في مُذكّراته». «وهل قرأتَها؟». «حرفًا حرفًا». «فما الّذي وصلتَ إليه؟». «إنّه لا يريد أنْ يُغضِب البِيض، ولا يُريد تحريرَنا دفعةً واحدة، ويريدُ على حدّ قولِه أنْ نُحافِظَ جميعًا على توازن السّفينة، أنتمُ الرّبابنة أصحاب السّيادة، ونحنُ لسنا أكثرَ من بَحّارين، وفي النّهاية لا يرى أيّ مساواةٍ بيننا». «وأينَ قرأتَ ذلك؟». قرّبْتُ الكِتاب منه: «انظر ما قاله هنا». «اقرأه لي». «أنا أقتبس يا سيّدي النّصّ بالحرف». «وأنا أسمع». «أنا لستُ، وما كنتُ قَطّ من مُؤيّدي الوصول - بأيّة صورةٍ كانت - إلى المُساواة بين العِرقَين الأبيض والأسود، أنا لستُ وما كنتُ قَطّ، من القائلين بأنْ نجعلَ السُّودَ ناخِبين أو مُحلَّفين، أو أنْ يُتاحَ لهم شَغْلُ الوظائف العامّة، أو الزّواج بالبِيض، وسأقول إنّ ثَمّةَ فرقًا طبيعيًّا بين السُّودِ والبِيض يحول دونَ حياتهم معًا على قَدَمِ المُساواة السّياسيّة والاجتماعيّة. وما داموا لا يستطيعون سبيلاً إلى العيشِ كذلك فَلْيبقُوا معًا؛ البِيض في وَضْعٍ مُتفوّق، والسُّود في وَضْعٍ أدنى. وأنا أقول إنّ المكانة العُليا المُتفوّقة ينبغي أنْ تكونَ للعِرق الأبيض». وصمتُّ، ونظرتُ في وجه

السّيّد (جيم)، وتابعتُ وأنا أطوي الكتاب: «انتهى الاقتباس يا سيّدي». زَمّ السّيّد (جيم) شفتَيه، وأزال النّظّارة عن عينَيه، وقال بأسًى: «لقد جرّتْ مُحاولاته لتحرير العبيد البِلادَ إلى الحرب الأهليّة كما ترى». «لقد كان انفِصالُ الجنوبيّين عنه هو الّذي جَرّه إلى الحرب، لا تحريرُنا، وها نحن مع ذلك، نُصدّقه، ويتطوّع كثيرٌ من السُّود في الجيش لإنقاذ الاتّحاد على أملٍ أنْ يكون من وراء ذلك إنقاذ جنسنا من العبوديّة». ردّ السّيّد (جيم) مُؤكّدًا: «إنّ السُّود يُبلُون في الحرب جيّدًا». ضحكتُ قبل أنْ أقول ساخِرًا: «ولكنْ ألم تكونوا تقولون إنّنا لا نُحسِنُ شيئًا، وإنّنا لا نرقَى إلى أنْ نحملَ سِلاحًا، الآن، عندما صِرتُم بحاجةٍ إلينا في الحرب جنّدتُمونا؟ ألمْ نكنْ لا نتقنُ فَنّ الحرب، ولا ركوب الخيل، ولا إطلاق الرّصاص، ولا تلقيم المدافع، ولا صُنع الكمائن... فما الّذي تَغيَّر فينا فجأة؟!». ردّ مُنزعِجًا: «ليسَ هذا وقتَ الجِدال في هذا الأمر، تعرفُ أنّ كلّ شيءٍ يحتاجُ إلى وقت، وعليكمْ أنْ تصبروا». كنتُ أريدُ أنْ أقول له: «أكثرَ من ثلاثمئة سنةٍ؟! كيفَ يكون شكلُ الصّبر بعد هذه القرون الثّلاثة يا سيّدي؟! نحنُ ضحايا عُنصريّتكم، واستعلائكم، وعجرفتكم، ونظرتكم الدُّونية إلى غيركم.. يا ... يا سيّدي!!» لكنّني بقيتُ صامِتًا.

عكفتُ بعد ذلك على كتاباتي، منذ أكثر من ثلاثين سنةً وأنا أحرّرُ فصلاً جديدًا في مذكّراتي كلّ ما سنحت الفرصة. إنّني أحتفظُ بكلّ ما كتبتُ في هذا المُلحَق بالبيت الكبير، لم يعد السّيّد (جيم) يطلبُ منّي موافاته في مكتبه كثيرًا، هَرِمْنا معًا، وإنْ كنتُ أنا أكبره

بخمسَ عشرةَ سنةً على الأقلّ. تجاوزتُ التّسعينَ من عمري، كنتُ أظنّ أنّ السّبعين هي نهاية المطاف، فعبرتْ عشرُ سنين، فلمّا بلغتُ الثّمانين قلتُ ليسَ بعدَ الثّمانين حياة، ثُمّ غَبَرت عشرُ سنين ثانية، وها أنا في التّسعين، ولا أدري متى ينقطع ذلك الحبلُ فتتحرّر الرّوح، فلا يعودُ لي في هذه الفانية حياة.

إنّ ساعات خلوتي هنا تُعيدني إلى أيّامي الأولى، تمرّ صُور طفولتي ببالي كثيرًا، أتذكّر أيّامي في (تُوبا) فيذبحني الحنين إليها، أحنّ إلى صَلَوات القِيام، أحنّ إلى صلوات الجماعة، إلى التّراتيل الّتي تبدو كدويّ النّحل في ليالي الشّتاء الطّويلة، أحنّ إلى أذان الفجر، أتذكّر المرّة الأولى الّتي رفعتُ فيها الأذان على ضِفّة النّهر في قريتي في (فوتا تور) وكان أبي يستمع إليّ خِلسةً، فلمّا أنهيتُ اعتنقني، أشتاقُ إلى عِناق أبي، إلى يدَيه الحانيتَين، إلى صوته الدّافِئ، قال لي يومَها: «إنّكَ ستُصبِحَ إمامًا». تمنّيتُ بالفِعل أنْ أُصبِحَ إمامًا، ولكنّ يدًا آثِمةً امتدّتْ لتخنقَ تلك الأمنية، وتحملني على ظهر سفينة العبوديّة إلى هذه البِلاد الّتي لم أكنْ أعرفها، ولم يدرْ في خَلَدي لحظةً واحدةً أنّني سأقضي فيها هذه السّنوات الطّوال كلّها!! ما أصعبَ أنْ تتذكّر كلّ ذلك!!

دَخَل عليّ المُلحَق في إحدى اللّيالي السّيّد (جورج) فرآني مُكبًّا على الكِتابة، ورأى حولي بعضَ الكُتب. فأمرني أنْ أنهض، فوقفتُ وأنا لا أكادُ أقوى على الوقوف، ثُمّ إنّه هَوى بكفّه فصفعني صفعةً أوقعتْني على الفور، ثُمّ انحنى عليّ وأنا بين الصّحو والغيبوبة، فرفعني، وظلّ مُمسِكًا بخناقي، وسال الزّبدُ يتطاير من شدقَيه،

ورائحة الخمر تفوح من فمه: «ماذا تصنع في هذه السّاعة أيّها العبدُ اللّعين؟». أجبتُ وأنا لا أكادُ أقدر على النُّطق: «إنّني أكتبُ لأبيكَ». أرسَلَني، وهو يزفر، ثُمّ تناول الأوراق فمزّقها، ونثر مِزَقَها في أرجاء الغرفة، وداسَ الكُتب، وركَلَها بقدَميه، وخرج وهو يسبّ، ويلعن: «هذه آخِر مرّة أراكَ تكتبُ فيها، أنا لا أدري كيفَ يسمح لكَ أبي بذلك حتّى الآن؟ هل هناك عبيدٌ يعرفون الكِتابة؟ لكنّني أعرف أنّكما عجوزان خَرِفان؟ لعنة الرّبّ عليكما إذا كُنتما تؤمنان به». وكعادته كسّر في طريقه ما كان قابِلاً للتّكسير، وأنهى فورته وهو يصفق الباب بقوّة: «نَظّفْ هذه الفوضَى أيّها اللّعين، لن أسكتَ على هذا بعدَ اليوم، ولتذهبْ أنتَ وأبي إلى الجحيم».

(٦٦)

إنَ دولةَ قامتْ على الظّلم لن تَدُوم

في الإنجيل بعضُ البَياض، كانتْ هناك صفحاتٌ تنتظر أنْ أكتبَ فوقَها، خاصّةً تلك الّتي في بدايته أو نهايته، كتبتُ سورةَ النّصر: «إذا جاء نصرُ الله والفَتْح». كأنّني أرى النّصر بعدَ ستّين عامًا من الهزائم والمصائب الّتي عايشْتُها هزيمةً هزيمة، ومصيبةً مُصيبة. لم يكن النّصر مقصورًا يومًا على الفتح الجليل، ليس بالسّيف وحده ينتصر الإنسان، كان انتِصاري على بقائي عبدًا له دون سِواه، أنْ أُحافِظَ على ديني وعقيدتي ولغةِ القرآن انتصارًا كذلك، ربّما هو أعظم من الانتصار في المعركة، إنّ الانتِصار في ميدان النّفس لهو أكبر من الانتِصار في ميدان القِتال.

إنّني في أُخرَيات عمري، ألا يستطيع الإنسان أنْ يشعرَ بدنّو أجله؟ بلى. إنّني أرى موتي أمامي في كلّ لحظةٍ، أحيانًا يسير إلى جانبي، أحيانًا يضع كَفّه في كَفّي وأستسلم أنا له فيقودني إلى حيثُ يريد، وأحيانًا يبتسم في وجهي ويُعانقني عِناقَ صديقٍ حميمٍ لم يرني منذُ فترةٍ طويلة، وكنتُ بدوري أُعانقه بلهفة، وأبتسم في وجهه كلّما ظَهَر لي، وأدعوه أنْ يأخذ بيديَ إلى الضّفّة الأخرى، لكنّه كان يخذلني في كلّ مرّة؛ كلّما سِرْنا إلى النّهر، النّهر الّذي يتدفّق منذ بدء الخليقة، ووقفنا على ضِفّة الفانية، نريد أنْ نعبر إلى ضِفّة الباقِية، كان يتركُ يدي في

تلك اللّحظة ويعبر وحده إلى الجهة المُقابلة، وهو يبتسم على عادته، ويقول لي: «ليس هذه المرّة يا عُمر... ربّما في مرّةٍ قادِمة!». متى ستأتي هذه المرّة القادمة يا سيّدي؟! إنّني أنتظرها منذ زمنٍ طويلٍ، إنّ شَقائي في هذا البيت قد طال، وفي هذه الدّنيا الفانية قد استطال، وإنّ وجودَ هذا الوحش المُسمّى (جورج) يجعلُ الموتَ راحةً لعجوزٍ مُتعَب مُنهَكٍ مكدودٍ مثلي، تنهشه الأسقام والأمراض، ويُبليه الهَرَم، ويذبحه الشّوق إلى لِقاء أهله في الآخرة، إلى لِقاء أبيه وأمّه، إلى لقاء (آمنة)، إلى لِقاء (أمارا) إنْ كانتْ قد عبرتْ إلى الضّفّة الأخرى، وإلى لقاء ابني الّذي كان مُنتَظَرًا أنْ يأتي قبل ما يقرب من سِتّين عامًا، هل بعد هذا الانتِظار الطّويل من لِقاء؟ هل بعد هذا التّعب الشّديد من راحة؟ هل بعد هذا الحزن المُمِضّ من فرحة، وهل بعد هذا الألم من أمل؟! إنّني أدعوكَ يا الله أنْ تُنقِذني، أنْ تأخذ بيدي، أنْ تجعل مَلَك الموت الرّفيق يأخذ بيدي هذه المرّة ويعبر بي إلى الضّفّة الثّانية، ولا يتركني بائِسًا وحيدًا عند الضّفّة الأولى! لقد تعبتُ من هذه الضّفّة، لقد أصبحتْ حياتي فيها خرابًا، ويبابًا، وحالتْ نُضرتها يباسًا، وأنا لا أنتظر إلاّ شيئًا واحِدًا يا ربّ؛ أنا لا أنتظر إلاّ رحمتك!

امتلأ الإنجيل بعباراتٍ أكثرها آياتٌ من القرآن، هل تستطيع أنْ تقرأها وتعرف ما تعني أيّها السّيّد النّبيل (جيم)، أنا أُشهِدُ الله أنّكَ لم تُجِعْني، وأنّك أطعمْتني مِمّا تأكل، وأسكنْتني في هذا الكوخ الصّغير الّذي أجدُ فيه كلّ راحةٍ، وأُشهِده أنّكَ كنتَ راقِيًا معي في الحِوار، وسمعتَ بأدبٍ كلّ نِقاشٍ أو فكرةٍ طرحتُها عليك،

ولكنّك مع كلّ ذلك لم تجعلني أتذوّق طعمَ الحرّيّة يومًا، لا أنا ولا واحِدًا من عائلتي هذه، وما نالُ بعضُهم حرّيّته المُزيّفة إلاّ بالدّخول في المسيحيّة، أهذا منطقٌ يا سيّدي؟! هل تركُ الإنسان لدينِه عندكم يساوي الحُرّيّة؟! أفلا تحاوَرْنا ووصلنا أنا وأنتَ إلى كلمةٍ سِواء، ألاّ نعبدَ إلاّ الله؛ الله الّذي خلقني وخلقكَ وأتى بي من تلك البِلادِ البعيدةِ ووضعني عبدًا بينَ يديك. ألا تفعل شيئًا آخرَ جميلاً؛ حرِّرْني فإنّني أشتهي أنْ أكونَ حُرّا ولو ليومٍ واحدٍ، أنا لا أنتظر (لنكولن) ليحرّرني كرئيسٍ لهذه البِلاد، ولا أنتظر محكمتها العُليا لتُصدِر قانونًا لتحرير العبيد، إنّهم يُماطِلون مثلما يُماطِلُ الغَرِيم بالدَّين غَرِيمَه، أنا أنتظر هذه المُبادرة الجميلة منك، إنّك غنيّ فوقَ الغِنى، وثريّ فوق الثّراء، وأموالُك كثيرةٌ، أفلا جعلتَ زكاةَ هذا المال أنْ تُعتِق هؤلاء العبيد، ثُمّ لتستخدِمْهم بأجرٍ في مزارعك ومصانعك، ماذا تبقّى لكَ ولي من الحياة كي نعيشَ أكثرَ مِمّا عِشْنا... أنا أدينُ لك بالفضل، وأُنادي يا أهل (كارولينا) الجنوبيّة، ويا أهل (كارولينا) الشّماليّة، ويا أهل (بلادن)، ويا أيّها البِيض؛ أليسَ فيكم رجلٌ مثل السّيّد (جيم) في كَرَمِه، وحُسنِ تعامله مع عبيده، لكنّ نِدائي هذا سيظلّ ناقِصًا ما لم تُكمِلْه أنتَ بتحريرنا؛ فهل تفعل؟!!

في مساء أحد الأيّام، شاهدتُ عندَ عودة العبيد من عملهم في المزارعِ رجلاً أبيضَ يركبُ عربةً، يقفُ أمام البيت، ويستقبله السّيّد (جورج)، ثُمّ هو يأخذه إلى أكواخِ العبيد بعد أنْ يؤوبوا إليها، ويدخل معه في تلك الأكواخ، ويمكثان فترةً، ثُمّ يخرجان، ويجلِسان

في ساحة البيت، يتناقَشان في أمورٍ كثيرةٍ، وهما يشربان الخمر، ويضحكان، ثُمّ يوقّعان أوراقًا، ويتصافَحان، ويذهب السّيّد الأبيض الغريب راكِبًا عربته في حال سبيله. توجّسْتُ من منظرهما، وتساءلت في نفسي: «ماذا ينوي السّيّد (جورج) أنْ يفعل، لقد استشرس، ولم يعدْ لأبيه عليه سُلطة، وإنّ ضعفَ أبيه وهرمه قد شَجّعاه على مزيدٍ من التّمادي».

في اللّيل، بعدَ سَهَرٍ مع الكتب والكِتابة، أويتُ إلى فِراشي، وكعادتي كان يحدوني أملٌ بأنّ كلّ شروقِ شمسٍ على هذه البسيطة يحملُ الخير، وأنّني سأسمع أنّني أصبحتُ حُرًّا ولو بعدَ هذه السّنين وبعدَ هذا العمر، إذ لا أدري مَنْ يُؤوي حُرًّا أسودَ عجوزًا يقتربُ عمره من قرنٍ كاملٍ!!

كنتُ قد غطستُ في النّوم، وكانت اللّيلة ماطرة، والبردُ شديدًا، وعلى كبيرٍ في السّنّ مثلي يكونُ البردُ أشدّ، ولكنّني كنتُ قد دفّأتُ نفسي. استيقظتُ من النّوم فجأة على أصواتِ أقدامٍ تعبر الممرّ الواصل إلى مُلحَقي، فخفتُ، لأنّني شعرتُ أنّها أقدامٌ آثِمة، شيءٌ ما قال لي أنْ أنهضَ وأُضيء المِصباح، أو أغادر المكان، نفّذتُ على الفور ما جالَ في خاطري، ولكنّني ما كدتُ أنهضُ وأقفُ على قدَمَي، وأستعدّ لإضاءة المِصباح القريب منّي، حتّى هوتْ قبضةٌ على بطني فأوقعتْني على الأرض أصرخُ من الألم، ثُمّ دار واحدٌ أو اثنان من خلفي في عتمة اللّيل، فعصَبَا عينيّ، وقيّدا يَدَيّ، ورَبَطا رِجلَيّ، وكَمّما فمي، ثُمّ هما حَمَلاني، وألقِيا بي خارج الكوخ في البرد والظّلام والمطر،

ولم أكنْ أقوى على الزّحف، ولا على الصّراخ، ولم أرَ شيئًا، وبقيت في البرد الشّديد أرتجف، وبلّل المطر كلّ شيءٍ فيّ، وشعرتُ بأنّني مِتّ بالفعل، وفي الصّباح عثرَ عليّ البُستانيّ الآخَر، ففكّ قيودي، وأزال الكِمامة عن فمي والعِصابةَ عن عينَيّ، واستعان بعبدٍ آخَر، وحملاني وهم يبكيان إلى كوخي. بقيتُ في الفِراشِ شهرًا، مريضًا لا أقوى على الحِراك، وزارتْني (أماندا) بعدَ أنْ سمحَ لها السّيّد (جيم)، وقامتْ على العناية بي طَوال ذلك الشّهر كما كانت تفعل أمّها العمّة (تيري)، حتّى تعافيت!

لم يُحدّثْني السّيّد (جيم) عن الأمر، ولم يكشفْ لي مَنْ فعلَ ذلك الفِعل الخسيس بعجوزٍ مثلي، وإنْ كُنّا أنا وهو نعرفُ ذلك. وشغَلَني وشَغَل نفسه بالحديث عن مساعي (النكولن) في تحرير العبيد، ظانًّا أنّه بذلك ينقل إليّ الأخبار السّارّة ليخفّف عنّي.

كثيرًا في لقاءاتنا الأخيرة ما كان يُحدّثني السّيّد (جيم) عن ابنته الّتي تعافتْ من مرضها الغريب ثُمّ ماتت، وكان يقول بأسًى: «في أوّل زواجي لم أُرزَق بطفل، بقينا أنا وزوجتي أكثر من خمس سنين حتّى رُزِقنا أخيرًا بابنتي الوحيدة، لكنّها عندما صارت في الرّابعة عشرة أصابَها هذا المرض الخطير، ولم أتركْ طبيبًا إلاّ عرضْتُها عليه، ولم تتحسّن إلاّ بعدَ أنْ جِئتَ كما كنتُ أتوقّع، ولكنّها عندما صارتْ صحيحة الجسم فائقة الجمال ماتت، لقد رحلتْ سريعًا قبل أنْ يكون لها عائلة، وقبل أنْ أفرح بأحفادي منها...» وراح السّيّد (جيم) يمسح دموعه، هدّأتُ من رَوعه: «كلّ شيءٍ سيرحل يا سيّدي، نحن

أنـا وأنـت، بعـدَ مئـة عـامٍ أصغـرُ ولـدٍ أو عبـدٍ في هـذه المزرعـة سيكون قـد رحـل، هـذه المزرعـة الّتـي تضـجّ الآن بالحيـاة، ربّـما بعـد سـنواتٍ ستُصبح خرابًا ينعق البـوم عـلى مـا تهـدّم مـن منازلهـا، أنـا أقـول لـك ذلـك لا مـن أجـل أنْ تتشـاءم مـن قـولي، أو تحـزن، أو تظـنّ أنّنـي أتطـيّر بـما سيؤول إليـه الأمـر، بـل لكـي تُـدرك أنّـه لا يبقَـى لـك منـك شيء، لا المـزارع ولا القصـور ولا العبيـد ولا النّقـود ولا الأسـقفُ المُذهّبـة ولا مـا لـذّ مـن أطايـب الدّنيـا وشَـهَواتها، سـيفنى كلّ مـا جمعتَـه، ولـن يبقـى إلاّ مـا جَمَعته في قلبِـك، مـن الإيـمان بـه واليقـين بلقائـه، ولهـذا أدعـوك إليـه». «أنـا مؤمـن بـه يـا عُمـر؛ هـل تشـكّ في ذلـك؟!». «عليـكَ أنْ تُوحّـده، وتُنزّهـه عـن الشّريـك، وتـأتي مـا أمـر، وتـترك مـا نهـى، وتكـون صالحًـا بـما يكفـي لتحـرّر عبيـدك، أو لتمنحهـم أجـرةً عـلى عملهـم لديـك، وأنْ يكـون لهـم حرّيـة الاختيـار، إنّـكَ لسـتَ الله، ولا سـادةُ أمريـكا أوليـاء الله، ولا هـم ظِلّـه في الأرض، بـل هـم بـشرٌ مِمّـن خَلَـق، ونحـن في عينِـه سَـواء». «لكنّنـي لا أسـتطيع». «أعـرف، لأنّ القوانـين الّتـي شـاركَ الشّـيطان في إيحائهـا إلى أوليائـه مـن البـشر تُكبّلـك، وتُكبّـل أمريـكا كلّهـا، إنّ دولـةً قامـتْ عـلى الظّلـم لـن تـدوم، إنّ دولـةً قامـتْ عـلى استِعباد البـشر هـي بِنـاءٌ هَـشّ، أساسُـه الطّـين، إذا جـاءَه المـاء انهـار، إنّ دولـةً تلعـبُ بمقـدّرات الشّـعوب ومصائرهـم وتُصنّـف النّـاس إلى بـشر أو حيوانـات بنـاءً عـلى اللّـون هـي دولـةٌ فاسِـدة وأمّـة موبـوءة ولـن يُعمَّـرا طويـلاً». «إنّنـا نحـاول، لا تكـنْ قاسِـيًا إلى هـذا الحـدّ يـا عمـر». «نحـاول؟ نحـن في الشّـهر الأخـير مـن عـام ١٨٦١م، لم يعـدْ مـن فـرقٍ لأقـول كلّ مـا أريـد بعـد هـذا العمـر، أنـا

تجاوزتُ التّسعين الآن يا سيّدي، وأنتَ تجاوزتَ الثّمانين، والدّولة إلى اليوم ما زالَ قانونها يقول بتشيئنا، بجعلنا أدوات جرباء، واعتِبارنا حيواناتٍ من مَرتبةٍ وضيعة... أرواحُنا لا تتبعُ ألوانَنا؛ ألواننا صورةٌ ما ترى، ولا تحدّها أجسادُنا؛ أجسادُنا هذه القشِرة الطّارئة، سوفَ ترحل، وستعود أرواحُنا إلى ملكوتها، فاحرصْ يا سيّدي على أنْ تعودَ روحُك وهي طاهرةٌ غيرَ محُمّلة بالأدران، ولا مُثقلة بالخطايا. ستبلى القِشرة، وستحرّر الرّوح، قريبًا سيكون ذلك، لي ولك ولكلّ أحدٍ، وحينَ تحدث تلك اللّحظة الفارقة، هل سترى أرواحُنا النّورَ أم أنّها ستغرق في الظّلام؟!».

(٦٧)

(لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ)

الحربُ قائمةٌ اليوم بين أهل هذه البِلاد، الشّماليّون يُحارِبون الجنوبيّين، إنّ هذه البِلاد لم تشبعْ من الدّماء، إنّ أسلحتها الأثيمة الّتي لا تشبع لم تشربْ من دمائِنا فحسب، إنّ نَهَمَها امتدّ إلى أنْ تشربَ من دماءِ سُكّانِها البِيْض، منذُ ثلاث سنواتٍ والحربُ لا تهدأ، وأصواتُ المدافع لا تكفّ عن الانفِجار، وأشلاء الضّحايا لا تكفّ عن التّساقُط. على مقربةٍ من هنا، من هذا القصر المُنيف الّذي يبدو نائِيًا عن أحداث الحرب يُمكنك أنْ تسمع ذاتَ مساء فرقةً من الجيش تهرب من أخرى، وفِرقةٌ أخرى تُلاحِقها، يسقط ضحايا في كلّ مكان، حتّى العبيد الّذين يذهبون إلى المزارع قد يكونُ حَظُّهم سيّئًا، فيتّفق مرورهم في بعض الأراضي وهم عائدون من أعمالهم ببعضِ التّشكيلات المُسلّحة، لحظةَ إطلاقِ نارٍ؛ والرّصاصةُ الطّائشة إذا انطلقتْ لا تُفرّق بين أسودَ وأبيض، إنّها أكثر مساواةً في الموت بيننا مِمّا يفعل البِيضُ في حقوقنا، الموتُ للجميع؛ هذا هو شِعار المرحلة.

يا رَبّاه؛ ما القدر الّذي أتى بِنا من بِلادِنا الوادعة، وحياتِنا الهادِئة لِنُجبَرَ على أنْ نشهد هذا الدّمار كُلّه والخرابَ أجْمَعَه؟!

تعاودني هذه الأيّام ذكريات اللّيالي الّتي كُنّا نقضيها أيّام المولد النّبويّ نحتفل بمقدم خاتم الرّسل، ننشد الأشعار، ونُحيي

اللّيلة في الذّكر، لقد كُنتُ أحفظُ قصيدةَ البوصيريّ عن ظَهر قلب، سأكتبُ اللّيلة في هذه المُذكّرات أبياتًا منها، كانوا يقولون إنّها نورٌ لأنّها كُتِبتْ في مدح النّور، وأنا أرجو بها أنْ تكون نور ما تبقّى لي من أيّام:

هو الحبيبُ الّذي تُرجَى شَفاعتُه

لِكُلِّ هولٍ من الأهوالِ مُقتَحَمِ

دَعا إلى الله فالمُستَمْسِكون بهِ

مُستَمْسِكونَ بحبلٍ غيرِ مُنفَصِمِ

فاقَ النّبيّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ

ولَمْ يُدانُوه في عِلْمٍ ولا كَرَمٍ

وطرِبْتُ لذلك العَودُ من الذِّكرى، ثُمّ إنّني صلّيتُ على أخيه عيسى الّذي بَشّر به قبلَ أنْ يجيء، وعرفتُ كيفَ حُبّ الخير يدعو صاحبه أنْ يفرح لِمَنْ يجيء بمثله، وتلك سلسلة الأنبياء ما فيها إلاّ هذا، يقبسون من مِشكاةٍ واحدةٍ، وواتاني أنْ أكتبَ ما كتبه (لُوقا) في إنجيله عن حبيبه وحبيبنا حينَ أوضحَ لنا الصّلاة: «مَتَى صَلَّيْتُمْ فَقُولُوا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا كُلَّ يَوْمٍ، وَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا لأَنَّنَا نَحْنُ أَيْضًا نَغْفِرُ لِكُلِّ مَنْ يُذْنِبُ إِلَيْنَا، وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ».

ربّما لن أكتبَ بعد هذا الكثير، فقد وهنَ العظمُ منّي، واختلطتْ عليّ الأمور، وما أرجو إلاّ أنْ ألقَى الله على التّوحيد، أو أنّ تتحوّل البقعة الّتي أموتُ فيها إلى مسجدٍ يرفعُ الأذانَ خمسَ مرّاتٍ في اليوم، كما تفعل المساجد في بلدي، وليسمعوا صوتَ الله فيه، إنّ أهلَ هذه البِلاد لم يعرفوا محمّدًا، ولو عَرَفوه، لاتّبعوه، واتّبعوا النّور الّذي أُنزِلَ إليه، وإنّني جاهدتُ - على مدى ستّين عامًا - أنْ أُحبّب إليهم مُحمّدًا، وأنْ أقول إنّه وعيسى أَخَوان، دَعَوا إلى إلهٍ واحدٍ لا شريكَ له، هو الله، وهو يتولّى أمرَنا وأمرَهم، وما عادَ لي من مطمعٍ ولم يكنْ لي سِواه - إلاّ أنْ أموتَ بِسلام.

في الثّلث الأوّل من عام ١٨٦٢م جاء السّيّد الأبيض الّذي استقبَلَهَ السّيّد (جورج)، كان ذلك في المساء، بعدَ أنْ أُدخِل العبيدُ إلى أكواخَهم، وبدأ بتنفيذ الاتّفاق الّذي وَقّعاه، كان الاتّفاق كما عرفتُ من (أماندا) الّتي هُرِعتْ إلى مُلحقي وهي تستنجد، يقضي ببيعِ نصف عائلتي بحيثُ تكون الأمّ في الصّفقة وابنُها الصّغير يبقى في الكوخ من دون أمّه، أو العكس، يُباع الصّغير وتبقَى أمّه في الكوخ من دون ابنِها، لقد بدا أنّ هذا الولد المُستهتِر قد فاقَ في قذارته كلّ حَدّ. هُرِعتُ أطرقُ الباب أسأل عن السّيّد (جيم) فعرفتُ أنّه عند أخيه، وليس في المزرعة، فأدركتُ أنّ (جورج) قد استغلّ فرصةَ غيابِ أبيه ليقوم بفعلته الدّنيئة هذه.

لقد رأيتُ وسمعتُ صَرَخات الأمّهات وهنّ يُسقْنَ إلى عَرَبة

البيع يتوسَّلْنَ إلى السّيّد (جورج): «بِعْ ابني معي». وهو يركلها، ويأمر المُراقب أنْ يحملها ويرميها في قَعر العربة، لقد بِيعتْ (أماندا) وبقي أبناؤُها، وبِيع أبناء (إيزابيل) وبقيت هي، وسِيْق (مورو) الصّغير الّذي كان يستعدّ لخِطبة إحدى الزّنجيّات الجميلات إلى مصيرٍ مجهول، وأُلقي في جوف العَرَبة الّتي لم تكنْ أكثر من زريبةٍ تُنقَل فيها الخنازير. واستغثتُ بالله أنْ يرأف بنا، وجثوتُ على رُكَبي أتضرّع إلى السّيّد (جورج) أنْ يُبقي على (مورو)، أو يبيع الأولاد مع أمّهاتهن، وأنا أقول له: «إنّني صديقُ أبيك». فيردّ: «أبي ليس له أصدقاء من الزّنوج القَذِرين». فأقول: «أتوسّل إليكَ بالأيّام الّتي حملتُكَ فيها بينَ ذراعَيّ أنْ ترحمهم». فيردّ: «لو كنتُ أعي أنّكَ أنتَ الّذي كنت تحملني، وأنّ هاتَين اليدين القَذِرتَين قد مَسّتا جسدي لبُلتُ عليهما». ولم ينفعْ معه شيءٌ، وسارتِ العربة وقد مضتْ بخمسةَ عشرَ عبدًا من العائلة، ولم يبقَ إلاّ ثلثها يبكي على الّذين مَضوا.

قبضَ السّيّد (جورج) ثمنَ العبيد الّذين باعهم حوالي عشرةَ آلاف دولارٍ، وهو مبلغٌ ضخم، وبدّده خلال أسبوعٍ في لعب القِمار، وفي المُراهنات، وفي السّهر في الحانات، وعادَ من غيبته وهو رثّ الهيئة، يلعن، ويشتم حَظّه، وانتظره أبوه حتّى نام، وأفاق في صباح اليوم التّالي، وخاطبه بكلّ أدب: «لو أنّكَ قُلتَ لي إنّكَ بحاجةٍ إلى المال لأعطيتُك». «لم أكنْ لأجعلكَ تتمنّنُ عَلَيّ». «فتقوم ببيع عبيدي؟!». «إنّهم عبيدي أيضًا وأنا حُرٌّ بهم». «أفلم يكنْ من الخير أنْ تستأذنني

على الأقلّ، أو تُشاوِرني في الأمر؟». «أنا لا أشاور في أمرٍ يخصّني». هنا غضبَ الأب، ووقفَ على قدمَيه، وصرخ: «إنّه لا يخصّك وحدك، إنّه يخصّني كذلك، وعليكَ أنْ تعرف حُدودَك». وهنا ثار الابن، ورفعَ الصّوتَ عاليًا: «بل أنتَ الّذي عليه أنْ يعرفَ حدودَه، ولقد ضِقتُ ذرعًا بك، أمِنْ أجل هذه القذارة الّتي تقف خلفكَ تريدُ أنْ تُعاتبني؟!» وأشارَ إليّ، ثُمّ تابع: «أنا من أجل أنْ أغيظَها، بِعتُ عائلتَه، وإذا لم تكفّا عن التّدخل في شؤوني، فسأبيعه هو اليوم قبلَ غدٍ». ثُمّ هزّ رأسَه بأسف: «مع أنّه لا يُساوي شيئًا، ولا أحدَ يُغامِر بشِراء عجوزٍ قد يموتُ في منتصف الطّريق». وبصقَ في وجهنا معًا، وكسّر في طريقه عددًا من مُنَمنَمات الزُّجاج، وزعق وهو يرحل: «نَظّفْ هذه الفوضى أيّها العَبْدُ اللّعين».

لم تكنْ مصيبتي في بيعِ عائلتي بأشدّ من مصيبة السّيّد (جيم) بأفعال ابنه الّتي تجاوزَ فيها كلّ حدّ.

التقيتُ السّيّد (جيم) بعد تلك العاصِفة بيومَين، كنتُ أريدُ أنْ أخفّف عنه، وأُواسيه قبل أنْ أُواسي نفسي بما فعل ابنُه، فوجدتني أقول له: «إنّ سادةَ هذه البِلاد، ورِجالَها ليطربون إلى الجرس المُعلّق في عنقِ العبد كلّما تحرّكَ أكثرَ مِمّا يطربون لجرس الكنيسة». نظَر إليّ نظرةً واهِنة، وسألني وهو يُطلقُ تنهيدةً طويلة: «هل هذه فلسفة؟». «إنّني أعني أنّ أهل هذه البِلاد الّذين يُسمّون أنفسهم مسيحيّين، هم أبعدُ ما يكون عن دين المسيح، أفكان دينُ المسيح يقبلُ للنّاس كلّ هذا الهوان والأذى، والمسيح نفسه يقول: أحبَّ لأخيكَ ما تُحبّه لنفسك.. إنّني

أراكم يا مسيحيّي أمريكا لا تُحبّون إلاّ أنفسكم، وإنّني رأيتُ بعضًا من القِسّيسين يضربون بالسّوط ظهورنا، ويُدمون أجسادَنا، ويسرقون قُوتَنا طَوال الأسبوع، ثُمّ إذا جاء صباح الأحد اعتلوا مذبح الكنيسة ووقفوا يَعِظون النّاس!! هل هذا ما كان يفعله المسيح، الّذي طلبَ أنْ نحبّ حتّى أعداءَنا، وأنْ نُبارِكَ حتّى لاعِنينا، وأنْ نُصلّي لأجلِ مَنْ أساء إلينا، أتريدون مِنّا نحن أنْ نُطبّق تعاليم المسيح في أفعالِنا، أمّا أنتم فتريدون أنْ تأكلوا خبزكم بتلك التّعاليم، وتركبوا من خِلالِها ظُهُورَنا؟! أفيكون يا سيّدي مسيحيُّو أمريكا اليوم هم فِرّيسيّي اليهود أمس، يأكلون بدين الرّبّ من أجل شَهَواتهم، ويقولون غير ما يفعلون، ويُبدون خِلافَ ما يُظهِرون، وقلوبهم تمتلِئ بالرّحمة إذا سقطَ كلبٌ في فَخّ، لكنّ قلوبهم لا تتحرّك حينَ يسقط عبدٌ في يد الموتِ من التّعذيب... كيفَ يُمكن لبشرٍ أسوياء أنْ يعيشوا شعورَين مُتناقِضَين في قلبٍ واحدٍ، هل يُمكن مَنْ يحزنُ لجوعِ كلبٍ ألاّ يحزنَ لجوعِ بشر؟ وهل يُمكن لمن يرأفُ بخنزيرٍ ألاّ يرأفَ بإنسانٍ؟ أمْ أنّكم إلى اليوم تعدّوننا خارجَ دائرة البشر والإنسانيّة...؟!». كنتُ أسترسِلُ في كلامي، وأنا أعرفُ أنّني أجرحُ السّيّد (جيم) بهذه الكلمات، وأُثقِل عليه، ولكنّني كنتُ أريدُ أنْ أقول كلّ ما في بالي، كنتُ أريدُ لهذا السّيّد العَطُوف أنْ يتنبّه إلى أنّه قد يقع في هذه المُغالَطات هو الآخَر دون أنْ يدري أو هو يدري، ولكنّه لا يملك أمام هذا النّظام المتوحّش إلاّ أنْ يُصبِحَ جزءًا منه. لقد كان يستمع إلى ما أقول، دون أنْ يردّ بكلمةٍ واحدةٍ، وكان طَوال حديثي يهزّ رأسَه، ويطلق زفرةً حارّة بين فترةٍ وأخرى!

(٦٨)

أُقاوِمُ بالكِتابة

تمنّيتُ بعدَ بيع العائلة أنْ يأتي وعدُ الله، أنْ تمور السّماء مورًا وأنْ تسير الجِبال سيرًا، أو ينسفها الله فيذرها قاعًا صفصفًا، أنْ تغور النّجوم وتنطفِئ، أنْ تغيب الشّمس فلا تُشرق من بعد، أنْ يجعل الله هذه البِلاد عالِيَها سافِلَها، وأنْ يُمطِرَ عليها حجارةً من سجّيل، وأنْ ينتهي هذا الكابوس الّذي استمرّ ستّين عامًا!

اعتكفتُ في مُلحَقي، واعتكفَ السّيّد (جيم) في غرفته، لم يعدْ يدعوني إليه، ولم يعدْ يجلسُ في مكتبه، ولم تعدْ له رغبةٌ في أنْ يُناقِشني في أيّ شيءٍ، لم أعدْ أراه إلاّ كلّ أسبوعٍ أو أسبوعَين مرّة، كان يُسلّم عليّ كأنّه لا يعرفني، سلامَ الغُرباء، ينظر في وجهي طويلاً كأنّه يريدُ أنْ يتذكّر مَنْ أنا، وكان يُخفِق دائمًا في التّعرّف إليّ، فيكتفي بابتِسامةٍ شاحِبة، ويمضي، يبدو أنّه أصابَه الخَرَف، وحزنتُ لِما آلتْ إليه حاله، أمّا ابنُه السّيّد (جورج) فلم تردعه حالُ أبيه عن غيّه، ولم يلتفتْ إليه فيرعاه، أو يقوم بحقّه، ولو كنتُ أملك الإذن بالدّخول إلى السّيّد (جيم) في غرفته للازَمْتُه لأقومَ برعايته، وأنا العجوز الّذي أكل منّي الدّهر وشرب!

مات السّيّد (جيم) في صيف عام ١٨٦٢م، رأيتُ كثيرًا من العبيد يبكونَ رحيله وأنا واحدٌ منهم، في وسط السّاحة الفسيحة أمام

البيت، كان تابوته الخشبيّ البُنّي اللامع مُسجّى في انتظار قدوم النّاس. كانوا يلبسون السّواد جميعًا، كان هناك الكاهن الأكبر، وأعضاء في الكونغرس الأمريكيّ، ولا أدري إنْ جاء الرّئيس نفسه، وكان العلم الأمريكي يرتفع على ساريةٍ عاليةٍ في تلك السّاحة، وكان هناك عددٌ من العسكريّين يلبسون جِزَمًا بيضاء، ويقفون في صَفٍّ منتظم، وآخرون يحملون أدواتٍ موسيقيّة في أيديهم، هل كان السّيّد (جيم) عسكريًّا في السّابق حتّى تحضر هذه الجوقة الموسيقيّة لوداعه؟! كانتْ هناك مقاعد يجلسُ عليها أقرباؤه، شقيقُه، حُكّام بعضِ الولايات، ونساء كثيراتٍ كُنّ يتّشحْنَ بالسّواد، ويلبسْنَ قُبّعاتٍ سوداءَ كذلك، وكانتْ هناك منصّة صغيرة، تنتظر صُعودَ الكاهن ليُلقِي عِظته الأخيرة على الميّت، وأمّا ابنه السّيّد (جورج) فكان يجلسُ لابِسًا بِزّة سوداء، وكان حسير الرّأس، وكان شعره الأشقر يلمع تحتَ أشّعة الشّمس، وكان يبدو مُضطربًا قَلِقًا، حتّى إنّني رأيتُ ساقَيه تهتزّان على العُشب. في تمام السّاعة الحاديةَ عشرةَ وقف الكاهن، صعد المنصّة الصّغيرة، ثُمّ ألقَى عِظته وكان يبدو عليه التّأثّر، وختَمها بقوله: «مَنْ آمنَ بي وإنْ ماتَ فَسَيَحيا». ونزل، ثُمّ أُنزل التّابوتُ في القبر، وأُهيلَ عليه التّراب، وصدحتْ موسيقى كنائسيّة جنائزيّة، وتبادلَ الحاضِرون التّعزية بوفاته، ثُمّ انفضّوا.

فقدتُ بموته آخر صديقٍ لي، وآخر ركنٍ أسندُ إليه ظهري، وحزنتُ عليه كأنّه أخي، وقفتُ في زاوية مُلحَقي، ورفعتُ يديّ في محراب صَلَواتي ودعوتُ الله أنْ يتولاّه برحمته، وأنْ يجزيه على إحسانه إليّ وإلى الآخرين.

في اللّيل لم أستطع النّوم، وحلّتْ صورته في قلبي فاستعصتْ عيوني على الغمض، وتقلّبتُ في الفِراش، ولا أدري إنْ كان هذا جزعًا لموته، أو خوفًا مِمّا سيأتي، أو خوفًا من الموت نفسه، مع أنّ الموتَ ظلّ رفيقي طَوال رحلتي، ورأيتُه أكثر من ألفِ مرّة، لكنّني هذه المرّة كنتُ خائِفًا، كان شكلُ النّهاية هو ما يُخيفني، كلّ هذه الأموال والثّروات والخدمُ والحشمُ انقطَع حبلُها به، في اللّحظة الّتي انقطَع فيها حبلُ حياته!

لم أعدْ أدري كيفَ سيتصرّف السّيّد (جورج) في أملاكِ أبيه، وكيفَ سيكون الحال عليه في هذا المُلحَق الّذي أسكنُ فيه أيّام كان والده حَيًّا؟ ولم يطل الجواب، فقد دخل عليّ في تلك اللّيلة، ومعه عددٌ من العبيد فشحطوني خارج المُلحَق، وأضرموا فيه النّار، وكان المُلحَق مليئًا بالكتب والمخطوطات، أُحرِق الإنجيل، وكتبي، ومذكّراتي، وكتبٌ أخرى في العقيدة، وفي مقارنة الأديان كنتُ قد كتبتُها، ومختاراتٌ من الأشعار الّتي أحفظها، ولم تمرّ عليّ داهيةٌ طوال تسعينَ عامًا أقسى من تلك الدّاهية وأنا أرى كتبي تحترق أمامي، وهجمتُ على النّار بجسدي أصرخ بما تبقّى فِيّ من قُوّة، أحاول أنْ أُطفِئ النّار، وأستنقذَ ما يُمكن إنقاذه، لكنّ حَرّها جعلني أتراجع. ورحل السّيّد جورج عن المكان سريعًا حتّى لا يختنق من دُخان الحريق، ورحتُ أستغيثُ بمن شحطوني أنْ يُساعدوني في إطفاء النّار، وأقنعتهم أنّ النّار إذا لم يُسارِعوا في إطفائِها فستحرقُ البيت الكبير وسيحرقهم السّيّد (جورج) إذا ما حدث ذلك، فاقتنعوا، وتعاونوا معي على إطفائها، وبعدَ أنِ انجلى الدُّخان، كان أكثر المخطوطات قد

احترقَ بالكامل، ولم أستطعْ أنْ أُنقِذَ إلاّ القليل، وكانتْ مُذكّراتي أكثر كتبي حَظًا إذْ أنقذتُ منها أربعين ورقةٍ من حوالي خمسمئة. ولم ينجُ إلاّ القرآن الّذي احتفظَ به السّيّد (جيم) في مكتبه!

لم يعدْ لي مكانٌ أبيتُ فيه، فاقترحتُ على السّيّد (جورج) أنْ يسمحَ لي أنْ أبيتَ في الكوخ مع ما تبقّى من العائلة، فرفض، وقال: «إنّكَ ستكون سببًا في إثارة المزيد من المشاكل، ثُمّ إنّني سأبيعهم، وسأقامر بثمنهم في أقربِ فرصة فلن ينفعكَ وجودهم». وأمرَ أنْ أُرمَى في كوخٍ صغيرٍ ظلّ مهجورًا لسنواتٍ طويلة، وهو أبعدُ هذه الأكواخ في المسافة عن البيت الكبير، وقال لهم: «ارموه هناك، إنّه مُزعِج، ولا أريدُ أنْ أرى في وجهي أيّ شيءٍ يُذكّرني بحماقات أبي». وبالفِعل رُميت في ذلك الكوخ البائس!

في أوّل ليلةٍ لي في هذا الكوخ، تذكّرتُ اللّيلة الّتي هجمَ فيها الجنود الفرنسيّون مع المرتزقة على بيتنا، وكيفَ أحرقوا المخطوطات في مكتبة أبي، وكيفَ كانت النّيران تلتهم كلّ ورقٍ تأتي عليه، ودارَ في خَلَدي أنّه لا فرقَ بين الاثنين، إنّهم يتشابهون، أعداء العِلم، الرّعاع الهَمَج، أغنياء الجيب فُقراء الأخلاق، أقوياء السّلاح ضِعاف العقول، لقد تماثلتْ صُور الحريقين في ذاكرتي وتطابَقتا؛ فهل يُعدّ هذا الصّنف من الأحياء بشرًا؟!

ليكنْ هذا أيّها السّيّد اللّئيم، إنّها دورة الحياة، وإنّها الحياة، وإنّ الله الّذي خَلقَها لن يغفر كما نحنُ لن نغفر، وأنا؟ أيّها السّيّد

الّذي يتباهَى بقوّته، لن تدوم لكَ هذه القوّة، وإنّني لن أنسى ما حدثَ أمام عينَيّ طَوال هذه التسعين عامًا كلّها، سأرويها من جديد، وسأكتبها من جديد، ولن تزيدني فعلتك الشّنعاء إلاّ إصرارًا وأنا في هذا العُمر أنْ أكتبَ كأنّني في أوّل السّطر، هل تظنّ أنّ ما أحرقتَه في ذلك اليوم يضيع، لا، أنتَ واهمٌ، سيأتي مَنْ يكتبُه، وسيأتي مَنْ يُخبِر الأجيال القادِمة بما حدث، إنّني على يقينٍ من أنّ الله الّذي يُراقِبُ كلّ هذا سيبعث ذلك القلم الّذي سيخطّ كلّ هذه المآسي، وسيقدّمها شاهِدةً على التّاريخ من أجل العِظة، ومِنْ أجل أنْ يرى النّاس، كيفَ كان بنو جنسِكَ مِمّن نزعوا عن أنفسهم كلّ صفةٍ إنسانيّة واستبدلوا بها كلّ صفةٍ حيوانيّة، كيفَ كانوا يتصرّفون!!

نعم؛ لن ننسى، إنّها خيانةٌ أن ننسى، سنعيدُ أنا أو سِواي كتابة كلّ هذه الصّفحات من تاريخ البشريّة ما استطعنا إلى ذلكَ سبيلاً؛ لن ننسى عشرات الآلاف بل مِئات الألوف من العبيد الّذين قُتِلوا بلا ذنب، لن ننسى أولئك الّذين أُغرِقوا في البحار، أو عُلِّقوا في المشانق بلا سبب، أو أولئك الّذين أُطلِقَ عليهم الرّصاص لمجرّد إبعاد الملل، أو لمجرّد أنْ يرى السّيّد الأبيضُ كيفَ تختلطُ حمرة الدّم مع زرقة الماء مع سوادِ البشرة! لن ننسى عشرات الرّؤوس الّتي قُطِعتْ وعُلّقت متدلّية من تحتِ الأشجار، ولن ننسى مئات الجماجم الّتي تُرِكتْ في العَراء تنهشُ من وجهها الطّيور، وتنقب من عيونها الغِربان.

أيّها السّادة البِيض، لن ننسى أولئك الّذين كانوا يتّخذون من أعناق العبيد مطايا يركبونهم ليعبروا بهم النّهر، خوفًا من أن

تتبلل ثيابهم، أو لمجرّد أنّهم يريدون التّسلية واللهو، فيجعلون من العبيد حيوانات تُركَب، ودَرَجات يُصعَد فوقها لامتِطاء الخيل، أو يجعلون العبيد يقفون في الشّمس ساعاتٍ طويلةً وهم يحملون رفوفًا من الخشب من أجل أنْ تصنع ظِلاًّ ينام فيه السّيّد الأبيض نهارَه، دون أنْ يكون للعبدِ حَقٌّ في أنْ يتحرّك أو يرتاح أو يشكو، حتّى يشبع سيّده من النّوم، ويصحو براحته، فإذا استيقظَ ولم يجدْ ظِلاًّ كان مصير العبد السّوط أو الرّصاص أو الشّنق...

يدايَ واهِنتان، أصابعي راجِفة، إنّني أحاول أنْ أكتبَ دون أنْ تهتزّ يدي، فتبدو السّطور كأنّما كتبها طِفلٌ في بدايات تعلّمه. لكنّني أقاوم بالكِتابة، وسأبقى أقاوم ما دامَتْ فِيّ قدرةٌ تسمح لهذه الرّيشة أنْ تنغمس في الحبر، وتخطّ فوقَ البَياض ما تودّ أنْ تقول.

إنّني أُصلّي من أجلِ أنْ تأتي تلك السّاعة!!

(٦٩)

سَلِمتْ لي الصَورة

كانتْ عيناي قد غامتا، حَزِينتَين كعينَي نبيٍّ أهانَه قومُه، ورَمَوه بالحِجارة، ومنعوا عنه كأسَ ماء أو رشفةً منه، وشَفَتاي قد تهدَّلتا، وانفتحتِ الشّفة السُّفلى فهبطتْ، وظلّتْ كذلك، كأنّها تنتظر أنْ تقول شيئًا لكنّها لا تجدُ ما تقول، أو هي لكثرة ما تريدُ أنْ تقول تعجز أنْ تفعل، وجبهتي قد تغضّنتْ حتّى صرتَ تقرأ في الغُضُونِ سُطور الزّمن، وما خَطّه هناك في هذه المسيرة الطّويلة، الطّويلة جِدًّا... وجفناي رَقّا حتّى كأنّ ماء العُمر قد جفّ منهما فيَبِسا، وحاجباي قد سَقَطا على عينَيّ، كأنّهما لا يريدان لتلك العينين أنْ تريا ولا أنْ تُشاهِدا ما ظلّ لي من عمر، كانت عيناي دائِمتَي الذّهول كأنّهما تبحثانِ عن مصيرٍ يأتي سريعًا ولكنّه لا يأتي!!

تجيءُ (إيزابيل) أحيانًا هنا إلى كوخي النّائي من أجل أنْ تعتني بي، ولكنّها لا تجدني! أعني لا تجد عَمّها الّذي ظلّ قويًّا وشُجاعًا حتّى أحرقَ السّيّد (جورج) كُتُبه، إنّها ترى شبحًا، أو طيفًا هائِمًا ينزوي في رُكنٍ قصيّ، ترى عجوزًا لم تعدْ له رغبةٌ في شيء، تبكي، وأبكي معها بصمتٍ، نتذكّر قبل ثلاثين عامًا أوّل ما وُلِدَتْ هنا، أقول لها: «أنتِ جميلة، وأمّ رائعة، وصالحة، وسيعوّضك الله عن أبنائك الّذين بيعوا»، تنتحر من البُكاء حينَ تسمعُ ذلك، تنهمرُ دموعي على خدّي سَحًا،

أقول لها: «لا أريدُ أنْ أبكي، لقد بكيتُ طَوال تسعين عامًا بما يكفي»، تقول» «إنّني لا أستطيع، لم تجفّ دموعي منذ ذلك اليوم»، أقول لها: «لا تأتي مرّة أخرى إلى هنا»، تردّ: «إنّكَ بحاجةٍ إلى أحدٍ ليرعاك»، أردّ: «أنا بخير»، تقول: «كلاّ. لن أتركك». أردّ: «اتركيني، أريدُ أنْ أموتَ وحدي دون أنْ يدري بي أحدٌ». تبكي من جديد، أُشيح بوجهي بعيدًا، ألتقطُ أنفاسي من خلال شَهَقاتي، وأقول: «أريدُ أنْ أطلبَ منكِ شيئًا واحِدًا». ترفع رأسَها نحوي، تمسح دموعها الحارّة، وتُصغي باهتِمام: «إذا مِتّ فليغسّلْني أحدُ الرّجال، هل (ويليام) بيع أمْ تبقّى؟». تردّ: «تبقّى»، «فليغسّلْني هو، وليُصلّ عليّ صلاة المسلمين، هو يعرفُ ذلك، صحيح؟». «صحيح، يعرف». «وليدْفن معي ما تبقّى من بعضِ مخطوطاتي، أعني هذا المخطوط، الّذي كتبتُ فيه أجزاء من القرآن، ليكنْ تحتَ رأسي، أقابِلُ به الله يومَ العَرض عليه». تمسح دموعها، تنظر إليّ بطرف عينِها، تريدُ أنْ تقول شيئًا، لكنّها تبقى صامتة، وتهزّ رأسَها بالموافقة.

مرّ شهران، ولم تأتِ (إيزابيل) الّتي اعتادتْ أنْ تمرّ بي كلّ يومَين أوثلاثة، أنْ تكون وحيدًا وعاجِزًا أمرٌ مُخيف، أنْ تموتَ وأنتَ حيّ أمرٌ مُفزِعٌ كذلك، صرتُ أتشوّف أنْ أرى أحدًا من العائلة، ماذا حدثَ (لإيزابيل)؟ إذا كان يمنعها شيءٌ من القدوم، فلماذا لا يأتي (ويليام) أو أحدٌ من السّبعة أو الثّمانية الّذين نَجَوا من البيع؟ مرّ شهرٌ ثالثٌ، ورابع؛ هل لهذا الغياب تفسيرٌ آخَر؟! لا بدّ أنّ السّيّد (جورج) قد باعَهم جميعًا!

تتنابُني هواجسُ كثيرةٌ في اللّيالي، كيفَ يُمكن لوحيدٍ أنْ يقضي ليلاً طويلاً دون أنيس؟ أستعينُ بالذّكريات لأعبر هذه اللّيالي، لم أعد أسمعُ إلاّ أصواتَ العبيد من بعيدٍ وهم قادمون في المساءات من أعمالهم في المزارع، إنّهم صورةُ الحياة في امتدادها كذلك، لقد كنتُ يومًا ما مثلهم، ولا بُدّ أنّ عجوزًا كان في تلك الأيّام مثلي، يسمع هذه الأصوات الّتي أسمعها الآن، ويشهقُ وحيدًا.

حينَ يتمطّى الليّل لا أعودُ أسمع إلاّ أصواتَ الكلاب البعيدة تنبح على زائرٍ غريبٍ أو طارقٍ عابر، أو أسمع صوتَ الغربان تبكي على أخٍ ماتٍ ثُمّ بحثتِ التّراب لكي تدفنه..!!

عاودَتْني الأحلام في المنام، لم أكنْ أريدُ أنْ أرى إلاّ حُلُمًا واحِدًا، يُخبرني الله فيه ما حدث لزوجتي (أمارا)، لقد رأيتُها في تلك اللّيلة تركبُ القارب وتعبر به النّهر إلى الضّفّة الأخرى وتنجو من القَتَلة، لقد كانتْ نجاتُها كنجاة أمّ موسى بموسى، كان لا بُدّ من العبور من أجل تلك النّجاة. هذه المرّة رأيتُها في المنام كأنّني أراها في الحقيقة، كانتْ كأبهى ما تكون، وكان ابني (سيّد بن عمر) إلى جانبها، قد كبر، وصارَ إمامًا لأهل (فوتا تور) كما كنتُ أؤمّل، وكما كان يُؤمّل جدّه (سيّد بن عمر)، وقد لَبِسَ عمامة العُلماء، وثياب الفُقهاء، وصارتْ له مدرسةٌ كمدرسة (توبا) أربتْ عليها وزادتْ، يعلّم النّاس فيها، ويُبصّرهم أمور دُنياهم من أجل صلاح آخرتهم، لقد كان هذا حُلُمي وأنا أرى بطن زوجتي يكبر، وهو حلمي وأنا أموت، وإنّ هذه الرّؤيا لَصادقة، هذا ما يقوله قلبي، وإنّني الآن يُمكن أنْ أموتَ وأنا مُرتاح.

هل كانتْ هناك فرصةٌ فيما مرّ من عُمُري من أجل أنْ أشتري نفسي فأكون حُرًّا؟! إنّ سَعيي إلى الحرّيّة قد ملأ عليّ كِياني كُلّه، ولم أتخلّ عنه يومًا، حاولتُ أنْ أُحققه بالهرب، حاولتُ أنْ أعمل من أجل أنْ أملك المال لكي أُعتِقَ نفسي، تأمّلتُ في حركات الثّورة على العبوديّة السّلميّة وغير السّلميّة في هذه البلاد أن تُسفر عن شيء، لكنّها لم تفعل، قلتُ إنّ رئيس أمريكا الجديد (لنكولن) رُبّما يريدُ ذلك، وسيفعلها؛ سيُعلن على رؤوس الأشهاد وأمام المجتمع الأمريكي، بل أمام أعضاء الكونغرس تحرير العبيد... لكنّه لم يفعل! إنّه الحُلُم الأكبر الّذي أموت ولم أحقّقْه، إنّني عشتُ ستّين عامًا كامِلةً بكلّ تفاصيلها في العبوديّة بأقسى أشكالِها وصُورِها، ولم أكنْ حُرًّا يومًا واحِدًا، بل لم أكنْ كذلك ولو لساعة... فواحسرتاااه!!

لقد عُرِضَ عليّ عشرات المرّات أنْ أتركَ ديني وأتحوّل إلى المسيحيّة من أجل أنْ أُصبِحَ حُرًّا، ولا أدري كيفَ يُفكّر مَنْ عَرَضُوا عليّ هذا الأمر؟ هل تخلّي الإنسان عن دينه يمنحه الحُرّيّة؟ إنّني أرى الحرّيّة كلّ الحرّيّة في تمسّكي بديني، بدين الإسلام الّذي هو دين الحرّيّة، الدّين الّذي لا ينظر فيه الله إلى أشكالِنا وألواننا وصُورنا، ولكنْ ينظر إلى أعمالِنا وقُلوبنا... وإنّني أُشهِده وأنا من الموت على بُعدِ خُطوةٍ واحدةٍ فحسب، أنّه لم يكنْ في قلبي غير الله، وأنّني أموتُ مُسلِمًا على عقيدة التّوحيد، مهما تأوّل مَن يُريد التّأويل، وأنّ آخر ما سأكتبه في هذه الإعادة لمذكّراتي هي قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا

اتّقوا الله حَقّ تُقاتِه ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مُسلِمون». وقد استطعتُ أنْ أموتَ مُسلِمًا، وهذا يكفيني من الدُّنيا وحُطامِها.

سَلِمتْ لي الصّورة الّتي صنعتُ لها إطار الخشب، أتاني بها من الكوخ أحدُ العبيد لمّا عرف أنّني أموتُ هنا، وأخبرني أنّ السّيّد (جورج) قد باعَ مَنْ تبقّى من العائلة، باعَهم دُفعةً واحدةً، وبقي الكوخ من بعدهم فارِغًا.

كانت الصّورة تُذكّرني بالأيّام الجميلة الّتي قضيتُها مع هذه العائلة كأنّها عائلتي، لا يبقى مع الإنسان في أُخريات حياته إلاّ عائلته، لا يثبتُ معه في سِباق الحياة المحموم الطّويل غير ألصقِ النّاس بِه، إنّهم - مع تاريخنا الأليم في العبوديّة - نُقطة الضّوء في نهاية النّفق، لا أدري مَنْ ظلّ منهم حَيًّا، ومَنْ رحل، لم أعد حتّى أتذكّر أسماءَهم، كأنّما كانوا طيفًا حائِلاً، تراءى لي ذات عُمرٍ جميل ثُمّ اختفى إلى غير أوبة!!

أيّتها العائلة الجميلة، أيّها السُّود في كل بقاع أمريكا، إخوتي الأجِل، مَنْ تبقّى منكم على قيد الحياة، اذهبوا في أرضِ الله، وكونوا على أمل أنّ الله لن يُضيّع أجركم، ولا جهودكم، وأنّ الحرّيّة الّتي مَنَحها لكم ستظلّ لكم، ولن يستطيع أحدٌ بعدَ اليوم أنْ ينتزعها مهما كانتْ سُلطته، فما أعطى الله لا يمنعه أحدٌ، وما منع الله لا يُعطيه أحدٌ!

(٧٠)

سلامٌ على..

أنا وحيد بِقَدْر ما أنا حزين، لقد كان الحُزنُ في عَينَيّ واضِحًا لكنّ أحدًا لم يره. وكان ينطقُ بألفِ لغةٍ لكنّ أحدًا لم يسمعْه. لقد أيقنتُ في النّهاية أنّ الحُزن الّذي لا يدفعكَ إلى أنْ تثور ليس حُزنًا حقيقيًّا؛ إنّه استِسلام مُهين. الحُزن النّبيل يدفعكَ إلى أنْ تُغيّر وتتغيّر، أنْ تقلبَ الطّاولة، أنْ تفعل شيئًا يُحرّك هذه المياه السّاكنة الآسِنة، الحُزن الخامد وجهٌ من وجوه العَجز، وصورةُ انعِكاس اللاإحساس في مرآة النّفس.

لقد عشتُ حياتي راضِيًا في هذه البِلاد الّتي جرّتْني من بيتي، واسْتَرَقّتني دون أنْ تقول لي ولو مرّة واحدة: لماذا؟ أو أنْ تعتذر ولو بنِصفِ كلمة! عشتُها بالحُبّ والصّفح؛ لم أكره حتّى أولئك السّادة الذين رفعوا السّوطَ في وجهي، ولا أولئكَ الّذين جَلَدوني ولا زالتْ آثار سِياطهم تحفر أخاديد في ظهري لم يستطع الزّمن رغم طُوله أنْ يمحوها... لكنّني محوتُها اليوم من ذاكرتي... محوتُها من قلبي، لقد كان عليّ أنْ أُحبّهم جميعًا؛ مَنْ آذَوني ومَنْ أحسنوا إليّ، مَنْ قَسَوا عليّ ومَنْ كانوا رُحماء، مَنْ طردوني ومَنْ آوَوْني... كان على قلبي أنْ يُطهّر نفسَه من خَبَثِ الحقد والغضب لكي يكون قادِرًا على أنْ يُبرعم وأنْ

يعشق وأنْ يُغنّي، وأنْ يقطع ما تبقّى له من دروبٍ مجهولة في هذه الحياة الغامضة العصيّة على التّفسير!

أيّها الموتُ فلْتأتِ الآن، إنّني أفتحُ لكَ ذِراعَيّ، وأهيّئ لك روحي من أجل عِناقك، يا خيرَ غائبٍ يُنتَظر، لقد طال شوقي إلى لِقائك... أيّها الموتُ الواقف بالباب ينتظر منّي أنْ آذنَ له بالدّخول؛ إنّني لم أُغلِقْ بابي يومًا واحِدًا من أجل أنْ تدخلَ متى شِئت، فَلِمَ هذا الاستِئذان؟!

نحن لا مقابر لنا وبالتّالي لا وجود لنا، نحن لا يعرفنا إلاّ الله، أولئك الضّحايا الّذين ماتوا من إخوتي لم يكونوا يحلمون بأكثر من أن يُغَيَّبوا في ثرى أوطانهم، لكنّهم ماتوا هنا غرباء، وضَمّهم ترابٌ غريبٌ، وأُلقُوا في المُستنقَعات، ورُموا في الغابات، وبُعثِروا عرايا في الطّرقات، وقُذِفوا في الطّامِيات. إنّهم لا قبور لهم، ولا شَواهد، ولا فاتحة تُتلَى على أرواحهم، ولذلك لم يكنْ هناكَ من فرقٍ بين حياتهم وموتهم، بين ما إذا كانوا وجودًا أو عدمًا... إنّهم سَحابٌ مُسافِر، ونجومٌ مُنطفِئة، وهواءٌ ساخنٌ يرتفع إلى أعلى كلّما أمعنَ اللّيلُ في الظّلام والبرودة، ما ضرّهم إنْ لم يكنْ معهم أحدٌ أنْ يكون الله معهم، وإذا جَهِلَهم العالَمَ كلّه فإنّ ربّ العالَم يعرفهم.

وها أنذا أموت في هذا الكوخ البارد المُظلِم وحيدًا، أموتُ على فِراشي كما يموتُ البعير، أموتُ عبدًا حُرِمَ من أنْ يشمّ شذى حرّيّة ظلّ يحلم بها طَوال حياته... فسلامٌ على روح أبي الطاهرة...

سلامٌ على أُمّي في عِلّيّين.. سلامٌ على زوجتي وابني في الأكرمين... سلامٌ على وطني الذي أشرقتْ روحُه في الغرب الإفريقيّ بنور الله... سلام على (فوتا تور) الّتي كانتْ مسقطَ الرّأس وموئل الحُلُم الموؤود... سلام على (توبا) التي علّمَتْني أنّ كُلّ شيءٍ زائل، وأنّ كُلّ حَيٍّ إلى موت، وأنّ الدُّنيا ليست دارًا تستحقّ التّنافس والتّنافر والتّفاخر... سلام على روح أجدادي من الذين أضاؤوا بنور الإسلام ربوع بلادي بعد أن عاشت في الظّلام طويلاً... وأخيرًا سلامٌ عليّ يومَ يتلقّى مَلكُ الموتِ روحي فيقول: «يا أَيَّتُها النّفسُ المُطمئنّة ارْجِعي إلى رَبّكِ راضيةً مَرضيّةً فادْخُلي في عِبادي وادْخُلي جَنّتي»...

انتهتْ



قصّة المخطوطات الثّلاث

المخطوطة الأولى: مخطوطة (عمر بن سيّد)

أما وقد وضعت الرّواية أثقالَها، وقالتْ ما يُمكن أنْ تقوله، فإنّني أجدُ لِزامًا عليّ، أنْ أقصّ عليكم حكايتها وحكاية أُختَيها، منذ أنْ كانتْ بذرة إلى أن استوتْ على سُوقِها وآتتْ أُكُلَها بحمد الله.

في عام ١٩٩٧م كنتُ قد أنهيتُ دراسة الهندسة من جامعة العلوم والتّكنولوجيا في إربد شمال الأردنّ؛ عملتُ في الهندسة في مجال الإنشاءات عامَين، وسمعتُ من صديق لي أن جنوب أفريقيا تمنح فرصًا ثمينة للعمل، كان قد سبقني إلى هناك قبل عام وعمل في مزارع للنَّعام.

في ربيع عام ١٩٩٩م كنتُ قد عزمتُ الأمر على الذهاب إلى جنوب أفريقيا للعمل في مجال الهندسة، قبل سفري بثلاثة أيام اتصل بي صديقي ليخبرني بأن العمل تأجل شهرين وأنّه سيبدأ صيف هذا العام بعد أن كان مقررًا في الربيع، تحيّرت ماذا أفعل، خاصة وأنني كنتُ قد قدّمتُ استقالتي إلى مدير الشركة الهندسية التي أعمل فيها؛ فقررتُ أنْ أحوّل تذكرتي إلى دول غرب أفريقيا، أزور فيها موريتانيا ومالي وغينيا والسنغال، وخاصة أن حبّي لمعرفة العالَم من خلال

السفر كان قد بدأ يتنامَى في أعماقي... احترتُ بأي بلاد غرب أفريقيا أبدأ؛ كنتُ أفكّر بموريتانيا؛ لكن لسبب ما بدأت بالسنغال، حطّت بي الرحال في عاصمتها (دَكّار)، وكانتْ رحلةً تُشبه الحُلم إلى حدّ كبير!

ولأنّني أُنبّش عن الكتب والمكتبات في كلّ بلدٍ أزوره، سرعان ما تعرفتُ على موقع يبيع المخطوطات، كان بيع المخطوطات يومئذٍ لا يُعدّ عملاً خطيرًا يستوجبُ الحذر، ولا هو سرقةٌ لكنوز الدّولة، ولا نهبًا لمُقدّراتها!

أقمتُ في المكان شهرَين كاملين ونسيتُ نفسي، ثم عن ببالي أن أعيش هنا، فعدلتُ عن فكرة الذهاب للعمل في جنوب أفريقيا، واستقرّ بي الرأي على أن أشتري أكبر قدر مُمكن من المخطوطات، فأنا كنتُ ولا أزال مريضًا بالكتب.

لم أكنْ قد تزوّجتُ حتّى تلك السّاعة، وكنت قد ادخرتُ بعض المال خلال السنتين الفائتتين من عملي في الهندسة، فاوضتُ صاحب الدار، ولم تشترِ كلُّ أموال الهندسة التي ادّخرتُها غير ثلاث مخطوطات، كانت إحدى المخطوطات تختلف في الحجم عن أختيَها، كانتْ أكبرهنّ، في حجم الورق، وفي عدد الصّفحات، كان الغلاف الجلديّ ذو اللّون البُنّي المحروق قد بدأ يتآكل، وكان هناك شرخ في منتصف الغلاف دخلتْ منه الحشرات والعثّ، وكان يُنذر بالقضاء على الأوراق داخله إذا لم أُسارع إلى إصلاحه والعناية به، كان الغلاف السّفلي له زائدة تُطوى لتلفّ على الغلاف العلوي، وكانتْ مُتآكلة

هـي الأخـرى وقـد تمزّقـتْ حوافّهـا، وكادتْ تنفصـل وتتمـزّق. أمّـا الأوراق في الدّاخـل، فقـد تترّبـتْ حوافّهـا، وأصـاب العفـنُ أطرافَهـا، وصـار اللّـون الأخـضر بسـبب ذلـك العفـن رفيـقَ اللّـون الأسـود المكتـوب بـه المخطـوط، عـددتُ الأسـطر في كلّ صفحـة، فوجدتُهـا تقـترب مـن ٣٠ سطرًا، وكانـتْ كلّ صفحةٍ مكتوبًا في زاويتها اليُسرى الكلمة الّتي ستبدأ بها الصّفحة التّالية، وكان هـذا أسلوبهم في ترتيب الصّفحـات، حتّـى لا تبغـي صفحـة عـلى أُختِهـا، عندمـا نفخـتُ عـلى المخطـوط تطايـر فُتات الأوراق المتآكل مـع الغبار مـع العثّ في وجهـي وعـلى ملابسـي، قـدّرتُ أنّ عـدد الصّفحـات يقـترب مـن ٣٠٠ صفحـة. قـال لي الرّجـل الّـذي اشـتريتُ منـه المخطوطـات، وهـو يُشـير إلى هـذه المخطوطـة وقـد لاحـظ اهتمامـي بهـا: «إنّ واحـدًا مـن أحفـاد كاتبهـا مـا زال عـلى قيـد الحيـاة»، سـألتُه: إنْ كان بإمـكاني أنْ أراه، فـردّ: بالطّبـع، هـو الّـذي باعنـي هـذه المخطوطـة بالأصـل. أخـذتُ عنوانـه، كان رجـلاً هرمًـا ربّـما نيّـف عـلى التّسـعين، يعيـشُ في بيـتٍ أثـريّ قديـم، جـزءٌ منـه متهـدّم عـلى ضفّـة نهـر يتفـرّع مـن نهـر السّـنغال. حيـنَ قلـتُ لـه: إنّنـي أريـدُ أنْ أعـرفَ عـن جـدّك صاحـب المخطـوط بكـى. أخـذني مـن يـدي دون أنْ يقـول كلمـة واحـدةً، اتّـكأ عـلى كتفـي وعـلى عصـاه، ومشـى إلى غرفـةٍ، فتـح بابَهـا، كان فيهـا مكتـبٌ صغـيرٌ يعلـوه الغبـار، ولم يكـنْ في الغرفـة سـواه، قـال لي: «هـذه غرفتـه، هنـا كان ينـام، ويقـرأ...». وخرجْنـا مـن الغرفـة إلى البسـطة، وقـال: «هنـا كان يجلـس ويتأمّـل». كانـت البسـطة قـد تهدّمـتْ عليهـا حجـارة مـن بعـض الأسـقف، ويبـدو أنّهـم جمعوهـا

في زاوية البسطة وكوّموها هناك، ومن الأعشاب الّتي نبتتْ من بين فراغات هذه الحجارة عرفتُ أنّه قد مرّ على هذا الهدْم زمنٌ طويل. تجوّلتُ في البيت في جزئه الشّماليّ القريب من السّاحة، كان هادِئًا تمامًا، بعضُ أصواتِ الصّبية تأتي باهتة من خلف البيت من جهته الجنوبيّة. سرتُ في السّاحة الفسيحة، تطلّب الأمر أنْ أُطرقَ برأسي، وأُصغي بقلبي لأسمع بعضَ الأصوات الغريبة المُتداخلة، نفضتُ رأسي فسكتتِ الأصوات، تطلّعتُ من حولي، شعرتُ بأنّني أهذي، ربّما السّبب آثار الحُمّى الّتي أصابتْني قبل أيّام. زممتُ شفتَيّ ومضيتُ، كان الصّوت قد اختفى كأنّما ذابَ في الهواء، أو تناثر على الأرض قِطعًا صغيرةً واختبأ بين ذرّات التّراب. مشيتُ باتّجاه النّهر، كان النّهر لا يزال يجري، وصوتُه صار أكثر وضوحًا كلّما اقتربْنا جهته، وحينَ صرتُ على ضِفّته تمامًا سمعتُ تلك الأصوات الغريبة تختلط مع صوتِ النّهر، لكنّني قدّرتُ أنّني أهذي من جديد، ونفضتُ رأسي ثانية فتساقط الصّوت كِسفًا.

على الغداء الّذي صنعتْه لنا واحدةٌ من حَفَدة هذا الحفيد التّسعينيّ، قال لي: حدّثني أبي عن جدّته، أنّها بعد أنْ ألحّ ابنُها في السؤال عن أبيه، وهل هو حي أم ميت؟ باحتْ له بالسرّ وهي تجود بآخر أنفاسِها: «أُخِذ أبوك في ذلك اليوم رقيقًا. ولا تُتعب نفسَك بالسّؤال أبعدَ من ذلك، فأنا بيني وبين الموت خطوة، وبيني وبين الله مسافة كلمة. ولا أريدُ أنْ أنبش هذه الذّكرى الأليمة، كلّ ما أرجوه أنْ أرتاح بالموت من هذه الحياة. ولا تبخل عليّ ببعض الدّعاء».

حدث ذلك - كما حدّثني أبي - في عام ١٨٧٠ وهي عجوز في التسعين من عمرها، أمّا ابنُها السّتّينيّ فلم ير أبأسَ في حياته من ذلك اليوم، موتُ أمّه ومعرفته بأنّ أباه لم يمتْ شهيدًا في معركةٍ مع المستعمرين كما كان يُشاع، بل أُخِذَ مع الرّقيق والعبيد. كان لجدّي حفيدان، الأكبر لم يهتمّ بالموضوع وانشغل بنفسه وبعمله، والأصغر الّذي هو أبي المولود عام ١٨٧٥م، أوصاه جدّي قبل أنْ يموت هو الآخر بأنْ يذهب إلى أمريكا من أجل أن يبحث عن سر جدّه، سافرَ أبي بملء رغبته عام ١٩٣٠م إلى أمريكا، بالبحث، والسّؤال وصل إلى شخصٍ يُدعى (جون بيرد) قال إنّ جدّه كان رفيقًا للأمير عمر (مورو)، وكشف له أنّ جدّه كتبَ عددًا من المخطوطات ابتداء من عام١٨٣١ وصلتْ إلى سبع مخطوطات، اثنتين منها في التّاريخ، واثنتَين في التّفسير والعقيدة، واثنتَين في مذكّراته وحياته الشّخصيّة، وواحدة في مقارنة الأديان. بالإضافة إلى رقوقٍ كتبَ فيها سورًا من القرآن الكريم. ولّما طلبَ أبي أنْ يشتري منه هذه المخطوطات، رفضَ رفضًا قاطِعًا، لكنّه خيّره إكرامًا لجدّه العظيم، ولِتَعَبِه في القدوم من وراء البِحار أنْ يهبه واحدةً فقط من السّبع، وخيّره بينها. فاختار أبي إحدى المخطوطتَين اللّتَين تتحدّثان عن حياته، وكانتْ أكبرهما إذ كان عدد رقوقها يزيد عن مئتَي رَقّ، في حين كانت الثّانية لا يتجاوز عدد رقوقها ثلاثين رَقًّا.

عادَ أبي إلى السّنغال، واهتمّ بالمخطوط، وعندما بدأ بقراءته ذُهِل، كان المخطوط صورةً حيّة لما عاشه جدّه قبل أنْ يأخذوه رقيقًا،

وصورةً عمّا عاناه طَوال سنواته في العبوديّة، وكان مكتوبًا باللغة العربيّة، وبخطّ أنيق ومسطورٍ في سطورٍ مرتّبة لا ترى فيها عِوجًا.

لم نكنْ أغنياء مع أنّ جدّ أبي كان كذلك، وُلِدتُ أنا هنا عام ١٩٠٦م. ما ورثناه عن جدّنا هو هذا البيت الّذي تهدّمتْ أجزاء كبيرة منه في الحرب وهجمات البرابرة، وما زالتْ أجزاؤه المُهدّمة على حالها، لم نكن نملك المال لإصلاحه.

احتفظ أبي بالمخطوط ثلاثين عامًا، وفي عام ١٩٦٠م مع بدء وجود دُور النّشر، دفعَ بالكنز الّذي بين يدَيه إلى إحدى هذه الدّور على أمل أن يُنشر، لكن أحدًا لم يقبل نشره، وكانوا يقولون له: «لم يكنْ جدّك هو الوحيد في هذا الأمر، إن مئات الآلاف بل الملايين من البشر من غرب أفريقيا أُخِذوا عبيدًا إلى أمريكا، وإنّ أجدادنا مِن هؤلاء، ولكنْ لم يعدْ أحدٌ يهتمّ». ماتَ أبي بحسرته في عام ١٩٦٣م، وصار المخطوط بين يدَي. لم أكنْ أفهم بالمخطوطات ولا بالكتب، ولا حتّى بالقراءة، ولم نعدْ نتكلّم العربيّة إلاّ قليلاً. دَفَعني العِوز إلى أنْ أبيعه إلى رجلٍ يشتري المخطوطات بأثمانٍ جيّدةٍ بالنّسبة لنا، كانتْ تقينا شظفَ العيشِ شهرَين أو ثلاثة، وسمعتُ أنّه يبيعها إلى أجانب يشترونها بأثمانٍ مرتفعة، وها أنتَ ترى، لقد صار المخطوط بين يدَيك. إنْ كانتْ لي ولعائلتي ولأبي ولجدّي ولأبيه من أمنيةٍ أخيرة فهي أنْ يُنشَر هذا المخطوط، ولو بعدَ حين».

عدتُ فرحًا بكنوزي الثّلاثة إلى الأردنّ، ونسيت صاحبي في جنوب أفريقيا، مع مرور الزمن بدتْ أيام المخطوطات الثّلاث التي

عَدَدْتُها كنزًا تختفي، ركنتُها في زاوية مُعتِمة من مكتبتي الضّخمة، توالتْ عليها كتبٌ ومخطوطاتٌ أخرى، وأُهمِلتْ كما لو كانتْ دفينًا على بقايا دفينٍ كما قال المعرّي.

تفرّغتُ لدراسة العربية والتدريس لكي أتزوّج وأُنجب كبقيّة النّاس، وأعيش حياتي بشكل طبيعيّ، وصارت أيام السّنغال من الماضي؛ الماضي البعيد جدًّا.

في عام ٢٠١٧م زرتُ معرض الجزائر للكتاب، أثناء تطوافي بين أروقة دور النّشر، كان هناك رجلٌ سنغاليّ يعرض مجموعة من المخطوطات في مكتبات زُجاجيّة، ورأيتُه في نهاية اليوم يفتح الزّجاج، ويتناولها برفقٍ، ويضعها في حقائب جلديّة كأنّها ثروة قوميّة. قفزتْ أيّام السّنغال إلى ذاكرتي، رأيتُ في الرّجل شبهًا من ذلك الّذي التقيتُه في (داكار) عام ١٩٩٩م. لكنّ الأمر في اليوم الثّاني نُسِيَ تمامًا، وعدتُ أتجوّل بين الأروقة، ولأنّني لم أرَ الرّجل ثانيةً ولا مخطوطاته، دفنتُ تلك اللّحظات الغريبة والمُقتَطعة في مقبرة النّسيان.

في إحدى ليالي كانون الثّاني من عام ٢٠١٨م القارسة، كانت ليلةً شديدة المطر، نمتُ بعد أنْ عكفتُ في مكتبتي عشر ساعاتٍ على الكتب، جاءني في المنام ثلاثةُ رِجال، كان الأوّل هَرِمًا يتكئ على عَصا لا يكادُ يقوى على الوقوف، والثّاني يلبسُ جُبّةً ويحمل دورقًا يرفعه أمام ناظِرَيه وينظر إلى السّائل فيه، والثّالث يلبس درعًا ويُشهِر سيفًا وقد سقطتْ خوذته عن رأسِه فتناثر شَعره. ورأيتُ نفسي ألتقيهم خارج

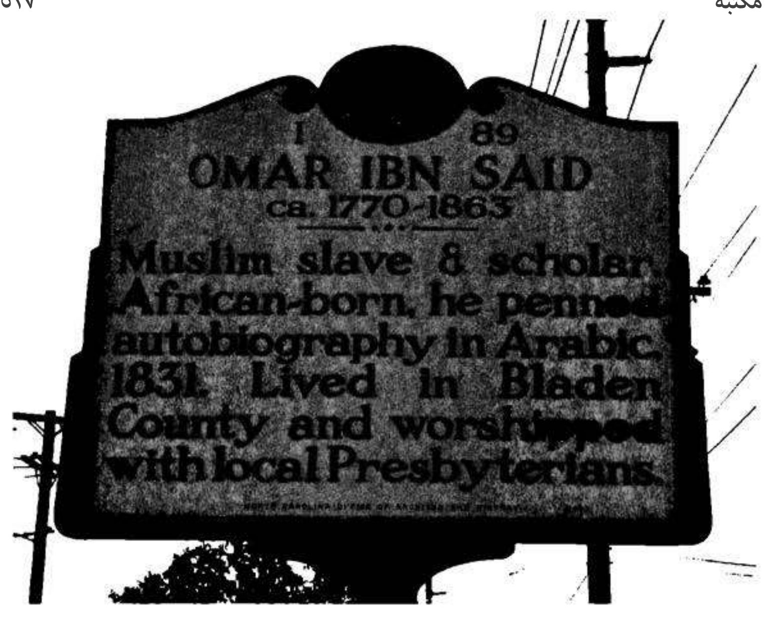
البيت في المطر؛ قال كلّ واحدٍ منهم بالصّوتِ نفسِه: «أنا جائع؛ هل لديك طعام؟ وشَريدٌ؛ هل لديك مأوى؟». فاجأتني هيئتُهم، كانوا يرتعشون من البرد والجوع كما يبدو، لم أدرِ ما أقول؛ لكنّ صاحبَ العَصا، خَلَى عَصاه ومدّ يده وصافحني، وصاحب الدورق أنزله من أمام عينَيه، ومدّ يده وصافحني هو الآخَر، وصاحب السّيف أعادَ سيفَه إلى غِمده ومدّ يده وصافحني كذلك!! شعرتُ بأرواحهم تسري في روحي؛ قالوا لي: «نحن نعيش في بيتك منذُ عشرين عامًا ولم تسأل عنّا!!». فازداد استغرابي؛ ثم هتفوا: «هناك في تلك الزاوية المُعتمة؛ قال الأوّل أنا عمر بن سيّد، وقال الثّاني وأنا عبد اللطيف البغدادي، وقال الثّالث وأنا أحمد بن الحُسين»، فسألتُهم وقد استبدّ بي العجب: «ماذا تقصدون؟! هل أنتم أشباح؟!». فهتفوا: «أنتَ تدري». فازداد عجبي، كانت الأسماء الثّلاثة قد أعادتْ إلى ذاكرتي عشرين عامًا كنتُ قد تناسيتُها، وتذكرت؛ قفزتِ الذكرى إلى لساني فحلّتْ حُبسته، وبصوت مُرتجِف سألتُ الأوّل: «هل أنت...؟!» وتوقفتُ عن إكمال السؤال عندما رأيتُ رأسه يهتزّ وهو يكمل: «أنا هو...». وانتقلتُ إلى الثّاني والثّالث، وسألتُ كلّ واحدٍ منهما: «هل أنتَ...؟». وهزّا رأسَيهما، وقال كلّ واحدٍ منهما: «نعم... أنا هو... وما الغريبُ في الأمر...؟». وهتفتُ: «أيّها السّادة... اعذروني...» وهممتُ أن أحضنهم جميعًا، لكنهم قالوا بصوتٍ واحدٍ: «لا عليك، كُلّ ما نريده منك ألاّ تتركنا وحيدين، لقد أخبرتْك آثارُنا بحكاياتنا، قُصّ على الناس تلك الحِكايات، فإن أبناءَنا وحَفَدَتَهم وأبناءَهم من بعدهم

لم يُعطِهم الله ما أعطاك... والآن: هل تفعل؟». ولم أَرُدّ إلا بإطراقةٍ خفيفة من رأسي، واستيقظتُ فزعًا... وهُرِعت إلى تلك الزاوية المُعتمة فاستخرجتُ مخطوطاتهم، وعملتُ عليها سنتَين، سافرت من أجل حروفها إلى بلاد بعيدة، وقرأت كتبًا كثيرة، وكان طيوفُهم تأتيني لتقول لي: «اكتب هنا هذا، وعدّل هذا، وصوّبْ هذا، وزدْ في وصف هذا، واتّق الله في هذا...». عشتُ معهم سنتَين بكل ما فيهما من لذةٍ وتعب، ومشقة وجَمال، لأقدم لكم اليوم هذه الحكايات؛ حكاية عمر بن سَيّد، وحكاية عبد اللّطيف البغدادي، وحكاية أحمد بن الحُسين.

أيمن العتوم

عمّان

٢٠-٤-٢٠٢٠م



- وُلِد عمر بن سيّد في (فوتا تور) من مدن السّنغال الآن عام ١٧٧٠م، وتوفّي في (بلادن) من مدن (كارولينا الشّماليّة) عام ١٨٦٣م وعمره ثلاثةٌ وتسعون عامًا، ودفن في مقبرة عائلة (أوين) في المدينة نفسِها.

- بُني له جامع باسمه من قبل الأفارقة الأمريكيين عام ١٩٩٦م في زمن الرّئيس الأمريكيّ (بيل كلينتون) تكريمًا لذكراه. وأُقيم متحفٌ يضمّ مُقتنياته الشّخصيّة.

- في عام ٢٠٠٢م أُقيم تمثال الحرّية في جزيرة (غوريه) تخليدًا لملايين العبيد الّذين احتُجِزوا في هذه الجزيرة تمهيدًا لنقلهم إلى أمريكا والمُستعمَرات الأخرى.

صور من مخطوطة عمر بن سيّد كتَبَها بيده

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا
محمد تبرك الذي بيده الملك وهو على كل
شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم
ايكم احسن عملا وهو العزيز الغفور
الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق
الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من
فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك
البصر خاسئا وهو حسير ولقد زينا
السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما
للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير
وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس
المصير. اذا القوا فيها سمعوا شهيقا وهي

وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما القي
فيها فوج سالهم خزنتها الم ياتكم نذير قالوا
بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله
من شيء ان انتم الا في ضلال كبير وقالوا
لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير
فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير
ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر
كبير واسروا قولكم او اجهروا به انه عليم
بذات الصدور الا يعلم من خلق وهو اللطيف
الخبير هو الذي جعل لكم ذلولا فامشوا في منا
كبها وكلوا من رزقه واليه النشور ءامنتم
من في السماء ان يخسف بكم الارض فاذا هي
تمور

ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين

قل انما العلم عند الله وانما انا نذير مبين

فلما راوه زلفة سيت وجوه الذين كفروا وقيل

هذا الذي كنتم به تدعون قل ارايتم ان اصبح

ماؤكم غورا فمن ياتيكم قل ارايتم ان اهلكني

الله ومن معي او رحمنا فمن يجير الكفرين من

عذاب اليم قل انما العلم عند الله قل ار

ايتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن ياتيكم بما

معين ه ه

يمشي في البحر الكبير شهر ونصف شهر جا في المكان
يسمى ذا الشتن في كلام نصراني باعوا اشتري
رجل صغير ضعيف سو يسمى جنسن كافر
جدا لا خاف الله شيئ . انا رجل صغير لا يستطيع
عن يعمل عملا شديدا يفرت من يد جنسن
الى شهر ا يمشي الى مكان يسمى فيدل
رعى بيوت في شهر ا دخل في البيوت حتى يصلي
رعى صبيه يركب الخيل صبيه جا في المكان ابوه
يتكلم ابوه انه راعى رجل سودانى في البيوت الكبير
رجل يسمى هنتن رجل اخر واحد منهم يركب
الخيل مع الاكلب كثير اخذني يمشي معهم
اثنا عشر ميال في مكان يسمى فيدل
الى بيوت كبير انا لا يستطيع ان يخرج الباب في بيوت
الكبير يسمى جيل في كلام نصراني ستة عشر
يوم وليلة

(6)

ى اليوم الجمعة جاء الى الكبير افتح الباب البيوت
رعى رجال كثير كلهم نصرانى نلاء تم عبيرا سحك
عصر عبير دبيد ١٧ انه لا يسمع كلام النصى انى رعى
رجل يسمى جاب مجعدلى يتكمش اخرج البيوت
الكبير افى زضعت كثيرا يمشى معهم الى مكانهم
اثبت. فى المكان مدة ٤ اربع ايال ونهار رجل يسمى
نايم عويس جوزيتة مجعدلى بنفسه مجد 8
سالتنى زضعت يمشى فى المكان يسمى بليدن
نعم زضعت يمشى معهم اثبت فى المكان
نديم عويس الى الان ——— ٥

قبل ان جاء غ. فى اليد دخل عوين اشترى رجلا
يسمى مندل جاء فى مدا صلتة ايمشي الى مكان ذا الشس
انه لا لا لا لا لا لا ان يمشى فى المكان
ما الشنس اذ اثبت
فى اليد نايم عويس

يا الشيخ حسنته انى لا يستطيع
ان يعتبه الحياة انى ناسى
كثيرا الكلام مع كلامي
الكرب يا اخوتى لا تلوموني
الحمد لله حمدا كثيرا
يوجه من النعيم ما تزايد
من الخير

اعطى زكات كل سنة ونذهب وفضة وزرع
وبقر وضعن والعنز والارز وقمح وشعير
كاهن اعطى زكات يمشي الى الجهاد كل سنة
الى الكفار يمشي الى المكة ومدينة اسمه يسمى
ابوك جد ستة ولد مع خمس بنت وام ثلاث
ولد وبنت واحد اخ يوم تركت في بلد ام شفتي
سبع وثلاثين سنة مقام في البلد النصراني
اربع وعشرين سنة

وسنة واحد الف مع ثمانين مائة
واحد مع ثلاثين سنة

يسوع المسيح

يا اهل نور الله يا اهل سوق الجليل
يا اهل فرش كاهن الاول الولد يمي عوين يسمى
ذا مشى مع اخوت البنت يسمى طالت جدين

الفهرس

كُلّ هذه الأغلال الّتي رُكِّبت على ظهري، وكُلّ هذه الأصفاد الّتي أُحكِمتْ حول قدَمَيّ لم تَخدِشْ طهارةَ الحُلم لديّ؛ أنا أحلمُ بالحرّيّة... أنا حُرّ. لا أرى في الوجود شيئًا يستحقّ العيش من أجله أجلّ من الحُرّيّة، تبدو حقيقةً ناصِعة وسط باطلٍ لا ينتهي، لطخةٌ من بياضٍ في سَوادٍ لا نِهائيّ!

الرّواية هي الجزء الأوّل من ثلاثيّة تروي حكايا ثلاثة شخصيّات من عصورٍ مختلفة.



ISBN 978-9-921714-43-2
9 789921 714432